تهذيب

إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء

الأول والثاني

عبد السلام محمد هارون

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة

تهذيب

إحياء علوم الدين

عبد السلام هارون

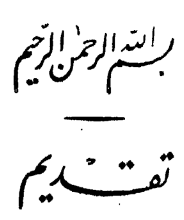
تهذيب إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

٤٥٠ — ٥٠٥

الجزء الأول

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
١٠ شارع كامل صدقي بالفجالة - القاهرة - ت ٩٠٨٤٥٥



تقديم

كتاب إحياء علوم الدين :

وهذا كتاب آخر من خوالد التراث العربى ، مضى على تأليفه نحو تسعة قرون ، ولا يزال مع هذا الزمان الطويل وتقادمه ، لامعاً أكثر ما يكون اللمعان ، حيًّا أجمل ما تكون الحياة . وهو مع إخلاق الدهر وعلوّ المشيب فوديه ، لا تخاله يزداد إلا قوة وشباباً . فلا يزال هذا الكتاب يتدارسه الناس فى العالم العربى جماعات وأفراداً ، وأنا أعلم أن فى حى واحد من أحياء مصر القاهرة ، فى أيامنا هذه ، جماعتين من فضلاء القوم يقضون معظم لياليهم فى مدارسة هذا الكتاب والغوص فى أسراره . وقديماً كان القوم يحتفلون فى اليوم الذى ينتهون فيه من قراءة إحياء علوم الدين بضيافة عامة ، أو وليمة جامعة .

ولعل السر فى خلود هذا الكتاب ، هذه النزعة الصوفية التى يلجأ إليها المرء إذا اشتدت قواه فخشىَ أن يطغيها الأشر والبطر ، أو صارت إلى حال من الضعف فالتمست ما يأخذ بيدها فى حيرة الضلال ، وما يسمو بها لينعشها من وهدة الخبال .

ولعل السر فى خلوده أيضاً ذاك الحديث المسهب المستفيض فى قواعد

الأخلاق وقوانين المعاملة ، فلا تكاد تبحث عن مشكلة من مشاكل الخُلق ، أو قضية من قضايا المعاملة ، إلا ألفيته قد عالجها ، أو تناول طرفاً من أطرافها .

وقد يكون من كنه ذاك الخلود هذه البراعةُ الفائقة التي يلمسها دارس الكتاب أو يبصرها رأى العين . فالمنهج الذى سار عليه الغزالى فى تقسيم الكتاب وتبويبه ، منهج عبقرى .

فالكتاب أربعة أرباع : ربع العبادات ، وربع العادات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات . وكل ربع منها مشتمل على عشرة كتب . وكل أولئك يتناوله الغزالى بأسلوب المعلم الحاذق ، الذى لا يدع فى صدر تلميذه شبهة إلا كشف الغطاء عنها ، ولا مجهلا من المجاهل إلا أرشده إلى وجه العلم فيه ، مع توشيع كلامه بآيات الكتاب العزيز وحديث الرسول ، وأخبار الصحابة والتابعين ، وأقوال الحكماء والأدباء والشعراء ، بله ما ورد فى الكتب الدينية القديمة من أقوال الرسل والأنبياء .

وفوق ذلك هو من كتب الدين الجامعة . وقد جرى على مذهبه : مذهب الشافعية ، وقد يخوض أحياناً فى مسائل بين أصحاب مذاهب الفقه . ولكنه يمس هذا الجانب فى رفق ناء عن التعصب الذى ذمّه كثيراً ، ودعا إلى الخلاص من سيطرته وشره .

والمشتغلون بالتعليم يعدُّون كتاب الإحياء من أقدم مراجع فن التعليم وتأريخه ، ففيه يبسط الغزالى قواعد التعليم ويتناولها بالنقد ، ويصور الحياة التعليمية بله الحياة الاجتماعية والدينية التى كانت سائدة فى القرنين الخامس والسادس ، كما يطلعنا على كثير من صور الحضارة والمدنية وألوانها ، فى تلك العهود الغابرة .

وقد بالغ العلماء قديماً فى الإعجاب بهذا الكتاب ، حتى قال الإمام

النووى : « كاد الإحياء أن يكون قرآنا » .

وقال الشيخ أبو محمد الكازرونى : « لو محيت جميع العلوم لاستخرجت من الإحياء » .

وقال على بن أبى بكر السقاف : « لو قلب أوراق الإحياء كافر لأسلم ؛ ففيه سر خفى يجذب القلوب شبه المغناطيس[1] » .

ويقول صاحب كشف الظنون : « وهو من أجل كتب المواعظ وأعظمها حتى قيل فيه : إنه لو ذهبت كتب الإسلام وبقى الإحياء لأغنى عما ذهب » .

أبو حامد الغزالى :

ولد أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالى فى قرية غزالة من أعمال طوس[2] سنة ٤٥٠ ، وكان والده يغزل الصوف ويبيعه ، ويجد فى ذلك كفايته وكفاية من يأنس به من الفقهاء والمعوزين . ولما حضرته الوفاة أوصى به وبأخيه أحمد[3] إلى صديق له متصوف من أهل الخير ، عله يصل إلى إلى ما رجاه له من أن يكون فقيهاً واعظاً . فلما مات أقبل الصوفى على تعليمهما

---

(١) تعريف الأحياء بفضائل الإحياء ، لعبد القادر بن العيدروس ، الملحق بإحياء علوم الدين ٥ ؟ ١٠ — ١٢ .

(٢) ذكر هذه ابن خلكان . وقال : « وهكذا قاله السمعانى فى كتاب الأنساب » . قلت : لم أجد هذا النص فى النسخة المنشورة من أنساب السمعانى . وهى نسخة مبتورة كما هو معروف . وقال ابن خلكان فى ترجمة شقيق الغزالى ، واسمه أحمد بن محمد « الغزالى » بفتح الغين المعجمة وتشديد الزاء المعجمة وبعد الألف لام ، هذه النسبة إلى الغزال على عادة أهل خوارزم وجرجان ، فإنهم ينسبون إلى القصار القصارى ، وإلى العطار عطارى . ابن خلكان ١ : ٢٨ — ٢٩ » .

(٣) قال ابن خلكان فى ترجمته : كان واعظاً مليح الوعظ حسن المنظر ، صاحب كرامات وإشارات ، وكان من الفقهاء غير أنه مال إلى الوعظ فغلب عليه ، ودرس بالمدرسة النظامية نيابة عن أخيه أبى حامد لما ترك التدريس زهادة فيه .

إلى أن فنى هذا المال القليل الذى خلفه أبوهما ، فقام أبو حامد بأمر نفسه ، وتنقل فى طلب العلم ما بين طوس إلى جرجان ونيسابور ، حيث لازم بها إمام الحرمين الجوينى[1] ، وصار من أخص تلاميذه .

ولما مات إمام الحرمين خرج من نيسابور إلى العسكر ، ولقى الوزير « نظام الملك[2] » وزير ألب أرسلان ، وابنه ملكشاه ، من ملوك السلاجقة فى محلة قريبة من نيسابور ، فعرف له نظام الملك مكانته ، وأنزله خير منزل ، وجرى بينه وبين العلماء بحضرة الوزير مجادلات ومناظرات فى عدة مجالس استوجبت إعجاب نظام الملك ، ففوض إليه التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد ، فقدمها سنة ٤٨٤ وظل بها مدة كانت تشد فيها إليه الرحال ، وكان يحضر درسه من كبار العلماء نحو ثلاثمائة .

ثم ترك الدنيا وزينتها ، وفارق بغداد بعد جهاد نفسى طويل ، وخرج سنة ٤٨٨ سائحا متصوفاً ، وبدأ بالحج ثم دخل الشام وأقام بها عشرين سنة زاهداً متنقلا من مشهد إلى آخر ، ومن مدينة إلى أخرى. وفى عزلته فى بلاد الشام فى تلك الحال من الزهد ، ألف « كتاب الإحياء » . ثم انتقل إلى بيت المقدس ، ثم قصد مصر وأقام بالإسكندرية مدة[3] ، ثم عاد منها إلى

---

(١) هو أبو المعالى عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجوينى ، أعلم متأخرى الشافعية . ولد فى جوين من نواحى نيسابور سنة ٤١٩ وبنى له نظام الملك المدرسة النظامية بنيسابور . وبها توفى سنة ٤٧٨ . وفيات الأعيان .

(٢) هو أبو على الحسن بن على ، نظام الملك الطوسى ، كان أبوه دهقاناً ، ولد بنوقان سنة ٤٠٨ وخدم السلاجقة ، وقتل فى قرية تسمى سحنة سنة ٤٨٥ . وفيات الأعيان .

(٣) قال ابن خلكان : يقال إنه قصد الركوب منها فى البحر إلى بلاد المغرب على عزم الاجتماع بالأمير يوسف بن تاشفين صاحب مراكش ، فبينا هو كذلك بلغه نعى يوسف بن تاشفين ، فصرف عزمه عن تلك الناحية .

بغداد ثم خراسان ، ودرس بالمدرسة النظامية بنيسابور مدة أخرى يسيرة ، ثم رجع إلى طوس ، واتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء ، وخانقاه للصوفية، وقسم وقته بين العبادة والتدريس ومجُالسة المتصوفة ، إلى أن وافاه أجله سنة ٥٠٥ فى مدينة الطابران قصبة طوس، بعد أن ملأ الدنيا علماً وفضلا وخيراً .

وكان عصره كما رأيت هو عصر السلاجقة الذين قاموا بنصر أهل السنة على الشيعة ، واتخذوا لذلك وسائل منها تشييد المدارس لتأييد مذهبهم . وهو كذلك العصر الذى نشط فيه الباطنية ، فسعى الإمام إلى الرد عليهم . وكثر فيه المتصوفة المزيفون ، فقام بمناهضتهم وتفنيد أقوالهم . كما ازدحم هذا العصر بأصحاب المذاهب الفلسفية المختلفة ، فكان من دأب الغزالى أن يشنّ عليهم إغارات موفقة .

تلك الهجمات التى كانت تتناول جهات مختلفة ، كانت وسيلته فيها المناظرة والمجادلة ، والتأليف والتصنيف ، فنجد من كتبه :

تهافت الفلاسفة . مقاصد الفلاسفة . عقيدة أهل السنة . فضائح الباطنية . فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة . تنزيه القرآن عن المطاعن . التبر المسبوك فى نصيحة الملوك ، ألفه بالفارسية . مكاشفة القلوب . المنقذ من الضلال . ميزان العمل . إلجام العوام عن علم الكلام .

ومن كتبه فى علم الفقه : الوسيط . البسيط . الوجيز . الخلاصة . هذا إلى كثير من الكتب النافعة التى أربت على سبعين مصنفاً .

ومما ينسب إليه من الشعر :

هبنى صبوتُ كما ترون بزعمكم	وحَظِيتُ منه بلثم خد أزهرِ
إنى اعتزلت فلا تلوموا إنــــه	أضحى يقابلنى بوجهٍ أشعرى

وقوله :

حلت عقارب صدغه فى خده　　قمراً فجلّ بهـا عن التشبيه
ولقد عهدناه يحل ببرجهـا　　فمن العجائب كيف حلت فيه[1]

تهذيب إحياء علوم الدين :

لقد أوضحت فى مقدمتى لتهذيب سيرة ابن هشام هذا الدافع الذى حملنى على تناول التراث العربى بالتهذيب . وقلت : « إن التهذيب ضرب من التيسير لمن لم تتح له قراءة الأصل ، ووصلة صالحة تصل بين شباب اليوم وتراثهم القديم الكريم » .

وقد ظفرت هذه الفكرة باستقبال كريم عند القراء فى مصر والبلاد العربية والإسلامية ، كما عنيت بعض الجهات الرسمية بتأييدها والدعوة إليها .

وكان فى النية أن يكون الكتاب الثانى فى هذه المجموعة هو « تهذيب الحيوان للجاحظ » ، ولكن شاءت بعض الظروف أن يظهر تهذيب الحيوان فى مجموعة أخرى من مجموعات الأدب والنقد التى تصدرها « مكتبة نهضة مصر » وأن يحل محله « تهذيب الإحياء » .

وأود أن أقول : إنى لست الأول فى تهذيب الإحياء واختصاره ، فقد سبقنى إلى ذلك جمع من الفضلاء .

---

(١) انظر لترجمة الغزالى طبقات الشافعية ٤ : ١٠١ وابن خلكان ١ . ٤٦٣ ومفتاح السعادة ١ : ١٩١ وطبقات الأسدى ٣٣ وروضات الجنات ٤ . ١٨٠ والمنقذ من الضلال للغزالى وفيه يذكر حاله بنفسه . وتعريف الأحياء بفضائل الإحياء ، ملحق بإحدى طبعات الإحياء بمطبعة الاستقامة . وانظر كذلك الأخلاق عند الغزالى للدكتور زكى مبارك ، وفلسفة الأخلاق فى الإسلام للدكتور محمد يوسف موسى

قال صاحب كشف الظنون :

وللإحياء مختصرات أحسنها وأجودها مختصر الشيخ شمس الدين محمد ابن على العجلونى المتوفى سنة ٨١٣ شيخ خانقاه سعيد السعداء بمصر . ومختصر أخيه الشيخ أحمد بن محمد الغزالى المتوفى ٥٢٠ سماه لباب الإحياء[١] . ومختصر محمد بن سعيد اليمنى . ومختصر الشيخ أبى زكريا يحيى بن أبى الخير اليمنى . ومختصر أبى العباس أحمد بن موسى الموصلى المتوفى بسنة ٦٢٢ . وله مختصر آخر أصغر حجماً من الأول . ومختصر الشيخ جلال الدين عبد الرحمن ابن أبى بكر السيوطى المتوفى سنة ٩١١ . ومختصر الشيخ محمد بن على بن جعفر الشهير بالبلالى ، وهو فى نحو عشر حجمه .

ولم يبق من هذه المختصرات شىء يذكر فيما أعلم ، ولست أدرى مايكون موضع كتابى هذا بين هذه الكتب السابقة الذكر .

بيد أنى جريت فى هذا التهذيب على المنهج السابق الذى سلكته فى « السيرة » و « الحيوان » ، وهو أن أستخلص لباب الكتاب استخلاصاً وأن أحرص على نصه حرصاً كاملا ، بحيث يستطيع الباحث أن يقتبس منه وأن يحيل عليه .

وفى أصل الإحياء أحاديث موضوعة نبه عليها العلماء الذين علقوا على تلك الأحاديث[٢] ، فتجنبت أن يكون فى التهذيب شىء منها ، ولم أثبت إلا الصحيح منها والحسن .

---

(١) ذكر ابن خلكان أنه فى مجلد واحد .

(٢) منهم الحافظ زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقى المتوفى سنة ٨٠٦ . وقد صنف فى سنة ٧٦٠ كتابه المسمى « المغنى عن حمل الأسفار فى الأسفار ، فى تخريج ما فى الإحياء من الأخبار » وقد طبع هذا الكتاب فى حواشى طبعات الإحياء المتأخرة . واستدرك تلميذه الحافظ ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ على ما فاته فى مجلد . كما صنف الحافظ قاسم بن قطلوبغا الحنفى المصرى المتوفى سنة ٨٧٩ كتاباً سماه « تحفة الأحياء ، فيما فات من تخاريج أحاديث الإحياء » .

كما عنيت أن أضبط للمرة الأولى تلك النصوص التى اخترتها ، وأن أحققها ، راجعاً فى ذلك إلى مخطوطات الكتاب فى دار الكتب المصرية ، وأن أتناول غوامضها بالشرح والتبيين .

والله المسئول أن يجعله خالصاً لوجهه ، ومنه التوفيق ؟

مصر الجديدة فى غرة شعبان سنة ١٢٧٩

الطبعة الثانية

مصر الجديدة فى غرة شعبان سنة ١٤٠١

عبد السلام محمد هارون

بسم الله الرحمن الرحيم

أَحْمَدُ الله أَوّلاً حَمْداً كثيراً متوالياً ، وإن كان يتضاءل دون حقّ جلاله حمدُ الحامدين .

وأُصلى وأُسلِّم على رُسُلِهِ ثانياً ، صلاةً تستغرق مع سيِّد البشر سائرَ المرسلين .

وأستخيره تعالى ثالثاً فيما انبعثَ له عزمى من تحرير كتابٍ فى إحياء علوم الدين .

وأنتدِب[1] لقطع تعجُّبك رابعاً ، أيها العاذل المتغالى فى العَذْل[2] من بين زُمرة الجاحدين ، المسرفُ فى التقريع والإنكار من بين طبقات المنكرين الغافلين ، فلقد حَلَّ عن لسانى عقدةَ الصمت ، وطوّقنى عُهدةَ الكلام وقِلادة النُّطق ، ما أنت مثابرٌ عليه من العمَى عن جَليّة الحق ، مع اللَّجاج فى نُصرة الباطل وتحسين الجهل ، والتشغيب على مَن آثر النُّزوع قليلاً عن مراسم الخلْق ، ومال ميلاً يسيراً عن ملازمة الرسم إلى العمل بمقتضى العلم ، طمعاً فى نيل ما تعبّده الله تعالى به من تزكية النفس وإصلاح القلب ، وتداركاً لبعضِ ما فَرَط من إضاعة العمر ، يائِساً عن تمام حاجتك فى الحَيْرة ، وانحيازاً عن غِمار من قال فيهم

(١) أنتدب ، أى أسرع .

(٢) العذل : اللوم .

صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلم وسلامه : « أَشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله سبحانه بعلمه » . ولعمرى إنه لا سبب لإصرارك على التكبُّر إلَّا الداءُ الذى عمَّ الجمَّ الغفير ، بل شمِل الجماهير ، من القصور عن ملاحظة ذِروة هذا الأَمر ، والجهلِ بأَنَّ الأَمر إدٌّ[1] ، والخطبَ جِدّ ، والآخرةَ مقبلةٌ ، والدُّنيا مدبرة ، والأَجلَ قريب ، والسَّفرَ بعيد ، والزادَ طفيف ، والخطر عظيم ، والطريقَ سَدٌّ ، وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقد البصير ردّ[2] . وسلوكُ طريق الآخرة مع كثرة الغوائِل عن غير دليل ولا رفيق متعب ومُكِدّ . فأَدلَّة الطريق هم العلماءُ الذين هم ورثةُ الأَنبياء ، وقد شغَر منهم الزمان[3] ، ولم يَبْقَ إلاَّ المترسِّمون وقد استحوَذ على أكثرهم الشيطانُ ، واستغواهم الطُّغيان ، وأصبح كلُّ واحدٍ بعاجلِ حظِّه مشغوفاً ، فصار يرى المعروفَ منكراً ، والمنكرَ معروفاً ، حتى ظلَّ عَلَمُ الدِّين مندرساً[4] ، ومَنار الهدى فى أقطار الأرْضِ مُنطمساً ، ولقد خيَّلوا إلى الخلقِ أن لا علمَ إلَّا فتوَى حكومةٍ تستعين بها القُضاة على فصل الخصام ، عند تَهاوش الطَّغام[5] ، أو جدل يتذرَّع به طالب المباهاة إلى الغلبة والإفحام ، أَو سجعٍ مزخرفٍ يَتوسّل به الواعظُ إلى استدراج العوامِّ ، إذ لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مَصْيدةً للحرام ، وشبكة للحُطَام .

---

(١) الإد : الفظيع المنكر .

(٢) الرد : المردود غير المقبول .

(٣) شغر : خلا .

(٤) العلم : العلامة . المندرس : المطموس .

(٥) التهاوش : الاختلاط . والطغام ، بالفتح : الأوغاد .

فأمّا علمُ طريقِ الآخرة وما درج عليه السَّلف الصالح مما سماه الله سبحانَه فى كتابه : فقهاً وحكمة وعلماً ، وضياءً ونوراً ، وهداية ورشداً ، فقد أصبح من بين الخلق مطويًّا ، وصار نَسْياً منسيًّا .

ولمّا كان هذا ثَلْماً فى الدين مُلِمًّا[1] ، وخطباً مدلهمًّا ، رأيتُ الاشتغالَ بتحرير هذا الكتاب مُهمًّا ، إحياءً لعلوم الدين ، وكشفاً عن مناهج الأئمة المتقدمين ، وإيضاحاً لمناحى العلوم النافعة عند النبيِّين والسَّلَف الصالحين .

وقد أسَّستُه على أربعة أرباع ، وهى : ربع العبادات ، وربع العادات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات .

وصدَّرتُ الجملة بكتاب العلم ؛ لأنه غايةُ المهمِّ ، لأكشفَ أوّلاً عن الذى تَعبَّد الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم الأعيانَ بطلبه ، إذْ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « طلبُ العلم فريضةٌ على كلِّ مسلم » ، وأميِّز فيه العلم النافع من الضار ، إذ قال صلى الله عليه وسلم : « نَعوذ بالله من علمٍ لا ينفع » ، وأحقِّق ميل أهل العصر عن شاكلةِ الصواب[2] ، وانخداعَهم بلامعِ السراب ، واقتناعهم من العلوم بالقِشر عن اللُّباب .

ويشتمل ربعُ العبادات على عشرة كتب :

كتاب العلم ، وكتاب قواعد العقائد ، وكتاب أسرار الطهارة ، وكتاب أسرار الصلاة ، وكتاب أسرار الزكاة ، وكتاب أسرار الصيام ، وكتاب أسرار الحج ، وكتاب آداب تلاوة القرآن ، وكتاب الأذكار والدعوات ، وكتاب ترتيب الأوراد فى الأوقات .

---

(١) الثلم : الفرجة فى الشىء المكسور .

(٢) الشاكلة : الناحية والطريقة .

وأما ربع العادات فيشتمل على عشرة كتب :

كتاب آدابِ الأَكل ، وكتاب آداب النكاح ، وكتاب أحكام الكسبْ ، وكتاب الحلال والحرام ، وكتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق ، وكتاب العزلة ، وكتاب آداب السفر ، وكتاب السماع والوجد ، وكتاب الأَمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة .

وأما ربع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب :

كتاب شرح عجائب القلب ، وكتاب رياضة النفس ، وكتاب آفات الشَّهوتين : شهوة البطن وشهوة الفرج ، وكتاب آفات اللسان ، وكتاب آفات الغضب والحقد والحسد ، وكتاب ذمِّ الدنيا ، وكتاب ذمِّ المال والبخل ، وكتاب ذمِّ الجاه والرِّياء ، وكتاب ذم الكِبر والعُجب ، وكتاب ذم الغرور .

وأما ربع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب :

كتاب التوبة ، وكتاب الصبر والشكر ، وكتاب الخوف والرجاء ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوحيد والتوكل ، وكتاب المحبة والشوق والأُنس والرضا ، وكتاب النية والصدق والإخلاص ، وكتاب المراقبة والمحاسبة ، وكتاب التفكر ، وكتاب ذكر الموت .

فأما ربع العبادات فأُذكر فيه من خفايا آدابها ، ودقائق سننها وأسرار معانيها ، ما يُضْطرُّ العالمُ العامل إليه ، بل لا يكون من علماء الآخرة من لا يطَّلع عليه . وأكثر ذلك مما أهمل فى فن الفقهيات .

وأما ربع العادات فأُذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق وأغوارها ، ودقائق سننها ، وخفايا الورع فى مجاريها ، وهى مما لا يستغنى عنها متدين .

وأما ربع المهلكات فأذكر فيه كلَّ خُلُقٍ مذموم ٍ وردَ القرآن بإماطته[1] وتزكية النفس عنه ، وتطهير القلب منه . وأذكر من كلٍّ واحد من تلك الأخلاق حَدَّه وحقيقتَه ، ثم أذْكُر سببه الذى منه يتولَّد ، ثم الآفاتِ التى عليها تترتَّب ، ثم العلاماتِ التى بها تُتعرَّف ، ثم طرق المعالجة التى بها منها يُتخلَّص . كلَّ ذلك مقروناً بشواهدِ الآيات ، والأخبار والآثار .

وأما ربع المنجيات فأذكرُ فيه كلَّ خلق محمود ، وخَصلةٍ مرغوب فيها من خصال المقرَّبين والصدِّيقين ، التى بها يتقرَّب العبد من رب العالمين . وأذكر فى كل خصلة حدَّها وحقيقتها ، وسبَبها الذى به تُجتلب ، وثمرتَها التى منها تستفاد ، وعلامتَها التى بها تُتعرَّف ، وفضيلتَها التى لأجلها فيها يرغب ؛ مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل .

ولقد صنَّف الناس فى بعض هذه المعانى كتباً ، ولكن يتميَّز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور :

الأول : حَلّ ما عقدوه ، وكشف ما أجملوه .

الثانى : ترتيب ما بدَّدوه ، ونظم ما فرَّقوه .

الثالث : إيجاز ما طوَّلوه ، وضبط ما قرَّروه .

الرابع : حذف ما كرَّروه ، وإثبات ما حرَّروه .

الخامس : تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأفهام لم يُتعرَّض لها فى الكتب أصلاً ؛ إذ الكلُّ وإنْ تواردوا على منهج واحد فلا يُستنكر أن يتفرَّد كل واحد من السالكين بالتنبيه لأمر يخصُّه ويغفلُ عنه رفقاؤه ، أو لا يغفل عن التنبيه ولكن يسهو عن إيراده فى الكتب ، أو لا يسهو ولكن يَصرفه عن كشف الغطاء عنه صارف .

---

(١) الإماطة : الإزالة .

فهذه خواصُّ هذا الكتاب ، مع كونه حاوياً لمجامع هذه العلوم .

وإنّما حملنى على تأسيس هذا الكتاب على أربعة أرباع أمران :

أحدُهما – وهو الباعث الأصلى – : أن هذا الترتيب فى التحقيق والتفهيم كالضرورة ؛ لأن العلم الذى يُتوجه به إلى الآخرة ينقسم إلى علم المعاملة وعلم المكاشفة . وأعنى بعلم المكاشفة ما يطلب منه كشف المعلوم فقط ، وأعنى بعلم المعاملة ما يطلب منه مع الكشف العمل به . والمقصود من هذا الكتاب علم المعاملة فقط دون علم المكاشفة ، التى لا رخصة فى إيداعها الكتب ، وإنْ كانت هى غايةَ مقصِدِ الطالبين ، ومطمحِ نظرِ الصدِّيقين . وعلم المعاملة طريقٌ إليه ولكن لمْ يتكلَّم الأنبياءُ صلوات الله عليهم مع الخَلْق إلاَّ فى علم الطريق والإرشاد إليه . وأما علم المكاشفة فلم يتكلموا فيه إلاَّ بالرمز والإيماء ، على سبيل التمثيل والإجمال ، عِلْماً منهم بقصور أفهامِ الخَلْق عن الاحتمال . والعلماءُ ورثة الأنبياء ، فما لهم سبيل إلى العدول عن نهج التأسِّى والاقتداء .

ثم إن علم المعاملة ينقسم إلى علم ظاهر ، أعنى العلم بأعمال الجوارح ، وإلى علم باطن ، أعنى العلم بأعمال القلوب . والجارى على الجوارح ، إما عادة وإما عبادة . والوارد على القلوب التى هى بحكم الاحتجاب عن الحواسّ من عالم الملكوت ، إما محمود وإما مذموم . فبالواجب انقسم هذا العلم إلى شطرين : ظاهر وباطن . والشطر الظاهر المتعلق بالجوارح انقسم إلى عادة وعبادة ، والشطر الباطن المتعلق بأحوال القلب وأخلاق النفس انقسم إلى مذموم ومحمود ، فكان المجموعُ أربعةَ أقسام . ولا يشذ نظرٌ فى علم المعاملة عن هذه الأقسام .

الباعث الثانى : أنى رأيتُ الرغبة من طلبة العلم صادقةً فى الفقه

الذى صلح عند مَنْ لا يخافُ الله سبحانه وتعالى ، المتذرَّع[1] به إلى المباهاة والاستظهار بجاهه ومنزلته فى المنافسات ، وهو مرتب على أربعة أرباع[2] ، والمتزىّ بزى المحبوب محبوب .

فلم أبعدْ أن يكونَ تصويرُ الكتاب بصورة الفقه ، تلطُّفاً فى استدراج القلوب . ولهذا تلطَّفَ بعضُ من رَامَ استمالة قلوب الرؤساء إلى الطب ، فوضعه على هيئة تقويم النجوم ، موضوعاً فى الجداول والرقوم ، وسماه تقويم الصحة ، ليكون أُنسُهم بذلك الجنسِ جاذبًا لهم إلى المطالعة. والتلطفُ فى اجتذاب القلوب إلى العلم الذى يفيد حياةَ الأبد ، أهمُّ من التلطف فى اجتذابها إلى الطب الذى لا يفيد إلا صحةَ الجسد : فثمرة هذا العلمِ طب القلوب والأرواح ، المتوَّصل به إلى حياةٍ تدوم أبدَ الآبدين . فأين منه الطب الذى يُعالج به الأجساد ، وهى معرّضة بالضرورة للفساد ، فى أقرب الآماد .

فنسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق للرشاد والسداد ، إنه كريم جَوّاد .

---

(١) التذرع : التوسل .

(٢) هى العبادات ، و المعاملا ت ، و العادات ، و العقوبات .



ويشمل على عشرة كتب :

كتاب العلم ، كتاب قواعد العقائد ،
كتاب أسرار الطهارة ، كتاب أسرار الصلاة ،
كتاب أسرار الزكاة ، كتاب أسرار الصيام ،
كتاب أسرار الحج ، كتاب آداب تلاوة القرآن ،
كتاب الأذكار والدعوات ، كتاب ترتيب
الأوراد فى الأوقات .

الكتاب الأول

كتاب العلم

وفيه سبعة أبواب

الباب الأول

فى فضل العلم والتعلم وشواهده من النقل والعقل

فضيلة العلم

شواهدها من القرآن قوله عزَّ وجل : (شهد اللهُ أنهَّ لا إلَه إلاَّ هُوَ والملائكةُ وأولوا العلمِ قائماً بالقسطِ) . فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه ، وثنَّى بالملائكة ، وثلّث بأهل العلمِ ، وناهيك شرفاً وفضلا ، وجلالاً ونُبلاً . وقال الله تعالى : (يَرفَعُ الله الذين آمنُوا مِنكم والذين أوتوا العِلْمَ درجاتٍ) ، وقال عزَّ وجل : (قل هل يَستوِى الذين يَعْلَمونَ والذين لا يَعْلمون) . وقال تعالى : (إنَّما يخشَى اللهَ من عِبادِه العُلَماءُ) وقال تعالى : (قُلْ كفى بالله شهيداً بَينِى وبَيْنكُمْ ومَنْ عِندَهُ علمُ الكِتاب).

وأمَّا الأخبار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يُرِدْ الله به خيراً يفقِّهْه فى الدين ويُلهِمْهُ رُشْدَه » . وقال صلى الله عليه وسلم : « العُلماءُ وَرَثةُ الأنبياءِ » . ومعلوم أنَّه لا رتبة فوق النبوَّة ، ولا شرف فوق شرف الوِراثة لتلك الرُّتبة . وقال صلى الله عليه وسلم : « يَستغفرُ :

للعالِمِ ما فى السموات والأرض » . وأىُّ منصبٍ يزيد على منصب من تشتغل ملائكةُ السمواتِ والأرض بالاستغفار له . وقال صلى الله عليه وسلم : « أفضَلُ الناس المؤمنُ العالم الذى إن احْتِيجَ إليه نَفَع ، وإنْ استُغْنِىَ عنه أغنى نفسَه » . وقال عليه الصلاة والسلام : « النَّاسُ معادنٌ كمعادن الذهب والفِضَّة ، فخيارُهم فى الجاهلية خيارُهم فى الإسلام إذا فُقهوا » . وقال صلى الله عليه وسلم : « فضلُ العالمِ على العابد ، كفضل القمر ليلةَ البدر على سائر الكواكب » .

وأما الآثار فقد قال علىٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه لكُميل : « يا كميل ، العلمُ خيرٌ من المال ، العلم يحرُسُك وأنت تحرس المال ، والعلم حاكمٌ والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو بالإنفاق » .

وقال أبو الأسْوَد : ليس شىءٌ أعزَّ من العلم ، الملوك حُكَّامٌ على الناس . والعلماءُ حكام على الملوك .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : خُيِّر سليمان بن داود عليهما السلام بين العلم والمال والملك ، فاختار العلم ، فأُعطِىَ المالَ والملكَ معه .

وسئل ابنُ المبارَك : مَن الناس ؟ فقال : العلماءُ . قيل : فمن الملوك ؟ قال : الزُّهَّاد . قيل : فمن السَّفِلة ؟ قال : الذين يأكلون الدنيا بالدين .

وقال الحسن رحمه الله : يُوزن مِداد العلماء بدم الشُّهداء ، فيرجُحُ مدادُ العلماء بدم الشُّهداء .

وقال سالم بن أبى الجعد : اشترانى مولاى بثلثمائة درهم وأعتقنى ، فقلت : بأىِّ شىء أحترِف ؟ فاحترفتُ بالعلم فما تمَّت لى سنةٌ حتى أتانى أمير المدينة زائراً ، فلم آذَنْ له .

وقال الزّهرى رحمه الله : العلم ذَكَر ولا يحبُّه إلا ذُكْران الرجال .

فضيلة التعلم

أما الآيات فقوله تعالى : (فلَوْلا نَفَرَ من كل فِرقةٍ منهم طائفةٌ ليتفقَّهوا فى الدين)، وقوله عز وجل : (فاسألوا أهلَ الذِّكرِ إنْ كنتم لا تعلمون) .

وأما الأخبار فقوله صلى الله عليه وسلم : « مَن سَلك طريقاً يطلُب فيه عِلماً سلك الله به طريقاً إلى الجنَّة » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الملائكة لتضَع أجنحتَها لطالب العلم ، رضاءً بما يصنع » .

وأما الآثار فقال ابن عباس رضى الله عنهما : ذَلَلتُ طالباً فَعَزَزْتُ مطلوباً . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : لأن أتعلَّمَ مسألةً أحبُّ إلىَّ من قيامِ ليلة . وقال أيضاً : كن عالماً أو متعلِّماً أو مستمعاً . ولا تكن الرابعَ فتهلِك .

فضيلة التعليم

أما الآيات فقولُه عز وجل : (ولِينذروا قومَهم إذا رجَعُوا إليهم لعلَّهم يَحذَرون) ، والمراد هو التعليم والإرشاد . وقوله تعالى : (وإذْ أخذ اللهُ ميثاقَ الذين أُوتُوا الكتابَ ليُبَيِّنُنَّه للناس ولا يكْتُمونه) ، وهو إيجابٌ للتعليم . وقال تعالى : (ادعُ إلى سبيلِ ربِّك بالحكمة والموعظةِ الحسنة) .

وأما الأخبار فقوله صلى الله عليه وسلم لمَّا بعث مُعاذاً رضى الله عنه إلى اليمن : « لأن يهدىَ الله بك رجلاً واحداً خيرٌ من الدنيا وما فيها » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الله عز وجل لا يَنتزِعُ العلمَ انتزاعاً

من الناس[1] بعد أن يؤتيَهَمْ إيّاه ، ولكن يذهب بذهاب العلماء ، فكلما ذهب عالمٌ ذهب بما معه من العلم ، حتّى إذا لم يُبقِ عالماً اتخذ الناسُ رؤساءَ جهّالاً إن سُئلوا أفتَوْا بغير علم ، فيُضِلُّون ويَضِلُّون » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مثَلُ ما بعثنى الله عز وجل به من الهُدَى والعلم ، كمثل الغيث الكثير أصابَ أرضًا ، فكانت منها بقعةٌ قَبِلت الماءَ فأنبتت الكلأَ والعشبَ الكثير ، وكانت منها بقعةٌ أمسكت الماءَ فنفع الله عز وجلّ بها الناسَ فشربوا منها وسقَوْا وزرعوا ، وكانت منها طائفةٌ قِيعانٌ[2] لا تُمسك ماءً ولا تنبت كلأً » . فالأوّل ذكره مثلاً للمنتفع بعلمه ، والثانى ذكره مثلًا للنافع ، والثالث للمحروم منهما .

وأما الآثار فقد قال عمر رضى الله عنه : « مَن حدَّث حديثاً فعمل به فله مثلُ أجرِ مَن عمل ذلك العمل » .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : معلِّم الناس الخيرَ يستغفرُ له كلُّ شىء ، حتّى الحوتُ فى البحر .

---

(١) أى محواً من صدورهم .

(٢) القيعان : جمع قاع ، وهى الأرض السهلة المطمئنة قد انفرجت عنها الجبال .

الباب الثانى

فى العلم المحمود والمذموم وأقسامهما وأحكامهما

وفى بيان ما هو فرض عين ، وما هو فرض كفاية ، وبيان أنّ موقع الكلام والفقه من علم الدين إلى أى حدّ هو ، وتفضيل علم الآخرة .

بيان العلم الذى هو فرض كفاية

اعلم أنّ الفرض لا يتميّز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم . والعلوم بالإضافة إلى الفرض الذى نحن بصدده تنقسم إلى شرعيّة وغير شرعية ، وأعنى بالشرعيّة ما استُفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، ولا يُرشِد العقلُ إليه مثل الحِساب ، ولا التّجربةُ مثل الطِّبّ ، ولا السماعُ مثل اللغة .

فالعلوم التى ليست بشرعيّة تنقسم إلى ما هو محمودٌ ، وإلى ما هو مذموم ، وإلى ما هو مباح .

فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمورِ الدنيا ، كالطب والحساب ، وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية ، وإلى ما هو فضيلة وليس بفريضة .

أما فرض الكفاية فهو كلُّ علم لا يُستغنَى عنه فى قِوام أمور الدنيا ، كالطبّ إذْ هو ضروريٌّ فى حاجة بقاءِ الأبدان ، وكالحساب فإنه ضرورى فى المعاملات وقسمةِ الوصايا والمواريث وغيرهما . وهذه هى العلوم التى لو خلا البلد عمن يقوم بها حرِجَ أهلُ البلد ، وإذا قام بها واحدٌ كفى وسقط الفرضُ عن الآخَرين . فلا يتعجَّب من قولنا : إن الطبّ والحسابَ من فروض الكفايات ، فإنّ أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات ،

كالفلاحة والحياكة والسياسة ، بل الحِجامة والخياطة ؛ فإنه لو خلا البلد من الحجَّام تسارع الهَلاكُ إليهم ، وحَرِجوا بتعريضهم أنفسَهم للهلاك ؛ فإنَّ الذى أنزل الداءَ أنزل الدواءَ ، وأرشد إلى استعماله ، وأعدَّ الأَسبابَ لتعاطيه ، فلا يجوز التعرُّض للهلاك بإهماله .

وأما ما يُعَدُّ فضيلةً لا فريضة ، فالتعمُّق فى دقائق الحساب وحقائق الطب وغيرِ ذلك مما يُستغنَى عنه ، ولكنَّه يفيد زيادةَ قوّة فى القدْرِ المحتاج إليه .

وأما المذموم منه فعلم السحر والطِّلَّسمات ، وعلم الشَّعبذةِ والتابيسات. وأما المباح منه فالعلم بالأَشعار التى لا سُخف فيها ، وتواريخ الأَخبار وما يجرى مجراه .

وأمَّا العلوم الشرعية وهى المقصودة بالبيان ، فهى محمودة كلُّها ، ولكن قد يَلتبس بها ما يُظَنّ أنها شرعية ، وتكون مذمومة فتنقسم إلى المحمودة والمذمومة .

أما المحمودة فلها أصول وفروع ، ومقدِّمات ومتممات ، وهى أربعة أضرب :

الضرب الأَول : الأُصول وهى أربعة : كتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله عليه السلام ، وإجماعُ الأُمة ، وآثارُ الصحابةِ . والإجماع أصل من حيثُ إنَّه يدلُّ على السُّنة ، فهو أصلٌ فى الدرجة الثالثة . وكذا الأَثر فإنَّه أيضًا يدلُّ على السُّنَّةِ ؛ لأَنَّ الصحابة رضى الله عنهم قد شاهدوا الوحى والتنزيل ، وأدركوا بقرائن الأَحوال ما غاب عن غيرهم عِيانه .

وربَّما لا تحيط العبارات بما أُدرك بالقرائن ؛ فمن هذا الوجه رأى العلماءُ الاقتداءَ بهم ، والتمسكَ بآثارهم ، وذلك بشرط مخصوص على وجه مخصوص عند من يراه ، ولا يليق بيانه بهذا الفن .

الضرب الثانى : الفروع : وهو ما فُهم من هذه الأُصول لا بموجَب ألفاظها ، بل بمعانٍ تنبَّه لها العقولُ ، فاتَّسع بسببها الفهمُ حتَّى فُهم من اللفظ الملفوظ به غيرُه ، كما فهم من قوله عليه السلام : « لا يَقضِى القاضِى وهو غضبان » أنَّه لا يقضى إذا كان حاقناً[1] أو جائعاً ، أو متأَلماً بمرض . وهذا على ضربين :

أحدُهما : ما يتعلَّق بمصالح الدنيا ويحويه كتبُ الفقه . والمتكفِّل به الفقهاءُ وهم علماءُ الدنيا .

والثانى : ما يتعلَّق بمصالح الآخرة ، وهو علم أحوال القلب وأخلاقه المحمودة والمذمومة . وما هو مرضِىٌّ عند الله تعالى ، وما هو مكروه ، وهو الذى يحويه الشَّطر الأَخير من هذا الكتاب ، أعنى جملة كتاب إحياء علوم الدين . ومنه العلم بما يترشَّح من القلب على الجوارح فى عباداتها وعاداتها ، وهو الذى يحويه الشطر الأَول من هذا الكتاب .

والضرب الثالث المقدمات . وهى التى تجرى منه مجرى الآلات ، كعلم اللغة والنحو ؛ فإنهما آلةٌ لعلم كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم . وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعية فى أنفسهما ، ولكن يلزم الخوضُ فيهما بسبب الشرع ؛ إذْ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب ، وكلُّ شريعة لا تظهر إلاَّ بلغة ، فيصير تعلُّم تلك اللغة آلة . ومن الآلات علم كتابة الخطّ ، إلا أنَّ ذلك ليس ضرورياً ، إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أُمِّيًّا . ولو تُصوِّر استقلالُ الحفظ بجميع ما يسمع لاستُغنى عن الكتابة ، ولكنَّه صار بحكم العجز فى الغالب ضرورياً .

---

(١) الحاقن : الذى حقن بوله : أى حبسه .

الضرب الرابع : المتمِّمات ، وذلك فى علم القرآن ؛ فإنه ينقسم إلى ما يتعلَّق باللفظ ، كتعلُّم القراءات، ومخارج الحروف . وإلى ما يتعلق بالمعنى كالتفسير ، فإنَّ اعتماده أيضاً على النقل ، إذْ اللغة بمجرَّدِها لاتستقل به . وإلى ما يتعلق بأحكامه ، كمعرفة الناسخ والمنسوخ ، والعامّ والخاصّ ، والنَّصِّ والظاهر ، وكيفية استعمال البعضِ منه مع البعض ، وهو العلم الذى يسمَّى أصولَ الفقه ، ويتناول السنَّة أيضاً . وأما المتممات فى الآثار والأخبار فالعلم بالرِّجال وأسمائهم وأنسابهم ، وأسماء الصحابة وصفاتهم ، والعلم بالعدالة فى الرُّواة ، والعلم بأحوالهم ليميِّز الضعيف عن القوىّ ، والعلم بأعمارهم ليميز المرسَل عن المسند[1] ، وكذلك ما يتعلق به .

فهذه هى العلوم الشرعية ، وكلها محمودة ، بل كلها من فروض الكفايات .

فإن قلتَ : فلم لم توردْ فى أقسام العلوم الكلامَ والفلسفة ، وتبيِّنْ أنَّهما مذمومان أو محمودان ؟

فاعلم أنَّ حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلَّة التى ينتفع بها ، فالقرآنُ والأخبار مشتملةٌ عليه ، وما خرج عنهما فهو إمَّا مجادلة مذمومة وهى من البدع كما سيأتى بيانه ، وإمَّا مشاغبةٌ بالتعلق بمناقضات الفِرَقِ لها ، وتطويلٌ بنقل المقالات التى أكثرها تُرَّهات[2] وهذَيانات تزدريها الطباع ، وتمجّها الأسماع[3] ، وبعضها خوضٌ فيما لايتعلق بالدين

---

(١) المرسل : حديث التابعى الكبير الذى أدرك جماعة من الصحابة وجالسهم إذا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . والمسند : ما اتصل إسناده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) الترهات . جمع ترهة ، وهى الأباطيل .

(٣) تمجها : ترفضها ولا تقبلها .

ولم يكن شيءٌ منه مألوفاً فى العصر الأوّل ، وكان الخوضُ فيه بالكلية من البدع ، ولكن تغيَّر الآن حُكمُهُ ، إذْ حدثت البدعة الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة ، ونبغت[1] جماعةٌ لفقّوا لها شُبَهًا ، ورتّبوا فيها كلامًا مؤلَّفاً . فصار ذلك المحذور بحكم الضرورة مأذوناً فيه ، بل صار من فروض الكفايات ، وهو القَدْر الذى يقابَل به المبتدع إذا قصد الدَّعوة إلى البدعة ، وذلك إلى حدٍّ محدود - سنذكره فى الباب الذى يلى هذا إن شاء الله تعالى .

وأمّا الفلسفة فليست علماً برأسِها ، بل هى أربعة أجزاء :

أحدها : الهندسة والحساب ، وهما مباحان كما سبق ، ولا يُمنَع عنهما إلا من يُخاف عليه أن يتجاوز بهما إلى البدَع ، فيُصان الضعيفُ عنهما - لا لعينهما - كما يُصان الصبيُّ عن شاطئ النهر خيفةً عليه من الوقوع فى النهر ، وكما يُصان حديث العهد بالإسلام عن مخالطة الكفَّار خوفًا عليه ، مع أنَّ القويَّ لا يُندَب إلى مخالطتهم .

الثانى : المنطق . وهو بحثٌ عن وجه الدليل وشروطه ، ووجه الحدّ وشروطه ، وهما داخلان فى علم الكلام .

والثالث : الإلهيات ، وهو بحثٌ عن ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته وهو داخل فى الكلام أيضاً . والفلاسفة لم ينفردوا فيها بنمط آخر من العلم ، بل انفردوا بمذاهبَ بعضُها كفرٌ وبعضها بدعة . وكما أنَّ الاعتزال ليس علماً برأسه ، بل أصحابه طائفةٌ من المتكلمين وأهل البحث والنظر انفردوا بمذاهب باطلة ؛ فكذلك الفلاسفة .

---

(١) نبغت : ظهرت . والنبوع : الظهور .

والرابع . الطبيعيات ، وبعضها مخالفٌ للشرع والدين الحق ، فهو جهل وليس بعلم حتى يُورَد فى أقسام العلوم ، وبعضها بحثٌ عن صفات الأَجسام وخواصِّها وكيفية استحالتها وتغيُّرها . وهو شبيه بنظر الأَطبَّاء، إِلَّا أَنَّ الطبيب ينظر فى بدن الإِنسان على الخصوص من حيث يمرض ويصحّ ، وهم ينظرون فى جميع الأَجسام من حيث تتغيَّر وتتحرك . ولكنْ للطب فضلٌ عليه ، وهو أَنَّه مُحتاج إِليه .

فصل فى مناقب الأئمة الفقهاء

فالفقهاءُ الذين هم زعماءُ الفقه وقادةُ الخلْق – أَعنى الذين كثُر أَتباعُهم فى المذاهب – خمسة : الشافعى ، ومالك ، وأَحمد بن حَنبل ، وأَبو حنيفة ، وسُفيانُ الثَّورى ، رحمهم الله تعالى ، وكلٌّ واحد منهم كان عابداً ، وزاهداً ، وعالماً بعلوم الآخرة ، وفقيهًا فى مصالح الخلق فى الدنيا ، ومُريداً بفِقْهه وجهَ الله تعالى .

أَمّا الإِمام الشافعى رحمه الله تعالى فيدلُّ على أَنَّه كان عابداً : ما روى أَنه كان يقسم الليل ثلاثةَ أَجزاءٍ : ثلثاً للعلم ، وثلثاً للعبادة ، وثلثا للنوم. قال الربيع : كان الشافعىُّ رحمه الله يختِم القرآن فى رمضانَ ستِّين مرة، كلّ ذلك فى الصلاة .

أَمّا زهدُه رضى الله عنه فقد قال الشافعى رحمه الله : « من ادَّعى أَنه جمع بين حبِّ الدنيا وحبِّ خالقها فى قلبه فقد كذَب » . وقال الحُميدىّ: خرج الشافعى رحمه الله إِلى اليمن مع بعض الوُلاة ، فانصرف إِلى مكة بعشرة آلاف درهم ، فضُرِب له خِباءٌ فى موضع خارجًا من مكة . فكان الناس يأْتونَه ، فما برحَ من موضعه ذلك حتَّى فرَّقها كلَّها . ويدلُّ

على قوة زهده وشدة خوفه من الله تعالى واشتغال همته بالآخرة : ما روى أنه رَوَى سفيان بن عُيينة حديثاً فى الرقائق ، فغُشى على الشافعىّ فقيل له : قد مات ! فقال : إنْ مات فقد مات أفضلُ زمانه .

وأما كُونه عالماً بأسرار القلب وعلوم الآخرة فتعرفُه من الحكم المأثورةِ عنه : روى أنه سُئل عن الرياء فقال على البديهة : الرياء فتنة عَقَدها الهوَى حيالَ أبصارِ قلوب العلماء ، فنظروا إليها بسوء اختيار النفوس ، فأحبطَتْ أعمالهم . .

وقال الشافعى رحمه الله تعالى : إذا أنتَ خفتَ على عملك العُجب فانظُرْ رضا مَن تطلب وفى أىّ ثوابٍ ترغب ومن أىِّ عقاب ترهب وأىَّ عافية تشكر ؟! وأىَّ بلاء تذكر ؟ فإنَّك إذا تفكرت فى واحدة من هذه الخصال صَغُر فى عينيك عملك .

وأما إرادتُه بالفقه والمناظرة فيه وجهَ الله تعالى، فيدلُّ عليه ما رُوِىَ عنه أنه قال : ودِدت أنَّ الناس انتفعوا بهذا العلم وما نُسبوا إلى شىء منه . فانظر كيف اطَّلع على آفة العلم وطلب الاسم له ، وكيف كان متنزِّهَ القلب عن الالتفات إليه ، مجرَّدَ النية فيه لوجه الله تعالى .

وأما الإمام مالكٌ رضى الله تعالى عنه فإنه كان أيضاً متحليًّا بهذه الخصال الخمس ، فإنه قيل له : ما تقول يا مالك فى طلب العلم ؟ فقال : حسن جميل ، ولكن انظر إلى الذى يلزُمك من حين تُصبح إلى حين تُمْسِى فالْزَمْه .

وكان رحمه الله تعالى فى تعظيم علم الدين مبالِغًا ، حتَّى كان إذا أراد أن يحدِّث توضَّأ وجلس على صدر فراشه ، وسرَّح لحيته ، واستعمل الطِّيب وتمكَّن من الجلوس على وقار وهَيبة ثم حدَّث . فقيل له فى ذلك فقال : أُحبُّ أن أُعظِّمَ حديثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما زهده فى الدنيا فيدلُّ عليه ما روى أنَّ المهدىَّ أمير المؤمنين سأله فقال له : هل لك من دار ؟ فقال : لا ولكنْ أُحدّثك ، سمعت ربيعة بن أبى عبد الرحمن يقول : نسبُ المرْء داره .

وسأله الرشيدُ : هل لك دار ؟ فقال : لا . فأعطاه ثلاثة آلافَ دينار وقال : اشتر بها داراً . فأخذها ولم يُنفقْها ، فلما أراد الرشيدُ الشخوصَ قال لمالك رحمه الله : ينبغى أن تخرجَ معنا ، فإنِّى عزمت على أن أحمل الناسَ على الموطَّإ ، كما حمل عثمانُ رضى الله عنه الناسَ على القرآن . فقال له : أمّا حَمْل الناس على الموطَّإ فليس إليه سبيل ، لأنَّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم افترقوا بعدَه فى الأمصار فحدَّثوا فعند كلِّ أهل مصرٍ علم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « اختلافُ أمّتى رحمة » . وأمَّا الخروج معك فلا سبيلَ إليه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون » . وقال عليه الصلاة والسلام : « المدينة تَنفِى خَبَثَها كما ينفى الكِير[1] خَبَثَ الحديد » . وهذه دنانيرُكم كما هى ، إن شئتم فخذوها ، وإنْ شئتم فدعوها . يعنى أنَّك إنما تكلفنى مفارقةَ المدينة لِمَا اصطنعْتَه إلىَّ ، فلا أُوثر الدُّنيا على مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فهكذا كان زهدُ مالك فى الدنيا .

ويدلُّ على إرادته بالعلم وجهَ الله تعالى واستحقارِه للدنيا : ما رُوىَ أنه قال : دخلت على هارونَ الرشيدِ فقال لى : يا أبا عبدِ الله ، ينبغى أن تختلفَ إلينا حتّى يسمعَ صِبيانُنا منك الموطّأ . قال : فقلت أعزَّ الله

---

(١) الكير ، بالكسر : الزق الذى ينفخ فيه الحداد .

مولانا الأَمير ، إن هذا العلْمَ منكم خرج ، فإنْ أنتم أعززتموه عَزَّ ، وإن أنتم أذللتموه ذلّ ، والعلم يُؤْتَى ولا يأْتِى . فقال : صدقْتَ ، اخرجوا إلى المسجد حتَّى تسمَعُوا مع الناس .

وأما أَبو حنيفة رحمه الله تعالى فلقد كان أَيضاً عابداً زاهداً ، عارفاً بالله تعالى ، مريداً وجهَ الله تعالى بعلمه .

فأَمَّا كونُه عابداً فيُعرَف بما روى عن ابن المبارك أنه قال : كان أَبو حنيفةَ رحمه الله له مروءةٌ وكثرةُ صلاة . ورَوى حمادُ بن أَبى سليمان أنه كان يُحيِى اللَّيلَ كله .

وأَما زهده فقد رُوِى عن الربيع بن عاصم قال : أَرسلَنى يزيد بن عُمر بن هبيرة فقدِمت بأَبِى حنيفة عليه ، فأَراده أن يكون حاكماً على بيت المال فأَبَى ، فضربه عشرين سوطًا . فانظر كيف هرب من الولاية واحتمل العذاب !

وأَما علمهُ بطريق الآخرة وطريق أمور الدين ، ومعرفتهُ بالله عزّ وجل فيدلّ عليه شدةُ خوفه من الله تعالى وزهدُه فى الدنيا . وقال شَريك النَّخعى : كان أَبو حنيفة طويلَ الصمت دائم الفكر ، قليلَ المحادثة للناس . فهذا من أوضح الأَمارات على العلم الباطنى ، والاشتغال بمهمَّات الدين ؛ فمن أُوتِىَ الصَّمتَ والزهد فقد أُوتى العلْمَ كله . فهذه نُبْذة من أَحوال الأَئمة الثلاثة .

وأَما الإمام أَحمد بن حنبل وسُفيانُ الثورىُّ رحمهما الله تعالى فأَتْباعُهما أَقلُّ من أَتباع هؤلاء ، وسفيان أَقلُّ أَتْبَاعاً من أَحمد، ولكن اشتهارهما بالورع والزهد أظهر ، وجميع هذا الكتابِ مشحونٌ بحكايات أفعالهما وأَقوالهما ، فلا حاجةَ إلى التفصيل الآن .

البابُ الثالث

فيما يعُدّه العامة من العلوم المحمودة وليس منها

وفيه بيان الوجه الذى قد يكون به بعض العلوم مذموماً ، وبيان تبديل أسامى العلوم : وهو الفقه والعلم والتذكير والحكمة ، وبيان القدر المحمود من العلوم الشرعية والقدر المذموم منها .

فاعلم أنَّ العلم لا يُذَمُّ لعينه ، وإنما يذمُّ فى حقّ العباد لأحد أسبابٍ ثلاثة :

الأول : أن يكون مؤدِّياً إلى ضررٍ ما ، إمّا لصاحبه أو لغيره ، كما يذمُّ علم السِّحر والطِّلَّسمات .

الثانى : أن يكون مضرًّا بصاحبه فى غالب الأمر ، كعلم النجوم فإنه فى نفسه غير مذموم لذاته ، إذْ هو قسمان : قسم حسابى ، وقد نطق القرآن بأنَّ مسير الشَّمس والقمر محسوب ؛ إذْ قال عز وجل : (الشمسُ والقَمَرُ بحُسْبانٍ) . والثانى : الأحكام ، وحاصلهُ يرجع إلى الاستدلال على الحوادثِ بالأسباب ، وهو يُضاهِى استدلالَ الطبيب بالنَّبض على ما سيحدُث من المرض ، وهو معرفةٌ لمجارى سنَّةِ الله تعالى وعادتِه فى خلقه ، ولكنْ قد ذمّه الشرع . قال صلى الله عليه وسلم : « إذا ذُكر القَدَر فأمسكوا ، وإذا ذُكرت النُّجومُ فأمسكوا ، وإذا ذكر أصحابى فأمسكوا » .

وإنما زجر عنه من ثلاثة أوجه : أحدها : أنه مضرٌ بأكثر الخلْق ؛ فإنَّه إذا أُلقِىَ إليهم أنَّ هذه الآثارَ تحدُث عَقيبَ سير الكواكب ، وقع فى نفوسهم أنَّ الكواكبَ هى المؤثِّرة ، وأنَّها الآلهةُ المدبرة ؛ لأنها جواهرُ شريفة سماويَّة ، ويعظُم وقْعها فى القلوب فيبقى القلبُ ملتفتاً إليها ، ويُرى الخيرُ والشرُّ محذوراً أو مرجوًّا من جهتها ، وينمحى ذكر الله سبحانه عن القلب ، فإنَّ الضعيفَ يقصُر نظرَه على الوسائط ، والعالِم الراسخ هو الذى يطَّلع على أنَّ الشمسَ والقمر والنجومَ مسخَّراتٌ بأمره سبحانه وتعالى .

وثانيهَا : أنَّ أحكامَ النجوم تخمينٌ محض ، ليس يُدرَك فى حقِّ آحادِ الأشخاص لا يقيناً ولا ظنًّا ، فالحكم به حكم بجهل ، فيكون ذمُّه على هذا ، من حيث إنَّه جهلٌ لا من حيث إنَّه علمٌ .

وثالثهَا : أنَّه لا فائدة فيه ، فأقلُّ أحواله أنه خوضٌ فى فضولٍ لا يغنى ، وتضييع العمر الذى هو أنفس بضاعةِ الإنسان فى غير فائدة . وذلك غايةُ الخسران .

السبب الثالث: الخوض فى علمٍ لا يستفيد الخائضُ فيه فائدة علمٍ، فهو مذمومٌ فى حقه ، كتعلُّم دقيق العلوم قبل جليلها ، وخفيِّها قبل جليِّها وكالبحث عن الأسرار الإلهية ، إذ يطَّلع الفلاسفة والمتكلمون إليها ولم يستقلُّوا بها ،ولم يستقلّ بها وبالوقوفِ على طرق بعضها إلاَّ الأنبياءُ والأولياءُ. فيجب كفُّ الناس عن البحث عنها ، وردُّهم إلى ما نطق به الشرع ، فنى ذلك مَقنعٌ للموفَّق .

بيان ما بدِّل من ألفاظ العلوم

اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامى المحمودة وتبديلها ، ونقلها بالأغراض الفاسدة إلى معان غير ما أراده السلفُ الصالح والقرنُ الأوّل ، وهى خمسة ألفاظ : الفقه ، والعلم ، والتوحيد ، والتذكير ، والحكمة .

فهذه أسامٍ محمودة ، والمتّصفون بها أربابُ المناصب فى الدين ، ولكنّها نُقلت الآن إلى معان مذمومة ، فصارت القلوب تنفر عن مَذمّة من يتصف بمعانيها ؛ لشيوع إطلاق هذه الأسامى عليهم .

اللفظ الأول : (الفقه) ؛ فقد تصرّفوا فيه بالتخصيص ، لا بالنقل والتحويل ؛ إذ خصّصوه بمعرفة الفروع الغريبة فى الفتاوَى ، والوقوف على دقائِق عللها ، واستكثارِ الكلام فيها ، وحفظ المقالات المتعلقة بها . فمن كان أشدَّ تعمُّقاً فيها وأكثرَ اشتغالاً بها يقال هو الأفقه . ولقد كان اسم الفقه فى العصر الأوّل مطلقاً على علم طريق الآخرة ، ومعرفة دقائِق آفات النفوس ومفسدات الأعمال ، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلّع إلى نعيم الآخرة ، واستيلاء الخوف على القلب . ويدلُّك عليه قولُه عَزَّ وجل : (ليتفقّهوا فى الدِّين ولِيُنذروا قومَهم إذا رَجَعوا إليهم) . وما يحصُل به الإنذارُ والتخويف هو هذا الفقه ، دون تفريعات الطلاق والعَتَاق واللِّعان والسَّلَم والإجارة ؛ فذلك لا يحصلُ به إنذار ولا تخويف ، بل التجرُّد له على الدوام يقسِّى القلب ، ويَنزِع الخشيةَ منه ، كما نشاهد الآن من المتجرِّدين له . وقال تعالى : (لهم قُلوبٌ لايَفْقَهون بها) ، وأراد به معانىَ الإيمان دون الفتاوى .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبِّئكم بالفقيه كلَّ الفقيه ؟ ؟

قالوا : بلى . قال : « من لم يُقنط الناسَ[1] من رحمة الله ، ولم يُؤْمنهم من مكر الله ، ولم يُوئسهم من رَوْح الله[2] ، ولم يدَعِ القرآن رغبةً عنه إلى ما سواه » .

اللفظ الثانى : (العلم) : وقد كان يُطلقَ ذلك على العلم بالله تعالى. وبآياته ، وبأفعاله فى عباده وخلقه ، حتّى إنه لما مات عمر رضى الله عنه قال ابن مسعودٍ رحمه الله: «لقد مات تسعةُ أعشار العلم» . وقد تصرَّفوا أيضاً بالتخصيص حتّى شهروه فى الأكثر بمن يشتغل بالمناظرة مع الخصوم فى المسائل الفقهية وغيرها ؛ فيقال : هو العالم على الحقيقة ، وهو الفحل فى العلم .

اللفظ الثالث : (التوحيد) : وقد جُعل الآنَ عبارةً عن صناعة الكلام ومعرفة طريق المجادلة ، والإحاطة بطرق مناقضات الخصوم ، والقدرة على التشدُّق فيها بتكثير الأسئلة وإثارة الشُّبهات ، وتأليف الإلزامات ، حتى لقَّبَ طوائفُ منهم أنفسَهم بأهل العدل والتوحيد ، وسُمِّىَ المتكلمون : العلماء بالتوحيد ، مع أنَّ جميع ما هو خاصَّةُ هذه الصناعةِ لم يكن يُعرف منها شئٌ فى العصر الأوَّل ، بل كان يشتدّ منهم النكيرُ على من كان يفتح باباً من الجدل والمماراة .

وكان التوحيد عندهم عبارةً عن أمرٍ آخرَ لا يفهمُه أكثرُ المتكلِّمين وإن فهموه لم يتَّصفوا به . وهو أن يَرى الأُمور كلَّها من الله عزَّ وجل رؤيةً تقطع التفاتَه عن الأسباب والوسائط ، فلا يرى الخيرَ والشرَّ كلَّه إلا منه جلَّ جلالُه .

---

(١) أى يحملهم على القنوط واليأس .

(٢) روح الله : رحمته .

والتوحيد جوهر نفيس له قِشران : أحدُهما أبعدُ عن اللبّ من الآخر ، فخصَّص الناس الاسمَ بالقشر ، وبصنعةِ الحراسة القشر ، وأهملوا اللُّبَّ بالكلية . فالقشر الأول : هو أن تقول بلسانك ، « لا إله إلا الله » وهذا يسمَّى توحيداً ، مناقضاً التثليث الذى صرَّح به النصارى. والقشر الثانى : أن لا يكون فى القلب مخالفةٌ وإنكارٌ لمفهوم هذا القول ، بل يشتمل ظاهر القلْبِ على اعتقاده ، وكذلك التصديق به . وهو توحيد عوامِّ الخلق . والثالث ، وهو اللُّباب ــ أن يرى الأُمور كلَّها من الله تعالى رؤيةً تقطع التفاتَه عن الوسائط ، وأن يعبده عبادةً يُفرده بها فلا يَعبُد غيره.

اللفظ الرابع : (الذِّكر والتذكير) ؛ فقد قال الله تعالى : (وذَكِّرْ فإنَّ الذكرى تَنفعُ المؤمنين) . وقد وَردَ فى الثناء على مجالس الذكر أخبارٌ كثيرة ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا مررتم برياضِ الجنَّة فارتَعوا». قيل : وما رياضُ الجنة ؟ قال : « مجالس الذِّكر » . وفى الحديث : «إنَّ لِلهِ تعالى ملائكةً سيَّاحِينَ فى الدُّنيا سوى ملائكة الخَلْق ، إذا رأَوا مجالسَ الذِّكرِ ينادى بعضُهم بعضاً : ألاَ هَلُمّوا إلى بُغيتكم . فيأْتونهم ويحُفُّون بهم ويستمعون . ألاَ فاذكروا الله وذكِّروا أنفسكم » .

فنُقل ذلك إلى ما ترى أكثرَ الوعّاظِ فى هذا الزمان يواظبون عليه : وهو القَصَص ، والأشعار ، والشَّطْح ، والطامَّات .

أما القَصَص فهى بدعة ، وقد ورد نهىُ السلف عن الجلوس إلى القُصّاص وقالوا : لم يكن فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا فى زمن أبى بكر ولا عمر رضى الله عنهما ، حتَّى ظهرت الفتنة وظهر القُصّاص . فقد اتخذ المزخرفون بعضَ الأحاديث حجّةً على تزكية أنفسهم ، ونقلوا اسم التذكير إلى خرافاتهم ، وذَهلوا عن طريق الذكر

محمود ، واشتغلوا بالقصص التى تتطرق إليها الاختلافات والزيادة والنقص ، وتخرج عن القصص الواردة فى القرآن أو تزيد عليها ، فإنَّ من القصص ما ينفع سماعُه ، ومنها ما يَضُرّ وإن كان صدقاً . ومن فتح ذلك البابَ على نفسه اختلط عليه الصدق بالكذب ، والنافعُ بالضار . فمن هذا نُهِىَ عنه .

وأما الأشعار فكثيرها فى المواعظ مذموم . قال الله تعالى : (والشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُم الغَاوون . ألم تَرَ أنَّهمْ فى كلِّ واد يَهيمون) . وقال تعالى : (وما عَلَّمناهُ الشِّعرَ وما يَنبغِى له) . وأكثر ما اعتاده الوُعَّاظ من الأشعار : ما يتعلَّق بالتواصف فى العِشق وجمالِ المعشوق ، ورَوْح الوِصال[1] وألم الفِراق . والمجلس لا يحوى إلَّا أجلافَ العوامّ ، وبواطنُهم مشحونة بالشهوات ، وقلوبهم غير منفكَّة عن الالتفات إلى الصُّور المليحة ، فلا تحرِّك الأشعارُ من قلوبهم إلا ما هو مستكِنٌّ فيها ، فتشتعل فيها نيران الشَّهَوات ، فيزعَقون ويتواجدون . وأكثرُ ذلك أو كلُّه يرجع إلى نوعِ فساد . فلا ينبغى أن يُستعمل من الشعر إلَّا ما فيه موعظة أو حكمة ، على سبيل استشهادٍ واستئناس .

وأما الشَّطح : فنعنى به صِنفين من الكلام أحدَثَه بعضُ الصوفية . أحدهما : الدَّعاوَى الطويلة العريضة فى العشق مع الله تعالى ، والوصالِ المغْنى عنْ الأعمال الظاهرة . حتَّى ينتهى قومٌ إلى دعوَى الاتحاد وارتفاع الحجاب ، والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب ؛ فيقولون : قيل لنا كذا . وقلنا كذا ، ويتشبَّهون فيه بالحسين بن منصور الحلاَّج ، الذى صلب لأجل إطلاقه كلماتٍ من هذا الجنس ، ويستشهدون بقوله : أنا الحقّ . وهذا فنٌّ من الكلام ، عظيمٌ ضرره فى العوامّ .

---

(١) الروح : الراحة .

الصنف الثانى من الشطح كلمات غير مفهومة ، لها ظواهر رائقة ، وفيها عبارات هائلة ، وليس وراءها طائل ، إمّا أن تكون غير مفهومة عند قائلها ، بل يُصدرها عن خَبْط فى عقله ، وتشويش فى خياله ، لقلّة إحاطته بمعنًى كلامٍ قَرَعَ سمعَه . وهذا هو الأكثر . وإما أن تكون مفهومةً له ولكنّه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدلّ على ضميره .

وأما الطّامّات فيدخلها ما ذكرناه فى الشّطْح . وأمر آخر يخصها ، وهو صرفُ ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومةِ إلى أمورٍ باطنة لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة ، كدأب الباطنية فى التأويلات ؛ فهذا أيضاً حرامٌ وضرره عظيم . ومثال تأويلِ أهل الطامّات قولُ بعضهم فى تأويل قوله تعالى : (اذهَبْ إلى فِرعَونَ إنّه طَغىَ) إنّه إشارة إلى قلبه ، وقال : هو المراد بفرعون ، وهو الطاغى على كلّ إنسان ، وفى قوله تعالى : (وأَنْ ألقِ عَصاكَ) ، أى كلّ ما يُتوكأُ عليه ويعتمده ممّا سوى الله عز وجل ، فينبغى أن يلقيَه .

اللفظ الخامس وهو (الحكمة) ؛ فإنّ اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجّم ، حتى على الذى يُدحرج القُرْعة على أكفّ السّواديّة[1] فى شوارع الطرق . والحكمة هى التى أثنى الله عز وجل عليها فقال تعالى : (يُؤتِى الحكمَةَ مَنْ يشاءُ ومن يُؤْتَ الحكمَةَ فقد أُوتِىَ خيراً كثيراً) . وقال صلى الله عليه وسلم : « كلمةٌ من الحكمة يتعلّمها الرجلُ خيرٌ له من الدُّنيا وما فيها » . فانظر ما الذى كانت الحكمةُ عبارةً عنه ، وإلى ماذا نُقِل ، وقسْ به بقيةَ الألفاظ ، واحترِزْ عن الاغترار بتلبيسات علماءِ السّوءِ ، فإنّ شرّهم على الدين أعظمُ من شرّ الشياطين .

---

(١) السوادية : نسبة إلى سواد العراق ، وهو قراه .

بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة

اعلم أن العلم بهذا الاعتبار ثلاثة أقسام : قسمٌ هو مذموم قليله وكثيره . وقسم هو محمودٌ قليلُه وكثيره ، وكلَّما كان أكثر كان أحسنَ وأفضل . وقسم يحمد منه مقدارُ الكفاية ولا يحمد الفاضلُ عليه والاستقصاءُ فيه .

فالقسم المذموم منه قليله وكثيره هو مالا فائدة فيه فى دينٍ ولا دنيا إذ فيه ضررٌ يغلب نفعَه ، كعلم السِّحر والطُّلَّسمات[1] والنُّجوم .

وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله ، وسنَّته فى خلقه ، وحكمته فى ترتيب الآخرة على الدنيا ؛ فإن هذا علمٌ مطلوب لذاته وللتوصُّل به إلى سعادة الآخرة .

وأما العلوم التى لا يُحمَد منها إلاَّ مقدارٌ مخصوص فهى العلوم التى أوردناها فى فروض الكِفايات ؛ فإنَّ فى كلِّ علم منها اقتصاراً وهو الأقلُّ، واقتصاداً وهو الوسط ، واستقصاءً وراءَ ذلك الاقتصادِ لا مردَّ له إلى آخر العمر .

فكنْ أحدَ رجلين : إمَّا مشغولا بنفسك ، وإما متفرغاً لغيرك بعد الفراغ من نفسك . وإياك أن تشتغل بما يُصلح غيرَك قبل إصلاح نفسك. فما أشدَّ حماقةَ من دخلت الأَفاعى والعقاربُ تحت ثيابه وهَمّت بقتْله وهو يطلب مِذَّبةً يدفع بها الذُّبابَ عن غيره ممن لا يُغْنيه ، ولا ينْجِيه مما يلاقيه من تلك الحيات والعقاربِ إذا همَّت به .

---

(١) الطلسم : علم بأحوال تمزيج القوى الفعالة السماوية بالقوة المنفعلة الأرضية لأجل التمكن من إظهار ما يخالف العادة والمنع مما يوافقها . وانظر حواشى الحيوان ٥ : ٣٣٩ .

الباب الرابع

فى سبب إقبال الخلق على علم الخلاف
وتفصيل آفات المناظرة والجدل وشروط إباحتها

اعلم أنَّ الخلافةَ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تولاَّها الخلفاءُ الراشدون المهدّيون ، وكانوا أئمةً علماءَ بالله تعالى ، فقهاءَ فى أحكامه ؛ وكانوا مستقلِّين بالفتاوى فى الأقضية ، فكانوا لا يستعينون بالفقهاء إلا نادراً ، فى وقائعَ لا يُستغنى فيها عن المشاورة ، فتفرَّغَ العلماءُ لعلم الآخرة وتجرَّدوا لها ، وكانوا يتدافعون الفتاوى وما يتعلَّق بأحكام الخلق من الدنيا ، وأقبلوا على الله تعالى بكُنه اجتهادهم[1] كما نُقل من سِيَرهم .

فلما أفضت الخلافة بعدهم إلى أقوام تولَّوْها بغير استحقاق ، ولا استقلالٍ بعلم الفتاوى والأحكام ، اضطُرّوا إلى الاستعانة بالفقهاء ، وإلى استصحابهم فى جميع أحوالهم ، لاستفتائهم فى مجارى أحكامهم . وكان قد بقى من علماء التابعين من هو مستمرٌّ على الطِّراز الأوّل ، وملازمٌ صَفْوَ الدين ، ومواظبٌ على سَمْت علماء السَّلَف ؛ فكانوا إذا طُلبوا هربوا وأعرضوا ؛ فاضطُرَّ الخلفاءُ إلى الإلحاح فى طلبهم لتولية القضاء والحكومات ؛ فرأى أهلُ تلك الأعصار عزَّ العلماء ، وإقبالَ الأئِمَّة والولاة عليهم ، مع إعراضهم عنهم ، فاشرأبّوا لطلب العلم توصّلاً إلى نيل العِزّ ودَرْكِ الجاه من قِبَل الولاة ؛ فأكبُّوا على علم الفتاوَى ، وعَرَضوا أنفسهم على الولاة ، وتعرَّفوا إليهم ، وطلبوا الولاياتِ والصِّلاتِ

---

(١) أى بغاية اجتهادهم ونهايته .

منهم ؛ فمنهم من حُرِم ومنهم من أَنجح[١] ، والمُنْجح لم يخلُ من ذلٍّ الطلب ومهانة الابتذال ؛ فأَصبح الفقهاءُ – بعد أَن كانوا مطلوبين – طالبين ، وبعد أَن كانوا أَعزَّةً بالإعراض عن السلاطين ، أَذلَّةً بالإقبال عليهم .

ثم ظهر بعدهم من الصدور والأُمراءِ من يسمع مقالاتِ الناس فى قواعد العقائِد ، ومالت نفسُه إلى سماع الحجج فيها ؛ فعُلمت رغبتُه إلى المناظرة والمجادلة فى الكلام . فأَكبَّ الناسُ على علم الكلام وأَكثروا فيه التصانيف ، ورتَّبوا فيه طرقَ المجادلاتِ ، واستخرجوا فنون المناقضات فى المقالات ، وزعموا أَن غرضَهم الذبُّ عن دين الله ، والنِّضالُ عن السنة ، وقمعُ المبتدِعة .

ثم ظهر بعد ذلك من الصُّدور من لم يستصوب الخوضَ فى الكلام وفتحَ باب المناظرة فيه ، لما كان قد تولَّد مِن فتح بابهِ من التعصُّبات الفاحشة ، والخصومات الفاشية المفضية إلى إهراق الدماءِ ، وتخريب البلاد ؛ ومالت نفسُه إلى المناظرة فى الفقه ، وبيان الأَوْلَى من مذهب الشافعى وأَبى حنيفة رضى الله عنهما على الخصوص ، فترك الناس الكلامَ وفنونَ العلم ، وانثالوا[٢] على المسائل الخلافية بين الشافعى وأَبى حنيفة على الخصوص ، وتساهَلوا فى الخلاف مع مالك وسفيانَ وأَحمد رحمهم الله تعالى وغيرهم ، وزعموا أَنَّ غرضهم استنباط دقائِقِ الشرع ، وتقريرُ علل المذهب ، وتمهيدُ أَصولِ الفتاوَى ، وأَكثروا فيها التصانيف والاستنباطات ، ورتَّبوا فيها أَنواعَ المجادلات والتصنيفات . وهم مستمرون عليه إلى الآن ، ولسنا ندرى ما الذى يُحدِث الله فيما بعدَنا من الأَعصار ؟ فهذا هو الباعث على الإكباب على الخلافيات والمناظرات لا غير .

---

(١) أنجح : صار ناجحاً .

(٢) انثالوا : اندفعوا . ويقال انثال المال ، بمعنى انصب انصبابا .

بيان آفات المناظرة
وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق

نشير الآن منها إلى مجامعِ ما تَهيجه المناظرة :

فمنها الحَسَد ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحسدُ يأْكل الحسناتِ كما تأْكل النارُ الحطَب » . ولا ينفك المناظر عن الحسَد فإنه تارة يَغلب وتارة يُغلَب ، وتارة يُحمَد كلامُه وأُخرى يُحمَد كلامُ غيره . فما دام يبقى فى الدنيا واحدٌ يُذكرُ بقوة العلم والنظر ؛ أو يَظُنّ أنه أحسنُ منه كلاماً وأقوى نظراً ، فلا بد أن يحسُدَهَ ويحبَّ زوال النِّعم عنه ، وانصرافَ القلوب والوجوه عنه إليه .

ومنها التكبُّر والترفُّع على الناس ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « مَن تكبَّر وضعَهُ الله ، ومن تواضَع رفعه الله » . ولا ينفك المناظر عن التكبُّر على الأَقران والأَمثال ، والترفُّع إلى فوقِ قدرِه ، حتَّى إنهم ليَتقاتلون على مجلسٍ من المجالس يتنافسون فيه فى الارتفاع والانخفاض ، والقربِ من وِسادة الصَّدْر والبعدِ منها .

ومنها الحقد ، فلا يكاد المُناظر يخلو عنه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « المؤمنُ ليس بحَقُود » . وورد فى ذمّ الحقد مالا يخفى . ولا نرى مناظراً يقدر على أن لا يضمر حقداً على من يحرِّك رَأسه من كلام خصمه ، ويتوقَّف فى كلامه ، فلا يقابله بحسن الإصغاء ، بل يضطر إذا شاهد ذلك إلى إضمار الحقد وتربيته فى نفسه . بل لو صَدَر من خصمه أدنى سببٍ فيه قلَّة مبالاةٍ بكلامه انغرسَ فى صدره حقدٌ لا يَقلَعه مدى الدهر ، إلى آخر العمر .

ومنها الغِيبة . وقد شبَّهها الله بأَكل المَيْتة . ولا يزال المناظر مثابراً على أكل الميتة ، فإنَّه لا ينفك عن حكايةِ كلام خَصمه ومذمَّته .

ومنها تزكية النفس ، قال الله تعالى : (فلا تُزكُّوا أنفُسَكُم هو أعلَمُ بمن اتَّقَى) . ولا يخلو المُناظر من الثناء على نفسه بالقوّة والغلبة ، والتقدُّم بالفضل على الأقران وغيرِ ذلك ، مما يَتمدَّح به تارةً على سبيل الصَّلَف[1] ، وتارة للحاجة إلى ترويج كلامه . ومعلوم أنَّ الصَّلفَ والتمدُّحَ مذمومان شرعاً وعقلاً .

ومنها التجسُّس وتتبُّع عَوْرات الناس ؛ وقد قال تعالى : (ولا تَجَسَّسُوا) . والمناظر لا ينفكُّ عن طلب عثراتِ أقرانه ، وتتبُّع عورات خُصومه ، حتَّى إنَّه ليُخْبَرُ بورود مناظرٍ إلى بلده ، فيطلب من يَخبُرُ بواطنَ أحوالهِ ويستخرج بالسؤال مَقابحَه ، حتَّى يعدَّها ذخيرةً لنفسه فى إفضاحه وتخجيله إذا مَسَّت إليه حاجة ، حتَّى إنه ليستكشف عن أحوال صباه وعن عيوب بدنه ، فعساه يعثُر على هفوةٍ أو على عيب به ، من قَرَعٍ أو غيره . ثم إذا أحسَّ بأَدنى غَلبةٍ من جهته عرَّض به إن كان متماسكًا ، ويُستحسَن ذلك منه ويعدُّ من لطائف التسبُّب . ولا يمتنع عن الإفصاح به إن كان متبجِّحًا بالسفاهة والاستهزاء .

ومنها الفرحُ لمساءة الناس والغمُّ لمَسَارِّهم . فكما أنَّ إحدى الضرائر إذا رأت صاحبتها من بعيد ارتعدتْ فرائصها ، واصفرَّ لونها ، فهكذا ترى المناظر إذا رأى مناظراً تغيَّر لونه ، واضطرب عليه فكره ، فكأنَّه يشاهد شيطاناً ماردا ، أو سبعاً ضارياً .

ومنها النفاقُ . فلا يُحتاج إلى ذكر الشواهد فى ذمِّه . وهم مضطرون إليه ، فإنهم يلقَوْن الخصومَ ومحبِّيهم وأشياعَهم ، ولا يجدون بدًّا من

---

(١) الصلف : الادعاء بما ليس عنده .

التودُّد إليهم باللسان ؛ وإظهار الشوقِ ، والاعتدادِ بمكانهم وأحوالهم .
ويعلم ذلك المخاطِب والمخاطَب وكلُّ من يسمع منهم ، أنَّ ذلك كذب
وزُور ، ونفاق وفجور .

ومنها الاستكبار عن الحقّ وكراهتُه ، والحرصُ على المماراة فيه ،
حتى إنَّ أبغض شيء إلى المُناظِر أنْ يظهَر على لسان خَصمهِ الحقُّ .
ومهما ظهر تشمَّرَ لجحده وإنكاره بأقصى جهده ، وبذل غايةَ إمكانه فى
المخادعة والمكر والحيلة لدفعه ، حتَّى تصيرَ المماراة فيه عادةً طبيعية ،
فلا يسمع كلامًا إلاَّ وينبعث من طبعه داعيةُ الاعتراضِ عليه ؛ حتَّى
يغلب ذلك على قلبه فى أدلَّة القرآن ، وألفاظِ الشرع ؛ فيضرب البعضَ
منها بالبعض .

ومنها الرياءُ . والرياءُ هو الداءُ العُضَال الذى يدعو إلى أكبر الكبائر .
والمُناظِر لا يقصِد إلاَّ الظهور عند الخلق ، وانطلاق ألسنتهم بالثناء عليه .

فهذه خصالٌ من أمهات الفواحش الباطنة ، سوى ما يتَّفق لغير
المتماسكين منهم من الخصام المؤدِّى إلى الضرب واللَّكْم واللَّطم ، وتمزيق الثياب ؛
والأخذ باللِّحى ، وسبِّ الوالدين ، وشتم الأستاذِينَ ، والقذف الصريح
ثم يتشعَّب من كل واحدةٍ من هذه الخصال العشرِ عشرٌ أخرى من الرذائل ،
لم نُطوِّل بذكرها وتفصيل آحادها ، مثل الأَنفَةَ والغضب ، والبغضاء ،
والطمع ، وحبِّ طلب المال والجاه ، للتمكُّن من الغلبة والمباهاة ، والأَشَر
والبطَر ، وتعظيم الأغنياء والسَّلاطين ، والتردُّد إليهم والأخذ من حرامهم.
والتجمُّل بالخيول والمراكب والثياب المحظورةَ ، والاستحقار للناس
بالفخر والخيلاء ؛ والخوض فيما لا يَعنى ، وكثرةِ الكلام ، وخروج
الخشية والخوف والرحمة من القلب ، واستيلاء الغفلة عليه حتَّى لا يدرى
المصلِّى منهم فى صلاته ما صَلَّى ؟ وما الذى يقرأُ ؟ ومن الذى يُناجيه ؟

الباب الخامس

فى آداب المتعلم والمعلم

أما المتعلم فآدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة ، ولكن تنتظم تفاريقها عشرُ جمل :

الوظيفة الأُولى : تقديمُ طهارةِ النفس عن رذائل الأَخلاق ومذموم الأَوصاف ، إذ العلمُ عبادة القلب وصلاةُ السِّرِّ ، وقربة الباطن إلى اللهَ تعالى ؛ وكما لا تصحُّ الصلاة التى هى وظيفةُ الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأَحداث والأَخباث ، فكذلك لا تصحُّ عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلاَّ بعد طهارته عن خبائث الأَخلاق ، وأنجاس **الأَوصاف** .

الوظيفة الثانية : أن يقلِّل علائقه من الاشتغال بالدنيا ، ويَبعُدَ عن الأَهل والوطن ؛ فإنَّ العلائق شاغلة وصارفة ، و (ما جعلَ اللهُ لرجل مِنْ قَلبين فى جَوفه) . ومهما تُوزِّعت الفكرة قَصُرت عن درك الحقائق . ولذلك قيل : « العلم لا يُعطيك بعضَه حتَّى تعطيَه كلَّك . فإذا أَعطيتَه كلَّك فأَنت من عطائِه إيّاك بعضَه على خطر » . والفكرة المتوزَّعة على أُمور متفرِّقة كجدول تفرّق ماؤه فنَشِفَت الأَرضُ بعضَهَ ، واختطف الهواءُ بعضَه . فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزدَرَع[1] .

الوظيفة الثالثة : أن لا يتكبر على العلم ولا يتأَمّر على المعلم . بل يُلقى إليه زمامَ أَمره بالكُلِّيَّة فى كُلِّ تفصيل . ويُذعن لنصيحتِهِ إذعانَ

---

(١) المزدرع : المزرعة .

المريضِ الجاهل للطبيب المشفِق الحاذق . وينبغى أَن يتواضع لمعلِّمه ويطلب الثوابَ والشرف بخدمته .

الوظيفة الرابعة : أَن يحترز الخائضُ فى العلم فى مبدإِ الأَمر عن الإِصغاءِ إِلى اختلاف الناس ، سواءٌ كانَ ما خاضَ فيه من علوم الدنيا أَو من علوم الآخرة ؛ فإِن ذلك يُدهِشُ عقلَه ويحيِّرُ ذهنَه ويفتِّر رأْيَه ، ويؤيسه عن الإِدراك والاطلاع ، بل ينبغى أَن يُتْقِنَ أَوّلاً الطريقَ الحميدةَ الواحدة المرضيّة عند أُستاذه ، ثم بعد ذلك يُصغى إِلى المذاهب والشُّبَه . وإِن لم يكن أُستاذه مستقلاً باختيار رأْى واحد ، وإِنما عادته نقلُ المذاهب وما قِيل فيها ، فليحذَرْ منه ؛ فإِنَّ إِضلاله أَكثرُ من إِرشاده ، فلا يصلح الأَعمَى لقَود العميان وإِرشادهم .

الوظيفة الخامسة : أَن لا يدَعَ طالبُ العلم فنًّا من العلوم المحمودة ، ولا نوعا من أَنواعه إِلاَّ وينظر فيه نظراً يطَّلعُ به على مقصده وغايته . ثم إِنْ ساعدَه العمرُ طلبَ التبحُّر فيه ، وإِلَّا اشتغل بالأَهمِّ منه ، وتطرَّف[1] من البقية ؛ فإِن العلوم متعاونة ، وبعضُها مرتبط ببعض .

الوظيفة السادسة : أَن لا يخوض فى فنّ من فنون العلم دَفعةً . بَل يراعى الترتيب و يبتدئُ بالأَهمّ ، فإِنَّ العمرَ إِذا كان لا يتَّسع لجميع العلوم غالباً فالحزم أَنْ يأْخذ من كلٍّ شىءٍ أَحسنه ، ويكتفى منه بشمّه . ويصرف جمام قوَّته فى الميسور من علمه إِلى استكمال العلم الذى هو أَشرفُ العلوم ، وهو علم الآخرة .

الوظيفة السابعة : أَن لا يخوض فى فنٍّ حتى يستوفىَ الفنَّ الذى قبله ، فإِن العلوم مرتَّبة ترتيباً ضروريًا ، وبعضها طريقٌ إِلى بعض .

---

(١) التطرف : الأخذ من الأطراف .

والموفَّق مَن راعى ذلك الترتيب والتدريج . وليكنْ قصدُه فى كلِّ علمٍ يتحرَّاه الترقِّيَ إلى ما هو فوقه .

الوظيفة الثامنة : أن يعرف السببَ الذى به يدرك أشرفَ العلوم ، وأنَّ ذلك يراد به شيئان ؛ أحدهما : شرف الثمرة ، والثانى : وثاقة الدليل وقوَّتُه ، وذلك كعلم الدين وعلم الطب ؛ فإنَّ ثمرةَ أحدِهما الحياةُ الأبدية ، وثمرةَ الآخَر الحياةُ الفانية ، فيكون علم الدين أشرف . ومثلُ علم الحساب وعلم النجوم ؛ فإنّ علم الحساب أشرفُ ، لوثاقة أدلَّتِه وقوَّتها ، وإنْ نُسِب الحسابُ إلى الطب كان الطبُّ أشرفَ باعتبار ثمرته ، والحسابُ أشرفَ باعتبارِ أدلَّته . وملاحظة الثمرة أولى ؛ ولذلك كان الطب أشرف وإنْ كان أكثرُه بالتخمين .

الوظيفة التاسعة : أن يكون قَصْدُ المتعلم فى الحال تحليةَ باطنه وتجميله بالفضيلة ، وفى المآل القربَ من الله سبحانه والترقِّيَ إلى جوار الملإِ الأعلى من الملائكة والمقرَّبين ، ولا يَقصِد به الرِّياسة والمالَ والجاه ، ومماراةَ السفهاء ومباهاةِ الأقران . وإذا كان هذا مَقصِدَه طَلب لامحالة الأقربَ إلى مقصوده ، وهو علم الآخرة . ومع هذا فلا ينبغى له أن ينظر بعين الحقارة إلى سائر العلوم ، أعنى علم الفتاوَى ، وعلم النحو واللُّغة المتعلِّقَين بالكتاب والسنَّة ، وغير ذلك مما أوردناه فى المقدّمات والمتمّمات ، من ضروب العلوم التى هى فرضُ كفاية . ولا تفهمنَّ من غُلُوِّنا فى الثناء على علم الآخرة تهجينَ هذه العلوم . فالمتكفِّلون بالعلوم كالمتكفِّلين بالثغور والمرابطين بها ، والغزاةِ والمجاهدين فى سبيل الله : فمنهم المقاتل ، ومنهم الرِّدءُ[1] ، ومنهم الذى يسقيهم الماءَ ، ومنهم الذى يحفظ دوابَّهم

(١) الرده بكسر الراء : العون .

ويتعهّدهم . ولا ينفكُّ أحدٌ منهم عن أجر ، إذا كان قصدُه إعلاء كلمة الله تعالى دون حيازة الغنائم . فكذلك العلماءُ .

الوظيفة العاشرة : أن يَعْلم نسبةَ العلوم إلى المقصِد ، كيما يُؤْثر الرفيعَ القريبَ على البعيد ، والمهمَّ على غيره .

بيان وظائف المرشد المعلم

الوظيفة الأُولى : الشَّفقة على المتعَلِّمين ، وأن يُجرِيَهم مُجرى بنيه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّما أنا لكم مثلُ الوالدِ لولَده » .

ولذلك صار حقُّ المعلم أعظمَ من حقِّ الوالدين ، فإنَّ الوالد سببُ الوجودِ الحاضر والحياةِ الفانية ، والمعلِّم سبب الحياة الباقية .

الوظيفة الثانية : أنْ يقتدىَ بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه ، فلا يطلُبُ على إفادة العلم أجراً ، ولا يقصد به جزاءً ولا شكراً ، بل يعلِّم لوجه الله تعالى ، وطلباً للتقرُّب إليه ، ولا يرى لنفسه مِنَّةً عليهم وإن كانت المنَّةُ لازمةً عليهم ، بل يرى الفضلَ لهم إذا هذَّبوا قلوبَهم لأن تتقرَّب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها .

الوظيفة الثالثة : أن لا يدعَ من نُصح المتعلم شيئاً ، وذلك بأن يمنَعه من التصدِّى لرتبةٍ قبل استحقاقِها ، والتشاغُلِ بعلمٍ خفيٍّ قبل الفراغ من الجليّ ، ثم ينبِّهه على أنَّ الغرض بطلب العلوم القربُ إلى الله تعالى دون الرياسة والمباهاة والمنافسة .

الوظيفة الرابعة ، وهى من دقائق صناعة التعليم : أن يزجُر المتعلِّمَ عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكنَ ولا يصرِّح ، وبطريق الرَّحمة لا بطريق التوبيخ ؛ فإنَّ التصريح يهتِك حجابَ الهيبة ، ويورث الجُرأة على الهجوم بالخلاف ، ويَهيج الحِرصَ على الإصرار ؛ إذ قال

صلى الله عليه وسلم ، وهو مرشد كلِّ معلِّم : « لو مُنع الناسُ عن فتّ البعر لَفَتُّوهُ وقالوا : ما نُهينا عنه إلّا وفيه شيءٌ » .

الوظيفة الخامسة : أنّ المتكفل ببعض العلوم ينبغي أن لا يقبِّح في نفس المتعلِّم العلومَ التي وراءه ، كمعلم اللغة إذْ عادته تقبيحُ علم الفقه ، ومعلم الفقه عادته تقبيحُ علم الحديث والتفسير . فهذه أخلاقٌ مذمومة للمعلِّمين ينبغي أن تُجتنَب .

الوظيفة السادسة : أن يقتصر بالمتعلِّم على قَدْرِ فَهْمه ، فلا يلقي إليه ما لا يبلغُه عقلُه فينفِّره ، أو يُخبِط عليه عقلَه ، اقتداءً في ذلك بسيِّد البشر صلى الله عليه وسلم حيث قال : « نحنُ معاشرَ الأنبياءِ أُمِرنا أن نُنْزِلَ الناسَ منازلهم ، ونكلِّمهم على قدر عقولهم » .

الوظيفة السابعة : أنَّ المتعلم القاصر ينبغي أن يُلقِيَ إليه الجليَّ اللائق به ، ولا يذكرَ له أنّ وراءَ هذا تدقيقًا وهو يدَّخره عنه ؛ فإنّ ذلك يفتِّر رغبته في الجليّ ، ويشوِّش عليه قلبه ، ويُوهم إليه البخلَ به عنه ، إذْ يظنُّ كل أحدٍ أنه أهلٌ لكلِّ علمٍ دقيق . فما من أحدٍ إلاَّ وهو راضٍ عن الله سبحانه في كمال عقله ، وأشدُّهم حماقة وأضعفهم عقلا هو أفرحهم بكمال عقله .

الوظيفة الثامنة : أن يكون المعلِّم عاملا بعلمه ، فلا يكذِب قولَه فعلُه . ومَثَل المعلِّم المرشِد من المسترشِدين ، مثَلُ النَّقْش من الطين ، والظلِّ من العود ، فكيف ينتقش الطِّين بما لا نقش فيه ؟ ومتى استوى الظلُّ والعود أعوَج ! ولذلك قيل في المعنى[1] :

لا تنهَ عن خُلقٍ وتأْتِيَ مثله   عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمْ

(١) القائل هو أبو الأسود الدؤلي .

الباب السادس

فى آفات العلم وبيان علامات علماء الآخرة والعلماء السوء

ونعنى بعلماء الدنيا علماءَ السُّوءِ الذين قصْدُهم من العلم التنعُّم بالدنيا. والتوصُّلُ إلى الجاه والمنزلة عند أهلها . قال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ أَشدَّ الناس عذابًا يومَ القيامة عالمٌ لم يَنفعه اللهُ بعلمه » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « لا تتعلَّموا العلم لتُباهُوا به العلماءَ ، ولتُماروا به السفهاءَ ، ولِتصرفوا به وجوهَ الناس إليكم ، فمن فعلَ ذلك فهو فى النار » .

وقال عيسى عليه السلام : إلى مَنْ تَصفُون الطريقَ للمدلجِين وأنتم مقيمون مع المتحيِّرين !

وأما الآثار فقد قال عمر رضى الله عنه : إنَّ أخوفَ ما أخافُ على هذه الأُمة المنافقُ العليم . قالوا : وكيف يكون منافقاً عليما ؟ قال : عليمُ اللسان ، وجاهلُ القلب والعمل . وقال سُفيان الثوريُّ رحمه الله : يَهتِف العلمُ بالعمل ، فإنْ أجابه وإلَّا ارتحل . وقال ابن المبارَك : لا يزال المرءُ عالمًا ما طلَبَ العلمَ ، فإذا ظنَّ أنه قد عَلِمَ فقد جهل .

ومن العلماءِ من يخزُن علمه فلا يحبُّ أن يُوجد عند غيره ، فذلك فى الدَّرْك الأوَّلِ من النار .

ومن العلماءِ مَن يكون فى علمه بمنزلة السُّلطان ، إنْ رُدَّ عليه شىءٌ من علمه أو تُهووِنَ بشىء من حقِّه غضب ، فذلك فى الدَّرْك الثانى من النار .

ومن العلماءِ من يجعل علمَه وغرائبَ حديثه لأَهل الشَّرف واليسار ولا يرى أهلَ الحاجة له أهلا ، فذلك فى الدَّرْك الثالثِ من النار .

ومن العلماء مَن ينصبُ نفسه للفُتيا فيفتى بالخطأ ، والله تعالى يُبغض المتكلِّفين ، فذلك فى الدَّرْك الرابع من النار .

ومن العلماء من يتكلَّم بكلام اليهود والنصارى ليعزّز به علما ، فذلك فى الدَّرْك الخامس من النار .

ومن العلماء مَنْ يتخذ علمه مروءةً ونُبلاً وذكراً فى الناس ، فذلك فى الدَّرْك السادس من النار .

ومن العلماء من يستفزُّه الزهوُ والعُجْب ، فإن وَعَظ عَنُف ، وإن وُعظ أَنِف ، فذلك فى الدَّرْك السابع من النار .

وقد حُكى أنَّ يحيى بن يزيد النَّوفلى كتب إلى مالك بن أنس رضى الله عنهما :

« بسم الله الرحمن الرحيم . وصلى الله على رسوله محمد فى الأولين والآخِرين. مِن يَحْيى بن يزيد بن عبد الملك إلى مالك بن أنس ، أما بعد: فقد بلغنى أنَّك تلبس الدِّقاق ، وتأْكل الرِّقاق ، وتجلس على الوَطىء ، وتجعل على بابك حاجباً ، وقد جلستَ مجلسَ العلم ، وقد ضُربت إليك المطىُّ ، وارتحل إليك الناس ، واتَّخذوك إماما ، ورضُوا بقولك . فاتَّق الله تعالى يا مالك ، وعليك بالتواضع . كتبتُ إليك بالنصيحة منى كتاباً ما اطَّلع عليه غيرُ الله سبحانه وتعالى . والسلام » .

فكتب إليه مالك :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمدوآله وصحبه وسلم . من مالك بن أنس إلى يحيى بن يزيد . سلامُ الله عليك . أما بعد : فقد وصل إلىّ كتابُك فوقع منى موقعَ النصيحة والشَّفقة والأَدب ، أمتعك الله بالتقوى ، وجزاكَ بالنصيحة خيراً ، ولا حولَ ولا قوةَ

إلّا بالله العليّ العظيم . أمّا ما ذكرت لى أنّى آكُل الرِّقاق وألبس الدِّقاق ، وأحتجب وأجلس على الوطىء ، فنحن نفعلُ ذلك ونستغفر الله تعالى ، فقد قال الله تعالى : (قُلْ مَن حَرَّم زِينَةَ الله الّتى أَخْرَجَ لعباده والطَّيباتِ من الرِّزق) . وإنِّى لأَعلم أنّ تَرْكَ ذلك خيرٌ من الدخول فيه . ولا تدَعْنا من كتابك ، فلسنا ندعُك من كتابنا . والسلام » .

فانظر إلى إنصافِ مالك ، إذ اعترفَ أنّ ترك ذلك خير من الدخول فيه ، وأفتى بأنّه مباحٌ . وقد صَدَق فيهما جميعاً .

الباب السابع

في العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه

بيان شرف العقل

اعلم أنَّ هذا مما لا يحتاج إلى تكلُّفٍ فى إظهاره ، لا سيَّما وقد ظهر شَرفُ العلم من قِبَل العقل ، والعقل منبع العلم ومطلعهُ وأساسه ، والعلم يجرى منه مَجرى الثمرةِ من الشَّجرة ، والنُّورِ من الشمس ، والرؤيةِ من العين ، فكيف لا يَشرفُ ما هو وسيلةُ السَّعادة فى الدنيا والاخرة ؟ .

وقد سماه الله نُوراً فى قوله تعالى : (الله نورُ السَّمواتِ والأَرض مَثَلُ نوره كمِشكاةٍ فيها مِصْباح[1]). وسمَّى العلمَ المستفاد منه رُوحاً وَوَحْيًا وحياة ، فقال تعالى : (وكذلك أوحينا إليكَ رُوحاً من أمرنا) ، وقال سبحانه : (أَوَ منْ كان مَيتاً فأَحيَيْناه وجَعَلْنا له نُوراً يَمشِى به فى الناس) . وحيث ذكر النور والظلمة أراد به العلم والجهل ، كقوله : (يُخرِجُهُمْ من الظُّلمات إلى النُّور) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « قلتُ يا رسول الله : بم يتفاضل النَّاس فى الدنيا ؟ قال : بالعقل . قلت : وفى الآخرة ؟ قال : بالعقل . قلت : أَليس إنما يُجزَون بأَعمالهم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « ياعائشة وهل عَمِلوا إلاَّ بقدر ما أعطاهم عزَّ وجل من العقل ؟ فبقدر ما أُعطوا من العقل كانت أعمالهم ، وبقدر ما عملوا يُجزَوْن » .

---

(١) المشكاة : الكوة التى ليست بنافذة .

بيان حقيقة العقل وأقسامه

والحقّ الكاشف للغطاء فيه أنّ العقل اسمٌ يطلق بالاشتراك على أربعة معانٍ ، كما يطلق اسمُ العين مثلاً على معانٍ عدَّةٍ بالكشف عنه .

فالأول : الوصف الذى يفارق الإنسانُ به سائر البهائم ، وهو الذى استعدّ به لقبول العلوم النظرية ، وتدبير الصناعات الخفيَّة الفكرية .

الثانى : العلوم التى تخرج إلى الوجود فى ذات الطفل المميِّز ، بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات ، كالعلم بأنَّ الاثنين أكثر من الواحد ، وأنَّ الشخصَ الواحد لا يكون فى مكانين فى وقتٍ واحد .

الثالث : علوم تُستفاد من التجارب بمجارى الأحوال ، فإنَّ من حنَّكته التجاربُ ، وهذَّبته المذاهب ، يقال إنه عاقلٌ فى العادة ، ومن لا يتَّصف بهذه الصِّفة فيقال إنه غبيٌّ غمرٌ جاهل .

الرابع : أن تنتهى قوّة هذه الغريزة إلى أن يعرف عواقبَ الأمور ، ويقمعَ الشهوةَ الداعية إلى اللَّذة العاجلة ويَقهرَها . فإذا حصَلَتْ على هذه القوّة سمّى صاحبُها عاقلا .

بيان تفاوت النفوس فى العقل

قد اختلف الناس فى تفاوت العقل . والحقُّ الصريح فيه أن يقال : إنَّ التفاوت يتطرَّق إلى الأقسام الأربعة سوى القسم الثانى ، وهو العلم الضرورى بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات ؛ فإنَّ من عرف أن الاثنين أكثر من الواحد عَرَف أيضاً استحالةَ كون الجسم فى مكانين وكونِ الشيء الواحد قديماً حادثاً ، وكذا سائر النَظائر وكل ما يدركه إدراكاً محقَّقًا من غير شك .

(١) الغمر : الذى لم يجرب الأمور . والغين فيه مثلثة .

وأما الأقسام الثلاثة فالتَّفاوتُ يتطرَّق إليها .

أَما القسم الرابع وهو استيلاءُ القوَّة على قمع الشهوات فلا يخفى تفاوتُ الناسِ فيه ، بل لا يخفى تفاوتُ أَحوالِ الشَّخص الواحد فيه ، وهذا التفاوتُ يكون تارةً لتفاوت الشَّهوة ، إذ قد يَقدِر العاقل على ترك بعض الشهواتِ دون بعض ، ولكن غير مقصور عليه . فإنَّ الشابَّ قد يَعجِز عن ترك الزِّنَى ، وإذا كَبِر وتمّ عقلُه قدَر عليه . وشهوة الرياء والرياسة تزداد قوّةً بالكِبَر لا ضعفًا . وقد يكون سببه التفاوتَ فى العلم المعرِّفِ لغائلة تلك الشهوة ، ولهذا يَقْدِر الطبيب على الاحتماء عن بعض الأَطعمةِ المضرَّةِ ، وقد لا يقدر من يساويه فى العقل على ذلك إذا لم يكن طبيباً ، وإن كان يعتقد على الجملة فيه مضرّةً .

وكذلك يكون العالم أقدرَ على ترك المعاصى من الجاهل ؛ لقوّة علمه بضرر المعاصى . وأعنى به العالِمَ الحقيقيَّ ، دونَ أَربابِ الطَّيالسة[1] وأَصحابِ الهذَيَان .

(١) الطيالسة : جمع طيلسان . وهو نوع من العباء كان يلبسه العلماء والمشايخ . وهو من لباس العجم . انظر حواشى البيان والتبيين ٢ : ٣٤٢ .

الكتاب الثاني

كتاب قواعد العقائد

وفيه أربعة فصول .

الفصل الأول

فى ترجمة عقيدة أهل السنة فى كلمتى الشهادة التى هى أحد مبانى الإسلام

فنقول وبالله التوفيق :

الحمد لله المبدئِ المُعيد ، الفعَّالِ لما يريد ، ذى العرش المجيد . والبطش الشديد ، الهادى صفوة العبيد إلى المنهج الرشيد ، والمسلك السديد ، المُنعِم عليهم بعد شهادة التوحيد بحراسة عقائدهم عن ظلمات التشكيك والترديد ، السالكِ بهم إلى اتِّباع رسوله المصطفَى واقتفاء آثار صَحْبه الأكرمين المكرَّمين بالتأْييد والتسديد ، المتجلِّى لهم فى ذاته وأفعالِه بمحاسن أوصافِه ، التى لا يدركها إلَّا من ألقَى السَّمعَ وهو شهيد ، المعرِّف إياهم أنَّه فى ذاتِه واحدٌ لا شريكَ له ، فردٌ لا مثيلَ له ، صَمَدٌ لا ضِدَّ له ، منفرد لا نِدَّ له ؛ وأنَّه واحد قديم لا أوَّل له ، أزلىٌّ لا بداية له ، مستمرُّ الوجودِ لا آخِر له ، أبدىٌّ لا نهاية له ، قَيَّومٌ لا انقطاعَ له ، دائم لا انصرامَ له ؛ لم يزلْ ولا يزالُ موصوفاً بنعوت

الجلال . لا يَنقضي عليه بالانقضاء والانفصال ؛ بتصرُّم الآباد[1] وانقراض الآجال ، بل (هو الأَوَّلُ والآخِرُ والظَّاهر والباطنُ وهو بكُلِّ شيء عليم) .

وأنَّه ليس بجسمٍ مصوَّرٍ ، ولا جوهرٍ محدودٍ مقدَّر . وأنَّه لا يماثل الأَجسام ، لا في التقدير ولا في قبول الانقسام . وأنه ليس بجوهر ولا تحُلُّه الجواهر ، ولا بِعرَضٍ ولا تحلُّه الأَعراض ، بل لا يماثله موجود ، (لَيْسَ كمِثلِهِ شيءٌ) .

وأنَّه تعالى حيٌّ قادرٌ ، جبَّار قاهر ، لا يعتريه قُصورٌ ولا عَجْز ، ولا تأْخذه سِنَةٌ ولا نوم ، ولا يُعارضه فناءٌ ولا موت ، وأنَّه ذو المُلك والمَلَكوت ، والعزَّةِ والجَبَروت .

وأنَّه عالمٌ بجميع المعلومات ، محيطٌ بما يَجرى من تُخوم[2] الأَرَضين إلى أعلى السموات . وأنَّه عالم لا يعزُب[3] عن علمه مثقالُ ذرَّةٍ في الأَرض ولا في السماء ، بل يعلم دبيبَ النَّملة السوداء على الصَّخرة الصماء في الليلة الظلماء ، ويدرك حركة الذَّرِّ[4] في جوِّ الهواء ؛ ويعلم السِّرَّ وأخفى ؛ وأنَّه تعالى مريدٌ للكائنات ، مدبّر للحادثات ؛ فلا يجرى في المُلك والمَلكوت قليلٌ أو كثير : صغيرٌ أو كبير ، خيرٌ أو شرٌّ ، نفع أو ضَرٌّ ، إيمانٌ أو كفر ، عِرفان أو نُكر ، فَوزٌ أو خُسران ، زيادةٌ أو نقصان ، طاعةٌ أو عِصيان ، إلاَّ بقضائه وقَدَره ، وحكمته ومشيئته . فما شاءَ كانَ وما لم يشأْ لم يكن .

---

(١) التصرم : الا نقطاع والانقضاء .

(٢) التخوم : حدود الأرض .

(٣) لا يعزب : لا يبعد .

(٤) الذر هنا هو الأشياء الدقيقة التي ترى في شعاع الشمس الداخل من النافذة . وهو ما يسمى بالأثير .

وأنه تعالى سميع بصير ، يسمع ويرى ، لا يعزُب عن سمعه مسموع وإنْ خفىَ ، ولا يغيبُ عن رؤيته مرئىٌّ وإنْ دقَّ ، ولا يحجب سمعَه بُعدٌ ولا يَدفع رؤيتَه ظلام .

وأنَّه تعالى متكلِّمٌ آمرٌ ناهٍ ، واعدٌ متوعِّد، بكلامٍ أزلىٍّ قديم قائم بذاته ، لا يُشبه كلام الخلق ؛ فليس بصوت يحدُث من انحلال هواء أو اصطكاك أجرام ، ولا بحرفٍ ينقطع بإطباق شفَةٍ أو تحريك لسان .

وأنه سبحانه وتعالى لا موجودَ سواه إلّا وهو حادثٌ بفعله ، وفائضٌ من عدله ، على أحسن الوجوه وأكملها ، وأتمّها وأعدلها . وأنَّه حكيم فى أفعاله ، عادلٌ فى أقضيته ، لا يقاس عدلُه بعدل العباد ، إذ العبدُ يُتصوَّر منه الظلم بتصرُّفِه فى ملك غيره ، ولا يُتصوَّر الظلم من الله تعالى ؛ فإنه لا يصادف لغيره مِلكًا حتّى يكون تصرُّفُه فيه ظلمًا .

(معنى الكلمة الثانية) . وهى الشهادة للرسل بالرسالة ، وأنَّه بعث النبىَّ الأُمِّىَّ القُرَشى محمداً صلى الله عليه وسلم برسالته إلى كافَّة العرب والعجَم ، والجنِّ والإنس ، فنسَخَ بشريعته الشرائعَ إلّا ما قرَّره منها . وفضَّله على سائر الأنبياء وجعله سيد البشر ، ومنع كمالَ الإيمان بشهادة التوحيد ، وهو قول : « لا إله إلا الله » ، ما لم تقترنْ بها شهادةُ الرسول وهو قولك: « محمد رسول الله » . وألزم الخلقَ تصديقَه فى جميع ما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة .

فمن اعتقد جميعَ ذلك مُوقناً به كان من أهل الحقِّ وعصابة السنة ، وفارَقَ رهطَ الضلال وحِزبَ البِدعة .

فنسأل الله كمالَ اليقين ، وحسنَ الثبات فى الدين ، لنا ولكافة المسلمين ، برحمته إنه أرحمُ الراحمين . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبدٍ مصطفًى .

الفصل الثانى

فى وجه التدريج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقاد

اعلم أنَّ ما ذكرناه فى ترجمة العقيدة ينبغى أن يقدَّم إلى الصبى فى أوّل نشوّه ليحفظَه حفظًا ، ثم لا يزال ينكشف له معناه فى كِبَره شيئًا فشيئًا . فابتداؤه الحِفظُ ، ثم الفهم ، ثم الاعتقاد والإيقان ، ثم التصديق به ؛ وذلك مما يحصُل فى الصِّبا بغير برهان . فمن فضل الله سبحانه على قلبِ الإنسان أنْ شرحَه فى أول نشوِّه للإيمان ، من غير حاجة إلى حجّة وبرهان. وليس الطريق فى تقويته وإثباته أن يعلم صنعة الجدل والكلام ، بل يشتغل بتلاوة القرآن وتفسيره ، وقراءة الحديث ومعانيه ، ويشتغل بوظائف العبادات ، فلا يزال اعتقادُه يزداد رسوخًا بما يقْرع سمعَه من أدلَّة القرآن وحُججه ، وما يَرِدُ عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها ، وبما يَسطعُ عليه من أنوار العبادات ووظائفها . وبما يَسرِى عليه من مُشاهَدة الصالحين ومُجالستهم ، وسِيماهم وسماعهم ، وهيئاتهم فى الخضوع لله عزّ وجل والخوفِ منه ، والاستكانة له . فيكون أوّل التلقين كإلقاءِ بَذْرٍ فى الصدر ، وتكون هذه الأسباب كالسَّقى والتربية له ، حتَّى ينموَ ذلك الجِذر ويقوى ، ويرتفع شجرةً طيِّبةً راسخة ، أصلُها ثابتٌ وفرعها فى السماء .

وينبغى أن يحرس سمعَه من الجدل والكلام غايةَ الحِراسة ، فإنَّ ما يشوِّشه الجدلُ أكثر مما يمهِّده . وما يُفسِده أكثر مما يُصلحه ، بل تقويته بالجدل تضاهى[1] ضربَ الشَّجَرة بالمِدقَّة من الحديد ، رجاء تقويتها بأن تكثرُ أجزاؤها . وربَّما يفتِّتها ذلك ويُفسدها ، وهو الأغلب

---

(١) تضاهى : تشابه .

والمشاهدة تكفيك فى هذا بيانًا ، فناهيك بالعيان برهانا .

فقسْ عقيدة أهل الصلاح والتُّقى من عوامّ الناس بعقيدة المتكلمين والمجادِلين ، فترى اعتقاد العامّىّ فى الثبات كالطَّود الشامخ لا تحرّكه الدَّواهى والصواعق ، وعقيدةَ المتكلِّم الحارس اعتقاده بتقسيمات الجدَل ، كخيطٍ مُرسَل فى الهواء ، تفيِّئه الرياح مرّة هكذا ، ومرّة هكذا . ثم الصبىُّ إذا وقع نشوُّه على هذه العقيدة ، إن اشتغل بكسب الدنيا لم ينفتح له غيرُها ولكنه يسلم فى الآخرة باعتقاد أهل الحق ، إذْ لم يكلِّف الشرعُ أجلافَ العرب أكثرَ من التصديق الجازم بظاهر هذه العقائد ، فأما البحث والتفتيش ، وتكلُّف نظم الأدلة ، فلم يُكلِّفوه أصلا .

الفصل الثالث

من كتاب قواعد العقائد

فى لوامع الأدلة للعقيدة التى ترجمناها بالقدس ، فنقول :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى ميَّز عصابة السُّنَّة بأنوار اليقين ، وآثر رهطَ الحق بالهداية إلى دعائم الدِّين ، وجنَّبهم زيغَ الزائغين وضلالَ الملحدين ، ووفقَّهم للاقتداء بسيِّد المرسلين ، وسدَّدهم للتأسِّى بصحبِه الأكرمين ، ويسَّر لهم اقتفاءَ آثارِ السلف الصالحين . حتَّى اعتصموا من مُقتضيات العقول بالحَبل المتين ، ومِن سير الأوَّلين وعقائدهم بالمنهج المبين ، فجمعوا بالقَبول بين نتائج العقول ، وقضايا الشرع المنقول ، وتحقَّقوا أن النطق بما تُعبِّدوا به من قولِ : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ليس له طائلٌ ولا محصول ، إنْ لم تتحقَّق الإحاطة بما تدور عليه هذه

الشهادة من الأقطاب والأصول . وعرفوا أنَّ كلمتى الشهادة على إيجازها تتضمن إثباتَ ذاتِ الإله ، وإثباتَ صفاته وإثبات أفعاله ، وإثباتِ صدق الرسول ، وأنَّ بناءَ الإيمان على هذه الأركان ، وهى أربعة ، ويدور كلُّ ركن منها على عشرة أُصول :

(الركن الأول) فى معرفة ذات الله تعالى ، ومداره على عشرة أُصول : وهى العلم بوجود الله تعالى ، وقِدَمه ، وبقائه ، وأنَّه ليس بجوهر ، ولا جسم ، ولا عَرَض ، وأنَّه سبحانه ليس مختصاً بجهة ، ولا مستقرًّا على مكان ، وأنه يُرَى ، وأنه واحد .

(الركن الثانى) فى صفاته ، ويشتمل على عشرة أُصول : وهو العلم بكونه حيًّا ، عالماً ، قادراً ، مريداً ، سميعاً ، بصيراً ، متكلمًا ، منزَّهًا عن حلول الحوادث ، وأنَّه قديم الكلام والعلم والإرادة .

(الركن الثالث) فى أفعاله تعالى . ومداره على عشرة أُصول : وهى أنَّ أفعال العباد مخلوقةٌ لله تعالى ، وأنَّها مكتسبة للعباد ، وأنها مرادة لله تعالى . والله متفضِّلٌ بالخلق والاختراع ، وأنَّ له تكليفَ مالا يطاق ، وأنَّ له إيلامَ البرىء ، ولا يجب عليه رعايةُ الأصلح . وأنَّه لا واجب إلَّا بالشرع ، وأن بَعثة الأنبياء جائزة ، وأنَّ نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ثابتة مؤيَّدة بالمعجزة .

(الركن الرابع) فى السَّمعيات ، ومداره على عشرة أُصول : وهى إثبات الحَشْر والنَّشر ، وسؤالُ مُنكِرٍ ونكير ، وعذابُ القبر ، والميزانُ ، والصِّراط ، وخَلْقُ الجنة والنار ، وأحكام الإمامة ، وأنَّ فضل الصحابة على حسب ترتيبهم ، وشروطُ الإمامة .

الفصل الرابع

من قواعد العقائد

فى الإيمان والإسلام وما بينهما من الاتصال والانفصال وما يتطرق إليه من الزيادة والنقصان

(مسأَلة) : اختلفوا فى أَنَّ الإِسلام هو الإِيمان أَو غيره ، وإِن كان غيرَه فهل هو منفصلٌ عنه يوجد دونه ، أَو مرتبط به يلازمه ؟

فقيل : إنهما شيءٌ واحد . وقيل : إنَّهما شيئانِ لا يتواصلان . وقيل : إنَّهما شيئان ولكن يرتَبط أَحدهما بالآخر . فتقول : فى هذا ثلاثة مباحث :

بحثٌ عن موجَب اللَّفظين فى اللغة ، وبحثٌ عن المراد بهما فى إطلاق الشرع ، وبحث عن حكمهما فى الدنيا والآخرة . والبحث الأَول لغُوِىٌّ ، والثانى تفسيرىٌّ ، والثالث فقهىٌّ شرعى .

(البحث الأَول) فى موجَب اللغة ؛ والحقُّ فيه أن الإِيمان عبارة عن التصديق ؛ قال الله تعالى : (ومَا أَنتَ بمؤمنٍ لَنَا) ، أَى : بمصدِّق . والإِسلام عبارة عن التسليم والاستسلام والإِذعان والانقياد ، وترك التمرد والإِباء والعناد . وللتصديق محلٌّ خاص وهو القلب ، واللِّسانُ تَرجمان . وأَمَّا التسليم فإِنَّه عامٌّ فى القلب واللسان والجوارح ؛ فإِنَّ كلَّ تصديق بالقلب فهو تسليمٌ وترك الإِباء والجحود . وكذلك الاعتراف باللسان . وكذلك الطاعة والانقياد بالجوارح . فموجَب اللغة أَنَّ الإِسلام أَعمٌّ والإِيمانَ أَخصّ .

(البحث الثانى) : عن إطلاق الشرع ؛ والحقُّ فيه أنْ قد ورد باستعمالهما على سبيل الترادف والتوارد ، ووردَ على سبيل الاختلاف ، وورد على سبيل التداخل .

أما الترادف ففى قوله تعالى : (فأَخْرَجْنا من كان فيها من المؤمنين. فما وَجَدْنا فيها غَيْرَ بيتٍ مِنَ المسلمين) ، ولم يكن بالاتِّفاق إلاَّ بيتٌ واحد . وقال تعالى : (يا قومِ إنْ كنتم آمنتُمْ بالله فَعليهِ توكَّلوا إنْ كنتم مسلمين) .

وأما الاختلاف فقوله تعالى : (قالَتِ الأَعرابُ آمَنَّا قُلْ لم تُؤمِنُوا ولكنْ قُولوا أَسْلَمْنَا)، ومعناه استسلمنا فى الظاهر ، فأَراد بالإِيمان ههنا التَّصديقَ بالقلب فقط ، وبالإِسلام الاستسلامَ ظاهراً باللسان والجوارح .

وأما التَّداخُل فما روى أيضاً أنه سئل فقيل : أَىُّ الأَعمال أفضل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « الإِسلام » فقال : أَىُّ الإِسلام أفضل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « الإِيمان » .

(البحث الثالث) . عن الحكم الشرعى . والإِسلام والإِيمان حكمانِ : أُخروىٌّ ودنيوىٌّ . أمّا الأُخروىُّ فهو الإِخراج من النار ومنع التخليد ؛ إذ قال صلى الله عليه وسلم : « يخرج مِنَ النار مَن كان فى قلبه مثقالُ ذَرّةٍ من إيمان » . وأحكام الدنيا مَنُوطة بالقول الظاهر ظاهراً وباطنًا . ويحتمل أن يقال : تناط بالظاهر فى حقّ غيره ، لأَنّ باطنَه غير ظاهرٍ لغيره ، وباطنَه ظاهر له فى نفسه بينه وبين الله تعالى .

(مسأَلة) فإن قلتَ : فقد اتَّفق السلفُ على أنّ الإِيمان يزيد وينقص ـ يزيد بالطاعة وينقُص بالمعصية ـ فإذا كان التصديق هو الإِيمان فلا يُتصوَّر فيه زيادة ولا نقصان ؟

فأقول : السَّلف هم الشُّهود العدول ، وما لأَحدٍ عن قولهم عدول ، فما ذكروه حقّ ، وإنَّما الشأْن فى فهمه . وفيه دليل على أَنَّ العمل ليس من أَجزاءِ الإِيمان وأَركانِ وجوده ، بل هو مزيدٌ عليه يزيد به ، والزائد موجود والناقص موجود . والشيءُ لا يزيد بذاته ، فلا يجوز أَن يقال الإِنسان يزيد برأْسه ، بل يقال يزيد بلحيته وسِمَنه . ولا يجوز أَن يقال : الصَّلاة تزيد بالركوع والسجود ، بل تزيد بالآداب والسنن . فهذا تصريحٌ بأَن الإِيمان له وجودٌ يختلف حاله بالزيادة والنقصان .

الكتاب الثالث

كتاب أسرار الطهارة

والطهارة لها أربع مراتب :

المرتبة الأولى : تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الأخباث والفضلات .

المرتبة الثانية : تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام .

المرتبة الثالثة : تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة .

المرتبة الرابعة : تطهير السر عما سوى الله تعالى ، وهى طهارة الأنبياء صلوات الله عليهم والصديقين .

القسم الأول

فى طهارة الخبث

والنظر فيه يتعلق بالمزال ، والمزال به ، والإزالة

الطرف الأول فى المزال .

وهى النَّجاسة . والأعيان ثلاثة : جمادات ، وحيوانات ، وأجزاء حيوانات .

أما الجمادات فطاهرةٌ كلُّها إلا الخمر وكلُّ مُنتَبَذٍ مُسْكر . والحيوانات طاهرة كلُّها إلاَّ الكلب والخنزير وما تولَّد منهما أو من أحدهما . فإذا ماتت فكلُّها نجسة إلا خمسة : الآدمى ، والسَّمك ، والجراد ، ودود

التفاح – وفى معناه كل ما يستحيل[1] من الأطعمة – وكل ما ليس له نَفْسٌ سائلة كالذُّباب والخنفساء وغيرهما ، فلا يَنجس الماءُ بوقوع شيء منها فيه . وأما أجزاءُ الحيوانات فقسمان ؛ أحدُهما : ما يُقطع منه ، وحكمه حكم الميت . والشعر لا ينجس بالجزّ والموت ، والعظم ينجس . الثانى : الرُّطوبات الخارجة من باطنه ، فكلٌّ ما ليس مستحيلا ولا له مقرٌّ فهو طاهر . كالدَّمع ، والعَرَق ، واللُّعاب ، والمُخَاط . وما له مقرٌّ وهو مستحيل فنجس ؛ إلا ما هو مادَّة الحيوان كالمنىّ والبيض . والقيحُ والرَّوث والبول نَجِس من الحيوانات كلِّها .

ولا يُعفَى عن شيء من هذه النجاسات قليلها وكثيرها إلا عن خمسة :

الأول : أثر النجو بعد الاستجمار بالأحجار ، يُعفَى عنه مالم يعدُ المخرج .

والثانى : طين الشَّوارع وغبار الرَّوث فى الطريق ، يُعفَى عنه مع تيقُّن النجاسة بقدرِ ما يتعذَّر الاحتراز عنه ، وهو الذى لا يُنسَب المتلطِّخُ به إلى تفريط أو سَقْطة .

الثالث : ما على أسفل الخفِّ من نجاسة لا يخلو الطَّريقُ عنها فيُعْفَى عنه بعد الدَّلك ، للحاجة .

الرابع : دم البراغيث ما قلَّ منه أو كثر ، إلَّا إذا جاوز حدَّ العادة ، سواءٌ كان فى ثوبك ، أو فى ثوب غيرك فلبسته .

الخامس : دم البَثَرات وما ينفصل منها من قيح وصديد . وَدَلَكَ ابنُ عمر رضى الله عنه بَثرةً على وجهه فخرج منها الدم وصَلَّى ولم يَغسِل

(١) يستحيل ، أى يتحول عن طبيعته .

وفى معناه ما يترشَّح من نطخات الدماميل التى تدوم غالباً ، وكذلك أثر الفَصْد ، إلاَّ ما يقع نادراً من خُراج أو غيره ، فليلحق بدم الاستحاضة ، ولا يكون فى معنى البثرات التى لا يخلو الإنسان عنها فى أحواله .

ومسامحة الشرع فى هذه النَّجاسات الخمس تعرِّفك أنَّ أمر الطهارة على التساهُل ؛ وما ابتُدِع فيها وسوسةٌ لا أصلَ لها .

الطرف الثانى فى المزال به :

وهو إما جامدٌ وإما مائع . أما الجامد فحجَر الاستنجاء ، وهو مطهِّر تطهيرَ تجفيف ، بشرط أن يكون صلباً طاهراً منشِّفاً غير مُحترَم . وأما المائعات فلا تُزال النجاسات بشيء منها إلا الماء ، ولا كلّ ماء ، بل الطاهر الذى لم يتفاحش تغيُّره بمخالطة ما يستغنى عنه .

ويخرج الماءُ عن الطهارة بأن يتغيَّر بملاقاة النجاسة طعمُه ، أو لونُه ، أو ريحه . فإن لم يتغيَّر وكان قريباً من مائتين وخمسين مَنًا — وهو خمسُمائة رطل برطل العراق — لم ينجُس ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا بلغ الماءُ قُلَّتين[1] لم يحملْ خبثًا » . وإن كان دونه صار نجسا عند الشافعى رضى الله عنه .

هذا فى الماء الراكد . وأما الماءُ الجارى إذا تغيَّر بالنجاسة فالجِرية المتغيِّرة نجسة دونَ ما فوقَها وما تحتها ، لأَنَّ جِرْيات الماء متفاصلات . وكذا النَّجاسة الجارية إذا جرت بمجرى الماء ، فالنجس مَوقِعها من الماء وما عن يمينها وشمالها إذا تقاصَرَ عن قلتين . وإن كان جرىُ الماء أقوى

(١) القلة : تسع خمس جرار أو ستا . وقال أحمد بن حنبل : قدر كل قلة قربتان .

من جرى النجاسة فما فوق النجاسة طاهر ، وما سفل عنها فنجس ، وإن تباعد وكثر ، إلّا إذا اجتمع فى حوضٍ قدرُ قُلّتين . وإذا اجتمع قُلَّتان من ماء نجس طَهُر ، ولا يعود نجساً بالتفريق . هذا هو مذهب الشافعى رضى الله عنه . وكنت أودُّ أن يكون مذهبه كمذهب مالك رضى الله عنه فى أن الماء وإن قلَّ لا ينجُس إلاَّ بالتغيُّر ؛ إذ الحاجة ماسَّةٌ إليه . ومثار الوسواسِ اشتراط القُلَّتين ، ولأَجله شقَّ على الناس ذلك ، وهو لعمرى سبب المشقة ، ويَعرفه من يجرِّبهُ ويتأَمَّلهُ .

الطرف الثالث فى كيفية الإزالة :

والنجاسة إن كانت حُكمية ، وهى التى ليس لها جِرمٌ محسوس فيكفى إجراءُ الماءِ على جميع مواردها ، وإن كانت عينيَّةً فلا بدَّ من إزالة العين . وبقاءُ الطعم يدلُّ على بقاء العين ، وكذا بقاءُ اللون إلّا فيما يلتصق به فهو معفوّ عنه بعد الحَتّ والقرص[1] . أمّا الرائحة فبقاؤها يدلُّ على بقاء العين ، ولا يُعفَى عنها إلّا إذا كان الشيءُ له رائحة فائحة يعسُر إزالتها . فالدَّلْك والعصر مرّات متواليات يقوم مقام الحتِّ والقرص فى اللون . والمزيل للوسواس أنْ يعلم أَنَّ الأَشياءَ خُلقت طاهرة بيقين ، فما لا يُشاهد عليه نجاسةٌ ولا يعلمها يقينًا يصلِّى معه . ولا ينبغى أن يتوصَّل بالاستنباط إلى تقدير النجاسات .

---

(١) القرص ، بالصاد المهملة : الغسل بأطراف الأصابع . وفى الحديث أن امرأة سألته عن دم الحيض يصيب الثوب ، فقال : اقرصيه بماء » .

القسم الثانى

فى طهارة الأحداث

ومنه الوضوء ، والغسل ، والتيمم

كيفية الوضوء

ويبتدىء بالسواك ؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لولا أن أَشُقَّ على أُمّتى لأَمرتُهم بالسِّواك عند كلِّ صلاة » . ويستَحَبُّ السواك عند كلِّ صلاة ، وعند كلِّ وضوء وإن لم يصلّ عَقِيبه ، وعند تغيُّر النَّكهة بالنوم أَو طول الأَزْم[1] ، أو أكلِ ما تُكره رائحته . ثم عند الفراغ من السواك يجلس للوضوء مستقبِلَ القبلة ويقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » . قال صلى الله عليه وسلم : « لا وضوءَ لمن لم يُسمِّ الله تعالى » ، أى لا وضوءَ كاملٌ . ويقول عندذلك : « أعوذُ بِكَ من هَمَزَاتِ الشَّيَاطينِ ، وأعوذُ بكَ رَبِّ أَنْ يَحضُرُونِ » ، ثم يغسل يديه ثلاثًا قبل أن يُدخلهما الإِناءَ ويقول : « اللهم إنى أَسأَلك اليُمن والبركة ، وأعوذ بك من الشؤم والهَلَكة » . ثم ينوى رفع الحدث أو استباحة الصلاة . ثم يأْخذ غُرفةً لفيهِ بيمينه فيتمضمض بها ثلاثاً ، ويُغرغر بأَن يردَّ الماءَ إلى الغَلْصَمة[2] إلا أن يكون صائماً فيرفُق ويقول : اللهم أَعنِّى على تلاوة كتابك وكثرةِ الذكر لك » ، ثم يأْخذ غُرفة لأَنفه ويستنشق ثلاثًا ، ويصعِّد الماءَ بالنفس

---

(١) الأزم : ترك الأكل .

(٢) الغلصمة : رأس الحلقوم ، أو رأس اللسان

إلى خياشيمه ويستنثر ما فيها ، ويقول فى الاستنشاق : « اللهم أوجِدْنى رائحةَ الجنَّة وأنت عنِّى راض » ، وفى الاستنثار : « اللَّهمَّ إنى أعوذ بك من روائح النار ، ومن سُوءِ الدار » ، ثم يغرف غُرفة لوجهه فيغسله من مبدإ سطح الجبهة إلى منتهى ما يُقبِل من الذقن فى الطول ، ومن الأُذن إلى الأُذن فى العرض . ويخلِّل اللحيةَ الكثيفة عند غسل الوجه ، فإنه مستحبٌّ ، ثم يغسل يديه إلى مِرفقيه ثلاثًا ويحرِّك الخاتم ، ويطيل الغُرّة ، ويرفع الماءَ إلى أعلى العضد . ويبدأُ باليمنى ويقول : « اللهمَّ أعطنى كتابى بيمينى ، وحاسبْنى حسابًا يسيراً » ويقول عند غسل الشمال « اللهم إنِّى أعوذ بك أن تعطيَنى كتابى بشمالى أو من وراءِ ظهرى » . ثم يستوعب رأسَه بالمسح بأَن يبلَّ يديه ويُلصق رءُوس أَصابع يديه اليمنى باليسرى ، ويضعَهما على مقدِّمة الرأس ويمدَّهما إلى القفا ، ثم يردَّهما إلى المقدِّمة ؛ وهذه مسحة واحدة ، يفعل ذلك ثلاثًا ، ويقول : « اللهم غَشِّنى برحمتك ، وأنزلْ علىَّ من بركاتك ، وأَظِلَّنى تحت ظلِّ عرشك يوم لا ظلَّ إلا ظِلُّك » . ثم يمسح أُذنيه ظاهرهما وباطنهما بماءٍ جديد ، بأَن يُدخل مسبِّحتيه[1] فى صماخَىْ أُذنيه ، ويُديرَ إبهامَيه على ظاهر أُذنيه ، ثم يضعَ الكفَّ على الأُذنين استظهاراً ، ويكرِّره ثلاثًا ويقول : « اللهمَّ اجعلْنى من الذين يستمعون القولَ فيتَّبعون أَحسنه ، اللهم أَسمعنى منادىَ الجنة مع الأَبرار » . ثم يمسحُ رقبته بماءٍ جديد ، ويقول : « اللهم فُكَّ رقبتى من النار ، وأعوذ بك من السَّلاسل والأَغلال» ثم يغسل رجله اليمنى ثلاثًا ويخلِّل باليد اليسرى من أسفل أصابع الرجل

---

(١) المسبحة والسباحة : الإصبع التى تلى الإبهام سميت بذلك لأنها يشار بها عند التسبيح .

اليمنى ، ويبدأ بالخنصر من الرجل اليسرى . ويقول : « اللهم ثبِّت قدمى على الصراط المستقيم يوم تزلُّ الأَقدام فى النار » . ويقول عند غسل اليسرى : « أَعوذ بك أن تزلَّ قدمى عن الصِّراط يوم تزلُّ فيه أَقدام المنافقين » . ويرفع الماء إلى أنصاف الساقَين . فإذا فرَغَ رفع رأْسَه إلى السماء وقال : أَشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له ، وأَشهد أنَّ محمداً عبدُه ورسوله ، سبحانك اللَّهمَّ وبحمدِك ، لا إلهَ إلا أنت ، عَمِلتُ سُوءًا وظلمت نفسى . أَستغفرك اللهمَّ وأَتوب إليك ، فاغفر لى وتُب علىّ ، إنَّك أَنت التواب الرحيم . االلهم اجعلنى من التَّوَّابين واجعلنى من المتطهِّرين ، واجعلنى من عبادكالصالحين ، واجعلنى عبداً صبوراً شكوراً ، واجعلنى أَذكرُك كثيراً ، وأُسبِّحُك بُكرةً وأَصيلاً».

كيفية الغسل

وهو أَن يضع الإناء عن يمينه ثم يسمِّىَ الله تعالى ، ويغسل يديه ثلاثًا ، ثم يستنجى ويزيل ما على بدنه من نجاسةٍ إن كانت ، ثم يتوضأ وضوءه للصلاة كما وصفنا إلاَّ غسل القدمين ، فإنَّه يؤخِّرهما ، فإنْ غسلَهما ثم وضَعهما على الأَرض كان إضاعةً الماء ، ثم يصبّ الماء على رأْسه ثلاثًا ، ثم على شِقِّه الأَيمن ثلاثًا . ثم على شِقِّه الأَيسر ثلاثًا ، ثم يدلُك ما أَقبلَ من بدنه وما أَدبر . ويخلِّل شعر الرأْس واللِّحية . ويوصل الماء إلى منابت ما كثُف منه أو خَفَّ . ويتعهد معاطف البدن[١] .

فهذه سنن الوضوء والغسل . ذكرنا منها مالا بدَّ لسالك طريق الاخرة من علمه وعمله .

---

(١) معاطف البدن : ما تثنى منه .

كيفية التيمم

من تعذَّر عليه استعمالُ الماء ، لفقده بَعْدَ الطلب ، أو بمانع له عن الوصول إليه من سَبع أو حابس ، أو كان الماءُ الحاضر يَحتاج إليه لعطشِ رفيقه ، أو كان مِلكًا لغيره ولم يبعه إلاَّ بأَكثر من ثمن المِثل ، أو كَان به جراحةٌ أو مرض وخاف من استعماله فسادَ العضو أو شدَّة الضنا - فينبغى أَن يصبِرَ حتَّى يدخل عليه وقتُ الفريضة ، ثم يقصد صعيدًا طيباً[1] عليه ترابٌ طاهر خالص ليِّن ، بحيث يثور منه غبار ، ويضرب كفَّيه ضامًّا بين أَصابعه ، ويمسح جميعَ وجهه مرة واحدة ، وينوى عند ذلك استباحةَ الصلاة ، ثم ينزع خاتمه ويضرب ضربة ثانية يفرِّج فيها بين أَصابعه ، ثم يُلصق ظهور أَصابع يدِه اليمنى ببطون أَصابع يده اليسرى - بحيث لا يجاوز أَطرافُ الأَنامل من إحدى الجهتين عرضَ المسبِّحة من الأُخرى - يُمرّ يدَه اليسرى من حيثُ وضعها على ظاهر ساعده الأَيمن إلى المرفق ، ثم يقلب بطن كفِّه اليسرى على باطن ساعده الأَيمن ويُمرُّها إلى الكوع ، ويمرُّ بطن إبهامه اليسرى على ظاهر إبهامه اليمنى ، ثم يفعل باليسرى كذلك ، ثم يمسح كفيَّه ويخلِّل بين أَصابعه

---

(١) الصعيد : المرتفع من الأرض .

القسم الثالث

من النظافة

التنظيف عن الفضلات الظاهرة

وهى نوعان : أوساخ وأجزاء

النوع الأَول : الأَوساخ والرطوبات المترشحة وهى ثمانية :

الأَول : ما يجتمع فى شعر الرأْس من الدَّرَن والقمْل . فالتنظيف عنه مستحبٌّ بالغسل والترجيل[1] والتدهين ، إزالةً الشَّعَث .

الثانى : ما يجتمع من الوسخ فى معاطف الأُذن ، والمسح يزيل ما يظهر منه وما يجتمع فى قعر الصِّماخ ، فينبغى أَن ينظَّف برفقٍ عند الخروج من الحمَّام ، فإنَّ كثرة ذلك ربما تضرُّ بالسمع .

الثالث : ما يجتمع فى داخل الأَنف من الرُّطوبات المنعقدة الملتصقة بجوانبه . ويزيلها بالاستنشاق والاستنثار

الرابع : ما يجتمع على الأَسنان وطرف اللسان من القَلَح[2] فيزيله السِّواكُ والمضمضة .

الخامس . ما يجتمع فى اللحية من الوَسَخ ويستحبُّ إزالة ذلك بالغسل والتسريح بالمُشْط

السادس : وسخ البراجم ، وهى معاطف ظهور الأنامل كانت العرب

---

(١) الترجيل : تسريح الشعر

(٢) القلح : صفرة الأسنان

لاتكثر غسل ذلك لتركها غسلَ اليد عقِيب الطعام . فيجتمع فى تلك الغُضون وسخ . فأَمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بغسل البراجم[1] .

السابع : تنظيف الرَّواجب. أَمر رسول‌الله صلى‌الله عليه وسلم العرب بتنظيفها ، وهى رؤوس الأَنامل ، وما تحت الأَظفار من الوسخ لأَنها كانت لا يحضرها المقراض فى كلِّ وقت ، فتجتمع فيها أَوساخ ، فوقَّتَ لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قلم الأَظفار ، ونتفَ الإبط ، وحلق العانة ، أربعين يوماً .

الثامن : الدَّرن الذى يجتمع على جميع البدن بِرشْح العرق وغبار الطريق . وذلك يزيله الحمَّام .

النوع الثانى : فيما يحدث فى البدن من الأَجزاء وهى ثمانية :

الأَول : شعر الرأْس . ولا بأْس بحلقهِ لمن أَراد التنظيف . ولا بأْس بتركه لمن يدهُنه ويرجِّله إلا إذا تركه قَزَعا ، أى قطعا ، وهو دأْب أَهل الشَّطارة[2] ، أَو أَرسل الذوائبَ على هيئة أَهل الشرف . حيث صار ذلك شعاراً لهم ، فإنَّه إذا لم يكن شريفاً كان ذلك تلبيساً .

الثانى : شعر الشارب ، وقد قال صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم : «حُفُّوا الشارب وأَعفُوا اللِّحى» .

الثالث : شعر الإِبط ، ويستحب نتفه فى كل يوم أربعين يوماً ، وذلك سهل على من تعوَّدَ نتفه فى الابتداءِ ، فأَما من تعوَّد الحلق فيكفيه الحلق ، إذ فى النتف تعذيبٌ وإيلام .

---

(١) البراجم : مفاصل الأصابع .
(٢) أصل معنى الشاطر : الذى أعيا أهله خبثاً .

الرابع : شعر العانة ، ويستحب إزالة ذلك إمَّا بالحلق وإما بالنورة ، ولا ينبغى أَن تتأَخَّر عن أَربعين يوماً .

الخامس : الأَظفار ، وتقليمها مستحبٌّ ، لشناعة صورتها إذا طالت ، ولِمَا يجتمع فيها من الوسخ .

السادس والسابع : زيادة السُّرَّة وقَلَفة الحشفة . أَما السُّرَّة فتقطع فى أَول الولادة ، وأَما التطهير بالختان فعادةُ اليهود فى اليوم السابع من الولادة ، ومخالفتهم بالتأْخير إلى أَن يُثْغِر الولد[1] أَحبُّ وأَبعد عن الخطر . قال صلى الله عليه وسلم : « الختان سُنَّةٌ للرجال ومَكرُمة للنساء » . وينبغى أَن لا يبالغ فى خَفْض المرأة[2] . قال صلى الله عليه وسلم لأُمِّ عطيّة وكانت تَخفِض : « يا أُمَّ عطية ، أَشِمِّى[3] ولا تَنْهَكى ؛ فإنه أَسرَى للوجه . وأَحظى عند الزَّوج » ، أَى أَكثرُ لماء الوجه ودمه .

---

(١) الإثغار : نبات الأسنان .

(٢) الخفض : الختان .

(٣) أى أن تأخذ قليلا من موضع الختان .

الكتاب الرابع

كتاب أسرار الصلاة

الباب الأول

فى فضائل الصلاة والسجود والجماعة والأذان وغيرها

فضيلة الأذان

قال صلى الله عليه وسلم : « لا يَسمع نداءَ المؤذِّن جنٌّ ولا إنسٌ ولا شئٌ إلَّا شهِدَ له يومَ القيامة » . وقيل فى تفسير قوله عز وجل : (ومَنْ أحسَنُ قَولاً ممَّنْ دَعا إلى الله وعَمِلَ صالحاً) : نزلت فى المؤذِّنين

فضيلة المكتوبة

قال الله تعالى : (إنَّ الصلاةَ كانت على المؤمنين كتاباً مَوْقوتا)

وقال صلى الله عليه وسلم : « خمسُ صلواتٍ كتبهنَّ الله على العباد ، فمن جاءَ بهنَّ ولم يضيِّع منهن شيئاً استخفافًا بحقِّهن كان له عند الله عهدٌ أن يدخله الجنة ، ومن لم يأْتِ بهنَّ فليس له عند الله عهد : إن شاءَ عذَّبه وإن شاءَ أدخله الجنَّة » . وقال صلى الله عليه وسلم « مَثلُ الصَّلوات الخمس كمَثلِ نهرٍ عَذْبٍ غمرٍ[1] ببابِ أحدكم ، يقتحم[2] فيه كلَّ

---

(١) الغمر : الكثير الماء

(٢) يقتحم . يدخل . و الاقتحام : الدخول .

يوم خَمْسَ مرات ، فما تُروْنَ يبقى من دَرَنه ؟ قالوا : لا شيء . قال صلى الله عليه وسلم : « فإنَّ الصلواتِ الخمسَ تُذهب الذُّنوبَ كما يُذهِبُ الماءُ الدَّرَن[1] » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الصلواتِ كفَّارةٌ لما بينهنَّ ما اجتُنِبت الكبائر » .

وقال أَبو هريرة رضى الله عنه : مَن توضَّأَ فأَحسن وضوءَهُ ثم خرج عامداً إلى الصَّلاة فإنه فى صلاةٍ ما كان يَعمِد إلى الصلاة ، وإنَّه يُكتب له بإحدى خُطوتيه حسنةٌ وتُمحَى عنه بالأُخرى سيِّئة ، فإذا سمع أَحدُكم الإقامة فلا ينبغى له أن يتأَخَّر ؛ فإنَّ أَعظمكم أجراً أَبعدُكم داراً . قالوا : لم يا أَبا هريرة ؟ قال : من أَجل كثرة الخُطَى .

فضيلة الجماعة

قال صلى الله عليه وسلم : « صلاةُ الجماعة تَفضُل صلاةَ الفَذِّ[2] بسبع وعشرين درجة » . وروى أَبو هريرة أَنه صلى الله عليه وسلم فقدَ ناسًا فى بعض الصلوات فقال : « لقد هممتُ أَنْ آمرَ رجلاً يصلِّى بالناس ثم أُخالفَ إلى رجال يتخلَّفون عنها فأُحرِّق عليهم بيوتَهم » .

وقال سعيد بن المسيِّب[3] : ما أَذَّن مؤذِّنٌ منذ عشرين سنة إلَّا وأنا فى المسجد . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : من سمع المنادىَ فلم يُجب لم يُرد خيراً ولم يُرَدْ به خير .

---

(١) الدرن ، بالتحريك ، الوسخ .

(٢) الفذ : المنفرد

(٣) المسيب ، بكسر الياء المشددة وفتحها . وسعيد بن المسيب تابعى فقيه محدث توفى سنة ١٠٠

فضيلة السجود

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما تقرَّب العبدُ إلى الله بشيء أفضلَ من سجودٍ خفيّ » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما مِن مسلمٍ يسجُد لله سجدةً إلّا رَفعَه الله بها درجةً وحطَّ بها عنه سيئة » .

وروى أنَّ رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ادع الله أن يجعلني من أهل شفاعتك ، وأن يرزقَني مرافقتَك في الجنة .

فقال صلى الله عليه وسلم : « أعِنِّي بكثرة السجود » .

وقيل : « إنَّ أقرب ما يكون العبدُ من الله تعالى أن يكون ساجداً » . وهو معنى قوله عز وجل : (واسجُدْ واقْتَرِبْ) .

وقال عزّ وجل : (سِيماهُم في وجُوهِهِم من أثَر السُّجود) فقيل : هو ما يلتصق بوجوههم من الأرض عند السجود . وقيل هو نُور الخشوع فإنه يُشرق من الباطن على الظاهر ، وهو الأصحُّ . وقيل هي الغُرَر التي تكون في وجوههم يوم القيامة من أثر الوضوء .

ويروى عن عليّ بن عبد الله بن عباس أنه كان يسجُد في يوم ألف سجدة ، وكانوا يسمونه : السَّجَّاد .

الباب الثانى

فى كيفية الأعمال الظاهرة من الصلاة

والبداءة بالتكبير وما قبله

ينبغى للمصلّى إذا فرغ من الوضوء والطهارة أن ينتصب قائماً متوجِّهاً إلى القبلة ، ويزاوج بين قدميه ولا يضمَّهما ، وأمّا رأسه إن شاء تركه على استواء القيام ، وإن شاء أطرقَ ، والإطراق أقرب للخشوع وأغضُّ للبصر . فإذا استوى قيامُه واستقبالُه وإطراقه كذلك فليقرأْ : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) ؛ تحصُّنًا به من الشيطان . ثم ليأتِ بالإقامة ، وإن كان يرجو حضورَ من يَقتَدى به فليؤذِّنْ أوّلا ثم ليُحضر النية ، وهو أن ينوىَ فى الظُّهر مثلا ويقول بقلبه : أؤدِّى فريضةَ الظُّهر لله ، ليميِّزها بقوله : أؤدِّى ، عن القضاء . وبالفريضة عن النفل ، وبالظُّهر عن العصر وغيره . ولتكن هذه الألفاظ حاضرةً فى قلبه ، فإنَّه هو النية ، والألفاظ مذكِّرات وأسبابٌ لحضورها . ويجتهد أن يستديم ذلك إلى آخر التكبير حتّى لا يعزُبَ[1] . فإذا حضر فى قلبه ذلك فليرفعْ يديه إلى حَذْوِ مَنكِبيه بعد إرسالهما بحيث يحاذى بكفَّيه منكبيه ، وبإبهاميه شحمتَىْ أذنيه ، وبرءُوس أصابعه رءُوسَ أذنيه ، ويكون مقبلاً بكفَّيه وبإبهاميه إلى القِبلة ، ويبسُط الأصابع ولا يقبِضها ، وإذا استقرَّت اليدان فى مقرِّهما ابتدأ التكبيرَ مع إرسالهما وإحضار النيَّة . ثم يضع اليدين

---

(١) يعزب : يبعد .

إلى ما فوق السُّرَّة وتحت الصَّدر ، ويضع اليمنى على اليسرى إكراماً لليمنى بأن تكون محمولة ، وينشر المسبِّحة والوسطى من اليمنى على طول الساعد ، ويقبض بالإبهام والخِنصر والبنصر على كُوع اليسرى .

ثم يبتدئ بدعاء الاستفتاح ، وحسنٌ أن يقول عَقِبَ قوله الله أكبر : « الله أكبرُ كبيراً ، والحمدُ لله كثيراً ، وسبحانَ اللهِ بُكرةً وأصيلا . وجَّهت وجهيَ للذى فطَر السموات والأرضَ حَنيفا وما أنا من المشركين » ثم يقول : « سُبحانك اللهمَّ وبحمدك ، وتبارك اسمُك وتعالى جَدُّك ، وجَلّ ثناؤك ولا إله غيرُك » . ثم يقرأُ الفاتحة ويقول « آمين » فى آخر الفاتحة ويمدُّها مَدًّا ، ثم يقرأُ السورة أو قدرَ ثلاثِ آيات من القرآن فما فوقَها ، ولا يصل آخرَ السورة بتكبير الهُوِىّ ، بأن يفصل بينهما بقدر قوله : سبحان الله . ثم يركع . ويراعِى فيه أموراً وهو أن يكبِّر للركوع ، وأن يرفع يديه مع تكبيرة الركوع . وأن يمدّ التكبير مدًّا إلى الانتهاء إلى الركوع ، وأن يضع راحتيه على رُكبتيه فى الرُّكوع وأصابعُه منشورة موجَّهة نحوَ القبلة على طول الساق . وأن ينصب رُكبتيه ولا يثنَيهما . وأن يمدّ ظهره مستويا . وأن يكون عنقُه ورأسه مستويَيْن مع ظهره . وأن يقول : « سبحان ربى العظيم » ثلاثاً . والزيادة إلى السبعة وإلى العشرة حسنٌ ، إن لم يكن إماماً . ثم يرتفع من الركوع إلى القيام ويرفع يديه ويقول : « سمع الله لمن حمده » . ويطمئنُّ فى الاعتدال ، ويقول : « ربَّنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعده) .

ثم يهوى إلى السجود مكبِّراً فيضع ركبتيه على الأرض ويضع جبهته وأنفَه وكفَّيه . ويكبّر عند الهُوِىّ ، ولا يرفع يديه فى غير الركوع

---

(١) الهوى - النزول للسجود .

وان يقول : « سبحانَ ربىَ الأعلى» ثلاثا ، فإنْ زاد فحسن ، إلاَّ أن يكون إماماً . ثم يرفع من السجود فيطمئنُّ جالساً معتدلا ، فيرفع رأسه مكبراً ويجلس على رجله اليسرى ويَنصب قدمه اليمنى ، ويضع يديه على فخذيه والأَصابُع منشورة ، ولا يتكلَّف ضمَّها ولا تفريجها ، ويقول : « ربِّ اغفر لى وارحمنى ، وارزُقْنى واهدنى ، واجبُرنى وعافِنِى واعفُ عنى » ولا يطوّل هذه الجِلسة إلاَّ فى سجود التسبيح . ويأْتى بالسَّجدة الثانية كذلك ، ويستوى منها جالساً جِلْسة خفيفةً للاستراحة فى ركعةٍ لا تشهُّد عقيبها ، ثم يتشهَّد فى الركعة الثانية التشهد الأَوّلَ ويجلس فى هذا التشهُّد على رجله اليسرى كما بين السجدتين . وفى التشهد الأَخير يستكمل الدعاءَ المأْثور بعد الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم . وسننُه كسنن التشهُّد الأَول ، لكن يجلس فى الأَخير على وركه الأَيسر ، ويضع رجله اليسرى خارجة من تحته وينصب اليمنى ، ويضع رأْس الإِبهام إلى جهة القبلة إن لم يشقّ عليه ، ثم يقول : « السّلام عليكم ورحمة الله » ، ويلتفت يمينًا بحيث يَرى خدَّه الأَيمن مَنْ وراءه من الجانب اليمين ، ويلتفت شِمالا كذلك ، ويسلِّم تسليمة ثانية وينوى الخروجَ من الصلاة بالسلام .

الباب الثالث

فى الشروط الباطنة من أعمال القلب

بيان اشتراط الخشوع وحضور القلب

اعلم أنّ أدلَّةَ ذلك كثيرة ، فمن ذلك قوله تعالى : (أَقِمِ الصَّلاة لِذِكرِى) ، وظاهر الأَمر الوجوب ، والغفلة تضادُ الذكر ، فمن غَفَل فى جميع صلاته كيف يكون مقيمًا للصلاة لذكره ؟ وقوله تعالى : (ولا تَكُنْ من الغافلين) نهىٌ وظاهره التَّحريم . وقوله عز وجل : (حَتَّى تعلموا ما تقولون) تعليلٌ لنهى السَّكران . وهو مطَّرد فى الغافل المستغرَق الهمِّ بالوسواس وأفكار الدنيا . وقوله صلى الله عليه وسلم : « مَن لم تنْهَهُ صلاتُه عن الفَحْشاءِ والمنكر لم يزدد من الله إِلّا بُعداً » . وصلاة الغافل لا تمنع من الفحشاء والمنكر .

الباب الرابع

فى الإمامة والقدوة

وعلى الإمام وظائفُ قبل الصلاة ، وفى القراءة ، وفى أركان الصلاة وبعد الصلاة :

أما الوظائف التى قبل الصلاة فستة :

أولها : أن لا يتقدَّم للإمامة على قوم يكرهونه ، فإن اختلفوا كان

النظر إلى الأكثرينَ ، فإن كان الأقلُّونَ هم أهل الخير والدين فالنظر إليهم أَوْلى .

الثانية : إذا خُيِّر المرءُ بين الأذان والإمامة فينبغى أن يختار الإمامة ؛ فإن لكل واحد منهما فضلًا ، ولكنَّ الجمع مكروه ، بل ينبغى أن يكون الإمام غير المؤذِّن . وإذا تعذَّر الجمع فالإمامة أولى . وقال قائلون : الأذان أولَى لما نقلناه من فضيلة الأذان .

الثالثة : أن يراعىَ الإمام أوقات الصلوات فيصلِّىَ فى أولها ليدرك رضوانَ الله سبحانه ، ولا ينبغى أن يؤخِّر الصلاة لانتظار كثرة الجماعة ، بل عليهم المبادرةُ لحيازة فضيلةِ أَوّل الوقت ، فهى أفضلُ من كثرة الجماعة ، ومن تطويل السُّورة .

الرابعة : أن يَؤُمَّ مخلصاً لله عز وجل ، ومؤدِّيًا أمانةَ الله تعالى فى طهارته وجميع شروط صلاته .

الخامسة : أن لا يكبِّر حتى تستوىَ الصُّفوف، فليلتفت يمينًا وشمالا ، فإنْ رأى خللاً أمر بالتسوية . قيل : كانوا يتحاذَوْن بالمناكب ويتضامُّون بالكِعاب . ولا يكبِّر حتى يفرغ المؤذِّنُ من الإقامة . والمؤذِّن يؤخر الإقامة عن الأذان بقدر استعداد الناس فى الصلاة .

السادسة : أن يرفع صوتَه بتكبيرة الإحرام وسائر التكبيرات .

وأما وظائف القراءة فثلاثةٌ :

أولُها : أن يُسِرَّ بدعاء الاستفتاح والتعوُّذ كالمنفرد ، ويجهر بالفاتحة والسورة بعدها فى جميع الصبح وأُولَيَىِ العِشاء والمغرب . وكذلك المنفرد ويجهر بقوله « آمين » فى الصلاة الجهريَّة . وكذا المأموم . ويَقرِن المأموم تأمينه بتأمين الإمام معاً لا تعقيبا .

الثانية : أن يكون للإمام فى القيام ثلاث سكتات :

أولاهن : إذا كبَّر ، وهى الطُّولى منهن مقدار ما يقرأُ مَنْ خلفَه فاتحةَ الكتاب ، وذلك وقتَ قراءته لدعاء الاستفتاح ؛ فإنَّه إن لم يسكت يفوتهم الاستماع ، فيكون عليه ما نقَصَ من صلاتهم .

السَّكتة الثانية : إذا فرغ من الفاتحة ؛ ليتمّ من يقرأُ الفاتحة فى السَّكْتة الأُولى فاتحته ، وهى كنصف السكتة الأُولى .

السَّكتة الثالثة : إذا فرغ من السورة قبل أن يركع . وهى أخفُّها وذلك بقدر ما تنفصل القراءة عن التكبير ، فقد نُهِىَ عن الوصل فيه.

الوظيفة الثالثة : أن يقرأَ فى الصُّبح سورتين من المثانى ما دون المائة ، فإنَّ الإطالة فى قراءة الفجر والتغليسَ بها سُنَّة ، ولا يضرُّه الخروج منها مع الإسفار ، ولا بأْس بأَن يقرأ فى الثانية بأَواخر السُّور نحو الثلاثين أو العشرين إلى أنْ يختمها ، لأَنَّ ذلك لا يتكرر على الأَسماع كثيراً فيكون أَبلغَ فى الوعظ وأدعى إلى التفكُّر .

وأما وظائف الأَركان فثلاثة :

أولها : أن يخفِّف الركوع والسجود فلا يزيد فى التسبيحات على ثلاث ، فقد رُوى عن أنس أنه قال : « ما رأيت أخفَّ صلاةً مِن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تمام » .

الثانية : فى المأْموم ؛ ينبغى أن لا يساوىَ الإمامَ فى الركوع والسجود ، بل يتأَخَّر ، فلا يَهوِى للسُّجود إلَّا إذا وصلت جَبهَةَ الإمام إلى المسجد[1] ولا يهوى للركوع حتَّى يستوىَ الإمام راكعاً .

---

(١) المسجد : موضع السجود .

الثالثة : لا يزيد فى دعاء التشهد على مقدار التشهُّد حذراً من التطويل ، ولا يخصُّ نفسه فى الدعاء ، بل يأتى بصيغة الجمع فيقول : « اللهم اغفِرَ لنا » ولا يقول « اغفر لى » ، فقد كُره للإمام أن يخصَّ نفسه . ولا بأس أن يستعيذ فى التشهد بالكلمات المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : « نعوذُ بك من عذاب جهنم ، وعذاب القبر ، ونعوذ بك من فتنة المَحْيَا والمَمات ، ومن فتنة المسيح الدجَّال ، وإذا أردتَ بقوم فتنة فاقبِضْنا إليك غير مفتونين » .

وأما وظائف التحلل فثلاثة :

أولها : أن ينوى بالتسليمتين السلامَ على القوم والملائكة .

الثانية : أن يَثِب عقب السلام . كذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، فيصلِّى النافلة فى موضع آخر . فإن كان خلفَهُ نسوةٌ لم يقمْ حتَّى ينصرفن .

الثالثة : إذا وثب فينبغى أن يُقبل بوجهه على الناس . ويُكره للمأموم القيام قبل انفتال الإمام[1] .

---

(١) الانفتال : الانصراف .

الباب الخامس

فى فضل الجمعة وآدابها ، وسننها وشروطها

فضيلة الجمعة

اعلم أن هذا يومٌ عظَّم الله به الإسلام وخصَّص الله به المسلمين . قال الله تعالى : (إذا نُودِيَ للصَّلاة من يوم الجُمعة فاسعَوْا إلى ذِكر الله وذَرُوا البيع) ، فحرَّم الاشتغالَ بأُمور الدنيا وبكلِّ صارفٍ عن السَّعى إلى الجمعة . وقال صلى الله عليه وسلم : « مَن تَرك الجمعة ثلاثًا من غيرِ عُذْرٍ طَبَع الله على قلبه » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « خيرُ يوم طَلَعت عليه الشَّمس يومُ الجمعة ، فيه خُلق آدمُ عليه السلام ، وفيه أُدخِلَ الجنَّة ، وفيه أُهبِط إلى الأَرض ، وفيه تِيب عليه ، وفيه مات ، وفيه تقوم الساعةُ ، وهو عند الله يومُ المزيد . كذلك تسمِّيه الملائكة فى السماء ، وهو يوم النظر إلى الله تعالى فى الجنة » .

بيان شروط الجمعة

اعلم أنَّها تشارك جميعَ الصلوات فى الشروط ، وتتميز عنها بستة شروط :

الأَول : الوقت . فإذا وقعت تسليمة الإمام فى وقت العصر فاتت الجمعة ، وعليه أن يتمَّها ظهراً أَربعاً .

الثانى : المكان . فلا تصح فى الصَّحارَى والبرارِى وبين الخيام ، بل لا بدَّ من بقعةٍ جامعة لأَبنية لا تُنقل ، بجمعٍ أَربعين ممن تلزمهم الجمعة . والقرية فيه كالبلد .

الثالث : العدد . فلا تنعقد بأقلَّ من أربعين ذكوراً مكلَّفين أحراراً مقيمين لا يظعنون عنها شتاءً ولا صيفاً .

الرابع : الجماعة . فلو صلَّى أربعون فى قرية أو فى بلد متفرّقين لم تصحَّ جُمعتهُم .

الخامس : أن لا تكونَ الجمعةُ مسبوقةً بأُخرى فى ذلك البلد ، فإنْ تعذَّر اجتماعهم فى جامع واحد جاز فى جامعين وثلاثة وأربعة ، بقدر الحاجة .

السادس : الخطبتان : فهما فريضتان والقيام فيهما فريضة ، والجلسة بينهما فريضة .

بيان آداب الجمعة

على ترتيب العادة ، وهى عشر جمل

الأول : أن يستعدَّ لها يوم الخميس عزمًا عليها واستقبالا لفضلها ، فيشتغل بالدعاء والاستغفار والتسبيح بعد العصر يوم الخميس ، لأنها ساعةٌ قُوبلت بالساعة المبهمة فى يوم الجمعة .

الثانى : إذا أصبح ابتدأ بالغسل بعد طلوع الفجر ، وإن كان لايُبَكِّر فأقربه إلى الرَّواح أحبّ، ليكون أقربَ عهدًا بالنظافة . فالغسل مستحبٌّ استحباباً مؤكّدا ، وذهب بعض العلماء إلى وجوبه ، قال صلى الله عليه وسلم : « غُسل الجمعة واجبٌ على كلِّ محتلم » .

الثالث : الزينة . وهى مستحبَّة فى هذا اليوم ، وهى ثلاثة : الكُسوة والنظافة ، وتطييب الرائحة .

الرابع : البُكور إلى الجامع . ويستحبُّ أن يقصد الجامع من فرسخين

وثلاث ، وليُبكِّر . وينبغى أن يكون فى سعيه إلى الجمعة خاشعاً متواضعاً ناويًا للاعتكاف فى المسجد إلى وقت الصلاة ، قاصدًا للمبادرة إلى جواب نداء الله عزَّ وجل إلى الجمعة إياه ، والمسارعة إلى مغفرته ورضوانه . وكان يُرى فى القرنِ الأولِ سَحَراً وبعد الفجر الطُّرقاتُ مملوءةً من الناس، يمشُون فى السُّرج[1] ويزدحمون بها إلى الجامع كأيام العيد ، حتى اندرس ذلك فقيل : أوّلُ بدعةٍ حصلت فى الإسلام تركُ البكور إلى الجامع . وكيف لا يستحى المسلمون من اليهود والنصارى وهم يبكِّرون إلى البيع والكنائس يومَ السبت والأحد ؟ !

الخامس : فى هيئة الدخول : ينبغى أن لا يتخطَّى رقابَ الناس ولا يمرَّ بين أيديهم . والبكور يسهِّل ذلك عليه .

السادس : أن لا يمرَّ بين يَدَىِ الناس ، ويجلس حيث هو إلى قرب أسطوانة أو حائط حتَّى لا يمرُّوا بين يدى المصلى ؛ فإن ذلك لا يقطع الصلاة ، ولكنه منهىٌّ عنه .

السابع : أن يطلب الصفَّ الأوّل فإنَّ فضلَه كثير .

الثامن : أن يقطع الصلاة عند خروج الإمام ، ويقطع الكلام أيضاً بل يشتغل بجواب المؤذّن ، ثم باستماع الخطبة .

التاسع : أن يراعىَ فى خطبة الجمعة ما ذكرناه فى غيرها ، فإذا سمع قراءة الإمام لم يقرأ غير الفاتحة ، فإذا فرغ من الجمعة قرأ : « الحمد لله » سبع مرات قبل أن يتكلم ، و « قل هو الله أحد » والمعوّذتين سبعاً سبعا .

العاشر : أن يلازم المسجد حتى يصلِّىَ العصر ، فإن أقام إلى المغرب فهو الأفضل .

---

(١) جمع سراج ، وهو المصباح .

الباب السادس

فى مسائل متفرقة تعم البلوى بها ويحتاج المريد إلى معرفتها

مسألة : الفعل القليل وإن كان لا يبطل الصلاة فهو مكروه إلا لحاجةٍ ، وذلك فى دفع المارّ ، وقتل العقرب تُخاف ويمكن قتلُها بضربة أو ضربتين ، فإذا صارت ثلاثًا فقد كثُرت وبطلت الصلاة .

مسألة : الصلاة فى النعلين جائزة وإن كان نزعُ النَّعلين سهلا ، وليست الرخصة فى الخفّ لعُسر النزع ، بل هذه النجاسة معفوٌّ عنها . وفى معناها المدَاسَ ، صلَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نعليه ، ثم نزع فنزع الناس نعالهم ، فقال : لم خلعتم نعالكم ؟ قالوا : رأيناكَ خلعتَ فخلعنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ جبرائيل عليه السلام أتانى فأخبرَنى أنَّ بهما خَبَثًا ، فإذا أراد أحدكم المسجد فليقلِّب نعليه ، ولينظر فيهما ، فإن رأى خَبَثًا فليمسحه بالأَرض وليصلِّ فيهما » .

مسألة : من صلَّى ثم رأى على ثوبه نجاسةً فالأَحبُّ قضاءُ الصلاة ولا يلزمه . ولو رأى النجاسة فى أثناء الصلاة رمى بالثوب وأتمَّ . والأَحبُّ الاستئناف .

مسألة : حَقٌّ على من حضر الصلاة إذا رأى من غيره إساءةً فى صلاته أن يغيِّره وينكر عليه . وإن صدر من جاهل رفَق بالجاهل وعلَّمه . فمن ذلك الأَمرُ بتسوية الصفوف ، ومنعُ ، المنفرد بالوقوف خارجَ الصّفّ ، والإنكارُ على من يرفع رأسَه قبل الإمام ؛ إلى غير ذلك من الأُمور .

الباب السابع

فى النوافل من الصلوات

اعلم أنَّ ما عدا الفرائض من الصلوات ينقسم إلى ثلاثة أقسام : سُنن ، ومستحَبّات ، وتطوُّعات .

ونعنى بالسنن ما نُقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم المواظبة عليه ، كالرواتب عقيب الصلوات ، وصلاة الضحى ، والوتر ، والتهجُّد وغيرها ؛ لأن السُّنَّة عبارة عن الطريق المسلوكة . ونعنى بالمستحبات ما ورد الخبر بفضله ولم ينقل المواظبة عليه . ونعنى بالتطوعات ما وراء ذلك مما لم يرد فى عينه أثر ، ولكنَّه تطوعَ به العبدُ من حيث رغب فى مناجاه الله عز وجل .

القسم الأول

ما يتكرر بتكرر الأيام والليالى

وهى ثمانية : خمسةٌ هى رواتبُ الصلوات الخمس . وثلاثة وراءها وهى : صلاة الضحى ، وإحياءُ ما بين العِشاءين ، والتهجُّد .

الأُولى : راتبة الصُّبح ، وهى ركعتان ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ركعتا الفجرِ خيرٌ من الدُّنيا وما فيها » . ويدخل وقتُها بطلوع الفجر الصادق . وهو المستطير [1] دون المستطيل .

---

(١) أى المنتشر عرضاً .

الثانية : راتبة الظُّهر ، وهى ست رَكَعات : ركعتان بعدها وهى أيضًا سنّة مؤكدة ، وأربعٌ قبلها وهى أيضاً سنة وإن كانت دون الركعتين الأخيرتين.

الثالثة : راتبة العصر ، وهى أربع رَكعات قبل العصر .

الرابعة : راتبة المغرب ، وهما ركعتان بعد الفريضة .

الخامسة : راتبة العِشاء الآخرة[1] ، أربع ركعات بعد الفريضة .

السادسة : الوِتر : قال أنس بن مالك : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُوتِرُ بعد العِشاء بثلاث ركعات ، يقرأُ فى الأُولى : سبح اسم ربك الأعلى ، وفى الثانية : قل يا أيها الكافرون ، وفى الثالثة : قل هو الله أحد .

السابعة صلاة الضحى ، فالمواظبة عليها من عزائم الأفعال وفواضلها ، أمّا عدد ركَعاتها فأكثر ما نقل فيه ثمانى ركعات .

الثامنة : إحياءُ ما بين العِشاءين ، وهى سنّة مؤكدة . ومما نُقِل عدده من فِعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بين العشاءين ستٌّ ركعات . ولهذه الصلاة فضلٌ عظيم ، وقيل إنها المراد بقوله عز وجل : (تَتَجافَى جُنوبُهُمْ عن المَضَاجع) .

القسم الثانى

ما يتكرر بتكرر الأسابيع

وهى صلوات أيام الأُسبوع ولياليه ، لكل يوم ولكل ليلة .

---

(١) العشاء الأولى هى المغرب .

القسم الثالث

ما يتكرر بتكرر السنين

وهى أربعة : صلاة العيدين ، والتراويح ، وصلاة رجب ، وشعبان .

الأولى : صلاة العيدين : وهى سنَّة مؤكدة . وينبغى أن يراعَى فيها سبعة أمور :

الأول : التكبير ثلاثًا نَسقًا[1] فيقول: «الله أكبر الله أكبر، الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحانَ الله بكرة وأصيلاً ، لا إله إلّا الله وحدَه لا شريك له ، مخلصين له الدِّينَ ولو كرِه الكافرون » .

الثانى : إذا أصبح يومَ العيد يغتسل ويتزيّن ويتطيَّب .

الثالث : أن يخرج من طريق ويرجع من طريق آخر .

الرابع : المستحبُّ الخروج إلى الصحراءِ إلاَّ بمكةَ وبيت المَقدِس . فإن كان يوم مطر فلا بأس بالصَّلاة فى المسجد .

الخامس : يراعى الوقت . فوقت صلاة العيد ما بين طلوع الشمس إلى الزَّوال ، ووقت الذَّبح للضحايا ما بين ارتفاع الشمس بقدر خطبتين وركعتين إلى آخر اليوم الثالثَ عشرَ . ويستحب تعجيل صلاة الأضحى لأجل الذبح ، وتأخير صلاة الفطر لأجل تفريق صَدَقة الفطر قبلها .

السادس : فى كيفية الصلاة : فليخرج الناسُ مكبِّرين فى الطريق . وإذا بلغ الإمامُ المصلَّى لم يجلس ولم يتنفَّل ، ويقطع الناسُ التنفُّل . ثم ينادى مناد : الصلاة جامعة . ويصلِّى الإمام بهم ركعتين يكبِّر فى الأُولى

---

(١) أى متتابعات .

سوى تكبيرة الإحرام والركوع سبعَ تكبيرات، يقول بين كل تكبيرين: « سبحانَ الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر » ، ويقول : (وجَّهتُ وجْهِىَ للذى فَطَرَ السَّموٰاتِ والأَرض) ، عقب تكبيرة الافتتاح.

الثانية : التراويح : وهى عشرون ركعة ، وكيفيتها مشهورة ، وهى سُنَّة مؤكدة وإن كانت دون العيدين ، واختلفوا فى أنَّ الجماعة فيها أفضل أم الانفراد ؟

أمّا صلاةُ رجب فهذه صلاة مستحبَّة ، وإنما أوردناها فى هذا القسم لأنها تتكرَّرُ بتكرُّر السنين ، وإن كانت رتبتها لا تبلغ رتبة التراويح وصلاة العيد ؛ لأنَّ هذه الصلاة نَقَلَها الآحاد ، ولكنِّى رأيتُ أهل القُدس بأجمعهم يواظبون عليها ولا يَسمحون بتركها ، فأحببت إيرادها .

وأمَّا صلاة شعبان : فليلة الخامسَ عشرَ منه ، يصلِّى مائة ركعة ، كل ركعتين بتسليمة ، يقرأُ فى كل ركعة بعد الفاتحة : « قل هو الله أحد » إحدى عشرة مرة ، وإن شاء صلى عشر ركعات يقرأُ فى كل ركعة بعد الفاتحة مائة مرة : « قل هو الله أحد » .

القسم الرابع

ما يتعلق بأسباب عارضة ولا يتعلق بالمواقيت ، وهى تسعة :

الأُولى : صلاة الخُسوف . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الشمسَ والقمرَ آيتانِ من آيات الله لا يَخْسِفان لموت أحدٍ ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فافزَعُوا إلى ذكر الله والصلاة » .

الثانية : صلاة الاستسقاء . فإذا غارت الأَنهار وانقطعت الأَمطار ، أو انهارت قناة ، فيستحبُّ للإمام أن يأْمر الناسَ أوَّلاً بصيام ثلاثة أيام ، وما أطاقُوا من الصدقة ، والخروج من المظالم ، والتَّوبة من المعاصى

ثمّ يخرج بهم فى اليوم الرابع وبالعجائز والصّبيان منتظمين فى ثياب بِذلة[1] واستكانة متواضعين – بخلاف العيد – وقيل يستحب إخراج الدوابّ ، لمشاركتها فى الحاجة ، ولقوله صلى الله عليه وسلم : « لولا صبيانٌ رُضّع ، ومشايخ ركّع ، وبهائمُ رتّع ، لصُبّ عليكم العذابُ صبًّا ». فإذا اجتمعوا فى المصلّى الواسع من الصحراء نودى : الصلاة جامعة ، فصلّى بهم الإمام ركعتين مثل صلاة العيد – بغير تكبير – ثم يخطب خطبتين وبينهما جِلْسَةٌ خفيفة .

الثالثة : صلاة الجنائز . وكيفيتها مشهورة . وأجمع دعاءٍ مأثور ما روى فى الصحيح عن عَوف بن مالك قال : رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم صلّى على جنازة فحفِظت من دعائه : « اللهم اغفر له وارحمه ، وعافِه واعف عنه ، وأكرم نُزُله[2] ووسّع مدخله ، واغسِلْه بالماء والثلج والبَرد ، ونقّه من الخطايا كما ينقّى الثوبُ الأبيضُ من الدَّنَس ، وأبدله داراً خيراً من داره ، وأهلًا خيراً من أهله ، وزوجاً خيراً من زوجه ، وأدخلْه الجنة ، وأعِذْه من عذاب القبر ومن عذاب النار » ، حتى قال عوف : تمنّيت أن أكون أنا ذلك الميّت !

الرابعة : تحيّة المسجد : ركعتان فصاعداً سنة مؤكّدة ، حتّى إنها لا تسقُط وإن كان الإمام يخطب يوم الجمعة ، مع تأكّد وجوبِ الإصغاء إلى الخطيب .

الخامسة : ركعتان بعد الوضوء مستحبتان .

السادسة : ركعتان عند دخول المنزل وعند الخروج منه : روى

---

(١) ثياب البذلة ، بكسر الباء : ما يبتذل منها ولا يصان .

(٢) النزل : ما يهيأ للنزيل ، أى الضيف . والمراد إجزال الأجر والثواب .

أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا خرجتَ من منزلك فصلِّ ركعتين يمنعانك مخرجَ السُّوء، وإذا دخلت منزلك فصلِّ ركعتين يمنعانك مدخل السوء ».

السابعة : صلاة الاستخارة : فمن همَّ بأمر وكان لا يدرى عاقبته ولا يدرى إن كان الخيرُ فى تركه أو فى الإقدام عليه ، فقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يُصَلِّىَ ركعتين يقرأ فى الأولى فاتحة الكتاب وقل ياأيها الكافرون ، وفى الثانية الفاتحة وقل هو الله أحد . فإذا فرغ دعا وقال : اللهم إنِّى أستخيرُك بعلمك وأستقدِرك بقدرتك ، وأسالك من فضلك العظيم ، فإنَّك تقدر ولا أقدر ، وتَعلَمُ ولا أعلم ، وأنت علاَّم الغيوب . اللهم إنْ كنت تعلم أنَّ هذا الأمر خير لى فى دينى ودنيایَ وعاقبة أمرى ، وعاجلِهِ وآجله ، فاقدُره لى ، وبارِكْ لى فيه ثم يسِّرْه لى . وإنْ كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌّ لى فى دينى ودنیایَ وعاقبةِ أمرى ، وعاجِله وآجلِهِ ، فاصرفنى عنه واصرفه عنِّى ، واقدُرْ لى الخير أينما كان ، إنك على كل شىء قدير .

الثامنة : صلاة الحاجة . فمن ضاقَ عليه الأمر ومسَّته حاجة فى صلاح دينه ودنياه إلى أمرٍ تعذَّر عليه ، فليصلِّ هذه الصلاة .

التاسعة : صلاة التسبيح . وهذه الصلاة مأثورة على وجهها ولا تختصُّ بوقت ولا بسبب . ويستحب أن لا يخلو الأسبوعُ عنها مرة واحدة ، أو الشهرُ مرة .

الكتاب الخامس

كتاب اسرار الزكاة

الحمد لله الذى أسعد وأشقَى ، وأمات وأحيا ، وأضحك وأبكى ، وأوجدَ وأفنَى ، وأفقر وأغنى ، وأضرَّ وأقنَى ، الذى خلق الحيوان من نطفةٍ تُمنَى ، ثم تفرَّد عن الخلق بوصف الغنَى ، ثم خصَّص بعض عباده بالحسنى ، فأفاض عليهم من نِعَمِه ما أيسر به من شاء واستغنى ، وأحوجَ إليه من أخفق فى رزقه وأكدَى ، إظهاراً للامتحان والابتلاء ، ثم جعل الزكاة للدين أساساً ومبنى ، وبيَّنَ أنَّ بفضله تزكَّى من عباده مَن تزكَّى ، ومن غِناه زكَّى ، مالَهُ مَنْ زكَّى . والصلاة على محمد المصطفى سيِّدِ الورى ، وشمسِ الهدى ، وعلى آله وأصحابه المخصوصين بالعلمِ والتقى .

أما بعد ، فإن الله تعالى جعل الزكاةَ إحدى مبانى الإسلام ، وأردف بذكرها الصَّلاةَ التى هى أعلى الأعلام ، فقال تعالى : (وأَقِيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزكاة ...) . وقال صلى الله عليه وسلم: « بُنِى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبدُه ورسوله ، وإقامُ الصلاة ، وإيتاءُ الزكاة . . » . وشدَّد الوعيد على المقصِّرين فيها فقال: (والذين يَكنِزُون الذَّهَبَ والفِضَّةَ ولا يُنفِقونها فى سَبيلِ اللهِ فبشِّرْهُم بعذاب أليم) .

الفصل الأول

في أنواع الزكاة وأسباب وُجُوبها

والزكوات باعتبار متعلقاتها ستة أنواع
زكاة النعم ، والنقدين ، والتجارة ، وزكاة الركاز والمعادن وزكاة المعشرات ، وزكاة الفطر

النوع الأول : زكاة النعم

ولا تجب هذه الزكاة وغيرها إلاَّ على حُرٍّ مسلم . ولا يُشترط البلوغ بل تجب فى مال الصبيِّ والمجنون . وأما المال فشروطه خمسة : **أن يكون** نَعَما سائمة باقيةً حَوْلا ، نصاباً كاملا مملوكاً على الكمال .

الشرط الأوَّل : كونه نَعَما ، فلا زكاة إلاَّ فى الإبل والبقر والغنم . أمَّا الخيل والبغال والحمير والمتولِّد من بين الظباء والغنم فلا زكاة فيها.

الثانى : السَّوم . فلا زكاة فى معلوفة ، وإذا أُسيمت فى وقتٍ وعُلفت فى وقت تظهر بذلك مُؤنتها فلا زكاةَ فيها .

الثالث : الحوْل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا زكاة فى مالٍ حتَّى يحولَ عليه الحَوْل » . ويُستثنى من هذا نتاج المال ، فإنه ينسحب عليه حكم المال ، وتجب الزكاةُ فيه لحول الأُصول . ومهما باع المالَ فى أثناء الحول أو وَهَبه انقطع الحول .

الرابع : كمال المِلك والتصرُّف. فتجب الزكاة فى الماشية المرهونة ، لأنه الذى حَجَر على نفسه فيه ، ولا تجب فى الضَّالّ والمغصوب ، إلاَّ إذا عاد بجميع نَمائه . فتجب زكاةُ ما مضى عندَ عَودِه . ولو كان عليه

دين يستغرق ماله فلا زكاةَ عليه ، فإنه ليس غنيًّا به ، إذ الغِنَى ما يفضُل عن الحاجة .

الخامس : كمال النصاب .

النوع الثانى : زكاة المعشرات

فيجب العشر فى كل مستنبَتٍ مقتات بلغ ثمانمائة مَنٍّ ، ولا شىء فيما دونها ، ولا فى الفواكه والقُطْن ، ولكن فى الحبوب التى تُقتات ، وفى التمر والزبيب .

النوع الثالث : زكاة النقدين

فإذا تمَّ الحوْل على وزن مائتى درهم بوزن مَكَّة نُقرة خالصة[1] ففيها خمسة دراهم ، وهو رُبع العشر ، وما زاد فبحسابه ، ولو درهما . ونصاب الذهب عشرون مثقالا خالصاً بوزن مكّة ، ففيها ربع العشر ، وما زاد فبحسابه . وإن نقص من النصاب حَبَّةٌ فلا زكاة .

النوع الرابع : زكاة التجارة

وهى كزكاة النقدين ، وإنما ينعقد الحوْلُ من وقت مِلك النقد الذى به اشترَى البضاعة إنْ كان النقد نصاباً ، فإن كان ناقصا أو اشتَرَى بعرَضٍ على نية التجارة فالحولُ من وقت الشراء .

النوع الخامس : الركاز والمعدن

والرِّكاز : مالٌ دفن فى الجاهلية ووُجد فى أرض لم يَجرِ عليها فى الإسلام مِلك ، فعلى واجده فى الذهب والفضة منه الخمس . والحول غير معتبر .

وأمَّا المعادن فلا زكاة فيما استُخرج منها سوى الذهب والفضة ، ففيها بعد الطحن والتخليص رُبع العشر ، على أصحِّ القولين .

---

(١) النقرة من الذهب والفضة : القطعة المذابة .

النوع السادس : فى صدقة الفطر

وهى واجبة – على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم – على كلِّ مسلمٍ فضلَ عن قُوتهِ وقوتِ من يقوته يومَ الفطر وليلتَه ، صاعٌ مِمّا يُقتات بصاع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مَنَوان وثلثا مَنًا[1] يُخرجه من جنس قُوته أو من أفضلَ منه . فإنِ اقتات بالحِنطة لم يُجزِ الشَّعير .

ويجب على الرجل المسلم فطرةُ زوجته ومماليكه وأولاده ، وكلُّ قريبٍ هو فى نفقته ، أعنى من تجب عليه نفقته من الآباء والأُمهات والأَولاد .

الفصل الثاني

في الأَداءِ وشُروطه الباطِنة والظاهِرَة

اعلم أنه يجب على مؤدِّى الزكاة مراعاةُ خمسةِ أمور :

الأَوّل : النية . وهو أن ينوىَ بقلبه زكاة الفَرض ، ويسنُّ عليه تعيين الأَموال .

الثانى : البِدار عَقِيب الحول . وفى زكاة الفطر لايؤخِّرها عن يوم الفطر . ويدخل وقتُ وجوبها بغروب الشمس من آخر يومٍ من شهر رمضان . ووقت تعجيلها شهرُ رمضان كلُّه .

الثالث : أن لا يُخرج بدلاً باعتبار القيمة ، بل يخرج المنصوصَ عليه فلا يجزئ وَرِق[2] عن ذهب ، ولا ذهبٌ عن وَرِق ، وإن زاد عليه

---

(١) المنا : رطلان .

(٢) الورق : الدراهم المضروبة من الفضة .

فى القيمة . ولعلَّ بعض من لا يدرك غرض الشافعى ، رضى الله عنه ، يتساهل فى ذلك .

ويلاحظ المقصود من سَدّ الخَلّة ، وما أبعده عن التحصيل .

الرابع : ألاَّ ينقلَ الصدقةَ إلى بلدٍ آخرَ ؛ فإنَّ أعينَ المساكين فى كلِّ بلدة تمتد إلى أموالها ، وفى النقل تخييبٌ للظنون . فإن فعل ذلك أجزأه فى قول ، ولكنَّ الخروج عن شبهة الخلاف أوْلَى .

الفصل الثالث

في القابِض ، وأسبابِ استحقاقه ، ووظائف قَبْضِه

بيان أسباب الاستحقاق

اعلم أنّه لا يستحقُّ الزكاة إلاَّ حرٌّ مسلم ، ليس بهاشمى ولا مطَّلبى ، اتَّصف بصفةٍ من صفات الأَصناف الثمانية المذكورين فى كتاب الله عز وجل .

الصِّنف الأَول: الفقراءُ . والفقير هو الذىليس له مال ولا قدرةَ له على الكسب ، فإن كان معه قوتُ يومه وكُسوة حاله فليس بفقير ، ولكنَّه مسكين . وإن كان معه نصفُ قوتِ يومه فهو فقير .

الصنف الثانى : المساكين . والمسكين هو الذى لا يَفِى دخلُه بخَرْجه فقد يملك ألفَ درهم وهو مسكين ، وقد لا يملك إلا فأْساً وحبلا وهو غنىّ.

الصنف الثالث: العاملون ، وهم السُّعاة الذين يجمعون الزكوات ، سوى الخليفة والقاضى ، ويدخل فيه العَرِيف ، والكاتب ، والمستوفِى ، [illegible] ، والنقّال .

الصِّنف الرابع : المؤلَّفة قلوبُهم على الإسلام ، وهم الأشراف الذين اسلموا وهم مُطاعُون فى قومهم . وفى إعطائهم تقريرُهم على الإسلام ، وترغيبُ نظائرهم وأتباعهم .

الصنف الخامس : المكاتَبون . فيُدفع إلى السيِّد سهمُ المكاتَب ، وإن دُفع إلى المكاتب جاز . ولا يَدفع السيدُ زكاته إلى مكاتَبِ نفسِه ، لأنه يُعدّ عبداً له .

الصنف السادس : الغارمون . والغارم هو الذى استَقرَضَ فى طاعة أو مباح وهو فقير ، فإن استقرض فى معصيةٍ فلا يُعطى إلا إذا تاب .

الصنف السابع : الغزاة الذين ليس لهم مرسوم فى ديوان المرتزقة ، فيصرف إليهم سهمٌ وإن كانوا أغنياء ، إعانةً لهم على الغزو .

الصنف الثامن : ابن السبيل ، وهو الذى شَخَصَ من بلده ليسافر فى غير معصية ، أو اجتاز بها ، فيُعطَى إن كان فقيراً . وإن كان له مال ببلد آخر أُعطِىَ بقدر بُلغته[1] .

بيان وظائف القابض

وهى خمسة :

الأُولى : أن يعلم أنَّ الله عز وجل أوجب صرفَ الزكاة إليه ليكفىَ همَّه ويجعلَ همومه همًّا واحداً ، فقد تعبَّد الله عز وجل الخلق بأن يكون همُّهم واحداً ، وهو الله سبحانه واليوم الآخر .

الثانية : أن يشكر المعطىَ ويدعوَ له ويثنىَ عليه ؛ ويكونَ شكرُه ودعاؤه بحيث لا يُخرجه عن كونه واسطة ، ولكنَّه طريقٌ وصول نعمةِ الله سبحانه إليه .

---

(١) البلغة ، بالضم : ما يتبلغ به من العيش ولا زيادة فيه .

الثالثة : أن ينظر فيما يأخذه ؛ فإن لم يكن من حِلٍّ تورَّعَ عنه ، (ومَنْ يتَّقِ اللهَ يَجعلْ له مَخرَجًا * ويَرزُقْه من حيثُ لا يَحتسِب) . ولن يعدم المتورِّع عن الحرام فُتوحاً من الحلال .

الرابعة : أن يتوقَّى مواقع الرِّيبة والاشتباه فى مقدارِ ما يأخذه ، فلا يأْخذَ إلاَّ المقدارَ المباح ، ولا يأْخذَ إلاَّ إذا تحقَّق أنَّه موصوف بصفة الاستحقاق .

الخامسة : أن يسأل صاحبَ المال عن قَدْر الواجب عليه ، فإن كان ما يعطيه فوقَ الثُّمن فلا يأْخذْه منه ، فإنَّه لا يستحقُّ مع شريكه إلا الثُّمن فلْيَنْقص من الثمن مقدارَ ما يصرف إلى اثنين من صِنفِه .

الفصل الرابع

في صدقة التطوع وفضلها ، وآداب أخذها وإعطائها

بيان فضيلة الصدقة

من الأخبار : قوله صلى الله عليه وسلم : « اتَّقوا النارَ ولو بشِقِّ تَمرة فإنْ لم تجدوا فبكلمةٍ طيِّبة » . وقال صلى الله عليه وسلم : « كلُّ امرئٍ فى ظلِّ صَدقته حتى يُقضَى بين الناس » . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيُّ الصَّدقة أفضل ؟ قال : « أنْ تَصدَّقَ وأنت صحيحٌ شحيحٌ تأمُل البقاء وتَخشَى الفاقة ، ولا تمهَّلَ حتَّى إذا بلغت الحُلقومَ قلتَ : لفلانٍ كذا ، ولفلانٍ كذا ، وقد كان لفلان » .

وكان عمر رضى الله عنه يقول : اللهم اجعلِ الفضلَ عند خيارنا لعلَّهم يعودون به على ذَوِى الحاجة مِنَّا .

وكان عبد الله بن عمر يتصدَّق بالسُّكَّر ويقول : سمعت الله يقول : (لن تَنالُوا البرَّ حتَّى تُنفقوا ممَّا تُحِبُّون) ، والله يعلمُ أنِّى أُحبُّ السكَّر.

وقال عبيد بن عُمير: يُحشَر الناسُ يومَ القيامة أجوعَ ما كانوا قطُّ، وأعطشَ ما كانوا قطُّ ، وأعْرَى ما كانوا قطُّ ، فمن أطعَم لله عزَّ وجل أشبعَه الله ، ومن سَقَى لله عزّ وجل سقاه الله ، ومن كسا لله عزَّ وجل كساه الله .

بيان إخفاء الصدقة وإظهارها

قد اختلف طريقُ طُلاَّب الإخلاص فى ذلك ، فمال قومٌ إلى أنَّ الإخفاء أفضل ، ومالَ قوم إلى أنَّ الإظهار أفضل . ونحن نُشير إلى ما فى كلٍّ واحد من المعانى والآفات ، ثم نكشِف الغطاء عن الحقّ فيه .

وأما الإخفاءُ ففيه خمسة معان :

الأول : أنه أبقَى للسَّتر على الآخذ .

الثانى : أنه أسلم لقلوب الناس وألسنتهم ، فإنَّهم ربَّما يحسُدون أو يُنكرون عليه أخْذَه ، ويظنُّون أنه آخذ مع الاستغناء، أو ينسُبونه إلى أخذ زيادة .

الثالث : إعانة المعطَى على إسرار العمل ، فإنَّ فضل السرِّ على الجهر فى الإعطاء أكثر ، والإعانَة على إتمام المعروف معروف .

الرابع : أن فى إظهاره الأَخذَ ذلاًّ وامتهاناً ، وليس للمؤمن أن يُذلّ نفسه .

الخامس : الاحتراز عن شبهة الشَّركة . قال صلى الله عليه وسلم : « من أهدِيَ له هدِيَّةٌ وعنده قومٌ فهم شركاؤه فيها » .

أما الإظهارُ والتحدُّثُ بْه ففيه معانٍ أربعة :

الأول : الإخلاص ، والصدق ، والسلامة عن تلبيس الحال والمراءاة.

الثانى : إسقاط الجاه والمنزلة ، وإظهار العبوديّة والمسكَنة ، والتبرّى عن الكبرياء ودَعوى الاستغناء .

الثالث : هو أنّ العارف لا نَظرَ له إلّا إلى اللهِ عز وجل ، والسرُّ والعلانية فى حقّه واحد ، فاختلاف الحال شِركٌ فى التوحيد .

الرابع : أن الإظهار إقامةٌ لسنّة الشُّكر ، وقد قال تعالى : (وأمّا بِنعمةِ ربِّكَ فحدِّثْ) ، والكِتمان كُفرانٌ للنعمة . وقد ذمّ الله عز وجل مَن كتم ما آتاه الله عز وجلّ ، وقَرنَه بالبخل . فقال تعالى : (الذين يَبْخَلُون ويَأمُرُون الناسَ بالبُخْل ويَكْتُمون ما آتاهم اللهُ مِن فَضْلِه).

الكتاب السادس

كتاب اسرار الصوم

الفصل الأول

في الواجبات والسنن الظاهرة واللوازم بإفساده

أما الواجبات الظاهرة فستة :

الأوَّل : مراقبة أوَّل شهر رمضان ، وذلك برؤية الهلال ، فإن غُمّ فاستكمال ثلاثين يومًا من شعبان .

الثاني : النيَّة . ولا بدَّ لكل ليلةٍ من نيّة مبيَّتة معيَّنة جازمة . فلو نوى أن يصوم شهر رمضان دفعةً واحدة لم يكفِه .

الثالث : الإمساك عن إيصال شيء إلى الجوف عمدًا مع ذِكر الصَّوم . فيفسُد صومُه بالأكل والشرب ، والسَّعوط ، والحُقنة .

الرابع : الإمساك عن الجماع : وحدُّه مَغيب الحشفَة . وإن جامع ناسيًا لم يفطر . وإنْ جامع ليلا أو احتلم فأصبح جُنبًا لم يفطر .

الخامس : الإمساك عن إخراج القيء . وإنْ ذَرعَه القيءُ[1] لم يَفسُد صومُه .

---

(١) ذرعه القيء : غلبه .

وأما لوازم الإفطار فاربعة .

القضاءُ ، والكفارة ، والفدية ، وإمساكُ بقية النهار تشبُّهًا بالصائمين.
أما القضاء : فوجوبه عامٌّ على كل مسلم مكلَّفٍ تَرَكَ الصومَ بعذر أو بغير عذر .

وأما الكفَّارة : فلا تجب إلاَّ بالجماع .

وأما إمساك بقيَّة النهار : فيجب على من عصَى بالفطر أو قصَّر فيه ، ولا يجب على الحائض إذا طهُرت إمساكُ بقيةِ نهارها ، ولا على المسافر إذا قدِم مفطراً من سفرٍ بلغ مرحلتين .

وأما الفدية : فتجب على الحامل والمرضِع إذا أفطرتَا خوفًا على ولديهما ؛ لكل يوم مُدٌّ حنطةٍ لمسكين واحد ، مع القضاء . والشَّيخ الهرِم إذا لم يصم تصدّق عن كل يوم مُدًّا .

وأما السُّنن فستٌّ : تأخير السَّحور ، وتعجيل الفطر بالتمر أو الماء قبل الصلاة ، وتركُ السِّواك بعد الزوال ، والجودُ فى شهر رمضان لما سبق من فضائل فى الزكاة ، ومُدارسةُ القرآن ، والاعتكاف فى المسجد لاسيَّما فى العَشْر الأخيرة .

الفصل الثاني

في أسرار الصَّوم وشروطه الباطنة

اعلم أنَّ الصوم ثلاثة درجات : صوم العموم ، وصوم الخصوص. وصوم خصوص الخصوص .

أما صوم العموم فهو كفُّ البطن عن قَضاء الشهوة كما سبق تفصيلُه.

وأما صوم الخصوص فهو كفُّ السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام .

وأما صوم خُصوص الخصوص فصوم القلب عن الهمم الدنيَّة ،والأفكار الدنيويَّة ؛ وكفُّه عما سوى الله عز وجل بالكلِّية . ويحصل الفطر فى هذا الصوم بالفكر فيما سوى الله عز وجل واليوم الآخر ، وبالفكر فى الدنيا ، إلاَّ دنيا تراد للدين .

الفصل الثالث

في التطوع بالصِّيام وترتيب الأوراد فيه

اعلم أنَّ استحباب الصوم يتأكد فى الأيام الفاضلة ، وفواضل الأيام بعضها يُوجَد فى كل سَنَةٍ ، وبعضها يوجَدُ فى كل شهر ، وبعضها فى كلّ أسبوع .

أما فى السَّنَة بعد أيام رمضان فيوم عَرَفة ، ويوم عاشوراء ، والعَشرُ من ذى الحجة ، والعَشْرُ الأُوَلُ من المحرَّم . وجميع الأشهر الحُرُم مظانٌّ الصوم ، وهى أوقاتٌ فاضلة . و « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

يُكثر صوم شعبان حتّى كان يُظَنُّ أنه فى رمضان » . والأشهرُ الحُرُمُ : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب : واحدٌ فرد ، وثلاثة سَرد[1] .

وأما ما يتكرّر فى الشهر : فأوّل الشهر ، وأوسطه ، وآخره . وأوسطه الأيّام البيض ، وهى الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر .

أما فى الأُسبوع : فالاثنين ، والخميس ، والجمعة . فهذه هى الأَيام الفاضلة ، فيُستحبُّ فيها الصيامُ وتكثير الخيرات ، لتضاعف أُجورِها ببركة هذه الأَوقات .

وأَمَّا صومُ الدهر فإنه شاملٌ للكلِّ وزيادة . وللسالكين فيه طرقٌ ، فمنهم من كَرِه ذلك ؛ إذْ وردت أَخبارٌ تدلُّ على كراهته . والصحيح أَنَّه إنَّما يكره لشيئين :

أَحدُهما : أَنْ لا يفطَر فى العيدين وأيام التشريق . فهو صوم الدَّهرِ كلِّه .

والآخر : أن يرغب عن السنَّة فى الإفطار ، ويجعل الصوم حَجْراً على نفسه ، مع أن الله سبحانه يحبُّ أَن تُؤتَى رُخَصُه ، كما يحب أَن تؤتَى عزائمُه . فإذا لم يكن شئٌ من ذلك ورأى صلاح نفسه فى صوم الدهر فليفعلْ ذلك ؛ فقد فعله جماعةٌ من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم.

---

(١) سرد ، أى مسرودة متتالية .

الكتاب السابع

كتاب أسرار الحج

الفصل الأول

في فضائل الحج

وفضيلة البيت ومكة والمدينة حرسهما الله تعالى
وشد الرحال إلى المساجد

فضيلة الحج

قال الله عز وجل : (وأذِّنْ في النَّاس بالحجّ يأتوك رجالاً وعلى كلِّ ضامرٍ يأتِينَ مِنْ كلِّ فَجٍّ عَمِيق) . وقال قَتادة : لمَّا أمر الله عز وجل إبراهيم صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا وعلى كلِّ عبدٍ مصطفًى أن يؤذِّن في الناس بالحجّ نادى : يأيُّها الناس، إن الله عز وجل بَنَى بيتاً فَحُجُّوه .

وقال تعالى : (لِيشهَدُوا مَنافعَ لهم)، قيل : التجارة في الموسم، والأجر في الآخرة .

وقال صلى الله عليه وسلم . « من حجَّ البيتَ فلم يرفُث[1] ولم

(١) الرفث : الفحش في القول ، والإفضاء إلى النساء .

يفسُق خرج من ذنوبه كيومَ ولدته أمُّه » . وقال صلى الله عليه وسلم . « حَجَّةٌ مبرورةٌ خيرٌ من الدنيا وما فيها ، وحَجّة مبرورةٌ ليس لها جزاءٌ إلاَّ الجنة » .

وقال بعض السَّلَف : إذا وافق يومُ عرفة يوم جمعةٍ غُفِر لكلِّ أهلِ عرفة . وهو أفضل يوم فى الدنيا ، وفيه حجَّ رسول الله صلى الله عليه حَجّةَ الوداع ، وكان واقفاً إذْ نزل قوله عز وجل : (اليومَ أكملتُ لكم دِينَكم وأتممْتُ عليكم نِعمتِى ورَضِيتُ لكم الإسلامَ دِينا) . قال أهل الكتاب : لو أُنزلت هذه الآيةُ علينا لجعلناها يومَ عيد ! فقال عمر رضى الله عنه : أشهد لقد أُنزلت هذه الآية فى يوم عيدين اثنين: يوم عرفة ، ويوم جمعة ، على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقفٌ بعرفة .

فضيلة البيت ومكة المشرفة

فى الخبر أنَّ الحجر الأسود ياقوتةٌ من يواقيت الجنة ، وأنَّه يُبعث يوم القيامة له عينانِ ولسانٌ ينطقُ به ، يشهد لكلِّ مَن استلمه بحقٍّ وصدق . وكان صلى الله عليه وسلم يقبِّله كثيراً . وروى أنه صلى الله عليه وسلم سَجد عليه . وكان يطوف على الراحلة فيضع المِحْجن[1] عليه ثم يقبِّل طرفَ المحجن . وقبَّله عمر رضى الله عنه ثم قال : إنِّى لأعلم أنَّك حَجرٌ لا تضرٌّ ولا تنفع ، ولولا أنِّى رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبِّلك ما قبَّلتُك » ، ثم بكى حتَّى علا نَشِيجُه ، فالتفت إلى ورائه فرأى عليًّا كرَّم الله وجهه ورضى عنه فقال: يا أبا الحسن ، ها هنا

(١) المحجن ، كمنبر : العصا المعوجة .

تُسكَب العَبَرات ، وتُستجاب الدعوات ! فقال على رضى الله عنه : يا أمير المؤمنين، بل هو يضرُّ وينفع . قال: وكيف ؟ قال : إن الله تعالى لمَّا أخذ الميثاقَ على الذرِّيَّة كتب عليهم كتاباً ثم ألقَمَه هذا الحجرَ ، فهو يشهد للمؤمن بالوفاء ، ويشهدُ على الكافر بالجحود .

فضيلة المدينة الشريفة على سائر البلاد

ما بعدَ مكةَ بقعةٌ أفضلُ من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالأعمال فيها أيضاً مضاعَفة . قال صلى الله عليه وسلم : « صلاةٌ فى مسجدى هذا خيرٌ من ألفِ صلاة فيما سواه ، إلاَّ المسجدَ الحرام » .

ورَوى ابنُ عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « صلاةٌ فى مسجد المدينة بعشرةِ آلاف صلاة ، وصلاةٌ فى المسجد الأقصى بألف صلاة ، وصلاةٌ فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة » .

وما بعد هذه البقاع الثلاثِ فالمواضع فيها متساويةٌ إلَّا الثُّغور ، فإنَّ المُقَام بها للمرابَطة فيها فيه فضلٌ عظيم . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى » .

الفصل الثاني

في شروط وجوب الحج وصحة أركانه

وواجباته ومحظوراته

أمّا الشرائط فشرطُ صحةِ الحجّ اثنان : الوقت ، والإسلام . فيصحُّ حج الصبي ، ويُحرِم بنفسه إن كان مميِّزاً ، ويُحْرِم عنه وليُّه إن كان صغيراً ، ويفعل به ما يفعل فى الحج من الطَّواف والسَّعيِ وغيره .

وأما الوقت فهو شوَّال ، وذو القعدة ، وتسع من ذى الحجة إلى طلوع الفجر من يوم النحر . فمن أحرم بالحجّ من غير هذه المدة فهى عُمرة ، وجميعُ السَنة وقتُ العمرة .

أما شروط وقوعِه عن حَجَّة الإسلام فخمسة : الإسلام ، والحريَّة ، والبلوغ ، والعَقْل ، والوقْت .

وأما شروط لزوم الحجّ فخمسة : البلوغ ، والإسلام ، والعقل ، والحرِّيَّة ، والاستطاعة .

وأما الأركان التي لا يصحُّ الحج بدونها فخمسة : الإحرام ، والطواف ، والسَّعي بعده ، والوقوف بعرفة ، والحلْق بعده على قول . وأركان العمرة كذلك : إلا الوقوف .

وأما وجوه أداء الحج والعمرة فثلاثة :

الأول : الإفراد . وهو الأفضل ، وذلك أن يقدِّم الحجَّ وحده ، فإذا فرغ خرج إلى الحِلّ فأحرم واعتمر .

الثاني : القِرَان . وهو أن يجمع فيقول : « لبَّيك بحجّة وعمرة معاً »

فيصير مُحْرِما بهما ، ويكفيه أعمالَ الحج ، وتندرج العمرة تحت الحجّ كما يندرج الوضوءُ تحت الغُسْل .

الثالث : التمتع ، وهو أن يَجُوز الميقاتَ محرِما بعُمْرة ، ويتحلَّل بمكة ، ويتمتَّع بالمحظورات إلى وقت الحج ، ثم يُحرم بالحج .

وأما محظورات الحج والعمرة فستة :

الأول : اللُّبس للقميص والسراويل والخُفّ والعمامة ، بل ينبغي أن يلبس إزاراً ورداءً ونعلين ، فإن لم يجد فمكعَّبين ، فإن لم يجد إزاراً فسراويل .

الثاني : الطِّيب . فليجتنب كلَّ ما يعدّه العقلاء طيباً . فإنْ تطيَّبَ أو لبس فعليه دمُ شاة .

الثالث : الحلق والقَلْم[1] وفيهما الفدية ، أعني دمَ شاة .

الرابع : الجماع وهو مفسدٌ قبل التحلل الأول ، وفيه بدنة أو بقرة أو سبع شاة .

الخامس : مقدّماته كالقبلة والملامسة .

السادس : قتل صيد البَرّ .

(١) لعل « القلم » قص الأظافر .

الفصل الثالث

في ترتيب الأعمال الظاهرة من أول السفر إلى الرجوع

وهي عشر جمل

الجملة الأولى

فى السير من أول الخروج إلى الإحرام ، وهى ثمانية

الأولى : فى المال . فينبغى أن يبدأ بالتوبة ، وردِّ المظالم ، وقضاء الدُّيون ، وإعدادِ النفقة لكلِّ من تلزمه نفقتُه إلى وقت الرجوع ، ويردُّ ما عنده من الودائع . ويستصحبَ من المال الحلالِ الطيِّب ما يكفيه لذَهابه وإيابه ، من غير تقتير .

الثانية : فى الرفيق . ينبغى أن يلتمس رفيقاً صالحاً محبًّا للخير ، معيناً عليه .

الثالثة : فى الخروج من الدار . ينبغى إذا همَّ بالخروج أن يصلِّيَ ركعتين أولاً ، يقرأ فى الأولى بعد الفاتحة : قل يـأيُّها الكافرون ، وفى الثانية : الإخلاص . فإذا فرغ رفع يديه ودعا الله سبحانه عن إخلاص صاف ، ونية صادقة .

الرابعة : إذا حصل على باب الدار قال : بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله . ربِّ أعوذ بك أن أَضِلَّ أو أُضَلَّ ، أو أَذِلَّ أو أُذَلَّ، أو أَزِلَّ أو أُزلَّ ، أو أَظلِمِ أو أُظلَم، أو أَجهلَ أو يُجهلَ عليَّ . اللهم إنِّى لم أخرجْ أشَراً ولا بطراً ، ولا رياء ولا سمعة ، بل خرجتُ اتِّقاء سُخطك وابتغاء مَرضاتك ، وقضاء فرضك ، واتباع سنة نبيك ، وشوقًا إلى لقائك .

الخامسة : فى الركوب ، فإذا ركب الراحلة يقول : « بسم الله وبالله والله أكبر ، توكلت على الله ، ولا حولَ ولا قوّة إلا بالله العلى العظيم ، ما شاء الله كان وما لم يشأْ لم يكن ، سبحان الذى سَخَّر لنا هذا وما كُنَّا له مُقْرنين . وإنَّا إلى ربِّنا لمنقلبون . اللهم إنِّى وجّهت وجهى إليك ، وفوَّضتُ أمرى كلَّه إليك ، وتوكَّلتُ فى جميع أُمورى عليك ، أنت حسبى ونعم الوكيل » .

السادسة : فى النزول . والسنة أن لا ينزل حتَّى يَحمَى النهار . ويكون أكثرُ سيره بالليل .

السابعة : فى الحراسة : ينبغى أن يحتاط بالنهار فلا يمشى منفرداً خارجَ القافلة ، لأنه رُبَّما يُغتال أو ينقطع

الثامنة : مهما علا نَشزاً[1] من الأَرض فى الطريق فيُستحبُّ أن يكبِّرَ ثلاثاً ثم يقول : « اللهم لكَ الشَّرفُ على كل شَرف ، ولك الحمد على كلِّ حال » . ومهما هبط سبَّح ، ومهما خاف الوَحشة فى سفره قال : « سبحانَ الله الملك القُدّوس ، ربُّ الملائكة والروح ، جَلَّلْتَ السَّموات بالعزَّة والجبروت » .

الجملة الثانية

فى آداب الإحرام من الميقات إلى دخول مكة ، وهى خمسة :

الأَول : أن يغتسل وينوى به غُسل الإحرام .

الثانى : أن يفارق الثِّياب المَخِيطة ويلبس ثوبَى الإحرام ، فيرتدى ويتَّزر بثوبين أبيضين .

الثالث : أن يَصبِرَ بعد لُبس الثياب حتَّى تنبعث به راحلته إن

(١) النشز ، بالفتح والتحريك : ما ارتفع من الأرض .

كان راكباً ، أو [illegible] راجلا ، فعند ذلك ينوى الإحرام بالحجّ أو بالعمرة [illegible] كما أراد . ويكفى مجردُ النية لانعقاد الإحرام ، ولكنَّ السُّنّة أن يقرِن بالنيَّة لفظَ التلبية فيقول : « لبيّكَ اللهمَّ لبَّيك ، لبَّيك لا شريكَ لك لبَّيْك ، إنَّ الحمد والنعمةَ لك والملك ، لا شريكَ لك » .

الرابع : إذا انعقد إحرامُه بالتلبية المذكورة فيستحبُّ أن يقول : اللهم إنِّى أُريد الحجّ فيسِّره لىَ ، وأَعنِّى على أداءِ فرضِه ، وتقبَّلْه منى . اللهم إنِّى نويتُ أداءَ فريضتك فى الحج ، فاجعلْنى من الذين استجابوا لك ، وآمنُوا بوعدك ، واتَّبعوا أَمرك ، واجعلْنى من وفدك الذين رضيتَ عنهم وارتضيت ، وقبِلتَ منهم . اللهمَّ فَيسِّر لى ما نويتُ من الحج . اللهم قد أحرمَ لك لحمي وشَعرى ، ودمى وعصبى ، ومُخِّى وعظامى ، وحرَّمت على نفسى النساءَ والطِّيب ، ولُبس المخيط ؛ ابتغاءَ وجهِك والدار الآخرة .

الخامس : يُستحبُّ تجديد التلبية فى دوام الإحرام ، خصوصًا عند اصطدام الرفاق ، وعند اجتماع الناس ، وعند كل صُعُود وهُبوط ، وعند كل ركوب ونزول .

الجملة الثالثة

فى آداب دخول مكة إلى الطواف ، وهى ستة :

الأول : أن يغتسل بذى طُوى لدخول مكة .

الثانى : أن يقول عند الدخول فى أوّل الحَرَم وهو خارجَ مكة : « اللهم هذا حرمُك وأَمْنك ، فحرِّم لحمى ودمى وشعرى وبَشَرى على النار ، وآمنِّى من عذابك يوم تَبعثُ عبادك ، واجعلْنى من أوليائك وأهل طاعتك .

(١) الراجل : من يسير على رجليه .

الثالث . أن يدخل مكة من جانب الأَبطَحِ ، وهو من ثنيَّة كَدَاء .

الرابع : إذا دخل مكة وانتهى إلى رأس الرَّدْم فعنده يقع بصره على البيت . فليقل : « لا إله إلا الله والله أكبر . اللهم أنت السلامُ ومنك السلام ، ودارك دارُ السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام . اللهم إنَّ هذا بيتُك عظَّمتَه وكرَّمْتَهُ وشرَّفْتَه . اللهمَّ فزِدهُ تعظيماً ، وزده تشريفًا وتكريماً . وزده مَهابةً ، وزد مَنْ حَجَّه بِرًّا وكرامة . اللهم افتحْ لى أبوابَ رحمتك وأَدْخِلْنى جنَّتَك ، وأَعِذْنى من الشيطان الرجيم » .

الخامس : إذا دخل المسجد الحرام فليدخلْ من باب بنى شَيبة وليقل : « بسم الله وبالله ، ومن الله وإلى الله ، وفى سبيل الله ، وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم » . فإذا قرُب من البيت قال : « الحمدُ لله وسلامٌ على عباده الذين اصطفى . اللهم صلِّ على محمدٍ عبدِك ورسولِك ، وعلى إبراهيم خليلك ، وعلى جميع أنبيائك ورسلك » .

السادس : أن تقصد الحجر الأَسودَ بعد ذلك وتمسّه بيدك اليمنى وتقبِّلَه وتقول : « اللهم أَمانتِى أدَّيتُها ، وميثاقى وَفَّيته ، اشهدْ لى بالموافاة » . فإن لم يستطع التقبيل وقف فى مقابلته ويقول ذلك .

الجملة الرابعة
فى الطواف

فإذا أراد افتتاح الطَّواف إمَّا للقُدوم وإمَّا لغيره ، فينبغى أن يراعىَ أموراً ستة :

الأَول : أن يراعىَ شروط الصلاة من طَهارة الحدث والخَبَث فى الثوب والبدن والمكان ، وستر العورة . وليضطبع قبل الطَّواف ، وهو أن يجعل وسط ردائه تحت إبطه اليمنى ، ويجمع طرفيه على منكبه الأَيسر فيُرخِى طرفًا وراءَ ظهره وطرفاً على صدره .

الثانى : إذا فرغ من الاضطباع فليجعل البيتَ على يساره ، وليقفْ عند الحجر الأَسود ولْيتنَحَّ عنه قليلا ؛ ليكون الحجَر قدَّامه فيمر بجميع الحجر بجميع بدنه فى ابتداء طوافه .

الثالث : أن يقول قبل مجاوزة الحجر بل فى ابتداء الطواف : « بسم الله والله أكبر . اللهم إيمانًا بك وتصديقًا بكتابك ، ووفاءً بعهدك، واتِّباعًا لسنَّة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم » . ويطوف .

الرابع : أن يَرمُل فى ثلاثة أشواط ويمشيَ فى الأَربعة الأُخَر على الهيئة المعتادة . ومعنى الرَّمَل الإسراع فى المشى مع تقارب الخُطى ، وهو دون العدْو وفوق المشى المعتاد . والمقصود منه ومن الاضطباع إظهار الشَّطارة[1] والجلادة والقوَّة . هكذا كان القصد أوّلاً قطعاً لطمع الكفار ، وبقيت تلك السنَّة .

الخامس : إذا تمّ الطوافُ سبعاً فليأْت الملتزَم وهو بين الحَجَر والباب. وهو موضع استجابة الدَّعوة، وليلتزق بالبيت وليتعلَّق بالأَستار، ولْيلصق بطنه بالبيت ، وليضع عليه خدَّه الأَيمن ، وليبسط عليه ذراعيه وكفَّيه ، وليقل : « اللهم يا ربَّ البيت العتيق ، اعتقْ رقبتى من النار، وأعذْنى من الشيطان الرجيم ، وأعذنى من كلِّ سُوء ، وأقنِعنى بما رزقتَنى ، وبارِكْ لى فيما آتيتَنى . اللهم إنَّ هذا البيتَ بيتُك ، والعبدَ عبدُك ، وهذا مَقامُ العائذ بكَ من النار . اللهم اجعلْنى من أكرم وَفْدِك عليك » .

السادس : إذا فرغ من ذلك ينبغِى أن يصلِّىَ خَلف المقام ركعتين .

---

(١) أصل معنى الشاطر من أعيا أهله خبثاً ، كأنه شطر نفسه عنهم . والمراد هنا القوة والصرامة .

يقرأ فى الأولى قل يـأيُّها الكافرون ، وفى الثانية الإخلاص ، وهما ركعتا الطواف .

الجملة الخامسة
فى السعى

فإذا فرغ من الطواف فليخرج من باب الصفا ، وهو محاذاة الضِّلَع الذى بين الرُّكن اليمانى والحِجْر . فإذا خرج من ذلك الباب وانتهى إلى الصَّفا . وهو جبل ، فيرقى فيه درجاتٍ فى حضيض الجبل ، بقدر قامة الرجل . وإذا ابتدأ من ههنا سعَى بينه وبين المروة سبعَ مرات. وعند رقيِّه فى الصفا ينبغى أن يستقبل البيت ويقول : « الله أكبر ، الحمد لله على ما هدانا ، الحمد لله بمحامده كلِّها على جميع نِعمه كلِّها ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يُحيِي ويميت ، بيده الخير وهو على كلِّ شىء قدير . لا إله إلا الله وحدَه ، صدَقَ وعدَه ، ونصر عبدَه ، وأعزَّ جندَه وهزم الأحزابَ وحده ، لا إله إلا الله مُخلِصين له الدينَ ولو كره الكافرون . لا إله إلا الله مُخلصين له الدين ، الحمدُ لله رب العالمين . (فسبحان الله حِينَ تُمسُون وحِينَ تُصبحون * وله الحمدُ فى السموات والأرض وعشيًّا وحِين تُظْهِرُون * يُخرِجُ الحىَّ من الميِّتِ ويُخرِجِ الميِّت من الحىّ ويحيِي الأرضَ بَعْدَ موتها وكذلك تُخرَجُون * ومن آياته أنْ خَلَقَكم من تُرابٍ ثمَّ إذا أنتمْ بشرٌ تَنْتشِرُون) . اللهمَّ إنى أسألك إيمانًا دائماً ، ويقيناً صادقاً ، وعلماً نافعاً ، وقلباً خاشعاً ، ولساناً ذاكراً ، وأسألُك العفوَ والعافيةوالمعافاةَ الدائمةَ ، فى الدنيا والآخرة. ويصلِّى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ويدعو الله عزَّ وجل بما شاء من حاجته عَقِيب هذا الدعاء ، ثم ينزل ويبتدئ السَّعىَ وهو يقول : « ربِّ

اغفرْ وارحمْ ، وتجاوزْ عمّا تعلمُ ، إنّك أنت الأعزُّ الأكرم . اللهمَّ آتِنا فى الدُّنيا حسنةً وفى الآخرة حَسنةً وقِنَا عذاب النار » . ويمشى على هِينةٍ حتى ينتهىَ إلى المِيل الأخضر ، وهو أوّلُ ما يلقاه إذا نزل من الصَّفا ، وهو على زاوية المسجد الحرام . فإذا بقىَ بينه وبين محاذاة المِيل ستَّة أذرع أخذ فى السير السريع ، وهو الرَّمَل ، حتى ينتهىَ إلى الميلين الأخضرين ، ثم يعود إلى الهِينة . فإذا انتهى إلى المروة صَعِدها كما صعد الصَّفا ، وأقبل بوجهه على الصَّفا ودعا بمثل ذلك الدعاء ، وقد حصل السَّعىُ مرةً واحدة ؛ فإذا عاد إلى الصَّفا حصلت مرّتان . يفعل ذلك سبعاً .

الجملة السادسة

فى الوقوف وما قبله

الحاجُّ إذا انتهى يومَ عرفة إلى عرفات ، يتفرَّغ لطواف القدوم ودخول مكّة قبل الوقوف . وإذا وصل قبل ذلك بأيّام فطاف طوافَ القدوم فيمكث مُحرِمًا إلى اليوم السابع من ذى الحجة ، فيخطب الإمامُ بمكة خطبةً بعد الظهر عند الكعبة ، ويأمر الناسَ بالاستعداد للخروج إلى منًى يوم التَّروية والمبيتِ بها ، وبالغدوِّ منها إلى عرفةَ لإقامة فرض الوقوف بعد الزَّوال ؛ إذْ وقت الوقوف من الزوال إلى طلوع الفجر الصادق من يوم النَّحر . وليغتسلْ للوقوف ، فإذا زالت الشمس خطب الإمام خطبةً وجيزةً وقعد ، وأخذ المؤذِّن فى الأذان ، والإمامُ فى الخطبة الثانية ، ووصل الإقامةَ بالأذان وفرغ الإمامُ مع تمام إقامة المؤذِّن ثم جمع بين الظهر والعصر بأذانٍ وإقامتين ، وقَصَر الصلاة ؛ وراح إلى الموقف . فليقفْ بعرفة ولا يقفنَّ فى وادى عرفة ، وليكثرْ من أنواع التَّحميد

والتسبيح والتهليل ؛ والثناء على الله عز وجل ، والدعاء والتوبة . ولا يصوم فى هذا اليوم ليقوَى على المواظبة على الدعاء ، ولا يقطع التَّلبيةَ وقت عرفة ، بل الأَحبُّ أن يُلبِّيَ تارة ويُكبِّرَ على الدعاء أُخرى . وليكن أهمّ أشغاله فى هذا اليوم الدعاء . فني مثل تلك البقعة ومثل ذلك الجمع تُرجَى إجابة الدعَوات .

الجملة السابعة

فى بقية أعمال الحج بعد الوقوف ، من المبيت والرمى والنحر والحلق والطواف

فإذا أفاضَ من عرفة بعد غروب الشمس فينبغى أن يكون على السكينة والوقار ، وليجتنبْ وجيف الخيل وإيضاعَ الإبل كما يعتاده بعض الناس . فإذا بلغَ المزدلِفة اغتسلَ لها لأنَّ المزدلفة من الحرم ؛ فليدخلْه بغسل وإن قدَر على دخوله ماشيًا ، فهو أفضل وأقربُ إلى توقير الحرم . ثم يجمع بين المغرب والعشاء قاصراً له بأذانٍ وإقامتين وليس بينهما نافلة ولكن يجمع نافلة المغرب والعشاء والوِتْر بعد الفريضتين ، ثم يمكث تلك الليلةَ بمزدلفة وهو مبيتُ نُسك ، ثم إذا انتصف الليلُ يأخذُ فى التأهُّب للرحيل ، ويتزوَّدُ الحصى منها . ثُمَّ ليغلِّسْ بصلاة الصبح ، وليأْخذْ فى المسير حتّى إذا انتهى إلى المَشْعَر الحرام ، وهو آخر المزدلفة ، فيقف ويدعو إلى الإسفار ، ثم يدفع منها قبل طلوع الشمس حتّى ينتهيَ إلى موضع يقال له وادى محسِّر ، فيستحَبُّ له أن يحرِّك دابَّته حتى يقطع عَرض الوادى ، وإن كان راجلاً أسرع فى المشى . ثم إذا أصبح يومُ النحر خلط التلبيةَ بالتَّكبير ، فيلبِّى تارة ويكبِّر أُخرى. فينتهى إلى منًى ومواضعِ الجمرات وهى ثلاثة ، فيتجاوز الأُولى والثانية

فلا شغلَ له معهما يوم النحر ، حتّى ينتهىَ إلى جمرة العقبة ، ويرمى جمرة العقبة بعد طلوع الشمس بقدر رُمح . وكيفيته أن يقف مستقبلاً القبلة ، وإن استقبل الجمرةَ فلا بأس ، ويرمى سبعَ حَصَيات رافعاً يدَه ، ويبدِّل التلبية بالتكبير ، ويقول مع كل حصاة : « الله أكبر على طاعة الرحمن ورَغْم الشيطان ، اللهم تصديقاً بكتابك واتّباعاً لسنة نبيك » . فإذا رمَى قطع التلبية والتكبير ، إلا التكبير عَقِيب فرائض الصلوات من ظهر يوم النحر إلى عَقِيب الصبح من آخر أيام التشريق . ولا يقفْ فى هذا اليوم للدُّعاء بل يدعو فى منزله . وصفة التكبير أن يقول : « الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله بكرة وأصيلا . لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له ، مخلصين له الدين ولو كرِهَ الكافرون . لا إله إلا الله وحده ، صدَق وعدَه ، ونصر عبدَه ، وهزم الأحزابَ وحده . لا إله إلا الله والله أكبر » . ثم ليذبح الهدىَ إن كان معه ، والأولى أن يذبح بنفسه ، والتّضحية بالبُدْن أفضل ، ثم بالبقَر ثم بالشاء، والشاة أفضل من مشاركة ستّة فى البدَنة أو البقرة ، ثم ليحلقْ بعد ذلك . ومهما حلق بعد رمى الجمرة فقد حصل له التحلُّل وحلَّ له كل المحذورات إلا النِّساء والصيد . ثم يُفيض إلى مكة ويطوف كما وصفناه . وهذا الطواف طواف ركن فى الحجّ ، ويسمى طواف الزيارة ، وأوّل وقته بعد نصف الليل من ليلة النحر ، وأفضل وقته يوم النحر ، ولا آخر لوقته ، بل له أن يؤخِّر إلى أى وقتٍ شاء ، ولكن يبقى مقيَّداً بعُلقة الإحرام ، فلا تحلُّ له النساءُ إلى أن يطوف ، فإذا طاف تَمَّ التحلُّل وارتفع الإحرام بالكلِّيّة ، ولم يبقَ إلاَّ رمى أيام التشريق والمبيتُ بمنىً ، وهى واجبات بعد زوال الإحرام . وكيفية هذا الطواف مع الركعتين ، كما سبق فى طواف القدوم .

فإذا فرغ من الركعتين فليسعَ كما وصفنا إن لم يكنْ سَعَى بعد طواف القدوم ، وإن كان قد سعى فقد وقعَ ذلك ركناً ، فلا ينبغى أن يُعيد السعى . ثم إذا فرغ من الطواف عاد إلى منًى للمبيت والرمى ، فيبيت تلك الليلةَ بمنًى وتسمى ليلة القَرِّ ، لأن الناس فى غد يقَرّون بمنًى ولا ينفرون . فإذا أصبح اليومُ الثانى من العيد وزالت الشمس اغتسل للرمى وقصد الجمرةَ الأُولى التى تلى عرفة ، وهى على يمين الجادّة ، ويرمى إليها بسبع حصيات : فإذا تعدَّاها انحرفَ قليلا عن يمين الجادّة ووقف مستقبلَ القبلة وحمد الله تعالى ، وهلَّل وكبر ، ودعا مع حضور القلب وخشوع الجوارح ، ووقف مستقبلَ القبلة قدر قراءة سورة البقرة مقبلا على الدعاء ، ثم يتقدَّم إلى الجمرة الوسطى ويرمى كما رمى الأُولَى ويقف كما وقف فى الأُولى ، ثم يتقدَّم إلى جمرة العقبة ويرمى سبعاً ، ويبيت تلك الليلة بمنى ، وتسمى هذه الليلة ليلة النَّفْر الأُولى . ويصبح فإذا صلَّى الظهر فى اليوم الثانى من أيام التشريق رمَى فى هذا اليوم إحدى وعشرين حصاةً كاليوم الذى قبله ، ثم هو مخيَّرٌ بين المُقام بمنًى وبين العَود إلى مكة .

الجملة الثامنة
فى صفة العمرة وما بعدها إلى طواف الوداع

من أراد أن يعتمرَ قبل حجه أو بعده كيفما أراد ، فلْيغتسلْ ويلبسْ ثياب الإحرام ، ويحرمْ بالعمرة من ميقاتها ، وأفضل مواقيتها الجِعْرانة ثم التنعيم ، ثم الحديبية . وينوى العمرة ويلبِّى ؛ ويقصد مسجدَ عائشة رضى الله عنها ويصلِّى ركعتين ويدعو بما شاء ثم يعود إلى مكةَ وهو

يلبى حتى يدخل المسجدَ الحرام . فإذا دخل المسجد ترك التَّلبيَة وطاف سبعاً كما وصفنا . فإذا فرغَ حلق رأسه وقد تمَّت عمرته .

الجملة التاسعة

فى طواف الوداع

مهما عَنَّ له الرجوعُ إلى الوطن بعد الفراغ من إتمام الحج والعمرة فَليُنْجِزْ أولاً أشغالَه وليشدَّ رحاله ، وليجعلْ آخر أشغاله وَداعَ البيت . ووداعُه بأن يطوف به سبعاً كما سبق ، ولكن من غير رمَل واضطباع. فإذا فرغ منه صلى ركعتين خلفَ المَقَام وشرب من زَمزم ، ثم يأتى الملتزَم ويدعو ويتضرَّع . والأَحبُّ أن لا يصرف بصرَه عن البيت حتَّى يغيبَ عنه

الجملة العاشرة

فى زيارة المدينة وآدابها

قال صلى الله عليه وسلم: « مَن زارنى بعد وفاتى فكأنَّما زارنى فى حياتى » . فمن قصد زيارة المدينة فلْيُصلِّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طريقه كثيراً . فإذا وقع بصرُه على حيطان المدينة وأشجارها قال : « اللهم هذا حرمُ رسولك فاجعلْه لى وقايةً من النار ، وأمانًا من العذاب وسوءِ الحساب » . وليغتسل قبلَ الدخول من بئر الحَرَّة[1] .

---

(١) قال السمهودى فى وفاء الوفاء ص ١١٣٤ : ذكر الغزالى أن القادم للزيارة يغتسل منها ، ولعلها بئر السقيا . وانظر وفاء الوفاء ص ٩٧٣ .

وليتطيَّبْ وليلبسْ أنظفَ ثيابه . فإذا دخلها فلْيدخلْها متواضعاً معظِّماً وليقل : بسم الله وعلى ملَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، (رَبِّ أَدخِلْنِى مُدخَلَ صِدقٍ وأَخرِجْنى مُخرَجَ صِدقٍ واجعلْ لى من لدُنْكَ سُلْطانًا نَصِيراً). ثم يقصد المسجد ويدخلُه ويصلِّى بجنب المِنبر ركعتين . ثم يأْتى قبر النبى صلى الله عليه وسلم فيقف عند وجهه ، وذلك بأَن يستدبر القبلة ويستقبل جدار القبر على نحو من أَربعة أَذرع من السَّارية التى فى زاوية جدار القبر ، ويجعل القنديلَ على رأسه . وليس من السُّنة أن يمسَّ الجدار ولا أن يقبِّله ، بل الوقوف من بُعدٍ أَقرب للاحترام ، فيقف ويقول : « السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا نبيَّ الله ، السلام عليك يا أَمينَ الله ، السلام عليك يا حبيبَ الله ، السلام عليك ياصفوةَ الله ، السلام عليك ياخِيرة الله ، السلامُ عليك يا أَحمد ، السلام عليك يامحمد ، السلام عليك يا أَبا القاسم . السلام عليك يا ماحى ، السلام عليك يا عاقب ، السلام عليك يا حاشر ، السلام عليك يا بشير ، السلام عليك يا نذير ، السلام عليك يا طُهْر ، السلام عليك يا طاهر ، السلام عليك يا أَكرمَ ولدِ آدم ، السلام عليك يا سيِّد المرسلين ، السلام عليك ياخاتَمَ النبيين ، السلام عليك يا رسولَ رب العالمين ، السلام عليك يا قائدَ الخير ، السلام عليك يا فاتح البِرّ ، السلام عليك يا نبيَّ الرحمة السلام عليك يا هادىَ الأُمة ، السلام عليك يا قائد الغُرّ المحجَّلين ، السلام عليك وعلى أهل بيتك الذين أَذهَبَ الله عنهم الرِّجْس وطهَّرهم تطهيراً ، السلام عليك وعلى أصحابك الطيِّبين ، وعلى أزواجك الطاهراتِ أُمّهاتِ المؤمنين ، جزاك الله عنا أَفضلَ ما جَزَى نبيًّا عن قومه ، ورسولًا عن أُمته ، وصلَّى عليك كلَّما ذَكَرَك الذاكرون ، وكلَّما غَفَلَ عنك الغافلون ، وصلَّى عليك فى الأَوَّلين والآخِرين ، أفضلَ وأَكملَ وأَعلى

وأجلَّ وأطيبَ وأطهرَ ما صلَّى على أحدٍ من خلقه ، كما استنقذْتَنا بك من الضلالة ، وبَصَّرتنا بك من العَمَاية[1] ، وهدانا بك من الجَهالة . أشهد أن لا إله إلاَّ الله وحدَه لا شريك له ، وأشهد أنَّك عبده ورسوله ، وأمينه وصفيُّه ، وخِيرتُه من خَلْقِه . وأشهدُ أنَّك قد بلَّغت الرسالة ، وأديتَ الأمانة ، ونصحتَ الأُمة ، وجاهدت عدوَّك ، وهديت أُمَّتك ، وعبدتَ ربَّك حتَّى أتاك اليقين . فصلَّى الله عليك وعلى أهل بيتك الطيِّبين ، وسلَّم وشرَّف وكرَّم وعظَّم . ثم يتأخَّر قدر ذراع ويسلم على أبي بكرٍ الصدِّيق رضى الله عنه ، ثم يتأخَّر قدرَ ذراع ويسلِّم على الفاروق عمر رضى الله عنه ، ثم يرجع فيقفُ عند رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم يأْتى الرَّوضةَ فيصلِّى فيها ركعتين ويُكثر من الدعاء ما استطاع ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « ما بين قبرى ومنبرى روضةٌ من رياض الجنة . ومنبرى على حوضى » . ويدعو عند المنبر ، ويستحبُّ أن يخرج كلَّ يوم إلى البقيع بعد السَّلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويزورَ قبر عثمان رضى الله عنه ، وقبرَ الحسن بن على رضى الله عنهما ، وفيه أيضاً قبرُ على بن الحسين ، ومحمد بن على ، وجعفر بن محمد رضى الله عنهم ، ويصلِّى فى مسجد فاطمة رضى الله عنها ، ويزور قبر إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقبر صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذلك كلُّه بالبقيع . ويأْتى مسجدَ الفتح ، وهو على الخندق . وكذا يأْتى سائر المساجد .

ويقال إن جميع المشاهد والمساجد بالمدينة ثلاثون موضعاً يعرفُها أهل البلد .

---

(١) العماية : الضلالة .

الفصل الرابع

في الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة

بيان دقائق الآداب، وهى عشرة

الأول : أن تكونَ النفقةُ حلالًا ، وتكون اليدُ خاليةً من تجارة تشغَل القلب ، وتفرِّق الهم .

الثانى : أن لا يعاون أعداء الله سبحانه بتسليم المكْس ؛ وهم الصادُّون عن المسجد الحرام من أمراء مكة والأعراب المترصِّدين فى الطريق . فإنَّ تسليم المال إليهم إعانةٌ على الظلم ، وتيسيرٌ لأسبابه عليهم .

الثالث : التوسُّع فى الزاد ، وطيبُ النفس بالبذل والإنفاق ، من غير تقتير ولا إسراف ، بل على اقتصاد .

الرابع : ترك الرَّفَث والفُسوق والجدال ، كما نطق به القرآن .

الخامس : أن يحجَّ ماشياً إن قدر عليه ، فذلك الأفضل .

السادس : أن لا يركب إلَّا زاملة[1] . أما المَحمِل[2] فلْيجتنبْه ، إلَّا إذا كان يخاف على الزاملة أن لا يستمك عليها لعذر . وفيه معنيان أحدهما : التخفيف على البعير فإن المحمل يؤذيه . والثانى : اجتناب زىّ[3] المترفين المتكبرِّين .

---

(١) الزاملة : البعير يحمل عليه الطعام والمتاع .
(٢) المحمل ، كمجلس : شقان على البعير يحمل فيهما العديلا ن .
(٣) الزى بالكسر : الهيئة .

السابع : أن يكون رثَّ الهيئة أشعث أغبر ، غير مستكثرٍ من الزينة ولا مائلٍ إلى أسباب التفاخر والتكاثر .

الثامن : أن يَرفُق بالدابة فلا يحمِّلَها مالا تطيق .

التاسع : أن يتقرَّب بإراقة دمٍ وإن لم يكن واجباً عليه ، ويجتهد أن يكون من سمين النَّعَم ونفيسِه ، وليأكلْ منه إنْ كان تطوُّعاً ، ولا يأْكلْ منه إن كان واجباً . قيل فى تفسير قوله تعالى : (ذَلك ومَنْ يُعظِّمْ شعائرَ الله) : إنَّه تحسينه وتسمينه .

العاشر : أن يكون طيِّب النفس بما أنفقه من نفقة وهَدْى ، وبما أصابه من خُسران ومصيبة فى مالٍ أو بدن ، إنْ أصابه ذلك ، فإنَّ ذلك من دلائل قَبول حجِّه .

الكتاب الثامن

كتاب آداب تلاوة القرآن

الباب الأول

في فضل القرآن وأَهْلِه ، وذَمِّ المقصِّرِين في تلاوته

فضيلة القرآن

قال صلى الله عليه وسلم : « أَهلُ القرآن أَهلُ اللهِ وخاصَّتُه » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إنّ القلوب تصدأُ كما يصدأُ الحديد » . فقيل : يا رسول الله ، وما جِلاؤها ؟ فقال : « تلاوة القرآن ، وذكر الموت » . وقال صلى الله عليه وسلم : « لَلَّهُ أَشدُّ أَذَناً[1] إلى قارئِ القرآن من صاحب القَينة إلى قينته[2] » .

وقال ابن مسعود : إذا أردتم العلم فانثُروا القرآن ، فإنَّ فيه علم الأوَّلين والآخِرين . وقال الفُضَيلُ بن عِياض : ينبغي لحامل القرآن أن لا يكون له إلى أحدٍ حاجة ، ولا إلى الخلفاء فمَنْ دونَهم ، فينبغي أن تكون حوائجُ الخلق إليه . وقال الحسن : والله ما دونَ القرآن من غِنًى ، ولا بعدَه من فاقَة .

---

(١) الأذن ، بالتحريك : الاستماع فى إعجاب .

(٢) القينة ، الأمة : مغنية كانت أو غير مغنية .

الباب الثاني

في ظاهر آداب التلاوة ، وهي عَشْرة

الأول : فى حالة القارئ : وهو أن يكون على الوضوء ، واقفاً على هيئة الأدب والسكون ، إمّا قائماً وإما جالساً ، مستقبلَ القبلة ، مُطرِقاً رأسَه ، غير متربِّع ولا متكئ ولا جالسٍ على هيئة التكبر .

الثانى : فى مقدار القراءة : وللقُرّاء عاداتٌ مختلفة فى الاستكثار والاختصار ، فمنهم من يختِم القرآن فى اليوم والليلة مرة ، وبعضهم مرتين ، وانتهى بعضُهم إلى ثلاث. ومنهم من يختِم القرآن فى الشهر مرة.

الثالث : فى وجه القِسمة . أمَّا من ختم فى الأُسبوع مرّة فيقسِم القرآن سبعةَ أحزاب ، فقد حزَّب الصحابة رضى الله عنهم القرآن أحزاباً ، فرُوى أن عثمان رضى الله عنه كان يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة ، وليلة السبت بالأنعام إلى هود ، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم ، وليلة الاثنين بطه إلى طسم موسى وفرعون[1] ، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص ، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن ، ويختم ليلة الخميس .

الرابع : فى الكتابة : يستحب تحسين كتابة القرآن وتبيينه ، ولا بأس بالنقط والعلامات بالحُمرةِ وغيرها ، فإنها تزيينٌ وتبيين ، وصدٌّ عن الخطإ واللحن لمن يقرؤه .

الخامس : التّرتيل ، هو المستحبُّ فى هيئة القرآن ، لأنّا سنبين أن المقصود من القراءة التفكُّر ، والترتيل مُعينٌ عليه . ولذلك نعتَت[2]

(١) يعنى سورة القصص .

(٢) نعتت : وصفت .

أمّ سلمة رضى الله عنها قراءةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإذا هى تَنعتُ قراءةً مفسَّرة حرفاً حرفاً .

السادس : البكاء : البكاءُ مستحبٌّ مع القراءةِ . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتلُوا القرآن وابكُوا . فإنْ لم تبكوا فتباكَوْا » .

السابع : أن يراعىَ حقّ الآيات : فإذا مرّ بآية سجَدَةٍ سجد . وكذلك إذا سمع من غيره سجدةً سجَدَ إذا سجد التالى. ولايسجُد إلّا إذا كان على طهارة .

الثامن : أن يقول فى مبدإ قراءته : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم . ربِّ أعوذ بك من همزات الشياطين . وأعوذ بك ربِّ أن يَحضرون . وليقرأْ : قل أعوذُ برب الناس ، وسورة الحمد لله . وليقل عند فراغه من القراءة : صَدق الله تعالى ، وبلَّغَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم . اللهم انفعْنا به وبارك لنا فيه . الحمد لله رب العالمين. وأستغفر الله الحىَّ القيُّوم .

التاسع : فى الجهر بالقراءة . ولا شكَّ فى أنَّه لا بدَّ أن يجْهَر به إلى حَدٍّ يُسمِع نفسَه . إذ القراءة عبارة عن تقطيع الصوت بالحروف . ولابدَّ من صوت . فأقلُّه ما يُسمِع نفسه . فإن لمْ يُسمع نفسَه لم تصحَّ صلاته .

العاشر : تحسين القراءة وترتيلها بترديد الصوت ، من غير تمطيط مفرط يُغيِّر النظم ، فذلك سُنَّة . قال صلى الله عليه وسلم : « زيِّنوا القرآن بأصواتكم » . وقال صلى الله عليه وسلم : « ما أذِنَ الله لشىء أذَنَه لحسن الصَّوتِ بالقرآن » .

الباب الثالث

في أعمال الباطن في التلاوة ، وهي عشرة

فالأول : فَهم عظمةِ الكلام وعلوِّه ، وفضلِ الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه ، فى نزوله عن عَرش جَلالِه إلى درجة أفهام خلقه :

الثانى : التعظيم للمتكلِّم ، فالقارئ عند البداية بتلاوة القرآن ينبغى أن يُحضر فى قلبه عظمةَ المتكلِّم ، ويعلم أنَّ ما يقرؤه ليس من كلام البشر ، وأن فى تلاوة كلام الله عز وجل غاية الخطر[1] ؛ فإنه تعالى قال : (لا يمسُّه إلَّا المُطَهَّرون) .

الثالث : حضور القلب وترك حديث النفس . قيل فى تفسير : (يا يَحيي خُذِ الكتابَ بقوّة) ، أى بِجدٍّ واجتهاد . وأخذه بالجِدّ أن يكون متجرِّدًا له عند قراءته ، منصرفَ الهمَّة إليه عن غيره .

الرابع : التدبُّر ، وهو وراء حضور القلب ، فإنه قد لا يتفكَّر فى غير القرآن ، ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبَّرُه ، والمقصود من القراءة التدبر . ولذلك سُنّ فيه الترتيل ؛ لأنَّ الترتيل فى الظاهر ليتمكَّن من التدبُّر بالباطن . قال على رضى الله عنه : « لا خير فى عبادةٍ لا فِقهَ فيها ، ولا فى قراءةٍ لا تدبُّر فيها » .

الخامس : التفهُّم ، وهو أن يستوضحَ من كلِّ آيةٍ ما يليق بها ، إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله عز وجل ، وذكرِ أفعاله ، وذكر

---

(١) الخطر ، بالتحريك : الشرف ، والخطير : الشريف .

أحوال الأنبياء عليهم السلام ، وذكر أحوال المكذّبين لهم وأنّهم كيف أهلكوا ؛ وذكرِ أوامره وزواجره ، وذكر الجنة والنار .

السادس : التخلّي عن موانع الفهم ، فإنَّ أكثر الناس مُنعوا عن فهم معانى القرآن لأسبابٍ وحُجبٍ أسدلَها الشيطانُ على قلوبهم ، فعَمِيت عليهم عجائبُ أسرارِ القرآن . قال صلى الله عليه وسلم : « لولا أنَّ الشّياطينَ يَحُومون على قلوبِ بنى آدم لَنَظروا إلى الملكوت » . ومعانى القرآن من جملة الملكوت . وكلُّ ما غاب عن الحواس ولم يُدرَك إلَّا بنور البصيرة فهو من الملكوت . وحُجُب الفهم أربعة :

أولها : أن يكون الهمُّ منصرفاً إلى تحقيق الحروف بإخراجها عن مخارجها .

ثانيها : أن يكون مقلِّداً لمذهبٍ سمعه بالتقليد وجَمَد عليه وثبت فى نفسه التَّعصُّبُ له بمجرد الاتِّباع للمسموع ، من غير وصول إليه ببصيرةٍ ومشاهدة .

ثالثها : أن يكون مصرًّا على ذَنْب أو متّصفاً بكِبر ، أو مبتلًى فى الجملة بهوًى فى الدُّنيا مطاع ، فإن ذلك سببُ ظلمةِ القلب وصَداه ، وهو كالخَبَث على المرآة ، فيمنع جَليَّة الحق من أن يتجلَّى فيه .

رابعها : أن يكون قد قرأ تفسيرًا ظاهراً واعتقدَ أنَّه لا معنًى لكلمات القرآن إلاَّ ما تناوله النقل عن ابن عباس ومُجاهد وغيرهما، وأن ما وراء ذلك تفسيرٌ بالرأى . وأن من فسَّر القرآن برأيه فقد تبوّأ مقعدَه من النار . فهذا أيضاً من الحُجُب العَظيمة .

السابع : التخصيص وهو أن يقدِّر أنَّه المقصود بكل خطاب فى القرآن . فإنْ سمع أمراً أو نهياً قدَّرَ أنه المنهىُّ والمأمور ، وإن سمع

وعداً أو وعيداً فَكِمِثْل ذلك ، وإن سمع قَصصَ الأولين والأنبياء علم أن السمَر غير مقصود ، وإنَّما المقصود ليعتبر به ، وليأخذَ من تضاعيفه ما يحتاج إليه .

الثامن : التأثُّر ، وهو أن يتأثَّر قلبه بآثارٍ مختلفة بحسب اختلاف الآيات ، فيكون له بحسب كلٍّ فهم حالٌ ووَجْدٌ يتَّصف به قلبه ، مِن الحزن والخوف والرجاء وغيره .

التاسع : الترقِّي ، وأعنى به أن يترقَّى إلى أن يسمع الكلام من الله عز وجل لا مِن نفسه . فدرجات القراءة ثلاث ؛ أدناها : أن يقدِّر العبد كأنه يقرؤه على الله عز وجل واقفاً بين يديه وهو ناظرٌ إليه ومستمع منه ، فيكون حالُه عند هذا التقدير السُّؤالَ والتملُّق والتضرع والابتهال الثانية : أن يَشهد بقلبه كأنَّ الله عز وجل يراه ويخاطبُه بألطافه ، ويناجيه بإنعامه وإحسانه ، فمقامه الحياءُ والتعظيم ، والإصغاءُ والفهم. الثالثة : أن يرى فى الكلام المتكلِّمَ وفى الكلمات الصّفات ، فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته ولا إلى تعلُّق الإنعام به من حيث إنَّه مُنعَم عليه ، بل يكون مقصور الهمِّ على المتكلِّم ، موقوفَ الفكر عليه ، كأنه مُستغرَقٌ بمشاهدة المتكلِّم عن غيره . وهذه درجة المقرَّبين ، وما قبله درجة أصحاب اليمين . وما خرج عن هذا فهو درجات الغافلين .

العاشر : التبرِّى . وأعنى به أن يتبرَّأ مِن حَوله وقوته والالتفات إلى نفسه بين الرضا والتزكية . فإذا تلا آياتِ الوعد والمدح للصَّالحين فلا يشهد نفسَه عند ذلك ، بل يشهدُ المُوقنين والصِّدِّيقين فيها ، ويتشوَّف إلى أن يُلحقه الله عزَّ وجل بهم . وإذا تلا آياتِ المقت وذمّ العصاة والمقصِّرين شهد على نفسه هناك . وقدَّر أنه المخاطب ، خوفاً وإشفاقاً .

الباب الرّابع

في فضائل القرآن وتفسيره بالرأي من غير نَقْل

لعلك تقول : عظَّمتَ الأمر فيما سبق فى فهم أسرار القرآن وما ينكشف لأرباب القلوب الزكيَّة من معانيه ، فكيف يُستحَبُّ ذلك . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ فسر القرآنَ برأيه فليتبوَّأْ مقعدَه من النار » . وعن هذا شنَّع أهل العلمِ بظاهر التفسير على أهل التصوُّف من المقصِّرين المنسوبين إلى التصوُّف فى تأْويل كلمات فى القرآن على خلاف ما نُقِل عن ابن عباس وسائر المفسِّرين ، وذهبوا إلى أنه كفر . فإن صحَّ ما قاله أهل التفسير فما معنى فهم القرآن سوى حفظِ تفسيره؟ وإن لم يصحَّ ذلك فما معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « من فسَّر القرآن برأيه فليتبوأْ مقعدَه من النار » . فاعلم أنَّ من زعم أن لا معنى للقرآن إلا ما ترجمه ظاهر التفسير فهو مُخبِرٌ عن حدّ نفسه ، وهو مصيبٌ فى الإخبار عن نفسه ، ولكنه مخطىءٌ فى الحكم بردِّ الخلق كافَّةً إلى درجته التى هى حدُّه ومحطُّه . بل الأخبار والآثار تدلُّ على أن فى معانى القرآن متَّسعاً لأرباب الفهم . قال على رضى الله عنه : « إلاَّ أن يؤتىَ الله عبداً فَهْمًا فى القرآن » . فإن لم يكن سوى الترجمة المنقولة فما ذلك الفهم؟

فأما قوله صلى الله عليه وسلم من فسَّر القرآن برأيه، ونهيُه عنه صلى الله عليه وسلم، وقولُ أبى بكر رضى الله عنه : أىُّ أرض تُقِلُّنِى[1] وأىُّ سماءٍ تُظِلُّنى إذا قلت فى القرآن برأيى ؟ إلى غير ذلك مما ورد فى الأخبار والآثار، فى النهى عن تفسير القرآن بالرأى : فلا يخلو إمَّا أن يكون المراد به

---

(١) أقله واستقله : حمله ورفعه .

الاقتصارَ على النقل والمسموع وتركَ الاستنباط والاستقلال بالفهم ، أو المراد به أمراً آخر . وباطلٌ قطعاً أن يكون المراد به أن لا يتكلّم أحد في القرآن إلّا ممّا يسمعه ، لوجوه :

أحدها : أنه يشترط أن يكون ذلك مسموعًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومُسنَداً إليه ، وذلك مما لايُصادَف إلّا في بعض القرآن . فأمّا ما يقوله ابن عباسٍ وابن مسعود من أنفسهم فينبغيأن لا يُقبَل، ويقال هو تفسير بالرأى ؛ لأنّهم لم يسمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذا غيرهم من الصحابة رضى الله عنهم .

الثانى : أنَّ الصحابة والمفسِّرين اختلفوا فى تفسير بعض الآيات ، فقالوا فيها أقاويلَ مختلفة لا يمكنُ الجمع بينها ، وسماعُ جميعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم مُحال ، ولو كان الواحد مسموعًا لرُدّ الباقى. فتبين على القَطْع أن كلّ مفسِّر قال فى المعنى بما ظَهَر له باستنباطه .

والثالث : أنّه صلى الله عليه وسلم دعا لابن عباس رضى الله عنه قال : « اللهم فَقِّهه فى الدِّين وعلِّمه التأويل » ، فإن كان التأويل مسموعاً كالتنزيل ومحفوظًا مثله فما معنى تخصيصه بذلك ؟

والرابع : أنه قال عز وجل : ﴿ لَعَلِمَهُ الذين يَستَنْبِطُونه مِنْهم ﴾ ، فأثبتَ لأهل العلم استنباطًا ، ومعلوم أنّه وراء السماع ، فبطل أن يشترط السماع فى التأويل ، وجاز لكلِّ واحد أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحدِّ عقله .

وأما النهى فإنه ينزَّل على أحد وجهين :

أحدهما : أن يكون له فى الشيء رأىٌ ، وإليه ميل من طبعه وهواه ، فيتأوَّل القرآن على وَفْقِ رأيه وهواه ، ليحتجَّ على تصحيح غرضه ،

وهذا يكون تارةً مع العلم ، كالذى يحتجُّ ببعض آياتِ القرآن على تصحيح بِدعته ، وهو يعلم أنَّه ليس المرادُ بالآية ذلك ، ولكن يُلبِّس به على خَصمه . وتارة يكون مع الجهل ، ولكنْ إذا كانت الآية محتمِلة فيميل فهمُه إلى الوجه الذى يُوافق غرضَه ويرجِّح ذلك الجانبَ برأْيه وهواه ، فيكون قد فسَّر برأْيه ، أى رأْيُه هو الذى حمَله على ذلك التفسير ، ولولا رأْيهُ لما كان يترجَّح عنده ذلك الوجه . وتارةً قد يكون له غرضٌ صحيح فيطلب له دليلاً من القرآن ، ويستدل عليه مما يعلم أنَّه ما أُريد به ، كمن يدعو إلى الاستغفار بالأَسحار فيستدلّ بقوله صلى الله عليه وسلم : « تَسَّحُروا فإنَّ فى السَّحور بركة » ، ويزعم أَن المراد به التسحُّر بالذكر ، وهو يعلم أَن المراد به الأَكل ، وكالذى يدعو إلى مجاهدة القلب القاسى ، فيقول : قال الله عز وجل : (اذهَبْ إلى فِرعَونَ إنَّهُ طَغَى) ، ويشير إلى قلبه ويومئ إلى أنه المراد بفرعون .

والوجه الثانى : أن يتسارَعَ إلى تفسير القرآن بظاهر العربيَّة ، من غير استظهارٍ بالسماع والنقل فيما يتعلَّق بغرائب القرآن وما فيه من الأَلفاظ المبهمَة والمبدلة . وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار ، والتقديم والتأْخير . فمن لم يُحكم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعانى بمجرد فهم العربية ، كثُر غلطه ودخل فى زُمرةِ من يفسِّر بالرأْى . فالنقل والسماع لابد منه فى ظاهر التفسير أوَّلاً ، ليتقى به مواضعَ الغلط ، ثم بعد ذلك يتسع التفهم والاستنباط .

وما لابدَّ فيه من السماع فنونٌ كثيرة ؛ منها : الإيجاز بالحذف والإضمار . كقوله تعالى : (وآتينا ثَمُودَ النَّاقةَ مُبصِرَةً فظَلَمُوا بها) معناه آية مبصرة فظلموا أنفسَهم بقتلها ؛ فالناظر إلى ظَاهر العربيَّة يظنُّ

أنّ المراد به أنّ الناقة كانت مبصرةً ولم تكن عمياء ، ولم يَدر أنهم بماذا ظلموا غيرَهم أو أنفسهم . وقال عز وجل : (حَتّى توارَتْ بالحِجَاب) أراد الشمس ، وما سَبقَ لها ذِكر .

ومنها المنقول المنقلب ، كقوله تعالى : (وطُور سِينينَ) ، أى طور سيناء .

ومنها المقدَّم والمؤخَّر ، وهو مَظِنَّة الغلط ، كقوله عز وجل : (ولولاَ كلمةٌ سَبقَتْ مِنْ ربِّكَ لَكان لزامًا وأجلٌ مسمى) معناه : لولا الكلمة وأجلٌ مسمًّى لكان لزاماً . ولولاه لكان نصباً كاللزام .

ومنها المبهم ، وهو اللفظ المشترك بين معانٍ من كلمة أو حرف . أما الكلمة فكالشيء ، والقرين ، والأُمة ، والروح ، ونظائرها . قال الله تعالى : (ضَرب الله مَثَلاً عَبْداً مَمْلوكًا لا يَقْدِرُ عَلَى شيء) أراد به النفقةَ ممّا رزق .

وأما القرين فكقوله عزَّ وجل : (وقال قَرِينُه هذا ما لدىَّ عَتيد . أَلْقِيا فى جَهنَّم كلَّ كفارٍ) أراد به المَلَكَ الموكَّل به ، وقوله تعالى : (قال قرينُه ربَّنا ما أَطْغَيْتُه ولكنْ كان) . أراد به الشيطان .

وأما الأُمّة فتطلق على ثمانية أوجه ، الأمّة : الجماعة كقوله تعالى : (وجَدَ أُمّةً من النَّاسِ يَسقُون) . وأتباعُ الأنبياء . كقولك : مَن أُمة محمّدٍ صلى الله عليه وسلم ؟ ورجل جامع للخير يُقتدَى به ، كقوله تعالى : (إنَّ إبراهيمَ كان أُمّةً قانتاً لله) . والأمة : الدِّين ، كقوله عزَّ وجل : (إنَّا وجدنا آباءنا على أُمّة) . والأُمّة : الحِين والزمان ، كقوله عز وجل : (إلى أُمّةٍ معدودة) ، وقولهِ عزَّ وجل : (وادّكر بعد أمة) . والأُمّة : القيامة . يقال : فلان حسن الأُمّة أى القيامة . وأمّة : رجل منفرد

بدين لا يَشرَكه فيه أحد ، قال صلى الله عليه وسلم : « يُبعث زيدُ بن عمرو بن نُفَيل أُمّةً وحدَه » . والأُمة : الأُم : يقال : هذه أُمّة زيد » أى أمُّ زيد

والرُّوح أيضاً ورد فى القرآن على معانٍ كثيرة فلا نطوِّل بإيرادها .

فكل من اكتفى بفهمِ ظاهر العربيّة ، وبادَرَ إلى القرآن،ولم يستظهر بالسماع والنقل فى هذه الأُمور فهو داخلٌ فيمن فَسَّر القرآنَ برأيه .

الكتاب التاسع

كتاب الأذكار والدعوات

الباب الأول

في فضيلة الذكر وفائدته

ويدلُّ على فضيلة الذكر على الجملة من الآيات: قولُه سبحانه وتعالى: (فاذكُرُونِي أذْكُرْكم) . قال ثابتٌ البُنَانيّ رحمه الله : إنِّى أعلم متى يذكُرنى ربّى عزَّ وجل ! ففزِعوا منه وقالوا : كيف تعلمُ ذلك ؟ فقال : إذا ذكرته ذكرنى . وقال تعالى : (اذكُروا الله ذِكراً كثيراً) . وقال تعالى: (فإذا أفَضْتُم من عَرَفاتٍ فاذكُرُوا اللهَ عِنْدَ المَشْعَرِ الحرامِ واذكُرُوه كما هَدَاكم) . وقال عزَّ وجل : (فإذا قَضَيْتُم مَناسِكَكُمْ فاذكروا الله كذِكرِكم آباءَكم أو أشدَّ ذِكرًا) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عزَّ وجل : أنا مَعَ عبدى ما ذَكَرنى وتحرَّكتْ شُفتاه بى » . وقال صلى الله عليه وسلم : « ما عَمِلَ ابنُ آدمَ مِن عمل أنجى له من عذابِ الله مِن ذكر الله عز وجل . قالوا : يا رسول الله ، ولا الجهادَ فى سبيل الله ؟ قال : « ولا الجهادَ فى سبيل الله ، إلَّا أن تضربَ بسيفك حتَّى ينقطع ، ثم تضربَ به حتَّى ينقطع ، ثم تضربَ به حتى ينقطع » .

قال الفُضَيل : بلغنا أنَّ الله عز وجل قال : « عبدِى اذكُرْنى بَعْد الصُّبح ساعةً ، وبعد العصرِساعة ، أكْفِكَ ما بينهما » .

وقال مُعاذ بن جَبَل رضى الله عنه : ليس يتحسَّر أهل الجنة على شىء إلاَّ على ساعةٍ مرَّت بهم لم يذكُروا الله سبحانه فيها .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما جَلسَ قومٌ مجلسًا يَذْكرون الله عز وجل إلَّا حفَّت بهم الملائكة ، وغَشِيتهم الرَّحمة ، وذكَرَهم الله تعالى فيمن عنده » .

وقال داود عليه السلام : إلهى ، إذا رأيتَنى أجاوز مجالس الذاكرين إلى مجالس الغافلين فاكسِرْ رجلى دونهم ، فإنَّها نعمةٌ تُنعِمُ بها علىّ .

وقال سُفيان بن عُيينة رحمه الله : إذا اجتمع قومٌ يذكرون الله تعالى اعتزل الشيطانُ والدُّنيا ، فيقول الشيطان للدنيا : ألا تَرَين ما يصنعون ؟ فتقول الدنيا : دَعْهم فإنَّهم إذا تفرَّقوا أخذتُ بأعناقهم إليك .

الباب الثانى

فى آداب الدعاء وفضله وفضل بعض الأدعية المأثورة

وفضيلة الاستغفار والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم

فضيلة الدعاء

قال الله تعالى : (وإِذَا سَأَلكَ عِبادِى عَنِّى فإنِّى قريبٌ أُجيبُ دعوةَ الدَّاعِ إذا دَعَانِ فلْيستَجِيبُوا لى) وقال تعالى : (ادعُوا ربَّكُم تضرُّعاً وخُفيةً إنَّه لا يُحبُّ المعتدين) . وقال صلى الله عليه وسلم : « الدُّعاءُ مُخُّ العبادة » . ورَوى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ليس شيءٌ أكرمَ على الله عزَّ وجلَّ من الدعاء » .

آداب الدعاء ، وهى عشرة

الأول : أن يترصد لدعائه الأوقاتَ الشريفةَ ، كيوم عرفة من السَّنَة ، ورمضانَ من الأشهر ، ويومِ الجمعة من الأُسبوع ، ووقتِ السَّحر من ساعات الليل .

الثانى : أن يغتنم الأحوال الشريفة . قال أبو هريرة رضى الله عنه : إنَّ أبواب السماء تُفتَّح عند زحف الصُّفوف فى سبيل الله تعالى ، وعند نُزول الغيث ، وعند إقامة الصَّلوات المكتوبة ، فاغتنموا الدُّعاءَ فيها .

الثالث : أن يدعوَ مستقبلَ القِبلة ، ويرفعَ يديه بحيث يُرى بياضُ إبطيه .

الرابع : خَفض الصوت بين المخافَتة والجهر .

الخامس : أن لا يتكلَّف السجع فى الدُّعاء ، فإنَّ حالَ الداعى ينبغى

أن يكون حالَ متضرِّع ، والتكلُّف لا يناسبه . قال صلى الله عليه وسلم : « سيكون قوم يعتَدُون فى الدعاء » . وقد قال عز وجل : (ادعُوا ربَّكم تضرُّعاً وخُفيةً إنَّه لا يحبُّ المعتَدِين) ، قيل معناه التكلُّف للأسجاع .

السادس : التضرُّع والخشوع ، والرَّغبة والرَّهبة . قال الله تعالى : (إنَّهم كانوا يُسارِعُون فى الخيرات ويَدْعوننا رَغَباً ورَهَبًا) .

السابع : أن يَجزِمَ الدعاءَ ويُوقنَ بالإجابة ويصدُقَ رجاءَه فيه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يقلْ أحدُكم إذا دعا اللَّهم اغفرْ لى إن شئتَ ، اللهم ارحمنى إنْ شئت . ليعزم المسألةَ فإنَّه لا مُكْرِهَ له » .

الثامن : أن يلحَّ فى الدعاء ويكرِّره ثلاثاً . قال ابن مسعود : كان عليه السلام إذا دعا دعا ثلاثاً ، وإذا سأل سأل ثلاثاً .

التاسع : أن يَفتتح الدعاء بذكر الله عزَّ وجل ، فلا يبدأُ بالسؤال .

العاشر : وهو الأدب الباطن ، وهو الأصل فى الإجابة : التَّوبة ، وردُّ المظالم ، والإقبال على الله عز وجل بكُنه الهمة ، فذلك هو السبب القريب فى الإجابة . فيُروَى عن كَعبِ الأحبارِ أنَّه قال : أصاب الناسَ قحطٌ شديد على عهد موسى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج موسى ببنى إسرائيل يَستسقِى بهم فلم يُسْقَوْا ، حتَّى خرج ثلاثَ مرات ولم يُسقَوا ، فأوحى الله عزَّ وجل إلى موسى عليه السلام : إنِّى لا أستجيب لك ولا لمن معك وفيكم نمَّام ! فقال موسى : يا ربِّ ومن هو حتى نخرجَه من بيننا ؟ فأوحى الله عز وجل إليه : يا موسى ، أنهاكم عن النَّميمة وأكونَ نمَّاماً ؟ فقال موسى لبنى إسرائيل : توبوا إلى ربِّكم بأجمعكم عن النميمة . فتابوا فأرسل الله تعالى عليهم الغَيث .

فضيلة الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى : (إنَّ اللهَ وملائِكتَه يُصَلُّون على النبى يَأَيُّها الذين آمَنُوا صلُّوا عليه وسَلِّموا تسليمًا) . ورُوى أنه صلى الله عليه وسلم ، جاء ذاتَ يومٍ والبُشرى تُرى فى وَجْهِهِ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إنَّه جاءنى جبريلُ عليه السلام فقال : أما تَرضى يا مُحمدُ أن لا يصلِّىَ عليك أحدٌ من أُمتك صلاةً واحدة إلَّا صلَّيتُ عليه عشراً ، ولا يسلِّمَ عليك أحدٌ من أُمتك إلَّا سلمتُ عليه عشراً » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « بحَسْبِ المؤمِن من البخل أنْ أُذكَر عنده فلا يُصلِّىَ علىَّ » .

وقيل : يا رسول الله ، كيف نصلِّى عليك ؟ فقال : « قولوا اللَّهم صلى على محمدٍ عبدِك ، وعلى آله وأزواجه وذُرِّيَّته ، كما صلَّيت على إبراهيم وآل إبراهيم ، وبارك على محمد وأزواجِه وذريته ، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » .

فضيلة الاستغفار

قال الله عز وجل : (والذين إذَا فَعَلُوا فاحشةً أو ظَلَمُوا أنفسَهم ذَكَرُوا الله فاستغفروا لذنوبهم) .

وقال عَلقمة والأَسود : قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنهم : فى كتاب الله عز وجل آيتان ما أذنب عبدٌ ذنباً فقرأهما واستغفر اللهَ عز وجل إلا غَفر الله تعالى له : (والَّذِينَ إذا فَعَلُوا فاحشةً أو ظلموا أنفُسَهُم) . وقوله عز وجل : (ومن يَعمَلْ سُوءًا أو يَظْلِمْ نفسَه ثم يستغفر الله يَجدِ اللهَ غفوراً رحيما)

وقال صلى الله عليه وسلم : « إنه لَيُغان على قلبي [1] حتى إنِّى لأستغفر الله تعالى فى كلِّ يوم مائةَ مرّة » .

وقالت عائشة رضى الله عنها ، قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن كنتِ أَلممْتِ بذنبٍ فاستغفرى اللهُ وتُوبى إليه ، فإنَّ التوبة من الذَّنب الندمُ والاستغفار » .

وقال علىٌّ كرم الله وجهَه : العَجَبُ ممن يَهلِك ومعه النجاة . قيل : وما هى ؟ قال : الاستغفار .

وقالت رابعةُ العدويَّة رحمها الله : استغفارُنا يحتاج إلى استغفارٍ كثير .

وسُمع أعرابىٌّ وهو متعلِّق بأستار الكعبة يقول : اللَّهمَّ إن استغفارى مع إصرارى لَلُؤْمٌ ، وإنَّ تركى استغفارَك مع علمى بسعَةِ عفوِك لَعجز ، فكم تتحبَّب إلىَّ بالنعم مع غِناك عنِّى ، وكم أتبغَّض إليك بالمعاصى مع فقرى إليك ! يا من إذا وَعَد وفَى ، وإذا أَوعد عفا ، أدخِلْ عظيمَ جُرمى فى عظيم عَفوك ، يا أرحم الراحمين .

---

(١) أى يغطى على قلبى . أراد ما يغشاه من السهو الذى لا يخلو منه البشر ، لأن قلبه أبداً كان مشغولا بالله تعالى ، فإن عرض له وقتاً ما عارض بشرى يشغله عن أمور الأمة ومصالحها عد ذلك ذنباً وتقصيراً ، فيفزع إلى الاستغفار .

البابُ الثالثُ

في أَدْعِية مَأْثورة

فمنها : دعاءُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ركعتى الفجر . قال ابن عباس رضى الله عنهما : بعثَنى العباسُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتيته مُمْسِيًا وهو فى بيت خالتى مَيمونة ، فقام يصلِّى من الليل ، فلما صلَّى ركعتَىِ الفجر قبل صلاة الصبح قال : « اللَّهم إنِّى أسألُكَ رحمةً مِن عندك تَهدِى بها قلبى ، وتجمعُ بها شَملى ، وتلُمُّ بها شَعَثى ، وتردُّ بها الفِتَنَ عنِّى ، وتُصلح بها دينى ، وتحفظ بها غائبى ، وترفع بها شاهدى ، وتزكِّى بها عملى ، وتبيِّض بها وجهى ، وتُلهمنى بها رَشَدى ، وتَعصِمنى بها من كلِّ سُوء . اللهمَّ أعطنى إيمانًا صادقًا ، ويقيناً ليس بعده كفر ، ورحمةً أنال بها شرفَ كرامتك فى الدنيا والآخرة . اللهم إنى أسألك الفوزَ عند القضاء ، ومنازلَ الشهداء ، وعيشَ السُّعداء ، والنَّصرَ على الأعداء ، ومُرافقةَ الأنبياء . اللَّهمَّ إنى أُنزل بك حاجتى وإنْ ضَعُف رأيى وقلَّت حيلتى ، وقَصُر عملى ، وافتقرتُ إلى رحمتك . فأسألك يا كافىَ الأُمور ، ويا شافىَ الصدور . كما تُجير بين البحور ، أن تجيرنى من عذاب السَّعير ، ومن دعوة الثُّبور ، ومن فِتنة القبور . اللهم ما قُصر عنه رأيى وضَعُفَ عنه عملى ، ولم تبلغه نيَّتى وأُمنيَّتى ، مِن خيرٍ وعدتَهُ أحداً من عبادك ، أو خيرٍ أنت معطيه أحداً من خَلْقك ، فإنِّى أرغب إليك فيه ، وأسألُكَه يارَبِّ العالمين . اللهم اجعلْنا هادين مهتدين ، غير ضالِّين ولا مُضِلِّين ، حرباً لأعدائك ، وسِلمًا لأوليائك ، نُحبُّ بحبِّك

من أطاعك مِن خَلْقِك ، ونَعادى بعداوتك من خالفَك من خلقك . اللهم هذا الدَعاءُ وعليك الإجابة ، وهذا الجهد وعليك التُكْلان . وإنّا لله وإنّا إليه راجعون ، ولا حولَ ولا قوّةَ إلّا بالله العليِّ العظيم ، ذى الحَبْل الشديد[1] ، والأمر الرَّشيد . أسألك الأمنَ يومَ الوعيد ، والجنةَ يومَ الخلود مع المقرَّبين الشُّهود ، والرُّكَّع السُّجود ، المُوفين بالعهود ، إنَّك رحيمٌ ودود ، وأنت تفعل ما تريد . سبحانَ الذى لَبِسَ العِزَّ وقال به ، سبحان الذى تعطَّف بالمجد وتكرَّم به ، سبحان الذى لا ينبغى التسبيحُ إلاَّ له ، سبحان ذى الفَضل والنِّعَم، سبحان الذى أحصى كلَّ شيء بعلمه . اللّهمّ اجعل لى نوراً فى قلبى ، ونوراً فى قبرى ، ونوراً فى سمعى ، ونوراً فى شَعْرى، ونوراً فى بَشَرى ، ونوراً فى لحمى ، ونوراً فى دمى، ونوراً فى عظامى ، ونوراً من بين يدىَّ ، ونوراً مِن خلْفى ، ونوراً عن يمينى ، ونوراً عن شِمالى ، ونوراً من فوقى ، ونوراً من تحتى . اللهم زِدْنى نوراً ، وأعطِنى نوراً ، واجعلْ لى نوراً .

دعاء عائشة رضى الله عنها

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها : « عليكِ بالجوامع الكوامل . قولى : اللهم إنى أسألك من الخير كلِّه عاجلِه وآجله ، ما علمتُ منه وما لم أعلم ، وأعوذُ بك من الشرِّ كلِّه عاجله وآجله ، ما عَلمت منه وما لم أعلم . وأسألك الجنّةَ وما قرَّب إليها من قول وعمل ، وأعوذُ بك من النار وما قرَّب إليها من قول وعمل ، وأسألك من الخير ما سألك عبدُك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم ، وأستعيذك

---

(١) ويروى « الحبل » بالياء التحتية ، والحيل : القوة

ممَّا استعاذك منه عبدُك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم ، وأسألُك ما قضيتَ لى من أمرٍ أن تجعل عاقبتَهَ رَشَدا ، برحمتك يا أرحم الراحمين.

دعاء فاطمة رضى الله عنها

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا فاطمةُ ما يمنعك أن تسمعى ما أُوصيك به ؟ أن تقولى : يا حيُّ يا قيّوم ، برحمتك أستغيث ، لا تَكِلْنى إلى نفسى طَرْفَةَ عين ، وأَصلْح لى شأنى كلَّه » .

دعاء أبى بكر الصديق رضى الله عنه

علَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضى الله عنه أن يقول : « اللهم إنِّى أسأَلك بمحمدٍ نبيِّك ، وإبراهيمَ خليلك ، وموسى نجيِّك ، وعيسى كلمتِك ورُوحِك ، وبتوراةِ موسى ، وإنجيل عيسى ، وزبور داود ، وفرقان محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين ، وبكلِّ وحيٍ أوحيتَه ، أو قضاءٍ قضيته . أو سائلٍ أعطيته ، أو غنىٍّ أفقرتَه ، أو فقير أغنيتَه ، أو ضالٍّ هديته . وأسأَلك باسمك الذى أنزلتَه على موسى صلى الله عليه وسلم ، وأسأَلك باسمك الذى بَثَثْتَ به أرزاقَ العِباد ، وأسأَلك باسمك الذى وضعتَه على الأَرض فاستقرَّت ، وأسأَلك باسمك الذى وضعتَه على السَّموات فاستقلَّت[1] ، وأسأَلك باسمك الذى وضعته على الجبال فَرَسَتْ ، وأسأَلك باسمك الطُّهر الطاهر ، الأَحَد الصَّمَد الوتر ، المُنْزَل فى كتابك من لدُنْكَ ، من النور المبين . وأسأَلك باسمك الذى وضعته على النهار فاستنار ، وعلى اللَّيل فأَظلم ، وبعظمتك وكبريائك ،

---

(١) استقلت السماء : ارتفعت .

وبنور وجهك الكريم ، أن ترزقَنى القرآن والعلمَ به ، وتخلطَه بلحمى ودمى ، وسمعى وبصرى ، وتَستعمِلَ به جَسدى بحَولك وقوَّتك ، فإنّه لا حول ولا قوّة إلّا بك يا أرحم الراحمين » .

دعاء بريدة الأسلمى رضى الله عنه

رُوى أنه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا بُرَيدة ، ألَا أُعلِّمك كلماتٍ مَن أراد الله به خيراً علَّمهن إيّاه ثم لم يُنسِهنّ إيّاه أبداً ؟ قال : فقلت : بلى يا رسول الله . قال : « قل : اللهم إنِّى ضعيفٌ فقوِّ فى رضاك ضعفى ، وخُذْ إلى الخير بناصيتى ، واجعل الإسلامَ منتهى رضاىَ . اللهم إنِّى ضعيف فقوِّنى ، وإنِّى ذليل فأَعِزَّنى ، وإنى فقير فأَغنِنِى ، يا أرحم الراحمين » .

دعاء قبيصة بن المخارق

إذْ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : علِّمنى كلماتٍ ينفعنى الله عز وجل بها ، فقد كَبِرَ سنِّى وعَجَزْتُ عن أشياءَ كثيرةٍ كنتُ أعملها . فقال عليه السلام : أمّا لدنياك فإذا صلَّيت الغداة فقل ثلاث مرات : سبحان اللهِ وبحمده ، سبحانَ اللهِ العظيم ، لا حولَ ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . فإنَّك إذا قلتهن أمِنت من الغَمّ والجُذام ، والبرص والفالج . وأمّا لآخرتك فقل : اللهم اهدِنى مِن عِندك ، وأَفِضْ علىَّ من فضلك ، وانشر علىَّ من رحمتك ، وأنزلْ علىَّ من بركاتك . ثم قال صلى الله عليه وسلم : « أما إنَّه إذا وافَى بهنَّ عبدٌ يوم القيامة لم يَدَعهنّ ، فُتح له أربعة أبواب من الجنة ، يدخل من أيِّها شاء » .

دعاء أبي الدَّرداء رضي الله عنه

قيل لأبي الدَّرداء رضى الله عنه : قد احترقت دارُك ـ وكانت النار قد وقعت فى محلَّته ـ فقال : ما كان الله ليفعلَ ذلك ؛ فقيل له ذلك ثلاثاً وهو يقول : ما كان الله ليفعل ذلك . ثم أتاه آتٍ فقال : يا أبا الدرداء ، إنَّ النار حين دنت من دارك طَفِئت ، قال : قد علمتُ ذلك ، فقيل له : ما تَدرى أىُّ قوليك أعجب ؟ قال : إنِّى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من يقول هؤلاء الكلماتِ فى ليلٍ أو نهار لم يَضُرَّه شىء ، وقد قلتهُنّ ، وهى :

« اللهمَّ أنت ربى لا إله إلَّا أنت ، عليك توكَّلت وأنت ربُّ العرش العظيم ، لا حولَ ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . ما شاء الله كان وما لم يشأْ لم يكن . أعلمُ أنَّ الله على كل شىء قدير ، وأنَّ الله قد أحاط بكل شىء علماً ، وأحصى كلَّ شىء عدداً . اللهمَّ إنِّى أعوذ بك من شرِّ نفسى ومن شرِّ كلِّ دابّة أنت آخذٌ بناصيتها ، إنَّ ربِّى على صراط مستقيم ».

الباب الرّابع

في أَدْعِية مَأْثورة عن النبيّ صَلَّى الله عليه وسلم

وعن أصحابه رضى الله عنهم

محذوفة الأسانيد منتخبة من جملة ما جمعه أبو طالب المكى وابن خزيمة وابن منذر رحمهم الله

يُستحبُّ للمريد إذا أصبحَ أن يكون أحبُّ أوراده الدعاء . فإن كنتَ من المريدين لحرث الآخرة ، المقتدين برسول الله صلى الله عليه وسلم فيما دعا به ، فقُلْ فى مفتَتَح دعواتك ، وأعقابِ صلواتِك : سبحان ربّى العلىِّ الأعلى الوهّاب ، لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريك له ، له الملكُ وله الحمد وهو على كلِّ شىءٍ قدير .

وقل : رضيتُ بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ــ ثلاثَ مرات .

وقل : اللهمَّ فاطرَ السموات والأرض ، عالمَ الغيبِ والشهادة ، ربِّ كل شىءٍ ومَليكَه . أشهد ألا إله إلا أنت ، أعوذُ بك من شرِّ نفسى ، وشرِّ الشيطان وشِركِه . اللهم إنّى أسألك العفوَ والعافية فى دينى ودُنياى ، وأهلى ومالى . اللهم استر عَوْراتى ، وآمِنْ رَوْعاتى ، وأَقِلْ عثَراتى ، واحفظنى مِن بين يدىّ ومن خلفى ، وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى ، وأعوذ بك أن أُغتالَ من تحتى . اللهم لا تُؤمنِّى مكرَك ولا تُولِّنى غيرَك ، ولا تنزعْ عنّى سِترك ولا تُنسِنى ذكرك ، ولا تجعلْنى من الغافلين .

وقل : اللهمَّ عافِنى فى بدنى ، وعافِنى فى سمعى ، وعافنى فى بصرى ، لا إله إلا أنت – ثلاثَ مرات .

أَنواع الاستعاذة المأْثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم

اللهمَّ إنى أعوذ بك من البُخل وأعوذ بك من الجُبن . وأعوذ بك من أنْ أُرَدّ إلى أرذل العمر . وأعوذ بك من فِتنة الدنيا ، وأعوذ بك من عَذاب القبر . اللهم إنِّى أعوذ بك من طمع يَهدى إلى طَبَع[1] ، ومن طمع فى غير مطمع ، ومن طمع حيث لا مَطمع . اللهمَّ إنِّى أعوذ بك من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، ودعاء لا يُسمَع ، ونفس لا تَشبع . وأعوذ بك من الجوع ، فإنَّه بئس الضَّجيع ، ومن الخيانة ، فإنَّها بئست البطانة . ومن الكسَل ، والبُخل ، والجبن ، والهَرَم ، ومِن أن أردَّ إلى أرذل العُمر ، ومن فتنة الدَّجَّال وعذاب القبر ، ومن فتنة المَحْيا والممات . اللهم جنِّبنى منكراتِ الأَخلاق والأَدواء والأَهواء . اللهم أعوذ بك من جَهد البلاء ، ودَرْك الشَّقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأَعداء .

---

(١) الطبع : الشين والدنس والعيب . قال ثابت قطنة :

لا خير فى طمع يدنى إلى طبع وغفة من قوام العيش تكفينى

البابُ الخامِسُ

فِي الأَدْعِيَة المأْثورة عند حُدوث كل حادِث من الحوادث

إذا خرجت إلى المسجد فقل : « اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى لسانى نوراً ، واجعل فى سمعى نوراً ، واجعل فى بصرى نوراً ، واجعل خلْفى نوراً وأَمَامى نوراً ، واجعل من فوقى نوراً .

فإذا انتهيت إلى المسجد تريد دُخوله فقل : اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد وسَلِّمْ . اللهم اغفرْ لى جميع ذنوبى ، وافتح لى أبواب رحمتك .

وإذا رأيتَ الهلال فقل : اللهم أَهِلَّه علينا بالأَمن والإِيمان والبِرِّ ، والسلامة والإِسلام ، والتوفيق لما تحبُّ وترضى ، والحفظِ عمّا تسخط . ربِّى وربُّك الله .

وإذا بلغك وفاةُ أحد فقل : « إنَّا لله وإنا لله راجعون ، وإنا إلى ربنا لمنْقلبون . اللهم اكتبْه فى المحسنين ، واجعل كتابَه فى علِّيين ، واخلُفْه على عَقِبهِ فى الغابرين[1] . لا تحرِمْنا أجره ولا تفتنَّا بعده ، واغفر لنا وله .

وتقول عند التصدق : (ربَّنا تَقَبَّلْ منَّا إنَّكَ أنت السميعُ العليم) .

وتقول عند الخُسران : (عَسَى ربُّنا أن يُبدِلَنا خيراً منها إنَّا إلى ربنا راغِبون) .

وتقول عند النظر إلى السماء : (ربَّنا ما خلقتَ هذا باطِلاً سُبحانكَ فقِنَا عذابَ النار) .

---

(١) الغابرون : الباقون .

فإن رأيت الصَّواعق فقل : « اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافِنا قبل ذلك » .

فإذا غضبت فقل : « اللهم اغفرْ لى ذنبى ، وأذهِبْ غيظ قلبى ، وأجِرْنى من الشيطان الرجيم » .

فإذا غزوت فقل : « اللهم أنت عَضُدى ونصيرى ، وبِكَ أقاتل » .

فإذا استيقظت من نومك عند الصباح فقل : « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا ، وإليه النُّشور . أصبَحْنا وأصبح الملك لله ، والعظمةُ والسُّلطانُ لله ، والعزَّةُ والقدرة لله . أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ، وعلى دينِ نبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وملَّةِ أبينا إبراهيمَ حنيفاً وما كان من المشركين . اللهم بك أصبحنا ، وبك أمسَيْنا ، وبك نحيا وبك نموت ، وإليك المصير » .

الكتاب العاشر

كتاب ترتيب الأوراد وتفصيل احياء الليل

وبه اختتام ربع العبادات نفع الله به المسلمين

الباب الأول

في فَضِيلة الأَوْرَاد وترتيبها و أَحكامها

فضيلة الأوراد وبيان أن المواظبة عليها هى الطريق إلى الله تعالى

اعلم أَنَّ الناظرين بنور البصيرة علموا أَنَّه لا نجاة إلَّا فى لقاء الله تعالى ، وأَنَّه لا سبيل إلى اللقاء إلَّا بأَن يموت العبد محبًّا لله تعالى ، وعارفاً بالله سبحانه . وأَنَّ المحبة والأُنسَ لا تحصُل إلَّا من دوام ذكر المحبوب والمواظبة عليه . وأَنَّ المعرفة به لا تحصل إلا بدوام الفكر فيه ، وفى صفاته وأَفعاله . وليس فى الوجود سوى الله تعالى وأَفعالِه . ولن يتيسَّر دوامُ الذكر والفِكر إلَّا بوداع الدنيا وشهواتها ، والاجتزاء منها بقدر البُلغة والضرورة ، وكلُّ ذلك لا يتم إلَّا باستغراق أَوقات الليل والنهار ، فى وظائف الأَذكار والأَفكار .

ومن أراد أن تترجَّح كِفَّةُ حسناته ، وتثقُلَ موازين خيراته ، فليستوعبْ في الطاعة أكثر أوقاته .

فانظرْ إلى خطابِ الله تعالى لرسوله ، واقتبسْه بنور الإيمان ، فقد قال الله تعالى لأقرب عبادِه إليه ، وأرفعهم درجةً لديه : (إنَّ لك فى النَّهار سَبْحاً طويلا * واذكُر اسمَ ربِّك وتبتَّلْ إليه تبْتِيلا) . وقال تعالى : (واذكُرِ اسمَ ربِّكَ بُكرةً وأصيلاً * ومن الليل فاسجُدْ له وسبِّحْه ليلًا طويلا) ، وقال تعالى : (تتجافَى جُنوبُهم عن المضاجع يَدْعُون ربّهم خوفًا وطمعاً) ، وقال عز وجل : (والذين يَبِيتونَ لربِّهِمْ سُجَّدًا وقِياماً) ، وقال عز وجل : (كانوا قليلاً من اللَّيلِ ما يَهْجَعُون . وبالأَسحارِ هم يَستغفِرُون) .

بيان أعداد الأوراد وترتيبها

اعلم أنَّ أوراد النهار سبعة : فما بين طلوع الصبح إلى طلوع قُرص الشمس وِرْد ، وما بين طلوع الشمس إلى الزوال وِردان ، وما بين الزوال إلى وقت العصر وِردان ، وما بين العصر إلى المغرب وردان .

والليل ينقسم إلى أربعة أوراد : وردان من المغرب إلى وقت نوم الناس ، ووردان من النِّصف الأخير من الليل إلى طلوع الفجر [1]

(١) تكفل كتاب الإحياء بتفصيل رسوم تلك الأوراد وأسهب فى ذلك إسهاباً لم يمكن معه الإيجاز .

الباب الثانى

فى الأسباب الميسرة لقيام الليل ، وفى الليالى التى يستحب إحياؤها وفى فضيلة إحياء الليل ما بين العشاءين وكيفية قسمة الليل

فضيلة إحياء ما بين العشاءين

روت أمُّ سلمة وأبو هريرة رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من صَلَّى ستَّ ركَعات بعد المغرب عَدَلت[1] له عبادةَ سنَةٍ كاملة ، أو كأنَّه صلَّى ليلة القدْر » . وعلى الجملة ما ورد فى فضل إحياء ما بين العشاءين كثير ، حتى قيل لعُبيدٍ مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] : هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بصلاة غير المكتوبة ؟ قال : « ما بين المغرب والعشاء » . وقال الأسود : ما أتيت ابنَ مسعودٍ رضى الله عنه فى هذا الوقتِ إلَّا ورأيتُه يصلِّى ، فسألته فقال : نعَمْ ، هى ساعة الغفلة . وكان أنسٌ رضى‌الله عنه يُواظب عليها ويقول : هى ناشئة الليل ، ويقول : فيها نزل قوله تعالى : (تتجافَى جُنوبُهم عَنِ المَضَاجع) .

فضيلة قيام الليل

أما من الآيات ، فقوله تعالى : (إنَّ ربَّك يعلمُ أنَّكَ تقومُ أدنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيل) الآية . وقوله تعالى : (إنَّ ناشئةَ اللَّيلِ هى أشدُّ وطئًا وأقوَمُ قِيلاً) . وقوله سبحانه وتعالى: (تتجافَى جُنوبُهم عن المَضَاجع)

(١) عدلت : ساوت .

(٢) ذكره ابن حجر فى الإصابة ٥٣٦١ كما روى له هذا الحديث .

وقولُه تعالى : (أَمَّنْ هو قانتٌ آناءَ اللَّيلِ) الآية . وقوله عزَّ وجلَّ : (والذين يَبِيتُونَ لربِّهم سُجَّدًا وقِياما) . وقوله تعالى : (واستَعِينُوا بالصَّبْرِ والصَّلاة) قيل : هى قيام الليل ، يُستعان بالصبر عليه على مجاهدة النفس .

وقال المُغيرة بن شُعبة : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتَّى تفطَّرت قدماه[1] فقيل له : أمَا قَد غَفَر الله لك ما تقدمَّ من ذنبك وما تأخَّر ؟ فقال : أفلا أكونُ عبداً شكوراً . ويظهر من معناه أنَّ ذلك كنايةٌ عن زيادة الرُّتبة ، فإن الشُّكر سببُ المزيد . قال تعالى : (لئن شكرتمْ لأَزِيدَنَّكم) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أفضلُ الصلاة بعد المكتوبة قيامُ الليل »

وكان ابن مسعود رضى الله عنه إذا هدأت العيونُ قام ، فيُسمَعُ له دَوِىٌّ كدوِىِّ النَّحْل حتى يُصْبح .

وكان عبد العزيز بن أبى رَوَّاد ، إذا جَنَّ عليه الليل ، يأتى فِراشه فيُمِرُّ يده عليه ويقول : إنك لَلَيِّنٌ ، ووالله إنَّ فى الجنة لأَلْينَ منك . ولا يزال يصلِّى الليلَ كلَّه .

وكان صِلةُ بن أَشْيَمَ رحمه الله يصلِّى الليل كله ، فإذا كان فى السَّحَر قال : إلهى ليس مثلى يَطلبُ الجنة ، ولكن أجِرْنى برحمتك من النار.

وقال أبو الجُوَيرِيَة : لقد صحبتُ أبا حنيفة رضى الله عنه سِتَّةَ أشهر فما فيها ليلةٌ وضع جنبَه على الأرض .

وقال مالك بن دينار : سهوتُ ليلةً عنْ وِردى ونمت ، فإذا أنا فى المنام بجاريةٍ كأحسنِ ما يكون ، وفى يدها رُقعة ، فقالت لى : أتحسِنُ تقرأ ؟ فقلت : نعم. فدفعَتْ إلىَّ الرقعة فإذا فيها :

---

(١) تفطرت : تشققت .

أألهتْــكَ اللــذائذُ والأمــانى عن البيض الأوانسِ فى الجِنانِ
تعيشُ مخــلَّداً لا مَــوْتَ فيهــا وتلهو فى الجنــان مع الحِســانِ
تَنَبَّهْ من مَنــامكَ إنَّ خيــراً من النــوم التهجُّدُ بالقُــرَانِ

بيان الأسباب التى بها يتيسر قيام الليل

قيام الليل عسيرٌ على الخَلْق ، إلّا على من وُفِّق للقيام بشروطه الميسِّرة له ظاهراً وباطنًا .

فأما الظاهرة فأربعة أمور :

الأول : أن لا يكثر الأكل فيُكثرَ الشرب ، فيغلبه النومُ ويثقُل عليه القيام .

الثانى : أن لا يُتْعِب نفسَه بالنهار فى الأعمال التى تعيا بها الجوارح ، وتَضعفُ بها الأعصاب ، فإن ذلك أيضاً مَجْلَبةٌ للنوم .

الثالث : أن لا يترك القيلولةَ بالنهار ، فإنَّها سُنَّة للاستعانة على قيام الليل .

الرابع : أن لا يحتقب الأوزار بالنَّهار ، فإنَّ ذلك مما يقسِّى القلب ، ويَحُول بينه وبين أسباب الرحمة . قال رجل للحسَن : يا أبا سعيد، إنِّى أبيتُ مُعافًى، وأحبُّ قيامَ الليل ، وأعِدُّ طَهُورى فما بالى لا أقوم ؟ فقال: ذنوبك قيَّدتْك .

وأما الميسِّرات الباطنة فأربعة أمور :

الأول : سلامة القلب عن الحقد على المسلمين ، وعن البدع ، وعن فُضول هموم الدنيا . فالمستغرَقُ الهمِّ بتدبير الدنيا لا يتيسَّر له القيام ، وإن قام فلا يتفكَّر فى صلاته إلا فى مُهمّاته ، ولا يجول إلاَّ فى وساوسه. وفى مثل ذلك يقال :

يُخَبِّرُنِى البـــوَّابُ أنكَ نائِمُ   وأنت إذا استيقظت أيضاً فنــائمُ

الثانى : خوفٌ غالب يَلزم القلب مع قصر الأَمل ، فإنَّه إذا تفكَّر فى أهوالِ الآخرة ودَركات جهنَّمَ طارَ نومُه وعظُم حذره ، كما قال طاوس[1] : « إنَّ ذكر جَهنم طَيَّرَ نومَ العابدين » .

وقال ذو النُّون المصرى رحمه الله :

مَنَع القُرآنُ بوعــدِه ووعيـــدِه   مُقلَ العيون بليلِها أنْ تَهجعــا
فَهِمُوا عن الملك الجليلِ كــلامَه   فرِقابُهمْ ذلَّت إليــه تخَضُّــعا

الثالث : أن يَعرف فضلَ قيام الليلِ بسماع الآيات والأَخبار والآثار ، حتَّى يستحكم به رجاؤه وشوقُه إلى ثوابه ، فيَهيجُه الشوق لطلب المزيد والرغبةِ فى درجات الجنان . كما حُكى أنَّ بعض الصالحين ، رجَع من غزوته ، فمهَّدت امرأته فراشَها وجلست تنتظره ، فدخل المسجدَ ولم يزل يصلِّى حتى أصبحَ ، فقالت له زوجته : كنَّا ننتظرك مدَّةً فلما قدِمتَ صلَّيت إلى الصبح ؟ قال : والله إنى كنت أتفكَّر فى حوراءَ من حُور الجنة طولَ الليل ، فنسِيتُ الزوجةَ والمنزل ، فقمت طول ليلتى شوقًا إليها .

الرابع ، وهو أشرف البواعث : الحبُّ لله ، وقوة الإيمان به فى قيامه لا يتكلَّم بحرفٍ إلاَّ وهو مناجٍ ربَّه ، وهو مطَّلع عليه مع مشاهدةِ ما يخطر بقلبه ، وأنَّ تلك الخطوات من الله تعالى خِطابٌ معه ، فإذا أحبَّ اللهَ تعالى أَحبَّ لا محالة الخَلْوة به ، وتلذَّذَ بالمناجاة ، فتَحمِله لذةُ المناجاة بالحبيب على طول القيام .

---

(١) طاوس بن كيسان اليمنى ، روى عن العبادلة الأربعة ، وأبى هريرة وعائشة ، وكان من [illegible] توفى سنة ١٠٦

بيان طرق القسمة لأجزاء الليل

اعلم أنَّ إحياءَ الليل، من حيث المقدارُ ، له سبع مراتب :

الأُولى : إحياءُ كلِّ الليل . وهذا شأْنُ الأَقوياء الذين تجردوا لعبادة الله تعالى ، وتلذَّذوا بمناجاته ، وصار ذلك غذاءً لهم وحياةً لقلوبهم .

المرتبة الثانية : أن يقوم نصفَ الليل . وأحسنُ طريقٍ فيه أن ينام الثلثَ الأَوّلَ من الليل والسُّدُس الأَخير منه ، حتَّى يقع قيامُه فى جوف الليل ووسطه ، فهو الأَفضل .

المرتبة الثالثة : أن يقوم ثلث الليل . فينبغى أن ينام النصفَ الأَول والسدس الأَخير . وبالجملة نومُ آخرِ الليل محبوب ، لأَنه يُذهب النعاس بالغداة .

المرتبة الرابعة : أن يقوم سُدس اللَّيل أو خُمسه ، وأفضله أن يكون فى النصف الأَخير وقبلَ السدس الأَخير منه .

المرتبة الخامسة : أن لا يراعىَ التقدير ، فإنَّ ذلك إنَّما يتيسر لنبىٍّ يُوحَى إليه ، أو لمن يعرف منازلَ القمر ، ويوكِّل به من يراقبه ويواظبه ويُوقظه .

المرتبة السادسة ، وهى الأَقل : أن يقوم مقدارَ أربع رَكَعات أو ركعتين ، أو تتعذَّرَ عليه الطهارة فيجلس مستقبلَ القبلة ساعةً مشتغلاً بالذكر والدعاء ، فيُكتَب فى جملة قُوّامِ اللَّيل برحمة الله وفضله .

وحيث يتعذَّر عليه القيام فى وسط الليل فلا ينبغى أن يهمل إحياء ما بين العِشاءين، والوردَ الذى بعد العِشاء . ثم يقوم قبل الصبح وقت السَّحَر ، فلا يُدركه الصبح نائماً . ويقوم بطرفَىِ الليل وهذه هى (المرتبة السابعة) .


رُبعُ العَادَات

الكتاب الأول

كتاب آداب الأكل

الحمد لله الذى أحسنَ تدبير الكائنات ، فخلق الأرضَ والسموات ، وأنزل الماءَ الفُراتَ من المُعْصِرات[1] ، فأخرج به الحبَّ والنبات ، وقدَّر الأرزاقَ والأقوات ، وحَفِظ بالمأكولات قُوَى الحيوانات ، وأعان على الطّاعات والأعمال الصالحاتِ ، بأكل الطيِّبات ، والصلاةُ على سيدنا محمدٍ ذى المعجزات الباهرات ، وعلى آله وأصحابه صلاةً تتوالَى على ممرِّ الأوقات ، وتتضاعف بتعاقُب الساعات ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

أما بعدُ فإنَّ مَقصِدَ ذوى الألباب ، لقاءُ الله تعالى فى دار الثَّواب ، ولا طريقَ إلى الوصول للقاء الله إلاَّ بالعلم والعمل ، ولا تُمكِنُ المواظبةُ عليهما إلاَّ بسلامة البدَن ، ولا تصفُو سلامةُ البدن إلاَّ بالأطعمة والأقوات والتناوُلِ منها بقدر الحاجةِ على تكرُّر الأوقات ، فمن هذا الوجه قال بعض السَّلف الصالحين : إنَّ الأكل من الدِّين ، وعليه نبَّه ربُّ العالمين ، بقوله وهو أصدق القائلين : (كُلُوا من الطَّيِّبات واعْمَلُوا صالحًا) .

---

(1) المعصرات : السحب ذوات المطر .

فمن يُقدمْ على الأكل ليستعين به على العلم والعمل ويقوَى به على التقوى فلا ينبغى أن يَترك نفسَه مُهملاً سُدًى ، يسترسل فى الأكل استرسالَ البهائم فى المرعَى ؛ فإنَّ ما هو ذريعةٌ إلى الدين ووسيلةٌ إليه ، ينبغى أن تظهر أنوارُ الدِّين عليه . وإنَّما أنوار الدين آدابه وسننه التى يُزَمّ العبد بزمامها ، ويُلْجَم المتَّقِى بلجامها ، حتَّى يتَّزِن بميزان الشرع شهوةُ الطعام فى إقدامها وإحجامها ، فيصير بسببها مَدفعةً للوِزْر[1] ، ومَجْلَبةً للأَجر ، وإن كان فيها أوفَى حظٍّ للنفس . قال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الرَّجُلَ لَيُؤْجَر حتَّى فى اللقمة يرفعها إلى فِيه وإلى فِى امرأتِه » . وإنَّما ذلك إذا رفعها بالدِّين وللدِّين ، مراعياً فيه آدابَه ووظائفه .

وها نحن نرشد إلى وظائف الدين فى الأكل : فرائضها وسننها وآدابها ، ومُروءاتها وهيئاتها ، فى أربعة أبواب ، وفصلٍ فى آخرها .

(الباب الأول) فيما لابدَّ للآكل من مراعاته وإن انفردَ بالأكل .

(الباب الثانى) فيما يزيد من الآداب بسبب الاجتماع على الأكل .

(الباب الثالث) فيما يخصُّ تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين .

(الباب الرابع) فيما يخصُّ الدعوةَ والضِّيافةَ وأشباهَها .

---

(١) أى دافعا للذنب .

الباب الأول

فيما لابُدَّ للمنفرِد منه

وهو ثلاثة أقسام : قسم قبل الأكل ، وقسم مع الأكل ، وقسم بعد الفراغ منه

القسم الأول

في الآداب التي تتقدَّم على الأكل ، وهي سبعة

الأول : أن يكون الطَّعامُ بعد كونه حلالاً فى نفسه طيباً فى جهة مكسبه ، موافقاً للسُّنة والورَع ، لم يُكتَسَبْ بسبب مكروهٍ فى الشرع ، ولا بحكم هوًى ومُداهنة فى دين . وقد أمر الله تعالى بأكل الطيِّب ، وهو الحلال ، وقدَّم النهى عن الأكل بالباطل على القتل ، تفخيمًا لأمر الحرام ، وتعظيماً لبركة الحلال ، فقال تعالى : (يأيُّها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) إلى قوله : (ولا تقتُلُوا أنفُسَكم) الآية .

الثانى : غسلُ اليد ، قال صلى الله عليه وسلم : « الوضوءُ قَبْلَ الطعام ينفى الفقر ، وبعده يَنفى اللَّمَم[1] » . ولأنَّ اليدَ لا تخلو عن لَوثٍ فى تعاطى الأعمال ، فغسلُها أقرب إلى النظافة والنزاهة . ولأنَّ الأكل لقصد الاستعانة على الدِّين عبادةٌ ، فهو جديرٌ بأن يقدَّم عليه ما يَجرِى منه مجرى الطهارة من الصَّلاة .

---

(١) اللمم : صغار الذنوب .

الثالث : أن يُوضَع الطعام على السُّفرة الموضوعةِ على الأرض ، فهو أقربُ إلى فِعل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رفعه على المائدة . « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أُتِيَ بطعام وضعَه على الأرض». فهذا أقربُ إلى التواضع . فإنْ لم يكن فعلَى السُّفرة فإنَّها تذكِّر السفرَ ، ويَتذَكَّر من السفر سفرَ الآخرة وحاجتَهُ إلى زاد التقوى .

الرابع : أن يحسن الجِلسة على السُّفرة فى أول جلوسه ، ويستديمها كذلك . « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ربَّما جثا للأكل على ركبتيه وجلسَ على ظهر قدمَيه ، وربَّما نصب رجلَه اليمنى وجلس على اليسرى ». وكان يقول : لا آكلُ متَّكئاً ، إنَّما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلسُ كما يجلس العبد » . والشرب متكئاً مكروهٌ للمعدة أيضاً . ويكره الأكل نائماً ومُتَّكئاً ، إلا ما يتنقَّل به[1] من الحُبوب .

الخامس : أن ينوِيَ بأكله أن يتقوَّى به على طاعة الله تعالى ، ليكون مطيعاً بالأكل ، ولا يَقصِد التلذُّذ والتنعُّم بالأكل .

قال إبراهيم بن شَيبان : منذ ثمانين سنة ما أكلتُ شيئاً لشهوتى .

السادس : أن يرضَى بالموجود من الرزق ، والحاضرِ من الطعام ، ولا يجتهدَ فى التَّنَعُّم ، وطلب الزيادة وانتظار الأُدْم[2] ، بل من كرامة الخبز أن لا يَنتظر به الأُدم ، وقد ورد الأمر بإكرام الخبز . فكلُّ ما يقيم الرَّمَق[3] ويقوِّى على العبادة فهو خيرٌ كثيرٌ لا ينبغى أن يُسْتحقَر ، بل لا يَنتظر بالخبز الصلاةَ إنْ حضر وقتُها إذا كان فى الوقت متَّسع .

---

(١) أى ما يؤكل كما يؤكل النقل .

(٢) الأدم : ما يؤكل بالخبز ، أى شىء كان .

(٣) الرمق : بقية الحياة .

قال صلى الله عليه وسلم : « إذا حَضر العَشاءُ والعِشاءُ فابدءوا بالعَشاء » .

السابع : أن يجتهد فى تكثير الأيدى على الطّعام ، ولو من أهله وولَدِه . قال صلى الله عليه وسلم : « اجتمعوا على طَعامكم يُبارَكْ لكم فيه » . وقال أنسٌ رضى الله عنه : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأكُلُ وحْدَه » . وقال صلى الله عليه وسلم : « خيرُ الطّعام ما كثُرت عليه الأيدى » .

القسم الثانى

في آداب حالة الأكل

وهو أن يبدأ بـ « بسم الله » فى أوّله ، و بـ « الحمد لله » فى آخره . ولو قال مع كلّ لقمة « بسم الله » فهو حسن ، حتّى لا يشغله الشَّرَه عن ذكر الله تعالى . ويأكلَ باليمنى ، ويبدأ بالملح ويختم به ، ويصغِّرَ اللقمة ويجوِّد مضغها ، وما لم يبتلعها لم يمدّ اليدَ إلى الأُخرى ، فإن ذلك عجلةٌ فى الأكل . وأن لا يذمّ مأكولاً ، « كان صلى الله عليه وسلم لا يَعيبُ مأكولاً ، كان إذا أعجبَهُ أكَلَه وإلّا تَركه » . وأن يأكل ممّا يليه ، إلا الفاكهة ، فإنّ له أن يُجيلَ يده[1] فيها . قال صلى الله عليه وسلم : « كُلْ ممّا يليك » . ثم كان صلى الله عليه وسلم يَدُور على الفاكهة ، فقيل له فى ذلك فقال : « ليس هو نوعًا واحداً » . وأن لا يأكل من دَورة القَصعة ، ولا من وسَط الطعام ، بل يأكل من استدارة الرغيف ،

---

(١) يجيلها ، أى يديرها .

إلّا إذا قلَّ الخبز فيكسر الخبز . ولا يَقطع بالسّكّين ، ولا يقطع اللحم أيضاً فقد نُهى عنه ، وقال : « انهَشُوه نَهشاً » . ولا يوضع على الخبز قَصعةٌ ولا غيرها ، إلاَّ ما يؤكل به . قال صلى الله عليه وسلم : « أكرموا الخبز ، فإنَّ الله تعالى أنزله من بركات السماء » . ولا يمسح يدَه بالخبز . وأن لا يتركَ ما استرذَله من الطَّعام ويطرحَه فى القَصْعة ، بل يتركُه مع الثُّفل حتَّى لا يلتبس على غيره فيأكله . وأن لا يكثر الشُّربَ فى أثناء الطعام إلا إذا غَصَّ بلقمةٍ أو صَدَق عطشُه ، فقد قيل إنَّ ذلك مستحبٌ فى الطب ، وإنه دباغُ المعدة .

وأما الشُّرب ، فأدبه أن يأخذ الكُوز بيمينه ويقول : « بسم الله » ويشرَبه مَصًّا لا عَبًّا . قال صلى الله عليه وسلم : « مُصّوا الماء مصًّا ولا تَعبُّوه عَبًّا ، فإن الكُبَاد[1] من العَبّ » . ولا يشرب قائماً ولا مضطجعاً .

ويراعى أسفلَ الكوز حتَّى لا يقطر عليه ، وينظر فى الكوز قبل الشُّرب ، ولا يتجشَّأ ولا يتنفَّس فى الكوز ، بل ينحّيه عن فمه بالحمد ويردُّه بالتسمية .

والكوز وكلُّ ما يدار على القوم يُدار يَمْنة .

القسم الثالث

ما يُستَحَب بعد الطعام

وهو أن يَمسك قبلَ الشِّبَع ويَلعَقَ أصابعه ، ثم يَمسح بالمنديل ، ثم يَغسلها ، ويلتقطَ فُتَاتَ الطعام . قال صلى الله عليه وسلم : « من أكل ما يسقُط من المائدة عاشَ فى سعة وعُوفِيَ فى ولده » . ويتخلّل ولا يبتلع

(١) الكباد ، بالضم : وجع الكبد .

كلَّ ما يخرج من بين أسنانه بالخلال ، إلاَّ ما يجمع من أصول أسنانه بلسانه . أمَّا المُخرَجُ بالخِلال فيرميه . وليتمضمضْ بعد الخِلال .

وأن يشكرَ الله تعالى بقلبه على ما أطعمه ، فيرى الطَّعامَ نعمةً منه . قال الله تعالى : (كُلُوا من طيِّباتِ ما رزقناكم واشْكُروا لِلّهِ) . ومهما أكل حلالاً قال : الحمدلله الذى بنعمته تتمُّ الصالحات ، وتُنزَلُ البركات . اللهم أطعمنا طيباً ، واستعملنا صالحاً . وإنْ أكل شبهةً فليقل : الحمد لله على كلِّ حال ، اللهم لا تجعلْه قوَّةً لنا على معصيتك . ويقرأ بعد الطعام : قل هو الله أحد ، ولإيلاف قريش . ولا يقوم عن المائدة حتَّى تُرفعَ أوّلاً ، فإنْ أكَلَ طعامَ الغير فليدعُ له وليقل : اللهمَّ أكثر خيره وباركْ له فيما رزقتَه ، ويسِّر له أن يفعل فيه خيراً ، وقَنِّعْهُ بما أعطيته ، واجعلْنا وإيَّاه من الشاكرين .

وإن أفطرَ عند قوم فليقل : أفطر عندكم الصَّائمون ، وأكلَ طعامكم الأبرار ، وصلَّت عليكم الملائكة .

الباب الثالث

فيما يزيد بسبب الاجتماع والمشاركة في الأكل ، وهي سبعة :

الأول : أن لا يبتدىء بالطعام ومعه من يستحق التقديمَ بكبر سنٍّ أو زيادةِ فضل ، إلاَّ أن يكون هو المتبوع والمقتدَى به ، فحينئذ ينبغي أن لا يطوِّل عليهم الانتظار إذا اشرأبُّوا للأكل واجتمعوا له .

الثانى : أن لا يسكتوا على الطعام ، فإنَّ ذلك من سيرة العجم ، ولكنْ يتكلَّمون بالمعروف ، ويتحدَّثون بحكايات الصالحين فى الأطعمة وغيرها .

الثالث : أن يرفُق برفيقه فى القَصعة ، فلا يقصد أن يأكل زيادةً على ما يأكله ، فإن ذلك حرام إن لم يكن موافقاً لرضا رفيقه ، مهما كان الطعام مشتركاً .

فأما الحَلِف عليه بالأكل فممنوع . قال الحسن بن على رضى الله عنهما : الطَّعام أهونُ من أن يُحلَفَ عليه .

الرابع : أن لا يُحوِجَ رفيقَه إلى أن يقول له : كُلْ . قال بعض الأدباء : أحسن الآكلين أكْلًا مَنْ لا يُحْوِج صاحِبَه إلى أن يتفقَّده فى الأكل ، وحَمَل عن أخيه مؤونة القول .

الخامس : أنَّ غَسل اليد فى الطَّسْت لا بأْسَ به ، وله أن يتنخَّم فيه إنْ أكلَ وحده ، وإن أكل مع غيره فلا ينبغى أن يفعل ذلك .

السادس : أن لا ينظر إلى أصحابه ولا يراقب أكْلَهم فيستحيُون ، بل يَغُضّ بصره عنهم ، ويشتغل بنفسه ، ولا يمسك إقبلَ إخوانه إذا

كانوا يحتشمون الأكلَ بعده ، بل يمد اليد ويقبضها ، ويتناول قليلاً قليلاً إلى أن يستوفوا .

السابع : أن لا يفعل ما يستقذره غيرهُ ، فلا ينفُض يده فى القصعة ولا يقدِّم إليها رأسَه عند وضع اللقمة فى فيه ، ولا يَغمس اللقمة الدَّسمةَ فى الخل ، ولا الخل فى الدُّسومة فقد يَكرهُه غيرُه . واللقمة التى قطعها بسنِّهِ لا يغمس بقيتها فى المرقة والخلّ. ولا يتكلَّم بما يذكِّر المستقذَرات.

البابُ الثالث

في آداب تقديم الطعام إلي الإخوان الزائرين

تقديم الطعام إلى الإخوان فيه فضل كثير. قال جعفر بن محمد رضى الله عنهما : إذا قعدتم مع الإخوان على المائدة فأطيلوا الجلوس ، فإنّها ساعةٌ لا تحسب عليكم من أعماركم. وقال الحسن رحمه الله : كلُّ نفقة ينفقها الرجل على نفسه وأبويه فَمَنْ دونهم يُحاسَب عليها ألْبتَّة ، إلّا نفقةَ الرجل على إخوانه فى الطعام ، فإن الله يستحى أن يَسأل عن ذلك.

هذا مع ما ورد من الأخبار فى الإطعام. قال صلى الله عليه وسلم : « لا تزال الملائكةُ تصلّى على أحدِكم ما دامت مائدتُه موضوعةً بين يديه حتّى ترفع ».

وقال على رضى الله عنه : لأَن أجمَع إخوانى على صاع من طعام أحبُّ إلىّ من أن أعتِقَ رقبةً. وكان ابن عمر رضى الله عنهما يقول : مِن كرم المرء طيبُ زاده فى سَفَره وبذلُه لأصحابه.

وأما آدابه : فبعضها فى الدخول ، وبعضها فى تقديم الطعام. أما الدخول فليس من السُّنّة أن يقصد قومًا مُتربِّصاً لوقت طعامهم فيدخل عليهم وقتَ الأكل ، فإن ذلك المفاجأة ، وقد نُهِى عنه. قال الله تعالى : (لا تَدخُلوا بيوتَ النبىِّ إلا أن يُؤْذَنَ لكم إلى طَعامٍ غير نَاظِرينَ إناهُ) ، يعنى منتظرين حِينَه ونُضجَه. وفى الخبر : « مَن مشى إلى طعام لم يُدْعَ إليه مشَى فاسقًا وأكل حرامًا ».

وأما آداب التقديم : فترك التكلُّف أولا وتقديم ما حضر ، فإن لم

يَحضُره شيءٌ ولم يملكْ فلا يستقرضْ لأَجل ذلك فيشوّش على نفسه . وإن حضَرَه ما هو محتاجٌ إليه لقُوتِهِ ولم تسمح نفسُه بالتقديم فلا ينبغى أَنْ يقدِّم . دخل بعضهم على زاهدٍ وهو يأْكل ، فقال : لولا أَنى أَخذته بدَيْن لأَطعمتُك منه .

وكان الفُضيل يقول : إنَّما تقاطع الناسُ بالتكلُّف ، يدعو أَحدهم أَخاه فيتكلَّف له ، فيقطعُه عن الرُّجوع إليه .

ومن التكلُّف أَن يقدِّم جميع ما عنده ، فَيُجحفَ بعياله ويؤذِىَ قلوبهم .

وقال سَلْمان : أَمرَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أَن لا نتكلَّفَ للضَّيف ما ليس عندنا ، وأَن نقدِّم إليه ما حضرنا .

الأَدب الثانى : وهو للزائر ، أَن لا يقترحَ ولا يتحكم بشىء بعينه ، فربما يشقُّ على المَزُور إحضارُه . فإنْ خيَّره أَخوه بين طعامين فليتخيَّر أَيسرَهما عليه ، كذلك السنَّة . ففى الخبر أَنه ما خُيِّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين شيئين إلا اختارَ أَيسرَهما .

الأَدب الثالث : أَن يشهِّىَ المزورُ أَخاه الزائر ، ويلتمس منه الاقتراح مهما كانت نفسُه طيبةً بفعلِ ما يقترح ، فذلك حَسَنٌ ، وفيه أَجرٌ وفضلٌ جزيل .

الأَدب الرابع : أَن لا يقول له : هَل أُقدّم لك طعاماً ؟ بل ينبغى أَن يقدِّم إن كان . قال الثورى : إذا زارك أَخوك فلا تقل له : أَتأْكل ؟ أَو أُقدِّم إليك ؟ ولكن قدِّمْ ، فإن أَكلَ وإلاَّ فارفع .

الباب الرابع

في آداب الضِّيافة

ومظانُّ الآداب فيها ستة : الدَّعوة أولا ، ثم الإجابة ، ثم الحضور . ثم تقديم الطعام ، ثم الأَكل ، ثم الانصراف .

أما الدعوة : فينبغي للداعي أن يعتمدَ بدعوته الأَتقياء دون الفُسّاق . وقال صلى الله عليه وسلم : « أَكَل طعامَكَ الأَبرارُ » فى دعائه لبعض من دعا له . ويقصد الفقراء دون الأَغنياء على الخصوص . قال صلى الله عليه وسلم : « شرُّ الطعام طعام الوليمة ، يُدعى إليها الأَغنياءُ دون الفقراء» وينبغي أن لا يهمل أقاربه فى ضيافته ، فإنَّ إهمالَهم إيحاشٌ وقَطْعُ رحم . وكذلك يراعى الترتيب فى أصدقائه ومعارفه ، فإنَّ فى تخصيص البعض إيحاشًا لقلوب الباقين . وينبغي أن لا يقصد بدعوته المباهاةَ والتفاخر ، بل استمالةَ قلوب الإخوان .

وينبغي أن لا يدعُوَ من يعلم أنه يُشقّ عليه الإجابة ، وإذا حضر تأذّى بالحاضرين بسبب من الأَسباب..

وللإجابة خمس آداب :

الأَول : أن لا يميز الغنيَّ بالإجابة عن الفقير ، فذلك هو التكبُّر المنهيُّ عنه .

الثاني : أنَّه لا ينبغي أن يمتنع عن الإجابة لبعد المسافة ، كما لا يمتنع لفقر الداعي وعدم جاهِه ؛ بل كلُّ مسافة يمكن احتمالُها فى العادة لا ينبغي أن يمتنعَ لأَجل ذلك ، يقال فى التوراة أو بعض الكتب : سرْ مِيلًا عُدْ مريضاً ، سرْ مِيلين شيِّع جِنازة ، سر ثلاثةَ أميال أَجِبْ دعوة ، سر أربعة أميال زُرْ أخاً فى الله .

الثالث : أن لا يمتنع لكونه صائماً ، بل يحضر فإن كان يسرُّ أخاه إفطارُه فليُفطر وليحتسبْ فى إفطاره بنيَّة إدخال السرور على قلب أخيه ما يحتسبُ فى الصوم . وأفضل ذلك فى صوم التطوّع ، وإن لم يتحقّق سرور قلبه فليصدِّقه بالظاهر وليفطر ، وإن تحقَّق أنه متكلِّف فليتعلَّل. وقد قال صلى الله عليه وسلم لمن امتنع بعذر الصوم : « تكلَّفَ لك أخوك وتقول إنِّى صائم » .

الرابع : أن يمتنع من الإجابة إن كان الطعامُ طعام شُبهة ، أو الموضعُ أو البساطُ المفروش من غير حَلال ، أو كان يقام فى الموضع مُنكَرٌ من فَرش ديباج ، أو إناء فضة ، أو تصوير حيوان على سقفٍ أو حائط ، أو سماع شىء من المزامير والملاهى ، أو التشاغل بنوع من اللّهو والعزْف والهزْل واللعب ، واستماع الغِيبة والنَّميمة ، والزُّور والبهتان والكذب ، وشِبه ذلك ، مما يمنع الإجابة واستحبابها ، ويُوجِب تحريمها أو كراهيتَها . وكذلك إذا كان الداعى ظالماً أو مبتدعاً ، أو فاسقاً أو شرِّيراً ، أو متكلِّفاً طالباً للمباهاة والفخر .

الخامس : أن لا يقصد بالإجابة قضاء شهوة البطن فيكون عاملاً فى أبواب الدنيا ، بل يحسن نيّته ، ليصير بالإجابة عاملاً للآخرة .

وأمَّا الحضور فأدبُه أن يدخل الدارَ ولا يتصدَّرَ فيأْخذَ أحسنَ الأَماكن بل يتواضعُ ، ولا يطوِّل الانتظار عليهم ولا يعجِّل بحيث يفاجئهم قبل تمام الاستعداد ، ولا يضيِّق المكان على الحاضرين بالزَّحمة ، بل إنْ أشار صاحب المكان بموضعٍ لا يخالفه البتَّة ، فإنه قد يكون رتَّب فى نفسه موضعَ كلٍّ واحد . فمخالفته تشوِّش عليه .

ولا ينبغى أن يجلس فى مقابلة باب الحجرة للنساء وسُتُرهم .
ولا يكثر النظر إلى الموضع الذى يَخرج منه الطّعام، فإنه دليلٌ على الشَّرَه .
وإذا دخل ضيفٌ للمبيت فليعرِّفه صاحب المنزل عند الدخول القبلةَ وبيتَ الماء وموضع الضوء .

وأما إحضار الطعام فله آدابٌ خمس :

الأول : تعجيل الطعام . فذلك من إكرام الضيف

ومهما حضَر الأكثرون وغابَ واحدٌ أو اثنان وتأخَّروا عن الوقت الموعود فحقُّ الحاضرين فى التعجيل أولى من حقِّ أولئك فى التأخير ؛ إلا أن يكون المتأَخِّرُ فقيراً أو ينكسر قلبُه بذلك . فلا بأسَ فى التأخير.

الثانى : ترتيب الأطعمة بتقديم الفاكهة أوّلا إن كانت. فذلك أوفَقُ فى الطبّ ، فإنّها أسرع استحالة ، فينبغى أن تقع أسفلَ المعدة . وفى القرآن تنبيهٌ على تقديم الفاكهة فى قوله تعالى : (وفاكهة مما يتخيَّرون) ثم قال : (ولحمِ طيرٍ ممّا يَشْتَهون) . ثم أفضل ما يقدَّم بعد الفاكهة اللحمُ والثريد

الثالث : أن يقدِّم من الألوان ألطفَها حتّى يَستوفِيَ منها من يريد ولا يُكثرَ الأكل بعده . وعادة المترفين تقديم الغليظ ليستأنفَ حركة الشّهوة بمصادفة اللّطيف بعده ، وهو خلافُ السُّنّة ، فإنه حيلةٌ فى استكثار الأكل، وكان من سنّة المتقدِّمين أن يقدِّموا جملة الألوان دفعةً واحدة ويصفُّفون القصاع من الطعام على المائدة، ليأكلَ كلٌّ واحد ما يشتهى. وإن لم يكن عنده إلاّ لونٌ واحدٌ ذكَرَه ليستوفوا منه ولا ينتظروا أطيبَ منه . ويحكى عن بعض أصحاب المروءات أنّه كان يكتب نسخةً بما يُستحضَر من الألوان ويُعرَض على الضيفان[1] .

---

(١) هذا سبق لأسلافنا العرب فى هذا الضرب من ألوان المدنية

الرابع : أن لا يبادرَ إلى رفع الألوان قبل تمكُّنهم من الاستيفاء حتّى يرفعوا الأَيدِيَ عنها ، فلعلَّ منهم من يكون بقيَّةُ ذلك اللون أشهى عنده مما استحضروه ، أو بقيت فيه حاجةٌ إلى الأكل فيتنغَّص عليه بالمبادرة .

حكى عن السُّتورى ـ وكان صوفياً مزّاحاً ـ فحضر عند واحدٍ من أبناء الدنيا على مائدة ، فقُدِّم إليهم حَمَل ـ وكان فى صاحب المائدة بخل ـ فلما رأى القومَ مزَّقوا الحملَ كلَّ ممزَّقٍ ضاق صدرُه وقال : يا غلام ارفعْ إلى الصِّبيان . فرُفع الحملُ إلى داخل الدار ، فقام السُّتورى يعدو خلفَ الحمل ، فقيل له : إلى أين ؟ فقال : آكلُ مع الصبيان . فاستحيا الرجل وأمر بردِّ الحمل .

ومن هذا الفن أن لا يرفع صاحبُ المائدة يده قبل القوم ، فإنَّهم يستحيُون ، بل ينبغى أن يكون آخرَهم أكلًا .

الخامس : أن يقدِّم من الطعام قدرَ الكفاية ، فإنَّ التقليل عن الكفاية نقصٌ فى المروءة ، والزيادة عليه تصنُّعٌ ومراءاة .

فأمّا الانصراف : فله ثلاثة آداب :

الأول : أن يخرج مع الضَّيف إلى باب الدار ، وهو سُنَّة .

وقال عليه السلام . « إن من سُنَّة الضَّيف أن يُشَيَّع إلى باب الدار » .

الثانى : أن ينصرف الضيفُ طيِّبَ النفس وإن جرى فى حقِّه تقصير ، فذلك من حسن الخُلُق والتواضع .

الثالث : أنْ لا يخرجَ إلاَّ برضا صاحب المنزل وإذْنه ، ويراعى قلبه فى قدر الإقامة . وإذا نزل ضيفًا فلا يزيد على ثلاثة أيام فربَّما يتبرم به ويحتاج إلى إخراجه . قال صلى الله عليه وسلم : « الضِّيافة ثلاثة أيام ، فما زادَ فصدقة » . نَعمْ لو ألحَّ ربُّ البيت عليه عن خلوصِ قلب فله المُقام إذْ ذاك .

الكتاب الثاني

كتاب آداب النكاح

الباب الأول

في الترغيب في النِّكاح والترغيب عنه

أما من الآيات : فقد قال الله تعالى : (وأنكِحُوا الأَيامَى منكم » وهذا أمر . وقال تعالى : (فلا تَعْضُلوهُن أن يَنْكِحْنَ أزواجَهنّ) . وهذا منعٌ من العَضْل[1] ونَهيٌ عنه . وقال تعالى فى وصف الرسل ومدحهم : (ولقد أرسَلْنا رُسُلا مِنْ قَبلكَ وجَعلنا لَهُم أزواجاً وذُرِّيّة) . فذكر ذلك فى مَعرض الامتنان وإظهار الفضل . ومدح أولياءه بسؤال ذلك فى الدعاء فقال : (والذينَ يقُولونَ رَبَّنا هَبْ لنا منْ أزواجنا وذُرِّياتنا قُرَّةَ أعْيُنٍ) الآية .

وأما الأخبار فقوله صلى الله عليه وسلم . « النِّكاح سُنَّتى فمن رغِب عن سُنَّتى فقد رغب عنِّى » . وقال صلى الله عليه وسلم : « النكاح سُنَّتى ، فمن أحبَّ فِطْرَتى فلْيَسْتَنَّ بسنَّتى » . وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم : « تناكحوا تَكْثُرُوا فإنِّى أُبَاهى بكم يومَ القيَامة حتَّى بالسِّقْط[2] » .

وقال صلى الله عليه وسلم « من تركَ التزويج مخافة العَيْلةِ[3] فليس مِنَّا » .

---

(١) العضل : المنع من التزويج .
(٢) السقط : مثلثة : الولد لغير تمام .
(٣) العيلة : الفقر والحاجة .

وأما الآثار : فقال عمر رضى الله عنه : لا يَمنع من النكاح إلا عجزٌ أو فجور . فبيّنَ أنَّ الدِّين غيرُ مانع منه ، وحَصَر المانعَ فى أمرين مذمومين . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : لا يَتمُّ نُسُكُ الناسك حتَّى يتزوّج . يحتمل أنه جعله من النُّسك وتتمة له . ولكنّ الظاهر أنَّه أراد به أن لا يسلم قلبُه لغلبة الشَّهوة إلا بالتزويج ، ولا يتمّ النُّسك إلا بفراغ القلب .

وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول : لو لم يبق من عمرى إلاَّ عشرة أيام لأَحْببت أن أتزوَّجَ ، لكيلا ألقَى الله عَزَبًا .

وأما ما جاء فى الترغيب عن النكاح : فقد قال صلى الله عليه وسلم « خيرُ الناس بعد المائتين الخفيفُ الحاذِ ، الذى لا أهل له ولا ولد » .

وفى الخبر : « قِلَّةُ العيال أحد اليسارين ، وكثرتهم أحد الفقرَين » .

وقال الحسن رحمه الله : إذا أراد الله بعبدٍ خيراً لم يشغله بأهل ولا مال .

آفات النكاح وفوائده

وفيه فوائد خمسة :

الفائدة الأُولى : الولد ، وهو الأصل وله وُضع النكاح . والمقصود إبقاءُ النسل وأن لا يخلو العالمُ عن جنس الإنس .

وفى التوصُّل إلى الولد قُربةٌ من أربعة أوجه :

أما الوجه الأَول : فهو أدقُّ الوجوه وأبعدُها عن أفهام الجماهير ، وهو أحقُّها وأقواها عند ذوِى البصائر النافذة فى عجائب صنع الله تعالى ومَجارِى حكمه . وبيانه أنَّ السَّيِّد إذا سلَّم إلى عبده البذْر وآلاتِ الحرث وهيَّأَ له أرضاً مهيَّأَة للحراثة ، وكان العبد قادراً على الحِراثة ، ووكَّلَ به من يتقاضاه عليها ، فإنْ تكاسَلَ وعطَّل آلة الحرث وترك البذرَ ضائعاً

حتّى فسد ، ودفع الموكَّلَ عن نفسه بنوعٍ من الحيلة ، كان مستحقًا للمقت والعِتاب من سيِّده . واللهُ تعالى خَلَقَ الزَّوجين ، وخلق الذكر والأُنثيين ، وخلق النُّطفة فى الفَقار وهيَّأ لها فى الأُنثيين عُروقاً ومجارى وخلق الرَّحِمَ قراراً ومستودَعاً للنُّطفة ، وسلَّط متقاضِىَ الشَّهوة على كلٍّ واحدٍ من الذكر والأُنثى ؛ فهذه الأَفعال والآلات تشهد بلسان ذَلِقٍ فى الإِعرابِ عن مراد خالقها ، وتنادى أربابَ الأَلباب بتعريف ما أُعِدَّتْ له.

الوجه الثانى : السَّعى فى محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضاه ، بتكثير ما به مباهاته ، إذ قد صرَّح رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك .

الوجه الثالث : أن يُبقِىَ بعده ولداً صالحاً يدعو له كما ورد فى الخبر : « أنَّ جميعَ عمَلِ ابنِ آدم منقطعٌ إلاَّ ثلاثاً » . فذكر الولد الصالح .

الوجه الرابع : أن يموت الولدُ قبله فيكون له شفيعاً .

قال صلى الله عليه وسلم « مَنْ مات له ثلاثةٌ لم يبلغوا الحِنْث[1] أدخله الله الجنة بفضل رحمته إيَّاهم » . قيل يا رسول الله ، واثنانِ ؟ قال : « واثنان » .

الفائدة الثانية : التحصُّن من الشيطان وكسرُ التَّوَقان ، ودفع غوائل الشَّهوة ، وغضُّ البصر ، وحِفظ الفَرج ؛ وإليه الإشارة بقوله عليه السلام « من نَكَح فقد حصَّن نصفَ دينه فليتَّق الله فى الشَّطر الآخَر » . وإليه الإشارة بقوله : « عليكم بالباءة ، فمن لم يستطع فعليه بالصَّوم فإن الصَّوم له وِجاءٌ[2] » .

الفائدة الثالثة : ترويح النفس وإيناسُها بالمجالسة ، والنظر والملاعبة ، إراحةً للقلب ، وتقوية له على العبادة ، فإنَّ النفس مَلُول ، وهى عن

(١) الحنث : الإدراك والبلوغ . لأن فيه يكون الحنث ، أى المعصية والطاعة .

(٢) الباءة : الزواج . والوجاء ، أى كالوجاء . والوجء : أن ترض أنثيا الفحل رضاً شديداً يذهب شهوته .

الحق نَفُور ، لأنّه على خلاف طبعها ، فلو كُلِّفت المداومةَ بالإكراه على ما يخالفها جَمحت وثابت[1] . وإذا رُوِّحت باللّذات فى بعض الأوقات قويتْ ونشطت ، وفى الاستئناس بالنساء من الاستراحة ما يُزيل الكَرْب ويروِّح القلب . وينبغى أن يكون لنفوس المتَّقينَ استراحاتٌ بالمباحات ، ولذلك قال تعالى : (ليسكُنَ إليْهَا) . وقال على رضى الله عنه : راوِحوا القلوبَ ساعةً فإنَّها إذا أُكرِهَتْ عميَتْ . وفى الخبر : على العاقل أن يكون له ثلاثُ ساعات :ساعةٌ يناجى فيها ربَّه ، وساعة يحاسب فيها نفسَه ، وساعةٌ يخلو فيها بمطعمه ومشربه ؛ فإنَّ فى هذه الساعة عونًا على تلك الساعات.

الفائدة الرابعة : تفريغ القلب عن تدبير المنزل والتكفُّل بشُغل الطَّبخ والكنْس والفرش ، وتنظيف الأوانى ، وتهيئة أسباب المعيشة ؛ إذ لو تكفَّل بجميع أشغال المنزل لضاع أكثر أوقاته ، ولم يتفرَّغ للعلم والعمل ؛ فالمرأة الصالحة المُصلِحةُ للمنزل عَونٌ على الدين بهذه الطريق ، واختلالُ هذه الأسباب شواغلُ ومشوِّشات للقلب ، ومنغِّصات للعيش . ولذلك قال أبو سليمان الدَّارانى رحمه الله : الزَّوجة الصالحة ليست من الدنيا ، فإنها تفرِّغك للآخرة .

الفائدة الخامسة : مجاهدة النفس ورياضتُها بالرعاية والولاية ، والقيام بحقوق الأهل ، والصَّبر على أخلاقهن واحتمال الأذَى منهن ، والسَّعيِ فى إصلاحهنَّ وإرشادهن إلى طريق الدِّين ، والاجتهادِ فى كسب الحلال لأجلهنّ ، والقيام بتربيته لأولاده ،فكلّ هذه أعمالٌ عظيمة الفضل .

أما آفات النكاح فثلاث :

الأولى : وهى أقواها العَجْز عن طلب الحلال . فإن ذلك لا يتيسَّر

---

(1) ثابت . رجعت ، والمراد عادت إلى الباطل .

لكلِّ أحد ، لا سيَّما فى هذه الأوقات مع اضطراب المعايش ، فيكون النكاح سبباً فى التوسُّع للطلب ، والإطعام من الحرام .

الآفة الثانية : القصور عن القيام بحقِّهنَّ والصَّبر على أخلاقهن واحتمال الأذى منهن ، وهذه دون الأولى فى العموم ؛ فإنَّ القدرة على هذا أيسر من القُدرة على الأُولى . وتحسين الخُلق مع النساء والقيام بحظوظهنَّ أهونُ من طلب الحلال . وفى هذا أيضاً خطر ؛ لأنَّه راع ومسئولٌ عن رعيَّته . وقال عليه الصلاة والسلام : « كفى بالمرء إثماً أن يُضِيع مَن يَعُول[1] » .

ولذلك اعتذر بعضهم عن التَّزويج وقال : أنا مبتلى بنفسى وكيف أضيف إليها نفساً أخرى ؟ كما قيل :

لنْ يَسَعَ الفأْرةَ جُحْرُها علَّقت المِكْنَسَ فى دُبرها

وكذلك اعتذر إبراهيم بن أدهَمَ رحمه الله وقال : لا أَغُرُّ امرأةً بنفسى ، ولا حاجَة لى فيهنَّ – أى من القيام بحقِّهن وتحصينهنَّ وإمتاعِهنَّ – وأنا عاجزٌ عنه . وكذلك اعتذر بِشْرٌ وقال : يمنعنى من النِّكاح قوله تعالى : (ولهنَّ مثْلُ الذى عَلَيهنَّ) .

ورُئِيَ سفيان بن عُيينة رحمه الله على باب السُّلطان ، فقيل له : ما هذا موقفَك ! فقال : وهل رأيتَ ذا عيال أفلح ؟ وكان سفيان يقول :

يا حبذا العُزْبَة والمفتاح ومسكنٌ تَخرِقه الرِّياحْ

لا صَخَبٌ فيه ولا صِيَاح

الآفة الثالثة : وهى دون الأُولى والثانية : أن يكون الأهل والولد شاغلًا له عن الله تعالى ، وجاذباً له إلى طلب الدنيا وحسنِ تدبير المعيشة

(١) أضاع الشىء : أهمله وأهلكه ، كضيعه .

للأولاد ، بكثرة جمع المال وادِّخاره لهم ، وطلب التَّفاخر والتكاثر بهم. وكلٌّ ما شغل عن الله من أهلٍ ومال وولد فهو مشئوم على صاحبه .

فإن قلت : فلم تركَ عيسى عليه السلام النكاحَ مع فضله ؟ وإنْ كان الأَفضل التخلِّى لعبادة الله فلمَ استكثر رسولُنا صلى الله عليه وسلم من الأَزواج ؟

فاعلم أنَّ الأَفضلَ الجمعُ بينهما فى حقِّ من قَدَر ومن قويتْ مُنَّته[1] وعلت هِمَّته ، فلا يشغُله عن الله شاغل . ورسولنا عليه السلام أَخذ بالقوة وجمعَ بين العبادة والنكاح ، ولقد كان مع تسع من النسوة متخلِّياً لعبادة الله .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلوِّ درجته لا يمنعه أَمرُ هذا العالمَ عن حضور القلب مع الله تعالى ؛ فكان ينزلُ عليه الوحى وهو فى فراشِ امرأَته . فلا ينبغى أَن يُقاسَ عليه غيره . وأَما عيسى عليه السلام فإنه أَخذ بالحزم لا بالقوَّة ، ولعلَّ حالته كانت حالة يؤثِّر فيها الاشتغالُ بالأَهل ، أَو يتعذَّر معها طلبُ الحلال ، أَو لا يتيسَّر فيها الجمعُ بين النكاح والتخلِّى للعبادة ، فآثر التخلِّىَ للعبادة

وهم أَعلم بأَسرار أحوالهم . وأَحكام أَعصارهم ، فى طيب المكاسب وأَخلاق النساء .

---

(١) المنة ، بضم الميم القوة والقدرة .

الباب الثانى

فيما يراعي حالة العقد من أحوال المرأة وشروط العقد

أما العقد فأركانه وشروطه لينعقد ويفيد الحِلّ أربعة :

الأوّل : إذْن الولى ؛ فإن لم يكُنْ فالسلطان .

الثانى : رضا المرأة إن كانت ثيّبًا بالغاً ، أو كانت بكراً بالغاً ، ولكن يزوّجها غير الأب والجدّ .

الثالث : حضور شاهدَين ظاهرَيِ العدالة ، فإن كانا مستورين حكَمنا بالانعقاد ، للحاجة .

الرابع : إيجابٌ وقَبول متّصل به بلفظ الإنكاح أو التزويج أو معناهما الخاصّ بكلّ لسان ، من شخصين مكلّفين .

وأمّا المنكوحة فيعتبر فيها نوعان : أحدهما للحِلّ . والثانى لطيب المعيشة وحصول المقاصد :

النوع الأوّل : ما يعتبر فيها للحِلّ ، وهو أن تكون خليّة عن موانع النكاح . والموانع تسعة عشر :

الأوّل : أن تكون منكوحةً للغير .

الثانى : أن تكون معتدّة للغير سواءٌ كانت عِدّة وفاةٍ أو طلاق أو وطءِ شبهة ، أو كانت فى استبراء وطءٍ عن مِلك يمين .

الثالث : أن تكون مرتدّة عن الدين لجرَيانِ كلمةٍ على لسانها من كلمات الكفر .

الرابع : أن تكون مجوسيّة .

الخامس : أن تكون وثنية أو زنديقة لا تنسب إلى نبيّ وكتاب ، ومنهنّ المعتقدات لمذهب الإباحة ، فلا يحلّ نكاحهن. وكذلك كلّ معتقدة مذهباً فاسداً يحكم بكفرِ معتقدِه .

السادس : أن تكون كتابيّة قد دانت بدينهم بعد التبديل أو بعد مبعثِ رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومع ذلك فليست من نسب بنى إسرائيل . فإذا عَدِمت كلتا الخصلتين لم يحلّ نكاحها . وإن عدمت النسبَ فقط ففيه خلاف .

السابع : أن تكون رقيقةً والناكح حرًّا قادراً على طَوْل[1] الحرّة أو غير خائف من العنت .

الثامن : أن تكون كلُّها أو بعضها مملوكاً للناكح ملكَ يمين .

التاسع : أن تكون قريبةً للزوج ، بأَنْ تكون من أصوله أو فصوله ، أو فصول أول أصوله : أو من أوّل فصلٍ من كلّ أصل بعده أصل ، وأعنى بالأُصول : الأُمهات والجدَّات ، وبفصوله : الأَولاد والأَحفاد ، وبفصولِ أوّل أصوله : الإخوة وأولادهم، وبأَوّل فصلٍ من كل أصلٍ بعده أصلٌ : العمَّاتِ والخالاتِ دون أولادهنّ .

العاشر : أن تكون محرّمة بالرضاع . ويحرم من الرَّضاع ما يحرم من النسب من الأُصول والفصول .

الحادى عشرْ : المَحْرَم بالمصاهرة ، وهو أن يكون الناكح قد نكح ابنتَها أو جدَّتها أو ملَكَ بعقدٍ أو شُبهةِ عقدٍ من قبل ، أو وطئهنّ بالشبهة فى عقد ، أو وطىء أمّها أو إحدى جدّاتها بعقد أو شبهة عقد ، فمجرد العقد على المرأة يحرِّم أمهاتها ، ولا يحرِّم فروعَها إلّا بالوطء ، أو يكون قد نكَحَها أبوه أو ابنُه قبل .

(١) الطول ، بالفتح : القدرة على المهر .

الثانى عشر : أن تكون المنكوحة خامسة ، أى يكون تحت الناكح أربعٌ سواها ، إمّا فى نفس النكاح أو فى عِدّة الرجعة ، فإن كانت فى عدّة بينونةٍ لم تمنع الخامسة .

الثالثَ عشرَ : أن يكون تحت الناكح أختُها أو عمَّتُها أو خالتها ، فيكون بالنكاح جامعاً بينهما . وكلُّ شخصين بينهما قرابة لو كان أحدهما ذكراً والآخرة أنثى لم يجز بينهما النكاح ، فلا يجوز أن يجمع بينهما.

الرابع عشر : أن يكون هذا الناكح قد طلَّقَها ثلاثًا ، فهى لا تحلُّ له ما لم يطأْها زوجٌ غيره فى نكاح صحيح .

الخامسَ عشر : أن يكون الناكح قد لاعَنَها ، فإنَّها تحرُم عليه أبداً بعد اللِّعان .

السادس عشر : أن تكون مُحْرِمة بحجّ أوعمرة أو كان الزوج كذلك فلا ينعقد النكاح إلّا بعد تمام التحلل .

السابع عشر : أن تكون ثيِّبًا صغيرة ، فلا يصحُّ نكاحها إلّا بعد البلوغ .

الثامن عشر : أن تكون يتيمة ، فلا يصحّ نكاحها إلّا بعد البلوغ .

التاسعَ عشر : أن تكون من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن تُوُفِّيَ عنها أو دخَل بها ، فإنَّهنَّ أمّهات المؤمنين . وذلك لا يوجد فى زماننا .

أما الخِصال المطيِّبة للعيش التى لا بدَّ من مراعاتها فى المرأة ليدوم العقد وتتوفَّر مقاصده فثمانية :

الأُولى: أن تكون صالحةً ذاتَ دين ، فهذا هو الأَصل وبه ينبغى أن يقع الاعتناءُ .

الثانية : حُسن الخُلُق ، وذلك أصلٌ مهمٌّ فى طلب الفراغة والاستعانة

على الدين ؛ فإنَّها إذا كانت سليطةً بذيّة اللسان سيّئةَ الخُلُق ، كافرةً للنعم ، كان الضرر منها أكثرَ من النفع .

الثالثة : حُسْنُ الوجه ؛ فذلك أيضاً مطلوب ، إذ به يحصلُ التحصُّن. والطبع لايكتفي بالدَّميمة غالباً . كيف والغالب أنَّ حُسْن الخَلْق والخُلُق لا يفترقان .

وقال عليه الصلاة والسلام : « خيرُ نسائكم مَنْ إذا نظر إليها زوجُها سَرَّته ، وإذا أمَرَها أطاعته . وإذا غاب عنها حَفِظته في نفسها وماله ».

الرابعة : أن تكون خفيفةَ المهر . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خيرُ النساء أحسنهنّ وجوهاً ، وأرخصهن مهوراً » .

الخامسة : أن تكون المرأة وَلوداً ؛ فإن عرفت بالعُقْر فليمتنع عن تزوُّجها . قال عليه السلام : « عليكم بالولود الودود » . فإن لم يكن لها زوجٌ ولم يُعرف حالُها فيراعى صحَّتها وشبابها ، فإنها تكون ولوداً في الغالب مع هذين الوصفين .

السادسة : أن تكون بِكراً . قال عليه السلام لجابر ، وقد نكح ثيباً : « هَلاَّ بكراً تُلاعِبُها وتلاعبك » .

السابعة : أن تكون نسيبة . أعني أن تكون من أهل بيتِ الدِّين والصلاح ، فإنَّها ستربِّي بناتِها وبنيها ، فإذا لم تكن مؤدَّبة لم تحسن التأديب والتربية . ولذلك قال عليه السلام : « إيَّاكم وخضراء الدِّمَن » . فقيل : ما خَضْراءُ الدمن[1] ؟ قال : « المرأة الحسناءُ في المَنبِت السَّوء ». وقال عليه السلام : « تخيَّروا لنطفكم فإنَّ العِرقَ نزَّاع » .

الثامنة . أن لا تكون من القرابة القريبة .

---

(١) الدمن : جمع دمنة ، وهي الموضع القريب من الدار يلتبد فيه السرقين والبعر . جعل هذه المرأة شبها بما ينبت في الدمن الكلأ ، له غضارة ونضارة ، وهو وبيء المرعى منتن الأصل .

الباب الثالث

في آداب المعاشرة وما يجري في دوام النكاح

الأدب الأول : الوليمة ، وهى مُستحبَّة ، قال أنس رضى الله عنه : « رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه أثرَ صُفْرة فقال : « ما هذا » ؟ فقال : تزوَّجت امرأةً على وزن نواةٍ من ذهب[1] . فقال : « باركَ اللهُ لك ، أَوْلِمْ ولو بشاة » .

الأدب الثانى : حُسْنُ الخُلُق معهنَّ واحتمال الأذى منهنَّ ، ترحُّماً عليهن لقصور عقلهنَّ . قال الله تعالى : (وَعَاشِرُوهنَّ بالمَعْرُوف) . وقال فى تعظيم حقِّهنَّ : (وأَخَذْنَ مِنْكم مِيثاقاً غليظاً) . وآخر ما وصَّى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثٌ كان يتكلَّم بهنَّ حتى تَلَجْلَجَ لسانُه وخفِيَ كلامُه : جعل يقول : « الصَّلاَةَ الصلاة ، وما ملكَتْ أيمانُكم لا تُكلِّفوهم ما لا يُطيقون . اللهَ اللهَ فى النِّساء فإنهنَّ عَوَانٍ فى أيديكم - يعنى أسراء - أخذتموهنَّ بأمانة الله ، واستحللتم فُروجَهنَّ بكلمة الله » .

الثالث : أن يزيد على احتمال الأذى ، بالمداعبة والمزح والملاعبة ؛ فهى التى تطيِّب قلوبَ النساء ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح معهنَّ ويَنْزل إلى درجاتِ عقولهن فى الأعمال والأخلاق ، حتَّى رُوى أنَّه صلى الله عليه وسلم كان يسابقُ عائشةَ فى العدْو ، فسبقتْه يومًا،

---

(١) النواة : الأوقية من الذهب ، أو أربعة دنانير .

وسبقَها فى بعض الأيام ؛ فقال عليه السلام : « هَذِهِ بِتِلْكَ » .

وقال عمر رضى الله عنه مع خشونته : ينبغى للرجُل أن يكون فى أهله مثلَ الصبىِّ ؛ فإذا التمسوا ما عندَه وُجِد رجُلًا .

الرابع : أن لا يتبسَّط فى الدُّعابة وحسن الخلق والموافقةِ باتِّباع هواها إلى حدٍّ يُفسدُ خُلقَها ويُسقِط بالكلِّية هَيْبتَه عندها ، بل يُراعى الاعتدال فيه .

وقد قال عليه السلام: « تَعِسَ عَبْدُ الزَّوجة » . وإنَّما قال ذلك لأنَّه إذا أطاعها فى هواها فهو عبدُها .

وكانت نِساءُ العرب يعلِّمن بناتِهِنَّ اختبارَ الأزواج ، وكانت المرأة تقول لابنتها : اختبرى زوجَكِ قبل الإقدام والجراءة عليه : انزِعى زُجَّ رمحه[1] ، فإنْ سكتَ فقطِّعي اللَّحمَ على تُرسه ، فإن سكتَ فكسِّرى العظام بسَيفه ، فإن سكت فاجعلى الإِكافَ[2] على ظهره وامتَطِيهِ ، فإنَّما هو حمارُك . وعلى الجملة فبالعدل قامت السموات والأرض ؛ فكلُّ ما جاوز حدَّه انعكس على ضده .

الخامس : الاعتدال فى الغَيْرَة : وهو أن لا يتغافل عن مبادى الأمور التى تُخشَى غوائلُها ، ولا يبالغَ فى إساءة الظنّ والتعنُّت وتجسُّس البواطن ؛ فقد نهى رسوله الله صلى الله عليه وسلم أن تُتَّبع عوراتُ النِّساء.

وقال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ من الغيْرة غَيْرةً يُبغضها الله عزَّ وجل وهى غيرة الرجُل على أهله من غير رِيبة » ؛ لأَنَّ ذلك من سُوء الظَّنِّ الذى نُهينا عنه ؛ فإنَّ بعض الظنّ إثم .

وأما الغَيرة فى محلِّها فلا بدَّ منها . وهى محمودة .

---

(١) زج الرمح : هو الحديدة فى أسفله .
(٢) إكاف الحمار : برذعته .

السادس : الاعتدال فى النفقة ، فلا ينبغى أن يقتّر عليهن فى الإنفاق ولا ينبغى أن يسرف ، بل يقتصد .

وأهم ما يجب عليه مراعاته فى الإنفاق أن يطعمها من الحلال ، ولا يَدخُلَ مَداخل السّوء لأجلها ، فإن ذلك جناية عليها لا مراعاةٌ لها .

السابع : أن يتعلّم المتزوّج من عِلم الحيض وأحكامه ما يحترز به الاحترازَ الواجب ، ويعلّم زوجتَه أحكَام الصلاة وما يُقضَى منها فى الحيض وما لا يقضى .

الثامن : إذا كان له نِسوةٌ فينبغى أن يعدل بينهنّ ، ولا يميلَ إلى بعضهنَّ ؛ فإن خرج إلى سفر وأراد استصحاب واحدة أقرع بينهنّ[1] . كذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإنْ ظلمَ امرأةً بليلتها قضَى لها ؛ فإن القضاء واجبٌ عليه .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن كان له امرأتان فمال إلى إحداهما دونَ الأُخرى ، جاءَ يومَ القيامة وأَحَدُ شِقَّيْه مائِل » . وإنّما عليه العدل فى العطاء والمبيت ؛ وأما فى الحبّ فذلك لا يدخل تحت الاختيار . قال الله تعالى : (ولن تَستَطِيعُوا أن تَعْدِلوا بين النساء ولو حَرَصْتم) ، أى لا تعدلوا فى شَهوة القلب وميل النفس .

التاسع : فى النُّشوز . ومهما وقع بينهما خصامٌ ولم يلتئِم أمرهُما ؛ فإن كان من جانبهما جميعاً أو من الرجل فلا تُسلَّطُ الزوجةُ على زوجها ولا يُقدر على إصلاحها فلا بُدَّ من حَكَمَين : أحدهما من أهله والآخر

---

(١) أى أجرى القرعة . وقد تكلمت على القرعة بإسهاب فى كتابى (الميسر والأزلام) فارجع إليه .

من أهلها لينظرا بينهما ويُصلحا أمرهما (إنْ يُرِيدا إصلاَحاً يُوَفِّقِ اللهُ بينهما) . وقد بعث عمر رضى الله عنه حكمًا إلى زوجَيْن ، فعاد ولم يُصلح أمرهما ، فعلاه بالدِّرّة وقال : إن الله تعالى يقول : (إنْ يريدا إصْلاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بينهما) ، فعاد الرجُل وأحسن النيَّة وتلَطَّفَ بهما فأصلح بينهما .

العاشر : فى آداب الجماع .

قال عليه السلام : «لو أنَّ أحدَكم إذا أتَى أهله قال : اللهم جَنِّبْنِى الشَّيطانَ وجنِّبِ الشَّيطانَ مارزقتَنا ، فإن كان بينهما ولدٌ لم يضرَّه الشيطان» .

وليقدِّم التلطُّف بالكلام والتقبيل . قال صَلى الله عليه السلام : « لا يقعنَّ أحدُكم على امرأته كما تَقعُ البهيمة ، وليكن بينهما رسولٌ » قيل : وما الرسول يا رسول الله ؟ قال : « القُبلة والكلام » .

ثم إذا قضَى وَطَرَه فليتمهَّلْ على أهله حتى تقضِيَ هى أيضاً نَهْمتَها .

الحادى عشر : فى آداب الولادة وهى خمسة :

(الأول) أن لا يكثر فرحَه بالذكر وحزنه بالأُنثى ، فإنَّه لا يدرى الخِيرَة له فى أيِّهما .

(الأدب الثانى) أن يؤذِّن فى أذن الولد : رَوى رافع عن أبيه قال : « رأيت النبى صلى الله عليه وسلم قد أذَّن فى أُذن الحسن حين ولدته فاطمة رضى الله عنها » .

(الأدب الثالث) أن يُسمِّيَه اسماً حسناً ، فذلك من حقِّ الولد . والسِّقط ينبغى أن يسمَّى .

(الأدب الرابع) العقيقة[1] عن الذكر بشاتين ، وعن الأُنثى بشاة ذكرًا كان أو أُنثى .

---

(١) العقيقة : الذبح عن المولود .

(الخامس) أن يحنِّكه بتمرةٍ أو حلاوة .

الثانى عشر : فى الطلاق ، وليعلم أنه مباح ، ولكنَّه أبغض المُباحات إلى الله تعالى ، وإنما يكون مباحاً إذا لم يكن فيه إيذاء بالباطل .

قال الله تعالى : (فإن أَطَعْنَكُم فلا تَبْغُوا عليهنَّ سَبيلا) .

ثم ليراع الزوجُ فى الطلاق أربعةَ أمور :

الأول : أن يطلِّقها فى طُهْرٍ لم يجامعها فيه .

الثانى : أن يقتصر على طَلقةٍ واحدة ، فلا يجمع بين الثلاث ، لأنَّ الطلقة الواحدة بعد العِدَّة تفيد المقصود ويستفيد بها الرجعةَ إن ندِم فى العدّة ، وتجديدَ النكاح إنْ أراد بعد العدة .

الثالث : أن يتلطَّف فى التعلُّل بتطليقها من غير تعنيف واستخفاف وتطييب قلبها بهديَّةٍ على سبيل الإمتاع والجبر ، لما فَجَعها به من أذى الفراق .

الرابع : أن لا يُفْشِيَ سرَّها لا فى الطلاق ولا عند النكاح ، فقد ورد فى إفشاء سرِّ النساء فى الخَبر الصحيح وَعِيدٌ عظيم . ويروى عن بعض الصالحين أنَّه أراد طلاق امرأة ، فقيل له : ما الذى يريبُك فيها؟ فقال : العاقلُ لا يَهتِك سترَ امرأته . فلمَّا طلقها قيل له : لم طلَّقتها ؟ فقال : مالى ولامْرأةِ غيرى .

القسم الثانى من هذا الباب

النظر فى حقوق الزَّوْج عليها

وقد ورد فى تعظيم حق الزَّوج عليها أخبارٌ كثيرة :

قال صلى الله عليه وسلم : « أيُّما امرأةٍ ماتت وزوجُها عنها راضٍ دخلت الجنة » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اطَّلعتُ فى النار فإذا أكثرُ أهلها النِّساء، فقلن : لم يا رسول الله ؟ قال : « يُكْثِرن اللَّعْنَ ويَكْفُرْنَ العشير » . ويعنى الزوجَ المعاشر .

ومن حقِّه أن لا تُعطِىَ شيئًا من بيته إلَّا بإذنه ، فإن فعلتْ ذلك كان الوِزر عليها والأَجرُ له . ومن حقِّه أن لا تصوم تطوُّعاً إلاَّ بإذنه .

فحقوق الزوج على الزوجة كثيرة ، وأهمها أمران ، أَحدُهما :الصيانة والسَّتر . والآخر : ترك المطالبة بما وراء الحاجة ، والتعفُّف عن كسبه إذا كان حراماً . وهكذا كانت عادة النساء فى السَّلَف : كان الرجل إذا خرجَ من منزله تقول امرأته أو ابنته : إيّاك وكسْبَ الحرام ، فإنَّا نصبر على الجوع والضُّر ولا نَصبِرُ على النار .

ومن الواجبات عليها : أن لا تفرِّط فى ماله بل تحفظُه عليه .

فالقول الجامع لى آداب المرأة منْ غير تطويل : أن تكون قاعدةً فى قعر بيتها ، لازمةً لِمَغزلها ، لا يَكثرُ صعوُدها واطِّلاعها ، قليلةَ الكلام لجيرانها ، لا تدخل عليهم إلَّا فى حالٍ يوجب الدخُول ، تحفظ بعْلَها فى غَيبته ، وتطلب مسرّته فى جميع أُمورها ، ولا تَخُونه فى نفسها وماله ، ولا تخرج من بيتها إلَّا بإذنه . لا تتعرَّفُ إلى صديق بعلِها فى حاجاتها ، همُّها صلاح شأْنها وتدبير بيتها ، مقبلةً على صلاتها وصيامها .

وتكون قانعة من زوجها بما رزَق الله ، وتقدِّم حقَّه على حقِّ نفسها وحقِّ سائر أقاربها ، متنظِّفة فى نفسها ، مستعدّة فى الأَحوال كلها للتمتُّع بها إن شاء ، مشفقةً على أولادها ، حافظةً للسَّتر عليهم ، قصيرةَ اللسان عن سبِّ الأَولاد ومراجعةِ الزَّوج .

ومن آدابها : أن لا تفاخر على الزَّوج بجمالها ، ولا تزدرى زوجَها لقبحه ؛ فقد رُوى أنَّ الأَصمعى قال : دخلت الباديةَ فإذا أنا بامرأةٍ من

أحسنِ الناس وجْهاً تحت رجُلٍ من أقبح الناس وجْهاً ، فقلت لها : يا هذه، أترضَين لنفسك أن تكونى تحت مثلِه ؟ فقالت : يا هذا اسكتْ لقد أسأْتَ فى قولك ، لعلّه أحسَنَ فيما بينه وبين خالقه فجعلَنى ثوابه ، أو لعلّى أسأْتُ فيما بينى وبين خالقى فجعَلهُ عُقوبتى .

ومن آداب المرأة ملازمةُ الصَّلاح والانقباض فى غيبة زوجها ، والرجوع إلى اللّعبِ والانبساط وأسباب اللّذة فى حضور زَوجها .

ومما يجب عليها من حقوق النكاح إذا مات زوجُها أن لا تُحِدَّ عليه أكثر من أربعة أشهر وعَشْرٍ ، وتتجنّب الطِّيب والزينة فى هذهِ المدة.

الكتاب الثالث

كتاب آداب الكسب والمعاش

الباب الأول

في فضل الكسب والحث عليه

أمّا من الكتاب فقوله تعالى : (وَجَعَلْنَا النَّهارَ معاشاً) فذكَره فى معرض الامتنان. وقال تعالى : (وجَعَلْنا لكم فيها مَعَايِشَ قليلاً ماتشكرون) فجعلها ربُّك نعمةً ، وطَلَبَ الشكرَ عليها .

وقال تعالى : (وآخَرُون يَضرِبون فى الأَرض يَبتغونَ مِنْ فَضْل الله).

وقال تعالى : (فانتشِرُوا فى الأَرض وابتَغُوا مِن فَضْل الله) .

وأما الأَخبار ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « مِن الذنوب ذنوبٌ لا يكفِّرها إلا الهمُّ[1] فى طلب المعيشة» . وقال عليه الصلاة والسلام : « التاجرُ الصَّدوقُ يُحشَرُ يوم القيامة مع الصِّدِّيقين والشُّهداء » .

ورُوى أنَّ عيسى عليه السلام رأى رجُلاً فقال : ما تَصْنع ؟ قال : أتعبَّد . قال : مَن يَعُولُك ؟ قال : أخى . قال : أخوكَ أَعْبَدُ منك .

وأما الآثار ؛ فقد قال لقمان الحكيم لابنه : يا بُنَى ، استغنِ بالكسب

---

(١) الهم : العزم .

الحلال عن الفقر ؛ فإنه ما افتقر أحدٌ قطُّ إلا أصابه ثلاثُ خصال : رقّة فى دِينه ، وضَعفٌ فى عقله ، وذَهابُ مروءته ، وأعظَم من هذه الثلاث : استخفافُ الناس به .

وقال عمر رضى الله عنه : لا يَقْعُدْ أحدُكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقنى ، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة .

وكان زيد بنُ مَسْلَمة يغرس فى أرضه ، فقال له عمر رضى الله عنه : أصَبْتَ ، استغْنِ عن الناس يكنْ أصْوَنَ لدينك وأكرمَ لك عليهم ، كما قال صاحبُكم أحيحة :

فلن أزالَ على الزّوْراء أعْمُرُها إنَّ الكريمَ على الإخْوان ذُو المالِ[1]

وسُئِل إبراهيم[2] عن التّاجر الصَّدوق ، أهو أحبُّ إليك أم المتفرِّغ للعبادة ؟ قال : التاجر الصَّدوق أحبُّ إلىَّ ؛ لأنَّه فى جهاد ، يأْتيه الشيطانُ من طريق المكيال والميزان ، ومن قِبَل الأخذِ والعطاء ، فيجاهِدُه .

---

(١) الزوراء : أرض كانت له بالمدينة .

(٢) هو إبراهيم بن يزيد بن الأسود النخعى المتوفى سنة ٩٦ .

الباب الثانى

في علم الكسب بطريق البيع والربا والسَّلَم والإجارة والقراض والشركة

العقد الأول : البيع

وقد أحله الله تعالى . وله ثلاثة أركان :

الركن الأول : العاقد ، ينبغى للتاجر أن لا يُعامل بالبيع أربعة : الصَّبيّ ، والمجنون ، والعَبْد ، والأعْمَى ، لأنَّ الصَّبى غير مكلَّف ، وكذا المجنون .

الركن الثانى : فى المعقود عليه : وهو المال المقصود نقلُه من أحد العاقِدَين إلى الآخَر ثمناً كان أو مثمَّناً . فيعتبر فيه ستة شروط :

الأول : أن لا يكون نجساً فى عينه ، فلا يصح بيع كلب وخنزير .

الثانى : أن يكون منتفَعاً به ، فلا يجوز بيع الحشرات ولا الفأرة ولا الحيَّة .

ويجوز بيع الطُّوطى ، وهى الببغاء ، والطاوس ، والطيور المليحة الصُّوَر وإن كانت لا تُؤْكل ، فإن التفرُّج بأصواتها والنظرَ إليها غرضٌ مقصود مباح ، وإنَّما الكلب هو الذى لا يجوز أن يُقتَنَى إعجاباً بصورته لنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه .

الثالث : أن يكون المتصرَّفُ فيه مملوكاً للعاقد ، أو مأذوناً من جهة المالك .

الرابع : أن يكون المعقود عليه مقدوراً على تسليمه شرعاً وحِسًّا ؛ فما لا يُقْدَر على تسليمه حسًّا لا يصحُّ بيعه : كالآبق ، والسَّمكِ في الماء، والجنين في البطن ، وعَسْب الفَحل . وكذلك بيع الصُّوف على ظهر الحيوان ، واللبن في الضَّرع لا يجوز . والمعجوز عن تسليمه شرعًا كالمرهون، والموقوف ، والمستولَدة فلا يصحّ بيعها أيضاً ، وكذا بيع الأُمِّ دون الولد إذا كان الولد صغيراً .

الخامس : أن يكون المبيع معلومَ العين والقدر والوصف .

السادس : أن يكون المبيع مقبوضاً إن كان قد استفاد مِلكَه بمعاوضة وهذا شرطٌ خاصٌّ . وقد نَهَى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بَيْع ما لم يُقبَض .

الركن الثالث : لفظ العقد ؛ فلا بد من جَرَيان إيجابٍ وقَبول متَّصل به . بلفظٍ دالٍّ على المقصود ، مُفْهِم ، إمّا صريح أو كناية .

العقد الثانى : عقد الربا

وقد حَرَّمه الله تعالى وشدَّد الأَمر فيه ، ويجب الاحتراز منه على الصيارفة المتعامِلين على النَّقدين ، وعلى المتعاملين على الأَطعمة ، إذْ لا ربا إلاَّ فى نقد أو فى طعام ، وعلى الصَّيرفىِّ أن يحترز من النَّسيئَة والفضل . أما النَّسيئة فأَنْ لا يبيعَ شيئاً من جواهر النَّقدين بشىء من جواهر النقدين إلا يداً بيد ، وهو أن يجرى التقابضُ فى المجلس .

وأما الفضلُ . فيحترز منه فى ثلاثة أُمور : فى بيع المكسَّر بالصحيح .

فلا تجوز المعاملة فيهما إلّا مع المماثلة . وفى بيع الجيِّد بالردىء ، فلا ينبغى أن يشترى رديئًا بجيِّدٍ دونه فى الوزن ، أو يبيع رديئًا بجيِّد فوقه فى الوزن ، أعنى إذا باع الذهَب بالذهب والفضة بالفضة . فإن اختلف الجنسان فلا حَرَجَ فى الفضل .

وأما المتعاملون على الأَطعمة فعليهم التقابضُ فى المجلس ، اختلف جنس الطعام المبيع والمشترى أو لم يختلف ؛ فإن اتّحد الجنسُ فعليهم التقابضُ ومراعاة المماثلة .

العقد الثالث : السلم

وليُراعِ التاجرُ فيه عشرةَ شروط :

الأول : أن يكون رأس المال معلوماً على مثله حتّى لو تعذّر تسليم المُسلم فيه أمكن الرجوعُ إلى قيمة رأس المال .

الثانى : أن يُسْلِمَ رأسَ المال فى مجلس العقد قبل التفرّق .

الثالث : أن يكون المُسلَم فيه مما يمكن تعريفُ أوصافه ، كالحبوب والحيوانات ، والمعادِن ، والقُطن ، والصُّوف .

ولا يجوز فى المعجونات والمركَّبات ، وما تختلف أجزاؤه كالقسىّ المصنوعة ، والنَّبْل المعمول .

الرابع : أن يَستقصِيَ وصفَ هذه الأُمور القابلة للَوصف .

الخامس : أن يَجعَل الأَجَل معلوماً إنْ كان مؤجَّلًا ، فلا يؤجَّل إلى الحصاد ، ولا إلى إدراك الثمار ، بل إلى الأَشْهُر والأَيام .

السادس : أن يكونَ المُسْلَم فيه مما يُقدر على تسليمه وقت المَحَلّ ويُؤْمن فيه وجودُه غالباً .

السابع : أن يَذكُرَ مكانَ التسليم .

الثامن : أن لا يعلِّقه بمعيَّن فيقول : من حنطة هذا الزرع ، أو ثمرة هذا البستان .

التاسع : أن لا يُسلِم فى شيء نفيس عزيز الوجود ، مثل دُرَّة موصوفة يعزُّ وجودُ مثلها .

العاشر : أن لا يُسْلِمَ فى طعامٍ مهما كان رأس المال طعاماً .

ولا يُسْلِم فى نقد إذا كان رأس المال نقداً .

العقد الرابع : الإجارة

وله ركنان : الأُجرة ، والمنفَعة .

والأُجرة كالثمن ، فينبغى أن يكون معلوماً وموصوفاً بكل ما شرطناه فى المبيع .

الركن الثانى : المنفعةُ المقصُودة بالإجارة .

فليراع فى العمل المستأْجر عليه خمسةَ أمور :

الأَول : أن يكون متقوّماً ، بأَن يكون فيه كُلفة وتعب ، فلو استأْجر طعاماً ليزيِّن به الدكان ، أَو أشجاراً ليجَفِّف عليها الثياب ، أو دراهم ليزين بها الدكان ، لم يَجُزْ ؛ فإِنَّ هذه المنافعَ تجرى مَجرى حَبة سمسم ، وحبة بُرّ من الأَعيان ، وذلك لا يجوز بَيْعه ، وهى كالنظر فى مرآة الغير والشرب من بئره ، والاستظلال بجداره ، والاقتباس من ناره .

الثانى : أن لا تتضمن الإجارة استيفاء عين مقصودة ، فلا يجوز إجارة الكرم لارتفاقه ، ولا إجارَةُ المواشى لِلَبَنِها .

الثالث : أن يكون العمل مقدوراً على تسليمه حسًّا وشرعاً . فلا يصح استئجار الضعيف على عملٍ لا يقدر عليه ، ولا استئجارُ الأخرس على التَّعليم ونحوه ، أو استئجارَ الحائض على كَنْس المسجد .

الرابع : أن لا يكون العمل واجباً على الأجير ، أو لا يكون بحيث لا تجرى النيابةُ فيه عن المستأجر ، فلا يجوز أخذُ الأُجرة على الجهاد ولا على سائر العبادات التى لا نيابةَ فيها .

الخامس : أن يكون العمل والمنفعة معلوماً . فالخيَّاط يُعرف عملهُ بالثوب ، والمعلِّم يُعرف عملُه بتعيين السُّورة ومقدارها .

العقد الخامس : القراض

ولْيُرَاعَ فيه ثلاثةُ أركان :

الركن الأول : رأس المال ، وشرطه أن يكون نقدًا معلوماً مسلَّماً إلى العامل .

الركن الثانى : الربح ، وليكن معلوماً بالجزئية . بأن يشترط له الثلث أو النصف أو ماشاء .

الثالث : العمل الذى على العامل . وشرطه أن يكون تجارةً غير مضيَّقةٍ عليه بتعيين وتأْقيت ؛ فلو شرط أن يشترى بالمال ماشيةً ليطلب نسلها فيتقاسمان النَّسل ، أو حنطةً فيخبزها ويتقاسمان الربح ، لم يصحَّ

العقد السادس : الشركة

وهى أربعة أنواع . ثلاثة منها باطلة[١] .

الأول : شركة المفاوضة ، وهو أن يقولا : تفاوضنا لنشتركَ فى كلّ مالَنَا وعلينا ، ومالاهما ممتازان . فهى باطلة .

الثانى : شركة الأبدان ، وهو أن يتشارطا الاشتراك فى أجرة العمل . فهى باطلة .

الثالث : شركة الوجوه ، وهو أن يكون لأحدهما حشمةٌ وقول مقبول ، فيكون من جهته التنفيل[٢] ومن جهة غيره العمل ، فهذا أيضاً باطل .

وإنّما الصحيح العقد الرابع المسمّى شركة العِنان[٣] . وهو أن يختلط مالاهما بحيث يتعذّر التمييز بينهما إلّا بقسْمه ، ويأْذن كلٌّ واحد منهما لصاحبه فى التصرُّف ، ثم حكمهما توزيع الرِّبح والخُسران على قدر المالين ، ولا يجوز أن يغيَّر ذلك بالشرط

ثم بالعزل يمتنع التصرف عن المعزول . وبالقسمة ينفصل المِلكُ عن الملك . والصحيح أنه يجوز عقد الشركة على العُروض المشتراة ، ولا يشترط النقد ، بخلاف القراض

---

(١) هذا فى مذهب الشافعى فحسب

(٢) يقصد بالتنفيل هاهنا الترويج والزيادة

(٣) سميت بذلك لمعارضة كل واحد منهما صاحبه بمال مثل ماله وعمل مثل عمله ، بيعاً وشراء . يقال عانه عناناً كما يقال عارضه معارضة .

الباب الثالث

في بيان العدل واجتناب الظلم في المعاملة

القسم الأول
فيما يعم ضررُه . وهو أنواع :

النوع الأول : الاحتكار ؛ فبائع الطعام يدَّخر الطعام ينتظر به غلاء الأسعار ، وهو ظلمٌ عامٌّ ، وصاحبه مذموم فى الشرع .

وعن على رضى الله عنه : من احتكر الطعام أربعين يوماً قَسَا قلبُه . وعنه أيضاً أنَّه أحرق طعام مُحتكِر بالنَّار .

النوع الثانى : ترويج الزَّيف من الدراهم فى أثناء النقد ، فهو ظلم ، إذْ يستضرُّ به المُعامِل إن لم يعرف ، وإنْ عرف فسيروِّجه على غيره ؛ فكذلك الثالث والرابع ، ولا يزال يتردَّد فى الأيدى ويعم الضرر ويتَّسع الفساد ، ويكون وِزر الكلِّ ووبالُه راجعاً عليه ، فإنه هو الذى فتح هذا الباب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سَنَّ سُنَّةً سيئة فعمِل بها مَنْ بعده كان عليه وِزْرُها ومثلُ وِزْرِ مَنْ عَمِل بها ، لا ينْقصُ من أوزارِهم شيئاً » . وقال بعضهم : إنفاق درهمٍ زيْف أشدُّ من سرقة مائة درهم ؛ لأنَّ السَّرقة معصية واحدةٌ وقد تمت وانقطعت ، وإنفاق الزَّيف بدعةٌ أظهرها فى الدين ، وسنَّةٌ سيئةٌ يعمل بها من بعده ، فيكون عليه وزرها بعد موته إلى مائة سنة ، أو مائتى سنة . . إلى أن يفنى ذلك الدِّرهم

القسم الثانى
ما يخص ضرره المعامل

والضابطُ الكلِّىُّ فيه : أنْ لا يُحبَّ لأخيه إلَّا ما يُحبُّ لنفسه ؛ فكلُّ ما لو عُومِل به شَقَّ عليه وثَقُل على قلبه فينبغى أن لا يُعامِل غيره به.

فأما تفصيله فنى أربعة أمور : أنْ لا يُثْنِىَ على السلعة بما ليس فيها ، وأن لا يكتم من عيوبها وخفايا صفاتها شيئًا أصلاً ، وأن لا يكتمَ فى وزنها ومقدارها شيئًا ، وأنْ لا يكتمَ مِن سِعرها مالَوْ عرفهُ المُعامل لامتنع عنه :

أما الأول : فهو ترك الثَّناء ؛ فإنَّ وصفَه للسلعة إنْ كان بما ليس فيها فهو كَذِبٌ ، فإن قَبِل المشترى ذلك فهو تلبيس وظلم مع كونه كَذِبًا ، وإنْ لم يقبَل فهو كذِبٌ وإسقاطُ مروءة .

الثانىَ : أن يُظهِرَ جميع عيوب المبيع خَفيَّها وجليَّها ولا يكتم منها شيئًا ، فذلك واجبٌ ، فإنْ أخفاه كان ظالماً غاشًّا ، والغشُّ حرام ؛ وكان تاركًا للنُّصح فى المعاملة ، والنصحُ واجب . ومهما أظهر أحسن وجهى الثوب وأخفى الثانى كان غاشًّا ، وكذلك إذا عرض الثيابَ فى المواضع المظلمة ، وكذلك إذا عرض أحسن فَردَى الخُفِّ أو النَّعل وأمثاله . ويدل على تحريم الغش ما روى : أنَّه مرَّ عليه الصلاة والسلام برجلٍ يبيع طعاماً فأعجبه ، فأدخل يدهُ فيه فرأى بلَلاً ؛ فقال : « ما هذا ؟ » قال : أصابتْهُ السماءُ . فقال : « فهلاَّ جعلْتَهُ فوق الطَّعام حتَّى يراهُ الناس؟! منْ غَشَّنَا فليس مِنَّا » .

الثالث : ألَّا يكتم فى المقدار شيئًا ، وذلك بتعديل الميزان والاحتياط فيه وفى الكيل ؛ فينبغى أن يكيل كما يَكْتال . قال الله تعالى : (ويْلٌ

لِلْمُطَفِّفِين * الَّذِين إذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوفُون * وإذَا كَالُوهُم أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُون) . ولا يخلص من هذا إلا بأن يُرْجِحَ إذا أعطى ، ويُنْقِص إذا أَخذ ؛ إذ العدلُ الحقيقى قلَّما يُتصوَّر ، فلْيستظهر بظهور الزيادة والنقصان[1] ؛ فإنّ من استَقصَى حقَّه بكماله يُوشك أن يتعدّاه . وكان بعضهم يقول : لا أشترى الويل من الله بحبّةٍ . فكان إذا أخذ نقص نِصف حبَّة ، وإذا أَعْطَى زاد حبَّة ، وكان يقول : ويْلٌ لمن باع بحبّةٍ جنةً عرْضُها السموات والأرضُ ، وما أخسر من باعَ طُوبَى بوَيْل .

الرابع : أن يصدُقَ فى سعر الوقت ولا يُخْفِىَ منه شيئًا ؛ فقد نهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن تَلَقِّى الرُّكبان ، ونَهَى عن النَّجْش . أمّا تلقّى الركبان ، فهو أنْ يستقبلَ الرُّفقة ويتلقَّى المتاعَ ويكْذبَ فى سِعر البلد .

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النَّجْش ، وهو أن يتقدَّم إلى البائع بين يدى الراغب المشترى ويطلب السلعة بزيادة وهو لا يريدها . وإنما يريد تحريكَ رغبةِ المشترى فيها ؛ فهذا إن لم تَجْرِ مواطأةٌ مع البائع فهو فعلٌ حرامٌ من صاحبِه والبيع منعقد ؛ وإنْ جرى مواطأة ففى ثبوت الخيار خلاف ، والأَولى إثبات الخيار ، لأنَّه تغريرٌ بفعل يضاهى التغرير فى المُصَرَّاة[2] ، وتلقِّى الركبان .

---

(١) استظهر بالشىء : استعان به

(٢) المصراة : هى الناقة أو البقرة أو الشاة يصرى اللبن فى ضرعها ، أى يحبس ، وذلك بترك حلبها أياماً ، فيكون ذلك خداعاً للمشترى

الباب الرابع

في الإحسان في المعاملة

وقد أمر اللهُ تعالى بالعدل والإحسان جميعاً . والعدلُ سببُ النجاةِ فقط ، وهو يجرى من التجارة مجرَى رأس المال . والإحسانُ سببُ الفوز ونيْلِ السعادة ، وهو يَجْرى من التجارة مجْرى الربح . ولا يُعدُّ من العقلاء مَنْ قَنع فى معاملات الدنيا برأس ماله ، فكذا فى معاملات الآخِرة فلا ينبغى للمتديِّن أن يقتصر على العدل واجتناب الظلم ويدعَ أبواب الإحسان .

وتُنَالُ رتبة الإحسان بواحد من ستة أمور :

الأولُ : فى المغابنةِ ، فينبغى أن لا يغبن صاحبه بما لا يُتغابن به فى العادة .

فإنْ بذَل المشترِى زيادةً على الربح المعتاد ، إما لشدَّة رغبته أو لشدَّة حاجته فى الحال إليه ، فينبغى أن يمتنع من قبوله ، فذلك من الإحسان .

الثانى : فى احتمال الغَبْن ؛ والمشترى إن اشترى طعاماً من ضعيف ، أو شيئاً من فقير ، فلا بأس أن يحتمل الغَبْن ويتساهل ، ويكون به محسناً وداخلاً فى قوله عليه السلام : « رحِم اللهُ امْرأ سهْل البيْع ، سهْل الشِّراء » . فأمّا إذا اشترى من غنيٍّ تاجرٍ يطلب الربح زيادةً على حاجته ، فاحتمال الغَبْن منه ليس محموداً ، بل هو تضييع مالٍ من غير أجر ولا حمد .

الثالث : فى استيفاء الثمن وسائرِ الديون . والإحسانُ فيه : مرّةً بالمسامحة وحطٌّ البعض ، ومرّةً بالإمهال والتأخير ، ومرّةً بالمساهلة فى

طلب جودة النَّقْد . وكلٌّ ذلك مندوبٌ إليه ومحثوثٌ عليه . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « رحِم الله امرأً سهْل البيع ، سهْل الشراء ، سهل القضاء ، سهل الاقتضاء » .

الرابع : فى توفيةِ الدَّيْن . ومن الإحسان فيه حسنُ القضاء . وذلك بأَنْ يمشِيَ إلى صاحب الحقّ ولا يكلِّفه أَنْ يمْشِيَ إليه يتقاضاه ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم : « خَيْرُكم أحسنُكم قَضاءً » . ومهما قَدرعلى قضاء الدَّيْن فليبادرْ إليه ولو قَبْل وقتِه . وليسلِّمْ أَجْود مما شرط عليه وأحسن .

الخامس : أَنْ يُقِيلَ منْ يستقيلُه ، فإنَّه لا يستقيل إلاَّ متندِّمٌ مستضرٌّ بالبيع ، ولا ينبغى أَنْ يرضَى لنفسه أن يكون سبب استضرار أخيه . قال صلى الله عليه وسلم : « منْ أقال نادماً صفْقتَه أقالَه الله عثرتَه يوم القيامة » .

السادس : أن يقصد فى معاملته جماعةً من الفقراء بالنَّسيئة وهو فى الحال عازمٌ على أَنْ لا يطالبَهم إنْ لم تظهرْ لهم ميْسرة ، فقد كان فى صالحِي السَّلَفِ منْ له دفتران للحساب : أَحدهُما ترجمته مجهولة ، فيه أسماءُ مَنْ لا يعرفه من الضُّعفاء والفقراء ، وذلك أن الفقير كان يرى الطعام أو الفاكهة فيشتهيه فيقول : أَحتاجُ إلى خمسة أرطال مثلًا من هذا وليس معى ثمنه . فكان يقول : خذه واقضِ ثمنه عند الميسرة . ولم يكُن يعدُّ هذا من الخيار ، بل عُدّ من الخيار مَنْ لم يكن يُثبت اسمه فى الدفتر أصلاً ولا يجعله ديْنًا ، لكن يقول : خُذْ ما تريد ، فإنْ يُسِّر لك فاقض ، وإلا فأَنت فى حلٍّ منه وسعةٍ . فهذه طرق تجارات السَّلَف وقد اندرست ، والقائم به مُحْيٍ به لهذه السُّنَّة . وبالجملة : التجارة محكُّ الرجال ، وبها يُمْتَحنُ دِينُ الرجل وورعُه ، ولذلك قيل :

لا يغُـرّنكَ من المـرْ ء قَميصٌ رقّعَـه

أوْ إزَارٌ فَـوْق كَعْـ ـب السّـاق منه رَفَعَهْ

أوْ جَـبينٌ لاحَ فيـ ـهِ أثَرٌ قَـدْ قَلَعَـهْ

ولَـدَى الدّرْهَم فانظُـرْ غَيَّـهُ أوْ ورَعَـهْ

الباب الخامس

في شفقة التاجر على دينه فيما يخصه ويعم آخرته

وإنما تتم شفقةُ التاجر على دِينه بمراعاة سبعة أمور :

الأول : حسنُ النية والعقيدة فى ابتداء التجارة ،فلينْوِ بها الاستعفافَ عن السؤال ، وكفَّ الطمع عن الناس استغناءً بالحلال عنهم ، واستعانةً بما يَكسِبُه على الدِّين .

الثانى : أن يقصد القيام فى صنعته أو تجارته بفرضٍ من فروض الكفايات ؛ فإن الصناعات والتجارات لو تُركت بَطَلت المعايشُ وهلك أكثرُ الخَلْق ، فانتظامُ أمر الكلِّ بتعاون الكُلِّ ، وتكفُّل كلِّ فريق بعمل . ولو أقبل كلُّهم على صنعةٍ واحدة لتعطَّلَت البواقى وهلكوا . وعلى هذا حَمَل بعض الناس قوله صلى الله عليه وسلم : « اختلافُ أُمَّتِى رحمة » ، أى اختلاف هِمَمهم فى الصناعات والحِرَف .

الثالث : أن لا يمنعَه سُوق الدنيا عن سُوق الآخرة ، وأسواق الآخِرة المساجدُ . قال الله تعالى : (رِجَالٌ لا تُلْهِيهِم تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عن ذِكْرِ اللهِ وإقَامِ الصَّلاةِ وإيتاء الزَّكَاةِ) .

وكان صالِحُو السَّلَف يجعلون أوَّلَ النهار وآخِرَه للآخرة ، والوسطَ للتجارة ، ولم يكنْ يبيع الهريسةَ والرُّءُوسَ بُكرةً إلَّا الصِّبيانُ وأهل الذِّمَّة ، لأنهم كانوا فى المساجد بعد .

وقد كان السَّلَفُ يبتدرون عند الأَذان، ويُخلُّون الأَسواق للصبيان

وأهلِ الذِّمة ، وكانوا يستأجرون بالقراريط لحفظ الحوانيت فى أوقات الصَّلوات ، وكان ذلك معيشةً لهم .

الخامس : أنْ لا يكونَ شديد الحرص على السوق والتجارة ، وذلك بأَنْ يكونَ أوّل داخلٍ وآخرَ خارجٍ .

السادس : أنْ لا يقتصر على اجتناب الحرام ، بل يَتَّقِى مواقع الشُّبهات ومظانَّ الرِّيبِ ، ولا ينظر إلى الفتاوى بل يسْتَفْتى قلبه ؛ فإذا وجد فيه حزازةً اجتَنَبه ، وإذا حُمِل إليه سلعةٌ رابهُ أمرُها سأَل عنها حتَّى يعرف ، وإلَّا أكل الشبهة .

السابع : ينبغى أن يراقب جميع مجارى معاملته مع كلِّ واحدٍ من معامليه ، فإنَّه مراقَبٌ ومحاسبٌ ، فليعدَّ الجواب ليوم الحساب والعقاب ، فى كل فَعلةٍ وقَولةٍ : أنَّه لِمَ أقْدم عليها ؟ ولِأَجْلِ ماذا ؟ فإنه يُقال : إنَّه يُوقَفُ التاجرُ يوم القيامة مع كلِّ رجل كان باعه شيئاً وقفةً ، ويُحاسَب عن كلِّ واحدٍ محاسبةً على عددِ مَنْ عامله .

الكتاب الرابع

كتاب الحلال والحرام

الباب الأول

في فضيلة الحلال ومذمة الحرام

وبيان أصناف الحلال ودرجاته وأصناف الحرام ودرجات الورع فيه

فضيلة الحلال ومذمة الحرام

قال الله تعالى : (كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ واعْمَلُوا صالحاً) . أمرَ بالأكل من الطيِّبات قبل العمل . وقيل : إنَّ المراد به الحلال . وقال تعالى : (ولَا تَأْكُلُوا أَمْوالَكم بينكُمْ بالباطِلِ) .

وقال تعالى : (يأَيُّها الَّذِينَ آمنوا اتَّقُوا الله وذَرُوا ما بَقِيَ من الرِّبا إنْ كُنتم مُؤْمنين)، ثم قال :(فإنْ لَمْ تَفْعلُوا فأْذَنُوا بِحرْبٍ مِن اللهِ ورسُولِه) ثم قال : (وإنْ تُبْتُمْ فَلَكُم رُءُوسُ أموالِكُم) ، ثم قال : (ومنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُون) . جَعل آكِلَ الرِّبَا أوّلَ الأمر مُؤْذَنًا بمحاربة الله ، وفي آخره متعرِّضاً للنار .

ولما ذكر صلى الله عليه وسلم الحريصَ على الدنيا قال : « رُبَّ

أشعثَ أغبرَ مُشَرَّدٍ فى الأسفار مطعمُه حرامٌ ، وملبسُه حرامٌ ، وغُذى بالحرام ، يرفع يديه فيقول : يا ربٍّ يا ربٍّ ! فأنَّى يُسْتَجاب لذلك !» .

وقال صلى الله عليه وسلم : « كلُّ لَحمٍ نبت من حرام فالنارُ أَوْلى به » .

وأما الآثار : فقد ورد أن الصدِّيق رضِى اللهُ عنه شَرِب لبناً من كَسْبِ عبْدِه ثم سأل عبْده فقال : تَكهَّنْتُ لقومٍ فَأَعطَوْنى. فأدْخَل أصابعه فى فِيه وجعل يقِيء حتَّى ظننت أنَّ نَفْسه ستخرج ، ثم قال : اللهم إنى اعتذرُ إليك مما حَمَلَتِ العروقُ ، وخَالطَ الأمعاء .

وقال ابنُ عباسٍ رضِى اللهُ عنهما : لا يقبَل الله صلاةَ امرئٍ فى جوفه حرام .

ورُوى أنَّ بعض الصالحين دفع طعاماً إلى بعض الأبدال فَلَمْ يأْكلْ فسأله عن ذلك فقال : نحن لا نأْكُل إلا حلالًا ، فلذلك تستقيم قلوبنا ويدوم حالُنا ونكاشف المَلكُوت ، ونُشاهدُ الآخِرة ، ولو أكلْنا مما تأْكلون ثلاثَة أيام لما رجَعْنا إلى شىء من علم اليقين ، ولذهب الخوفُ والمشاهدةُ من قلوبنا . فقال له الرجل : فإنِّى أصوم الدهر وأختم القرآن فى كلِّ شهرٍ ثلاثين مرة . فقال له البَدَل : هذه الشَّرْبَةُ التى رَأَيْتَنى شربتُها من الليل أحبُّ إلىَّ من ثلاثين ختمة فى ثلثمائة ركعة من أعمالك وكانت شَربته من لبن ظبيةٍ وحْشيَّة .

وعن علىٍّ ، رضى الله عنه ، أنه لَمْ يأْكُلْ بَعد قتل عثمانَ ونَهْب الدار طعاماً إلَّا مختوماً ، حذراً من الشبهة .

ونحن الآن نشير إلى مَجامِعه فى سياق تقسيم : وهو أنَّ المالَ إنَّما يحرُم إمَّا لمعنًى فى عينه ، أو لخللٍ فى جِهة اكتسابه .

القسم الأول

الحرام لصفة فى عينه

وتفصيلُه أنَّ الأَعيان المأْكولَة على وجه الأَرض لا تَعْدُو ثلاثةَ أَقسام : فإنَّها إمَّا أنْ تكون من المعادن كالمِلح والطِّين وغيرهما ، أو من النبات ، أو مِن الحيوانات .

أَمَّا المعادن : فهى أَجْزَاءُ الأَرض وجميع ما يخرج منها . فلا يُحرَّمُ أَكلُه إلا من حيث إنه يضرٌّ بالآكل ، وفِى بعضها ما يجرى مجرى السُّمِّ . والخُبزُ لو كان مضرًّا لحرُم أَكلُه .

وأما النبات : فلا يَحرُمُ منه إلَّا ما يُزيلُ العقل . أو يُزيل الحياة أو الصحة . فَمُزيل العقل : البِنْج والخمر وسائِر المُسْكِرات . ومُزيل الحياة : السموم . ومُزيل الصحة : الأَدوية فى غير وقتها .

وأما الحيوانات : فتنقسم إلى ما يُؤْكل، وإلى مالا يُؤْكل. وتفصيله فى كتاب الأَطعمة ، والنظر يطول فى تفصيله ، لا سيما فى الطيور الغريبة وحيوانات البر والبحر . وما يحلُّ أَكلُه منها فإنما يحلُّ إذا ذُبح ذبحاً شرعياً رُوعىَ فيه شروطُ الذابِح والآلةِ والذبح ، وذلك مذكور فى كتاب الصَّيد والذبائح ، وما لم يُذْبح ذبحاً شرعياً أو مات فهو حرام . ولا يحلُّ إلا مَيْتَتان : السمكُ والجرادُ ، وفى معناهما ما يستحيل من الأَطعمة ، كدود التُّفَّاح والخلِّ والجبن ، فإنَّ الاحترازَ منها غيرُ ممكن .

القسم الثانى

مايحرم الحلل فى جهة إثبات اليد عليه

ستة أقسام :

الأول : ما يُؤْخذُ من غير مالكٍ : كنَيل المعادن ، وإحياء المَوَات ، والاصطياد ، والاحتطاب ، والاستقاء من الأنهار ، والاحتشاش . فهذ حلال بشرط أنْ لا يكونَ المأخوذ مختصًّا بذى حرمة من الآدميين .

الثانى : المأخوذةُ قهراً ممن لا حرمةَ له ، وهو الفىء والغنيمة ، وسائر أموال الكفَّار والمحاربين ، وذلك حلالٌ للمسلمين إذا أخرجوا منها الخمس وقسَموها بين المستحِقِّين .

الثالث : ما يُؤْخذُ قهراً باستحقاق عند امتناع مَنْ وَجَبَ عليه ، فَيُؤْخذ دون رضاه ، وذلك حلالٌ إذا تمّ سبب الاستحقاق، وتَمّ وصفُ المستحق الذى به استحقاقه، واقتصر على القدر المستحَقّ ، واستوفاه ممن يملك الاستيفاء من قاض أو سلطان أو مستحِقّ .

الرابع : ما يُؤْخَذ تراضيًا بمعاوضة ، وذلك حلالٌ إذا روعى شرط العِوَضين ، وشرطُ العاقِدَيْن ، وشرط اللفظين : أعنى الإيجاب والقبول، مع ما تعبَّدَ الشرعُ به من اجتناب الشروط المفْسِدة .

الخامس : ما يؤخذ عن رضا من غير عِوَض ، وهو حلالٌ إذا رُوعىَ فيه شرط المعقود عليه ، وشرط العاقدَين. وشرط العقد ، ولم يؤدِّ إلى ضرر بوارثٍ أو غيره .

السادس : ما يحصلُ بغير اختيار كالميراث ، وهو حلال إذا كان الموروثُ قد اكتسب المال من بعض الجهات الخمس على وجه حلال . ثم كان ذلك بعد قضاء الدَّين وتنفيذ الوصايا ، وتعديل القسمة بين الورثة ، وإخراج الزكاة والحج والكفَّارة ، إنْ كان واجباً .

درجات الحلال والحرام

اعلمْ أنَّ الحرامَ كلَّه خبيث ، لكنّ بعضَه أخبثُ من بعض. والحلال كلُّه طيبٌ ، ولكنّ بعضَه أطيبُ من بَعْض وأصفَى من بعض . وكما أنَّ الطبيب يحكم على كلِّ حُلْو بالحرارة ، ولكن يقول : بعضُها حارٌ فى الدرجة الأُولى كالسُّكَّر ، وبعضها حارٌ فى الثانية كالفانيذ ، وبعضها حارٌ فى الثالثة كالدِّبس ، وبعضها حارٌ فى الرابعة كالعسل ؛ كذلك الحرام بعضه خبيثٌ فى الدرجة الأُولى ، وبعضه فى الثانية أو الثالثة أو الرابعة . وكذا الحلال تتفاوت درجات صِفاته وطِيبه . فلْنقتدِ بأهل الطبِّ فى الاصطلاح على أربع درجات تقريباً، وإن كان التحقيقُ لا يُوجِب هذا الحصر ، إذ يتطرّقُ إلى كلِّ درجة من الدرجات أيضاً تفاوتٌ لا ينحصر ؛ فإنَّ من السكَّر ما هو أشدُّ حرارةً من سكَّرٍ آخرَ ، وكذا غيره . فلذلك نقول : الورَع عن الحرامِ على أربع درجات :

الأُولى : وَرَع العدُول ، وهو الذى يجب الفسقُ باقتحامه وتسقُط العدالة به . ويثبت اسمُ العِصْيان والتعرُّضِ للنار بسببه . وهو الورع عن كلِّ ما تحرِّمه فتاوَى الفقهاء .

الثانية : وَرَع الصالحين ، وهو الامتناع عما يتطرَّق إليه احتمالُ التحريم ولكن المفتى يُرخِّص فى التناول بناءً على الظاهر ، فهو من

مواقع الشُّبهة على الجملة . فلنسمِّ التحرّجَ عن ذلك وَرَع الصالحين .

الثالثة : مالا تحرّمه الفتوى ولا شُبهة فى حلّه ، ولكن يُخاف منه أداؤه إلى محرَّم ، وهو تركُ مالا بَأْسَ به مخافةً مما به بأْسٌ . وهذا ورع المتَّقين . قال صلى الله عليه وسلم : « لا يبلُغ العبدُ درجةَ المتَّقين حتَّى يَدعَ مالا بأْسَ به مخافَةَ ما به بَأْس » .

الرابعة : ما لا بأْس به أصلاً ولا يُخاف منه أن يؤدِّيَ إلى ما به بأْس ، ولكنّه يُتناوَل لغير الله ، وعلى غير نية التقوِّى به على عبادة الله ، أو تتطرّق إلى أسبابه المسهِّلةِ له كراهيةٌ أو معصية . والامتناع منه ورع الصدِّيقين .

فهذه درجات الحلال جملةً إلى أن نفصِّلها بالأمثلة والشواهد .

الباب الثانى

في مراتب الشبهات ومثاراتها

وتمييزها عن الحلال والحرام

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحلالُ بَيِّنٌ والحرامُ بَيِّنٌ ، وبينهما أمورٌ مُشْتَبِهاتٌ لا يعلمُها كثيرٌ من الناس ، فمن اتَّقَى الشُّبهاتِ فقد استبْرَأَ[1] لِعِرضه ودِينه ، ومَنْ وقَع فى الشُّبهات وَاقَع الحرامَ ، كالراعى حول الْحِمَى[2] يُوشِكُ أن يقَع فيه » . فهذا الحديثُ نصٌّ فى إثبات الأقسام الثلاثة .

ومثاراتُ الشبهة خمسة :

المثار الأول

الشك فى السبب المحلل والمحرم

وذلك لا يخلو إمّا أن يكون متعادلًا ، أو غلب أحدُ الاحتمالين ؛ فإن تعادل الاحتمالان كان الحكْم لما عرف قَبله ، فيُستصحَب ولا يترك بالشك . وإنْ غلب أحدُ الاحتمالين عليه ، بأن صدر عن دلالة معتبرة كان الحكم للغالب ، ولا يتبيَّنُ هذا إلا بالأمثال والشواهد ، فلنقسِّمه إلى أقسامٍ أربعة :

---

(١) استبرأ : طلب البراءة .

(٢) الحمى : ما كان يحميه أشراف العرب لأنفسهم من مواضع فيها الكلأ ، فلا ترعى إلا بإذنهم .

القسم الأول : أن يكون التحريم معلوماً مِن قبلُ ثم يقع الشكُّ في المحلَّل :

مثاله أن يرمىَ إلى صيدٍ فيجرحَه ويقعَ فى الماء فيصادفَه ميِّتاً ، ولا يدرى أنه مات بالغرق أو بالجرح ، فهذا حرامٌ ؛ لأنَّ الأَصل التحريم .

القسم الثانى : أن يعرف الحِلّ ويُشكّ فى المحرَّم ، فالأَصلِ الحِلُّ وله الحكم ، كما إذا نكح امرأتين رجلان وطار طائرٌ ، فقال أحدُهما : إن كان هذا غراباً فامرأتى طالق ، وقال الآخر : إن لم يكن غراباً فامرأتى طالق . والتبس أمر الطائر ، فلا يُقْضَى بالتحريم فى واحدة منهما ، ولا يلزمها اجتنابهما ، ولكن الورع اجتنابُهما وتطليقُهما حتّى يحلاً لسائِر الأَزواج .

القسم الثالث : أنْ يكونَ الأَصلُ التحريمَ ، ولكن طرأ ما أوجب تحليلَه بظنٍّ غالب ، فهو مشكوك فيه والغالب حلُّه ؛ فهذا يُنْظَرُ فيه ؛ فإنْ استند غلبةَ الظن إلى سببٍ معتَبرٍ شرعاً فالذى نختار فيه أنَّه يحلّ ، واجتنابُه من الورع . مثاله : أن يرمىَ إلى صيدٍ فيغيبَ ثم يدركه ميتاً وليس عليه أثرٌ سوى سهمه ، ولكن يحتمل أنه مات بسقطةٍ أو بسببٍ آخرَ ؛ فإن ظهر عليه أثرُ صَدمةٍ أو جراحةٍ أُخرى التحق بالقسم الأَول .

القسم الرابع : أن يكون الحِلُّ معلوماً ولكن يغلب على الظن طَرَيانُ[1] محرِّم بسببٍ مُعْتَبَرٍ فى غلبة الظن شرعاً ، فيُرفَع الاستصحاب ويُقْضى بالتحريم ، إذْ بان لنا أنَّ الاستصحاب ضعيفٌ ولا يبقى له حكم مع غالب الظن . ومثاله أنْ يؤدِّىَ اجتهاده إلى نجاسة أَحدِ الإِناءين ، بالاعتماد على علامة معينة توجب غلبة الظن ، فتوجب تحريم شربه ، كما أوجبَتْ منعَ الوضوء به .

---

(١) أراد طروء . طرأ يطرأ : أتى مفاجأة .

المثار الثانى للشبهة

شك منشؤه الاختلاط

وذلك بأَنْ يختلطَ الحرام بالحلال ويشتبهَ الأَمرُ ولا يتميَّز ، والخلط لا يخلو : إما أن يقَع بعدد لا يُحصَر من الجانبين، أو من أَحَدِهما ، أو بعدد محصور .

فإن اختلط بمحصورٍ فلا يخلو : إما أَنْ يكونَ اختلاطَ امتزاج بحيث لا يتميَّز بالإشارة ، كاختلاط المائعات ؛ أو يكون اختلاط استبهام مع التميُّز للأَعيان ، كاختلاط الأَعبُد والدُّور والأَفراس . والذى يختلط بالاستبهام فلا يخلو : إما أن يكون مما يُقصَد عينُه كالعُروض ، أَوْ لا يُقصَد كالنقود ، فيَخْرُج من هذا التقسيم ثلاثةُ أَقسام :

القسم الأَول : أَنْ تستبهم العينُ بعدد محصور ، كما لو اختلطت المَيْتة بمذكَّاة[1] أو بعشر مذكَّيات ، أو اختلطت رضيعةٌ بعشرِ نسوة ، أو يتزوَّج إحدَى الأُختين ثم تلتبس ، فهذه شبهةٌ يجب اجتنابُها بالإجماع ؛ لأَنه لا مجال للاجتهاد والعلاماتِ فى هذا .

القسم الثانى : حرام محصور بحلال غير محصور ، كما لو اختلطت رضيعةٌ أو عشر رضائعَ بنسوةٍ بلد كبير ؛ فلا يلزم بهذا اجتنابُ نكاح نساء أَهل البلد ، بل له أَنْ ينكح من شاء منهن .

فإن قلت : فكلُّ عدد محصورٌ فى علم الله ، فما حدُّ المحصور ؟ ولو أَراد الإنسان أن يحصر أَهل بلد لقدر عليه أَيضاً إن تمكن منه . فاعلم أَنَّ تحديد أَمثال هذه الأُمور غير ممكن ، وإنما يضبط بالتقريب . فنقول :

---

(١) المذكاة : المذبوح . والتذكية : الذبح .

كل عدد لو اجتمع على صعيدٍ واحد لعَسُر على الناظر عَدُّهم بمجرد النظر كالألف والألفين فهو غير محصور . وما سَهُل كالعشرة والعشرين فهو محصور . وبين الطرفين أوساط متشابهة تلحق بأحد الطرفين بالظن. وما وقع الشكُّ فيه اسْتَفْتِيَ فيه القلب .

القسم الثالث : أنْ يختلطَ حرامٌ لا يُحْصَر ، كحكم الأموال فى زماننا هذا . فالذى يأخذ الأحكامَ من الصُّوَر قد يظنّ أن نسبةَ غير المحصور إلى غير المحصور كنسبة المحصور إلى المحصور ، وقد حكمنا ثَمَّ بالتحريم ، فلنحكم هنا به . والذى نختاره خلاف ذلك : وهو أنّه لا يَحرم بهذا الاختلاط أن يُتناول شيءٌ بعينه احتَمَل أنه حرام وأنه حلال إلا أنْ يقترن بتلك العينِ علامةٌ تدُلُّ على أنّه من الحرام .

ويدل عليه الأثر والقياس ؛

فأما الأثر : فما عُلِم فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين بعدَه ، إذْ كانت أثمان الخمور ودراهمُ من أيدِى أهل الذّمّة مختلطةً بالأموال . وكذا غُلُول الأموال[1] ، وكذا غُلُول الغنيمة .

وأما القياس : فهو أنه لو فُتح هذا الباب لانسدَّ بابُ جميع التصرفات وخَرِب العالم ، إذْ الفسقُ يغلب على الناس ، ويتساهلون بسببه فى شروط الشّرع فى العقود ، ويؤدِّى ذلك لا محالة إلى الاختلاط .

---

(١) الغلول : السرقات والخيانات .

المثار الثالث للشبهة

أن يتصل بالسبب المحلل معصية

إما فى قرائِنه ، وإما فى لواحِقه ، وإما فى سوابقِه ، أو فى عوضِه ، وكانت من المعاصى التى لا تُوجب فسادَ العقْد وإبطال السبب المحلِّل .

مثال المعصية فى القرائِن : البيع فى وقت النداءِ يوم الجمعة ، والذبح بالسِّكين المغصوبة ، والاحتطاب بالقَدُوم المغصوب ، والبيع على بَيْع الغير ، والسَّوْمُ على سَوْمِه[١] . فكلُّ نَهْى ورد فى العقود ولم يدلَّ على فساد العقد فإنَّ الامتناع من جميع ذلك ورع ، وإنْ لم يكن المستفاد بهذه الأساليب محكوماً بتحريمه .

وأما مثال اللواحق : فهو كلُّ تصرف يُفضى فى سياقه إلى معصية . وأعلاه بَيْع العنب من الخمَّار ، وبيع الغُلاَم من المعروف بالفجور بالغِلمان ، وبَيْع السَّيف من قُطَّاع الطريق . وقد اختلف العلماءُ فى صحَّة ذلك ، وفى حِلِّ الثمن المأْخوذ منه ، والأَقيسُ أنّ ذلك صحيح ، والمأْخوذ حلال ، والرجُل عاصٍ بعقده كما يَعصِى بالذبح بالسكين المغصوب ، والذبيحةُ حـــلال .

وأما المقدمات : فلتطرّق المعصية إليها ثلاث درجات :

الدرجة العليا التى تشتد الكراهة فيها : ما بقى أثره فى المُتَناوَل ، كالأَكل من شاةٍ عُلِفت بعلَف مغصوب ، أو رَعَت فى مرعًى حرامٍ ، فإن ذلك معصية وقد كان سبباً لبقائِها . وربَّما يكون الباقى من دمهَا ولحمها وأجزائِها من ذلك العلف .

الرتبة الوسطى ، ما نقل عن بِشْر بن الحارث من امتناعه عن الماء

---

(١) السوم : تقدير ثمن السلعة .

المُسَاقِ فى نهر احتفره الظَّلَمة ، لأنَّ النهر مُوَصِّل إليه ، وقد عُصِىَ اللهُ بحفره . وامتنع آخرُ عن عنب كرم يُسْقَى بماء يجرى فى نهرٍ حُفر ظلماً. وهو أرفعُ منه وأبلغ فى الورع .

الرتبة الثالثة ، وهى قريبٌ من الوسواس والمبالغة : أنْ يمتنع من حلالٍ وَصَلَ على يد رجل عَصَى الله بالزنا أو القذف .

وأما المعصية فى العوض فلها أيضاً درجات :

الدرجة العليا التى تشتد الكراهةُ فيها : أن يشترىَ شيئاً فى الذمة ويقضىَ ثمنه من غصب أو مال حرام ، فيُنظَر ، فإنْ سلَّم إليه البائع الطعامَ قبل قبض الثمن بطيب قلبه ، فأكلَه قبل قضاء الثمن ، فهو حلال وتركه ليس بواجب بالإجماع ، أعنى قبل قضاء الثمن ، ولا هو أيضاً من الورع المؤكَّد . فإن قضى الثمن بعد الأكل من الحرام فكأنَّه لم يقض الثمن ، ولو لم يقْضِه أصلاً لكان متقلِّدًا للمَظْلَمة بترك ذمَّته مرتَهَنة بالدَّيْن ، ولا ينقلب ذلك حرامًا . فإن قضى الثمن من الحرام وأبرأه البائع مع العلم بأنه حرام فقد برئت ذمَّته ولم يبقَ عليه إلا مَظْلِمةُ تصرُّفه فى الدراهم الحرام بصرفها إلى البائع . وإن أبرأه على ظنٍّ أنَّ الثمن حلال فلا تحصُل البراءة ، لأنه يُبْرِئُه مما أخذه إبراء استيفاء . ولا يصلح ذلك للإيفاء .

الرتبة الوسطى : أنْ لا يكونَ العوض غصباً ولا حراماً ، ولكن يتهيَّأُ لمعصية : كما لو سلَّم عِوَضاً عن الثمن عنباً والآخذ شارب الخمر ، أو سيفًا وهو قاطع طريق ، فهذا لا يُوجب تحريماً فى مبيع اشتراه فى الذمة ولكن يقتضى فيه كراهية دون الكراهية التى فى الغصب .

الرتبة السفلى : وهى درجة المُوسْوَسين ، وذلك أنْ يحلف إنسانٌ على أنْ لا يلبَس من غَزْل أمَةٍ ، فباع غَزْلها واشترى به ثوباً ، فهذا

لا كراهية فيه ، والورع عنه وسوسة . وروى عن المُغيرة أنّه قال فى هذه الواقعة لا يجوز ، واستشهد بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لَعنَ اللهُ اليهودَ ، حُرِّمَتْ عليهم الخمورُ فباعُوها وأكلوا أثمانها » . وهذا غلط ؛ لأنَّ بَيْعَ الخمور باطل ، إذ لم يبق للخمر منفعة فى الشرع ، وثمن البيع الباطل حرام .

المثار الرابع
الاختلاف فى الأدلة

فإنَّ ذلك كالاختلاف فى السبب ، لأنَّ السبَبَ سببٌ لحكم الحل والحرمة ، والدليلَ سببٌ لمعرفة الحل والحرمة ، فهو سببٌ فى حق المعرفة ولم يثبتْ فى معرفة الغير ، فلا فائدة لثبوته فى نفسه وإنْ جرى سببه فى علم الله .

وهو إما أن يكون لتعارض أدلة الشرع ، أو لتعارض العلامات الدالّة ، أو لتعارض التشابه .

القسم الأول : أنْ تتعارضَ أدلّةُ الشرع ، مثل تعارض عمومين من القرآن أو السُّنّة ، أو تعارض قياسين ، أوْ تعارض قياس وعموم . وكلُّ ذلك يُورِث الشكَّ ويُرجَع فيه إلى الاسْتِصحاب أو الأصلِ المعلومِ قبله إنْ لم يكن ترجيح ؛ فإنْ ظهرَ ترجيحٌ فى جانب الحَظْر وجب الأخْذ به ، وإن ظهر فى جانب الحِلِّ جاز الأخذُ به ، ولكن الورعَ تَرْكُه .

القسم الثانى : تعارض العلامات الدالة على الحِلِّ والحرمة ، فإنه قد يُنهَب نوعٌ من المتاع فى وقتٍ ويندر وقوعُ مثلِه من غير النهب ، فيُرى مثلا فى يد رجُل من أهل الصلاح ، فيدل صلاحُه على أنه حلال ، ويدل نوع المتاع وندوره من غير المنهوب على أنه حرام ، فيتعارض

الأمران . وكذلك أن يخبر عدل أنَّه حرام وآخر أنَّه حلال ، أو تتعارض شهادة فاسقَين ، أو قولُ صبيٍّ وبالغ ؛ فإنْ ظهر ترجيحٌ حُكم به ، والورع الاجتناب ، وإنْ لم يظهر ترجيحٌ وَجَب التوقف .

القسم الثالث : تعارض الأشياء فى الصفات التى تُناط بها الأحكام . مثاله أن يوصَى بمال للفقهاء ، فيُعلم أنَّ الفاضل فى الفقه داخلٌ فيه ، وأن الذى ابتدأ التعلُّم من يوم أو شهر لا يدخل فيه ، وبينهما درجات لا تُحصى يقع الشك فيها . فالمفتى يُفتى بحسب الظنّ . والورعُ الاجتناب وهذا أغمض مثارات الشبهة ، فإنَّ فيها صوراً يتحيَّرُ المفتِى فيها تحيُّراً لازماً لا حيلَة له فيه ، إذ يكون المتَّصف بصفة فى درجة متوسطة بين الدرجتين المتقابلتين ، لا يظهر له ميلُه إلى أحدهما .

الباب الثالث

في البحث ، والسؤال ، والهجوم ، والإهمال ، ومظانها

اعلم أن كلَّ من قَدّم إليك طعاماً أو هديّة ، أو أردْت أن تشترى عنه أو تتّهب ، فليس لك أن تفتّش عنه وتسأل وتقول : هذا مما لا أتحقّق حِلّه فلا آخذه بل أُفتّش عنه. وليس لك أيضاً أن تترك البحثَ فتأْخذ كلَّ مالا تتيقّن تحريمَه ، بل السؤال واجبٌ مرّةً ، وحرام مرّةً ، ومندوب مرّة ، ومكروهٌ مرّةً .

ومنشأُ الريبة ومثارها إمّا أمر يتعلّق بالمال ، أو يتعلّق بصاحب المال.

المثار الأول

أحـــوال المــــالك

وله بالإضافة إلى معرفتك ثلاثة أحوال :

الحالة الأُولى : أن يكون مجهولًا . والمجهول هو الذى ليس معه قرينة تدل على فساده وظُلمه ، كزىٍّ الأَجناد ، ولا ما يدلّ على صلاحِه ، كثياب أهل التصوُّف والتجارة والعلم ، وغيرها من العلامات . فإذا دخلتَ قرية لا تعرفها فرأيت رجُلًا لا تعرف من حاله شيئاً ، ولا عليه علامة تنسُبه إلى أهل صلاح أو أهل فساد ، فهو مجهول .

وحكم هذه الحالة أنَّ المجهول إن قدَّم إليك طعاماً أو حَمل إليك هدية أو أردت أن تشترى من دكانه شيئاً ، فلا يلزمك السؤال ، بل

يدُه[1] وكونُه مُسلماً دلالتان كافيتان فى الهجوم على أخْذه . وليس لك أنْ تقول : الفسادُ والظلم غالبٌ على الناس ، فهذه وسوسة وسوءُ ظنٍّ بهذا المسلم بعينه ، وإنَّ بعضَ الظنِّ إثْم .

الحالة الثانية : أنْ يكون مشكوكًا فيه بسبب دلالة أورثَتْ ريبة ، فلْنذكُرْ صورةَ ريبةٍ ثم حكمَها .

أما صورةُ الريبة فهو أنْ تدلَّه على تحريم ما فى يده دلالةٌ إمَّا من خِلقته ، أو من زيِّه وثيابه ، أو من فعله وقوله . أما الخِلقة : فبأنْ يكون على خلقة الأَتراك وأهل البوادى ، والمعروفين بالظُّلم وقطع الطريق ، وأنْ يكون طويلَ الشارب ، وأن يكون الشعر مفرَّقاً على رأسِه على دأب أهل الفساد . وأما الثِّياب : فالقَباءُ والقَلنسوةُ وزِىُّ أهل الظلم والفساد من الأَجناد وغيرهم . وأما الفعل والقول : فهو أنْ يشاهد منه الإقدام على ما لا يحلُّ ؛ فإنَّ ذلك يدلُّ أنَّه يتساهل أيضاً فى المال ويأْخذ مالايحل . فهذه مواضع الريبة . فإذا أراد أنْ يشترىَ من مثل هذا شيئاً أو يأْخذ منه هدية ، أو يجيبَه إلى ضيافة ، وهو غريبٌ مجهول عنده لم يظهر له منه إلاَّ هذه العَلاَمَات ، فيحتمل أنْ يقال إنَّ اليد تدلُّ على الملك ، وهذه الدلالات ضعيفة ، فالإقدامُ جائز ، والتَّرك من الورَع .

الحالة الثالثة : أنْ تكون الحالةُ معلومةً بنوع خبرة وممارسة ، بحيث يوجب ذلك ظنًّا فى حِلِّ المال أو تحريمه ، مثل أن يُعرفَ صلاحُ الرجل وديانتُه وعدالتُه فى الظاهر ، وجواز أن يكون الباطنُ بخلافه ، فها هنا لا يجب السؤال ولا يجوز كما فى المجهول ؛ فالأَوْلَى الإقدام .

فأمَّا إذَا علم بالخبرة أنه جندىٌّ ، أو مغنٍّ ، أو مُرْبٍ ، واستغنى عن

---

(١) يعنى حيازته له ووضع يده عليه .

الاستدلال عليه بالهيئة والشكل والثياب ؛ فهاهنا السؤال واجبٌ لا محالة ، كما فى موضع الرِّيبة ، بل أَوْلى .

المثار الثانى

ما يستند الشك فيه إلى سبب المال لا فى حال المالك

وذلك بأَنْ يختلط الحلالُ بالحرام ، كما إذا طُرح فى سوقٍ أحمالٌ من طعامٍ غَصْب ، واشتراها أهل السُّوق ، فليس يجب على من يشترى فى تلك البلدة وذلك السوق أن يسأَلَ عما يشتريه ، إلاَّ أن يظهر أنَّ أكثر ما فى أيديهم حرام . فعند ذلك يجب السؤال ؛ فإن لم يكن هو الأَكثر فالتفتيش من الورَع ، وليس بواجب .

والسوق الكبير حكمه حكمُ بلد .

الباب الرّابع

في كيفية خروج التائب عن المظالم المالية

اعلم أن من تاب وفى يده مختلِطٌ فعليه وظيفة فى تمييز الحرام وإخراجه ووظيفة أُخرى فى مصرف المخرج فلينظرْ فيهما .

النظر الأول

فى كيفية التمييز والإخراج

اعلم أن كلَّ من تاب وفى يده ما هو حرامٌ معلومُ العين ، مِن غصبٍ أو وديعة أو غيره ، فأَمرُه سهل . فعليه تمييز الحرام . وإنْ كان ملتبساً مختلطاً فلا يخلو : إمّا أن يكون فى مال هو من ذوات الأَمثال، كالحبوب والنقود والأَدهان ، وإما أن يكون فى أعيان متمايزة ، كالعبيد والدُّور والثياب .

فإنْ كان فى المتماثلات أو كان شائِعاً فى كلِّه . كمن اكتسب المالَ بتجارةٍ يُعلمُ أنه قد كذَب فى بعضها فى المرابحة وصَدَق فى بعضها ، أو من غصب دُهناً وخلطه بدُهنِ نفسِه ، أو فعل ذلك فى الحبوب ، أو الدراهم والدنانير ، فلا يخلو ذلك إمّا أن يكون معلومَ القدر أو مجهولاً. فإن كان معلومَ القدر مثلَ أنْ يعلم أنَّ قدر النصف من جملةِ ماله حرامٌ ، فعليه تمييزُ النِّصْفِ . وإنْ أشكل فله طريقان : أَحدُهما الأَخذ باليقين . والآخر : الأَخذ بغالب الظن . وكلاهما قد قال به العلماءُ فى اشتباهِ ركَعات الصلاة .

النظر الثانى

فى المصـــرف

فإذا أخرج الحرامَ فله ثلاثة أحوال :

إمَّا أنْ يكون له مالكٌ معيَّنٌ ، فيجب الصرفُ إليه أوْ إلى وارثه ، وإنْ كان غائباً فينتظر حضوره أو الإيصال إليه ، وإنْ كانت له زيادة ومنفعة فلتُجْمَع فوائدُه إلى وقت حضوره .

وإما أن يكون لمالكٍ غيرِ معيَّن وقع اليأ سُ من الوقوف على عينه ، ولا يُدرى أنه مات عن وارث أمْ لا ، فهذا لا يمكن الردُّ فيه للمالك ، ويُوقَف حتى يتضحَ الأمر فيه . وربما لا يمكن الرد لكثرةِ الملاَّك ، كغُلول الغنيمة[1] فإنها بعد تفرُّق الغزاة كيف يُقدر على جمعهم . وإن قُدِرَ فكيف يفرِّق ديناراً واحداً مثلا على ألف أو ألفين . فهذا ينبغى أن يتصدَّق به .

وإمّا من مال الفيء والأموال المرصدة لمصالح المسلمين كافَّةً ، فيصرف ذلك إلى القَناطر والمساجدِ والرِّباطات ومصانع طريق مكة[2] ، وأمثالِ هذه الأُمور التى يشترك فى الانتفاع بها كلٌّ من مر بها من المسلمين ، ليكون عاماً للمسلمين .

وحكم القسم الأَول لا شبهة فيه . أما التصدُّقُ وبناءُ القناطر فينبغى

(١) الغلول : السرقات والخيانات . انظر صفحة ٢٢٥ .

(٢) المصانع . جمع مصنع ومصنعة ، وهو حوض أو شبه صهريج يجمع فيه ماء المطر ، وهو أيضاً ما يصنعه الناس من الآبار والأبنية .

أن يتولاه القاضي ، فيسلم إليه المال إنْ وجد قاضياً متديِّناً ، وإنْ كان القاضي مستحِلاً فهو بالتسليم إليه ضامنٌ لو ابتدأ به فيما لا يضمنه . فكيف يسقط عنه به ضمانٌ قد استقر عليه بل يُحَكِّم من أهل البلد عالماً متديِّناً ؛ فإنَّ التحكيمَ أوْلى من الانفراد فإنْ عَجَزَ فليتولَّ ذلك بنفسه ، فإنَّ المقصود الصرف . وأما عين الصارف فإنَّما نطلبه لمصارفَ دقيقةٍ في المصالح ؛ فلا يُترك أَصلُ الصرف بسبب العجز عن صارفٍ هو أوْلى عند القدرة عليه

الباب الخامس

في إدرارات السلاطين وصلاتهم ، وما يحل منها ومايحرم

اعلم أنّ من أخذ مالاً من سلطان فلا بدّ له من النظر فى ثلاثة أمور : فى مدخل ذلك إلى يد السُّلطان من أين هو ؟ وفى صفته التى بها يستحقُّ الأَخْذَ ، وفى المقدار الذى يأْخُذه هل يستحقُّه إذا أُضيفَ إلى حاله وحال شركائِه فى الاستحقاق ؟

النظـــر الأول

فى جهات الدخل للسلطان

وكلُّ ما يحلُّ للسلطان سوى الإحياء[1] وما يشترك فيه الرعية قسمان:

مأْخوذ من الكفَّار ، وهو الغنيمة المأْخوذة بالقهر ، والفيء ، وهو الذى حصل من مالهم فى يده من غير قتال ؛ والجزيةُ ، وأموال المصالحة ؛ وهى التى تُؤْخذ بالشروط والمعاقدة .

والقسم الثانى : المأْخوذ من المسلمين - فلا يحلُّ منه إلّا قسمان : المواريث وسائِرُ الأُمور الضائِعة التى لا يتعيَّن لها مالك ، والأَوقاف التى لا متولِّيَ لها . أما الصدقات فليست تُوجَد فى هذا الزمان . وما عدا ذلك من الخراج المضروب على المسلمين والمصادرات وأنواع الرِّشوة كلُّها حرام .

فإذا كُتب لفقيهٍ أَوْ غيره إدرارٌ أَوْ صلة أو خِلعة على جهةٍ فلا يخلو

---

(١) إحياء الأرض الموات ونحو ذلك .

من أحوال ثمانية : فإنّه إما أنْ يكتب له ذلك على الجزية ، أوْ على المواريث ، أوْ على الأوقاف ، أوْ على مِلْكٍ أحياهُ السلطان ، أو على مِلك اشتراه ، أو على عامل خراج المسلمين ، أو على بَيّاعٍ من جُملة التجار ، أو على الخزانة .

فالأول : هو الجزية ، وأربعة أخماسها للمصالح وخمسُها لجهات معينة.

فما يكتب على الخُمس من تلك الجهات أو على الأخماس الأربعة لما فيه مصلحة ، ورُوعِيَ فيه الاحتياطُ فى القدر فهو حلال ؛ بشرط أن لا تكونَ الجزيةُ إلاّ مضروبةً على وجه شرعى ، ليس فيها زيادةٌ على دينار ، أو على أربعة دنانير . وبشرط أن يكون الذى تُؤْخذ الجزية منه مكتسِباً من وجه لا يُعلم تحريمه ، فلا يكون عامِلَ سلطانٍ ظالماً ، ولا بَيّاعَ خمر ، ولا صبيًا ، ولا امرأة ، إذْ لا جزية عليهما .

الثانى : المواريث والأموال الضائعة ، فهى للمَصالح . والنظرُ أنَّ الذى خلَّفه هل كان ماله كلُّه حراماً أو أكثرُه أو أقلُّه . وقد سبق حكمُهُ . فإنْ لم يكن حراماً بقِى النظرُ فى صفةِ مَنْ يصرف إليه ، بأَنْ يكون فى الصَّرف إليه مصلحة ، ثم فى المقدار المصروف .

الثالث : الأوقاف؛ وكذا يجرى النظر فيها كما يجرى فى الميراث، مع زيادة أمرٍ وهو شرط الواقف ، حتّى يكون المأخوذ موافقاً له فى جميع شرائطه .

الرابع : ما أحياه السلطان ؛ وهذا لا يُعتبر فيه شرط ؛ إذْ له أن يعطىَ من مِلكه ما شاء لمن شاء ، أىَّ قدرٍ شاء . وإنّما النظر فى أنَّ الغالب أنّه أحياه بإكراه الأُجَراء ، أو بأَداء أُجرتهم من حرام ؛ فإنَّ الإحياء يحصلُ بحفر القُنىِّ والأنهار ، وبناء الجدران وتسوية الأرض ،

ولا يتولَّاه السلطان بنفسه . فإنْ كانوا مُكرَهين على الفعل لم يملكه السلطانُ ، وهو حرام . وإن كانوا مستأجَرين ثم قضيت أُجورُهم من الحرام فهذا يُورث شبهةً قد نبَّهنا عليها فى تعلُّق الكراهة بالأعواض .

الخامس : ما اشتراه السلطان فى الذِّمّة من أرضٍ أوْ ثيابٍ خِلْعة ، أو فرسٍ أو غيره ، فهو مِلكُه ، وله أنْ يتصرَّف فيه ، ولكنه سيقضى ثمنه من حرام ، وذلك يوجبُ التَّحريم تارةً والشبهة أُخرى .

السادس : أن يُكتبَ على عامل خَراج المسلمين أو من يجمع أموالَه القسمةُ والمصادرة ، وهو الحرام السُّحت الذى لا شبهةَ فيه ، وهو أكثرُ الإدرارات فى هذا الزمان ، إلاَّ ما على أراضى العراق فإنَّها وقفٌ عند الشافعى رحمه الله على مصالح المسلمين .

السابع : ما يُكتب على بيّاع يعامل السُّلطانَ ، فإن كان يعامل غيرَه فماله كمالِ خِزانة السلطان ، وإنْ كان يعامل غير السلاطين أكثرَ فما يعطيه قرضٌ على السلطان ، وسيأْخذُ بدله من الخِزانة ، فالخلل يتطرّق إلى العِوَض .

الثامن : ما يُكتب على الخزانة ، أوْ على عاملٍ يجتمع عنده من الحلال والحرام ، فإنْ لم يُعرَف للسلطان دخلٌ إلاَّ من الحرام فهو سُحتٌ محضٌ . وإنْ عَرَف يقيناً أنَّ الخزانة تشتمل على مال حلال ومال حرام واحتمل أنْ يكونَ ما يسلَّم إليه بعينه من الحلال احتمالاً قريباً له وَقْعٌ فى النفس ، واحتمل أن يكون من الحرام وهو الأغلب ، لأنَّ أغلب أموال السلاطين حرامٌ فى هذه الأعصار ، والحلالَ فى أيديهم معدوم أو عزيز ، فقد اختلف الناس فى هذا ، فقال قوم : كل مالا أتيقّنْ أنّه حرام فَلِى أنْ آخذَه ، وقال آخرون : لا يحلُّ أن يؤخذ ما لم يتحقّق أنّه

حلال ، فلا تحلُّ شبهةٌ أصلاً . وكلاهما إسراف ، والاعتدال ما قدَّمنا ذكرَه . وهو الحكم بأن الأغلب إذا كان حرامًا حَرُمَ . وإنْ كان الأغلبُ حلالًا وفيه يقينُ حرامٍ فهو موضعٌ توقَّفنا فيه كما سبق .

النظر الثانى من هذا الباب

فى قدر المأخوذ وصفة الآخذ

ولنفرض المالَ من أموال المصالح كأربعة أخماس الفىء ، والمواريث ، فإنَّ ما عداه مما قد تعيَّن مستحقُّه إنْ كان من وقفٍ أو صدقة ، أو خُمس فىء أو خمسِ غنيمة ، وما كان من مِلك السلطان ممَّا أحياه أو اشتراه فله أن يعطيَ ما شاء لمن شاء . وإنَّما النظرُ فى الأموال الضائعة ومال المصالح فلا يجوز صرفُه إلَّا إلى من فيه مصلحةٌ عامَّةٌ ، أو هو محتاجٌ إليه عاجزٌ عن الكسب ، فأمَّا الغنيُّ الذى لا مصلحةَ فيه فلا يجوز صرف مال بيت المال إليه . هذا هو الصحيح وإنْ كان العلماء قد اختلفوا فيه وفى كلام عمر رضى الله عنه ما يدلُّ على أنَّ لكلِّ مسلمٍ حقًّا فى بيت المال ، لكونه مسلماً مكثِّراً جَمْعَ الإسلام ، ولكنَّه مع هذا ما كان يَقسِم المال على المسلمينَ كافَّة ، بل على مخصوصين بصفات . فإذا ثبتَ هذا فكلُّ من يتولى أمرًا يقوم به تتعدَّى مصلحتُه إلى المسلمين ولو اشتغل بالكسب لتعطَّل عليه ما هو فيه ؛ فله فى بيت المال حقُّ الكفاية ويدخل فيه العلماءُ كلُّهم ، أَعْنِى العلومَ التى تتعلَّق بمصالح الدين من علم الفقه والحديث والتفسير والقراءة . حتى يدخُل فيه المعلِّمون والمؤذِّنون . وطلبةُ هذه العلوم أيضاً يدخلون فيه ؛ فإنَّهم إنْ لمْ يُكْفَوْا لم يتمكنوا من الطلب . ويدخل فيه العُمَّال ؛ وهم الذين ترتبط مصالحُ الدنيا بأعمالهم ، وهم الأجناد المرتزقة الذين يحرسون المملكة بالسُّيوف عن أهل العداوة

وأهل البغى وأعداء الإسلام . ويدخل فيه الكُتّاب والحُسّاب والوكلاء ، وكل من يُحتاج إليه فى ترتيب ديوان الخراج ، أعنى العمّالَ على الأموال الحلال لا على الحرام . فإنّ هذا المالَ للمصالح .

والطبيب وإن كان لا يرتبط بعلمه أمرٌ دينى ولكنْ يرتبط به صحة الجسد ، والدِّين يتبعه ؛ فيجوز أن يكون له ولمن يجرى مَجراه فى العلوم المحتاج إليها فى مصلحة الأبدان أو مصلحةِ البلاد إدرارٌ من هذه الأموال ، ليتفرّغوا لمعالجة المسلمين ؛ أعنى مَن يعالج منهم بغير أجرة . وليس يشترط فى هؤلاءِ الحاجة ، بل يجوز أن يُعطَوْا مع الغنى ؛ فإنّ الخلفاء الراشدين كانوا يُعطون المهاجرينَ والأنصار ولم يُعرفوا بالحاجة .

الباب السّادس

فيما يحل من مخالطة السَّلاطين الظَّلمة ويحرم
وحكم غشيان مجالسهم والدخول عليهم والإكرام لهم

اعلم أنَّ لك مع الأُمراءِ والعمالِ الظَّلمةِ ثلاثةَ أحوال :

الحالة الأُولى : وهى شرُّها : أنْ تدخل عليهم .

والثانية ، وهى دونها : أنْ يدخُلوا عليك .

والثالثة ، وهى الأَسلم : أن تعتزل عنهم فلا تراهم ولا يرونك .

أَما الحالة الأُولى : وهى الدخول عليهم فهو مذمومٌ جداً فى الشرع ؛ وفيه تغليظاتٌ وتشديدات تواردت بها الأَخبار والآثار .

أَما الأَخبار ، فإنه :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سيكون من بعدى أُمَرَاءُ يكذِبون ويَظلِمون ، فمن صدَّقهم بكَذِبهم وأعانهم على ظُلمهم فليس منِّى ولَسْتُ منه ، ولم يرِدْ على الحوض » .

وأَما الآثارُ : فقـــد قال حُذيفة : إيَّاكم ومواقف الفتن ! قيل : وما هى؟ قال : أبواب الأُمراءِ ، يدخل أحدُكم على الأَمير فيصدِّقُه بالكذب ويقول ماليس فيه .

وقالَ أبو ذرٍّ لسلمةَ : ياسلَمة ، لا تَغْشَ أبوابَ السلاطين ، فإنك لا تصيب من دنياهم شيئاً إلَّا أَصابوا من دينك أفضل منه .

وقال الفُضَيل : ما ازداد رجلٌ من سلطان قُربًا إلَّا ازداد من الله بعدًا.

وكان سعيد بن المسيب يَتْجر فى الزيت ويقول : إن فى هذا لَغِنًى عن هؤلاء السلاطين .

الحالة الثانية : أنْ يدخلَ عليك السلطانُ الظالم زائراً ، فجواب السلام لابدَّ منه ، وأمَّا القيام والإكرام له فلا يحرُم ، مقابلةً له على إكرامه ، ولكنَّ الأَوْلى ألاَّ يقومَ إنْ كان معه فى خلوة ، ليُظْهِر له بذلك عزَّ الدين وحَقارةَ الظلم ، ويُظهر غضبه للدين وإعراضه عمن أعرض عن الله فأعرضَ الله تعالى عنه . وإن كان الداخل عليه فى جمعٍ فمراعاة حِشمة أرباب الولايات فيما بين الرَّعايا مهمٌّ ، فلا بأس بالقيام على هذه النية .

الحالة الثالثة : أن يعتزلَهم فلا يراهم ولا يرَوْنه ، وهو الواجب، إذْ لا سلامةَ إلاَّ فيه .

فإن قلت : فقد كان علماء السلف يدخلون على السلاطين .

فأقول : نعم . تعلَّم الدخولَ منهم ثم ادخل ، كما حكى أنَّ هشام ابن عبد الملك قَدِمَ حاجًّا إلى مكةَ ، فلما دخَلها قال : ائتونى برجل من الصحابة . فقيل : يا أمير المؤمنين ، قد تفانَوْا . فقال : من التابعين . فأُتى بطاوسٍ اليمانى ، فلمَّا دخل عليه خلع نَعليه بحاشية بساطه ، ولم يسلِّم عليه بإمْرة المؤْمنين ، ولكن قال السَّـلامُ عليك يا هشام . ولم يكنِّهِ وجلسَ بإزائه وقال : كيف أنت يا هشام ؟ فغضب هشامٌ غضباً شديداً حتَّى همَّ بقتله ، فقيل له : أنت فى حَرَم الله وحرم رسوله ولا يمكن ذلك . فقال له : يا طاوس . ما الذى حملك على ما صنعتَ ؟ قال : وما الذى صنعتُ ؟ فازداد غضباً وغيظاً ، قال : خلعتَ نعليك بحاشية

بساطى . ولم تَقَبَّلْ يدى ، ولم تسلِّم علىَّ بإمرة المؤمنين ، ولم تُكَنِّنى ، وجلستَ بإزائِى بغير إذنى ، وقلتَ : كيف أنت ياهشام ؟ قال : أمَّا ما فعلت من خلع نعلىَّ بحاشية بساطك فإنِّى أخلعها بين يدَى ربِّ العزةِ كلَّ يومٍ خمسَ مرات ولا يعاقِبُنى ولا يغضَبُ علىَّ . وأما قولك : لمْ تقبِّلْ يدى ، فإنِّى سمعتُ أميرَ المؤمنين علىَّ بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : لا يحلُّ لرجلٍ أن يُقَبِّل يد أحدٍ إلَّا امرأتَه من شهوة ، أو ولدَه من رحمة . وأما قولك : لم تسلِّمْ علىَّ بإمرة المؤمنين ، فليس كلُّ الناس راضين بإمرتك ، فكرهتُ أن أكذب . وأما قولُك : لم تكنِّنى ، فإن الله تعالى سمَّى أنبياءه وأولياءه فقال : يا يحيى ، يا عيسى ، وكنى أعداءه فقال : (تبَّتْ يَدَا أبى لَهَب) . وأما قولك . جلست بإزائِى ، فإنِّى سمعتُ أمير المؤمنين عَلِيًّا رضى الله عنه يقول : إذا أردت أن تنظر إلى رجلٍ من أهل النار فانظر إلى رجلٍ جالسٍ وحوله قومٌ قيام . فقال له هشام : عِظْنى . فقال : سمعت من أمير المؤمنين علىَّ رضى الله عنه يقول : إنَّ فى جهنَّمِ حيَّاتٍ كالقِلال[1] ، وعقاربَ كالبغال . تلدغ كلَّ أمير لا يَعدِل فى رعيته .

ثم قام وهَرَب .

(١) القلال : جمع قلة ، وهى الجرة العظيمة

الباب السابع

في مسائل متفرقة يكثر مسيس الحاجة إليها
وقد سئل عنها فى الفتاوى

مسألة : سُئل عن خادم الصوفية يخرُج إلى السُّوق ويَجمع طعامًا أو نقْداً ويشترى به طعاماً ، فمن الذى يحلُّ له أن يأكل منه ؟ وهل يختص بالصُّوفية أم لا ؟

فقلتُ : أمَّا الصوفية فلا شبهةَ فى حقِّهم إذا أكلوه ، وأما غيرهم فيحلُّ لهم إذا أكلوه برضا الخادم ، ولكن لا يخلو عن شبهة .

مسألة : سُئل عن مالٍ أُوصِيَ به للصوفية ، فمن الذى يجوز أن يُصرَف إليه ؟

فقلت : التصوّفُ أمرٌ باطن لا يُطَّلع عليه ، ولا يمكن ضبطُ الحكم بحقيقته ، بل بأُمورٍ ظاهرةٍ يعوِّل عليها أهلُ العُرْف فى إطلاق اسم الصوفى . والضابط الكلىُّ أنَّ كلَّ من هو بصفةٍ إذا نزل فى خانقاه الصوفية لم يكن نزوله فيها و اختلاطه بهم منكَراً عندهم ، فهو داخلٌ فى غِمارهم . والتفصيل أن يُلاحظَ فيه خَمْس صفات : الصَّلاح ، والفقر ، وزِىُّ الصوفية ، وأن لا يكونَ مشتغِلًا بحرفة ، وأن يكونَ مخالطاً لهم بطريق المساكنة فى الخانِقاه.

مسألة : ما وُقف على رِباط الصوفية وسُكَّانه فالأَمرُ فيه أوسعُ مما أُوصِيَ لهم به ، لأَنَّ معنى الوقفِ الصرفُ إلى مصالحهم ؛

فلغير الصوفى أنْ يأكلَ معهم برضاهم على مائدتهم مرّةً أو مرتين، فإنَّ أمرَ الأطعمة مبناه على التسامح ، حتى جاز الانفراد بها فى الغنائم المشتركة ، وللقَوّال[1] أن يأكل معهم فى دعوتهم من ذلك الوقف ، وكان ذلك من مصالح معايشهم .

وما أوصىَ به للصوفية لا يجوز أن يُصرَف إلى قَوّال الصوفية بخلاف الوقف ، وكذلك من أحضروه من العمال والتجار والقضاة والفقهاء ، ممن لهم غرض فى استمالة قلوبهم ، يحلُّ لهم الأكل برضاهم ، فإن الواقفَ لا يقف إلا معتقداً فيه ما جرت به عادات الصوفية ، فيُنزَّل على العرف.

---

(١) المراد بالقوال المنشد .

الكتاب الخامس

كتاب آداب الألفة والأخوة والصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق

الباب الأول

فى فضيلة الألفة والأخوة ، وفى شروطها ، ودرجاتها ، وفوائدها

فضيلة الألفة والأخوة

اعلم أنَّ الأُلفة ثمرة حسن الخلق . والتفرُّقَ ثمرة سوء الخلق . فحسن الخلق يُوجِبُ التَّحابَّ والتآلف والتوافق ، وسوءُ الخلق يُثمر التباغُضَ والتحاسُدَ والتدابُرَ . ومهما كان المثمِرُ محموداً كانت الثمرةُ محمودةً . وحسن الخلق لا تخفَى فى الدين فضيلتُه ، وهو الذى مدح اللهُ سبحانَه به نبيَّه عليه السلام ، إذ قال : (وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) . وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « أكثرُ ما يُدْخِلُ الجنةَ تقوى الله وحُسنُ الخلق » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « بُعِثتُ لأُتَمِّمَ محَاسِنَ الأَخلاقِ »

وقال عيسى عليه السلام تحبَّبُوا إلى الله بِبُغض أهل المعاصى ، وتقرَّبوا إلى الله بالتباعُدِ منهم . والتَمِسُوا رضا الله بسُخطِهم . قالوا : ياروحَ الله ؟ فمَنْ نُجالس ؟ قال : جالسوا مَن تُذكِّرُكم الله رؤيتُه . ومَنْ يزيد فى عَمَلِكم كلامُه . ومن يُرَغِّبُكم فى الآخرة عملُه .

الآثار : قال عليّ رضي الله عنه : عليكم بالإخوان فإنّهم عُدَّةٌ في الدنيا والآخرة . ألا تسمع إلى قول أهل النار : (فما لَنَا من شافعينَ ، ولا صديقٍ حَميم) . وقال عبد الله بن عُمرَ رضي الله عنهما : واللهِ لو صُمت النهار لا أُفطِرُهُ ، وقمتُ الليلَ لا أنامُه ، وأنفقتُ مالي عِلْقاً عِلْقاً[1] في سبيل الله ، أموتُ يومَ أموت وليس في قلبي حُبٌّ لأهلِ طاعة الله ، وبُغْضٌ لأهلِ معصية الله ، ما نَفَعني ذلك شيئاً .

وقال عمر رضي الله عنه : إذا أصاب أحدكُم وُدًّا من أخيه فليتمسَّكْ به ، فقلّما يصيب ذلك .

وقال الفُضَيْل[2] : نَظَرُ الرجُلِ إلى وجه أخيه على المودَّة والرحمة عبادةٌ .

بيان الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته

اعلم أنّه لا يَصلُح للصُّحبة كلُّ إنسان . قال صلى الله عليه وسلم : « المرءُ على دينِ خَليله . فلينظرْ أحدُكم من يُخالِل » ولا بدَّ أن يتميز بخصالٍ وصفاتٍ يُرغَب بسببها في صُحبته ، وتشترط تلك الخصالُ بحسب الفوائد المطلوبة من الصُّحبة ، إذْ معنى الشرط مالابدَّ منه للوصول إلى المقصود . فبالإضافة إلى المقصود تظهر الشروط .

ويُطلب من الصحبة فوائد دينية ودنيوية .

أما الدنيويَّة فكالانتفاع بالمال . أو الجاه . أو مجرد الاستئناس

---

(١) العلق . بالكسر . النفيس ، والأعلاق نفائس الأموال ، سميت لتعلق النفس بها

(٢) هو الفضيل بن عياض الزاهد الخراساني ، وكان شاطراً يقطع الطريق ، ثم تاب ، وجاور البيت الحرام ، مشتغلا بالعبادة والنسك ، إلى أن توفي سنة ١٨٦

بالمشاهدَة والمجاورة . وليس ذلك من أغراضنا .

وأما الدينية فيجتمع فيها أغراضٌ مختلفة ، إذْ منها الاستفادة من العلم والعمل ، ومنها الاستفادة من الجاه تحصُّناً به عن إيذاء من يشوِّش القلبَ ويصُدّ عن العبادة . ومنها استفادة المال للاكتفاء به عن تضييع الأوقات فى طلب القُوت ، ومنها الاستعانة فى المهمَّات فيكون عـدَّةً فى المصائب ، وقوةً فى الأحوال . ومنها التبرُّك بمجرد الدعاء . ومنها انتظار الشَّفاعة فى الآخرة ؛ فقد قال بعض السلف : استكثروا من الإخوان فإنَّ لكلِّ مؤمن شفاعةً ، فلعلَّك تدخل فى شفاعة أخيك .

فهذه فوائد ، تستدعى كلُّ فائدةٍ شروطاً لا تحصُل إلاَّ بها ، ونحن نُفَصِّلها . أما عـلى الجملة فينبغى أن تكون فى مَن تُؤْثَر صحبته خمس خِصَال : أن يكون عاقلاً ، حسنَ الخُلُق ، غيرَ فاسقٍ ، ولا مبتدعٍ ، ولا حريصٍ على الدنيا .

أما العقل فهو رأسُ المال ، وهو الأَصل ، فلا خير فى صُحْبة الأحمق ، فإلى الوحشة والقطيعة ترجع عاقبَتُها وإنْ طالت . قال علىٌّ رضى الله عنه :

فلا تصحبْ أخا الجهلِ وإيّـــاكَ وإيّـــاهُ
فكم من جاهلٍ أَردى[1] حليمـاً حين آخــاهُ
يُقـاسُ المـرءُ بالمرءِ إذا مـا المرءُ مـاشـاهُ
وللشىءِ مـن الشىءِ مقـاييسٌ وأشبــاهُ
وللقلب على القـلب دليـلٌ حينَ يلقــاهُ

كيف والأحمق قد يضرُّك وهو يريد نفعك وإعانتك من حيث لا يدرى . ولذلك قال الشاعر :

(١) أرداه : أهلكه .

إنِّى لآمَنُ من عـــدوٍّ عـــاقل　　وأخـــاف خِلاًّ يعتريه جُنـــونُ
فالعقل فنٌّ واحـــدٌ وطريقـــه　　أدرِى فأرصُد ، والجنونُ فنونُ

ولذلك قيل : مقاطعة الأحمق قُربانٌ إلى الله .

وقال الثورى : النظرُ إلى وجه الأحمق خطيئة مكتوبة .

وأمّا حُسْن الخُلُق فلابدّ منه ، إذْ رُبَّ عاقلٍ يدرك الأشياء على ماهىَ عليه ، ولكن إذا غلبه غضبٌ أو شهوة أو بُخْل أو جُبْن ، أطاع هواه وخالف ما هو المعلوم عنده ؛ لعجزه عن قهر صفاته ، وتقويم أخلاقه ؛ فلا خير فى صحبته .

وأما الفاسِقُ المصِرُّ على الفسق فلا فائدةَ فى صحبته ؛ لأنَّ من يخاف الله لا يُصِرُّ على كبيرة ، ومن لا يخاف الله لا تُؤمَن غائِلته ، ولا يُوثَق بصداقته ، بل يتغيَّر بتغيُّر الأغراض . وقال تعالى : (ولا تُطِعْ مَنْ أغفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكرِنا واتَّبَعَ هَواه) .

وأمّا المبتدع ففى صحبته خطرُ سِراية البدعة[1] وتعدِّى شؤمِها إليه ، فالمبتدِع مستحقٌّ للهجر والمقاطعة ، فكيف تُؤْثَر صحبته ؟

وأما حُسْنُ الخُلق فقد جمعه علقمةُ العُطارِدىُّ فى وصيته لابنه حين حضرته الوفاة ، قال : يا بُنَىَّ ، إذا عرضَتْ لك على صحبة الرجال حاجةٌ فاصحب مَن إذا من خدَمْته صانك ، وإن صحِبتَه زانك ، وإذا قعدَتْ بك مُؤْنة مانَك[2] . اصحب من إذا مددت يدَك بخيرٍ مدَّها ، وإن رأى منك حسنةً عدَّها ، وإن رأى سيئةً سدَّها . اصحب مَن إذا سأَلته أعطاك

---

(١) السراية : بكسر السين : مصدر سرى يسرى .

(٢) مانه يمونه : قام بمؤنته .

وإن سكتَّ ابتداك ، وإن نزلَتْ بك نازلةٌ واساك . اصحب مَنْ إذا قلت صدّق قولَك ، وإن حاولتما أمرًا أمَّرَكَ[1] ، وإنْ تنازعتما آثَرك.

فكأنه جمع بهذا جميعَ حقوق الصحبة، وشَرَط أن يكون قائماً بجميعها .

قال ابن أكثم : قال المأمون : فأين هذا ؟ فقيل له : أتدرى لم أوصاه بذلك ؟ قال : لا . قال : لأنه أراد أن لا يصحب أحداً !

(١) أى جعلك أميراً مطاعاً .

الباب الثانى

في فَضِيلة الأُلْفة والأُخوَّة

وذلك يجمعه ثمانية حقوق :

الحق الأول : فى المال

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَثل الأخوين مثلُ اليدين تَغسِلُ إحداهما الأُخرى » . وإنّما شبّههما باليدين لا باليد والرجْل ، لأنّهما يتعاونان على غرض واحد . فكذا الأَخَوانِ إنّما تمّ أُخُوّتُهما إذا ترافقا فى مقصِدٍ واحد ، فهما من وجه كالشخص الواحد ، وهذا يقتضى المساهمةَ فى السَّرَّاء والضَّرَّاء ، والمشاركة فى المآل والحال ، وارتفاع الاختصاص والاستئثار .

والمواساة بالمال مع الإخْوة على ثلاث مراتب :

أدناها : أنْ تُنزله منزلةَ عبدك أو خادمك فيقوم بحاجةٍ من فَضْلةِ مالك ، فإذا سَنَحتْ له حاجةٌ وكانت عندك فضلة عن حاجتك أعطيته ابتداءً ولم تُحْوِجْه إلى السؤال ، فإن أحوجْتَه إلى السؤال فهو غاية التقصير فى حق الأُخُوَّة .

الثانية : أنْ تُنزله منزلَة نفسك وترضَى بمشاركته إياك فى مالك ، ونزوله منزلتك ، حتّى تسمح بمشاطرته فى المال . قال الحسن : كان أحدُهم يشقُّ إزارَه بينه وبين أخيه .

الثالثة : وهى العُليا أنْ تُؤْثره على نفسك ، وتقدّم حاجتَه على حاجتك . وهذه رُتبة الصِّدِّيقين ، ومنتهى درجات المتحابِّين . ومن ثمار هذه الرُّتبة الإيثارُ بالنفس أيضاً ؛ كما روى أنه سُعِيَ بجماعة من الصوفية إلى بعض الخلفاء ، فأَمَرَ بضرب رقابهم وفيهم أبو الحسين النُّورى ، فبادر إلى السَّيَّاف ليكون هو أوّلَ مقتول ، فقيل له فى ذلك فقال : أحببت أن أوثر إخوانى بالحياة فى هذه اللّحظة ، فكان ذلك سبَب نجاةِ جميعهم.

الحق الثانى

فى الإعانة بالنفس فى قضاء الحاجات

والقيام بها قبل السؤال وتقديمها على الحاجات الخاصة

وهذه أيضاً لها درجات كما للمواساة بالمال ، فأدناها القيام بالحاجة عند السؤال والقُدرة ، ولكن مع البشاشة والاستبشار وإظهارِ الفرَح وقَبول المِنَّة . قال بعضهم : إذَا استقضيت أخاك حاجةً فلم يقضها فذكِّره ثانيةً فلعلّه أنْ يكون قد نَسِى .

وقضى ابنُ شُبرُمَةَ حاجةً لبعض إخوانه كبيرةً ، فجاءه بهدية ؛ فقال : ما هذا ؟ قال : لما أسديتَه إلىَّ . فقال : خُذْ مالك عافاك الله ، إذا سألت أخاك حاجة فلم يُجهِد نفسه فى قضائِها فتوضَّأ للصلاة وكبِّر عليه أربعَ تكبيرات وعُدَّه فى الموتى .

قال جعفر بن محمد : إنِّى لأتسارع إلى قضاء حوائِج أعدائى مخافةَ أن أردَّهم فيستغنوا عنى .

هذا فى الأعداء فكيف فى الأصدقاء ؟

وكان فى السلف مَن يتفقّد عيال أخيه وأولادَه بعد موته أربعين سنة ، يقومُ بحاجتهم ، ويترددُ كلَّ يوم إليهم ويَمُونهم من ماله ، فكانوا لا يَفقدون من أبيهم إلا عَينه ، بل كانوا يَرَوْن منه ما لم يَرَوْا من أبيهم فى حياته .

وبالجملة فينبغى أن تكون حاجةُ أخيك مثلَ حاجتكِ ، أو أهمَّ من حاجتك ، وأن تكون متفقِّداً لأوقات الحاْجة ، غيرَ غافل عن أحواله ، كما لا تغفُل عن أحوال نفسك ، وتغنيه على السؤال وإظهار الحاجة إلى الاستعانة ، بل تقومُ بحاجته كأنَّك لا تدرِى أنَّك قمت بها .

الحق الثالث

فى اللسان بالسكوت مرة وبالنطق أخرى

أمّا السكوت فهو أن يسكُتَ عن ذكر عيوبه فى غَيبته وحَضْرته ، بل يتجاهل عنه ، ويسكتُ عن الردِّ عليه فيما يتكلَّم بِه ، ولا يماريه[1] ولا يناقشه . وأن يسكت عن التجسُّس والسؤالِ عن أحواله ، وإذا رآه فى طريقٍ أو حاجة لم يفاتحه بذكر غرضه من مَصدره ومورده ، ولا يسأله عنه ، فربما يثقل عليه ذكره ، أو يحتاج إلى أن يكذب فيه . وأن يسكت عن حكاية قَدْح غيره فيه ، فإن الذى سبَّك مَنْ بلَّغكَ .

أما ذكر مساويه وعيوبه ومساوى أهله ، فهو من الغِيبة ، وذلك حرامٌ فى حقِّ كلِّ مسلم . ويزجرك عنه أمران :

أحدهُما : أن تطالع أحوالَ نفسك ، فإن وجدت فيها شيئاً واحدًا

---

(١) المماراة : المجادلة والمخالفة .

مذمومًا فهوِّنْ على نفسك ما تراه من أخيك ، وقدِّرْ أنه عاجزٌ عن قهر نفسِه فى تلك الخَصلة الواحدة ، كما أنَّك عاجزٌ عما أنتَ مبتلًى به . ولا تستثقله بخصلة واحدة مذمومة ، فأىُّ الرجال المهذَّب ؟

والأمر الثانى : أنَّك تعلم أنَّك لو طلبتَ منزَّهاً عن كل عيب اعتزلتَ عن الخلق كافَّة ، ولن تجدَ من تصاحبه أصلًا ، فما من أحد من الناس إلا وله محاسنُ ومساوٍ ، فإذا غلبت المحاسنُ المساوىَ فهو الغاية والمنتهى.

قال ابن المبارك : المؤمن يطلب المعاذير ، والمنافق يطلب العَثَرات .

وكما يجب عليك السكوتُ بلسانك عن مساويه ، يجبُ عليك السكوتُ بقلبك ، وذلك بترك إساءة الظنِّ ، فسوءُ الظنِّ غِيبة بالقلب ، وهو منهِيٌّ عنه أيضاً .

الحق الرابع : على اللسان بالنطق

فإنَّ الأُخُوَّة كما تقتضى السكوت على المكاره تقتضى أيضًا النطق بالمحابِّ، بل هو أخصُّ بالأُخُوَّة ، لأن مَن قَنعَ بالسكوت صحَب أهل القبور ، وإنما تُراد الإخوانُ ، ليستفادَ منهم ، لا ليُتَخَلَّص عن أذاهم . والسكوت معناه كفُّ الأذى ، فعليه أنْ يتودَّدَ إليه بلسانه ، ويتفقَّدَه فى أحواله التى يجب أن يُتفقَّد فيها ، كالسؤال عن عارض إن عَرَض ، وإظهارِ شغل القلب بسببه ، واستبطاء العافية عنه . وكذا جملةُ أحواله التى يكرهها ، ينبغى أن يُظهر بلسانه وأفعاله كراهَتها . وجملةُ أحواله التى يُسرُّ بها ، ينبغى أن يُظهر بلسانه مشاركته له فى السرور بها . فمعنى الأُخوَّةُ المساهمةُ فى السَّرَّاء والضَّرَّاء . وقد قال عليه السلام : « إذا أحبَّ أحدكُم أخاه فليُخبره » . وإنما أمَر بالإخبار لأنَّ ذلك يوجب زيادةَ حُبٍّ.

فإنْ عرفَ أنك تحبه أحبَّك بالطبع لا محالة ، فإذا عرفتَ أنه أيضاً يحبُّك زاد حبُّك لا محالة ، فلا يزال الحبُّ يتزايد من الجانبين ويتضاعف.

ومن ذلك أن يدعُوَه بأحبِّ أسمائِه إليه فى غَيبته وحضوره .

ومن ذلك أن تُثْنِيَ عليه ممَّا تعرف من محاسن أحواله عندَ من يُؤْثِر هو الثناء عنده ، فإنَّ ذلك من أعظم الأسباب فى جَلْب المحبة ، وكذلك الثناءُ على أولاده ، وأهله ، وصَنعته وفعله ، حتَّى على عقله وخَلْقه وهيئَته وخَطِّه وشِعْره ، وتصنيفه ، وجميع ما يفرح به ، وذلك من غير كِذبٍ وإفراط .

وآكَدُ من ذلك أن تُبلغَه ثناءَ مَن أثنىٰ عليه ، مع إظهار الفرح ، فإنَّ إخفاء ذلك مَحضُ الحسد .

وأعظم من ذلك تأثيراً فى جلب المحبة الذبُّ عنه فى غَيبته مهما قُصِدَ بسُوء ، أو تُعُرِّض لِعرضِه بكلامٍ صريح أو تعريض؛ فحقُّ الأُخوة التشمير فى الحماية والنُّصرة ، وتبكيتُ المتعنِّت ، وتغليظ القول عليه. والسكوتُ عن ذلك مُوغِرٌ للصَّدر ، ومنفِّر للقلب، وتقصيرٌ فى حق الأُخوَّة.

ومن ذلك التعليمُ والنصيحة ، فليس حاجة أخيه إلى العلم بأقلَّ من حاجته إلى المال .

ولكنْ ينبغى أن يكون ذلك فى سرٍّ لا يطَّلع عليه أحد . فما كان على الملأ فهو توبيخٌ وفضيحة ، وما كان فى السرِّ فهو شفقة ونصيحة .

وقال الشافعى رضى الله عنه : مَن وَعَظ أخاه سرًّا فقد نصحه وزَانَه ، ومن وعظه علانيةً فقد فضحَه وشانَه .

الحق الخامس : العفو عن الزَّلات والهفوات

وهفوة الصديق لا تخلو إمَّا أن تكون فى دينهِ بارتكاب معصية ، أو فى حقِّك بتقصيرهِ فى الأُخوَّة .

أما ما يكون فى الدين من ارتكاب معصية والإصرار عليها فعليك التلطُّفَ فى نصحه بما يقوِّم أَوَدَه[1] ويجمع شمله . ويعيد إلى الصلاح والورَع حالَه . فإنْ لم تقدرْ وبقى مصراً فقد اختلفت طرقُ الصحابة والتابعين فى إدامة حقِّ مودَّته أو مقاطعته . فذهب أبو ذرٍّ رضى الله عنه إلى الانقطاع ، وقال : إذا انقلب أخوك عما كان عليه فأَبغِضْه من حيث أحببتَه . ورأى ذلك من مقتضى الحبُّ فى الله والبغض فى الله . أمَّا أبو الدرداء وجماعةٌ من الصحابة فذهبوا إلى خلافِهِ ؛ فقال أبو الدرداء: إذا تغيَّر أخوك وحال عمَّا كان عليه فلا تدَعْه لأَجل ذلك . فإنَّ أخاك يعوَجُّ مرَّةً ويستقيمُ أخرى.

أما زَلَّتهُ فى حقِّه بما يوجب إيحاشَه فلا خلاف فى أنَّ الأَولى العفوُ والاحتمال ، بل كلُّ ما يحتمل تنزيله على وجه حَسَن ، ويُتَصوَّر تمهيد عذر فيه قريب أو بعيد ، فهو واجبٌ بحقِّ الأُخوَّة .

ومهما اعتذر إليك أخوك كاذبًا كان أو صادقاً فاقبلْ عذرَه .

الحق السادس

الدعاءُ للأخ ، فى حياته وبعد مماته ، بكلِّ ما يحبُّه لنفسه ولأهله وكلِّ متعلِّق به ، فتدعو له كما تدعو لنفسك ، ولا تفرِّق بين نفسك وبينه ، فإنَّ دعاءك له دعاءٌ لنفسك على التحقيق؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم: « إذا دعا الرجل لأخيه فى ظَهر الغَيب قال المَلَك : ولك مثلُ ذلك » .

وكان أبو الدرداء يقول : إنِّى لأدعو لسبعين من إخوانى فى سُجودى أسمِّيهم بأسمائِهم .

---

(١) الأود : العوج .

الحق السابع

الوفاء والإخلاص

ومعنى الوفاء : الثباتُ على الحب وإدامته إلى الموت معه ، وبعد الموت مع أولاده وأصدقائِه . فإنَّ الحبَّ إنَّما يراد للآخرةِ ؛ فإن انقطع قبل الموت حَبِط العمل وضاعَ السعى .

وقال بعضهم : قليل الوفاء بعد الوفاة خيرٌ من كثيرِه فى حال الحياة؛ ولذلك روى أنَّه صلى الله عليه وسلم أكرمَ عجوزاً دخلت عليه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : « إنَّها كانت تأْتينا أيَّامَ خديجة . وإنَّ كرمَ العهد من الدين » .

ومن الوفاء أن لا يتغيرَ حاله فى التواضع مع أخيه وإن ارتفع شأْنُه واتَّسعت ولايته وعظم جاهه . فالترفُّعُ على الإخوان بما يتجدَّد من الأَحوال لُؤْم . قال الشاعر[1] :

إنَّ الكرامَ إذا ما أيسروا ذَكَروا　　من كان يأْلَفُهم فى المنزل الخشنِ

واعلم أنه ليس من الوفاء موافقةُ الأَخ فيما يخالف الحقَّ فى أمرٍ يتعلَّق بالدين ، بل من الوفاء له المخالفة ، فقد كان الشافعى رضى الله عنه آخَى محمدَ بن عبد الحكم ، وكان يقرِّبه ويُقبل عليه ، ويقول . ما يقيمنى بمصرَ غيره ؛ فاعتلَّ محمد فعاده الشافعىُّ رحمه الله تعالى ، فقال .

مَرِض الحبيبُ فعُدْتُهُ　　فمرضتُ من حذَرى عليهْ

وأتى الحبيب يعودنى　　فبرئت من نظرى إليهْ

(١) هو البحترى . شرح المضنون به على غير أهله ٢٢٣ .

وظنَّ الناس لصدق مودّتهما أنه يفوِّضُ أمْرَ حَلْقته إليه بعد وفاته ، فقيل للشافعي في علّته التي مات فيها رضي الله عنه : إلى من نجلس بعدك يا أبا عبد الله ؟ فاستشرفَ له محمد بن عبد الحكم وهو عند رأسه ليومئ إليه[1] ؛ فقال الشافعي : سبحانَ الله أيُشَكُّ في هذا ؟ أبو يعقوبَ البُوَيطيّ[2] ! فانكسر لها محمد، ومال أصحابه إلى البُويطي مع أنَّ محمداً كان قد حمل عنه مذهبه كلَّه ؛ لكنْ كان البويطيُّ أفضلَ وأقرَب إلى الزُّهد والورع .

الحق الثامن

التخفيف وترك التكلف والتكليف

وذلك بأَنْ لا يكلِّف أخاه ما يشقُّ عليه ، بل يروِّح سرَّه من مهماته وحاجاته ، ويرفِّهه عن أن يحمِّله شيئاً من أعبائِه ؛ فلا يستمدّ منه من جاه ومال ، ولا يكلِّفه التواضعَ له والتفقُّد لأحواله ، والقيامَ بحقوقه ، بل لا يقصد بمحبته إلاَّ الله تعالى ، تبركاً بدعائِه ، واستئْناساً بلقائِه .

وقال الفُضَيل : إنَّما تقاطَعَ الناسُ بالتكلُّف : يزورُ أحدُهم أخاه فيتكلَّف له ، فيقطعُه ذلك عنه .

وكان جعفر بن محمد الصادقِ رضي الله عنهما يقول : أثقلُ إخواني علَيَّ من يتكلَّف لي وأتحفَّظ منه ، وأخفُّهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي .

---

(١) أومأ : أشار .

(٢) هو أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطي المصري الفقيه . وكان قد حمل إلى بغداد أيام المحنة بخلق القرآن فامتنع من الإجابة ، ولم يزل محبوساً حتى توفي سنة ٢٣١ . وبويط : قرية بصعيد مصر قرب بوصير ، وأخرى في كورة أسيوط ، وهو ينسب إلى إحداهما ، كما ذكر ياقوت

الباب الثالث

في حق المسلم والرَّحِم والجِوَار والمِلْك

وكيفية المعاشرة

اعلم أنَّ الإنسان إمّا أنْ يكون وحدَه أو مع غيره ، وإذا تعذَّر عَيش الإنسان إلّا بمخالطة من هو من جنسه لم يكن له بدٌّ من تعلم آداب المخالطة .

والرابطة إمّا القرابةُ وهي أخصُّها ، أو أخوَّةُ الإسلام وهي أعمُّها - وينطوي في معنى الأُخوّة الصداقة والصحبة - وإمّا الجوارُ ، وإما صُحبة السفر والمكتب والدرس ، وإمّا الصداقة أو الأُخوَّة .

ولكلٍّ واحدٍ من هذه الروابط درجاتٌ . فالقرابة لها حقٌّ ولكنّ حق الرحمِ المَحْرَم آكدُ ، وللمحْرَم حقٌّ ولكن حق الوالدين آكدُ . وكذلك حق الجار ، ولكن يختلف بحسب قُربه من الدار وبعده . ويظهر التفاوت عند النسبة حتَّى إنَّ البلديَّ في بلاد الغُربة يجري مجرى القريب في الوطن ، لاختصاصه بحقِّ الجوار في البلد . وكذلك حق المسلم يَتأكَّد بتأكُّدِ المعرفة .

وللمعارف درجات ، فليس حقُّ الذي عُرف بالمشاهدة كحقّ الذي عُرف بالسماع ، بل آكد منه . والمعرفة بعد وقوعها تتأكد بالاختلاط . وكذلك الصحبة تتفاوت درجاتها ؛ فحق الصُّحبة في الدرس والمكتب آكَدُ من حق صحبة السفر . وكذلك الصداقة تتفاوت ؛ فإنها إذا قويت صارت أُخوَّة ، فإن ازدادت صارت محبة ، فإن ازدادت صارت خُلَّة . والخليل أقرب من الحبيب

هى : أن تسلِّم عليه إذا لقيته ، وتُجيبَه إذا دعاك ، وتشمِّتَه إذا عَطَس ، وتَعوده إذا مرِض ، وتشهدَ جنازته إذا مات ، وتَبَرَّ قسَمَه إذا أقسم عليك ، وتنصحَ له إذا استنصحك ، وتحفظه بظهر الغيب إذا غابَ عنك ، وتحبَّ له ما تحبُّ لنفسك ، وتكرَه له ما تكرهُ لنفسك .

ومنها : أن يبدأ كلَّ مسلم بالسلام قبل الكلام ، ويصافحه عند السلام.

وقال عليه السلام : « إذا انتهى أحدُكم إلى مجلسٍ فليسلِّم ، فإن بدا له أن يجلسَ فليجلس ، ثم إذا قام فليسلِّم ؛ فليست الأُولى بأَحقَّ من الأَخيرة » .

والقيام مكروهٌ على سبيل الإعظام لا على سبيل الإكرام .

وروى أنه عليه السلام قال مَرَّةً : « إذا رأيتمونى فلا تقوموا كما تَصنعُ الأعاجم » .

ومنها : أن يصونَ عِرْضَ أخيه المسلمِ ونفسَه وماله عن ظُلمِ غيره مهما قَدَر ، ويردَّ عنه ويناضلَ دونه وينصُرَه ، فإنَّ ذلك يجب عليه بمقتضى أُخوَّةِ الإسلام .

وقال جابرٌ وأبو طلحة : سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . « ما مِن امرئٍ مسلمٍ ينصر مسلماً فى موضع يُنْتَهكُ فيهِ عِرضُه ، ويُسْتَحلُّ حُرمته ، إلَّا نصره الله فى موطن يحبُّ فيه نصرَه . وما من امرئٍ خَذَل مسلماً فى موطنٍ يُنْتَهكُ فيه حرمته إلاَّ خَذَله الله فى موضع يحبُّ فيه نصرته » .

ومنها : تشميت العاطس . قال عليه الصلاةوالسلام فى العاطس :

« يقول : الحمد لله على كل حال ، ويقول الذى يشمِّته : يرحمكم الله ، فيردُّ عليه العاطس ويقول : يَهديكم الله ويصلح بالكم » .

ومنها : أنه إذا بُلى بذى شَرٍّ فينبغى أن يتحمَّلَه ويَتَّقيَه .

وقال أبو الدرداء : إنَّا لنبَتَسِّ فى وجوهِ أقوام وإنَّ قلوبنا لَتلْعَنُهم » . وهذا معنى المداراة ، وهى مع من يُخافُ شرُّه .

ومنها : أن يجتنب مخالطة الأغنياء ويختلطَ بالمساكين ، ويُحسنَ إلى الأيتام . كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم أَحْيِنى مسكيناً وأَمِتْنى مسكيناً ، واحشُرْنى فى زُمرة المساكين » .

ومنها أَنْ يعودَ مَرْضاهم . فالمعرفةُ والإسلامُ كافيان فى إثبات هذا الحقِّ ونُيْلِ فضله . وأدبُ العائد : خفَّةُ الجِلسة ، وقلَّةُ السؤال ، وإظهار الرِّقَّة ، والدعاءُ بالعافية ، وغضُّ البصر عن عَورات الموضع .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَن عاد مريضاً قَعَد فى مخارف الجنَّة[1] حتَّى إذا قامَ وُكِّل به سبعون ألفَ مَلَكٍ يصلُّون عليه حتَّى الليل » .

ومنها : أن يشيِّع جنائزهم . قال صلى الله عليه وسلم : « من شَيَّع جنازةً فله قيراطٌ من الأجر ، فإنْ وقف حتَّى تُدفن فله قيراطان » .

ومنها : أن يزور قبورهم ، والمقصود من ذلك الدعاءُ ، والاعتبار ، وترقيق القلب .

وقال عمر رضى الله عنه : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى المقابرَ فجلس إلى قبرٍ وكنت أدنى القوم منه ؛ فبكى وبكينا ، فقال : ما يبكيكم ؟ » قلنا : بكينا لبكائِك . قال : « هذا قبر آمنة بنت وهب ، استأْذنتُ ربِّى فى زيارتها فأَذِنَ لى ، واستأْذنتُه فى أَنْ أَستغفر لها فأَبى علىَّ ، فأَدركنى ما يُدرِكُ الولَدَ من الرقَّة » .

(١) المخارف : البساتين .

اعلم أنّ الجِوار يقتضى حقاً وراءَ ما تقتضيه أُخوّة الإسلام . فيستحق الجار المسلم ما يستحقُّه كلُّ مسلمٍ وزيادة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ كان يُؤْمِن بالله واليوم الآخِرِ فليُكْرِمْ جاره » . وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يُؤْمِنُ عبدٌ حتّى يأْمَنَ جارُه بَوَائِقَهُ[1] » .

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنَّ فلانَة تصوم النهار وتقوم الليل وتُؤْذِى جيرانها . فقال صلى الله عليه وسلم : « هى فى النار » .

وبلغ ابنَ المقفَّع أنَّ جاراً له يبيع دارَه فى دَينٍ ركبه ، وكان يَجلس فى ظلِّ داره ، فقال : ما قمتُ إذن بحرمة ظلِّ داره إن باعها مُعْدِمًا ! فدفع إليه ثمنَ الدار وقال : لا تبعْها .

وشكا بعضُهم كثرَة الفأْرِ فى داره ؛ فقيل له : لو اقتنيتَ هِرًّا ؟ فقال : أخشى أن يسمعَ الفأْرُ صوتَ الهرِّ فيهربَ إلى دور الجيران ، فأكونَ قد أحببت لهم مالا أحبُّ لنفسى .

وجملةُ حقِّ الجار : أن يبدأه بالسلام ، ولا يطيل معه الكلام ، ولا يكثر عن حاله السؤال ، ويعودَه فى المرض ، ويعزِّيَه فى المصيبة ، ويقوم معه فى العَزَاء ، ويهنِّئَه فى الفرح ، ويظهرَ الشِّرْكة فى السرور معه ، ويصفحَ عن زَلّاته ، ولا يتطلَّعَ من السَّطح إلى عَوراته ، ولا يضايقه فى وضع الجِذْع على جداره ، ولا فى مصبِّ الماءِ فى مِيزابه ، ولا فى مَطرح[2]

---

(١) البوائق : الغوائل والشر والظلم .

(٢) المطرح : موضع الطرح ، وهو إلقاء الشىء .

التُّراب فى نائِه ، ولا يضيِّقَ طريقه إلى الدار ، ولا يُتْبِعَه النظر فيما يحملُه إلى داره، ويسترَ ما ينكشف له من عوراته ، وينعَشَه مِن صَرعتِه إذا نابته نائِبة ، ولا يغفُلَ عن ملاحظة داره عند غيبته ، ولا يسمع عليه كلامًا ، ويغضَّ بصرَه عن حُرمته ، ولا يديمَ النظر إلى خادمته ، ويتلطف بولده فى كلمته ، ويرشده إلى ما يجهلهُ من أمر دينه ودنياه .

حقوق الأقارب والرحم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى : أنا الرحمن وهذه الرَّحم ، شَقَقْتُ لها اسمًا من اسمى ، فمن وصلها وصَلْتُه ، ومن قَطَعها بتَتُّه[1] » . وقال صلى الله عليه وسلم : « من سَرَّه أن يُنْسَأَ له فى أثره[2] ويُوَسَّعَ عليه فى رزقه ، فليَصلْ رَحمَه » .

وقال صلى الله عليه وسلم: « إنَّ الرحمَ معلَّقة بالعرش، وليس الواصل بالمكافئ ، ولكن الواصل الذى إذا انقطعت رَحمُه وصَلها » .

وروىَ أنَّ عمر كتب إلى عماله : « مُرُوا الأقارب أن يتزاوروا ولا يتجاوروا » . وإنما قال ذلك لأنَّ التجاورَ يورثُ التزاحم على الحقوق ، وربَّما يورث الوحشة وقطيعة الرحم .

حقوق الوالدين والولد

لا يخفى أنَّه إذا تـأكَّد حقُّ القرابة والرَّحِم ، فأخصُّ الأرحام وأمسُّها الولادة ، فيتضاعف تـأكُّد الحقِّ فيها .

---

(١) البت : القطع .
(٢) الأثر : الأجل؛ لأنه يتبع العمر . وروى أيضاً : « فى أجله »

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « برُّ الوالدين أفضلُ من الصلاة والصدقة والصَّوم ، والحجِّ والعمرة ، والجهادِ فى سبيل الله » .

وقال صلى الله عليه وسلم: « بِرَّ أمَّك وأباك ، وأختك وأخاك ، ثم أدناك فأدناك » .

وقال صلى الله عليه وسلم: « إن مِن أبرِّ البرِّ أن يَصلَ الرجل أهلَ وُدِّ أبيه بعد أن يولِّىَ الأب » .

ويُستحبُّ الرفقُ بالولَد : رأى الأقرع بن حابس النبيَّ صلى الله عليه وسلم وهو يقبِّل ولده الحسن ، فقال : إنَّ لى عشرةً من الولَد ما قبَّلتُ واحداً منهم ! فقال عليه الصلاة والسلام : « إنَّ مَن لا يرحَمُ لا يُرحَم » .

وقال عبد الله بن شدَّاد : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلِّى بالناس ، إذْ جاءه الحسينُ فركب عنقَه وهو ساجد ، فأطال السجودَ بالناس حتَّى ظنُّوا أنه قد حدَث أمْر ، فلما قضى صلاته قالوا: قد أطلتَ السجود يا رسول الله حتَّى ظننا أنَّه قد حدث أمر ! فقال : « إنَّ ابنى قد ارتحلنى[1] فكرهت أن أُعْجِلَه حتَّى يقضىَ حاجته » .

وقال يزيد بن معاوية : أرسل أبى إلى الأحنف بن قيس ، فلما وصل إليه قال له : يا أبا بحر[2] ، ما تقول فى الولدِ[3] ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، ثمارُ قلوبنا ، وعمادُ ظهورنا ، ونحن لهم أرضٌ ذليلة ، وسماء ظليلة ، وبهمْ نصولُ على كلِّ جليلة ؛ فإن طلبوا فأعطهم ، وإن غضبوا فأرضهم ، يمنحوك ودَّهم ويحبُّوك جَهدهم ، ولا تكن عليهم ثقلاً ثقيلاً ،

---

(١) [illegible] على ظهره

(٢) أبو بحر : كنية الأحنف .

(٣) [illegible]

فيملّوا حياتك ويودُّوا وفاتك ، ويكرهوا قُرْبَك . فقال معاوية : لله أنت يا أحنف ! لقد دخلتَ علَيَّ وأنا مملوءٌ غضباً وغيظاً على يزيد ! فلما خرج الأحنف من عنده رَضِيَ عن يزيد وبعثَ إليه بمائَتى ألف درهم ومائَتى ثوب ؛ فأرسل يزيد إلى الأحنف بمائة ألف درهم ومائة ثوب ، فقاسَمه إيّاها على الشَّطر .

قال أبُو سعيد الخُدرىّ : هاجَر رجلٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن وأراد الجهاد، فقال عليه السلام: « هل باليمن أبواك » قال : نعم ، قال « هل أذنا لك ؟ » .قال : لا . فقال عليه السلام : « فارجعْ إلى أبويْك فاستأذِنْهما ، فإنْ فَعَلا فجاهدْ ، وإلا فَبِرَّهما ما استطعت . فإن ذلك خيرُ ما تلقَى اللهَ به بعد التوحيد » .

حقوق المملوك

فأما مِلك اليمين فهو أيضاً يقتضى حقوقاً فى المعاشرة لابدَّ من مراعاتها ؛ فقد كان من آخِر ما أوصَى به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنْ قال : « اتَّقوا الله فيما ملَكَت أيْمانُكم : أطْعِموهم ممَّا تأْكلون ، واكسوهم مما تلبَسون ، ولا تكلِّفوهم من العمل مالا يُطيقون ، فما أحببتم فأمسكوا وما كرهتم فبيعوا ، ولا تعذِّبوا خَلْقَ الله فإنَّ الله ملَّككم إياهم ، ولو شاء لملَّكهم إياكم » . وقال صلى الله عليه وسلم : « للمملوك طعامُه وكُسْوتُه بالمعروف . ولا يُكلَّف من العمل مالا يُطيق » .

فجملة حقِّ المملوك أن يُشْرِكَه فى طُعْمته[1] وكُسْوته ، ولا يكلِّفه فوق طاقته . ولا ينظر إليه بعين الكِبْر والازدراء ، وأن يعفوَ عن زَلَّته ، ويتفكَّر عند غضبه عليه بهَفْوته أو بجنايته ، فى معاصيه وجنايته على حقِّ الله تعالى ، وتقصيره فى طاعته ، مع أنَّ قدرة الله عليه فوق قدرته .

(١) الطعمة ، بالضم : الطعام .

الكتاب السادس

كتاب آداب العزلة

الباب الأول

في نقل المذاهب والأقاويل

وذكر حجج الفريقين فى ذلك

أما المذاهب فقد اختلف الناس فيها ، وظهر هذا الاختلاف بين التابعين . فذهب إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة : سُفيان الثورى ، وإبراهيم بن أدهم ، وداودُ الطائِى ، وفُضَيلُ بن عِياض ، وسُليمان الخوَّاص ، ويوسف بن أسباط ، وحُذيفة المرْعشىّ ، وبشرٌ الحافى.

وقال أكثرُ التابعين باستحباب المخالطة ، واستكثار المعارف والإخوان والتآلف والتحبُّب إلى المؤْمنين ، والاستعانةِ بهم فى الدين ، تعاونًا على البرِّ والتقوى . ومالَ إلى هذا : سعيد بن المسيب ، والشَّعبى ، وابن أبى ليلى ، وهشام بن عروة ، وابن شُبرُمة ، وشُرَيح ، وشَريك بن عبد الله ، وابن عُيينة ، وابن المبارَك ، والشافعى ، وأحمد بن حنبل ، وجماعة .

احتج هؤلاء بقوله تعالى : (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا واختلَفُوا) الآية . وبقوله تعالى : (فأَلَّفَ بَيْنَ قُلوبِكم) . امتنَّ على الناس بالسبب المؤلِّف . وهذا ضعيف ؛ لأن المراد به تفرُّق الآراء واختلافُ المذاهب فى معانى كتاب الله وأصول الشريعة . والمراد بالأُلفة نزعُ الغوائِل من الصدور وهى الأسباب المثيرة للفتن ، المحرِّكةُ للخصومات . والعُزْلة لا تنافى ذلك.

واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن آلفٌ مأْلوف ، ولا خيرَ فيمن لا يأْلف ولا يُؤْلَف » . وهذا ضعيف لأنه إشارة إلى مذمة سوءِ الخُلُق التى تمتنعُ بسببه المؤَالفة .

واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم : « من فارق الجماعةَ شبراً خلع رِبقة الإسلام من عنقه[1] » . وقال : « من فارق الجماعة فماتَ فمِيتته جاهليَّة » .

وهذا ضعيفٌ لأَنَّ المراد به الجماعة التى اتفقت آراؤهم على إمامٍ بعقد البيعة ؛ فالخروج عليهم بَغْى .

واحتجوا بنهيه صلى الله عليه وسلم عن الهجرة فوق ثلاث[2] ؛ إِذْ قال: « مَنْ هجر أخاه فوقَ ثلاثٍ فمات دخَلَ النار » . وقال عليه السلام : « لا يحلُّ لامرئٍ مسلمٍ أَنْ يهجر أخاه فوق ثلاث ، والسابق يدخل الجنة » . وقال : « مَنْ هجرَ أخاه سَنَةً فهو كسَافكِ دَمه » . قالوا : والعزلة هجرٌ بالكلِّيَّة . وهذا ضعيف ، لأن المراد الغضب على الناس واللجاج فيه بقطع الكلام والسلام والمخالطة المعتادة ، فلا يدخل فيه ترك المخالطة أصلا من غير غضَب .

(١) ربقة الإسلام : كناية عن حدوده وأحكامه . وأصل الربقة عروة فى حبل تجعل فى عنق البهيمة أو يدها تمسكها .

(٢) أى ثلاث ليال

ذكر حجج المائلين إلى تفضيل العزلة

احتجوا بقوله تعالى حكاية عن إبراهيم عيه السلام : (وأعتَزِلُكم وَمَا تَدْعُون مِن دُونِ اللهِ وأدعُو رَبِّى) الآية ، ثم قال تعالى : (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وما يَعْبُدُون مِنْ دُونِ الله وَهَبْنا له إسْحَق ويعْقُوبَ وكُلاًّ جَعلْنا نبيًّا) إشارةً إلى أنَّ ذلك ببركة العزلة . وهذا ضعيفٌ لأَنَّ مخالطة الكفار لا فائدَة فيها إلاَّ دعوتهم إلى الدين ، وعند اليأْس من إجابتهم فلا وجه إلّا هجرهم ، وإنّما الكلام فى مخالطة المسلمين وما فيها من البركة .

واحتجوا أيضاً بقول موسى عليه السلام :(وإنْ لم تؤْمنوا لى فاعتَزلُون) وأنه فَزِع إلى العزلة عند اليأْس منهم. وقال تعالى فى أصحاب الكهف : (وإذِ اعتزلتُموهم وما يَعبُدُون إلّا اللهَ فأْوُوا إلى الكَهْف يَنْشُرْ لكم ربُّكم مِن رَحْمَتِه) أَمَرَهم بالعزلة . وقد اعتزل نبيُّنَا صلى الله عليه وسلم قُريشاً لما آذَوْه وجَفَوه ، ودخل الشِّعب وأمر أصحابهَ باعتزالهم والهجرةِ إلى أرض الحبشة ، ثم تلاحَقوا به إلى المدينة بعدَ أن أعْلىَ الله كلمته . وهذا أيضاً اعتزالٌ عن الكفَّار بعد اليأْس منهم ، فإنَّه صلى الله عليه وسلم لم يعتزل المسلمين ولا مَن توقَّع إسلامَه من الكفار . وأهلُ الكهف لم يعتزل بعضُهم بعضا وهم مؤْمنون ، وإنما اعتزلوا الكفَّار ، وإنَّما النظر فى العزلة من المسلمين .

واحتجوا بما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : « ألاَ أنبِّئكُم بخَيرِ النَّاس ؟ » قالوا : بلى يا رسولَ الله ، فأَشار بيده نحو المغرب وقال : « رجل آخذُ بعنانِ فَرَسه فى سبيل الله ينتظر أن يُغير

أو يُغارَ عليه . ألا أنبئكم بخير الناس بعده ؟ » وأشار بيده نحو الحجاز وقال : « رجلٌ فى غنمه يُقيم الصلاة ويُؤْتى الزكاة ويَعْلَم حقَّ الله فى ماله ، اعتزلَ شرور الناس » .

فإذا ظهر أنَّ هذه الأدلة لا شفاء فيها من الجانبين ، فلا بدَّ من كشف الغطاء ، بالتصريح بفوائِد العزلة وغوائِلها ، ومقايَسَة بعضِها بالبعض ، ليتبيَّنَ الحقُّ فيها .

الباب الثانى

في فوائد العزلة وغوائلها
وكشف الحق فى فضلها

وهى تنقسم إلى فوائِدَ دينيةٍ ودُنيوية .

والدينيةُ تنقسم إلى ما يمكن من تحصيل الطاعات فى الخَلْوة ، بالمواظبة على العبادة والفكرِ وتربية العلم ، وإلى تخلُّصٍ من ارتكاب المناهى التى يتعرَّض الإنسان لها بالمخالطة : كالرِّياء والغِيبة ، والسُّكوت عن الأمر بالمعروف والنَّهيِ عن المنكر ، ومسارقِة الطَّبع من الأخلاق الرديئَة والأعمال الخبيثة من جُلَساءِ السُّوء .

وأما الدنيوية فتنقسم إلى تمكينٍ من التحصيل بالخلوة ، كتمكُّن المحترف فى خَلوته ؛ وإلى تخلُّصٍ من محظورات يُتَعرَّضُ لها بالمخالطة ، كالنظرإلى زَهْرة الدُّنيا وإقبال الخلق عليها ، وطمعِه فى النَّاس وطمع النَّاسِ فيه ، وانكشاف سِتْرمروءته بالمخالطة ، والتأذِّى بسوء خُلق الجليس فى مِرائه[1] ، أو سوء ظنِّه ، أو نميمته ، أو محاسدته ، أو التأذِّى بثقله وتشوُّه خلقته .

وإلى هذا ترجع مجامع فوائدِ العزلة ، فلنحصرها فى ستٍّ فوائد .

الفائدة الأولى

التفرُّغ للعبادة والفكر ، والاستئْناس بمناجاة الله تعالى عن مناجاة الخَلْق ، والاشتغال باستكشاف أسرار الله تعالى فى أمر الدنيا والآخرة

---

(١) المراء والممارة : المجادلة وكثرة الخلاف .

وملكوتِ السموات والأرض ؛ فإنّ ذلك يستدعى فراغاً ، ولا فراغ مع المخالطة ، فالعزلةُ وسيلةٌ إليه . ولهذا قال بعض الحكماء : لا يتمكّن أحدٌ من الخلوة إلّا بالتمسُّك بكتاب الله تعالى . والمتمسكون بكتاب الله تعالى الذين استراحوا من الدنيا بذكر الله ، الذاكرون اللهَ باللهِ ، عاشوا بذكر الله وماتوا بذكر الله ، ولَقُوا الله بذكر الله . ولا شكَّ فى أن هؤلاء يمنعهم المخالطة عن الفكر والذكر ، فالعزلة أوْلى بهم . ولذلك كان صلى الله عليه وسلم فى ابتداء أمره يتبتَّلُ[1] فى جبلِ حِراء وينعزل إليه ، حتّى قوىَ فيه نور النبوّة ، فكان الخَلق لا يحجبونه عن الله ، فكان ببدنِهِ مع الخلق ، وبِقلبه مقْبلاً على الله تعالى ، حتّى كان الناس يظنون أنّ أبا بكر خليله . فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن استغراق همّه بالله فقال : « لو كنتُ متّخذاً خليلًا لاتّخذت أبا بكر خليلًا ، ولكنّ صاحبكم خليل الله » .

وقيل لبعض الحكماء : إلى أى شيء أفضَى بكم الزُّهدُ والخلوة ؟ فقال : إلى الأُنس بالله .

وقيل لغَزْوانَ الرَّقَاشىِّ : هَبْكَ لا تضحك فما يمنعك من مجالسة إخوانك ؟ قال : إنِّى أُصيب راحةَ قلبى فى مجالسة مَن عندَه حاجتى .

وقال ذو النُّون المصرى : سرُور المؤْمِن ولذّته فى الخلوة بمناجاة ربِّه .

ويروى عن بعض الصالحين أنّه قال :

بينما أنا أسير فى بعض بلاد الشام إذا أنا بعابد خارجٍ من بعض تلك الجبال ، فلما نظر إلىَّ تنحَّى إلى أصل شجرة وتستَّر بها ، فقلت : سبحانَ الله ، تبخلُ علىَّ بالنظر إليك ؟ فقال : يا هذا ، إنِّى أقمتُ فى

(١) أى ينقطع إلى العبادة والذكر .

هذا الجبل دهرًا طويلاً أعالج قلبي في الصَّبر عن الدنيا وأهلها ، فطال في ذلك تَعَبي وفَنِيَ فيه عمري ، فسألت الله تعالى أن لا يجعل حظِّي من أيامى في مجاهدة قلبي ، فسَكَّنه اللهُ عن الاضطراب ، وألِفَ الوحدة والانفراد ، فلما نظرتُ إليكَ خفت أن أقع في الأمر الأوَّل ؛ فإليك عنِّي ، فإني أعوذ من شرِّك بربِّ العارفين ، وحبيب القانتين ! ثم صاح : وا غَمَّاهُ من طول المُكث في الدنيا ! ثم حوَّل وجهه عنِّي ، ثم نفض يديه وقال : إليكِ عنِّي يا دنيا ، لغيرى فتزيَّنِي ، وأهلَكِ فغُرِّي ! ثم قال : سبحان من أذاق قلوبَ العارفين مِن لذَّة الخدمة وحلاوة الانقطاع إليه ، ما ألهى قلوبَهم عن ذكر الجِنان ، وعن الحُور الحسان . وجَمَعَ همَّهم في ذكره ، فلاشيء ألذُّ عندهم من مناجاته . ثم مضى وهو يقول : قُدُّوسٌ قُدُّوس.

فإذا في الخلوة أُنسٌ بذكر الله ، واستكثارٌ من معرفة الله . وفي مِثل ذلك قيل :

وإني لأَستَغْشِي وما بي نَعسةٌ ... لعلَّ خيالا منك يلقَى خياليا[1]

وأخرجُ من بين الجلوس لعلَّني ... أُحدِّث عنك النفسَ بالسرِّ خاليا

الفائدة الثانية

التخلُّصُ بالعزلة عن المعاصى التي يتعرض الإنسان لها غالباً بالمخالطة ويسلمُ منها في الخَلْوة ، وهي أربعة :

الغِيبة والنميمة ، والرياءُ ، والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومسارقةُ الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة التي يوجبها الحرصُ على الدنيا .

أما الغِيبة فإذا عرفت من كتاب آفات اللسان من ربع المهلكات وجوهَها ، عرفت أن التحرُّز عنها مع المخالطة عظيم ، لا ينجو منها إلا

(١) الشعر لمجنون ليلى قيس بن معاذ.

الصِّدِّيقون . فإنَّ عادة الناسِ كافة التمضمضُ بأعراض الناس والتفكُّه بها . والتنقُّل بحلاوتها . وهى طُعْمتهم ولذَّتُهم ، وإليها يَستروِحُون من وَحشتهم فى الخلوة . فإنْ خالطْتَهُمْ ووافقتَهُمْ أثِمْتَ وتعرَّضت لسُخط الله تعالى ، وإنْ سكتَّ كنتَ شريكاً ، والمستمع أحد المغتابَيْن . وإن أنكرت أبغضوك وتركوا ذلك المغتاب واغتابوك ، فازدادوا غِيبة إلى غيبة ، وربَّما زادوا على الغيبة وانتَهْوا إلى الاستخفاف والشتم .

وأمَّا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فهو من أُصول الدين ، وهو واجبٌ . ومن خالط الناس فلا يخلو عن مشاهدة المنكرات ، فإنْ سكت عصى الله به ، وإن أنكرَ تعرَّض لأنواع من الضرر ، إذْ رُبما يجرُّه طلبُ الخلاصِ منها إلى معاصٍ هى أكبرُ مما نُهِى عنه ابتداءً . وفى العزلة خلاصٌ من هذا ، فإن الأمر فى إهماله شديد ، والقيام به شاقّ .

وأما الرياءُ فهو الدَّاءُ العُضَال الذى يعسُر على الأبدال والأوتاد الاحترازُ عنه . وكلٌّ من خالط الناس داراهم ، ومَن داراهم راءاهم ، ومن راءاهم وقع فيما وقعوا فيه وهَلك كما هلكوا . وأقلُّ ما يلزم فيه النِّفاق ؛ فإنَّك إنْ خالطت متعاديين ولم تلقَ كلَّ واحدٍ منهما بوجهٍ يوافقه صرتَ بغيضاً إليهما جميعاً ، وإنْ جاملتَهما كنتَ من شرار الناس .

وقال صلى الله عليه وسلم : « تَجِدون من شِرار الناس ذا الوجهين ، يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » .

وأقلُّ ما يجب فى مخالطة الناس إظهارُ الشوق والمبالغة فيه ، ولا يخلو ذلك عن كذب إمَّا فى الأصل وإمَّا فى الزيادة . وإظهار الشفقة بالسؤال عن الأحوال بقولك : كيف أنت ؟ وكيف أهلك ؟ وأنت فى الباطن فارغ القلب من همومه . وهذا نفاق محض .

دخل طاوسٌ على الخليفة هشام فقال : كيف أنت ياهشام ؟ فغضب عليه وقال : لِمَ لَمْ تخاطبْنى بأمير المؤمنين ؟ فقال : لأنَّ جميع المسلمين ما اتَّفقوا على خلافتك ، فخشيتُ أن أكون كاذباً .

وأما مسارقة الطبع مما يشاهده من أخلاق الناس وأعمالهم فهو داء دفين قلَّما يتنبه له العقلاء فضلاً عن الغافلين ؛ فلا يجالس الإنسان فاسقاً مدَّةً مع كونه منكِراً عليه فى باطنه إلَّا ولو قاس نفسَه إلى ماقَبْلَ مجالسته لأدركَ بينهما تفرقةً فى النُّفرة عن الفساد واستثقاله ، إذْ يصير الفساد بكثرة المشاهدَة هيِّنًا على الطبع ، فيسقط وقعُه واستعظامه له ، وإنَّما الوازع عنه شدَّةُ وقعه فى القلب ، فإذا صار مستصغراً بطول المشاهدة أوشك أنْ تنحلَّ القوة الوازعة ، ويذعن الطبعُ للميل إليه أو لما دونه. ومهما طالت مشاهدته للكبائر من غيره استحقر الصغائرَ من نفسه .

ومَن نظرَ إلى الأَحوال الغالبة على أهل الزمان وإعراضِهم عن الله وإقبالهم على الدنيا واعتيادهم المعاصى استعظم أمر نفسه بأدنى رغبة فى الخير يصادفها فى قلبه ، وذلك هو الهلاك .

وقال صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ الجليس السَّوء كمثل الكِير[1] ، إن لم يُحرقك بشرره عَلِقَ بك من ريحه » . فكما أن الريح يَعْلَق بالثوب ولا يُشعَر به فكذلك يسهُل الفسادُ على القلب وهو لا يُشعر به .

ولهذا أقول : مَنْ عرف من عالم زلَّةً حرُم عليه حكايتها ، لعلتين : إحداهما : أنها غِيبة . والثانية ، وهى أعظمها ، أنَّ حكايتها تهوِّن على المستمعين أمرَ تلك الزلة ، ويسقُط من قلوبهم استعظامهُم الإقدام

---

(١) الكير : الزق الذى ينفخ فيه الحداد .

عليها، فيكون ذلك سبباً لتهوين تلك المعصية . فكم من شخصٍ يتكالب على الدنيا ويحرِص على جمعها ، ويتهالك على حبِّ الرياسة وتزيينها ، ويهوّن على نفسه قبحَها ، ويزعم أنَّ الصحابة رضى الله عنهم لم ينزِّهوا أنفسهم عن حبِّ الرياسة ؟ وربَّما يستشهد عليه بقتال عليٍّ ومعاوية ، ويخمِّن فى نفسه أن ذلك لم يكن لطلب الحقِّ بل لطلب الرياسة . فهذا الاعتقاد خطأٌ يهوِّن عليه أمر الرياسة ولوازِمها من المعاصى .

ومما يدلُّ على سقوط وَقْع الشىء عن القلب بسبب تكرُّره ومشاهدته أنَّ أكثر الناس إذَا رأَوْا مسلماً أفطر فى نهار رمضان استبعدوا ذلك منه استبعاداً يكاد يُفضى إلى اعتقادهم كفرَه ، وقد يشاهدون مَن يُخرج الصَّلواتِ عن أوقاتها ولا تنفر عنه طباعُهم كنفرتهم عن تأْخير الصوم ، مع أنَّ صلاةً واحدةً يقتضى تركها الكفرَ عند قوم ، وحزَّ الرقبة عند قوم ، وترك صوم رمضان كلِّه لا يقتضيه . ولا سبب له إلَّا أنَّ الصلاة تتكرَّر والتساهل فيها مما يكثر ، فيسقط وقْعُها بالمشاهدة عن القلب .

فإن وجدتَ جليساً يذكِّرك رؤيتُه وسيرتُه فالزمْه ولا تفارقْه ، واغتنمْه ولا تستحقره ؛ فإنَّها غنيمة العاقل وضالَّة المؤمن . وتحقَّق أن الجليسَ الصالحَ خيرٌ من الوحدة ، وأن الوحدة خيرٌ من الجليس السَّوء .

الفائدة الثالثة

الخلاصُ من الفتن والخصومات ، وصيانةُ الدين والنفس عن الخوض فيها ، والتعرض لأخطارها . وقلَّما تخلو البلاد عن تعصُّبات وفتن وخصومات ، فالمعتزلُ عنهم فى سلامةٍ منها . قال عبد الله بن عَمرو ابن العاص : لمَّا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفتن ووصفها وقال:

« إذا رأيت الناس مَرِجَتْ عهودهم[1] ، وخَفَّت أماناتهم ، وكانوا هكذا » ـوشبَّك بين أصابعه ـ قلت : فما تأمرني ؟ فقال : « الزم بيتَك ، واملِكْ عليك لسانَك ، وخذْ ما تعرف ودَعْ ما تُنكِر ، وعليكَ بأمر الخاصَّة ودع عنك أمرَ العامَّة » .

ورَوى أبو سعيد الخدريُّ أنه صلى الله عليه وسلم قال : « يُوشك أنْ يكون خيرُ مالِ المسلم غَنَمًا يَتْبع بها شَعَف الجبال[2] ومواقعَ القَطْر ، يفرُّ بدينه من الفِتَن ، منْ شاهقٍ إلى شاهق » .

وكان فى الصَّحابة عشرة آلاف ، فما خفَّ أيامَ الفتنة أكثر من أربعين رجلاً .

وجلس طاوسٌ فى بيته ، فقيل له فى ذلك ، فقال : فساد الزمان وحَيْف الأئِمَّة[3] .

ولما بنَى عُروة قصرَهُ بالعقيق ولزمه قيل له : لزمتَ القصر وتركتَ مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : رأيت مساجدكم لاهية ، وأسواقكم لاغية[4] ، والفاحشة فى فِجاجكم عالية ، وفيما هناك عما أنتم فيه عافية .

فإذنْ الحذر من الخصومات ومثارات الفتن ، إحدى فوائد العزلة .

الفائدة الرابعة

الخلاص من شر الناس

فإنَّهم يُؤْذونك مرةً بالغِيبة ، ومرّةً بسوء الظن والتُّهمَة ، ومرّةً

---

(١) مرجت : اختلطت واضطربت ولم يوف بها .

(٢) الشعف : جمع شعفة ، وهى أعلى الجبل .

(٣) الحيف : الظلم والجور .

(٤) أى ذات لغو وباطل .

بالاقتراحات والأطماع الكاذبة التى يعسر الوفاء بها ، وتارة بالنميمة أو الكذب ، فربَّما يَرَوْنَ منك من الأعمال أو الأقوال مالا تبلغ عقولُهم كُنهه ، فيتَّخذون ذلك ذخيرةً عندهم يدَّخرونها لوقتٍ تظهر فيه فرصةٌ للشرِّ ؛ فإذا اعتزلتَهم استغنيت من التحفُّظ عن جميع ذلك . ولذلك قال بعض الحكماء لغيره : أعلِّمك بيتين خيرٌ من عشرة آلاف درهم ؟ قال : ما هما ؟ قال :

اخفض الصوتَ إنْ نطقتَ بليل ... والتفتْ بالنهار قبلَ المقالِ

ليس للقول رَجعةٌ حين يبدو ... بقبيح يكون أو بجمالِ

ولا يخلو الإنسانُ فى دينه ودنياه ، وأخلاقه وأفعاله ، عن عَوْراتٍ الأَوْلى فى الدِّين والدنيا سَتْرُها ، ولا تَبقى السلامة مع انكشافها .

وقال أبو الدَّرداء : كان الناس وَرَقاً لا شوكَ فيه ، فالناس اليومَ شوكٌ لا ورقَ فيه .

إذا كان هذا حكمَ زمانِه ، وهو فى أواخر القرن الأول ، فلا ينبغى أن يُشَكَّ فى أنَّ الأخير شرٌّ .

الفائدة الخامسة

أن ينقطعَ طمعُ الناس عنك وينقطع طمعك عن الناس .

فأمَّا انقطاع طمع الناس عنك ففيه فوائدُ ؛ فإنَّ رضا الناس غايةٌ لا تدرك ، فاشتغالُ المرء بإصلاح نفسه أَوْلى . ومن أهون الحقوق وأيسرها حضورُ الجنازة ، وعيادة المريض ، وحضور الولائم والإملاكات[1] وفيها تضييع الأوقات والتَّعرض للآفات ، ثم قد تعوق عن بعضها العوائق

(1) الإملاك : عقد الزواج .

وتُستقبَل فيها المعاذير ، ولا يمكن إظهار كلِّ الأعذار ، فيقولون له : قمت بحقٍّ فلان وقصّرتَ فى حقنا ، ويصير ذلك سببَ عداوة .

وأما انقطاعُ طمعك عنهم فهو أيضاً فائِدةٌ جزيلة ؛ فإنَّ من نظر إلى زَهرة الدنيا وزينتها تحرّكَ حرصُه ، وانبعث بقوة الحرص طمعُه ، ولا يرى إلاَّ الخيبة فى أكثرِ الأحوال ، فيتأذّى بذلك.

ولذلك قال الله تعالى : (ولا تَمُدَّنَّ عينَيكَ إلى ما مَتَّعْنا به أزواجاً مِنْهم) ، وقال صلى الله عليهم وسلم: « انظروا إلى مَنْ هو دونكم ولا تنظُروا إلى مَن هُو فوقكم ؛ فإنَّه أَجْدرُ أنْ لاتزْدَرُوا نعمةَ الله عليكم » .

فالذى هو فى بيته لا يُبتلَى بمثل هذه الفتن ؛ فإنَّ من شاهدَ زينة الدنيا فإما أنْ يقوى دينُه ويقينِه فيصبر ، فيحتاج إلى أنْ يتجرَّع مرارة الصَّبْر وهو أمرُّ من الصبر . أو تنبعث رغبته فيحتال فى طلب الدنيا فيهلك هلاكاً مؤَبَّداً .

الفائدة السادسة

الخلاصُ من مشاهدة الثُّقلاء والحمق ومُقاساة حُمقهم وأخلاقهم ؛ فإنَّ رؤية الثقيل هى العَمَى الأصغر . قيل للأعمش : ممَّ عمشتْ عيناك؟ قال : من النظر إلى الثقلاء .

وقال ابن سِيرِين : سمعتُ رجلاً يقول : نظرت إلى ثقيلٍ مرّة فغُشىَ علىَّ .

وقال جالينوس : لكلِّ شىء حُمَّى ، وحُمَّى الرُّوح النَّظرُ إلى الثُّقلاء .

وقال الشافعى رحمه الله : ما جالست ثقيلاً إلّا وجدت الجانب الذى يليه من بدنى كأنه أثقل علىَّ من الجانب الآخر .

آفات العزلة

اعلم أنَّ من المقاصد الدينية والدنيوية ما يُستفاد بالاستعانة بالغير ولا يَحصُل ذلك إلا بالمخالطة ، فكل ما يستفاد من المخالطة يَفُوت بالعزلة ، وفواته من آفات العزلة . فانظر إلى فوائِد المخالطة والدواعِي إليها ما هي ؟ وهي التعليم والتعلم ، والنفع والانتفاعُ ، والتأديب والتأدب ، والاستئناس والإيناس ، ونيل الثواب وإنالته في القيام بالحقوقِ ، واعتياد التواضع ، واستفادة التجارب من مشاهدة الأحوال والاعتبار بها . فلنفصِّل ذلك فإنَّها من فوائد المخالطة وهي سبع :

الفائدة الأولى : التعليم والتعلم

وقد ذكرنا فضلهما في كتاب العلم ، وهما أعظم العبادات في الدنيا . ولا يتصور ذلك إلاَّ بالمخالطة ، إلاَّ أنَّ العلوم كثيرة ، وعن بعضها مندوحة ، وبعضها ضروريٌّ في الدنيا . فالمحتاج إلى التعلُّم لما هو فرضٌ عليهِ عاص بالعزلة . وإنْ تعلَّم الفرضَ وكان لا يتأتَّى منه الخوضُ في العلوم ورأى الاشتغال بالعبادة فليعتزلْ . وإن كان يقدر على التبرُّز[1] في علوم الشرع والعقل فالعزلَة في حقِّه قبل التعلُّم غايةُ الخسران ، ولهذا قال النَّخَعي وغيرُه : من تفقَّه ثم اعتزل قبل التعلُّم فهو في الأكثر مضَيِّعٌ أوقاتَه بنوم ، أو فكرٍ في هَوَس ، وغايته أن يستغرقَ الأوقاتَ بأورادٍ يستوعبها ، ولا ينفكُّ في أعماله بالبدن والقلب عن أنواع من الغرور تُخيِّب سعيه ، وتُبطل عمله من حيث لا يدري . ولا ينفك اعتقادُه في الله وصفاته عن أوهامٍ يتوهَّمها ويأْنسُ بها ، وعن خواطرَ فاسدة تعتريه فيها ، فيكون في أكثرِ أحوالهُ ضُحكَةً للشيطان وهو يرى نفسَه من العُبَّاد .

---

(١) التبرز : أن يفوق غيره ويبرز عليه .

فالعلم هو أصل الدِّين ، فلا خير فى عزلة العوامّ والجُهّال ، أعنى من لا يحسن العبادةَ فى الخلوة ، ولا يعرف جميع ما يلزمه فيها .

فمثال النفس مثالُ مريض يحتاج إلى طبيب متلطِّف يعالجه ، فالمريض الجاهل إذا خلاَ بنفسه عن الطبيب قبل أنْ يتعلم الطبَّ تضاعَف لا محالة مرضُه . فلا تليق العزلة إلا بالعالِم .

وأما التعليم ففيه ثوابٌ عظيم مهما صحَّت نية المعلِّم والمتعلم .

وحكم العالِم فى هذا الزمان أنْ يعتزل إنْ أراد سلامة دينه ؛ فإنه لايرى مستفيداً يطلب فائِدةً لدينه . بل لا طالبَ إلا لكلامٍ مزخرف يستميل به العوام فى مَعرِض الوعظ أو الجدل ، معقَّدٍ يتوصل به إلى إفحام الأقران ، ويتقرَّب به إلى السلطان ، ويُستعمل فى معرض المنافسة والمباهاة.

وأقرب علمٍ مرغوب فيه : المذهب ، ولا يُطلب غالبا إلّا للتوصُّل إلى التقدُّمِ على الأمثالِ ، وتولِّى الولايات واجتلاب الأموال . فهؤلاء كلُّهم يقتضى الدينُ والحزمُ الاعتزالَ عنهم . فإن صُودف طالبٌ لله ومتقرِّب بالعلم إلى الله . فأكبرُ الكبائِر الاعتزالُ عنه وكتمان العلم منه ، وهذا لا يُصادَف فى بلدة كبيرة . أو أكثرُ من واحد أو اثنين إن صودف.

ولا ينبغى أنْ يغترَّ الإنسان بقول سفيان : « تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أنْ يكون إلا لله ، فإن الفقهاء يتعلمون لغير الله ثم يرجعون إلى الله» .

وانظر إلى أواخر أعمار الأكثرين منهم واعتبرْهم أنَّهم ماتوا وهُم هَلْكى على طلب الدُّنيا ومتكالبون عليها . أو راغبون عنها وزاهدون فيها ؟! وليس الخبر كالمعاينة .

واعلم أنَّ العلم الذى أشار إليه سفيانْ هو علم الحديثِ وتفسيرِ القرآن ومعرفةُ سِيَرِ الأنبياء والصحابة . فإنَّ فيها التَّخويف والتحذير ، وهو سببٌ لإثارة الخوف من الله . فإنْ لم يؤثِّر فى الحال أثَّر فى المآل .

الفائدة الثانية : النفع والانتفاع

أما الانتفاع بالناس فبالكسب والمعاملة ، وذلك لا يتأتّى إلاّ بالمخالطة والمحتاج إليه مضطَرٌّ إلى ترك العزلة ، فيقع فى جهادٍ من المخالطة إنْ طلب موافقة الشرع فيه . فإنْ كان معه مالٌ لو اكتفى به قانعاً لأقنعه ، فالعزلة أفضلُ له إذا انسدَّت طرق المكاسب فى الأكثرِ إلاّ من المعاصى ، إلّا أن يكون غرضُه الكسبَ للصَّدَقة . فإذا اكتسب من وجهه وتصدَّق به فهو أفضلُ من العُزلة للاشتغال بالنافلة .

وأمَّا النفع فهو أنْ ينفع الناسَ إمَّا بماله أو ببدنه ، فيقوم بحاجاتهم على سبيل الحِسْبَة . ففى النهوض بقضاء حوائج المسلمين ثوابٌ ؛ وذلك لا يُنال إلا بالمخالطة .

الفائدة الثالثة : التأديب والتأدب

ونَعنى به الارتياض بمقاساة الناس ، والمجاهدةِ فى تحمُّل أذاهم ، كسراً للنفس وقهراً للشَّهَوات . وهى من الفوائِد التى تُستفاد بالمخالطة ، وهى أفضل من العُزلة فى حقِّ من لم تتهذَّب أخلاقُه ، ولم تُذعِن لحدود الشرع شهواته ، ولهذا انتدب خُدَّامُ الصوفية فى الرِّباطات ، فيخالطون الناسَ بخدمتهم ، وأهلَ السُّوق للسؤَال منهم ، كسرًا لرعونة النفس ، واستمداداً من بركة دعاء الصُّوفية المنصرفين بهممهم إلى الله سبحانه .

وأما التأْديب فإنما نعنى به أنْ يَرُوضَ غيره ، وهو حال شيخ الصوفية معهم ، فإنه لا يقدر على تهذيبهم إلا بمخالطتهم ، وحالهُ حالُ المعلِّم ، وحكمُه حكمُه . ويتطرَّق إليه من دقائقِ الآفات والرياء ما يتطرَّق إلى ناشر العلم ، إلّا أنَّ مخايل طلب الدنيا من المريدين الطالبين للارتياض أبعدُ منها من طلبة العلم ؛ لذلك يرى فيهم قِلَّة . وفى طلبة العلم كثرة .

الفائدة الرابعة : الاستئناس والإيناس

وهو غرضُ مَن يحضر الولائِم والدعوات ، ومواضعَ المعاشرة والأُنس وهذا يرجِعُ إلى حظٍّ النفس فى الحال . وقد يكون على وجهٍ حرام بمؤانسة من لا تجوز مؤانسته ، أو على وجهٍ مباحٍ . وقد يُستحبُّ ذلك لأمر الدين، وذلك فيمن يُستأْنس بمشاهدة أحواله وأقواله فى الدين، كالأُنس بالمشايخ الملازمين لسَمْت التقوى . وقد يتعلَّق بحظ النفس،ويستحبُّ إذا كان الغرض منه ترويحَ القلب لتهييج دَواعِى النشاط فى العبادة ؛ فإنَّ القلوب إذا أُكرهت عميت .

وهذا عُنِى بقوله عليه السلام : « إنَّ هذا الدينَ متينٌ فأَوْغلْ فيه برفق ». والإيغال فيه برفق دأْبُ المستبصِرين . ولذلك قال ابن عباس : لولا مخافةُ الوسواس ، لم أُجالس الناس .

فلا يستغنى المعتزل إذن عن رفيق يستأْنس بمشاهدته ومحادثتِه فى اليوم والليلة ساعةً ، فليجتهدْ فى طلب من لا يُفسِد عليه فى ساعته تلك سائر ساعاته ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « المرءُ على دين خليله فلينظرْ أحدُكم مَن يخاللُ » .

الفائدة الخامسة : فى نيل الثواب وإنالته

أما النَّيل فبحضور الجنائِز ، وعيادة المرضى ، وحضور العيدين . وأما حضور الجمعة فلا بدَّ منه . وحضور الجماعة فى سائِر الصلوات أيضاً لا رخصةَ فى تركه إلا لخوف ضرر ظاهر يقوم ما يفوت من فضيلة الجماعة ويزيد عليه ، وذلك لا يتَّفق إلا نادراً . وكذلك فى حضور الإملاكات والدعوات ثوابٌ ، من حيثُ إنَّه إدخالُ سرور على قلب مسلم .

وأما إنالته فهو أنْ يفتح البابَ لتَعُوده الناس أو لِيُعَزُّوه فى المصائِب، أو يُهَنُّوه على النِّعَم ، فإنَّهم ينالون بذلك ثواباً . وكذلك إذا كان من العلماء وأَذِن لهم فى الزيارة نالوا ثوابَ الزيارة ، وكان هو بالتمكين سبباً فيه .

الفائدة السادسة

من المخالطة : التواضُع ، فإنه من أفضل المقامات ولا يُقَدر عليه فى الوحدة ، وقد يكون الكِبْرُ سبباً فى اختيار العزلة .

فقد رُوى فى الإسرائيليَّات أنَّ حكيما من الحكماء صنَّف ثلثمائَةٍ وستين مصحفاً فى الحكمة ، حتَّى ظن أنه قد نال عند الله منزلة ، فأوحى الله إلى نبيه : قل لفلان : إنك قد ملأْت الأَرض نِفاقاً ، وإنِّى لا أَقبلُ من نفاقك شيئًا . قال : فتخلَّى وانفرد فى سَرَب[1] تحت الأَرض وقال: الآن قد بلغتُ رضا ربى ، فأوحى الله إلى نبيِّه : قل له : إنك لن تبلغ رضايَ حتَّى تخالط الناسَ وتصبرَ على أذاهم . فخرج فدخل الأَسواقَ وخالط الناس وجالسهم وواكلهم ، وأكل الطعام بينهم ، ومشى فى الأَسواق معهم ، فأوحى الله إلى نبيه : الآن قد بلغَ رضاى .

فكم من معتزلٍ فى بيته وباعِثُه الكِبْر ، ومانعُه عن المحافل أن لا يُوقَّر أو لا يُقَدَّم ، أو يرى الترفُّعَ عن مخالطتهم أرفعَ لمحلِّه ، وأبقى لطراوة ذكره بين الناس[2] . وقد يعتزلُ خِيفةً من أنْ تظهر مقابحُه

(١) السرب : بيت تحت الأرض .

(٢) طراوة الذكر : حسن الثناء .

لو خالط ، فلا يُعْتَقَد فيه الزُّهد والاشتغال بالعبادة ، فيتَّخذ البيت ستراً على مقابحه ، إبقاءً على اعتقاد الناس فى زُهده وتعبُّده ، من غير استغراقِ وقتٍ فى الخلوة بذكرٍ أو فكر . وعلامة هؤلاء أنَّهم يحبُّون أنْ يُزاروا ولا يحبون أنْ يَزُوروا ، ويفرحون بتقرُّب العوامِّ والسلاطين إليهم ، واجتماعهم على بابهم وطُرقهم ، وتقبيلهم أيديَهم على سبيل التبرك .

والعزلة بهذا السبب جهلٌ من وجوه :

أحدُها : أنَّ التواضع والمخالطة لا تَنْقُصُ من مَنصِبِ من هو متكبِّرٌ بعلمه أو دينه ، إذْ كان علىٌّ رضى الله عنه يحمل التمر والملح فى ثوبه ويدِه ، ويقول :

لا يَنْقُصُ الكاملَ من كماله ما جرَّ من نفع إلى عياله

وكان أبو هُريرة ، وحذيفة ، وأُبىٌّ ، وابن مسعود رضى الله عنهم ، يحملون حُزم الحطب وجُرُب الدقيق[1] على أكتافهم . وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول ـ وهو والى المدينة[2] والحطبُ على رأسه : طرِّقوا لِأميركم[3] !

الوجه الثانى : أن الذى شغل نفسه بطلب رضا الناس عنه وتحسين اعتقادهم فيه ، مغرورٌ ؛ لأنَّه لو عرف الله حقَّ المعرفة ، علم أن الخلق لا يُغْنون عنه من الله شيئًا ؛ وأنَّ ضررَه ونفعَه بيد الله ، ولا نافعَ ولا

---

(١) الجرب ، بضم الجيم والراء : جمع جراب .

(٢) كان والياً عليها من قبل الخليفة مروان .

(٣) أراد أخلوا له الطريق . وجاء فى بعض الروايات أن أبا هريرة كان يخاطب بهذا ثابت بن أبى مالك ، وأنه قال لثابت : وسع الطريق للأمير يا ابن مالك . وواضح أن العبارة دعابة من أبى هريرة .

ضارٌ سواه، وأنَّ من طلب رضا الناس ومحبَّتَهم بسُخْطِ الله سَخِط الله عليه وأسخط عليه الناس ، بل رضا الناس غايةٌ لا تُنال .

وقال الشافعي رحمه الله : ليس من أَحدٍ إلا وله محبٌ ومبغض . فإذا كان هكذا فكن مع أهل طاعة الله .

الفائدة السابعة : التجارب

فإنَّها تستفاد من المخالطة للخلق ومجارى أحوالهم . والعقل الغريزى ليس كافياً فى تفهُّم مصالح الدين والدنيا . وإنما تفيدها التجربة والممارسة ولا خير فى عزلةِ مَن لم تحنِّكْه التجارب ، فالصبيُّ إذا اعتزل بقى غُمْراً جاهلاً ، بل ينبغى أنْ يشتغل بالتعلُّم ، ويحصِّلَ له فى مدة التعلم ما يحتاج إليه من التَّجارب ويكفيه ذلك ، ويحصِّل بقية التجارب بسماع الأَحوال ولا يحتاج إلى المخالطة .

ومن أهم التجارب أنْ يجرِّب نفسَه وأخلاقَه وصفاتِ باطنه ، وذلك لا يُقدر عليه فى الخلوة ، فإنَّ كلَّ مُجْرٍ فى الخلاء يُسَرُّ[1] ، وكلَّ غَضوبٍ أَوْ حَقودٍ أو حسودٍ إذا خلا بنفسه لم يترشَّح منه خُبثه . وهذه الصفات مهلكاتٌ فى أنفُسها ، يجب إماطتُها وقهرها ، ولا يكفى تسكينُها بالتباعد عما يحرِّكها . فمثال القلب المشحون بهذه الخبائث ، مثالُ دُمَّل ممتلئٍ بالصديد والمِدَّة ، وقد لا يحسُّ صاحبه بأَلمه ما لم يتحرَّك أو يمسُّه غيرُه ، فإن لم يكن له يد تمسُّه أو عين تبصر صورته ، ولم يكن معه من يحرِّكه ، ربّما ظنَّ بنفسه السلامةَ ولم يشعر بالدُّمَّل فى نفسه ،

(١) المجرى : من يجرى دابته .

واعتقَدَ فقده . ولكن لو حرَّكه محرِّكٌ أو أصابه مِشْرَطُ حجّامٍ ، لانفجر منه الصديد ، وفار فورانَ الشيء المختنق إذا حُبِس عن الاسترسال .
فكذلك القلبُ المشحون بالحِقد والبُخلِ ، والحسد والغضب ، وسائرِ الأخلاق الذميمة ، إنَّما تتفجر منه خبائثُه إذا حُرِّك .

فالمخالطة لها فائدةٌ ظاهرةٌ عظيمة فى استخراج الخبائث وإظهارها ، ولذلك قيل : « السَّفر يُسفِر عن الأخلاق » ، فإنَّه نوعٌ من المخالطة الدائمة .

الكتاب السابع

كتاب آداب السفر

أما بعد : فإنَّ السفرَ وسيلةٌ إلى الخلاص عن مهروبٍ عنه ، أو الوصول إلى مطلوبٍ أو مرغوبٍ فيه . والسَّفرَ سفران : سفرٌ بظاهر البدن عن المستقرِّ والوطن إلى الصَّحارَى والفَلَوات ، وسفرٌ بسَيرِ القلبِ عن أسفل السَّافِلينَ إلى مَلَكوت السموات .

وأشرف السَّفَرين السفرُ الباطن ، فإنَّ الواقفَ على الحالة التى نشأ عليها عَقِب الولادة ، الجامدَ على ما تلقَّفه بالتقليد من الآباء والأجداد ؛ لازمٌ درجةَ القصور ، وقانعٌ بمرتبة النقص ، ومستبدل بمتَّسع فضاء جنةٍ عرضها السموات والأرض ، ظُلمةَ السجن ، وضِيقَ الحبس . ولقد صدق القائل[1] :

ولم أر فى عيوب الناس عيباً كنقص القـادِرينَ على التمامِ

إلَّا أن هذا السَّفر لمَّا كان مقتحِمُه فى خَطبٍ خطير ، لَمْ يستغنِ فيه عن دليلٍ وخفير ، فاقتضى غموضُ السبيل وفقدُ الخفير والدليل ، وقناعةُ السالكين عن الحظِّ الجزيل بالنَّصيب النازل القليل - اندرس مسالكُه ، فانقطع فيه الرفاقُ ، وخلا عن الطائِفين متنزَّهاتُ الأنفس والملكوتِ والآفاق . وإليه دعا الله سبحانه بقوله : (سَنُرِيهم آياتِنا فى

---

(١) هو أبو الطيب المتنبى .

الآفاقِ وفى أنْفُسِهِمْ) ، وبقوله تعالى : (وفى الأَرْضِ آيَاتٌ للمُوقِنِين * وفى أَنفُسِكُمْ أفَلا تُبصِرُون) . .

وعلى القعود عن هذا السفر وقع الإنكار بقوله تعالى : (وإنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهم مُصْبحِينَ * وباللَّيل أَفَلَا تَعقِلُون) ، وبقوله سبحانه : (وكأَيِّنْ من آيةٍ فى السَّموات والأَرضِ يَمُرُّون عليها وهُمْ عنها مُعْرِضُون).

فمن يُسِّر له هذا السفر لم يزل فى سيره متنزِّها فى جنةٍ عرضُها السموات والأَرض ، وهو ساكنٌ بالبدن ، مستقِرٌّ فى الوطن . وهو السَّفر الذى لا تضيق فيه المناهل والموارد ، ولا يضرُّ فيه التزاحُم والتوارد ، بل تزيد بكثرة المسافرين غنائِمه ، وتتضاعف ثمراته وفوائِدُه .

الباب الأول

في الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع

وفي نية السفر وفائدته ، وفيه فصلان :

الفصل الأول

في فوائد السفر وفضله ونيته

اعلم أنَّ السفرَ نوعُ حركةٍ ومخالطة ، وفيه فوائِد وله آفات .

والفوائِد الباعثة على السفر لا تخلو من هَرَب أو طلب . فإنَّ المسافر إمَّا أنْ يكون له مُزْعج عن مُقامه ، ولولاه لما كان له مَقْصِدٌ يُسافر إليه ، وإمَّا أنْ يكون له مَقْصِدٌ ومطلب .

والمهروب عنه إما أمْر له نكايةٌ فى الأُمور الدنيوية : كالطاعون والوباء إذا ظهر ببلد ، أو خوف سببُه فتنةٌ أو خصومةٌ أو غلاء سعر . وهو إمَّا عامٌّ كما ذكرناه، أو خاصٌّ كمن يُقصَد بأَذيّة فى بلدة فيهرب منها .

وإما أمرٌ له نكايةٌ فى الدين ، كمن ابتُلِىَ فى بلده بجاه ومال ، واتّساع أسبابٍ تصدُّه عن التجرّد لله ؛ فيؤْثر الغُربة والخُمول ، ويجتنب السَّعة والجاه ، أو كمن يُدْعَى إلى بدعة قهراً ، أو إلى ولاية عمل لا تحلّ مباشرتُه فيطلبُ الفِرار منه .

وأما المطلوب فهو إمَّا دنيوىٌّ كالمال والجاه ، أو دينى . والدينىُّ إمَّا علم أو عمل .

والعلم إما علمٌ من العلوم الدينية ، وإمَّا علم بأَخلاق نفسه وصفاته

على سبيل التجرِبة ، وإما علمٌ بآيات الارض وعجائِبها ، كسفرِ ذى القرنَين وطوافِه فى نواحى الأرض .

والعمل إمَّا عبادةٌ وإما زيارة ؛ والعبادة هو الحجُّ والعمرة والجهاد . والزيارة أيضاً من القُرُبات ، وقد يُقصد بها مكانٌ كمكةَ والمدينة وبيت المقْدس ، والثُّغور ، فإنَّ الرِّبَاط بها قُربة ، وقد يُقصد بها الأولياءُ والعلماءُ وهم إمّا موتى فتزار قبورهم ، وإما أحياءٌ فيُتبرَّك بمشاهدتهم ، ويستفاد من النظر إلى أحوالهم قُوّةُ الرغبةِ فى الاقتِداء بهم .

فهذه هى أقسام الأسفار . ويخرج من هذه القسمة أقسام :

القسم الأول : السفر فى طلب العلم ؛ وهو إما واجب وإما نفْل ، وذلك بحسب كون العلم واجبًا أو نفلا . وذلك العلم إما علمٌ بأمور دينه ، أو بأخلاقه فى نفسه ، أو بآيات الله فى أرضه .

القسم الثانى : وهو أنْ يسافرَ لأجل العبادة ، إما لحجٍّ أو جهاد ، ويدخل فى جملته زيارةُ قبور الأنبياء عليهم السلام ، وزيارة قبور الصَّحابة والتابعين ، وسائِر العلماء والأولياء . وكلُّ من يتبركٌ بمشاهدته فى حياته يُتبرَّك بزيارتِه بعد وفاته .

القسم الثالث : أنْ يكون السفر للهرب من سببٍ مشوِّش للدين ، وذلك أيضاً حسنٌ ، فالفِرارُ ممّا لا يطاق من سنن الأنبياء والمرسلين .

ومما يجب الهرب منه الولاية والجاه ، وكثرة العلائِق والأسباب ، فإنَّ كلَّ ذلك يشوِّش فراغ القلب ؛ والدين لا يتم إلّا بقلب فارغ عن غير الله .

وقد كان من عادة السلف رضى الله عنهم مفارقُه الوطَن ، خيفةً من الفتن .

وقد كان الخَوّاص[1] لا يقيم ببلد أكثر من أربعين يومًا ، وكان من المتوكّلين ، ويَرى الإقامة اعتمادًا على الأسباب ، قادحًا فى التوكل .

القسم الرابع : السفر هربًا مما يَقدح فى البدن كالطّاعون ، أو فى المال كَغلاء السِّعرِ أو ما يجرى مجراه . ولا حرجَ فى ذلك ، بل ربّما يجب الفِرار فى بعض المواضع ، وربّما يستحب فى بعض ، بحسَبِ وجوبِ ما يترتّب عليه من الفوائد واستحبابه . ولكنْ يستثنى منه الطاعون فلا ينبغى أن يُفَرّ منه ، لورود النّهى فيه .

فهذه أقسام الأسفار ، وقد خرج منه أن السفر ينقسم إلى مذموم ، وإلى محمود ، وإلى مباح .

والمذموم ينقسم إلى حرام كإباق العبد وسفَرِ العاقّ ، وإلى مكروه كالخروج من بلد الطاعون .

والمحمود ينقسم إلى واجب كالحجّ وطلب العلم الذى هو فريضة على كلّ مسلم ، وإلى مندوب إليه كزيارة العلماء وزيارة مشاهدهم .

ومن هذه الأسباب تتبيَّن النيةُ فى السفر ؛ فإنّ معنى النية الانبعاث للسبب الباعث ، والانتهاضُ لإجابة الداعية .

ولتكن نيته الآخرةَ فى جميع أسفاره ، وذلك ظاهر فى الواجب والمندوب ، ومحالٌ فى المكروه والمحظور .

---

(١) هو سالم بن ميمون الخواص ، من عباد أهل الشام وقرائهم . ونسبته إلى نسج الخوص وعمل المراوح من سعف النخل .

وأمّا المباح فمرجعه إلى النية . فمهما كان قصدهُ بطلبِ المال مَثلاً التعفُّفَ عن السؤال ، ورعايةَ سِتر المروءة على الأهل والعيال ، والتصدُّقَ بما يفضُل عن مبلغ الحاجة ، صار هذا المباح بهذه النية من أعمال الآخرة. ولو خرج إلى الحجّ وباعثُه الرِّياءُ والسُّمعة ، لخرجَ من كونه من أعمال الآخرة ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « إنّما الأعمالُ بالنِّيَّات » .

وأما النظر فى أنّ السفر هو الأفضل أو الإقامة : فذلك يضاهى النظر فى أن الأفضل هو العزلة أو المخالطة ؟

وقد ذكرنا منهاجَه فى كتاب العزلة فليفهم هذا منه ، فإن السفرَ نوعُ مخالطة مع زيادةِ تعبٍ ومشقَّةٍ تفرّق الهم ، وتشتِّت القلب فى حقّ الأكثرين . والأفضلُ فى هذا ما هو الأعونُ على الدين .

وأما السِّياحة فى الأرض على الدَّوام فمن المشوِّشات للقلب ، إلّا فى حقِّ الأقوياء ؛ فإنَّ المسافر ومالَه لعَلَى قَلَت إلّا ما وَقَى الله[1] . فلا يزال المسافر مشغولَ القلب، تارةً بالخوف على نفسه وماله ، وتارة بمفارقة ما أَلِفَه واعتاده فى إقامته . وإن لم يكن معه مالٌ يخاف عليه فلا يخلو عن الطَّمع والاستشراف إلى الخَلْق ، فتارةً يضعف قلبُه بسبب الفقر ، وتارةً يقوى باستحكام أسباب الطمع .

إلا أنّ أكثرَ متصوِّفةِ هذه الأعصار ــ لمّا خلت بواطنُهم عن لطائِف الأفكار ، ودقائِق الأعمال ، ولم يحصُلْ لهم أنسٌ بالله تعالى وبذكره فى الخلوة ، وكانوا بطَّالين غير محترفين ولا مشغولين ــ قد ألفوا البَطَالة واستثقلوا العمل ، واستوعروا طريق الكسب ، واستلانوا جانب السؤال والكُدْية[2] ، واستطابوا الرِّباطاتِ المبنيّةَ لهم فى البلاد ، واستسخروا

(١) القلت ، بالتحريك : الهلاك . وهذا من قول بعض الأعراب . البيان والتبيين ٢ : ١٠٥ .
(٢) الكدية ، بالضم : صناعة السؤال الطوافين فى البلاد .

الخَدَمَ المنتصبين للقيام بخدمة القوم ، واستخفوا عقولهم وأديانهم ، من حيثُ لم يكن قصدُهم من الخدمة إلاّ الرياء والسمعة ، وانتشار الصِّيت ، واقتناصَ الأموال بطريق السؤال ، تعلُّلاً بكثرة الأتباع ، فلم يكن لهم فى الخانِقاهات حُكمٌ نافذ ، ولا تـأديبٌ للمريدين نافع ، ولا حَجْرٌ عليهم قاهر . فلبسوا المرقَّعات واتَّخذوا فى الخانِقاهات متنزَّهات ، وربَّما تلقَّوا ألفاظًا مزخرفة من أهل الطامَّات . فينظرون إلى أنفسهم وقد تشبَّهوا بالقوم فى خِرْقتهم وفى سياحتهم ، وفى لفظهم وعبارتهم ، وفى آدابٍ ظاهرة من سيرتهم، فيظنُّون بأنفسهم خيرًا ، ويَحْسَبون أنَّهم يُحسِنون صُنعاً ، ويعتقدون أنَّ كلَّ سوداء تمرة ، ويتوهَّمون أنَّ المشاركةَ فى الظاهر توجب المساهمة فى الحقائق ، وهيهات !

فما أغزر حماقةَ من لا يميِّز بين الشَّحم والورم ! فهؤلاء بُغَضاءُ الله ، فإنَّ الله تعالى يبغض الشابَّ الفارغ . ولم يحملْهم على السِّياحة إلا الشَّبابُ والفراغ .

الفصل الثاني

في آداب المسافر من أول نهوضه إلى آخر رجوعه
وهي أحد عشر أدباً

الأول : أنْ يبدأ بردّ المظالم وقضاء الدُّيون ، وإعداد النفقة لمن يلزمه نفقتُه ، وبردِّ الودائعإنْ كانتْ عنده ، ولا يأْخذ لزاده إلّا الحلالَ الطيّب ، وليأْخذْ قدراً يوسِّع به على رفقائه . قال ابن عمر رضى الله عنهما : مِن كرم الرجل طِيبُ زاده فى سفره . ولا بدَّ فى السفر من طيب الكلام ، وإطعام الطَّعام ، وإظهار مكارم الأَخلاق فى السفر .

الثانى : أنْ يختار رفيقًا ، فلا يخرج وحدَه . فالرفيقَ ثم الطريق . وليكن رفيقُه ممن يُعينه على الدين فيذكِّره إذا نسىَ ، ويعينه ويساعده إذا ذَكَر ؛ فإنَّ المرءَ على دين خليله ، ولا يُعرف الرّجلُ إلّا برفيقه . وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن أن يسافر الرجُلُ وحده .

الثالث : أن يودِّع رُفقاءَ الحَضَر والأَهلَ والأَصدقاء . وليدْعُ عند الودَاع بدعاءِ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال بعضُهم : صحبتُ عبد الله بن عمر رضى الله عنهما من مكة إلى المدينة حرَسَها الله ؛ فلما أَردتُ أَنْ أُفارقَه شيّعنى وقال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال لقمان : إن الله تعالى إذا استُودع شيئاً حَفِظه . وإنِّى أَستَودِعُ الله دينَك وأَمانتَك ، وخواتيمَ عملك » .

الرابع : أن يُصَلِّيَ قبل سفره صلاةَ الاستخارة ، كما وصفناها فى كتاب الصلاة. ووقتَ الخروج يصلِّى لأَجل السفر .

الخامس : إذا حَصَل على باب الدار فليقل : بسم الله، توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ربِّ أعوذَ بك أن أَضِلّ أو أُضِلّ ، أو أَزِلَّ أو أُزَلّ ، أو أَظلِمَ أو أُظلَم ، أو أَجْهَل أو يُجهَلَ عَلَىّ ! فإذا مشى قال : اللهمَّ بك انتشرتُ ، وعليك توكَّلت ، وبك اعتصمت ، وإليك توجَّهت . اللهم أنتَ ثقتى وأنت رجائى ، فاكفِنِى ما أَهَمَّنى وما لا أَهتمُّ به ، وما أنت أَعلَمُ به مِنّى . عَزَّ جارُك وجَلّ ثناؤُك ، ولا إله غيرك . اللهم زوِّدْنى التقوى ، واغفِرْ لى ذنبى ، وَوَجِّهْنى للخير أينما توجَّهت .

السادس : أَنْ يرحل عن المنزل بُكرةً . رَوى جابرٌ : أَنَّ النبى صلى الله عليه وسلم رحلَ يوم الخميس وهو يريد تَبُوك وقال : « اللهم باركْ لأُمَّتِى فى بكورها » .

السابع : أن لا ينزل حتّى يحمَى النهارُ ، فهى السنة ، ويكون أكثر مسيره باللّيل . قال صلى الله عليه وسلم : « عليكم بالدُّلجة [1] فإن الأَرضَ تُطوَى بالليل مالا تُطوَى بالنهار » .

الثامن : أن يحتاط بالنَّهار ، فلا يمشىَ منفرداً خارجَ القافلة ، لأنه ربَّما يُغتال أو ينقطع . ويكون بالليل متحفِّظًا عند النوم .

والمستحَبّ بالليل أن يتناوبَ الرفقاءُ فى الحِراسة ، فإذا نام واحدٌ حَرس آخَرُ . فهذه السُّنَّة .

التاسع : أن يَرفُق بالدابة إنْ كان راكباً ، فلا يحمِّلَهَا مالا تطيق ، ولا يضربَها فى وجهها ، فإنه منهىٌّ عنه . ولا ينامَ عليها فإنَّه يثقُلُ بالنوم وتتأذَّى به الدابة . كان أهلُ الورع لا ينامون على الدوابِّ إلا غَفوة .

---

(١) الدلجة ، بضم الدال : سير الليل .

وينبغى أن يقرِّر مع المُكارِى ما يَحمِله عليها شيئاً شيئاً ويَعرِضه عليه ، ويستأجر الدابَّةَ بعقدٍ صحيح لئلاَّ يثور بينهما نزاع .

فلا ينبغى أن يَحمِل فوق المشروط شيئاً وإن خفّ . فإنّ القليل يجرّ الكثير ، ومن حامَ حول الحِمَى يُوشك أن يقعَ فيه . قال رجل لابن المبارك وهو على دابّة : احمل لى هذه الرُّقعةَ إلى فلان . فقال : حتّى أستأْذِنَ المكارِىَ[1] فإنِّى لم أُشارطْه على هذه الرقعة .

العاشر : ينبغى أن يستصحبَ ستَّة أشياء . قالت عائِشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر حمل معه ستَّة أشياء: المرآة ، والقارورة ، والمقراض ، والسِّواك ، والمُكحلة ، والمُشْط .

الحادى عشر : فى آداب الرجوع من السفر : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا قَفَل من غزو أو حجّ أو عمرة أو غيره ، يكبِّر على كل شَرَف[2] من الأَرض ثلاثَ تكبيرات ويقول : « لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له ، له الملكُ وله الحمد ، وهو على كلِّ شىء قدير . آيبون تائِبون ، عابدون ساجدون ، لربِّنا حامدون ، صدقَ الله وعدَه ونصر عبدَه وهزم الأَحزابَ وحده » . وإذا أشرفَ على مدينته فليقلْ : اللهمَّ اجعل لنا بها قَراراً ورزقًا حسناً . ثم ليرسلْ إلى أهله مَن يبشِّرُهم بقدومه ، كيلا يَقْدَم عليهم بغتَة فيرَى ما يكرهه ، ولا ينبغى له أنْ يَطرقَهم ليلا ؛ فقد ورد النهى عنه . وكان صلى الله عليه وسلم إذا قدِم دخلَ

---

(١) المكارى : من يكرى دابته ، أى يؤجرها .
(٢) الشرف ، بالتحريك : ما ارتفع من الأرض .

المسجدَ أوّلا وصلى ركعتين ، ثم دخل البيت . وإذا دخل قال : « توباً توباً ، لربّنا أوْباً أوْبا ، لا يغادر علينا حَوْبا[1] » .

وأما الآداب الباطنة : ففى الفصل الأول بيانٌ لجملةٍ منها .

وجملته أنْ لا يسافر إلّا إذا كان زيادةُ دينه فى السفر . ومهما وجد قلبه متغيّراً إلى نقصان فليقفْ ولينصرف ، ولا ينبغى أن يجاوز همُّه منزلَهُ ، بل ينزل حيث ينزل قلبُه . وينوى فى دخول كلِّ بلدة أن يرى شيوخَها ، ويجتهدُ أنْ يستفيد من كلٍّ واحد منهم أدباً أو كلمةً لينتفع بها ، لا ليحكىَ ذلك ويُظهِر أنه لَقِىَ المشايخ . ولا يقيم ببلدة أكثَر من أُسبوع أو عشرة أيام ، إلّا أن يأْمره الشيخ المقصودُ بذلك . ولا يجالس فى مدة الإقامة إلّا الفقراء الصادقين . وإن كان قصده زيارةَ أخ فلا يزيد على ثلاثة أيام ، فهو حدُّ الضيافة ، إلا إذا شقَّ على أخيه مفارقته . وإذا قصد زيارة شيخ فلا يقيم عنده أكثر من يوم وليلة .

---

(١) الأوب : الرجوع . والحوب : الإثم والذنب .

الباب الثانى

فيما لابُدّ للمسافر من تعلمه

من رخص السفر ، وأدلة القبلة ، والأوقات

اعلم أنَّ المسافر يحتاج فى أوّل سفره إلى أن يتزوَّد لدنياه ولآخرته .

أما زاد الدنيا : فالطَّعام والشراب وما يحتاج إليه من نفقة . فإنْ خرجَ متوكِّلا من غير زادٍ فلا بأسَ به إذا كان سفرُه فى قافلة ، أو بينَ قُرًى متَّصلة . وإنْ ركبَ الباديةَ وحدَه أو مع قومٍ لا طعامَ معهم ولا شرابَ فإن كان ممن يَصبِر على الجوع ــ أسبوعاً أو عَشْراً مثلا ، أو يقدرُ على أن يكتفىَ بالحشيش ، فله ذلك . وإن لم يكن له قوّةُ الصبرِ على الجوع ، ولا القدرةُ على الاجتزاء بالحشيش ، فخروجُه من غير زادٍ معصيةٌ ، فإنَّه ألقى نفسَه بيده إلى التهلكة .

وأما زاد الآخرة : فهو العلم الذى يَحتاج إليه فى طهارته وصَومه وصلاته وعباداته . فلابدَّ وأن يتزوّد منه ؛ إذ السفرُ تارةً يخفِّف عنه أموراً فيحتاج إلى معرفة القدر الذى يخفِّفه السفر ، كالقَصْر ، والجَمْع ، والفِطر . وتارة يشدِّد عليه أموراً كان مستغنياً عنها فى الحَضَر ، كالعلم بالقِبلة وأوقاتِ الصلوات ؛ فإنَّه فى البلدِ يكتفى بغيره من محاريب المساجد وأذان المؤذنين ، وفى السفر قد يحتاج إلى أن يتعرَّف بنفسه.

فإذَنْ ما يَفتقِر إلى تعلُّمه ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول

العلم برخص السفر

والسفر يُفيد فى الطهارة رُخصتين : مسح الخُفّين، والتيمُّم . وفى صلاة الفرض رخصتين : القصر، والجمع. وفى النفْل رخصتين : أداؤُه على الراحلة، وأداؤُه ماشياً ، وفى الصوم رخصةٌ واحدة وهى الفطر . فهذه سبع رخص .

(الرخصة الأُولى) : المسح على الخفين .

فكلٌّ من لبس الخفَّ على طهارة مُبيحةٍ للصلاة ثم أحدث فله أن يمسَح على خفه من وقت حدَثه ثلاثةَ أيّام ولياليهنَّ إنْ كان مسافراً ، أو يوماً وليلةً إنْ كان مقيما ، ولكن بخمسة شروط :

الأَول : أنْ يكون اللُّبس بعد كمال الطهارة .

الثانى : أنْ يكون الخفّ قويًّا يمكن المشىُ فيه ، ويجوز المسحُ على الخفّ وإنْ لم يكن مُنَعَّلا ، إذ العادة جاريةٌ بالتردُّد فيه فى المنازل ، لأَنَّ فيه قوّة على الجملة ، بخلاف جَوْرب الصُّوفية فإنَّه لا يجوز المسح عليه . وكذا الجُرموق الضعيف[1] .

الثالث : أنْ لا يكون فى موضع فرض الغَسلِ خَرق ، فإنْ تخرَّق بحيث انكشف محلُّ الفرض لم يَجُز المسحُ عليه

---

(١) الجرموق : ما يلبس فوق الخف .

الرابع : أنْ لا ينزِعَ الخفَّ بعد المسح عليه ، فإنْ نَزَع فالأَوْلَى له استئنافُ الوضوءِ ، فإنْ اقتصرَ علىٰ غسل القدمين جاز .

الخامس : أَنْ يمسح على الموضع المحاذِى لمحلِّ فرض الغَسْل لا على الساق ، وأَقلُّه ما يسمَّى مسحاً على ظهر القدم .

(الرخصة الثانية) : التيمُّم بالتراب بدلاً عن الماءِ عند العذر ؛ وإنما يتعذَّر الماءُ بِأَنْ يكون بعيداً عن المنزلِ بُعداً لو مشى إليه لم يلحقْه غوثُ القافلة إنْ صاح أو استغاث .

وكذا إنْ نزل على الماءِ عدوٌّ أو سبع ، فيجوز التيمم وإنْ كان الماءُ قريباً . وكذا إنْ احتاج إليه لعطشه فى يومه أو بعد يومه ، لفقد الماءِ بين يديه ، فله التيمم . وكذا إن احتاجَ إليه لعطشِ أَحدِ رفقائِه فلا يجوز له الوضوءُ ، ويلزمه بذْلُه إمَّا بثمن أَوْ بغير ثمن .

(الرخصة الثالثة) : فى الصلاة المفروضة ؛ القصر : وله أَنْ يقتصر فى كلِّ واحدة من الظهر والعصر والعشاءِ على ركعتين ، ولكن بشروط ثلاثة :

الأَول : أَنْ يؤدِّيَها فى أَوقاتها ، فلو صارت قضاءً فالأَظهر لزوم الإتمام .

الثانى : أَنْ ينوىَ القصر ، فلو نوَى الإتمام لزمه الإتمام ، ولو شك فى أَنَّه نوى القصر أو الإتمام لزمه الإتمام .

الثالث : أَنْ لا يقتدىَ بمقيم ولا بمسافرٍ مُتِمّ ، فإنْ فعل لزمه الإتمام ، بل إنْ شكَّ فى أَنَّ إمامَه مقيمٌ أَوْ مسافر لزمه الإتمام .

(الرخصة الرابعة) : الجمع بين الظهر والعصر فى وقتيهما ، وبين المغرب والعشاءِ فى وقتيهما ؛ فذلك أَيضاً جائِزٌ فى كلِّ سفر طويل مباح ، وفى جوازه فى السفر القصير قولان . ثم إنْ قدَّم العصر إلى الظهر فلْينوِ الجمع بين الظهر والعصر فى وقتيهما قبل الفراغ من الظُّهر . وليؤذِّنْ للظهر وليُقِمْ ، وعند الفراغ يُقيم للعصر .

(الرخصة الخامسة) : التنفل راكبًا ؛ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلِّي على راحلته أينما توجَّهتْ به دابَّتُه .

وليس على المتنفل الراكب فى الركوب والسجود إلَّا الإيماءُ . وينبغى أنْ يجعل سجودَه أخفضَ من ركوعه ، ولا يلزمه الانحناءُ إلى حدٍّ يتعرض به لخطرٍ بسبب الدابة . فإنْ كان فى مَرقَد فليتِمّ الركوعَ والسجود فإنه قادر عليه.

(الرخصة السادسة) : التنفل للماشى جائز فى السفر ، ويومئُ بالركوع والسجود ، ولا يقعد للتشهد لأن ذلك يبطل فائدةَ الرخصة ، وحكمه حكم الراكب ؛ لكن ينبغى أن يتحرَّم بالصلاة مستقبلًا للقبلة ؛ لأنَّ الانحراف فى لحظة لا عُسْرَ عليه فيه ، بخلاف الراكب فإنَّ فى تحريف الدابَّةِ وإنْ كان العنانُ بيده نوعَ عسر .

(الرخصة السابعة) الفطر ؛ وهو فى الصوم . فللمسافر أنْ يُفطر إلَّا إذا أصبح مقيما ثم سافر ، فعلَيه إتمام ذلك اليوم . وإن أصبح مسافراً صائماً ثم أقام فعليه الإتمام.

القسم الثانى

ما يتجدد من الوظيفة بسبب السفر

وهو علمُ القبلةِ والأوقات : وذلك أيضاً واجبٌ فى الحضر ؛ ولكن فى الحضر مَن يكفيه من محراب متَّفَق عليه يُغْنيه عن طلب القبلة ، ومؤذِّن يراعى الوقتَ فيُغْنيه عن طلب علم الوقت .

والمسافر قد تشتبه عليه القبلة ، وقد يلتبس عليه الوقت . فلا بدّ له من العلم بأدلَّة القبلة والمواقيت .

وأما أدلةُ القبلة فهى ثلاثة أقسام : أرضية ؛ كالاستدلال بالجبال. والقرى والأنهار . وهوائية ؛ كالاستدلال بالرياح شَمَالها وجنوبها ، وصَباها ودَبُورها . وسماوية ؛ وهى النجوم .

فأما الأرضية والهوائية فتختلف باختلاف البلاد ، فربَّ طريق فيه جبلٌ مرتفع يُعلم أنه على يمين المستقبل أو شِماله، أوْ ورائِه أو قدّامِه، فليَعْلَم ذلك وليفهمْه . وكذلك الرياح قد تدلُّ فى بعض البلاد فليفهم ذلك . ولسنا نقدر على استقصاء ذلك ؛ إذْ لكلِّ بلدٍ وإقليم حكمٌ آخر.

وأما السماوية فأدلتها تنقسم إلى نهارية وإلى ليلية .

أما النهارية ؛ فالشمس ؛ فلابدّ أنْ يراعِيَ قبلَ الخروج من البلد أنَّ الشمسَ عند الزوال أين تقع منه ، أهى بين الحاجبين ؟ أو على العين اليمنى ؟ أو اليسرى ؟ أو تميل إلى الجبين ميلاً أكثر من ذلك ؟ فإن الشمس لا تعدو فى البلاد الشمالية هذه المواقع . فإذا حفظ ذلك فمهما عرف الزوالَ بدليله الذى سنذكره عرف القبلة به . وكذلك يراعى مَواقعَ الشمس منه وقتَ العصر ؛ فإنَّه فى هذين الوقتينْ يحتاج إلى القبلة بالضَّرورة . وهذا أيضاً لمَّا كان يختلف بالبلاد فليس يمكن استقصاؤُه .

وأما القبلة وقت المغرب فإنها تُدرَك بموضع الغروب . وذلك بأن يحفظَ أنَّ الشمسَ تغرُب عن يمين المستقبل ، أو هى مائلةٌ إلى وجهه ، أو قفاه . وبالشَّفق أيضاً تُعرَف القبلة للعشاءِ الأخيرة .

وبمشرق الشمس تعرف القبلة لصلاة الصبح . فكأنَّ الشَّمسَ تدلُّ على القبلة فى الصلوات الخمس ، ولكن يختلف ذلك بالشتاءِ والصيف.

وأما معرفة أوقاتِ الصلوات الخمس فلا بدَّ منها :

فوقت الظهر يدخل بالزوال ، فإنَّ كلَّ شخصٍ لا بدَّ أن يقع له فى

ابتداء النهار ظلٌ مستطيل فى جانب المغرب ، ثم لا يزال ينقص إلى وقت الزوال ثم يأخذ فى الزيادة فى جهة المشرق ولا يزال يزيد إلى الغروب . فليقُم المسافرُ فى موضعٍ أو لينصبْ عُوداً مستقيما ، وليُعْلِمْ على رأس الظل ، ، ثم لينظرْ بعد ساعة ، فإنْ رآه فى النقصان فلم يدخل بعدُ وقت الظهر .

وطريقُه فى معرفة ذلك أن ينظر فى البلد ـ وقتَ أذان المؤَذِّن المعتمد ـ ظلَّ قامته ، فإنْ كانَ مَثلاً ثلاثة أقدام بقدمه فمهما صار كذلك فى السفر وأخذ فى الزيادة صلَّى . فإن زاد عليه ستة أقدام ونصفاً بقدمه دخلَ وقت العصر ، إذْ ظلُّ كل شخص بقدمه ستة أقدام ونصف بالتقريب .

وأما وقت المغرب فيدخل بالغروب . ولكن قد يحجبُ الجبال المغربَ عنه ، فينبغى أن ينظر إلى جانب المشرق ، فمهما ظهر سوادٌ فى الأُفق مرتفعٌ من الأَرض قَدرَ رمح فقد دخل وقت المغرب .

وأما العِشاءُ فيعرف بغيبوبة الشفق ـ وهو الحمرة ـ فإن كانت محجوبة عنه بجبالٍ فيعرفه بظهور الكواكب الصغار وكثرتها . فإن ذلك يكون بعد غيبوبة الحمرة .

وأما الصُّبح فيبدو فى الأَوَّل مستطيلا كذنَب السِّرحان[1] فلا يحكم به إلى أنْ ينقضى زمان ، ثم يظهر بياضٌ معترض لا يعسُر إدراكه بالعين لظهوره ، فهذا أَوَّلُ الوقت .

---

(١) السرحان ، بالكسر ـ الذئب .

الكتاب الثامن

كتاب آداب السماع والوجد

أَما بعدُ فإِنَّ القلوبَ والسرائِر ، خزائنُ الأَسرار ومعادنُ الجواهر ، وقد طويت فيهاجواهرهاكما طويت النار فى الحديد والحجر ، وأُخفيَتْ كما أُخْفِيَ الماءُ تحت التراب والمدَر ، ولا سبيل إِلى استشارة خفاياها إِلَّا بقوادح السماع ، ولا منفذَ إِلى القلوب إِلَّا من دِهليز الأَسماع ، فالنَّغَمات الموزونة المستَلَذَّة تُخرج ما فيها ، وتُظهر محاسِنها أَو مساويَها فلا يظهر من القلب عند التحريك إِلَّا ما يحويه ، كما لا يَرشَح الإِناءُ إِلَّا بما فيه . فالسماع للقلب مِحَكٌّ صادق ، ومِعيارٌ ناطق ، فلا يصل نفسُ السَّماع إِليه ، إِلَّا وقد تحرَّك فيه ما هو الغالب عليه .

وإِذا كانت القلوب بالطباع مطيعةً للأَسماع حتَّى أَبدت بوَارداتها مكامنَها، وكشفت بها عن مساوِيها وأَظهرت محاسنَها، وجب شرحُ القول فى السماع والوجد ، وبيان ما فيهما من الفوائِد والآفات ، وما يستحَبُّ فيهما من الآداب والهيئَات ، وما يتطرَّق إِليهما من خلاف العلماء ، فى أَنهما من المحظورات أَو المباحات . ونحن نوضِّح ذلك فى بابين .

الباب الأَول : فى إِباحة السماع .

الباب الثانى : فى آداب السماع وآثاره فى القلب بالوجد ، وفى الجوارح بالرقص والزَّعقْ وتمزيق الثياب .

الباب الأوّل

في ذكر اختلاف العلماء في إباحة السماع
وكشف الحق فيه

بيان أقاويل العلماء والمتصوفة فى تحليله وتحريمه

اعلم أنَّ السماع هو أوّلُ الأمرِ ، ويُثمر السماعُ حالةً فى القلب تسمَّى الوَجْد ، ويثمر الوَجْد تحريكَ الأطراف إمَّا بحركةٍ غير موزونة فتسمَّى الاضطرابَ ، وإمَّا موزونةٍ فتسمَّى التصفيق والرقص .

فلنبدأ بحكم السماع وهو الأوّل ، وننقل فيه الأقاويلَ المعْرِبةَ عن المذاهب فيه ؛ ثم نذكر الدليلَ على إباحته ، ثم نُردفه بالجواب عمَّا تمسَّك به القائِلون بتحريمه .

فأمَّا نقل المذاهب : فقد حكى القاضى أبو الطيِّب الطبرى ، عن الشافعى ومالك وأبى حنيفة وسفيان ، وجماعةٍ من العلماء ، ألفاظاً يُستدلُّ بها على أنهم رأوْا تحريمه .

وقال الشافعى رحمه الله فى كتاب آداب القضاء : إنَّ الغناء لَهْوٌ مكروهٌ يُشبه الباطل ، ومن استكثر منه فهو سفيهٌ تُرَدّ شهادته .

وأما مالك رحمه الله فقد نَهى عن الغناء وقال : إذا اشترى جارية فوجدَها مغنِّية كان له ردُّها . وهو مذهبُ سائِر أهل المدينة ، إلَّا إبراهيمَ بن سعد وحدَه .

وأمَّا أبو حنيفة رضى الله عنه فإنه كان يكره ذلك ، ويجعل سماع الغناء من الذُّنوب ، وكذلك سائر أهل الكوفة : سُفيان الثورىُّ ، وحمادٌ ، وإبراهيم ، والشعبى وغيرهم .

ونقل أبو طالب المكيُّ إباحَة السماع مِن جماعة فقال : سَمع من الصحابة عبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن الزُّبير ، والمغيرة بن شعبة ، ومعاوية وغيرهم ، وقال : قد فعلَ ذلك كثيرٌ من السلف الصالح ، صحابيٌّ وتابعيٌّ بإحسان .

قال : وقيل لأبي الحسن بن سالم : كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد وسَرِيٌّ السَّقطي ، وذو النون يستمعون ؟ فقال : وكيف أنكر السماع وقد أجازه وسمعه من هو خيرٌ مني ؟ فقد كان عبد الله بن جعفر الطيَّار يسمَع ، وإنما أُنكِرُ اللهوَ واللعبَ في السماع .

بيان الدليل على إباحة السماع

نستفتحُ ونقول : قد دلّ النص والقياس جميعاً على إباحته .

أما القياس : فهو أنَّ الغناء اجتمعت فيه معانٍ ينبغِي أنْ يُبحث عن أفرادها ثم عن مجموعها ، فإنَّ فيه سماعَ صوتٍ طيِّب موزونٍ مفهومِ المعنى ، محرِّك للقلب ، فالوصف الأعمُّ أنَّه صوت طيب . ثم الطيب ينقسم إلى الموزون وغيره . والموزون ينقسم إلى المفهوم كالأشعار ، وإلى غير المفهوم كأصوات الجمادات وسائِر الحيوان .

أما سماع الصوت الطيِّب من حيث أنَّه طيب فلا ينبغي أن يُحرَّم ، بل هو حلالٌ بالنص والقياس . أما القياس فهو أنه يرجع إلى تلذُّذ حاسّة السمع بإدراك هو مخصوصٌ به ، وللإنسان عقلٌ وخمسُ حواسّ ، ولكلِّ حاسةٍ إدراك ، وفي مُدرَكات تلك الحاسة ما يُستَلذُّ . فلذة النظر في المبصَرات الجميلة ، كالخُضرة ، والماء الجاري ، والوجه الحسن ، وبالجملة سائر الألوان الجميلة ، وهي في مقابلة ما يكره من الألوان الكدرة القبيحة . وللشمِّ الروائِح الطيبة ، وهي في مقابلة الأَنْتَان المستكرَهة . وللذوق

الطعوم اللذيذة . كالدسومة والحلاوة والحموضة ، وهى فى مقابلة المرارة المستبشعة . وللمس لذة اللين والنعومة والملاسة ، وهى فى مقابلة الخشونة والضراسة . وللعقل لذة العلم والمعرفة ، وهى فى مقابلة الجهل والبلادة .

فكذلك الأصوات المدركة بالسمع تنقسم إلى مستلَذٍّ كصوت العنادل[1] والمزامير ، ومستكرَهة كنهيق الحمير وغيرها . فما أظهر قياسَ هذه الحاسّةِ ولذّتها على سائِر الحواس ولذّاتها .

وأما النص : فيدلُّ على إباحة سماع الصوت الحَسن ، امتنانُ الله تعالى على عباده إذ قال : (يَزيدُ فى الخَلْق ما يشاءُ) فقيل : هو الصَّوت الحسن.

الدرجة الثانية : النظر فى الصَّوت الطيِّب الموزون ؛ فإنَّ الوزن وراء الحُسن ، فكم من صوت حسنٍ خارج من الوزن ، وكم من صوت موزون غير مستطاب . والأصوات الموزونة باعتبار مخارجها ثلاثة : فإنّها إمّا أنْ تخرجَ من جمادٍ كصوت المزامير والأوتار وضرب القضيب والطَّبل وغيره ، وإمّا أنْ يخرج من حَنجرة حيوان ؛ وذلك الحيوان إما إنسانٌ أو غيره ، كصوت العنادل والقَمارىّ[2] وذاتِ السَّجع من الطيور ، فهى مع طيبها موزونةٌ متناسبةُ المطالع والمقاطع ، فلذلك يُستَلَذُّ سماعها .

فسماعُ هذه الأصوات يستحيل أن يَحرُم ، لكونها طيِّبةً أو موزونة ، فلا ذاهب إلى تحريم صوت العندليب وسائِر الطيورِ . ولا فرقَ بين حنجرة وحنجرة ، ولا بين جماد وحيوان . فينبغى أن يقاس على صوت العندليب الأصواتُ الخارجة من سائِر الأجسام باختيار الآدمى ، كالذى يَخرج من حلقه ، أو من القضيب والطَّبل والدُّفّ وغيره .

(١) العنادل : جمع عندليب.

(٢) القمارى : جمع قمرية وهى من الطيور ذوات الأصوات الحسنة .

الدرجة الثالثة : الموزون والمفهوم ، وهو الشعر ، وذلك لا يخرج إلا من حنجرة الإنسان ، فيُقطَع بإباحة ذلك ، لأنه ما زادَ إلاَّ كونَه مفهوماً ، والكلام المفهوم غير حرام ، والصوت الطيِّب الموزون غير حرام ، فإذا لم يَحرُم الآحادُ فمن أين يَحرُم المجموع ؟ نعم يُنظَر فيما يفهم منه ، فإن كان فيه أمرٌ محظور حَرُم نثْره ونظمه ، وحرُم النطق به ، سواءٌ كان بألحانٍ أو لم يكن . والحقُّ فيه ما قال الشافعي رحمه الله إذ قال : الشعر كلام ، فحَسَنُه حسن ، وقبيحُه قبيح . ومهما جاز إنشاد الشعر بغير صوتٍ وألحان جاز إنشادُه مع الألحان . فإنَّ أفراد المباحات إذا اجتمعت كان ذلك المجموع مباحاً .

وعن أنسٍ رضى الله عنه ، أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يُحْدَى له فى السفر ، وأنَّ أنجَشَة كان يحدو بالنِّساء ، والبراء بن مالك كان يحدو بالرِّجال ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أنجشةُ رُوَيْدكَ سَوْقَكَ بالقوارير[1] » . ولم يزل الحُداءُ وراء الجِمال من عادة العرب فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزمانِ الصحابة رضى الله عنهم ، وما هو إلاَّ أشعارٌ تؤدَّى بأصوات طيّبة وألحان موزونة ، ولم يُنقَل عن أحد من الصحابة إنكاره ، بل ربَّما كانوا يلتمسون ذلك تارة لتحريك الجمال ، وتارة للاستلذاذ .

الدرجة الرابعة : النظر فيه من حيث إنَّه محرِّك للقلب ومهيّج لما هو الغالبُ عليه . فأقول : لله تعالى سرٌّ فى مناسبة النغمات الموزونة للأرواح ، حتَّى إنَّها لتؤثِّر فيها تأثيراً عجيباً . فمن الأصوات ما يُفرح ومنها ما يُحزن ومنها ما ينوِّم ، ومنها ما يضحك ويطرب ، ومنها ما يَستخرج من الأعضاء حركاتٍ على وزنها باليد والرجل والرأس .

(١) عنى بالقوارير النساء . شبههن بالقوارير لضعف عزائمهن وقلة دوامهن على العهد . والقوارير من الزجاج يسرع إليها الكسر .

ولا ينبغى أنْ يظنّ أنّ ذلك لفهم معانى الشعر ، بل هذا جارٍ فى الأوتار ، حتّى قيل : من لم يحرّكه الربيع وأزهاره ، والعودُ وأوْتاره ، فهو فاسد المِزاج ، ليس له علاج . وكيف يكون ذلك لفهم المعنى وتأثيرُه مشاهَدٌ فى الصبىّ فى مهده ؟ فإنّه يسكّنه الصوتُ الطيِّبُ عن بكائِه ، وتنصرف نفسُه عما يُبكيه إلى الإصغاء إليه . والجملُ مع بلادة طبعه يتأثّر بالحداء تأثُّراً يستخف معه الأحمال الثقيلة ، ويستقصر لقوّة نشاطه فى سماعِه المسافاتِ الطويلة . وينبعث فيه من النشاط ما يسْكره ويُولِّهه ؛ فنراها إذا طالت عليها البوادى واعتراها الإعياءُ والكَلال ، تحتَ المُحامل والأَحمال ، إذا سمعت مُنادِىَ الحُدَاء تمدّ أعناقَها ، وتصغى إلى الحادى ناصبةً آذانها ، وتُسرع فى سيرها حتّى تتزعزع عليها أحمالُها ومَحاملها ، وربَّما تتلف أنفسُها من شدّة السَّير وثِقل الحمل ، وهى لا تشعُر به لنشاطها .

قال أبو سليمان : السماع لا يَجعل فى القلب ما ليس فيه ، ولكن يحرِّك ما هو فيه ، فالترنُّم بالكلمات المسجَّعة الموزونة ، معتادٌ فى مواضعَ لأَغراضٍ مخصوصة تربط بها آثار فى القلب ، وهى سبعة مواضع :

الأَول : غناءُ الحجيج ؛ فإنَّهم أوّلاً يدورون فى البلاد بالطَّبل والشاهين والغِناء ، وذلك مباحٌ لأَنَّها أشعار نُظِمت فى وصف الكعبة والمقام ، والحطيم وزمزم ، وسائِر المشاعر ، ووصفِ البادية وغيرها ، وأثرُ ذلك يهيِّج الشوقَ إلى حجٍّ بيت الله تعالى واشتعال نيرانه إن كان ثَمَّ شوقٌ حاصل ، أو استثارة الشوق واجتلابه إنْ لم يكن حاصلا .

الثانى : ما يَعْتاده الغُزاةُ لتحريضِ النا س على الغَزْو ، وذَلك أيضًا مُباحٌ كما للحاج .

الثالث : الرّجَزيات التي يستعملها الشجعان فى وقت اللقاء ؛ والغرض منها التشجيعُ للنّفس وللأنصار ، وتحريك النشاط فيها للقتال ، وفيه التمدُّح بالشّجاعة والنجدة ، وذلك إذا كان بلفظٍ رشيق وصوتٍ طيّب كانْ أوقع فى النفس . وذلك مباحٌ فى كلِّ قتالٍ مباح ، ومندوبٌ فى كلِّ قتال مندوب .

الرابع : أصوات النِّياحة ونغماتها ، وتأثيرها فى تهييج الحزن والبكاء وملازمة الكآبة . والحزن قسمان : محمود ومذموم :

فأما المذموم فكالحزن على ما فات . والحزنُ على الأموات من هذا القبيل، فإنه تَسخُّطٌ لقضاء الله تعالى ، وتأسُّفٌ على مالا تداركَ له . فهذا الحزن لمّا كان مذموماً كان تحريكه بالنِّياحة مذموماً ، فلذلك ورد النهى الصريحُ عن النِّياحة .

وأما الحزن المحمودُ فهو حزن الإنسان على تقصيره فى أمر دينه ، وبكاؤُه على خطاياه . والبكاءُ والتّباكى والحُزن والتّحازُن على ذلك محمود ، وعليه بكاءُ آدم عليه السلام . وتحريك هذا الحُزن وتقويتُه محمودٌ ، لأنّه يبعث على التشمير للتّدارُك ، ولذلك كانت نياحة داود عليه السلام محمودة ، إذْ كان ذلك مع دوام الحزن وطول البكاء بسبب الخطايا والذنوب .

الخامس : السّماع فى أوقات السرور تأكيدًا للسرور وتهييجاً له ، وهو مباحٌ إنْ كان ذلك السرور فى أيام العيد وفى العُرس ، وفى وقت قدوم الغائب ، وفى وقت الوليمة والعَقيقة ، وعند ولادة المولود وعند خِتانه . وعند حِفظِهِ القرآنَ العزيز . وكل ذلك مباحٌ لأجل إظهار السرور به .

ويدلُّ على هذا من النقل إنشاد النساء على السُّطوح بالدُّفِّ والألحان عند قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

طلع البدرُ علينـــا من ثَنِيَّاتِ الوداعِ
وجبَ الشكرُ علينا ما دعا لله داعِ

فهذا إظهار السرور لقدومه صلى الله عليه وسلم ، وهو سرورٌ محمود؛ فإظهاره بالشِّعر والنغمات ، والرَّقصِ والحركات ، أيضاً محمود .

ويدلُّ على هذا ما رُوى فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « لقد رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يستُرنِى بردائِهِ وأنَا أنظرُ إلى الحبشة يَلعبون فى المَسْجد حتَّى أكون أنا الذى أسأَمُه » .

وروى البخاريُّ ومسلمٌ أيضًا فى صحيحيهما حديثَ عَقيل عن الزهرى عن عُروة عن عائشة رضى الله عنها ، أنَّ أبا بكر رضى الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان فى أيام مِنًى تُدَفِّفَان وتَضربان ، والنبى صلى الله عليه وسلم مُتَغَشٍّ بثوبه ، فانْتَهَرَهُما أبو بكر رضى الله عنه ، فكشف النبى صلى الله عليه وسلم عن وجهه وقال : « دَعْهُما يا أبا بكر ؛ فإنَّها أيَّامُ عيد » . وقالت عائشة رضى الله عنها : رأيتُ النبى صلى الله عليه وسلم يستُرنى بردائِه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون فى المسجد ، فزجرهم عمر رضى الله عنه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أَمْنًا يا بنى أرفِدة[1] » . يعنى من الأَمْن .

وقالت عائشة رضى الله عنها : دخل علىَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندى جاريتان تغنِّيان بغناء بُعاث ، فاضطجع على الفراش وحوّلَ وجهه ، فدخل أبو بكر رضى الله عنه فانتهرنى وقال : مِزمار الشَّيطان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فأقبل عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وقال : « دَعْهما » . فلما غَفَل غمزتُهما ، فخرجتا .

(١) بنو أرفدة : جنس من الحبش يرقصون ، هو لقب لهم أو اسم أبيهم الأقدم يعرفون به .

فهذه الأحاديث كلُّها فى الصحيحين ، وهو نصٌّ صريح فى أنْ الغناء واللعبَ ليس بحرام .

السادس : سَماعُ العُشّاق تحريكًا للشّوق ، وتهييجًا للعشق ، وتسليةً للنفس . فإنْ كان فى مشاهدة المعشوق فالغرض تأكيد اللذة ، وإن كان مع المفارقة فالغرض تهييج الشوق . والشوق وإنْ كان ألمًا ففيه نوعُ لذّة إذا انضاف إليه رَجاءُ الوصال ، فإنَّ الرَّجاء لذيذ ، واليأسَ مؤْلِم .

وهذا حلالٌ إنْ كان المشتاق إليه ممن يُباح وصالُه ، كمن يعشَق زوجته أو سُرِّيَّتَه ، فيُصغى إلى غنائِها لتضاعُف لذته فى لقائِها .

السابع : سماع مَن أحبَّ الله وعَشِقه واشتاق إلى لقائِه ، فلا ينظر إلى شىء إلا رآه فيه سبحانه ، ولا يقرع سمعَه قارعٌ إلاَّ سمعه منه أو فيه . فالسَّماع فى حقه مهيِّج لشوقه ، ومؤكِّد لعِشقه وحبِّه ، ومُورٍ زنادَ قلبه ، ومستخرِج منه أحوالا من المكاشَفات والملاطفات لا يُحِيط الوصف بها ، يعرفها مَن ذاقها ، وينكرها من كَلَّ حِسُّهُ عن ذوقها . وتسمَّى تلك الأحوال بلسان الصوفية وَجْداً ، مأْخوذ من الوُجود والمصادفة ، أى صادف من نفسه أحوالا لم يكن يصادفها قبل السماع .

ولعلَّك تقول : كيف يُتصوَّر العشقُ فى حقِّ الله تعالى حتَّى يكون السماع محرِّكا له ؟ فاعلم أنَّ من عرف الله أحبَّه لا محالة ، ومن تأكَّدت معرفته تأكَّدت محبتُه بقدر تأكُّدِ معرفته .

ولذلك قالت العرب : إنَّ محمداً قد عشق ربَّه ! لِمَا رأَوْه يتخلَّى للعبادة فى جبل حِراءِ .

عوارض تحريم السماع

فإن قلت : فهل له حالةٌ يحرُم فيها ؟

فأقول : إنَّه يحرم بخمسة عوارض : عارض فى المُسْمِع ، وعارض فى آلة الإسماع ، وعارض فى نَظْم الصوت ، وعارض فى نفس المستمِع أو فى مواظبته ، وعارض فى كون الشخص من عوامِّ الخلق .

العارض الأول : أن يكون المُسْمِع امرأةً لا يحلُّ النظر إليها وتُخشَى الفتنةُ من سماعها ، وفى معناها الصبىُّ الأمرد ، الذى تُخشَى فتنته ، وهذا حرامٌ لما فيه من خوف الفتنة ، وليس ذلك لأجل الغناء ، بل لو كانت المرأة بحيث يُفتتن بصوتها فى المحاورة من غير ألحان لا يجوز محاورتُها ومحادثتها ، ولا سماعُ صوتها فى القرآن أيضاً ، وكذلك الصبىُّ الذى تُخاف فتنته .

العارض الثانى : فى الآلة ؛ بأنْ تكون من شعار أهل السَّرف أو المخنَّثين ، وهى المزامير والأوْتار وطبْلُ الكُوبة . فهذه ثلاثة أنواع ممنوعة وما عدا ذلك يبقى على أصل الإباحة كالدفّ - وإن كان فيه الجَلاجل - وكالطَّبل والشاهين ، والضَّرب بالقضيب وسائِر الآلات .

العارض الثالث : فى نظم الصوت ، وهو الشعر ، فإنْ كان فيه شئٌ من الخنا والفُحش والهجو ، أو ما هو كذبٌ على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم أو على الصحابة رضى الله عنهم ، كما رتَّبه الروافضُ فى هجاء الصحابة وغيرهم ؛ فسماع ذلك حرامٌ ، بألحان وغير ألحان . والمستمع شريك للقائِل .

وأما هجاءُ الكفَّار وأهل البدَع فذلك جائز ؛ فقد كان حسّان بن ثابت رضى الله عنهُ ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويُهاجى الكفار .

العارض الرابع : فى المستمع ؛ وهو أن تكون الشهوةُ غالبة عليه وكان فى غِرَّةِ الشباب ، وكانت هذه الصفة أغلبَ عليه من غيرها ؛ فالسماعُ حرام عليه ، سوَاءٌ غلب على قلبه حبٌّ شخص معيَّنٍ أو لم يغلب .

العارض الخامس : أن يكون الشخصُ من عوامِّ الخلق ولم يغلب عليه حبُّ الله تعالى فيكون السماع له محبوباً ، ولا غلبت عليه شهوةٌ فيكون فى حقّه محظوراً ، ولكنَّه أُبيح فى حقّه كسائِر أنواع اللذّات المباحة ، إلاَّ أنَّه إذا اتخذه دَيدَنه وهِجِّيراهُ وقصَر عليه أكثرَ أوقاته ، فهذا هو السَّفيه الذى تُردُّ شهادته . فإن المواظبَة على اللهو جناية .

بيان حجج القائلين بتحريم السماع والجواب عنها

احتجُّوا بقوله تعالى : (ومِنَ الناسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الحديثِ) . قال ابن مسعود والحسن البصرى والنَّخعى رضى الله عنهم : إنَّ لهوَ الحديث هو الغناء .

أمَّا شراءُ لهو الحديث بالدِّين استبدالاً به ليُضِلَّ به عن سبيل الله فهو حرامٌ مذموم ، وليس النزاع فيه ، ليس كلُّ غناءٍ بدلاً عن الدين مشترى به ومُضِلاًّ عن سبيل الله تعالى ، وهو المراد فى الآية . ولو قرأ القرآن ليُضلَّ به عن سبيل الله لكان حراماً .

حُكى عن بعض المنافقين أنه كان يؤُمّ الناسَ ولا يقرأ إلّا سورة عبس ، لما فيها من العتاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهمّ عمر بقتله ، ورأى فعلَه حراماً لما فيه من الإضلال . فالإضلال بالشعر والغناء أوْلى بالتحريم .

واحتجوا بقوله تعالى : (أفمِنْ هذا الحديثِ تعْجَبُونَ . وتَضحَكون ولا تَبْكُون . وأنتمْ سَامِدُون) ، قال ابنُ عباس رضى الله عنهما : هو الغِناءُ بلغة حمير – يعنى السَّمْد – فنقول : ينبغى أن يحرم الضحك وعدم البكاء أيضاً لأنَّ الآية تشتمل عليه .

وأما القياس : فغاية ما يذكر فيه أنْ يقاس على الأوتار ، وقد سَبق الفرق ، أو يقال هو لهوٌ ولعب ، وهو كذلك ، ولكن الدنيا كلها لهو ولعب .

على أنِّى أقول : اللهو مروِّح للقب ، ومخفِّف عنه أعباء الفكر ، والقلوبُ إذا أُكرهَتْ عَميت ، وترويحها إعانةٌ لها على الجِدّ ؛ فالمواظب على التفقُّه مثلًا ينبغى أن يتعطَّل يومَ الجمعة ، لأنَّ عطلَة يومٍ تبعث على النَّشاط فى سائِر الأيام ، والمواظب على نوافل الصلوات فى سائِر الأوقات ينبغى أن يتعطَّل فى بعض الأوقات .

الباب الثانى

في آثار السماع وآدابه

اعلم أنّ أوّلَ درجةِ السماعِ فَهْمُ المسموع وتنزيلُه على معنىً يقع للمستمع ، ثم يُثمر الفهمُ الوجدَ ، ويثمر الوجدُ الحركةَ بالجوارح . فليُنظَر فى هذه المقامات الثلاثة .

المقام الأول

فى الفهم ؛ وهو يختلف باختلاف أحوال المستمِع .

وللمستمع أربعة أحوال ؛ إحداها : أن يكون سماعٌ بمجرد الطبع أى لا حظّ له فى السماع إلّا استلذاذ الألحان والنغمات ، وهذا مباح ، وهو أخسّ رُتَب السماع ، إذ الإبلُ شريكة له فيه ، وكذا سائِر البهائِم ، بل لا يستدعى هذا الذوق إلاّ الحياة ؛ فلكلِّ حيوان نوعُ تلذُّذ بالأصوات الطيّبة .

الحالة الثانية : أنّ يَسمَعَ بفهمٍ ولكن ينزِّله على صورة مخلوق إما معيَّنا وإمّا غير معيَّنٍ ، وهو سماع الشّباب وأرباب الشهوات ، ويكون تنزيلهم للمسموع على حَسَب شهواتهم ومقتضى أحوالهم ، وهذه الحالة أخسُّ من أن نتكلَّم فيها إلا ببيان خِسَّتها والنَّهىِ عنها .

الحالة الثالثة : أن ينزِّل ما يسمعه على أحوال نفسه فى معاملته لله تعالى ، وتقلُّب أحواله فى التمكُّن مرّة والتعذُّر أخرى ، وهذا سماعُ المريدين لا سيما المبتدئِين .

فإذا سمع ذِكرَ عتاب أو خطاب ، أو قَبول أو ردّ ، أو وَصْلٍ أو هجر أو قُرب أو بعد ، أو تلهُّف على فائِت أو تعطُّش إلى منتظَر، أو شوقٍ إلى واردٍ ، أو طمع أو يأْس ، أو وحشةٍ أو استئناس ، أو وفاءٍ بالوعد أو نقضٍ للعهد ، أو خوفِ فراق أو فرح بوصال . أو ذِكْرِ ملاحظةِ الحبيب ومُدافعة الرقيب ، أو همولِ العبرات أو ترادُفِ الحَسَرات ، أو طولِ الفراق أو عِـدَة الوصال ، أو غير ذلك ، مما يشتمل على وصفه الأشعار ، فلا بدّ أنْ يوافق بعضُها حالَ المريد فى طلبه ، فيجرى ذلك مجرى القَدْح الذى يُورِى زِنادَ قلبه ، فتشتعل به نِيرانه ، ويقوى به انبعاثُ الشوق وهَيَجانه .

ولا حاجة بنا إلى ذكر كيفية فهم المعانى من الأبيات ، ففى حكايات أهل السماع ما يَكشف عن ذلك .

فقد حُكى أن بعضهم سمع قائلا يقول :

قال الرسول غـداً تَزو ر فقلتُ تَعقِلُ مـا تقولْ

فاستفزَّه اللحن والقولُ وتواجَدَ ، وجعل يكرّر ذلك ويجعل مكان التاء : نوناً . فيقول : قال الرسول غداً نزور ؛ حتّى غُشِى عليه من شدة الفرح واللذة والسرور . فلما أفاق سئِل عن وجده مم كان ؟ فقال : ذكرت قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن أهل الجنة يزورون ربَّهم فى كل يوم جمعةٍ مرّة » .

واعلم أنَّ الفهم قد يختلف بأحوال المستمِع ، فيغلب الوجد على مستمِعَين لبيتٍ واحد وأحدُهُما مصيبٌ فى الفهم والآخر مخطئ ، أو كلاهما مصيبان وقد فهما معنيين مختلفين متضادَّين ؛ ولكنّه بالإضافة إلى اختلاف أحوالهما لا يتناقض. كما حكى عن عُتبةَ الغُلامِ أنّه سمع رجلا يقول :

سبحـــان جَبَّارِ السما   إنَّ المحِبَّ لفى عنـــا

فقال : صدقت . وسمعه رجلٌ آخر فقال : كذبت . فقال بعض ذوى البصائر : أصابا جميعاً . وهو الحق ، فالتصديق : كلامُ محبٍّ غير مُمَكَّنٍ من المراد ، بل مصدود مُتعَب بالصَّد والهجر . والتكذيب : كلامُ مستأْنِسٍ بالحبّ ، مستلذٌ لما يقاسيه ، بسبب فرط حبّه غير متأثّر به ، أو كلام محبٍّ غير مصدود عن مُراده فى الحال ، ولا مستشعر بخطر الصَدِّ فى المآل .

الحالة الرابعة : سماع مَن جاوز الأَحوالَ والمقامات فعزَبَ عن فهم ما سوى الله تعالى ، حتى عَزَبَ عن نفسه وأحوالها ومعاملاتها ، وكان كالمدهوش الغائص فى بحرِ عين الشُّهود ، الذى يضاهى حالُه حالَ النِّسوة اللاتى قطَّعن أَيدِيَهنّ فى مشاهدة جمال يوسف عليه السلام حتى دُهِشْنَ وسقط إحساسُهنّ . وعن مثل هذه الحالة تعبِّر الصوفية بأَنه قد فنِىَ عن نفسه . ومهما فَنِىَ عن نفسه فهو عن غيره أفنى ، فكأَنه فنِىَ عن كلِّ شىء إلا عن الواحد المشهود .

كما روى عن أبى الحسن النُّورىّ ، أنه حضر مجلساً فسمع هذاالبيت :

، زلت أنزِلُ من ودادكَ منزِلًا   تتحيَّرُ الأَلبـــابُ عند نُزولِهِ

فقام وتواجَدَ وهامَ على وجهه ، فوقع فى أَجَمةَ قَصَب قد قُطع وبقيت أُصولُه مثل السيوف ، فصار يَعْدو فيها ويعيد البيت إلى الغداة والدمُ يخرج من رجليه ، حتى وَرِمت قدماه وساقاه ، وعاش بعد ذلك أياماً ومات . رحمه الله .

بعد الفهم والتنزيل . الوجد : وللناس كلام طويل فى حقيقة الوجد – أعنى الصوفية والحكماء الناظرين فى وجه مناسبةِ السَّماع للأرواح – فلنقلْ من أقوالهم ألفاظًا ، ثم لنكشفْ عن الحقيقة فيه .

أما الصُّوفية فقد قال ذو النُّون المِصرىُّ رحمه الله فى السَّماع : إنَّه واردُ حقٍّ جاء يُزعج القلوب إلى الحقِّ ، فمن أصغَى إليه بحقٍّ تحقَّق ، ومن أصغى إليه بنفْس تَزندق . فكأنَّه عبَّر عن الوجد بانزعاج القلوب إلى الحقّ ، وهو الذى يجِده عند وُرود وارد السماع ، إذ سمَّى السماعَ واردَ حقّ .

وقال أبو الحسين الدَّرَّاج مخبراً عمَّا وجده فى السماع : الوجد عبارة عما يوجد عند السماع ، وقال : جال بِىَ السماعُ فى ميادين البهاء ، فأوجدنى وجودَ الحقِّ عند العطاء ؛ فسقانى بكأْس الصفاء ، فأدركت به منازلَ الرِّضاء ، وأخرجنى إلى رياض التنزُّه والفضاء .

وأما الحكماءُ فقال بعضُهم : فى القلب فضيلةٌ شريفة لم تقدر قوّة النُّطق على إخراجها باللفظ ، فأخرجتها النَّفس بالألحان ؛ فلمّا ظهرتْ سُرَّت وطرِبَتْ إليها . فاستمِعوا من النَّفس وناجُوها ، ودَعُوا مناجاةَ الظواهر .

وقال بعضهم : نتائج السماع استنهاضُ العاجز من الرأى ، واستجلاب العازب من الأفكار ، وحِدّةِ الكالِّ من الأفهام والآراء ، حتَّى يثوب ما عزَب ، وينهَض ما عَجَز ، ويصفُوَ ما كدر ، ويمرحَ فى كلِّ رأىٍ ونيّة فيصيب ولا يخطئ ، ويأْتى ولا يبطئ .

---

(١) أى يرجع ما بعد .

وقال آخر : كما أنَّ الفكر يطرِّق العلمَ إلى المعلوم ، فالسَّماع يطرِّق القلبَ إلى العالَم الرُّوحانى .

والأقاويل المقرَّرة فى السماع والوجد كثيرة ، ولا معنى للاستكثار من إيرادها ، فلنشتغل بتفهيم المعنى الذى الوجدُ عبارةٌ عنه فنقول :

إنه عبارةٌ عن حالةٍ يثمرها السَّماع ، وهو واردُ حقٍّ جديدٌ عَقيب السماع ، يجده المستمع من نفسه . وتلك الحالة لا تخلو عن قسمين : فإنَّها إمَّا أنْ ترجعَ إلى مكاشَفات ومشاهدات هى من قبيل العلوم والتنبيهات ، وإما أنْ ترجعَ إلى تغيُّراتٍ وأحوالٍ ليست من العلوم ، بل هى كالشَّوق والخوف ، والحزن والقَلَق والسُّرور ، والأَسف والندم . والبَسْط والقبض . وهذه الأَحوال يهيِّجها السماع ويقوِّيها ؛ فإنْ ضَعُفَ بحيث لم يؤثِّر فى تحريك الظاهر أو تسكينه ، أو تغيير حالهِ حتى يتحرَّك على خلاف عادته أو يُطرق أو يسكن عن النظر والنُّطق والحركةِ ، على خلاف عادته ، لم لم يُسَمَّ وجداً . وإن ظهر على الظاهر سُمىَّ وجداً ، إمَّا ضعيفًا وإما قوياً ، بحسب ظهوره وتغييره للظاهر وتحريكه بحسب قوَّة وروده ، وحِفظ الظاهر عن التغيير بحسب قُوَّة الواجد وقدرته على ضبط جوارحه ؛ فقد يَقوى الوجدُ فى الباطن ولا يتغيَّر الظاهر لقوة صاحبه ؛ وقد لا يظهر لضعف الوارد ، وقصورهِ عن التحريك وحلّ عَقْد التماسك . وإلى معنى الأَوّل أشار أَبو سعيد بن الأَعرابى حيث قال فى الوجد : إنَّه مشاهدة الرقيب ، وحضورُ الفَهم ، وملاحظة الغيب . ولا يبعد أن يكون السماعُ سبباً لكشْف ما لم يكن مكشوفاً قبله ، فإن الكشف يحصل بأَسباب : منها التنبيه والسماعُ منبِّه ، ومنها تغيُّر الأَحوال ومشاهدتها وإدراكها ، فإنَّ إدراكَها نوعُ علمٍ يفيدُ إيضاحَ أُمورٍ لم تكن معلومةً قبل الورود .

ومنها صَفاءُ القلب ، والسَّماع يؤَثِّر فى تصفية القلب ، والصفاءُ يسبِّب الكشف . ومنها انبعاثُ نشاط القلب بقوّة السماع ، فيقوى به على مشاهدة ما كان تقصر عنه قبل ذلك قوّته ؛ كما يقوى البعيرُ على حمل ما كان لا يقوى عليه قبلَه . وعملُ القلب الاستكشافُ وملاحظةِ أسرار الملكوت ؛ كما أنَّ عمل البعير حملُ الأثقال . فبواسطة هذه الأسباب يكون سبباً للكشف .

وعلى هذا يَدُلُّ ما رُوِىَ أَنَّ ذَا النُّون المصرىَّ رحمه الله دخلَ بغداد فاجتمع إليه قومٌ من الصوفية ومعهم قوّال ؛ فاستأْذنوه فى أن يقول لهم شيئًا ، فأَذن لهم فى ذلك ، فأَنشأ يقول :

صغيرُ هـــواك عذَّبنى ... فكيف به إذا احْتَنَـــكا[1]

وأَنتَ جَمعتَ فى قـــلبى ... هَوًى قد كان مُشترَكـــا

أَمَـــا تَـــرْثِى لمكْتئَبٍ ... إذا ضَحِكَ الخلىُّ بَـــكَى

فقام ذو النون وسقَطَ على وجهه ، ثم قام رجل آخر فقال ذو النون : (الذى يَرَاكَ حينَ تَقُوم[2]) . فجلس ذلك الرجلُ . وكان ذلك اطِّلاعاً مِن ذى النون على قلبه أنَّه متكلِّف متواجد ؛ فعرَّفه أن الذى يراه حين يقوم هو الخصم ، فى قيامه لغير الله تعالى ، ولو كان الرجل صادقاً لما جلس .

واعلم أيضاً أن الوجدَ ينقسم إلى هاجم ، وإلى متكلَّف ويسمَّى التواجد . وهذا التواجد المتكلَّف فمنه مذموم وهو الذى يُقصَد به الرياءُ وإظهارُ

---

(١) احتنك : حنكته السن والتجارب .

(٢) الآية ٢١٨ من سورة الشعراء .

الأحوال الشريفة مع الإفلاس منها . ومنه ما هو محمود وهو التوصُّل إلى استدعاء الأحوال الشريفة واكتسابها واجتلابها بالحيلة ، فإنَّ للكسب مدخلاً فى جلب الأحوال الشريفة ؛ فإنَّ هذه الأحوال قد تُتكلَّف مباديها ثم تتحقَّق أواخرُها .

وأمَّا الحكاياتُ الدالَّةُ على أن أرباب القلوب ظَهَر عليهم الوجدُ عند سماع القرآن . فكثيرة . فقوله صلى الله عليه وسلم : « شَيَّبَتْنِى هُودٌ وأخواتُها[1] » خَبَرٌ عن الوجد ، فإن الشَّيب يحصل من الحزن والخوف، وذلك وَجْدٌ .

و كان عليه السلام إذا مرَّ بآيةِ رحمةٍ دعا واستبشَر . والاستبشار وَجْدٌ .

وأمَّا ما نُقِل من الوجد بالقرآن عن الصحابة رضى الله عنهم والتابعين فكثير : فمنهم من صُعِق ، ومنهم من بكى ، ومنهم من غُشِىَ عليه ، ومنهم من مات فى غشيته .

وروى أن زُرارة بن أَوْفَى - وكان من التابعين - كان يؤُمُّ الناس بالرَّقَّة ، فقرأ : (فإذا نُقِرَ فى النَّاقور) فصُعق ومات فى محرابه ، رحمه الله.

وسمع عمر رضى الله عنه رجلاً يقرأ : (إنَّ عذابَ ربِّك لواقعٌ * مالَهُ من دافع) فصاح صيحةً وخرّ مغشياً عليه ، فحُمل إلى بيته ، فلم يزلْ مريضاً فى بيته شهراً .

---

(١) أخواتها هى : الواقعة ، والحاقة ، وعم ، وإذا الشمس كورت.وذلك لما فيهن من الوعيد ، وذكر الساعة ، ولما فى سورة هود خاصة من ذكر الأمم التى أهلكها الله . وانظر تفسير ابن كثير .

وكذلك الصوفية : فقد كان الشِّبلي فى مسجده ليةً من رمضان وهو يصلِّى خلفَ إمام له ، فقرأ الإمام : (وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بالذى أَوْحَيْنا إِلَيْك) ، فزعق الشبليُّ زعقة ظنّ الناسُ أنه قد طارت روحُه ، واحمرّ وجهُه ، وارتعدت فرائصه .

وقال الجُنَيد : دخَلتُ على سَرِىٍّ السَّقطى ، فرأَيْت بين يديه رجلًا قد غُشِى عليه فقال لى : هذا رجلٌ قد سمع آيةً من القرآن فغُشِىَ عليه ، فقلت : اقرءُوا عليه تلك الآية بعينها ، فقرئَت فأَفاق ، فقال : من أَين قلتَ هذا ؟ فقلت : رأيتُ يعقوب عليه السلام كان عَمَاه من أَجل مخلوق ، فبمخلوقٍ أَبصر ، ولو كان عماه من أَجل الحقّ ما أَبصرَ بمخلوق .

فإِن قلتَ : فإِنْ كان سماعُ القرآن مفيداً للوجد فما بالُهم يجتمعون على سَماع الغناء من القوّالين دون القارئِين ؟ فكان ينبغى أَنْ يكون اجتماعُهم وتواجُدهم فى حَلَق القرَّاء لا حَلَق المغنِّين ؟

فاعلم أن الغناء أَشدُّ تهييجاً للوجْد من القرآن من سبعة أوجه :

الوجه الأَول : أنَّ جميعَ آيات القرآن لا تُناسب حالَ المستمع ولا تصلحُ لفهمه وتنزيله على ما هو ملابسٌ له ، فمن استولى عليه حُزْنٌ أَو شوق أَو ندم فمن أَين يناسب حالَه قولُه تعالى : (يُوصيكُم الله فى أَولادكم للذَّكَر مِثلُ حَظِّ الأُنثيين) ، وقوله تعالى : (والذين يَرْمُونَ المحصنَات) ؟ وكذلك جميع الآيات التى فيها بيان أَحكام الميراثِ والطلاق والحدود وغيرها ؟ وإِنما المحرّك لما فى القلب ما يناسبه .

والأَبياتُ إِنَّما يضعُها الشعراءُ إِعراباً بها عن أَحوال القلب ، فلا يُحتاج فى فهم الحال منها إِلى تكلُّف . نَعَمْ من يستولى عليه حالةٌ غالبة قاهرة لم تُبقِ فيه متَّسعاً لغيرها ، ومعه تيقُّظٌ وذكاءٌ ثاقب يتفطن به للمعانِى

البعيدة من الألفاظ ، فقد يخرج وجده على كلِّ مسموع ، كمن يخطُر له عند ذكر قوله تعالى : (يُوصِيكُم اللهُ فى أَوْلَادِكم) حالةُ الموت المحوجِ إلى الوصية .

وروى أنَّ أبا الحسين النورى كان مع جماعةٍ فى دعوةٍ ، فجرى بينهم مسألةٌ فى العلم وأبو الحسين ساكت ، ثم رفع رأسه وأنشدهم :

رُبَّ وَرْقاء هَتُوفٍ فى الضُّحى ذاتِ شجوٍ صَدَحَتْ فى فَنَنِ
ذَكَرتْ إلفاً ودهراً صالحاً وبكَتْ حُزنًا فهاجت حزنى
فبكائى ربَّما أَرَّقها وبكاها ربَّما أَرَّقنى
ولقد أشكو فما أفهمُها ولقد تشكو فما تَفْهمنى
غير أنّى بالجَوَى أعرِفُها وهى أيضاً بالجوى تعرفنى

قال : فما بقى أحدٌ من القوم إلا وقامَ وتواجَدَ . ولم يحصلْ لهم هذا الوجد من العلم الذى خاضُوا فيه ، وإن كان العلم جِدًّا وحقاً .

الوجه الثانى : أنَّ القرآن محفوظٌ للأكثرين ، ومتكرِّر على الأسماع والقلوب ، وكلَّما سُمع أوّلا عظُم أثرُه فى القلوب ، وفى الكَرَّة الثانية يضعف أثره ، وفى الثالثة يكاد يَسقُط أثره . ولو كلِّف صاحبُ الوجد الغالب أنْ يُحضِر وجدَه على بيتٍ واحد على الدوام فى مرّاتٍ متقاربة فى الزمان فى يوم أو أسبوع ، لم يمكنه ذلك . ولو أُبدل ببيتٍ آخَرَ لتجدَّد له أثرٌ فى قلبه وإنْ كان مُعرِبا عن عين ذلك المعنى . ولكنَّ كونَ النظمِ واللفظ غريبًا بالإضافة إلى الأوَّل ، يحرِّك النَّفسَ وإن كان المعنى واحداً . وليس يقدر القارئ على أن يقرأ قرآناً غريباً فى كلِّ وقت ودعوة ؛ فإن القرآن محصور لا يمكن الزيادةُ عليه ، وكلُّه محفوظ متكرّر .

الوجه الثالث : أنَّ لوزن الكلام بذَوْق الشعر تأثيراً فى النفس ، فليس الصَّوتُ الموزونُ الطيِّب كالصوت الطيب الذى ليس بموزون ، وإنَّما يوجد الوزن فى الشعر دون الآيات ، ولو زَحَّفَ المغنى البيتَ الذى يُنشده ، أو لَحَنَ فيه ، أو مالَ عن حدِّ تلك الطريقة فى اللحن ، لاضطربَ قلب المستمع وبطل وَجدُه وسماعه ، ونَفَر طبعُه لعدم المناسبة. وإذا نَفر الطبعُ اضطرب القلبُ وتشوَّش ، فالوزن إذن مؤثِّر ، فلذلك طابَ الشعر .

الوجه الرابع : أن الشِّعر الموزونَ يختلف تأثيره فى النفس بالألحان التى تسمَّى الطُّرق والدَّستانات[1] ؛ وإنَّما اختلاف تلك الطرق بمدِّ المقصور وقصر الممدود ، والوقف فى أثناء الكلمات ، والقطع والوصل فى بعضها . وهذا التصرف جائزٌ فى الشعر ، ولا يجوز فى القرآن إلَّا التِّلاوةُ كما أُنزل ، فقَصْره ومدُّه ، والوقف والوصل والقطع فيه على خلاف ما تقتضيه التلاوة ، حرام أو مكروه .

الوجه الخامس : أنَّ الألحانَ الموزونة تُعْضَد وتؤكَّد بإيقاعات وأصوات أُخَر موزونةٍ خارج الحلق ، كالضَّرب بالقضيب والدف وغيره ، لأنَّ الوجد الضعيفَ لا يستثار إلاَّ بسبب قوىّ ، وإنما يقوى بمجموع هذه الأسباب ، ولكلٍّ واحدٍ منها حظٌّ فى التأثير ، وواجبٌ أن يصان القرآن عن مثل هذه القرائن ، لأنَّ صورتها عند عامَّة الخلق صورةُ اللهو واللعب ، والقرآن جِدٌّ كله عند كافَّة الخلق ، فلا يجوز أن يُمزج بالحقِّ المحض ما هو لهوٌ عند العامة ، وصورتُه صورةُ اللَّهوِ عند الخاصَّة .

الوجه السادس : أن المغنِّىَ قد يغنى ببيت لا يوافق حال السامع

(١) الدستانات : الأغانى والأنغام .

فيكرهه وينهاه عنه ويستدعى غيره ، فليس كلُّ كلام موافقاً لكلِّ حال . فلو اجتمعوا فى الدَّعَوات على القارئ فربَّما يقرأ آية لا توافق حالَهم ، إذ القرآن شفاءٌ للناس كلِّهم على اختلاف الأَحوال ؛ فآيات الرحمة شفاءُ الخائف ، وآيات العذاب شفاءُ المغرور الآمن ، وتفصيل ذلك مما يطول . فإذَنْ لا يؤْمن أن لا يوافق المقروءُ الحالَ وتكرهه النفسُ ، فيتعرَّض به لخطر كراهة كلام الله تعالى من حيثُ لا يجد سبيلا إلى دفعه .

وأما قولُ الشاعر فيجوز تنزيلُه على غير مراده ، ففيه خطر الكراهة أو خطر التأْويل الخطأِ لموافقة الحال ، فيجب توقير كلام الله وصيانته عن ذلك .

هذا ما ينقدح لى فى عِلل انصراف الشُّيوخ إلى سماع الغناء عن سماع القرآن .

المقام الثالث من السماع

نذكر فيه آدابَ السَّماعِ ظاهرًا وباطناً ، وما يُحمد من آثار الوجد وما يذم . فأما الآداب فهى خمس جمل :

الأَول : مراعاة الزمان والمكان والإخوان .

ومعناه أن الاشتغال به فى وقت حضور طعام ، أو خصام ، أو صلاة أو صارف من الصوارف مع اضطراب القلب ؛ لا فائدة فيه . فهذا معنى مراعاة الزمان ، فيُراعى حالةُ فراغ القلب له . وأما المكان : فقد يكون شارعاً مطروقاً ، أو موضعاً كريهَ الصورة ، أو فيه سببٌ يشغل القلب ، فيتجنَّب ذلك . وأما الإخوان : فسببه أنه إذا حضَر غيرُ الجنس من منكر السماع متزهِّدِ الظاهر ، مفلس من لطائِف القلوب ، كان مُستثقَلا

فى المجلس واشتغل القلب به . وكذلك إذا حضر متكبِّر من أهل الدنيا يُحتاج إلى مراقبته وإلى مراعاته ، أو متكلِّف متواجد من التصوُّف يرائى بالوجد والرَّقص وتمزيق الثياب ، فكل ذلك مشوِّشات . فترك السماع عند فقد هذه الشروط أوْلَى . ففى هذه الشروط نظر للمستمع .

الأدب الثانى : هو نظر الحاضرين أنَّ الشيخ إذا كان حولَه مريدون يضرُّهم السماع ، فلا ينبغى أن يَسمَع فى حضورهم ؛ فإنْ سمع فليشغلْهم بشُغل آخر .

الأدب الثالث : أن يكون مصغيًا إلى ما يقول القائِل ، حاضرَ القلب قليلَ الالتفات إلى الجوانب ، متحرِّزا عن النظر إلى وجوه المستمعين وما يظهر عليهم من أحوال الوجْد ، مشتغلًا بنفسه ومراعاة قلبه ، ومراقبة ما يفتح الله تعالى له من رحمته فى سرِّه ، متحفِّظا عن حركة تشوِّش على أصحابه قلوبَهم . بل يكون ساكن الظاهر ، هادىء الأطراف ، متحفِّظاً عن التنحنح والتثاؤُب ، ويجلس مطرقاً رأسَه كجلوسه فى فكرٍ مستغرقٍ لقلبه ، متماسكاً عن التصفيق والرَّقص وسائِر الحركات ، ساكتاً عن النطق فى أثناءِ القول بكلِّ ما عنه بُدّ . فإنْ غلبه الوجد وحرَّكَه بغير اختيار فهو فيه معذور غير ملوم . ومهما رجع إليه الاختيار فليعُدْ إلى هدوئِه وسكونه .

حُكى أنَّ شابًّا كان يصحب الجنيد ، فكان إذا سمع شيئاً من الذكر يزعق ، فقال له الجنيد يومًا : إنْ فعلتَ ذلك مرَّةً أخرى لم تصحبنى ، فكان بعد ذلك يَضْبط نفسَه حتَّى يقطرَ من كلِّ شعرةٍ منه قطرةُ ماءٍ ولا يزعَق . فحكى أنه اختنق يومًا لشدة ضبطه لنفسه ، فشهق شَهقةً فانشَقَّ قلبُه وتَلِفَت نفسُه .

وروى أن موسى عليه السلام قصَّ فى بنى إسرائيل ، فمزَّق واحد

منهم ثوبه أو قميصه ، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : قل له : مَزِّقْ لى قلبك ولا تمزِّقْ ثوبك .

الأدب الرابع : أنْ لا يقوم ولا يرفع صوته بالبكاء وهو يقدر على ضبْط نفسه ، ولكنْ إن رقَص أو تباكى فهو مباحٌ إذا لم يَقصد به المراءاة ؛ لأنَّ التباكىَ استجلابٌ للحزن ، والرقصَ سببٌ فى تحريك السرور والنشاط . فكلُّ سرور مباح فيجوز تحريكه . ولو كان ذلك حراماً لما نظرت عائِشة رضى الله عنها إلى الحبشَة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يَزْفِنون[1] . هذا لفظُ عائشة رضى الله عنها فى بعض الروايات . وقد رُوى عن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم أنَّهم حَجَلوا لمَّا وردَ عليهم سرورٌ أوجَبَ ذلك .

وأما تمزيقُ الثياب فلا رخصةَ فيه إلاَّ عندَ خروج الأمر عن الاختيار. ولا يبعُد أن يغلب الوجدُ بحيث يمزِّق ثوبه وهو لا يدرى ؛ لغلبة سُكر الوجد عليه .

فإن قلت : فما تقول فى تمزيق الصُّوفية الثياب الجديدةِ بعد سكون الوجد والفراغ من السماع ، فإنَّهم يمزِّقونها قطعاً صغاراً ويفرِّقونها على القوم ، ويسمُّونها الخِرْقة ؟ فاعلمْ أنَّ ذلك مباحٌ إذا قُطِّع قطعاً مربعة تصلُح لترقيع الثياب والسَّجَّادات . فإنَّ الكرباس[2] يمزَّق حتَّى يخاطَ منه القميص ، ولا يكون ذلك تضييعاً ؛ لأنه تمزيق لغرض .

الأدب الخامس : موافقةُ القوم فى القيام إذا قام واحدٌ منهم فى وجدٍ صادق من غير رياءٍ وتكلف ، أو قام باختيار من غير إظهار وجْدٍ وقامت له الجماعة ، فلابدَّ من الموافقة ، فذلك من آداب الصحبة . وكذلك إن جرت عادةُ طائِفةٍ بتنحية العمامة على موافقة صاحب الوجْد

(١) الزفن : الرقص .　　(٢) الكرباس : ثوب من القطن الأبيض .

إذا سقطت عمامته ؛ أو خَلْع الثياب إذا سقط عنه ثوبُه بالتمزيق ؛ فالموافقة فى هذه الأُمور من حُسن الصُّحبة والعشرة ، إذ المخالفة مُوحشة ولكلِّ قوم رسمٌ ،ولا بدَّ من مخالقة الناس بأَخلاقهم، كما ورد فى الخبر .

والقيام عند الدخول للداخل لم يكن من عادة العرب . بل كان الصّحابةُ رضى الله عنهم لا يقُومون لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض الأَحوال كما رواه أَنسٌ رضى الله عنه . ولكنْ إذا لم يثبت فيه نهىٌ عام فلا نَرى به بأْساً فى البلاد التى جرت العادة فيها بإكرام الدَّاخل بالقيام ، فإِنَّ المقصودَ منه الاحترام والإكرام وتطييب القلب به ، وكذلك سائِر أَنواع المساعدات إذا قُصد بها تطييبُ القلب واصطلح عليها جماعة ، فلا بأْس بمساعدتهم عليها .

فإن قلت : فما بالُ الطِّباعِ تنفرُ عن الرَّقص ويسبق إلى الأَوهام أنه باطل ولهوٌ ، ومخالف للدين . فلا يراه ذو جِدٍّ فى الدّين إلّا ويُنكره؟

فاعلمْ أَنَّ الجِدّ لا يزيد على جِدِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد رأَى الحبشةَ يَزْفِنُونَ فى المسجد وما أنكَره ، لمَّا كانَ فى وقتٍ لائِق بِه . وهو العِيد ؛ ومن شخصٍ لائِق به وهم الحبشة . نعمْ نُفرة الطباع عنه . لأَنه يُرى غالباً مقروناً باللهو واللعب ، واللهو واللعب مباح . ولكنْ للعوامِّ من الزُّنوج والحبشة ومن أَشْبههم ، وهو مكروهٌ لذوِى المناصب . لأَنَّه لا يليق بهم . وما كُره لكونه غير لائِق بمنصِبِ ذى المنصب . فلا يجوز أَن يوصف بالتحريم.فمن سأَل فقيرًا شيئًا فأَعطاه رغيفًا كان ذلك طاعة مستحسنة . ولو سأَل ملكاً فأَعطاه رغيفاً أَو رغيفين لكان ذلك منكراً عند الناس كافَّة ، ومكتوباً فى تواريخِ الأَخبار من جُملة مساويه ،ويعيَّر به أَعقابهوأَشياعه ،ومع هذا فلايجوز أَنيقال: ما فعلهحرام .

الكتاب التاسع

كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

الباب الأول

في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وفضيلته والمذمة فى إهماله وإضاعته

ويدل على ذلك بعدَ إجماعِ الأُمّة عليه . وإشاراتِ العقول السليمة إليه : الآياتُ . والأخبار . والآثار .

أما الآيات : فقوله تعالى : (ولْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمّةٌ يَدْعُون إلى الخير ويأْمُرون بالمَعْرُوف ويَنْهَون عَن المُنكَر وأولَئِك هُم المُفْلِحون) . فى الآية بيانُ الإيجاب . فإنَّ قوله تعالى : (ولتكُنْ) أمْر ، وظاهر الأَمر الإيجاب . وفيها بيانُ أنَّ الفلاَحَ منوطٌ به إذْ حُصِر وقال : (وأُولَئِكَ هم المُفْلحون) . وفيها بيانُ أنَّه فرضُ كفاية لا فرض عين ، وأنه إذا قام به أُمّة سقط الفرضُ عن الآخرين ، إذْ لم يقل : كونوا كلُّكم آمِرين بالمعروف، بل قال : (ولتكنْ مِنكم أُمّةٌ) . فإذنْ مهما قام به واحدٌ أَو جماعةٌ سقط الحرَجُ عن الآخرين ، واختصَّ الفلاح بالقائمين به المباشرين . وإن تقاعَدَ عنه الخلق أجمعون عَمَّ الحرجُ كافّة القادرين عليه لا مَحالة . وقال تعالى : (ليسُوا سَواءً مِنْ أَهل الكِتَابِ أُمَّةٌ قائمةٌ يتلُونَ آياتِ اللهِ

آناءَ اللَّيل وهم يَسجُدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأْمُرون بالمَعْروف ويَنْهَونَ عن المُنْكَر ويُسَارِعُون فى الخيرات وأولَئِك من الصَّالحين) .

فلم يشهد لهم بالصَّلاح بمجرّد الإيمانِ بالله واليوم الآخر حتَّى أَضَاف إليه الأَمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وقال تعالى : (والمؤْمنون والمؤْمِناتُ بعضُهم أَولياءُ بَعْضٍ يَأْمُرونَ بالمعروف ويَنْهَون عن المُنْكرِ ويُقيمون الصَّلاة) فقد نعتَ المؤْمنين بأَنَّهم يأْمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فالذى هجر الأَمر بالمعروف والنهى عن المنكر خارجٌ عن هؤُلاء المؤمنين المنعوتين فى هذه الآية .

وأَمَّا الأَخبار : فمنها ما رُوى عن أَبى بكر الصديق رضى الله عنه أَنه قال فى خطبة خطبها : أَيُّها الناس إنكم تقرءُون هذه الآية وتؤَوِّلُونها على خلاف تأْويلها : (يَأَيُّها الذين آمنوا عَلَيْكُمْ أَنفسَكُم لا يضرُّكم مَنْ ضَلَّ إذا اهتَدَيْتمْ) ، وإِنِّى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما مِنْ قومٍ عَمِلوا بالمعاصى وفيهم مَن يَقدر أن يُنكِرَ عليهم فلم يَفْعَلْ إلاَّ يوشكُ أَن يَعُمَّهُم اللهُ بعذابٍ من عنده .

وقال صلى الله عليه وسلم : « يأَيُّها الناس إنَّ الله يقول : لتأْمُرُنَّ بالمعروف ولتنهَوُنَّ عن المنكر قَبل أَن تَدْعُوا فلا يستجابَ لكم » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إيّاكم والجلوسَ على الطُّرقات » قالوا : مالنا بدٌّ ، إنَّما هى مجالسُنا نتحدَّث فيها . قال : « فإذا أَبيتم إلاَّ ذلك فأَعطُوا الطريقَ حقَّها » . قالوا : وما حقُّ الطريق ؟ قال : « غضُّ البصر ، وكَفُّ الأَذى ، وَرَدُّ السلام ، والأَمر بالمعروف والنهى عن المنكر» .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا ينبغى لامرئٍ شهد مقاماً فيه حقٌّ إلاَّ تكلَّم به ، فإنَّه لن يقدِّم أَجَله ، ولن يَحرمَه رزقاً هو له » .

وأما الاثار : فقد قال أَبو الدَّرداء رضى الله عنه : لتأْمُرنَّ بالمعروف

ولتنهَوُنَّ عن المنكر أو ليُسلِّطنَّ الله عليكم سلطاناً ظالما لا يُجلُّ كبيركم ولا يرحَمُ صغيركم ، ويدعو عليه خِيارُكم فلا يُستَجاب لهم . وتنتصرون فلا تُنصَرون ، وتستغفرون فلا يُغفَر لكم » .

وسُئِل حذيفة رضى الله عنه عن مَيِّت الأحياء فقال : الذى لا ينكر المنكَر بيده ، ولا بلسانه ، ولا بقلبه .

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : أوَّل ما تُغلَبون عليه من الجهاد الجهادُ بأيديكم ، ثمَّ الجهاد بألسنتكم ، ثم الجهاد بقلوبِكم ؛ فإن لم يعرف القلب المعروفَ ولم ينكر المنكرَ نُكِّس فجُعل أعلاه أسفلَهُ .

وقِيل للفُضَيل : ألاَّ تأمر وتنهى ؟ فقال : إنَّ قوماً أمَروا ونَهَوْا فكَفَروا ، وذلك أنَّهم لم يصبروا على ما أُصيبوا .

وقيل للثَّورى : ألا تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فقال : إذا انبَثَقَ البحر فمن يقدر أن يَسكُرَه [1] .

فقد ظهر بهذه الأدِلّة أنَّ الأمرَ بالمعروف والنهى عن المنكر واجب ، وأنَّ فَرضَه لا يسقطُ مع القدرة إلاَّ بقيام قائم به .

---

(١) سكر النهر يسكره سكراً : سد فاه .

الباب الثاني

في أركان الأمر بالمعروف وشروطه

اعلم أن الأركان فى الحِسبة ، التى هى عبارةٌ شاملةٌ للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أربعة : المحتسِب ، والمحتَسب عليه ، والمحتسَب فيه ، ونفس الاحتساب . فهذه أربعة أركان ، ولكلٍّ واحد منها شروطه .

الركن الأول : المحتسب

وله شروط . وهو أنْ يكون مكلَّفا مسلماً قادراً . فيخرج منه المجنون ، والصبىُّ ، والكافر ، والعاجز ، ويدخل فيه آحاد الرعايا وأن لم يكونوا مأْذونين ، ويدخل فيه الفاسق ، والرَّقيق ، والمرأة .

أَما الشرط الأَول ، وهو التكليف : فلا يخفى وجه اشتراطه ، فإنَّ غيرِ المكَلَّف لا يلزمه أَمر . وما ذكرناه أَردنا به شرطَ الوجوب ؛ فأَمَّا إمكان الفعل وجوازه فلا يَستدعِى إلاَّ العقل ، حتَّى إنَّ الصبى المراهق للبلوغ المميِّزَ – وإن لم يكن مكلَّفاً – فله إنكار المُنكَر ، وله أَن يريق الخَمرَ ويَكِسر الملاهى ؛ وإذا فعل ذلك نال به ثواباً ، ولم يكن لأَحدٍ منْعه من حيث إنَّه ليس بمكلَّف.

وأَما الشرط الثانى ، وهو الإيمان : فلا يخفى وجه اشتراطه ؛ لأَنَّ هذا نصرةٌ للدين ، فكيفَ يكون من أَهله من هو جاحدٌ لأَصل الدين وعدُّو له ؟

وأَما الشرط الثالث ، وهو العدالة : فقد اعتبرها قومٌ وقالوا : ليس

للفاسق أن يحتسب ، وبما استدلوا فيه بالنكير الوارد على من يأمر بما لا يفعله ، مثل قوله تعالى : (أتأمُرونَ النَّاس بالبرِّ وتنْسَوْنَ أنفسَكم) . وقوله تعالى : (كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أن تَقُولوا ما لا تَفْعَلُون) ، وبما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَررتُ ليلةَ أُسرِيَ بي بقوم تُقْرض شفاهُهم بمقاريضَ من نار ، فقلت : من أنتم ؟ فقالوا : كنا نَأْمر بالخير ولا نأْتيه ، وننهى عن الشرّ ونأْتيه » . وبما رُوى أنَّ الله تعالى أَوْحى إلى عيسى صلى الله عليه وسلم : عِظْ نفسك ، فإن اتَّعظْت فَعِظِ النَّاس ، وإلاَّ فاستحْيِ منى .

وربما استدلُّوا من طريق القياس بأَنَّ هداية الغير فرعٌ للاهتداء . وكذلك تقويم الغير فرع للاستقامة .

وكلٌّ ما ذكروه خيالات ، وإنَّما الحقُّ أن للفاسق أن يحتسب . وبرهانه هو أن نقول : هل يشترط فى الاحتساب أنْ يكون متعاطيه معصوماً عن المعاصى كلِّها ؟ فإنْ شُرِط ذلك فهو خرقٌ للإجماع ، ثم حسمٌ لباب الاحتساب ، إذْ لا عصمةَ للصَّحابة فضلا عمن دونهم . والأَنبياءُ عليهم السلام قد اختُلف فى عصمتهم عن الخطايا ، والقرآن العزيز دالٌّ على نسبة آدم عليه السلام إلى المعصية ، وكذا جماعة من الأَنبياء .

وهل لشارب الخمر أن يغزوَ الكفَّار ويحتسب عليهم بالمنع من الكفر ، فإن قالوا : لا ، خرقوا الإجماع ، إذْ جنود المسلمين لم تزل مشتملة على البَرّ والفاجر ، وشارب الخمر ، وظالم الأَيتام ، ولم يُمنَعوا من الغزو ، لا فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا بعده . وإن قالوا : نعم فنقول : شارب الخمر هل له المنعُ من القتل أم لا ؟ فإن قالوا : لا ، قلنا : فما الفرق بينه وبين لابس الحرير ؟ إذ جاز له المنع من الخمر ، والقتلُ كبيرةٌ بالنِّسبة إلى الشرب ، كالشُّرب بالنسبة إلى لُبس الحرير ؛

فلا فرق . وإن قالوا : نعم ، وفَصَّلوا الأَمر فيه بأَن كلَّ مُقْدم على شيء فلا يُمنَع عن مثله ولا عَمَّا دونه ، وإنَّما يُمنع عمَّا فوقه ، فهذا تحكُّم ، فإنه كما لا يبعد أن يُمنع الشارب من الزنى والقتل ، فمن أَين يبعد أن يمنع الزَّانى من الشرب ؟ بل من أَين يبعد أن يشرب ويمنع غلمانه وخَدمه من الشُّرب ، ويقول : يجب علىَّ الانتهاءُ والنهى ، فمن أَين يلزمنى من العصيان بأَحدهما أن أعصىَ الله تعالى بالثانى ؟ وإذا كان النهى واجباً علىَّ فمن أَين يسقط وجوُبه بإقدامى ؟ إذْ يستحيل أن يقال يجب النهى عن شُرب الخمر عليه ما لم يشرب ، فإذا شَرِب سقط عنه النهى .

الشرط الرابع : كونه مأْذوناً من جهة الإمام والوالى ، فقد شرط قومٌ هذا الشرط ولم يثبتوا للآحاد من الرَّعيَّةِ الحِسبة ، وهذا الاشتراط فاسد ؛ فإنَّ الآياتِ والأَخبارَ التى أَوردناها تدلُّ على أَنَّ كلَّ من رأى منكراً فسكت عليه عصَى ، إذْ يجب نهيه أَينما وكيفما رآه على العموم ، فالتخصيص بشرط التفويض من الإمام تحكُّم لا أَصل له . والعجب أَنَّ الروافض زادوا على هذا فقالوا : لا يجوز الأَمر بالمعروف ما لم يَخرُج الإمامُ المعصوم وهو الإمام الحقُّ عندهم . وهؤلاء أَخسُّ رتبةً من أن يكلَّموا ، بل جوابهم أَنْ يقال لهم - إذا جاءُوا إلى القضاء طالبين لحقوقهم فى دمائهم وأَموالهم - إنَّ نصرتَكم أَمْرٌ بالمعروف ، واستخراج حقوقكم من أَيدى من ظلمكم نهى عن المنكر ، وطلبكم لحقِّكم من جملة المعروف . وما هذا زمانُ النَّهى عن الظلم وطلب الحقوق ، لأَنَّ الإمام الحقَّ بعد لم يخرج .

الشرط الخامس : كونه قادراً ؛ ولا يخفى أَنَّ العاجز ليس عليه حسبة إلاَّ بقلبه ، إذْ من أَحبَّ الله يكره معاصيَه ويُنكرها . وقال

ابن مسعود رضى الله عنه : جاهدوا الكفارَ بأَيديكم ، فإنْ لم تستطيعوا إلا أن تَكْفهرُّوا فى وجوههم فافعلوا .

الركن الثانى : ما فيه الحسبة

وهو كل منكَر موجود فى الحال ، ظاهر للمحتسب بغير تجسُّس ، علوم كوْنه منكراً بغير اجتهاد . فهذه أربعة شروط فلنبحث عنها :

الأَول : كونه منكَراً ؛ ونعنى به أَنْ يكون محذورَ الوقوع فى الشرع . وعدَلْنا عن لفظ المعصية إلى هذا لأنَّ المنكر أَعمُّ من المعصية ؛ إذ من رأى صبياً أو مجنوناً يشرب الخمر فعليه أن يريق خمرَه ويمنعه ، وكذا إن رأى مجنوناً يزنى بمجنونةٍ أو بهيمةٍ فعليه أَنْ يمنعه منه . وليس ذلك لتفاحُش صورة الفعل وظهوره بين الناس ، بل لو صادف هذا المنكر فى خلوةٍ لوجب المنع منه ، وهذا لا يسمَّى معصية فى حق المجنون ، إذ معصيةٌ لا عاصىَ بها محال ، فلفظ المنكر أدلُّ عليه وأَعمّ من لفظ المعصية .

الشرط الثانى : أَنْ يكون موجوداً فى الحال ، وهو احترازٌ أَيضاً عن الحسبة على من فَرَغَ من شرب الخمر ، فإن ذلك ليس إلى الآحاد وقد انقرض المنكر . واحترازٌ عما سيوجَد فى ثانى الحال ، كمن يعلم بقرينة حاله أَنَّه عازم على الشرب فى ليلته ، فلا حسبة عليه إلاَّ بالوعظ .

الشرط الثالث : أَن يكون المنكر ظاهراً للمحتسب بغير تجسُّس ؛ فكلُّ مَن ستر معصيةً فى داره وأَغلق بابه لا يجوز أَنْ يتجسَّس عليه . وقد نهى الله تعالى عنه .

وكذلك ما روى أنَّ عمر رضى الله عنه تسلَّق دار رجل فرآه على حالة مكروهة ، فأنكر عليه فقال : يا أمير المؤمنين إن كنتُ أنَا قد عصيت الله من وجه واحد فأنت قد عصيتَه من ثلاثة أوجه ؛ فقال : وما هى ؟ فقال : قد قال تعالى : (ولا تجسَّسوا) وقد تجسَّستَ . وقال تعالى : (وأْتُوا البُيوتَ مِن أبوابِها) وقد تسوَّرت من السَّطح . وقال : (لا تَدْخُلُوا بيُوتاً غَيرَ بيوتكم حَتَّى تَسْتأْنِسُوا وتُسَلِّموا على أهْلِها) وما سَلَّمت ! فتركه عمر وشَرَط عليه التوبة .

فإنْ قلت : فما حدّ الظهور والاستتار ؟ فاعلم أنَّ من أغلق بابَ داره وتستَّر بحيطانه فلا يجوز الدخولُ عليه بغير إذْنه لتعرُّف المعصية ، إلاَّ أنْ يظهر فى الدار ظهوراً يعرفه مَن هو خارج الدار ، كأصوات المزامير والأوتار إذا ارتفعت ، بحيثُ جاوز ذلك حيطانَ الدار ؛ فمن سَمع ذلك فله دخول الدار وكسرُ الملاهى ، وكذا إذا ارتفعت أصواتُ السُّكارَى بالكلمات المألوفة بينهم ، بحيثُ يسمعها أهلُ الشوارع ؛ فهذا إظهارٌ موجبٌ للحسبة .

الشرط الرابع : أنْ يكون كونه منكَراً معلوماً بغير اجتهاد ، فكلُّ ما هو فى محل الاجتهاد فلا حسبةَ فيه . فليس للحنفىِّ أنْ ينكر على الشافعى أكْلَه الضّبَّ والضبعَ ومتروكَ التَّسمية ، ولا للشافعى أنْ ينكر على الحنفى شربه النبيذ الذى ليس بمسكر ، وتناوله ميراثَ ذوى الأرحام ، وجلوسَه فى دارٍ أخذها بشُفعة الجوار ، إلى غير ذلك من مجارى الاجتهاد . نعم لو رأى الشافعى شافعياً يشرب النبيذ ويَنْكح بلا وَلىٍّ ويطأُ زوجته ، فهذا فى محل النظر . والأظهر أنَّ له الحسبةَ والإنكار ، إذْ لم يذهب أحد من المحصلين إلى أنَّ المجتهد له أنْ يعمل بموجب اجتهادِ غيره .

الركن الثالث : المحتسب عليه

وشرطه أنْ يكون بصفةٍ يصير الفعل الممنوع منه فى حقّه منكراً ، وأقلُّ ما يكفى فى ذلك أنْ يكون إنساناً ، ولا يشترط كونه مكلّفاً ؛ إذ بيّنّا أنَّ الصبىَّ لو شرب الخمر مُنع منه واحتُسب عليه وإنْ كان قبل البلوغ ، ولا يشترط كونه مميزاً ، إذْ بيّنّا أنَّ المجنون لو كان يزنى بمجنونة أو يأتى بهيمة لوجبَ منعُه منه .

الركن الرابع : نفس الاحتساب

وله درجات وآداب . أما الدرجات : فأولها التعرُّف ، ثم التعريف ثم النهى ، ثم الوعظ والنُّصح ، ثم السب والتعنيف ، ثم التغيير باليد ، ثم التهديد بالضرب، ثم إيقاع الضرب وتحقيقه ، ثم شَهْر السلاح ، ثم الاستظهار فيه بالأعوان وجمع الجنود .

أما الدرجة الأولى : وهى التعرُّف ؛ ونعنى به طلب المعرفة بَجَريانِ المنكر وذلك منهىٌّ عنه — وهو التجسس الذى ذكرناه — فلا ينبغى أن يسترِقَ السَّمعَ على دارِ غيرِه ليسمعَ صوتَ الأوتار ، ولا أنْ يستنشق ليدرك رائحة الخمر ، ولا أن يمسَّ مافى ثوبه ليعرف شكل المزمار ، ولا أن يستخبر مِن جيرانه ليخبروه بما يجرى فى داره . نعم لو أخبره عدلان ابتداءً من غير استخبار بأنَّ فلاناً يشرب الخمر فى داره ، أوْ بأنَّ فى داره خمراً أعدَّه للشرب ، فله إذ ذاك أنْ يدخل دارَه ولا يلزمه الاستئذان .

الدرجة الثانية : التعريف؛ فإنَّ المنكَر قد يقدِم عليه المقدِم بجهله ، وإذا عرف أنه منكر تركه ، كالسَّوادىّ[1] يصلى ولا يحسن الركوع والسجود ؛ فيعلم أنَّ ذلك لجهله .

---

(١) السوادى : القروى العراق ، منسوب إلى سواد العراق وهى قراه .

فيجب تعريفه باللطف من غير عُنْف .

الدرجة الثالثة : النهى بالوعظ والنصح والتخويف بالله تعالى ، وذلك فيمن يُقْدم على الأمر وهو عالم بكونه منكَراً ، أَوْ فيمن أصر عليه بعد أن عرف كونَه منكراً ، كالذى يواظب على الشرب أو على الظلم ، أو على اغتياب المسلمين أو ما يجرى مجراه ، فينبغى أنْ يُوعَظ ويخوَّف بالله تعالى وتُورَد عليه الأَخبارُ الواردة بالوعِيد فى ذلك ، وتحكى له سيرة السَّلَفِ وعبادةِ المتَّقين. وكلّ ذلك بشفقة ولطف، من غير عُنْف وغضب.

الدرجة الرابعة : السبُّ والتعنيف بالقول الغليظ الخشن ؛ وذلك يَعدِل إليه عند العجز عن المنع باللطف ، وظهور مبادئ الإصرار والاستهزاء بالوعظ والنصح ، وذلك مثل قول إبراهيم عليه السلام : (أفٍّ لَكُمْ ولِمَا تَعبُدونَ مِنْ دُونِ الله أفلَا تَعقِلون) . ولسنا نعنى بالسبِّ الفحشَ بما فيه نسبةٌ إلى الزِّنَى ومقدماته ، ولا الكذب ، بل أن يخاطبه بما فيه مما لا يعدّ من جملة الفحش ، كقوله : يا فاسق ، يا أحمق ، ياجاهل . ألا تخاف الله ! وكقوله : ياسَوادىُّ ، ياغبى ، وما يجرى هذا المجرى .

الدرجة الخامسة ، التغيير باليد ، وذلك ككسر الملاهى ، وإراقة الخمر ، وخَلْع الحرير من رأسه وعن بدنه ، ومنعه من الجلوس عليه ، ودفعه عن الجلوسِ على مال الغير ، وإخراجه من الدار المغصوبة بالجَرِّ برِجله ، وإخراجِه من المسجد إذا كان جالساً وهو جُنُب ، وما يجرى مجراه ، ويتصوَّر ذلك فى بعض المعاصى دون بعض .

الدرجة السادسة ، التهديد والتخويف : كقوله : دَعْ عنك هذا ، أو لأَكسرنَّ رأسك ، أو لأضربنَّ رقبتك ، أَوْ لآمرنَّ بك وما أشبهه ، وهذا ينبغى أن يقدَّم على تحقيق الضرب إذا أمكن تقديمه . والأَدب فى هذه الرتبة أن لا يهدده بوعيد لا يجوز له تحقيقه ، كقوله : لأَنهبنَّ

داوك ، أو لأضربنَّ ولدك ، أو لأسبينَّ زوجتك ، وما يجرى مجراه ، بل ذلك إن قاله عن عزمٍ فهو حرام ، وإنْ قاله من غير عزم فهو كذب .

الدرجة السابعة : مباشَرة الضرب باليد والرِّجل وغير ذلك مما ليس فيه شَهْرُ سلاح ، وذلك جائزٌ للآحاد بشرط الضرورة والاقتصار على قدر الحاجةِ فى الدفع ، فإذا اندفع المنكَر فينبغى أنْ يكفَّ . والقاضى قد يُرْهِق من ثبت عليه الحقُّ إلى الأداء بالحبس ، فإنْ أصرَّ المحبوسُ وعلم القاضى قدرتَه على أداء الحقِّ وكونَه معانداً ، فله أن يُلزمه الأداء بالضرب على التدريج كما يحتاج إليه ، وكذلك المحتسِب يراعى التدريج ، فإن احتاج إلى شهْر سلاح وكان يقدر على دفع المنكر بشهر السلاح وبالحرج فله أن يتعاطى ذلك مالم تَثُر فتنة ، كما لو قبض فاسقٌ مثلا على امرأة ، أو كان يضرب بمزمارٍ معه وبينه وبين المحتسب نهرٌ حائل أو جدار مانع ، فيأْخذ قوسَه ويقول له : خَلِّ عنها أو لأرمينَّك فإنْ لم يخلِّ عنها فله أنْ يرمىَ . وينبغى أنْ لا يقصد المقتل ، بل الساقَ والفخذ وما أشبهه ، ويراعى فيه التدريج وكذلك يسلُّ سيفه ويقول: اترك هذا المنكر أو لأضربنَّك ، فكل ذلك دفعٌ لمنكر ، ودفعهُ واجبٌ بكل ممكن ، ولا فرق فى ذلك بين ما يتعلَّق بخاصٍّ حقِّ الله وما يتعلق بالآدميين .

وقالت المعتزلة : مالا يتعلق بالآدميين فلا حسبةَ فيه إلا بالكلام أو بالضرب ، ولكن للإمام لا للآحاد .

الدرجة الثامنة : أنْ لا يقدر عليه بنفسه ويحتاج فيه إلى أعوانٍ يَشْهَرون السلاح وربما يستمدُّ الفاسق أيضاً بأعوانه ويؤدِّى ذلك إلى أن يتقابل الصفَّان ويتقاتلا . فهذا قد ظهر الاختلاف فى احتياجه

إلى إذن الإمام ، فقال قائلون : لا يستقل آحاد الرعية بذلك؛ لأنه يؤدى إلى تحريك الفِتَن وهَيَجان الفساد ، وخَراب البلاد .

وقال آخرون : لا يُحتاج إلى الإذن — وهو الأقْيَس .

باب آداب المحتسب

قد ذكرنا تفاصيل الآداب فى آحاد الدرجات . ونذكر الآن جُمَلها ومصادرها فنقول : جميع آداب المحتسب مصدرها ثلاث صفات فى المحتسب : العلم ، والورع ، وحسن الخلق.

أما العلم : فليعلم مواقعَ الحسبة وحدودَها ، ومجاريَها ، وموانعها ، ليقتصر على حدّ الشرع فيه .

والورع : ليردَعه عن مخالفةٍ معلومة ؛ فما كلُّ من علم عَمِلَ بعلمه ، بل ربّما يعلم أنه مسرفٌ فى الحسبة ، وزائد على الحدّ المأْذون فيه شرعاً، ولكن يحمله عليه غرضٌ من الأَغراض . وليكن كلامُه ووعظه مقبولا ؛ فإنّ الفاسق يُهزأُ به إذا احتَسَب ، ويُورث ذلك جراءة عليه .

وأما حسن الخلق : فليتمكّنَ به من اللطف والرفق ، وهو أصْل الباب وأَساسُه ، والعلم والورع لا يكفيان فيه ، فإنّ الغضبَ إذا هاج لم يَكْفِ مجرَّد العلم والورعِ فى قمعه ، مالم يكن فى الطبع قبولُه بحسن الخلقِ. وعلى التحقيق فلا يتمُّ الورعُ إلا مع حسن الخلق ، والقدرةِ على ضبط الشّهوة والغضب ، وبه يَصْبر المحتسب على ما أَصابه فى دين الله ، وإلا فإذا أُصيب عِرضهُ أَو ماله أَو نفسه بشتم أَو ضرب نسىَ الحسبة ، وغَفَل عن دين الله واشتغل بنفسه ، بل ربّما يُقدِم عليه ابتداءً لطلب الجاه والاسم .

فهذه الصفات الثلاث بها تصير الحسبة من القُربات ، وبها تندفع المنكرات .

ومن الآداب تقليل العلائِق حتّى لا يكثر خوفُه ، وقطعُ الطمع عن الخلائِق حتّى تزول عنه المداهنة ، فقد رُوى عن بعض المشايخ أنه كان له سنّورٌ ، وكان يأْخذ من قصّابٍ فى جواره كلَّ يوم شيئاً من الغُدَد لسنّوره ، فرأى على القصاب منكَراً ، فدخل الدار أوّلا وأخرج السنور ، ثم جاء واحتسبَ على القصّاب ، فقال له القصاب : لا أُعْطينَّكَ بعد هذا شيئًا لسنّورك ! فقال : ما احتَسَبْتُ عليكَ إلا بعد إخراج السُّنَّوْر وقَطْع الطَّمع منك !

البابُ الثالثُ

في المنكرات المألوفة في العادات

فنشير إلى جمل منها ليستدل بها على أمثالها ؛ إذ لا مطمع فى حصرهاواستقصائها . فمن ذلك منكرات المساجد

فمما يشاهد كثيراً فى المساجد إساءةُ الصلاة بترك الطُّمأْنينةِ فى الركوع والسجود ، وهو منكَر مبطل للصلاة بنصِّ الحديث ، فيجب النَّهى عنه إلّا عند الحنفى الذى يعتقد أنَّ ذلك لا يمنع صحة الصلاة ، إذْ لا ينفع النهىُ معه .

ومنها قراءةُ القرآن باللحن ، يجب النهىُ عنه ويجب تلقين الصحيح .

ومنها تراسُل المؤذِّنين فى الأذان ، وتطويلهم بمدّ كلماته ، وانحرافهم عن صَوب القبلة بجميع الصدر فى الحيْعَلتَيْن ، أو انفراد كلٍّ واحد منهم بأذانٍ ولكن من غير توقُّف إلى انقطاع أذان الآخر ، بحيث يضطرب على الحاضرين جوابُ الأذان لتداخل الأصوات .

ومنها أن يكون الخطيب لابسًا لثوبٍ أسودَ يغلب عليه الإبريسم ، أو ممسكًا لسيف مُذْهَب ، فهو فاسق ، والإنكار عليه واجب ، وأما مجرَّد السَّواد فليس بمكروه ، ولكنه ليس بمحبوب ، إذ أحبُّ الثياب إلى الله تعالى البِيض .

ومنها كلام القُصَّاص والوعَّاظ الذين يمزجون بكلامهم البدعة . فالقاص إن كان يكذب فى أخباره فهو فاسقٌ ، والإنكار عليه واجب ، وكذا الواعظ المبتدِع يجب منعه ولا يجوز حضورُ مجلسه إلاّ على قصد إظهار الردِّ عليه.

ومنها الحَلَق يوم الجمعة لبيع الأدوية والأطعمة والتعويذات ، وكقيام السُّؤّالِ وقراءتهم القرآن وإنشادهم الأشعارَ ، وما يجرى مجراه ، فهذه الأشياءُ منها ما هو محرَّم لكونه تلبيساً وكذبا ، كالكذّابِينَ من طُرُقية الأطبّاء ، وكأهل الشّعبذة والتلبيسات . وكذا أرباب التعويذات فى الأغلب ، يتوصّلون إلى بيعها بتلبيساتٍ على الصِّبيان والسوَادية ، فهذا حرامٌ فى المسجد وخارجَ المسجد ، ويجب المنع منه .

ومنها ما هو مباحٌ خارجَ المسجد ، كالخياطة وبيع الأدوية والكتبِ والأطعمة ، فهذا فى المسجد أيضاً لا يحرم إلاّ بعارض ، وهو أن يضيق المكانُ على المصلين ويشوِّش عليهم صلاتهم ، فإنْ لم يكن شيءٌ من ذلك فليس بحرام ، والأَوْلَى تركه . ولكن شرط إباحته أنْ يجرىَ فى أوقاتٍ نادرة ، وأيامٍ معدودة ، فإذا اتُّخِذَ المسجدُ دُكّاناً على الدوام حرم ذلك ومُنع منه .

ومنها دخول المجانين والصبيان والسُّكارى فى المسجد ، ولا بأس بدخول الصبى المسجد إذا لم يلعب ، ولا يحرم عليه اللعب فى المسجد ولا السكوت على لعبه إلّا إذا اتخذ المسجد ملعباً ، وصار ذلك معتادًا ، فيجب المنع منه ، فهذا مما يحلُّ قليله دون كثيرهِ .

منكرات الأسواق

من المنكرات المعتادة فى الأسواق الكذب فى المرابحة ، وإخفاءُ العيب . فمن قال : اشتريت هذه السلعة مثلا بعشرة قروش وأربح فيها كذا وكان كاذبًا ، فهو فاسق .

ومنها بيعُ الملاهى ، وبيع أشكال الحيوان المصوَّرة فى أيام العيد

لأجلِ الصبيان ، فتلك يجب كسرها والمنع من بيعها كالملاهى . وكذلك بيع الأوانى المتّخذة من الذهب والفضة . وكذلك بيعُ ثياب الحرير ، وقلانسِ الذهب والحرير ، أعنى التى لا تصلح إلاَّ للرجال ، أو يُعلم بعادة البلد أنه لا يَلبسه إلا الرجال ، فكل ذلك منكر محظور .

منكرات الشوارع

فمن المنكرات المعتادة فيها : وضع الأُسطوانات وبناءُ الدَّكّات[1] متصلة بالأَبنية المملوكة ، وغرس الأَشجار ، وإخراج الرواشن[2] والأَجنحة ووضع الخشب وأَحمال الحبوب والأَطعمة على الطرق ؛ فكلٌّ ذلك منكر إنْ كان يؤَدِّى إلى تضييق الطُّرق واستضرار المارة .

ومنها سَوْق الدوابِّ وعليها الشَّوْك بحيث يمزِّق ثيابَ الناس ، فذلك منكَر إنْ أَمكن شدُّها وضمُّها بحيث لا تمزِّق ، أو أَمكن العدولُ بها إلى موضع واسع .

وكذلك تحميل الدوابِّ من الأَحمال ما لا تُطيقه ، منكَر يجب منع المُلاك منه . وكذلك ذَبْح القصاب إذا كان يذبح فى الطَّريق حِذاءَ باب الحانوت ويلوِّث الطريق بالدم ، فإنه منكَر يمنع منه .

وكذلك طرح القُمامة على جَوَادِّ الطرق ، وتبديد قشور البطيخ ، أو رشُّ الماءِ بحيث يخشى منه التَّزلُّق والتعثُّر . كلٌّ ذلك من المنكرات.

وكذلك إذا كان له كلبٌ عقور على باب داره يؤْذى الناس ، فيجب منعه منه .

---

(١) الدكة بالفتح : بناء يسطح أعلاه للقعود .
(٢) الروشن : الكوة .

منكرات الحمامات

منها الصورة التى تكون على باب الحمام أو داخل الحمام ، يجب إزالتها على كل من يدخلها إن قدر ، فإن كان الموضع مرتفعاً لا تصل إليه يده فلا يجوز له الدخول إلاَّ لضرورة ، فليعدل إلى حمَّام آخر ، فإنَّ مشاهدة المنكر غير جائِزة ، ويكفيه أن يُشوِّه وجهَها ويُبطل به صورتَها . ولا يمنع من صور الأَشجار وسائِر النقوش سوى صورة الحيوان.

ومنها كشف العَوْرات والنظر إليها . ومن جملتها كشف الدَّلاَّك عن الفخذ وما تحت السُّرَّة .

ومنها غمس اليد والأَوانى النجسة فى المياه القليلة ، وغسلُ الإزار والطاس النجس فى الحوض وماؤُه قليل ؛ فإنه منجِّس للماء ، إلا على مذهب مالك فلا يجوز الإنكار فيه على المالكية ، ويجوز على الحنفية والشافعية .

ومنها أن يكون فى مداخل بيوت الحمام ومَجارى مياهها حجارةٌ ملساءُ مُزْلقة يزلَق عليها الغافلون ، فهذا منكر ، ويجب قلعُه وإزالته ، وينكَر على الحمَّامىّ إهماله ، فإنه يُفضِى إلى السَّقطة ، وقد تؤدِّى السَّقطة إلى انكسار عضوٍ أو انخلاعه .

منكرات الضيافة

فمنها فرش الحرير للرجال ، فهو حرام . وكذلك تبخير البَخور في مِجمرة فضّة أو ذهب ، أو الشرابُ أو استعمال ماء الورد في أواني الفضة أو ما رءوسها من فضة .

ومنها إسدال الستور وعليها الصُّوَر .

ومنها سماع الأوتار أو سماع القَينات .

وأما الصُّور التي على النمارق والزرابيّ المفروشة فليس منكراً . وكذلك على الأطباق والقصاع ، لا الأواني المتّخذة على شكل الصور ؛ فقد تكون رءوس بعض المجامر على شكل طير ، فذلك حرام يجب كسر مقدار الصورة منه .

ومنها أنْ يكون في الضيافة مبتدعٌ يتكلّم في بدعته . فيجوز الحضور لمن يقدر على الردّ عليه على عزم الردّ ؛ فإنْ كان لا يقدر عليه لم يجز .
ومنها الإسراف في الطعام والبناء ، فهو منكر .

الباب الرابع

في أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر

قد ذكرنا درجات الأمر بالمعروف وأنّ أوّله التعريف ؛ وثانيه الوعظ وثالثه التخشين فى القول ، ورابعهُ المنع بالقهر فى الحمل على الحقّ بالضرب والعقوبة . والجائز من جملة ذلك مع السلاطين الرّتبتان الأولَيان ، وهما : التعريف والوعظ . وأما المنع بالقهر فليس ذلك لآحاد الرعية مع السلطان ، فإن ذلك يحرّك الفتنة ويهيّج الشر ، ويكون ما يتولّد منه من المحذور أكثر . وأما التخشين فى القول كقوله : ياظالم ، يا من لا يخاف الله ، وما يجرى مجراه ، فذلك إن كان يحرّك فتنةً يتعدّى شرُّها إلى غيره لم يجزْ ، وإنْ كان لا يخاف إلا على نفسه فهو جائز بل مندوب إليه .

وعن الأصمعى قال :

دخلَ عطاءُ بن أبى رباح على عبد الملك بن مروان – وهو جالسٌ على سريره وحواليه الأشراف من كلِّ بطن ، وذلك بمكة فى وقت حجّه فى خلافته فلما بَصُر به وأجلسه معه على السرير وقعدَ بين يديه وقال له : يا أبا محمد ، ما حاجتك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، اتّق الله فى حَرَم الله وحرم رسوله فتَعاهَدْه بالعمارة ، واتّق الله فى أولاد المهاجرين والأنصار فإنّك بهمْ جَلستَ هذا المجلس ، واتّق الله فى أهل الثُّغور فإنهم حصن المسلمين ، وتفقّد أمور المسلمين فإنّك وحدَك المسئُول عنهم ، واتق الله فيمن على بابك فلا تَغفُل عنهم ، ولا تُغلق بابك دونهم . فقال له : أجَلْ أفعلُ . ثم نهض وقام ، فقبض عليه عبد الملك فقال : يا أبا محمد ، إنّما سألْتَنَا حاجة لغيرك وقد قضيناها ، فما حاجتك أنت ؟ فقال :

مالى إلى مخلوقٍ حاجة ! ثم خرج ، فقال عبد الملك : هذا وأبيكَ الشرف !

وحكى أنَّ حُطَيطًا الزياتَ جِيء به إلى الحجّاج ، فلمّا دخل عليه قال : أنت حطيط ؟ قال : نعم ، سَلْ عما بدالك ، فإنّى عاهدت الله -عند المَقام- على ثلاث خصال : إنْ سئلت لأصدُقَنّ ، وإنْ ابتُليت لأصبرنّ ، وإن عُوفيت لأشكرنّ . قال : فما تقول فىّ ؟ قال : أقول إنّك من أعداء الله فى الأرض ، تنتهك المحارم وتقتُل بالظِّنّة . قال : فما تقول فى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ؟ قال : أقول : إنّه أعظم جرمًا منك ، وإنما أنت خطيئةٌ من خطاياه . قال : فقال الحجّاج ، ضَعوا عليه العذاب . قال : فانتهى به العذاب إلى أن شُقِّق له القصب ، ثم جعَلوه على لحمه وشدّوه بالحبال ، ثم جعلوا يمدّون قصبةً قصبة حتى انتحلوا لحمه ، فما سمعوه يقول شيئًا . قال : فقيل للحجّاج : إنّه فى آخر رمق فقال : أخرِجُوه فارموا به فى السوق . قال جعفر : فأتيته أنا وصاحبٌ له فقلنا له : حُطيطُ ، أَلك حاجة ؟ قال : شَربة ماءٍ . فأتوه بشربةٍ ثم مات ، وكان ابن ثمان عشرةَ سنةً . رحمة الله عليه .

وعن أبى عِمران الجَوْنى قال :

لما ولَى هارون الرشيد الخلافَة زاره العلماءُ فهنَّوْه بما صار إليه من أمر الخلافة ، ففتحَ بيوتَ الأموال ، وأقبلَ يجيزهم بالجوائِز السنية ، وكان قبل ذلك يجالس العلماءَ والزُّهّاد ، وكان يظهر النُّسك والتقشُّف ، وكان مؤَاخياً لسفيان بن سعيد بن المنذر الثّورى قديماً ، فهجره سفيانُ ولم يزره، فاشتاق هارون إلى زيارته ليخلوَ به ويحدِّثَه ، فلم يزره ولم يعبأْ بموضعه ولا بما صار إليه ،فاشتدَّ ذلك على هارون فكتب إليه كتابا يقول فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله هارونَ الرشيدِ أمير المؤْمنين ، إلى أخيه سُفيانَ بنِ سعيد بن المنذر . أما بعد يا أخى فقد علمتَ أن الله تبارك وتعالى وَاخَى بين المؤْمنين ، وجَعل ذلك فيه وله . واعلمْ أنى قد واخيتك مواخاةً لم أصرِمْ بها حبلَك ، ولم أقطع منها وُدَّك ، وإنى مُنْطَوٍ لك على أفضل المحبَّة والإرادة ، ولولا هذه القلادةُ التى قلَّدَنيها الله لأتيتك ولو حَبْواً ، لما أجدُ لك فى قلبى من المحبة . واعلم يا أبا عبد الله أنَّه ما بقى من إخوانى وإخوانك أحدٌ إلَّا وقد زارنى وهنَّأنى بما صرتُ إليه وقد فتحتُ بيوتَ الأموال وأعطيتُهم من الجوائز السنية ما فرِحَتْ به نفسى وقَرَّتْ به عينى . وإنّى استبْطأْتُكَ فلم تأْتِنى ، وقد كتبتُ إليك كتابا شوقًا منِّى إليك شديدا . وقد علمتَ يا أبا عبد الله ما جاءَ فى فضل المؤْمن وزيارته ومواصلته ، فإذا وردَ عليك كتابى فالعجَلَ العجل .

فلما كتب الكتابَ التفت إلى مَن عنده . فإذا كلُّهم يعرفون سفيان الثَّورى وخشونته فقال : علىَّ برجل من الباب ، فأُدخلَ عليه رجلٌ يقال له عبَّاد الطالقانى ، فقال : ياعَبَّاد ، خُذْ كتابى هذا فانطلق به إلى الكوفة فإذا دخلتهَا فسل عن قبيلةِ بنى ثور ، ثم سلْ عن سفيانَ الثَّورى فإذا رأيتَه فألق كتابى هذا إليه ، وع بسمعك وقلبك جميعَ ما يقول ، فأحصِ عليه دقيقَ أمره وجليلَهُ لتخبرنى به .

فأَخذ عَبَّادٌ الكتاب وانطلق به حتَّى ورد الكوفة ، فسأل عن القبيلة فأُرشِد إليها ، ثم سأل عن سفيان فقيل له : هو فى المسجد . قال عبّاد : فأقبلت إلى المسجد فلما رآنى قام قائِماً وقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، وأعوذ بك اللهمَّ من طارق يَطْرُقَ إلاَّ بخير . قال عبَّاد : فوقعت الكلمة فى قلبى ، فخرجتُ فلمَّا رآنى نزلت بباب المسجد قام يصلِّى ، ولم يكن وقتَ صلاة ، فربطتُ فرسى بباب المسجد

ودخلتُ ، فإذا جلساؤه قعودٌ قد نكّسوا رءوسهم كأنّهم لصوصٌ قد ورد عليهم السلطان فهم خائِفون من عقوبته ، فسلّمت فما رفع أحدٌ إليّ رأسه ، وردّوا السلام عليّ برءوس الأصابع ، فبقيتُ واقفاً فما منهم أحدٌ يَعرض عليّ الجلوس ، وقد علانى من هَيبتهم الرِّعدة ، ومددتُ عينى إليهم فقلت : إنّ المصلِّىَ هو سفيان ، فرميتُ بالكتاب إليه . فلما رأى الكتابَ ارتعد وتباعد منه كأنه حيّةٌ عرَضَتْ له فى محرابه . فركع وسجد وسلّم ، وأدخل يده فى كمه ولفّها بعباءته وأخذه ؛ فقلّبه بيده ثم رماه إلى مَن كان خلفه وقال : يأخذه بعضُكم يقرؤُه ، فإنّى أستغفر الله أن أمسّ شيئًا مسّه ظالم بيده . قال عبّاد : فأخذه بعضُهم فحلّه كأنه خائِفٌ من فم حَيةٍ تنهشُه ، ثم فَضّهُ وقرأه ، وأقبل سفيانُ يتبسم تبسّمَ المتعجِّب ، فلما فرغ من قراءته قال : اقلبوه واكتبوا إلى الظالم فى ظهر كتابه ، فقيل له : يا أبا عبد الله إنّه خليفة ، فلو كتبتَ إليه فى قرطاس نقىّ . فقال : اكتبوا إلى الظالم فى ظهر كتابه ، فإنْ كان اكتسبه من حلالٍ فسوف يُجْزَى به ، وإنْ كان اكتسبَه من حرام فسوف يَصْلَى به . ولا يبقى شىءٌ مسّه ظالم عندنا فَيُفْسد علينا ديننا . فقيل له : ما نكتب ؟ فقال اكتبوا :

بسم الله الرحمن الرحيم : من العبد المذنب سفيانَ بن سعيد بن المنذر الثّورى ، إلى العبد المغرور بالآمال هارون الرشيد الذى سُلب حَلاوةَ الإيمان . أما بعد فإنى قد كتبتُ إليك أُعرِّفك أنى قد صرمت حبلَك ، وقَطعت ودَّك ، وقَلَيتُ موضعَك ؛ فإنّك قد جعلتنى شاهداً عليك بإقرارك على نفسك فى كتابك بما هجمتَ به على بيت مال المسلمين فأنفقتَه فى غير حقّه ، وأنفذْته فى غير حكمه ، ثم لم ترضَ بما فعلتَه وأنت ناءٍ عنّى حتّى كتبتَ لى تُشهدنى على نفسك . أمَا إنّى قد شَهِدت عليك

أنا وإخوانى الذين شهدوا قراءة كتابك ، وسنؤدِّى الشهادة عليك غداً بين يدى الله تعالى . يا هارون ، هجمتَ على بيت مال المسلمين بغير رضاهم ، هل رضىَ بفعلك المؤلَّفة قلوبهم والعاملون عليها فى أرض الله تعالى ، والمجاهدون فى سبيل الله تعالى وابن السبيل ؟ أم رضىَ بذلك حَمَلة القرآن وأهل العلم والأراملُ والأيتام ؟ أم هل رضىَ بذلك خَلقٌ من رعيتك ؟ فَشُدَّ ياهارون مئزرَك وأعدَّ للمسألة جواباً ، وللبلاء جلباباً ، واعلم أنك ستقف بين يدَى الحكم العدل ، فقد رُزئتَ فى نفسك إذ سُلبْتَ حلاوةَ العلم والزُّهد ولذيذِ القرآن ، ومجالسةِ الأخيار ، ورضيتَ لنفسك أن تكون ظالماً ، وللظالمين إماماً . يا هارون قعدتَ على السَّرير ، ولبست الحرير ، وأسبلت سِتراً دون بابك ، وتشبهت بالحَجَبة بربِّ العالمين ، ثم أقعدتَ أجنادَك الظَّلمةَ دون بابك وسِترك ، يظلمون الناس ولا ينصفون ، يشربون الخمور ويَضربون مَنْ يَشربها ! ويَزْنون ويحدُّون الزانىَ ، ويَسرِقون ويقطعون يدَ السارق ! أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكُم بها على الناس ؟ فكيف بك يا هارون غدًا إذا نادى المنادى مِنْ قِبَلِ الله تعالى : (احشُروا الذين ظَلَمُوا وأزْوَاجَهُم) أى الظَّلمةَ وأعوان الظَّلَمة . فقدِمْتَ بين يدَىِ الله تعالى ويداك مغلولتان إلى عُنقك ، لا يفكُّهما إلَّا عدلُك وإنصافك ، والظالمون حولَك وأنت لهم سابقٌ وإمامٌ إلى النار ، كأنى بك يا هارون وقد أُخِذتَ بضيق الخِناق ، ووردت المَسَاق ، وأنت ترى حسناتِك فى ميزان غيرك ، وسيِّئاتِ غيرك فى ميزانك زيادةً عن سيئاتك ، بلاءٌ على بلاء ، وظُلمةٌ فوق ظلمة . فاحتفظ بوصيَّتى ، واتَّعظ بموعظتى التى وعظتُك بها ، واعلم أنِّى قد نصحتُك وما أبقيتُ لك فى النُّصح غاية ، فاتق الله ياهارون فى رعيّتك ، واحفظ محمَداً صلى الله عليه وسلم فى أُمّته ، وأحسِن الخلافةَ عليهم ، واعلمْ أنَّ

هذا الأمر لو بقىَ لغيرك لم يصل إليك وهو صائِر إلى غيرِك ، وكذلك الدنيا تنتقل بـأهلها واحداً بعدواحد ، فمنهم من تزوَّد زاداً نَفَعه ، ومنهم من خسر دنياه وآخرتَه ، وإنِّى أحسبك يا هارون ممن خسر دنياه وآخرته . فإياك إياك أن تكتُبَ لى كتاباً بعد هذا ، فلا أُجيبك عنه . والسلام .

قال عبّاد :فألقىَ إلىَّ الكتابَ منشوراً غير مَطْوِىّ ولا مختوم ، فأخذته وأقبلت إلى سوق الكوفة وقد وقعَت الموعظةُ من قلبى ، فناديت : يا أهلَ الكوفة . فأجابونى فقلت لهم : يا قوم من يشترى رجلاً هرب من الله إلى الله ؟ فأقبلوا إلىَّ بالدنانير والدراهم ، فقلتُ : لا حاجة لى فى المال ولكن جُبّةٌ صوف خَشِنة ، وعَباءَة قَطْوانية[1] . قال : فأُتيتُ بذلك ونَزعتُ ما كان علىَّ من اللباس الذى كنت ألبَسه مع أمير المؤمنين ، وأقبلت أقود البِرذونَ وعليه السلاحُ الذى كنت أحمله ، حتّى أتيت باب أمير المؤْمنين هارون حافيًا راجلاً ، فهَزَأ بِى مَنْ كان على باب الخليفة ثم استُؤْذِنَ لى ، فلما دَخلتُ عليه وبَصُر أَبِى على تلك الحالة قامَ وقعد ، ثم قام قائماً وجعل يَلطِم رأْسَه ووجهه ، ويدعو بالويل والحزن ويقول : انتفع الرسولُ وخاب المرسِل ، مالى وللدُّنيا ، مالى والمُلكِ يزول عنِّى سريعاً ؟ ثم ألقيتُ الكتابَ إليه منشوراً كما دُفع إلىّ . فأقبل هارون يقرؤُه والدموع تتحدَّر من عينيه ، ويقرأُ ويشهق ، فقال بعض جلسائِه : يا أمير المؤْمنين ، لقد اجترأ عليك سفيان ، فلو وجَّهت إليه فأثقَلتَه بالحديد وضيَّقت عليه السّجن كنتَ تجعله عبرةً لغيره . فقال هارون : اتركونا

(١) القطوانية : عباءة بيضاء قصيرة الخمل . والخمل : أهداب الثوب .

يا عبيدَ الدنيا ، المغرور من غَرَرتموه ، والشقيُّ من أهلكتموه ، وإنَّ سفيانَ أُمّةٌ وحدَه ، فاتركوا سفيان وشأْنه .

ثم لم يَزَلْ كتاب سفيان إلى جنب هارون يقرؤُه عند كلِّ صلاة حتّى توُفِّيَ رحمه الله .

فرحم الله عبداً نظر لنفسه ، واتقىَ الله فيما يُقْدم عليه غداً من عمله ، فإنَّه عليه يحاسب ، وبه يجازَى . والله ولى التوفيق .

فهذه كانت سيرة العلماء وعادتَهم فى الأَمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقلَّةِ مبالاتهم بسطوة السَّلاطين ، لكونهم اتَّكلوا على فضل الله تعالى أنْ يحرسَهم ، ورَضُوا بحكم الله تعالى أن يرزُقَهم الشهادة ، فلما أخلصوا لله النيةَ أثرّ كلامهم فى القلوب القاسية فليَّنها ، وأزال قساوتَها .

ومن استولى عليه حبُّ الدنيا لم يقدر على الحِسبة على الأَراذل ، فكيف على الملوك والأَكابر ؟

الكتاب العاشر

كتاب آداب أخلاق المعيشة

وأخلاق النبوة

ولقد كنتُ عزمت على أن أختمَ ربع العادات من هذا الكتاب بكتاب جامع لآداب المعيشة لئلّا يشق على طالبها استخراجُها من جميع هذه الكتب ، ثم رأيتُ كلَّ كتاب من ربع العادات قد أتى على جملة من الآداب فاستثقلتُ تكريرَها وإعادتها . فإنَّ طلبَ الإعادة ثقيل ، والنفوس مجبولة على معاداة المعادات ، فرأيتُ أن أقتصر فى هذا الكتاب على ذكر آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخلاقه المأثورة عنه بالإسناد فأسرُدها مجموعةً فصلا فصلا ، محذوفة الأسانيد .

ثم أُضيف إلى ذكر أخلاقه ذكر خِلقته ، ثم ذكر معجزاته التى صحَّت بها الأخبار ، ليكون ذلك مُعرباً عن مكارم الأخلاق والشيم ، ومنتزِعاً عن آذان الجاحدين لنبوَّته صِمامَ الصَّمَم .

بيان تأديب الله تعـــالى

حبيبه وصفيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالقرآن

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرَ الضّراعة والابتهال ، دائِم السُّؤَال من الله تعالى أن يزيِّنه بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق ، فكان يقول فى دعائِه : « اللهم حسِّن خُلقى وخَلْقى » . ويقول : « اللهمَّ

جنِّبنى منكرات الأخلاق » . فاستجاب الله تعالى دعاءه وفاءً بقوله عزوجل: (ادْعُونِى أَستَجِبْ لكم) . فأَنزل عليه القرآن وأَدَّبه به ، فكان خُلُقه القرآن .

قال سعد بن هشام : دخلت على عائشة رضى الله عنها وعن أبيها ، فسأَلتها عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . قالت : كان خُلقُ رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن .

وإنما أدَّبه القرآنُ بمثل قوله تعالى : (خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بالعُرْف وأَعْرِضْ عَن الجاهِلين) .

وقوله : (إنَّ اللهَ يأْمُرُ بالعَدْلِ والإحْسَانِ وإيتاء ذِى القُرْبَى ويَنْهَى عن الفَحْشَاء والمُنْكَرِ والبَغْى) .

وقوله : (واصْبِرْ عَلَى ما أَصابكَ إنَّ ذَلِك من عَزْمِ الأُمُور) .

وقوله : (فاعْفُ عَنْهُمْ واصْفحْ إنَّ اللهَ يُحبُّ المُحسِنِين) .

وقوله : (ادْفَعْ بالتى هى أَحْسَنُ فإذا الذى بَيْنَكَ وبيْنَه عَدَاوةٌ كأَنَّه ولِىٌّ حميمٌ) .

ولما كُسرتْ رَباعِيَتهُ وشُجَّ يوم أُحُد ، فجعل الدم يسيل على وجهه ، وهو يمسح الدم ويقول : « كيف يُفلح قومٌ خَضَبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعُوهم إلى ربِّهم » فأَنزل الله تعالى : (ليسَ لكَ من الأَمر شىءٌ) تأْديباً له على ذلك .

وأَمثال هذه التأْديبات فى القرآن لا تُحْصَر ، وهو عليه السلام المقصود الأَوَّل بالتأْديب والتهذيب ، ثم منه يشْرق النورُ على كافَّة الخلق ، فإنه أُدِّب بالقرآن وأَدَّب الخَلْقَ به ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « بُعِثتُ لأُتمِّمَ مَكارِمَ الأخلاق » .

بيان جملة محاسن أخلاقه

التى جمعها بعض العلماء والتقطها من الأخبار

فقال : كان صلى الله عليه وسلم أحلمَ الناس ، وأشجعَ الناس ، وأعدلَ الناس ، وأعفَّ الناس ، لم تمسَّ يدُه قَطُّ يَدَ امرأة لا يملك رقَّها أو عصمةَ نكاحِها أو تكونُ ذات مَحْرَم منه . وكان أسخى الناس ، لا يبيت عنده دينارٌ ولا درهم ، وإنْ فَضلَ شئ ولم يجدْ مَن يعطيه وفجأَهُ الليلُ لم يَأْوِ إلى منزله حتَّى يتبرأ منه إلى مَنْ يحتاج إليه .

وكان يَخصف النعل[1] ويَرقَع الثوب ، ويَخدُم فى مِهْنة أهله ، ويقطع اللَّحم معهنَّ . وكان أشدَّ الناس حياءً ، لا يُثبت بصرَه فى وجه أحد ، ويجيب دعوةَ العبد والحرّ ، ويقبل الهديَّة ولو أنَّها جُرعةُ لبن أو فَخذُ أرنب ، ويكافئ عليها ويأكلها ، ولا يأكل الصَّدَقة ، ولا يستكبر عن إجابة الأَمَة والمسكين . يغضب لربِّه ولا يغضب لنفسه ، ويُنَفِّذُ الحقَّ وإن عاد ذلك عليه بالضَّرر أو على أصحابه . وعُرض عليه الانتصارُ بالمشركين على المشركين وهو فى قلَّةٍ وحاجةٍ إلى إنسان واحد يزيده فى عددٍ من معه ، فأَبى وقال : أنا لا أنتصر بمُشْرك .

وكان يَعْصب الحجَر على بطنه مرّةً من الجوع ، ومرة يأكل ما حَضر ولا يردُّ ما وجد ، ولا يتورَّع عن مَطعم حلال .

وإنْ وجدَ لبناً دون خبزٍ اكتفى به ، وإن وجد بِطِّيخاً أو رُطَباً أكله . لم يشبع من خُبز بُرٍّ ثلاثَة أيام متوالية حتَّى لقىَ الله تعالى ، إيثاراً

---

(١) خصف النعل : ظاهر بعضها على بعض وخرزها .

على نفسه ، لا فقراً ولا بخلا . يجيب الوليمة ويَعُود المرضى ، ويشهد الجنائز ، ويمشي وحدَه بين أعدائه بلا حارس . أشدُّ الناس تواضعاً وأسكنُهم فى غير كِبْر ، وأبلغُهم فى غير تطويل ، وأحسنُهم بشراً . لا يهوله شيء من أمور الدنيا ، ويلبس ما وجَدَ ، فمرّة شَمْلة[1] ومرّة بُرْدَ حِبَرة[2] يمانيًّا ، ومرة جُبّة صوف ، ما وجَدَ من المباح لَبِس . وخاتَمه فِضّة ، يلبسه فى خِنصره الأيمن والأيسر . يُردف خَلْفَه عبدَه أو غيره ، يركب ما أمكَنه ، مرّة فرساً ، ومرّة بعيراً ، ومرة بغلةً شَهباء[3] ومرّة حماراً ، ومرّةً يمشى راجلاً حافيًا ، بلا رداءٍ ولا عمامةٍ ولا قلنسوة . يعود المرضى فى أقصى المدينة . يحب الطِّيب ويكره الرائحة الرديئَة ، ويجالس الفقراء ويؤاكل المساكين ، ويُكرم أهلَ الفضل فى أخلاقهم ، ويتألَّف أهل الشرف بالبرِّ لهم ، يَصلُ ذَوِى رَحمه من غير أن يُؤْثرهم على مَن هو أفضلُ منهم . لا يَجْفُو على أحد ، يَقبلُ معذرة المعتذِر إليه ، يَمزَح ولا يقول إلا حقاً ، يضحك من غير قهقهة . يرى اللعب المباح فلا يُنكره . يسابق أهلَه ، وتُرْفَعُ الأصوات عليه فيصبر . وكان له لقاحٌ[4] وغَنَم يَتَقوَّت هو وأهله من ألبانها ، وكان له عبيدٌ وإماءٌ لا يرتفع عليهم فى مأكل ولا ملبس ، ولا يمضى له وقتٌ فى غير عمل لله تعالى ، أو فيما لا بدَّ له منه من صلاح نفسه . يخرج إلى بساتين أصحابه ، لا يحتقر مسكيناً لفقره وزَمانَته ، ولا يهاب مَلِكا لملكه ، يدعو هذا وهذا إلى الله دعاءً مُستَوياً . قد جمع الله تعالى له السيرةَ الفاضلة ، والسياسة التامة ، وهو أُمىٌّ لا يقرأ ولا يكتب ، نشأ فى بلاد الْجَهْل والصَّحارَى ، فى

---

(١) الشملة : كساء دون القطيفة يشتمل به .

(٢) الحبرة بالتحريك وكعنبة : ضرب من برود اليمن منمر .

(٣) الشهبة : بياض يغلب على السواد .

(٤) اللقاح : ذوات الألبان من النوق ، واحدها لقوح ولقحة .

فقره وفى رعاية الغنم ، يتيماً لا أبَ له ولا أمّ ، فعلّمه الله تعالى جميعَ محاسن الأخلاق والطُّرق الحميدة ، وأخبار الأوّلين والآخرين ، وما فيه النجاةُ والفوز فى الآخرة ، والغبطةُ والخلاصُ فى الدنيا ، ولزوم الواجب وترك الفضول .

وفقنا الله تعالى لطاعته فى أمره ، والتأسّى به فى فعله . آمين يارب العالمين .

بيان كلامه وضحكه صلى الله عليه وسلم

كان صلى الله عليه وسلم أفصحَ النّاسِ مَنطِقًا ، وأحلاهم كلاماً ، ويقول : « أنا أفصحُ العرب » ، وإن أهل الجنة يتكلمون فيها بلغة محمد صلى الله عليه وسلم . وكان نَزْرَ الكلام[1] ، سَمْحَ المقالة ، إذا نطق ليس بمِهذار[2] ، وكان كلامه كخَرَزَات نَظِمْن . قالت عائشة رضى الله تعالى عنها : كان لا يسْرد الكلام كسردكم هذا ، كان كلامه نَزْراً وأنتم تنثرون الكلام نثراً .

قالوا : وكان أوجزَ النّاس كلامًا ، وبذلك جاءه جبريل ، وكان مع الإيجاز يجمع كلَّ ما أراد ، وكان يتكلّمُ بجوامع الكلم[3] ، لا فُضول ولا تقصير ، كأنه يتبع بعضُه بعضاً . بينَ كلامه توقُّفٌ ، يحفظه سامعه ويَعِيه . وكان جَهيرَ الصوت ، أحسَنَ الناس نَغْمة . وكان طويل السكوت ، لا يتكلّم فى غير حاجة ، ولا يقول المُنْكَر ، ولا يقول فى الرضا والغضب إلاّ الحقّ ، ويُعرض عمنّ تكلّم بغير جميل ، ويكنى عما اضطره الكلامُ إليه مما يُكره . وكان أكثر الناس تبسُّما وضَحكاً

---

(١) أى قليل الكلا م .

(٢) المهذار : الكثير الكلام فى غير طائل .

(٣) جوامع الكلم ، هى القليلة الألفاظ الكثيرة المعانى .

فى وجوه أصحابه ، وتعجُّبًا مما تحدَّثوا به ، وخلطاً لنفسه بهم ، ولربَّما ضحك حتَّى تبدوَ نَوَاجذُه[1] . وكان ضحِكُ أصحابِه عنده التبسُّم اقتداءً به وتوقيراً له . قالوا : ولقد جاءه أعرابىٌّ يومًا وهو عليه السلام متغيِّرُ اللون يُنكره أصحابه ، فأَراد أنْ يسأَله فقالوا : لا تفعلْ يا أَعرابىُّ ، فإنَّا ننكر لونَه . فقال : دعُونى فو الذى بعثَه بالحق نبياً لا أَدعُه حتَّى يتبسَّم . فقال . يا رسول الله بلغنا أن المسيحَ - يعنى الدجال - يأْتى الناس بالثَّريد وقد هَلَكوا جوعًا ، أفترى لى بأَبى أنت وأُمىّ أن أكفَّ عن ثريده تعفُّفًا وتنزُّها حتَّى أَهلِكَ هُزالًا ، أَم أَضربَ فى ثريده حتَّى إذا تَضلَّعتُ شِبعًا[2] آمنتُ بالله وكفرت به ؟ قالوا : فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتَّى بدت نواجذه ثم قال : « لا بل يُغنيك الله بما يُغنى به المؤمنين » .

قالوا : وكان من أكثر الناس تبسُّما وأطيبهم نفساً ما لم ينزلْ عليه قرآن ، أو يذكُر السَّاعة ، أو يخطبْ بخطبةِ عِظَة . وكان إذا سُرَّ ورضىَ فهو أحسنُ الناس رضاً ، فإن وعَظَ وعظَ بجدّ ، وإن غضب - وليس يغضبُ إلّا لله - لم يَقُم لغضبه شىءٌ .

بيان أخلاقه وآدابه فى الطعام

كان صلى الله عليه وسلم يأْكل ما وجَد ، وكان أحبُّ الطعام إليه ما كان على ضَفَف[3] .

---

(١) الناجذ : ضرس الحلم ، ينبت بعد البلوغ وكمال العقل .
(٢) تضلع : انتفخت أضلاعه عن كثرة الشرب .
(٣) الضفف : ما كثرت عليه الأيدى .

وكان كثيراً إذا جلس يأكل يجمع بين ركبتيه وبين قدميه كما يجلس المصلّى ، إلاَّ أنَّ الركبة تكون فوق الركبة ، والقدمَ فوق القدم ، ويقول : « إنما أنا عبدٌ ، آكل كما يأكل العبد ، وأجلِسُ كما يجلس العبد » .

وكان يأكل مما يليه ، ويأكل بأصابعه الثلاث ، وربَّما استعان بالرابعة .

وكان يأكل خُبز الشعير غير منخول ، وكان يأكل القِثَّاء بالرُّطب وبالملح . وكان أحبُّ الفواكه الرَّطْبة إليه البطِّيخَ والعنب .

وأكل يوماً الرُّطبَ فى يمينه ، وكان يحفظ النوى فى يساره ، فمرَّت شاةٌ فأشار إليها بالنوى ، فجعلت تأكل من كفه اليسرى وهو يأكل بيمينه حتَّى فرغ وانصرفت الشاة .

وكان يحب القرع ويقول : إنَّها شجرة أخى يونس عليه السلام .

وكان يحب من الشَّاة الذراعَ والكتف .

وكان لا يأكل الثُّوم ولا البصَل ولا الكُرَّاث ، وما ذَمّ طعامًا قطُّ ، لكن إن أعجبه أكَله ، وإن كرهَه تركه ، وإن عافَه لم يُبغِّضه إلى غيره . وكان يَعَاف الضَّبّ والطِّحال ولا يحرّمهما ، وكان يلعق بأصابعه الصَّحفة ويقول : « آخر الطعام أكثرُ بركة » .

وكان يشرب فى ثلاث دَفَعات ، وله فيها ثلاث تسميات ، وفى أواخرها ثلاث تحميدات . وكان يمصُّ الماءَ مَصًّا ولا يَعُبُّ عَبًّا ، وكان يدفع فَضْل سُؤْره إلى مَنْ على يمينه ، فإن كان مَنْ على يساره أجلَّ رتبة قال للذى على يمينه : « السنة أن تُعطَى فإن أحببتَ آثرتَهم » . وربما كان يشرب بنَفَس واحد حتَّى يفرُغ ، وكان لا يتنفَّس فى الإناء بل ينحرف عنه .

وكان فى بيته أشدَّ حياءً من العاتق[1] ، لا يسألهم طعاماً ولا يتَشَهَّاهُ

(١) العاتق : الفتاة البكر .

عليهم ، إنْ أطعموه أكَل وما أعطَوْه قَبِل ، وما سَقَوْه شَرب . وكان ربَّما قام فأَخذَ ما يأْكلُ بنفسه أو يشرب .

بيان آدابه وأخلاقه فى اللباس

كان صلى الله عليه وسلم يلبس من الثياب ما وَجَدَ من إزارٍ أو رداء أو قميص أو جُبَّة ، أو غير ذلك . وكان يُعجبه الثِّيابُ الخضر ، وكان أكثرُ لباسه البياض ، ويقول : « ألبِسُوها أحياءكم وكفِّنوا فيها موتاكم » . وكان يلبس القَبَاءَ المحشوَّ ، للحَرْب وغير الحرب . وكان له قَباءُ سُنْدُس ، فيلبسه فتحسن خُضْرته على بياض لونه . وكانت ثيابه كلُّها مُشَمَّرَةً فوق الكعبين ، ويكون الإزار فوق ذلك إلى نِصف الساق . وكان قميصُه مشدودَ الأَزرار ، وربَّما حلّ الأَزرار فى الصَّلاة وغيرها . وكانت له مِلْحفةٌ[1] مصبوغة بالزَّعفران ، وربَّما صلى بالناس فيها وحدَها ، وربَّما لبس الكساءَ وحدَه ، ما عليه غيره .

وكان يتختَّم ، وربَّما خرج وفى خاتَمة الخيط المربوط يتذكَّر به الشيء[2] . وكان يَخْتِم به على الكتب ويقول : الخاتَم على الكتاب خيرٌ من التُّهمَة . وكان يلبس القلانسَ تحت العمائِم ، وبغير عمامة ، وربَّما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها سُتْرةً بين يديه ثم يصلِّى إليها ، وربما لم تكن العمامة فيشدّ العصابة على رأسه وعلى جبهته .

وكان إذا لبس ثوباً لبسه من قِبَل مَيَامنه .

---

(١) الملحفة : ثوب يلبس فوق سائر الثياب من دثار البرد ونحوه .

(٢) هذا ما كان العرب يسمونه بالرتيمة .

وإذا نزع ثوبَه أخرجه من مَياسره .

وكان له فِراشٌ من أَدَم حَشْوُهُ ليفٌ ، طوله ذراعان أو نحوه ، وعرضه ذراع وشبر أو نحوه . وكانت له عباءة تفرش له حيثما تنقَّل تُثنى طاقين تحته . وكان ينام على الحصير ليس تحتَه شئٌ غيره .

وكان من خُلقِه تسميةُ دوابِّه وسلاحِه ومتاعه ؛ وكان اسم رايته : العُقاب . واسم سيفه الذى يشهد به الحروب : ذو الفَقَار . وكان له سيفٌ يقال له : المِخْذَم[1] ، وآخر يقال له : الرَّسوب[2] ، وآخر يقال له : القضيب . وكانت قَبضة سيفِه محلَّاةً بالفضة .

وكان اسم قوسه : الكَتوم . وجَعْبته : الكافور . وكان اسم ناقته : القَصْواء ، وهى التى يقال لها : العَضْباءُ . واسم بغلته : الدُّلدُل . وكان اسم حماره : يَعْفوراً ، واسم شاته التى يشرب لبنها : غِيثة[3] .

بيان شجاعته صلى الله عليه وسلم

كان صلى الله عليه وسلم أنجدَ النَّاسِ وأشجعَهم . قال على رضى الله عنه : لقد رأيتُنى يوم بدر ونحن نَلُوذ بالنبى صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا إلى العدوّ ، وكان من أشدِّ الناس يومئذ بأْساً .

وقال أيضاً : كنا إذا احمرّ البأْسُ ولقِى القومُ القومَ اتَّقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحدٌ أقربَ إلى العدوِّ منه .

---

(١) معناه القاطع .

(٢) هو الذى يرسب فى الضريبة حتى يصل إلى العظم .

(٣) ويقال فيها أيضاً « غوثة » كما فى سيرة ابن سيد الناس ٢ : ٣٢٣ .

وكان من أشدّ الناس بأساً ، وكان الشجاع هو الذى يقربُ منه فى الحرب لقُربه من العدوّ .

وقال عِمران بن حُصَين : ما لقِىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم كتيبةً إلا كان أوّلَ مَن يضرب . وقالوا : كان قوىَّ البطش . ولمَّا غشِيَهُ المشركون نزل عن بغلته فجعل يقول :

أنا النبىُّ لا كذب   أنا ابنُ عبد المطلب

فما رُئِىَ أحدٌ كان أشدَّ منه .

بيان تواضعه صلى الله عليه وسلم

وكان يركب الحمارَ مُوكفاً[1] عليه قطيفةٌ ، وكان مع ذلك يستردف . وكان يعود المريض ، ويتبع الجنازة ، ويُجيب دعوة المملوك . ويَخصف النَّعل[2] ويرقع الثوب . وكان يصنع فى بيته مع أهله فى حاجتهم ، وكان أصحابه لا يقومون له لِمَا عرَفوا من كراهته لذلك . وكان يمرُّ على الصبيان فيسلِّم عليهم .

وأُتِىَ صلى الله عليه وسلم برجل فأُرعِدَ من هيبته فقال له : هَوِّن عليك فلستُ بِمَلِكٍ ، إنما أنا ابنُ امرأةٍ من قريشٍ تأكُل القديد[3] .

وكان يجلس بين أصحابه مختلطاً بهم كأنَّه أحدهم ، فيأتى الغريبُ فلا يدرى أيُّهم هو ؟ حتَّى يسأل عنه ، حتى طلبوا إليه أن يجلس مجلساً يعرفه الغريب ، فبنوا له دُكَّاناً من طِين ، فكان يجلس عليه .

---

(١) الإكاف : البرذعة .

(٢) أى يخرزها ويظاهر بعضها على بعض .

(٣) القديد : اللحم المقدد يقطع شرائح ويملح ويجفف فى الشمس .

وكان لا يدعوه أحد من أصحابه وغيرهم إلا قال « لبيك » . وكان إذا جلس مَعَ الناس إنْ تكلّموا فى معنى الآخرة أخذَ معهم . وإن تحدّثوا فى طعام أو شرابٍ تحدَّث معهم . وإن تكلّموا فى الدنيا تحدّث معهم ، رفقاً بهم . وتواضُعاً لهم . وكانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحيانًا ويذكرون أشياءَ من أمر الجاهليّة ، ويضحكون ، فيتبسَّم هو إذا ضحكوا ولا يزجُرهم إلّا عن حرام .

بيان صورته وخلقته صلى الله عليه وسلم

كان من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه لم يكن بالطويل البائِن ولا بالقصير المتردِّد ، بل كان يُنسَب إلى الرَّبْعةِ إذا مشَى وحده . ومع ذلك فلم يكن يُماشيه أحدٌ من الناس يُنسب إلى الطُّول إلاّ طَالَه [1] رسولُ الله صلى الله عليه وسلم .

وأما لونُه فقد كان أزهرَ اللون [2] ولم يكن بالآدم ولا بالشديد البياض .

ونعَتَه بعضُهم بأنه مُشْرَبٌ بحُمْرَة فقالوا : إنما كان المشرب منه بالحُمْرة ما ظَهَر للشمس والرياح ، كالوجه والرقبة . والأزهر الصافى عن الحمرة ما تحتَ الثياب منه .

وأمّا شَعره فقد كانَ رَجِلَ الشَّعَر [3] حسَنهُ ، ليس بالسَّبْط ولا الجَعْد

(١) أى بدا أطول منه .
(٢) الأزهر : الأبيض الناصع ، الذى لا تشوبه صفرة ولا حمرة ولا شىء من الألوان .
(٣) الرجل : الذى بين السبط والجعد .

القطط[1] وكان إذا مَشطه بالمُشط يأتى كأنه حُبك الرمل[2] . وقيل : كان شعره يَضرب مَنْكبه . وأكثر الرواية أنَّه كان إلى شَحمة أُذنيه .

وكان شيبه فى الرأس واللحية سبعَ عشرةَ شعرةً ، ما زاد على ذلك .

وكان صلى الله عليه وسلم أحسنَ الناس وجهاً ، وأنورَهم ، لم يصفْه واصفٌ إلا شبَّهه بالقمر ليلةَ البدر ، وكان يُرى رضاه وغضبُه فى وجهه لصفاء بشرته .

وكان صلى الله عليه وسلم واسع الجبهة ، أزَجّ الحاجبين سابغهما ، وكان أبلجَ ما بين الحاجبين ، كأنَّ ما بينهما الفضة المُخْلَصَة ، وكانت عيناه نَجْلاوَين أدْعَجهما ، وكان فى عينيه تمزُّج من حمرة ، وكان أهدَبَ الأشفار حتَّى تكاد تلتبس من كثرتها . وكان أقْنَى العِرْنين - أى مستوى الأنف - وكان مُفَلَّج الأسنان . وكان إذا افْتَرَّ ضاحكاً افتر عن مثل سَنا البَرقَ إذا تلألأ ، وكان من أحسن عباد الله شَفَتيْن ، وألطفَهم خَتْم فم ، وكان سهلَ الخدين صُلبهَما ، ليس بالطويل الوجه ولا المُكلثَم ، كثُّ اللحية ، وكان يُعْفِى لحيته ويأْخذ من شاربه ، وكان أحسن عباد الله عُنُقاً لا ينسب إلى الطُّول ولا إلى القِصَر ، ما ظَهَر من عنقه للشَّمس والرياح فكأنَّه إبريقُ فضة مشْرَبٌ ذهباً يتلأْلأُ ، فى بياض الفِضَّة وفى حُمرة الذهب ، وكان صلى الله عليه وسلم عريضَ الصدر لا يَعْدُو لحمُ بعضٍ بدنه بعضًا ، كالمرآة فى استوائها ، وكالقمر فى بياضه ، موصولَ ما بين لَبَّته وسُرَّته بشَعَر منقادٍ كالقضيب ، لم يكن فى صدره ولا بطنه شَعَر غيره .

وكان عظيمَ المَنْكِبين أشعَرَهما ، ضخْمَ الكراديس[3] .

(١) القطط ، بالتحريك : القصير الجعد .

(٢) حبك الرمل . طرائقه .

(٣) جمع كردوس ، بالضم ، وهى رءوس العظام .

وكان واسعَ الظَّهر ، ما بين كتفيه خاتَمُ النبوة ، وهو مما يلي منكبه الأيمنَ ، فيه شامةٌ سوداءُ تَضرب إلى الصفرة حولها شَعَرات متواليات كأنها من عُرف فرس ، وكان عَبْلَ العَضُدين والذراعين ، طويلَ الزَّندين رَحبَ الرَّاحتين ، سائلَ الأَطراف ، كأَنَّ أَصابعَه قُضبان الفضة ، كفُّه ألين من الخَزِّ ، كأَنَّ كفَّه كفُّ عطَّارٍ طيباً – مَسَّها بطيب أو لم يمسَّها – يُصافحه المصافِحُ فيظلُّ يومَه يجدُ ريحَها ، ويضع يَده على رأس الصبيّ فيُعرَف من بين الصبيان بريحها على رأسه ، وكان عَبْلَ[1] ما تحت الإزار من الفخذين والساق ، وكان مُعتدلَ الخَلْق فى السِّمنَ ، بَدُنَ فى آخر زمانه وكان لحمه متماسكا يكاد يكون على الخَلْق الأول ، لم يضرَّه السمن .

وأما مشيُه صلى الله عليه وسلم فكان يمشى كأنما يتقلَّع من صخر ويَنحدِر مِن صبَب[2] ، يخطو تكفِّياً[3] ، ويَمشى الهُوَيْنى بغير تبختُر . وكان عليه الصلاة والسلام يقول : أنا أشبهُ النَّاس بآدم – صلى الله عليه وسلم ، وكان أَبي إبراهيم عليه الصلاة والسلام أشبهَ النَّاس بى خَلقاً وخُلقا .

وكان يقول : إنَّ لى عند ربى عشرة أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحُو الله بىَ الكفر ، وأنا العاقبُ الذى ليس بعدهَ أحد ، وأنا الحاشر يَحشُر الله العبادَ على قدمىّ ، وأنا رسولُ الرحمة ، ورسول التوبه ، ورسول الملاحم ، والمقَفِّى قفَّيت الناس جميعًا ، وأنا قُثَم[4] .

---

(١) العبل : الضخم .
(٢) الصبب : الموضع المنحدر .
(٣) التكفى : التمايل إلى قدام .
(٤) القثم : الكامل الجامع .

خَرقَ الله العادةَ على يده غيرَ مرّة ؛ إذْ شُقّ له القمر بمكة لمّا سألته قريش آية ، وأطعم النَّفرَ الكثير فى منزل جابر ، وفى منزل أبى طلحة ، ويوم الخندق . ومرة أطعم ثمانين من أربعة أمداد شعير [1] وعَنَاق [2] ومرّةً أكثر من ثمانين رجلا من أقراص شعير حملها أنسٌ فى يده ، ومرة أهلَ الجيش من تَمْرٍ يسيرٍ ساقته بنت بَشير فى يدها ، فأكلوا كلهم حتّى شبعوا من ذلك وفَضَل لهم . ونبعَ الماءُ من بين أصابعه عليه السلام فَشرب أهلُ العسكر كلُّهم وهم عطاش .

وحَنّ الجذع الذى كان يخطب إليه لمّا عُمِل له المنبر ،حتّى سمع منه جميع أصحابه مثلَ صوتِ الإبل ، فضمّه إليه فسكن .

وأخبر عليه السلام بالغُيوب ، وأنذر عثمان بأن تصيبه بَلْوَى بعدها الجنّة ، وبأنّ عماراً تقتله الفئة الباغية ، وأنّ الحسَن يُصلِح الله به بين فئتين من المسلمين عظيمتين .

وأخبر عليه السلام عن رجلٍ قاتل فى سبيل الله أنّه من أهل النار ، فظهر ذلك بأنّ ذلك الرجل قَتلَ نفسه . وهذه كلُّها أشياءُ إلهيّة لا تُعرَف ألبتّةَ بشىء من وجوهٍ تقدّمت المعرفةُ بها ، لا بنجومٍ ، ولا بكشف ، ولا بخطٍّ ، ولا بزجر ، لكن بإعلام الله تعالى له ووَحْيهِ إليه .

وأتْبعه سراقة بن مالك فساخت قدما فرسه فى الأَرض ، وأتْبعه دخان حتّى استغاثه ، فدعا له فانطلق الفرس ، وأنذره بأن سيوضع فى ذراعيه سِوارَا كِسرَى ، فكان كذلك .

وأخبر بِمَقْتل الأسود العَنْسىّ الكذّابِ ليلة قتلِه ، وهو بصنعاء اليمن ، وأخبر بمن قَتله .

(١) الأمداد : جمع مد بالضم ، وهو ربع صاع . والصاع خمسة أرطال .
(٢) العناق ، بالفتح ، من أولاد المعز : ما أتت عليه سنة .

وخرج على مائة من قريش ينتظرونه ، فوضع التراب على رءوسهم ولم يَروْه .

وأتاه عامرٌ بن الطُّفيل بن مالك وأربدُ بن قيس ، وهما فارسا العرب وفاتكاهم ، عازِمَينِ على قتله عليه السلام فحيلَ بينهما وبين ذلك ، ودعا عليهما فهلك عامر بغُدَّة ، وهلك أربدُ بصاعقة أحرقته .

وأخبرَ عليه السلام يومَ بدرٍ بمصارع صناديدِ قريش[1] ، ووقفَهم على مصارعهم رجلاً رجلا ، فلم يتعدَّ واحد منهم ذلك الموضع .

وأخبر فاطمةَ ابنته رضى عنها بأنَّها أوَّلُ أهلِه لحَاقًا ؛ فكان كذلك. وأخبر نساءه بأنَّ أطولَهنَّ يداً أسرعُهنَّ لحاقاً به ، فكانت زينبُ بنت جحشٍ الأسديَّةُ أطولهُنَّ يداً بالصدقَة أوّلَهن لحُوقًا به ، رضى الله عنها.

ومَسَح ضرع شاةٍ حائلٍ لا لبنَ لها فدَرَّتْ ، وكان ذلك سبب إسلامِ ابنِ مسعود رضى الله عنه . وفعل ذلك مرةً أخرى فى خَيمة أمّ مَعْبد الخزاعية .

ونَدَرَتْ[2] عينُ بعضِ أصحابه فسقطت ، فردَّها عليه السلام بيده، فكانت أصحَّ عينيهِ وأحسنهَما .

وحكى الحكمُ بنُ العاص بن وائل مشيتَه عليه السلام مستهزئًا ، فقال صلى الله عليه وسلم : « كذلكَ فكُنْ » . فلم يزل يرتعشُ حتى ماتَ.

وخطبَ عليه السلام امرأةً فقال له أبوها : إنَّ بها بَرصاً – امتناعاً من خطبته واعتذَاراً – ولم يكن بها برصٌ . فقال عليه السلام : « فلتكن كذلك » . فبرِصَتْ . وهى أمُّ شَبيبٍ بن البرصاء الشاعر .

إلى غير ذلك من آياته ومعجزاته صلى الله عليه وسلم .

---

(١) الصناديد : الأشراف والسادة الشجعان .

(٢) ندرت : خرجت وسقطت .

فهرس الجزء الأول

٥ – كتاب أسرار الزكاة

٦ – كتاب أسرار الصوم

٧ – كتاب أسرار الحج

٢ ـ كتاب آداب النكاح

٣ ـ كتاب آداب الكسب والمعاش

٤ ـ كتاب الحلال والحرام

١٠ – كتاب آداب أخلاق المعيشة وأخلاق النبوة

عبد السلام هارون

تهذيب إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

٤٥٠ — ٥٠٥

الجزء الثاني

الطبعة الثانية

١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع


ربع المهلكات

الكتاب الأول

كتاب شرح عجائب القلب

الحمد لله الذى تتحير دونَ إدراك جلاله القلوبُ والخواطر ، وتَدْهش فى مبادى إشراق أنواره الأَحداقُ والنواظر ، المطَّلع على خفيَّات السرائر ، العالمِ بمكنونات الضمائر ، المستغنى فى تدبير مملكته عن المُشاوَر والمُوَازِر ، مُقلِّب القلوب وغفَّار الذنوب ، وستَّار العيوب ، ومفرِّج الكروب .

والصلاةُ على سيِّد المرسَلين ، وجامع شَمْل الدِّين ، وقاطع دابر الملْحِدين ، وعلى آله الطيِّبين الطاهرين ، وسلَّمَ كثيراً .

أما بعدُ : فشرفُ الإنسان وفضيلته التى فاقَ بها جُملةً من أصناف الخَلْق ، باستعداده لمعرفة الله سبحانه ، التى هى فى الدُّنيا جمالُه وكمالُه وفخرُه ، وفى الآخرة عُدَّتُه وذُخرُه ، وإنَّما استعدَّ للمعرفة بقلبه لا بجارحةٍ من جوارحه ؛ فالقلب هو العالِمُ بالله ، وهو المتقرِّب إلى الله ، وهو العامل لله ، وهو السَّاعى إلى الله ، وهو المكاشِف بما عند الله ولَدَيه ، وإنَّما الجوارحُ أتباعٌ وخَدَم وآلات ، يستخدمها القلبُ ويستعملها استعمال المالك للعبد ، واستخدامَ الراعى للرعيَّة ، والصانعِ للآلة ؛ فالقلب هو المقبول عند الله إذا سَلِم من غير الله ، وهو المحجُوبُ عن الله إذا صار مستغرَقًا بغير الله ، وهو المطالَبُ وهو المخاطَب وهو المعاتب ، وهو الذى يَسْعدُ بالقرب من الله فيُفلِح إذا زكَّاه ، وهو الذى يخيب ويَشْقى إذا

دنّسه ودسّاه [1] . وهو المطيعُ بالحقيقة لله تعالى ، وإنما الذى ينتشر على الجوارح من العبادات أنوارُه ، وهو العاصى المتمرِّد على الله تعالى وإنّما السارى إلى الأَعضاءِ من الفواحش آثارُه ؛ وبإظلامه واستنارته تَظهر محاسنُ الظاهر ومساوِيه ، إذْ كلُّ إناءٍ ينضَحُ بِما فيه . وهو الذى إذا عرفه الإنسان فقد عَرَفَ نفَسه ، وإذا عرف نفسَه فقد عَرَفَ ربَّه . وهو الذى إذا جهله الإِنسانُ فقد جَهِل نفسَه ومن جهل نَفَسَه فقد جهل ربَّه . ومن جهل قلبَه فهوبغيره أَجْهل ، إذْ أكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفُسِهم ،وقد حيلَ بينهم وبين أنفسِهم ، فإنَّ الله يَحُول بين المرءِ وقلبه . وحيلولته بأَن يمنعَه عن مشاهدته ومراقَبته ،ومعرفةِ صفاته وكيفيّة تقلُّبِه بين إصبعين من أَصابع الرحمن ، وأَنَّه كيف يهوِى مرّة إلى أسفل السافلينَ وينخفض إلى أُفق الشياطين ، وكيف يرتفع أُخرى إلى أَعلى عِلِّيِّين ويرتقى إلى عالم الملائكة المقرَّبين . ومن لم يعرفْ قلبَه ليراقبَه ويراعيَه ويترصَّدَ لما يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه ، فهو ممن قال الله تعالى فيه : (نَسُوا اللَّهَ فأَنسَاهم أَنفُسَهم أُولئك هُمُ الفاسِقُونَ) .

فمعرفةُ القلب وحقيقة أَوْصافه أَصلُ الدِّين ، وأَساسُ طريقِ السالكين.

وإذْ فرغْنا من الشطر الأَول من هذا الكتاب من النظر فيما يجرى على الجوارح من العبادات والعادات ــ وهو العلم الظاهر ، ووعَدْنا أن نشرحَ فى الشطر الثانى ما يجرى على القلب من الصِّفات المهلكات والمنجيات ــ وهو العلم الباطن ــ فلا بدّ أَنْ نقدِّم عليه كتابين : كتاباً فى شرح عجائب صفات القلب وأَخلاقِه ، وكتاباً فى كيفية رياضة القلب

---

(١) دساه : أخله وأخس حظه .

وتهذيب أخلاقه . ثم نندفع بعد ذلك فى تفصيل المهلِكات والمنجيات .

فلنذكر الآن من شرح عجائب القلب بطريق ضَرْب الأمثال ما يقرُب من الأفهام ، فإنَّ التصريح بعجائبه وأسراره الداخلة فى جملةِ عالم الملكوت مما يَكِلُّ عن دركه أكثرُ الأفهام .

بيان معنى النفس ، والروح ، والقلب ، والعقل وما هو المراد بهذه الأسامى

اعلم أنَّ هذه الأسماء الأربعة تستعمل فى هذه الأبواب ، ويقلُّ فى فحول العلماء من يُحيط بهذه الأسامى واختلاف معانيها وحدودها ومسميَّاتها ، وأكثر الأغاليط منشَؤُها الجهل بمعنى هذهِ الأسامى واشتراكُها بين مسميَّات مختلفة . ونحن نشرح فى معنى هذه الأسامى ما يتعلَّق بغرضنا :

اللفظ الأول : لفظ القلب ، وهو يطلق لمعنيين : أحدهما اللحم الصَّنوبَرىُّ الشكل ، المودَعُ فى الجانب الأيسر من الصدر ، وهو لحمٌ مخصوص ، وفى باطنه تجويف ، وفى ذلك التجويف دمٌ أسودُ هو منبع الروح ومَعدِنه .

والمعنى الثانى : هو لطيفةٌ ربَّانية رُوحانية ، لها بهذا القلب الجسمانى تعلُّقٌ ، وتلك اللطيفة هى حقيقةُ الإنسان ، وهو المدرِك العالم العارف من الإنسان ، وهو المخاطَب والمعاقَب ، والمعاتَب والمطالَب ، ولها علاقةٌ مع القلب الجسمانى .

اللفظ الثانى : الرُّوح ، وهو أيضاً يُطلق فيما يتعلَّق بجنس غرضنا لمعنيين : أحدهما جسمٌ لطيف منبعه تجويف القلب الجُسمانى ، فيُنشَر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن ، وجرَيانُهُ فى البدن ،

وفَيضَان أنوار الحياة والحسّ والبصر والسَّمع والشم منها على أعضائها ، يُضَاهى[1] فيضانَ النور من السِّراج الذى يُدار فى زوايا البيت ، فإنّه لا ينتهى إلى جزء من البيت إلاَّ ويستنير به . والحياة مثالُها النُّور الحاصل فى الحيطان ، والرُّوح مثالها السِّراج . وسَرَيانُ الرُّوح وحركته فى الباطن مثال حركة السراج فى جوانب البيت بتحريك محرِّكه .

والأطبَّاءُ إذا أطلقوا لفظ الرُّوح أرادوا به هذا المعنى : وهو بخار لطيف أنضجته حرارةُ القلب .

اللفظ الثالث : النَّفْس ، وهو أيضاً مشترك بين معانٍ ، ويتعلَّق بغرضنا منه معنيان : أحدُهما أنَّه يراد به المعنى الجامعُ لقوَّة الغضب والشهوة فى الإنسان ، وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوُّف .

المعنى الثانى : هى اللطيفةُ التى ذكرناها ، التى هى الإنسان بالحقيقة ، وهى نفس الإنسانِ وذاته .

اللفظ الرابع : العقل ، وهو أيضاً مشترك لمعانٍ مختلفة ذكرناها فى كتاب العلم ، والمتعلِّق بغرضنا من جملتها معنيان : أحدهما أنَّه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأُمور ، فيكون عبارةً عن صفة العلم الذى محلُّه القلب .

والثانى : أنَّه قد يُطلَق ويراد به المدرِك للعلوم ، فيكون هو القلب ، أعنى تلك اللطيفة .

---

(١) يضاهى : يشابه .

بيان مجامع أوصاف القلب وأمثلته

اعلم أنَّ الإنسانَ قد اصطحب فى خلقته وتركيبه أربعَ شوائب ؛ فلذلك اجتمع عليه أربعة أنواع من الأوصاف ، وهى : الصفات السبُعية ، والبهيمية ، والشيطانية ، والرَّبَّانية .

فهو من حيث سُلِّط عليه الغضب يتعاطى أفعالَ السباع من العداوة والبغضاء ، والتهجُّم على الناس بالضَّرب والشتم . ومن حيث سُلِّطت عليه الشهوةُ يتعاطى أفعال البهائم من الشَّره والحِرص والشَّبَقِ وغيره .

ومن حيث إنَّه فى نفسه أمرٌ ربَّانىٌّ كما قال الله تعالى : (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أمرِ ربِّى) فإنَّه يدّعى لنفسه الرُّبوبيّة ، ويحبُّ الاستيلاء والاستعلاء ، والتخصُّص ، والاستبدادَ بالأُمور كلِّها ، والتفرُّد بالرياسة ، والانسلال عن رِبقة العبودية[1] والتَّواضع ، ويشتهى الاطِّلاعَ على العلوم كلِّها ؛ بل يدَّعى لنفسه العلم والمعرفة ، والإحاطة بحقائق الأُمور ، ويفرح إذا نُسِب إلى العلم ، ويَحْزن إذا نُسب إلى الجهل . والإحاطة بجميع الحقائق والاستيلاء بالقَهْر على جميع الخلائق من أوصاف الرُّبوبية ، وفى الإنسان حرصٌ على ذلك .

ومن حيث يختصُّ من البهائم بالتمييز مع مشاركته لها فى الغَضب والشَّهوة ، حصلَتْ فيه شيطانية فصار شرِّيراً يستعمل التمييز فى استنباط وجوه الشَّرّ ، ويتوصَّل إلى الأَغراض بالمكر والحيلة والخداع ، ويُظهر الشرَّ فى معرض الخير ، وهذه أخلاق الشياطين .

وكلُّ إنسانٍ فيه شَوب من هذه الأُصول الأَربعة ــ أعنى الربانية

(١) المراد أسر العبودية . وأصل الربقة عروة فى حبل تشد بها البهيمة .

والشيطانية ، والسَّبُعية ، والبهيمية ــ وكل ذلك مجموعٌ فى القلب . فكأنَّ المجموع فى إهاب الإنسان : خنزير ، وكلب ، وشيطان ، وحكيم .

فالخِنزير هو الشهوة ، فإنَّه لم يكن الخنزير مذموماً للونه وشكله وصُورته ، بل لجشَعه وكَلَبه وحِرصه .

والكَلْب هو الغضب ، فإنَّ السبعَ الضارىَ والكلبَ العقور ليس كلباً وسبعاً باعتبار الصُّورة واللَّون والشكل ، بل روحُ معنى السَّبُعيَّة الضَّراوة والعُدْوان والعَقْر ، وفى باطن الإنسان ضراوةُ السبع وغضبُه ، وحِرصُ الخنزير وشَبَقُه . فالخنزير يدعو بالشَّره إلى الفحشاء والمنكر ، والسبع يدعو بالغضب إلى الظُّلم والإيذاء .

والشيطان لا يزال يهيِّج شهوة الخنزير وغيظ السبع ، ويُغرِى أحدَهما بالآخَر ، ويُحَسِّنُ لهما ما هما مجبولان عليه .

والحكيم ، الذى هو مثال العقل ، مأمورٌ بأنْ يدفع كيدَ الشيطان ومكرَه ، بأن يكشف عن تلبيسه ببصيرته النافذة ونورِه المشرق الواضح، وأن يكسر شَرَهَ هذا الخنزير بتسليط الكلب عليه، إذْ بالغضب يكسر سَوْرة الشهوة[1] ، ويدفع ضراوَة الكلب بتسليط الخنزير عليه ، ويجعل الكلب مقهوراً تحتَ سياسته . فإنْ فعل ذلك وقَدَر عليه اعتدلَ الأَمر ، وظهر العدل فى مملكة البدَن ، وجرى الكلُّ على الصراط المستقيم . وإن عَجَز عن قهرها قهَروه واستخدموه ، فــلا يزال فى استنباط الحِيَلِ وتدقيق الفِكر ، ليشبع الخنزير ، ويرضى الكلب ، فيكون دائماً فى عبادةِ كلب وخنزير .

---

(١) السورة ، بفتح السين : الحدة والشدة .

بيان الفرق بين الإلهام والتعلم
والفرق بين طريق الصوفية في استكشاف الحق
وطريق النظر

اعلم أنَّ العلوم التى ليست ضرورية – وإنما تحصُل فى القلب فى بعض الأحوال – تختلف الحالُ فى حصولها ، فتارةً تهجُم على القلب كأنه أُلقِيَ فيه من حيثُ لا يدرى ، وتارةً تُكتَسب بطريق الاستدلال والتعلُّم . فالذى يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدّليل يسمَّى إلهاماً ، والذى يحصل بالاستدلال يسمَّى اعتباراً واستبصاراً .

ثم الواقع فى القلب بغير حيلةٍ وتعلُّمٍ واجتهادٍ من العبد ينقسم إلى ما لا يَدرى العبد أنَّه كيف حصل له ، ومن أين حصل ؟ وإلى ما يطَّلع معه على السَّبب الذى منه استفادَ ذلك العلم ، وهو مشاهدةُ المَلَكَ المُلْقَى فى القلب . والأول : يسمَّى إلهاماً ونفْثاً فى الرُّوع[1] ، والثانى : يسمى وحياً وتختصُّ به الأنبياءُ . والأول يختصُّ به الأولياءُ والأصفياءُ . والذى قبله – وهو المكتسب بطريق الاستدلال – يختصّ به العلماءُ .

وحقيقة القول فيه أنَّ القلب مستعِدٌّ لأن تنجلىَ فيه حقيقةُ الحق فى الأشياء كلِّها ، وإنما حيلَ بينه وبينها بالأسباب . فهى كالحجاب المُسدَل الحائل بين مرآة القلب وبين اللَّوح المحفوظ ، الذى هو منقوش بجميع ما قضىَ الله به إلى يوم القيامة . وتجلِّى حقائقِ العلوم من مرآة اللَّوح فى مرآة القلب يُضاهى انطباعَ صورةٍ من مِرآةٍ فى مرآةٍ تقابلها ،

---

(١) الروع ، بالضم : القلب . والنفث : شبيه بالنفخ .

والحجاب بين المرآتين تارةً يُزال باليد وأُخرى يزول بهبُوب الرياح تحرِّكه . وكذلك قد تهبُّ رياحُ الألطاف وتنكشف الحُجب عن أعين القلوب ، فينجلى فيها بعضُ ما هو مسطورٌ فى اللوح المحفوظ ، ويكون ذلك تارةً عند المنام فيعلم به ما يكون فى المستقبل . وتمامُ ارتفاع الحجابِ بالموت ، فبه ينكشف الغِطاء . وينكشف أيضاً فى اليقظة حتى يرتفعَ الحجابُ بلُطفٍ خفىٍّ من الله تعالى ، فيلمع فى القلوب من وراء سُتر الغيب شىءٌ من غرائب العلم تارةً كالبرق الخاطف ، وأُخرى على التّوالى إلى حدٍّ ما . ودوامُه فى غاية النُّدور ؛ فلم يفارق الإلهام الاكتسابَ فى نفس العلم ولا فى محلّه ولا فى سببه ، ولكنْ يفارقه من جهة زوالِ الحجاب ، فإنّ ذلك ليس باختيار العبد . ولم يفارق الوحىُ الإلهامَ فى شىءٍ من ذلك ، بل فى مشاهدة المَلَكِ المفيد للعلم ، فإن العلم إنما يحصُل فى قلوبنا بواسطة الملائكة ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : (وما كانَ لبَشَرٍ أن يُكلِّمَهُ الله إلاّ وَحْياً أو مِنْ وراء حجابٍ أو يُرْسِلَ رسولا فيُوحِىَ بإذنِهِ ما يشاءُ) .

فإذا عرفتَ هذا فاعلمْ أنَّ ميلَ أهل التصوُّف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية. فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنَّفه المصنفون، والبحث عن الأقاويل والأدلّة المذكورة ، بل قالوا : الطريق تقديم المجاهدة ، ومَحْوُ الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلِّها ، والإقبال بكُنْهِ الهمّة[1] على الله تعـالى ، ومهما حصل ذلك كان الله هو المَتولِّىَ لقلب عبده ، والمتكفِّل له بتنويره بأنوار العلم ، وإذا تولّى الله أمرَ القلب

---

(١) كنه الشيء : حقيقته .

فاضت عليه الرَّحمة وأشرق النُّور فى القلب ، وانشرح الصدر وانكشف له سرُّ الملكوت ، وانقشَعَ عن وجه القلب حِجابُ الغرّة بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأُمور الإلهية ، فليس على العبد إلاَّ الاستعداد بالتصفية المجرَّدة ، وإحضار الهمَّة مع الإرادة الصادقة ، والتعطُّش التام ، والترصُّد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرَّحمة .

والأنبياءُ والأولياءُ انكشفَ لهم الأَمْرُ ، وفاض على صدورهم النور ، لا بالتعلُّم والدِّراسة والكتابة للكتُب ، بل بالزهد فى الدنيا والتبرِّى من علائقها ، وتفريغ القلبِ من شواغلها ، والإقبال بكُنهِ الهمْة على الله تعالى . فمن كان لله كان الله له .

وزعمُوا أنَّ الطريق فى ذلك أوّلا بانقطاع علائقِ الدنيا بالكُلِّيَّة ، وتفريغ القلب منها ، وبقطْع الهِمّة عن الأَهل والمال ، والولدِ والوطن ، وعن العلمِ والوِلاية والجاه ، بل يصير قلبُه إلى حالةٍ يستوى فيها وجود كلِّ شيءٍ وعدَمُه ، ثم يخلو بنفسه فى زاويةٍ مع الاقتصار على الفرائض والرواتب ، ويَجلس فارغَ القلب مجموعَ الهمّ ، ولا يفرِّقُ فكرَه بقراءة قرآن ، ولا بالتأمل فى تفسير ، ولا بكتبِ حديث ولا غيره ، بل يجتهد أن لا يخطُرَ بباله شيءٌ سوى الله تعالى ، فلا يزال بعدَ جلوسه فى الخلوة قائلاً بلسانه : الله الله ! على الدوام ، مع حضور القلب حتّى ينتهى إلى حالة يترك تحريك اللسان ، ويرى كأنَّ الكلمة جاريةٌ على لسانه ، ثم يصير عليه إلى أن يمحى أثره عن اللسان ويصادف قلبه مواظباً على الذكر ، ثم يواظب عليه إلى أن يُمْحَى عن القلب صورةُ اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ، ويبقى معنى الكلمة مجرَّداً فى قلبه حاضراً فيه ، كأنه لازم له لا يُفارقه . وله اختيار إلى أن ينتهى إلى هذا الحدِّ ، واختيارٌ فى استدامة

هذه الحالة بدَفْع الوسواس . وليس له اختيار فى استجلاب رحمة الله تعالى ، بل هو بما فعله صار متعرِّضاً لنفحات رحمة الله ، فلا يبقى إلاَّ الانتظارُ لما يفتح الله من الرَّحمة كما فتحها على الأَنبياء والأَولياء بهذه الطريق ، وعند ذلك صَدقتْ إرادتهُ وصفَتْ همتُه ، وحسُنت مواظبتهُ فلم تجاذبه شهواته ، ولم يَشغله حديثُ النفس بعلائق الدنيا ، تلمع لوامعُ الحق فى قلبه ويكون فى ابتدائه كالبرق الخاطف لا يثبت ، ثم يعود وقد يتأَخَّر ، وإن عاد فقد يثبت وقد يكون مُختطِفاً ، وإن ثبت فقد يطول ثباته . وقد لا يطول ، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق وقد يقتصر على فنٍّ واحد . ومنازل أولياء الله تعالى فيه لا تحصر كما لا يحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم وقد رجع هذا الطريق إلى تطهيرٍ محضٍ من جانبك وتصفيةٍ وجِلاءٍ ، ثم استعدادٍ وانتظارٍ فقط .

وأما النُّظَّار وذوو الاعتبار ، فلم يُنكروا وجودَ هذا الطريق وإمكانَه وإفضاءه إلى هذا المقصد على النُّدور ، فإنه أَكْثَر أحوال الأَنبياء والأَولياء ولكن استوعَروا هذا الطريقَ واستبطَئُوا ثمرته ، واستبعدوا استجماعَ شروطه ، وزعموا أنَّ محوَ العلائق إلى ذلك الحدِّ كالمتعذِّر ، وإن حصل فى حالٍ فثباتهُ أَبعدُ منه ، إذْ أدنى وسواسٍ وخاطرٍ يشوِّش القلب . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قلبُ المؤمن أشدُّ تقلباً من القِدْر فى غليانها » . وقال عليه أفضل الصلاة والسلام : « قلبُ المؤمِن بين إصبعين من أصابع الرحمن » .

وفى أثناء هذه المجاهدة يفسُد المزاج ويختلط العقل ويمرَض البدن ، وإذا لم تتقدَّم رياضةُ النفس وتهذيبُها بحقائق العلوم نَشِبت بالقلب خيالاتٌ فاسدة تطمئن النفس إليها مدةً طويلة ، إلى أنْ يزولَ وينقضىَ

العمر قبل النجاح فيها ، فكم من صوفيٍّ سلك هذا الطريق ثم بقيَ في خيال واحد عشرين سنة ، ولو كان قد أتقن العلمَ من قبْلُ لانْفتح له وجهُ الْتباسِ ذلك الخيالِ في الحال . فالاشتغال بطريق التعلُّم أوثق وأقربُ إلى الغَرض .

وزعموا أنَّ ذلك يُضاهِي ما لو ترك الإنسان تعلُّم الفقه ، وزعم أن النَّبي صلى الله عليه وسلم لم يتعلَّمْ ذلك وصار فقيهًا بالوحي والإلهام ، من غير تكريرٍ وتعليق . وأنا أيضاً ربما انتهت بي الرِّياضة والمواظبة إليه . ومن ظنَّ ذلك فقد ظلم نفسَه وضيَّع عمره ، بل هو كمن يتركُ طريقَ الكَسْب والحِراثة رَجاءَ العثورِ على كنزٍ من الكنوز ، فإنَّ ذلك ممكنٌ ولكنَّه بعيد جداً ، فكذلك هذا .

وقالوا : لابد أوّلاً من تحصيل ما حصّله العلماءُ ، وفَهْمِ ما قالوه ، ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظارِ لما لم ينكشف لسائرِ العلماءِ ، فعسَاهُ ينكشفُ بعد ذلك بالمجاهدة .

بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف
في اكتساب المعرفة
لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد

أما الشواهد : فقوله تعالى : (والذين جَاهَدُوا فينا لنَهدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا). فكلُّ حكمةٍ تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلُّم فهو بطريق الكشف والإلهام . وقال صلى الله عليه وسلم : « من عمل بما علم وَرَّثهُ الله عِلمَ ما لم يعلم ، ووفّقَه فيما يعمَلُ حتَّى يستوجبَ الجنَّة ، ومن لم يعملْ بما يعلمُ تاه فيما يعلمُ ، ولم يُوفَّقْ فيما يَعمل ، حتَّى يستوجب النار » . وقال

الله تعالى : (ومن يتّقِ الله يَجعل له مَخْرَجاً) من الإشكالات والشُّبَه ، (وَيْرزُقْه من حيثُ لا يَحْتَسِبُ) : يُعلِّمه عِلماً من غير تعلُّم ، ويُفطِّنه من غير تجربة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فِراسةَ المؤمن فإنّه ينظرُ بنور الله تعالى » . وإليه يشير قوله تعالى : (إنَّ فى ذلك لآياتٍ للمُتوسِّمين) وقوله تعالى : (قَدْ بَيَّنَّا الآياتِ لِقومٍ يُوقِنُون) .

وروى الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال : « العلم علمانِ : فعلم باطن فى القلب ، فذلك هو العلم النافع » .

والقرآن مُصَرِّح بأنَّ التقوى مِفتاح الهداية والكَشْف ، وذلك علمٌ من غير تعلُّم . وقال الله تعالى : (وما خَلَقَ الله فى السَّموات والأَرض لآياتٍ لقومٍ يتّقون) خصَّصها بهم . وقال تعالى : (هذا بيانٌ للنَّاسِ وهُدًى وموعظةٌ للمُتّقين) .

وأما مشاهدة ذلك بالتجارب فذلك أيضاً خارجٌ عن الحصر ، وظهر ذلك على الصَّحابة والتابعين ومَنْ بعدهم . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لعائشة رضى الله عنها عند موته : « إنما هما أخواكِ وأُختاكِ » وكانت زوجتُه حاملاً فولدت بنتاً ، فكان قد عرف قبل الولادة أنَّها بنت . وقال عمر رضى الله عنه فى أثناء خطبته : يا ساريةُ[1] الجبلَ

---

(١) سارية بن زنيم : صحابى جليل من المخضرمين ، وكان عمر قد أمره على جيش وسيره إلى فارس ، ثم وقع فى قلبه وهو يخطب يوم الجمعة أن الجيش المذكور لاقى العدو وهم فى بطن واد وقد هموا بالهزيمة ، وبالقرب منهم جبل فقال فى أثناء خطبته : ياسارية الجبل الجبل ، ورفع بها صوته ، فألقاه الله فى سمع سارية فانحاز بالناس إلى الجبل ، وقاتلوا العدو من جانب واحد ، ففتح الله عليهم . عن الإصابة لابن حجر .

الجبلَ ! إذ انكشف له أنَّ العدوَّ قد أشرف عليه ، فحذَّره لمعرفته ذلك . ثم بلوغُ صوتهِ إليه من جملة الكرامات العظيمة .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : دخلتُ على عثمان رضى الله عنه وكنت قد لقيت امرأةً فى طريقى فنظرت إليها شَزْرا[1] وتأمَّلت محاسنَها ، فقال عثمان رضى الله عنه لمَّا دخلت : يدخل علىَّ أحَدُكم وأثرُ الزنى ظاهرٌ على عينيه ! أما علمت أن زنى العينين النَّظَر ؟ لَتَتُوبَنَّ أو لأعزِّرَنَّك ! فقلت : أوَحْىٌ بعد النبى ؟ فقال : لا ، ولكن بصيرةٌ وبرهانٌ وفِراسةٌ صادقة .

بيان تسلط الشيطان على القلب بالوساوس ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها

لأنوار القلبِ وظُلمته سببان مختلفان : فسببُ الخاطر الداعى إلى الخير يسمَّى مَلَكاً ، وسبب الخاطر الداعى إلى الشرِّ يسمَّى شيطاناً ، واللُّطف الذى يتهيَّأُ به القلب لقبول إلهام الخير يسمَّى توفيقاً ، والذى به يتهيأُ لقبول وسواس الشيطان يسمَّى إغواءً وخذلانا .

والـمَلَكُ عبارةٌ عن خلقٍ خلقَهُ الله تعالى ، شأْنُه إفاضةُ الخير وإفادةُ العلمِ ، وكشفُ الحقِّ ، والوعدُ بالخير ، والأمرُ بالمعروف ، وقد خَلَقه وسخَّره لذلك .

والشيطان عبارةٌ عن خَلْق شأنه ضِدُّ ذلك ، وهو الوعد بالشر ، والأمرُ بالفحشاء ، والتخويف عند الهمِّ بالخير بالفقر . فالوسوسةُ فى مقابلة الإلهام ، والشيطان فى مقابلة المَلَك ، والتوفيق فى مُقابلة الخِذلان .

---

(١) شزراً ، أى عن جانب .

والقلب بأصل الفطرة صالحٌ لقَبول آثار المَلَك ولقَبول آثارالشيطان صلاحاً متساوياً ، وليس يترجَّح أحدُهما على الآخر ، وإنّما يترجح أحدُ الجانبين باتباع الهوى والإكبابِ على الشهوات ، أو الإعراض عنها ومخالفتها . فإن اتّبع الإنسانُ مقتضى الغضَب والشهوة ظهر تسلُّط الشيطان بواسطة الهوى ، وصار القلب عُشّ الشيطان ومعدِنَه ؛ لأنَّ الهوى هو مَرْعَى الشيطان ومَرتعُه . وإن جاهدَ الشهوات ولم يسلِّطها على نفسه ، وتشبَّهَ بأخلاق الملائكة عليهم السلام ، صار قلبه مستقَرَّ الملائكة ومَهبِطَهم .

ومهما غلب على القلب ذكرُ الدنيا بمقتضَيات الهوى وجَدَ الشيطانُ مجالاً فوسْوس . ومهما انصرف القلبُ إلى ذكر الله تعالى ارتحَلَ الشيطان وضاق مجاله ، وأقبل المَلَكُ وألْهَمَ . والتطارد بين جُنْدَى الملائكة والشّياطين فى معركة القلب دائم، إلى أن ينفتح القلب لأحدهما فيستوطن ويستمكن .

ولا يمحو وسْوسة الشيطان من القلب إلا ذِكرُ ما سِوى ما يُوَسْوِس به ؛ لأنّه إذا خطر فى القلب ذكرُ شيء انعدم منه ما كان فيه مِن قبل .

فقد اتّضح بهذا النوع من الاستبصار معنى الوسْوسة والإلهام ، والمَلَك والشيطان ، والتوفيق والخذلان .

فبعدَ هذا نظرُ من ينظر فى ذات الشيطان أنّه جسم لطيفٌ أو ليس بجسم . وإن كان جسماً فكيف يدخل بدنَ الإنسانِ ما هو جسم ؟ فهذا الآن غيرُ محتاج إليه فى علم المعاملة ، بل مثالُ الباحث عن هذا مثال مَنْ دخلت فى ثيابه حيَّة وهو محتاجٌ إلى إزالتها ودَفْع ضررها ، فاشتغل بالبحث عن لونها وشكلها وطولها وعرضها . وذلك عَينُ الجهل .

فينبغى للعبد أن يشتغلَ بدفع العدوِّ عن نفسِه لا بالسؤال عن أصله ونسبه ومسكنه . نعم ينبغى أن يسأل عن سلاحه ليدفعه عن نفسه ، وسلاح الشيطان الهوى والشهوات ، وذلك كافٍ للعالمين . فأمّا معرفة ذاته وصفاته وحقيقته – نعوذ بالله منه – وحقيقةِ الملائكة ، فذلك ميدانُ العارفين المتغلغلين فى علوم المكاشفَات ؛ فلا يُحْتاج فى علم المعاملة إلى معرفته .

بيان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب

اعلم أنَّ مثالَ القلب مثال حِصن ، والشيطان عدوٌّ يريد أن يدخل الحصن فيملكَه ويستولىَ عليه ، ولا يُقدَرُ على حفظ الحصن من العدوِّ إلاَّ بحراسةِ أبواب الحِصن ومداخله ومواضع ثُلَمه[1] .

فمن أبوابه العظيمة : الغضبُ والشَّهوة ، فإنَّ الغضب هو غُولُ العقل ، وإذا ضعُف جند العقل هجمَ جندُ الشيطان . ومهما غضِب الإنسان لعب الشَّيطان به كما يلعب الصبىُّ بالكرة .

ومن أبوابه العظيمة : الحسَدوالحرص ، فمهما كان العبد حريصاً على كلِّ شىء أعماه حِرصُه وأصَمَّه ، إذْ قال صلى الله عليه وسلم : « حُبُّك للشىء يُعمِى ويُصِمّ » .

ومن أبوابه : حُبُّ التزين من الأثاث والثياب والدار ، فإنَّ الشيطان إذا رأى ذلك غالباً على قلب الإنسان باضَ فيه وفَرَّخ ؛ فلا يزال يدعوه إلى عِمارة الدار ، وتزيين سُقوفها وحيطانها ، وتوسيع أبنيتها ، ويدعوه إلى التزيُّن بالثياب والدَّوابّ ، ويستسخره فيها طولَ عمره .

---

(١) جمع ثلمة : وهى فرجة الشىء المكسور .

ومن أبوابه العظيمة : الطَّمَع فى الناس : لأنه إذا غلَب الطمع على القلب لم يزل الشيطانُ يحبِّبُ إليه التصنُّع والتزيُّن لمن طمع فيه بأنواعِ الرياءِ والتلبيس، حتى يصيرَ المطموعُ فيه كأنه معبودُه ، فلا يزال يتفكَّرُ فى حِيلة التودُّدِ والتحبب إليه .

ومن أبوابه العظيمة : العجَلة وترك التثبُّت فى الأُمور . وقال صلى الله عليه وسلم : « العَجَلة من الشيطان ، والتأَنِّى من الله تعالى » .

ومن أبوابه العظيمة : الدراهِمُ والدَّنانير وسائرُ أصنافِ الأَموال من العُروض والدوابّ والعَقار ؛ فإنَّ كلَّ ما يزيد على قدر القوت والحاجة فهو مستقَرُّ الشيطان ، فإنَّ مَن معه قوتُه فهو فارغُ القلب ، فلو وَجَد مائة دينارٍ مثلا على طريقٍ انْبَعَث من قلبه عَشْر شهوات ، تحتاج كل شهوة منها إلى مائة دينار أُخرى ، فلا يكفيه ما وَجَد بل يحتاج إلى تِسعِمائةٍ أُخرى ، وقد كان قبل وجودِ المائة مستغنياً ، فالآن لمَّا وجد مائة ظنَّ أنه صار بها غنيًّا وقد صار محتاجاً إلى تسعمائة ليشترى داراً يعمرها ، وليشترىَ جارية ، وليشترى أثاثَ البيت ويشترىَ الثياب الفاخرة . وكلُّ شىءٍ من ذلك يستدعى شيئاً آخر يليق به . وذلك لا آخر له .

ومن أبوابه العظيمة : البخلُ وخوف الفقر ؛ فإنَّ ذلك هو الذى يمنع من الإنفاق والتصدُّق ، ويدعو إلى الادِّخار والكنْز والعذاب الأَليم ، وهو الموعود للمكاثرين ، كما نطق به القرآن العزيز .

ومن آفات البخل الحِرصُ على ملازَمة الأَسواق لجمع المال . والأَسواقُ هى مُعشَّش الشَّياطين .

ومن أبوابه العظيمة التوصُّل : التعصُّبُ للمذاهب والأَهواء ، والحقدُ على الخصوم ، والنظر إليهم بعين الازدراء والاستحقار ؛ وذلك مما يُهلك

العُبَّادَ والفُسَّاقَ جميعاً ، فإنَّ الطعن فى الناس والاشتغالَ بذكر نقصهم صفةٌ مجبولة فى الطَّبع من الصفات السَّبُعية .

ومن أبوابه : حملُ العوامِّ الذين لم يمارسوا العلم ولم يتبحَّروا فيه على التفكُّر فى ذات الله تعالى وصفاته ، وفى أمورٍ لا يبلغها حدُّ عقولهم حتى يشكِّكهم فى أصل الدين .

ومن أبوابه : سوءُ الظَّنِّ بالمسلمين ، قال الله تعالى : (يـأيُّها الذين آمنوا اجْتَنِبُوا كثيراً من الظنّ إنَّ بعضَ الظَّنِّ إثم) . فمن يحْكُم بشَرٍّ على غيره بالظَّنِّ بعثَه الشيطان على أنْ يطوِّل فيه اللسان بالغِيبة فيَهلِك ، أو يقصِّرَ فى القيام بحقوقه ، أو يتوانى فى إكرامه ، وينظر إليه بعين الاحتقار ، ويرى نفسه خيراً منه . وكلُّ ذلك من المهلكات .

بيان سرعة تقلب القلب

وانقسام القلوب في التغير والثبات

اعلمْ أنَّ القلب كما ذكرناه تكتنفه الصفاتُ التى ذكرناها ، وتنصبُّ إليه الآثار والأحوال من الأبواب التى وصفناها ؛ فكأنَّه هدفٌ يُصاب على الدَّوام من كلِّ جانب ، فإذا أصابه شئٌ يتـأثر به أصابه من جانبٍ آخر ما يُضادُّه فتتغيَّر صفته . فإنْ نزل به الشيطان فدعاه إلى الهوى نزل به المَلك وصَرفه عنه ، وإن جذبه شيطانٌ إلى شَرٍّ جذبه شيطانٌ آخر إلى غيره ، وإن جذَبه ملكٌ إلى خير جذبه آخر إلى غيره . فتارة يكون متنازَعًا بين ملَكين ، وتارة بين شيطانين ، وتارة بين ملَك وشيطان .

والقلوب فى الثَّبات على الخير والشر والتردد بينهما ، ثلاثة :

قلبٌ عُمِرَ بالتقوى وزكا بالرياضة ، وطهُر عن خبائِثِ الأخلاق ،

تنقدح فيه خواطرُ الخير من خزائن الغيب ومَداخل المَلَكوت ، فينصرف العقلُ إلى التفكُّر فيما خطَرَ له ليعرفَ دقائق الخيْرِ فيه ، ويطَّلع على أسرار فوائِده ، فينكشف له بنور البصيرة وجهُه ، فيحكُم بأنَّه لابدَّ من فعله ، فيستحثُّه عليه ويدعوه إلى العمل به .

القلب الثانى : القلب المخذول المشحون بالهوى ، المدنَّس بالأخلاق المذمومة والخبائث ، المفتوحُ فيه أبوابُ الشياطين ، المسدودُ عنه أبواب الملائكة . ومبدأُ الشرِّ فيه أن ينقدح فيه خاطرٌ من الهوى ويَهجِس فيه ، فينظر القلبُ إلى حاكم العقل ليستفتيَه منه ويستكشفَ وجْهَ الصّوابِ فيه ، فيكون العقل قد أَلِفَ خدمة الهوى وأَنِسَ به ، واستمرَّ على استنباط الحِيل له ، وعلى مساعدةِ الهوى ، فتستولى النفسُ وتساعد عليه ، فينشرح الصَّدرُ بالهوى وتنبسط فيه ظُلُماتُه ، لانحباس جُنْد العقل عن مدافعته ، فيقوى سلطانُ الشيطان ، لاتِّساع مكانه بسبب انتشار الهوى ، فيُقبل عليه بالتزيين والغُرور والأمانىّ .

القلب الثالث : قلبٌ تبدو فيه خواطر الهوى فتدعُوه إلى الشرّ ، فيَلحقُه خاطر الإيمان فيدعُوه إلى الخير ، فتنبعث النَّفسُ بشهوتها إلى نُصرةِ خاطرِ الشَّرِّ ، فتقوى الشَّهوة وتحسِّن التَّمتُّع والتنعُّم ، فينْبعثُ العقل إلى خاطر الخير ويَدفعُ فى وجه الشهوة ويقبِّح فعلَها وينسُبها إلى الجهل ، ويشبِّهها بالبهيمة والسَّبُع فى تهجُّمها على الشرِّ ، وقلة اكتراثها بالعواقب ، فتميل النَّفسُ إلى نُصح العقل ، فيحمل الشيطان حَملةً على العقل فيقوِّى داعىَ الهوى ويقول : ما هذا التحرُّج البارد ؟ ولِمَ تمتنعُ عن هواك فتؤذىَ نفسَك ؟ وهل ترى أحداً من أهل عصرك يخالف هواه أو يترك غَرَضَه ؟ أفتترك لهم مَلاذَّ الدنيا يتمتَّعون بها وتحجُرَ على نفسك حتّى تبقى

محروماً شقيًّا منْغُوبًا ، يضحكُ عليكَ أهلُ الزمان ؟ أفتُريد أن يزيد مَنْصبُك[1] على فلان وفلان وقد فعلُوا مثل ما اشتهيت ولم يمتنعوا ؟

فيحمل المَلك حَمْلَةً على الشيطان ويقول : هل ذلك إلاَّ من اتَّبع لذَّةَ الحال ونسيَ العاقبة ؟ أفتقنع بلذَّةٍ يسيرة وتتركَ لذَّة الجنة ونعيمها أبدَ الآباد ؟ أم تستثقل ألم الصَّبر عن شهوتك ولا تستثقل ألم النار ؟

فعند ذلك تمتثل النفسُ إلى قول الملَك ، فلا يزال يتردَّد بين الجندين مُتجاذَباً بين الحِزبين ، إلى أن يغْلِبَ على القلب ما هو أولَى به .

(١) المراد بالمنصب القدر والمنزلة ، والمعنى الأول للمنصب هو الأصل ، كالنصاب .

الكتاب الثاني

كتاب رياضة النفس
وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب

بيانُ فضيلةِ حُسْن الخُلُق ومذمةِ سوءِ الخُلُق

قال الله تعالى لنبيه وحَبيبِه مثنياً عليه ، ومُظْهِراً نعمتَه لديه : (وإنَّك لَعَلَى خُلُقٍ عَظيمٍ) .

وقالت عائشة رضى الله عنها : « كان رسول لله صلى الله عليه وسلم خُلُقُه القرآن » .

وسأَل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حُسْن الخُلقُ ، فتلا قوله تعالى : ((خُذِ العَفوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأعْرِضْ عَن الجاهلين[1]) ، ثم قال صلى الله عليه وسلم :« هو أن تَصِلَ مَن قطعَك ، وتُعطِىَ مَن حَرمَك، وتَعفُوَ عمَّن ظلمك » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إنّما بُعثت لأُتَمِّمَ مكارمَ الأَخلاق » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أثقلُ ما يُوضع فى الميزان يومَ القيامة تقوى الله وحُسنُ الخلق » .

---

(١) الآية ١٩٩ من سورة الأعراف . والعفو : أى مالا يشق عليهم، أو معناه التزام العفو . والعرف : المعروف والجميل من الأفعال والأقوال .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ أحبَّكم إلىّ وأقربَكم منِّى مجلساً يومَ القيامة أحاسِنكُم أخلاقاً » .

الآثار : قال ابن لُقمانَ الحكيم لأبيه : ياأبتِ ، أىُّ الخصال من الإنسان خير ؟ قال : الدِّين . قال : فإذًا كانت اثنتين[1] قال : الدين، والمال . قال : فإذا كانت ثلاثا ؟ قال : الدين والمال والحياءُ . قال : فإذا كانت أربعاً ؟ قال : الدين ، والمال ، والحياءُ ، وحسن الخلق . قال : فإذا كانت خمساً ؟ قال : الدين ، والمال ، والحياءُ ، وحسن الخلق ، والسخاءُ . قال : فإذا كانت ستًّا ؟ قال : يابنىَّ ، إذا اجتمعت فيه الخمسُ خصالٍ فهو تقىٌّ نقىٌّ ، ولله ولىّ ، ومن الشيطان بَرِىّ .

وصحِب ابنُ المبارك رجلا سيِّئَ الخُلقِ فى سفره . فكان يحتمل منه ويُداريه . فلمَّا فارقه بكى ، فقيل له فى ذلك فقال : بكيته رحمةً له ؛ فارقته وخُلقُه معه لم يفارقه .

وقال عطاءٌ : ما ارتفع مَن ارتفع إلاَّ بالخُلُق الحَسن .

بيان حقيقة حسن الخلق وسوءِ الخلق

اعلم أنَّ الناس قد تكلَّموا فى حقيقة حُسْن الخلق وأنه ما هو ، وما تعرَّضوا لحقيقته ، وإنَّما تعرَّضوا لثمرته ؛ ثم لم يستوعبوا جميعَ ثمراته بل ذكر كلٌّ واحد من ثمراته ما خطر له وما كان حاضراً فى دهنه . ولم يَصْرفوا العنايةَ إلى ذكر حدِّه وحقيقته المحيطةِ بجميع ثمراته ، على التفصيل والاستيعاب . وذلك كقول الحسن : « حُسن الخلق : بَسْط الوجه ، وبذل الندى ، وكفُّ الأذَى » .

---

(١) أى فأى الخصال خير إذا كانت تلك الخصال اثنتين .

وقال الواسطى : هو أن لا يُخَاصِم ولا يُخَاصَم ، من شدّة معرفته بالله تعالى .

وقال شَاه الكرمانى : هو كفُّ الأذى ، واحتمال المؤَن .

وقال الحسين بن منصور : هو أن يُؤثِّر[1] فيك جفاءُ الخلق بعد مطالعتك للحقّ .

وكما أن حُسن الصورة الظاهرة مطلقاً لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد ، بل لا بدَّ من حُسن الجميع ليتم حُسن الظاهر : فكذلك فى الباطن أربعة أركانٍ لابدَّ من الحسن فى جميعها حتى يتمّ حسن الخُلُق . فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت ، حصل حسن الخلق وهو : قوّة العِلم ، وقوّة الغضب ، وقوة الشّهوة . وقوّة العدل بين هذه القوى الثلاث .

أما قوّة العلم فحسنُها وصلاحها فى أن تصير بحيث يسهل بها دَرْك الفرق بين الصِّدق والكذب فى الأقوال ، وبين الحقّ والباطل فى الاعتقادات ، وبين الجميل والقبيح فى الأفعال .

وأما قوّة الغضب : فحسنُها فى أن يصير انقباضها وانبساطها على حدٍّ ما تقتضيه الحكمة . وكذلك الشّهوة حُسنها وصَلاحها فى أن تكون تحت إشارة الحكمة ، أعنى إشارة العقل والشّرع .

وأما قوّة العدل : فهو ضبطُ الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع .

فمن استوت فيه هذه الخصالُ واعتدلَتْ فهو حَسَن الخلق مطلقاً . ومن اعتدل فيه بعضُها دون البعضِ فهو حسن الخُلُق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة .

---

(١) أى يروى عنك ويعرف .

وحُسْنُ القوّةِ الغضبيةِ واعتدالها يعبَّرُ عنه بالشجاعة . وحُسْن قوّةِ الشهوة واعتدالها يعبَّر عنه بالعِفّة .

والمحمود هو الوسط ، وهو الفضيلة ، والطرفان رذيلتان مذمومتان .

والعدل إذا فاتَ فليس له طَرَفًا زيادةٍ ونقصان ، بل له ضدٌّ واحدٌ ومقابِلٌ وهو الجَور .

وأما الحكمة فيسمىَّ إفراطُها عند الاستعمال فى الأغراض الفاسدة خُبْثاً وجَرْبزَة[1] ، ويسمى تفريطها بلَهاً ، والوسط هو الذى يختصُّ باسم الحكمة .

فإذنْ أمَّهاتُ الأخلاقِ وأصولها أربعة : الحكمة ، والشجاعة ، والعِفّة والعـــدل .

ونعنى بالحكمة حالةً للنفس بها يُدرك الصواب من الخطإِ فى جميع الأفعال الاختيارية . ونعنى بالعدل حالةً للنفس وقوّة بها تَسوس الغضبَ والشّهوة ، وتحملها على مقتضى الحكمة ، وتضبطهما فى الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها . ونعنى بالشجاعة كونَ قوّةِ الغضب منقادةً للعقل فى إقدامها واحجامِها . ونعنى بالعفة تأدُّبَ قوّةِ الشهوة بتأديب العقل والشرع .

فمن اعتدال هذه الأُصول الأَربعة تصدرُ الأَخلاق الجميلة كلُّها .

إذْ من اعتدال قوّة العقل : يحصل حُسْنُ التدبير ، وجودةُ الذهن وثَقَابةُ الرأى ، وإصابةُ الظنّ ، والتفطنُ لدقائق الأَعمال وخفايا آفات النفوس . ومن إفراطها : تصدُر الجَرْبزَة والمكر ، والخداع والدهاء . ومن تفريطها :

---

(١) الجربزة : الخب والخداع .

يصدر البلَهُ والغمَارة ، والحمق والجنون ـ وأعني بالغمارة قلة التجربة في الأُمور مع سلامة التخيُّل . فقد يكون الإنسان غمراً في شيء دون شيء . والفرق بين الحمق والجنون : أنَّ الأَحمق مقصودهُ صحيح ولكنَّ سلوكَه الطريقَ فاسد ، فلا تكون له رَويَّة صحيحة في سلوك الطريق الموصِّل إلى الغرض . وأمَّا المجنون فإنه يختار مالا ينبغي أن يُختار ، فيكون أصل اختياره وإيثاره فاسداً .

وأمَّا خُلق الشجاعة : فيصدر منه الكرم والنجدة والشهامة ، وكسر النفس ، والاحتمال والحلم ، والثبات ، وكَظم الغيْظ ، والوَقار والتودُّد وأمثالُها ، وهي أخلاق محمودة . وأما إفراطها وهو التهوُّر : فيصدر منه الصَّلَف والبذخ[1] ، والاستشاطة ، والتكبر والعُجْب . وأما تفريطها : فيصدر منه المهانة والذلَّة ، والجزع ، والخَساسة وصِغَر النفس ، والانقباض عن تناول الحقِّ الواجب .

وأمَّا خلق العفَّة : فيصدر منه السَّخاءُ والحياءُ ، والصبر والمسامحة ، والقناعة والورَع ، واللَّطافة والمساعدة ، والظُّرْف وقلَّة الطمَع . وأما ميلها إلى الإفراط أو التفريط : فيحصل منه الحرص والشره ، والوقاحة والخبث ، والتبذير والتقتير ، والرياءُ والهُتْكة[2] والمجَانَةُ والعبث ، والمَلَقُ والحسد، والشماتة ، والتذلُّل للأَغنياء واستحقار الفقراء، وغير ذلك.

بيان قبول الأَخلاق للتغيير بطريق الرياضة

اعلم أن بعضَ من غلبت البطالةُ عليه استثقل المجاهدةَ والرياضةَ ، والاشتغالَ بتزكية النفس وتهذيبِ الأَخلاق ، فلم تسمحْ نفسه بأَنْ يكون ذلك

(١) البذخ : الكبر . والصلف : الكبر مع الا دعاء بما ليس عنده .

(٢) الهتكة بالضم : الاسم من الهتك وهو خرق الستر عما وراءه ، والمراد التهتك وعدم المبالاة بالفضيحة .

لقصوره ونقصه وخُبث دِخْلته[1] ، فزعَمَ أنَّ الأَخلاق لا يتصوّر تغييرها، فإن الطباع لا تتغيَّر .

واستدلَّ فيه بأَمرين ، أحدهما : هو أن الْخُلُقَ صورة الباطن كما أن الْخَلْقَ هو صورة الظاهر . فالخِلقة الظاهرة لا يُقْدَر على تغييرها ، فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلا ، ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسَه قصيراً ، ولا القبيح يقدر على تحسين صورته ، فكذلك القُبح الباطن يجرى هذا المَجْرَى .

والثانى : أنَهم قالوا : حُسْنُ الخلُق يَقْمع الشهوة والغضب . وقد جرّبنا ذلك بطول المجاهدة ، وعَرَفْنا أن ذلك من مقتضى المِزاج والطَّبع ، فإنَّه قطُّ لا ينقطع عن الآدمىّ ، فاشتغاله به تضييعُ زمانٍ بغير فائدة .

فنقول : لو كانت الأَخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأْديبات ، ولَمَا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حَسِّنوا أَخلاقكم » وكيف ينكَرُ هذا فى حقِّ الآدمى وتغيير خُلُق البهيمةِ ممكنٌ ، إذ يُنْقَلُ البازى من الاستيحاش إلى الأُنس ، والكَلْبُ من شَرَه الأَكل إلى التأَدُّب والإمساك والتخلية ، والفرسُ من الجماح إلى السَّلاسة والانقياد . وكلٌّ ذلك تغييرٌ للأَخلاق .

نعم، الجِبِلاَّتُ مختلفة، بعضها سريعةُ القبول وبعضها بطيئة القبول . ولاختِلافها سببان :

أَحدُهما : قوّة الغريزة فى أصل الجِبِلَّة وامتدادِ مدَّة الوجود ، فإنَّ قوة الشهوة والغضب والتكبُّر موجودة فى الإنسان ، ولكنَّ أَصْعَبها أَمْراً

---

(١) الدخلة بتثليث الدال : النية والمذهب والطوية .

وأعصاها على التغيير قوة الشهوة ، فإنّها أقدم وجوداً ؛ إذ الصبيُّ فى مبدإ الفطرة تُخلق له الشهوة ، ثم بعد سبع سنين رُبَّما يخلق له الغضب ، وبعد ذلك يُخلق له قوّة التمييز .

والسبب الثانى : أنَّ الخُلُقَ قد يتأكَّد بكثرة العمل بمقتضاه ، والطاعة له ، وباعتقاده كونه حَسَناً ومَرْضِياً .

وأما الخَيال الاخر الذى استدلُّوا به : وهو قولهم إنَّ الآدمى ما دام حيًّا فلا تنقطع عنه الشهوةُ والغضب وحبُّ الدنيا ، وسائرُ هذه الأخلاق ، فهذا غلطٌ وَقَع لطائفةٍ ظنُّوا أن المقصود من المجاهدة قَمعُ هذه الصفات بالكُلِّيَّةِ ومحوُها ؛ وهيهات ! فإن الشهوة خُلقت لفائدة ، وهى ضروريَّة فى الجِبِلَّة . فلو انقطعت شَهوة الطعام لهلك الإنسان . ولو انقطعت شهوة الوِقاع لانقطع النَّسل . ولو انعدم الغضب بالكُلِّيَّة لم يدفع الإنسانُ عن نفسه ما يهلكه، ولهلك . ومهما بقىَ أصل الشهوة فيبقى لا محالة حبُّ المال الذى يُوصله إلى الشَّهوة حتَّى يحمله ذلك على إمساك المال . وليس المطلوبُ إماطةَ[1] ذلك بالكُلِّيَّة ، بل المطلوب ردُّها إلى الاعتدالِ الذى هو وسَطٌ بين الإفراط والتفريط . والمطلوب فى صفة الغضب حُسن الحَميّة ، وذلك بأَن يخلوَ عن التهوُّر وعن الجبن جميعاً . وبالجملة أن يكون فى نفسه قوياً ، ومع قوته منقاداً للعقل .

ولذلك قال الله تعالى : (أَشِدّاءُ على الكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ) وصَفَهم بالشدة ، وإنّما تصدر الشدة عن الغضب . ولو بطل الغضب لبطل الجهاد. وكيف يُقصَد قلعُ الشهوة والغضبِ بالكليّة والأَنبياءُ عليهم السلام لم

---

(١) الإماطة : الإزالة .

ينفكّوا عن ذلك ؟ إذ قال صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا بشرَ أغضَبُ كما يغضب البشر » . وكان إذا تُكُلِّم بين يديه بما يكرهه يغضَب حتّى تَحْمَرَّ وجنتاه ، ولكن لا يقول إلاّ حقاً ، فكان عليه السلام لا يُخرجه غضَبُه عن الحقِّ .

بيان السبب الذي به يُنال حُسْنُ الخُلُق على الجملة

قد عَرَفْتَ أنَّ حُسْنَ الخُلُق يرجع إلى اعتدال قوّة العقل وكمال الحكمة ، وإلى اعتدال قوّة الغضب والشهوة ، وكونِها للعقل مطيعةً وللشرع أيضاً . وهذا الاعتدال يحصل على وجهين :

أحدهما : بِجودٍ إلهي وكمالٍ فطريّ ، بحيث يُخلقُ الإنسان ويُولَدُ كاملَ العقل ، حسنَ الخلق ، قد كُفِيَ سلطانَ الشهوة والغضب ، بل خُلِقتا معتدلتَين منقادتين للعقل والشرع ، فيصير عالماً بغير تعليم ، ومؤدَّباً بغير تأديب ، كعيسى بن مريم ويحيي بن زكريا عليهما السلام ، وكذا سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين . ولا يبعد أن يكون فى الطّبع والفطرة ما قد يُنال بالاكتساب ؛ فرُبَّ صَبِيٍّ خُلِقَ صادقَ اللّهجة سخياً جريّا[1] ، وربَّما يُخلق بخلافهِ ، فيحصل ذلك فيه بالاعتياد ومخالطة المتخلّقين بهذه الأخلاق ، وربَّما يحصل بالتعلم .

والوجه الثانى: اكتسابُ هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة ، وأعنى به حملَ النفس على الأعمال التى يقتضيها الخُلق المطلوب . فمن أراد مثلاً أن يحصِّل لنفسه خُلق الجود فطريقهُ أن يتكلّفَ تعاطيَ فعلِ الجواد ، وهو بذلُ المال . فلا يزال يطالبُ نفسَه ويواظب عليه تكلّفاً مجاهداً نفسَه فيه ، حتّى يصيرَ ذلك طبعاً له ويتيسّر عليه ، فيصير به جوَاداً .

---

(١) جريا ، أى جريئاً .

وكذا من أراد أن يحصِّل لنفسه خُلُق التواضع وقد غَلبَ عليه الكِبْر . فطريقهُ أن يواظب على أفعال المتواضعين مدّة مَديدة ، وهو فيها مجاهدٌ نفسَه ومتكلِّف ، إلى أن يصير ذلك خُلُقًا له وطبعاً ، فيتيسر عليه .

قال عليٌّ رضى الله عنه : إنَّ الإيمان ليبدو فى القلب نُكتةً بيضاء[1] ، كلمَّا ازداد الإيمان . ازداد ذلك البياض . فإذا استكمل العبدُ الإيمان ابيضَّ القلبُ كلُّه . وإنَّ النفاق ليبدو فى القلب نُكتةً سوداء، كلّما ازداد النفاق ازداد ذلك السَّواد ، فإذا استكمل النفاقُ اسودَّ القلبُ كلُّه .

بيان الطريق الذي يعرِّفُ الإنسان عيوب نفسه

اعلم أنَّ الله عزّ وجل إذا أراد بعبدٍ خيراً بَصَّره بعيوب نفسه، فمن كانت بصيرتُه نافذة لم تَخْفَ عليه عيوبه ، فإذا عرف العيوبَ أمكنه العلاج ، ولكنَّ أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم ، يرى أحدهم القذَى فى عين أخيه ولا يرى الجذع فى عين نفسه . فمن أراد أن يعرفَ عيوب نفسه فله أربعة طرق :

الأول : أن يجلسَ بين يدَىْ شيخٍ بصير بعيوب النفس ، مطّلع على خفايا الآفات . ويحكِّمَه فى نفسه ، ويَتبعَ إشارته فى مجاهدته .

الثانى : أن يطلب صديقاً صدوقاً ، بصيراً متديّناً ، فينصِّبه رقيباً على نفسه ، ليلاحظَ أحواله وأفعاله ، فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ينبِّهه عليه .

كان عمر رضى الله عنه يقول : رَحِمَ الله امرأً أهدَى إلىَّ عيوبى .

ولهذا كان داودُ الطائىُّ قد اعتزل الناسَ فقيل له : لم لا تخالط الناس ؟ فقال : وماذا بأقوام يُخْفون عنّى عيوبى ؟

---

(١) النكتة : النقطة ، وزناً ومعنى .

وقد آل الأمر فى أمثالنا إلى أنَّ أبغضَ الخلقِ إلينا مَنْ ينصحُنا ويعرِّفنا عيوبنا .

الطريق الثالث : أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألْسنة أعدائِه ، فإنَّ عين السخط تبدى المساويا[1] . ولعلَّ انتفاعَ الإنسان بعدوٍّ مشاحن يذكِّره عيوبه ، أكثرُ من انتفاعه بصديقٍ مُدَاهن يثنى عليه ويمدحه ويخفى عنه عيوبه .

الطريق الرابع : أن يخالط الناسَ ، فكلُّ ما رآه مذموماً فيما بين الخَلْق فلْيطالب نفسَه به ويُنْسبها إليه .

قيل لعيسى عليه السلام : من أدَّبك ؟ قال : ما أدَّبنى أحد ، رأيتُ جهل الجاهل شَيْنًا فاجْتنبتُه .

بيان علامات حسن الخلق

اعلم أنَّ كل إنسانٍ جاهلٌ بعيوب نفسه ، فإذا جاهدَ نفسَه أدنى مجاهدة حتَّى ترك فواحشَ المعاصى ، ربَّما يظن بنفسه أنه قد هذَّب نفسه وحَسَّن خلقه ، واستغنى عن المجاهدة ؛ فلا بُدَّ من إيضاح علامة حسن الخلق . فإن حُسن الخلق هو الإيمان ، وسوء الخلق هو النفاق . وقد ذكر الله تعالى صفاتِ المؤمنين والمنافقين فى كتابه ، وهى بجملتها ثَمرةُ حُسْنِ الخلق وسوءِ الخلق . فلنورد جملةً من ذلك لنعلم آية حسن الخُلق . قال الله تعالى : (قَد أفلحَ المؤمنون * الذين هُمْ فى صَلَاتِهمْ خاشعُون * والذين هُمْ عن اللَّغْو مُعْرِضُون) إلى قوله : (أُولئك هُمُ الوارثون) . وقال عز وجل : (التائبون العابِدُون الحامِدُون) . إلى قوله : (وبَشِّرِ المُؤْمنين) وقال عزَّ وجلّ : (إنَّما المؤمنون الذِينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وجِلَت قُلوبُهمْ)

---

(١) مقتبس من قول عبد الله بن معاوية :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدى المساويا

إلى قوله : (أُولٰئِكَ هُمُ المؤمِنُونَ حَقًّا) . وقال الله تعالى : (وعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِين يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً) إلى آخر السورة .

فمَنْ أشكلَ عليه حالُه فليَعرِضْ نفسهَ على هذه الآيات ، فوجودُ جميع هذه الصِّفات علامة حسْنِ الخلق ، وفَقْدُ جميعِها علامةُ سوء الخُلقُ ، ووُجودُ بعضِها دونَ بعض يدلُّ على البعضِ دون البعض . فليشتغلْ بتحصيل ما فقَده ، وحِفْظِ ما وجَده .

وقد وصف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المؤمنَ بصفاتٍ كثيرة ، وأشار بجميعها إلى محاسن الأَخلاق فقال : « المؤمن يُحبُّ لأَخيه ما يحبُّ لنفسه » . وقال عليه السلام « مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فَلْيُكْرِمْ ضيفَه » . وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرمْ جاره » ، وقال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فَليَقُل خيراً أو ليصمُتْ » . وذكر أنَّ صفات المؤمنين هى حُسن الخلق ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أكمَلُ المؤمنين إيماناً أحسنُهم أخلاقاً » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا رأَيتمُ المؤمنَ صَمُوتاً وَقُورا فادْنُواْ منه فإنَّه يُلَقَّنُ الحكمة» .

وجَمَعَ بعضَ علاماتِ حسن الخلق فقال : هو أن يكون كثير الحياء قليلَ الأَذى ، كثير الصلاح ، صَدوق اللِّسان ، قليلَ الكلام كثير العمل ، قليلَ الزلل ، قليلَ الفُضول ، ، بَرًّا وصولاً ، وقوراً صبوراً شكوراً ، رضيًّا حليما ، رفيقاً عفيفاً شفيقاً ، لا لعَّاناً ولا سَبَّاباً . ولا نَمَّاماً ولا مغتاباً . ولا عَجولاً ولا حقوداً . ولا بخيلاً ولا حَسوداً ، بشَّاشاً هشَّاشاً ، يحبُّ فى الله ، ويبغض فى الله ، ويرضى فى الله ، ويغضب فى الله .

وأوْلَى ما يُمتحَن به حسنُ الخلق الصَّبرُ على الأَذى واحتِمالُ الجفاء . ومن شَكا من سوءِ خلق غيره دلَّ ذلك على سوء خلقه ؛ فإنَّ حسن الخلق

احتمالُ الأذى . فقد رُوى أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوماً يمشي ومعه أَنَس ، فأدركه أعرابيٌّ فجذبَه جذباً شديداً ، وكان عليه بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ[1] غليظ الحاشية . قال أنس رضى الله عنه : حتَّى نظرتُ إلى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثَّرت فيه حاشية البُرْد من شِدَّة جذبه ، فقال : يا محمد ، هَبْ لى من مال الله الذى عندك . فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك . ثم أمر بإعطائه .

وروى أن أبا عبد الله الخيَّاط كان يجلس على دُكَّانه ، وكان له حَرِيفٌ[2] مجوسيٌّ يستعمله فى الخياطة ، فكان إذا خاطَ له شيئاً حملَ إليه دراهمَ زائفة ، فكان أبو عبد الله يأخذها منه ولا يُخبره بذلك ولا يردُّها عليه ، فاتَّفق يوماً أن أبا عبد الله قام لبعض حاجته ، فأتى المجوسيُّ فلم يجدْه ، فدفع إلى تلميذه الأُجرة واسترجع ما قد خاطه ، فكان درهماً زائفاً ، فلما نظَر إليه التلميذُ عَرَف أنه زائفٌ فردَّه عليه ، فلما عاد أبو عبد الله أخبره بذلك فقال : بئسَ ما عمِلتَ ، هذا المجوسيُّ يُعاملنى بهذه المعاملة منذُ سنةٍ ، وأنا أصبر عليه وآخذُ الدراهم منه ، وأُلقيها فى البئر لئلا يغُرَّ بها مسلماً !

وقيل للأحنف بن قيس : ممَّن تعلمت الحلم ؟ فقال : من قيس بن عاصم قيل : وما بلغ من حلمه ؟ قال : بينما هو جالسٌ فى داره إذ أتته جارية له بِسَفُّودٍ[3] عليه شِواءٌ ، فسقط من يدها فوقع على ابنٍ له صغير فمات ، فدُهِشت الجارية فقال لها : لا رَوْعَ عليك ، أنتِ حرَّةٌ لوجه الله تعالى !

وكان ليحيى بن زياد الحارثى غُلامُ سَوء ، فقيل له : : لِمَ تمسكُه ؟ فقال : لأتعلَّم الحلم عليه .

---

(١) منسوب إلى نجران ، وهو موضع فى مخاليف اليمن من ناحية مكة .

(٢) الحريف : من يعامله فى حرفته ، أى صناعته .

(٣) السفود : حديدة ذات شعب معقفة ، يشوى بها اللحم .

فهذه نفوسٌ قد ذُلِّلت بالرياضة فاعتدلَت أخلاقُها ، ونُقِّيت من الغِشِّ والغِلِّ والحقد بواطنها ، فأثمرت الرضا بكلِّ ما قدَّره الله تعالى . وهو منتهى حُسْنِ الخلق .

بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نُشوّهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم

اعلم أنَّ الطريق فى رياضة الصبيان من أهمِّ الأُمور وآكدها ، والصبيُّ أمانةٌ عند والديه ، وقلبه الطاهرُ جَوهرة نفيسة ساذَجة ، خاليةٌ عن كلِّ نقشٍ وصورة ، وهو قابلٌ لكلِّ ما نُقش ، ومائلٌ إلى كلِّ ما يُمال به إليه ، فإن عُوِّدَ الخير وعُلِّمه نشأ عليه وسَعِد فى الدنيا والآخرة ، وشاركه فى ثوابه أبواه وكلُّ معلِّمٍ له ومؤدِّب . وإنْ عُوِّد الشرَّ وأُهمِل إهمالَ البهائم شَقِيَ وهَلَك ، وكان الوزْرُ فى رقبة القَيِّم عليه ، والوالى له . وقد قال الله عز وجل : (يـأيُّها الَّذينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وأَهْلِيكُمْ ناراً) . ومهما كان الأدبُ يصونه عن نار الدنيا فبأَنْ يصونَه عن نار الآخرة أولَى ، وصيانته بأن يؤدِّبه ويهذِّبَه ، ويعلِّمَه محاسِنَ الأَخلاق ، ويَحفَظه من القُرناء السُّوء ، ولا يعوِّده التنعُّم ، ولا يحبِّب إليه الزينة والرفاهيَةَ فيضيع عمره فى طلبها إذا كَبِر ، ، فيهلِكَ هلاكَ الأبد ، بل ينبغى أن يراقبَه من أوَّل أمْرِه ، فلا يستعمل فى حضانته وإرضاعه إلاَّ امرأةًصالحةً متديِّنة تأكلُ الحلال ، فإن اللبنَ الحاصل من الحرام لا بركةَ فيه .

وأوَّل ما يَغلِب عليه من الصِّفات شَرَه الطعام ، فينبغى أن يؤدَّب فيه ، مثل أن لا يأخذ الطعامَ إلاَّ بيمينه ، وأن يقول عليه بسم الله عند أخذِه ، وأن يأكلَ مما يليه ، وألا يبادرَ إلى الطعام قبل غيره ، وأن لا يحدِّق النظر إليه ولا إلى من يأكل ، وأنْ لا يسرعَ فى الأكل ، وأن

يجيدَ المضغ ، وأن لا يُوالِىَ بين اللُّقم ، ولا يلطِّخ يده ولا ثوبه ، وأن يُعَوَّد الخبز القَفار[1] فى بعض الأوقات حتى لا يصيرَ بحيثُ يرى الأُدْم حتمًا ، ويقبِّح عنده كثرةُ الأكل بأن يشبَّه كلُّ من يُكثر الأكل بالبهائم .

وأن يحبَّب إليه الإيثار بالطعام وقلّة المبالاة به ، والقناعة بالطعام الخَشِن ، أىَّ طعامٍ كان .

ويُحفَظ الصبىُّ عن الصبيان الذين عُوِّدوا التنعُّم والرفاهية ، ولُبس الثياب الفاخرة ، وعن مخالطة كلِّ من يُسمعه ما يرغِّبه فيه ، فإن الصبىَّ مهما أُهملَ فى ابتداءِ نشوِّه ، خرج فى الأغلب ردىء الأخلاق كذّاباً حسوداً ، سَروقا ، نمَّاماً ، لحوحاً ، ذا فضول وضحك ، وكيادٍ ومَجانة . وإنما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب .

ثم يُشْغَل فى المكتب فيتعلَّم القرآن وأحاديث الأخيار ، وحكاياتِ الأبرار وأحوالَهم ، لينغرس فى نفسه حبُّ الصالحين ، ويُحفَظ من الأشعار التى فيها ذكرُ العشق وأهله ، ويُحفَظ من مخالطة الأُدباءِ الذين يزعمون أنَّ ذلك من الظَّرف ورقة الطبع ، فإن ذلك يَغرِسُ فى قلوب الصبيان بَذْرَ الفساد .

ثم مهما ظهرَ من الصبىِّ خلقٌ جميل وفعلٌ محمود فينبغى أن يكرَّم عليه ويجازَى عليه بما يفرَحُ به ، ويُمدَحَ بين أظهر الناس ، فإنْ خالفَ ذلك فى بعض الأحوال مرةً واحدة فينبغى أنَ يتغافلَ عنه ولا يهتِك سِترَه ، ولا يكاشفَه ، ولا يظهر له أنه يتصوَّر أن يتجاسر أحد على مثله .

ولا تكثر القولَ عليه بالعتاب فى كلِّ حين ، فإنه يهوِّن عليه سماع الملامة وركوبَ القبائح ، ويُسْقط وَقْع الكلام من قلبه ، وليكن الأبُ حافظاً هيبة الكلام معه فلا يوبخه إلاَّ أحياناً ، والأُم تخوِّفه بالأب

(١) القفار : الذى لا إدام معه .

وتَزجره عن القبائح ، وينبغى أن يُمنَع عن النوم نهاراً فإنه يُورثُ الكسل، ولا يمنع منه ليلا .

ويعوَّد فى النهار المشىَ والحركة والرياضة حتّى لا يغلب عليه الكسل .

ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بشىء مما يملكه والدهُ ، أو بشىء من مطاعمه وملابسه ، أو لَوْحِه ودَوَاته ، بل يُعوَّدُ التواضع والإكرام لكلّ من عاشَره ، والتلطُّف فى الكلام معهم .

وينبغى أن يعوَّد أن لا يَبْصُقَ فى مجلسه ، ولا يَمتَخِط ، ولا يتثاءبَ بحضرة غيره ، ولا يستدبِرَ غيره ، ولا يضَعَ رجلا على رجل ، ولا يضعَ كفَّه تحت ذقنه ، ولا يُعمِد رأْسَه بساعده فإنّ ذلك دليل الكسل . ويعلّم كيفية الجلوس ، ويمنع كثرة الكلام ، ويبيَّن له أنّ ذلك يدلّ على الوقاحة ، وأنه فعل أبناء اللئام ،

وينبغى أن يُؤْذَن له بعد الانصراف من الكتّاب أن يلعبَ لعباً جميلا يستريحُ إليه من تعب المكتب ، بحيث لا يتعب فى اللّعب ، فإنّ مَنْعَ الصبىّ من اللعب ، وإرهَاقَهُ إلى التعلم دائماً يميت قلبَه ويُبطل ذكاءه ، وينغّص عليه العيش ، حتى يطلب الحيلة فى الخلاص منه رأساً .

وينبغى أن يعلَّم طاعةَ والديه ومعلِّمِه ومؤدِّبه ، ومَن هو أكبر منه سنًّا ، من قريبٍ وأجنبى .

ويُخوَّف من السرقة وأكلِ الحرام ، ومن الخيانة والكذب والفحش، وكلّ ما يغلب على الصبيان .

فأوائل الأُمور هى التى ينبغى أن تُراعَى ، فإنّ الصبىّ بجوهره ، خُلِق قابلاً للخير والشر جميعاً ، وإنما أبواه يَمِيلان به إلى أحد الجانبين . قال صلى الله عليه وسلم : « كلُّ مولود يُولد على الفِطرة ، وإنما أبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه » .

الكتاب الثالث

كتاب كسر الشهوتين

بيان فوائد الجوع وآفات الشبع

الفائدة الأُولى : صفاءُ القلب وإيقاد القريحة وإنفاذ البصيرة ، فإنَّ الشبع يُورث البلادة ويُعمى القلب ، ويكثر البخارَ فى الدماغ شبه السُّكْر ، حتى يحتوى على معادن الفكر ، فيثقُل القلبُ بسببه عن الجَرَيان فى الأفكار ، وعن سرعة الإدراك ، بل الصبىُّ إذا أكثر الأكلَ بَطَل حِفظُه وفسَد ذهنه ، وصار بطىء الفهم والإدراك .

وقال أبو سليمان الدَّارانىُّ : عليكَ بالجوع فإنه مذَلَّة للنَّفس ، ورقَّة للقلب ، وهو يُورثُ العِلْمَ السَّماوىَّ .

الفائدة الثانية : رقَّة القلب وصفاؤه ، الذى به يتهيَّأُ لإدراك لذة المثابرة والتأثر بالذكر ، فكم من ذكرٍ يجرى على اللسان مع حُضور من قسوة القلب ، وقد يرقُّ فى بعض الأحوال فيعظُم تأثُّره بالذكر ، ولكنَّ القلب لا يلْتَذُّ به ولا يتأثر ، حتى كأنَّ بينه وبينه حجاباً من قَسْوة القلب . وقدْ يرقُّ فى بعض الأحوال فيعظُم تأثُّره بالذِّكرْ ، وتلذُّذه بالمناجاة . وخلوُّ المعدة هو السبب الأظهر فيه . وقال أبو سليمان الدارانى : أحلى ما تكون إلىَّ العبادة إذا التصقَ ظهرى ببطنى .

الفائدة الثالثة : الانكسار والذل ، وزوال البَطر والفرح والأَشَر[1] ، الذى هو مبدأُ الطُّغيان والغفلةِ عن الله تعالى ، فلا تنكسر النفسُ ولا تذلُّ بشىء كما تذلُّ بالجوع ، فعنده تسكُنُ لربها وتخشَعُ له ، وتقف على

(١) الأشر : المرح .

عَجْزها وذُلَّها إذا ضعفت مُنَّتُها[1] وضاقت حيلتُها بلُقَيْمَة طعامٍ فاتَتْها ، وأظلمت عليها الدُّنيا لشَرْبةِ ماءٍ تأَخَّرتْ عنها .

الفائدة الرابعة : أن لا ينسى بلاءَ الله وعذابَه ، ولا ينسى أهل البلاء ، فإنَّ الشَّبعان ينسى الجائع ويَنسى الجوع ، والعبد الفطن لا يشاهد بلاءً من غيره إلا ويتذكر بلاء الآخرة ، فيذكر من عطشه عطشَ الخلق فى عَرَصات القيامة[2] ، ومِن جوعِه جوعَ أهل النار .

قيل ليوسف عليه السلام : لِمَ تجوع وفى يديك خزائن الأرض ؟ فقال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائع.

الفائدة الخامسة ، وهى من أكبر الفوائد : كسْر شهوات المعاصى كلِّها ، والاستيلاء على النفس الأمَّارة بالسوء ، فإنَّ منشأَ المعاصى كلِّها الشهواتُ والقوى ، ومادّة القوى والشهوات لا محالةَ الأطعمة ، فتقليلها يُضعف كلَّ شهوة وقوة ، وإنّما السعادة كلُّها فى أن يملِك الرجلُ نفسَه ، والشَّقاوةُ فى أن تملكَه نفسهُ .

الفائدة السادسة : دفع النوم ودوامُ السهر ؛ فإنَّ مَن شبع شرب كثيراً ، ومن كثر شربُه كَثُر نومُه ، ولأجل ذلك كان بعضُ الشيوخ يقول عند حضور الطعام : معاشرَ المريدين ، لا تأْكلوا كثيراً ، فتشربوا كثيراً ، فترقُدوا كثيراً ، فتَخسروا كثيراً . وفى كثرة النوم ضياعُ العمرِ ، وفَوتُ التهجُّدِ ، وبلادةُ الطبع ، وقساوةُ القلب .

ثم فضيلة التهجد لا تخفى ، وفى النوم فواتُها .

الفائدة السابعة : تيسير المواظبة على العبادة ؛ فإنَّ الأكلَ يمنعُ من كثرة العبادات ، لأنه يحتاج إلى زمانٍ يشتغل فيه بالأكل ، وربما يحتاج

(١) المنة ، بضم الميم : القوة .
(٢) العرصة : الساحة .

إلى زمانٍ في شراء الطعام وطبخه ، ثم يحتاج إلى غسل اليد والخِلال[1] ، ثم يكثر تردداه إلى بيت الماء لكثرة شربه .

الفائدة الثامنة : يستفيد من قلّة الأكل صحة البدن ودفع الأمراض، فإنّ سببَها كثرة الأكل وحصولُ فضْلةِ الأخلاط في المعدة والعروق . ثم المرض يمنع من العبادات ويشوّش القلب ، ويمنع من الذّكر والفكر ، ويُنَغّص العيش ، ويُحْوِج إلى الفَصْد والحجامة ، والدّواء والطبيب . وكلٌّ ذلك يحتاج إلى مُؤَن ونفقات لا يخلو الإنسانُ منها بعد التعب عن أنواعٍ من المعاصي واقتحام الشهوات ، وفي الجوع ما يمنعُ ذلك كلّه .

الفائدة التاسعة : خِفّة المؤونة ؛ فإنّ من تعوّد قلة الأكل كَفاه من المال قدرٌ يسير ، والذى تعوّد الشّبع صار بطنه غريماً ملازماً له ، آخذاً بمخَنّقِه في كل يوم ، فيقول : ماذا تأكل اليوم ؟ فيحتاج إلى أن يدخل المداخل ، فيكتسب من الحرام فيعصى ، أو من الحلال فيذلّ .

وقال بعض الحكماء : إنّى لأقضى عامّة حوائِجى بالترك ، فيكون ذلك أَرْوَحَ لقلبى . وقال آخر : إذا أردتُ أن أستقرضَ من غيرى لشهوةٍ أو زيادةٍ استقرضت من نفسى فتركت الشّهوة ، فهى خير غريمٍ لى . وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله يسأل أصحابَه عن سِعر المأكولات فيقال إنّها غالية ، فيقول : أرخِصُوها بالتّرْك .

الفائدة العاشرة : أن يتمكن من الإيثار والتصدّق بما فَضَل من الأطعمة على اليتامى والمساكين ، فيكون يومَ القيامة فى ظِلِّ صدقته[2] .

فهذه عشر فوائد للجوع يتشعب من كلِّ فائدةٍ فوائدُ لا ينحصر عددُها ، ولا تتناهى فوائدها .

---

(١) أى استعمال الخلال ، وهو ماتنقّى به الأسنان مما يعلق بها .

(٢) فى الحديث : « كل امرئ فى ظل صدقته » .

بيان طريق الرياضة في كسر شهوة البطن

اعلم أنَّ على المريد فى بطنه ومأكوله أربعَ وظائفَ :

الأُولى : أن لا يأكُلَ إلاَّ حلالاً ، فإن العبادةَ مع أكل الحرام كالبناء على أمواج البحَار .

وتبقى ثلاث وظائِفَ خاصَّةٍ بالأكل ، وهو تقدير قدر الطعام فى القلة والكثرة ، وتقديرُ وقتِه فى الإبطاء والسرعة ، وتعيينُ الجنس المأكول فى تناول المشتبهات وتركها .

أما الوظيفة الأُولى : فى تقليل الطعام ؛ فسبيلُ الرياضة فيه التدريج ، فمن اعتاد الأكل الكثير وانتقل دفعة واحدة إلى القليل لم يحتمله مِزاجُه ، وضعُف وعظُمت مشقَّته ، فينبغى أن يتدرَّج إليه قليلا قليلا ، وذلك بأن ينقص قليلاً قليلاً من طعامه المعتاد . فإنْ كان يأكل رغيفين مثلا وأراد أن يَرُدَّ نفسه إلى رغيف واحد فينقص كلَّ يوم رُبْعَ سبع رغيف ، وهو أن ينقص جزءًا من ثمانية وعشرين جزءًا ، أو جزءًا من ثلاثين جُزءًا ، فيرجع إلى رغيف فى شهر ، ولا يستضرُّ به ولا يظهر أثره ، فإن شاء فعلَ فى ذلك بالوزن ، وإن شاء بالمشاهدة ، فيترك كلَّ يوم مقدار لقمة وينقصه عمَّا أكله بالأمس .

الوظيفة الثانية : فى وقت الأكل .

وفيه أيضاً أربع درجات :

الدرجة العليا : أن يَطوِىَ ثلاثةَ أيام فما فوقها[1] ، وفى المريدين مَنْ ردَّ الرياضة إلى الطَّىِّ لا إلى المقدار ، حتى انتهى بعضُهم إلى ثلاثين يوماً أو أربعين يوماً .

الدرجة الثانية : أن يَطوِىَ يومين إلى ثلاثة ، وليس ذلك خارجاً عن العادة ، بل هو قريبٌ يمكن الوصول إليه بالجِدِّ والمجاهدة .

(١) الطوى : الجوع . فإذا تعمده قيل طوى يطوى ، كرمى يرمى .

الدرجة الثالثة : وهى أدناها ، أن يقتصر فى اليوم والليلة على أكلة واحدة ، وهذا هو الأقل ، وما جاوز ذلك إسرافٌ ومداومةٌ للشبع حتى لا يكون له حالة جوع ، وذلك فعل المترفين ، وهو بعيدٌ من السنَّة .

الوظيفة الثالثة : فى نوع الطعام وترك الإدام ، وأعلى الطعام مُخُّ البر[1] ، فإن نُخِلَ فهو التُّرفة ، وأوسطه شعيرٌ منخول ، وأدناه شعير لم يُنخل . وأعلى الأُدْم اللَّحم والحلاوة ، وأدناه المِلح والخل ، وأوسطه المزوَّرات بالأَدهان[2] من غير لحم . وعادةُ سالكى طريق الآخِرة الامتناع من الإدام على الدوام ، بل الامتناعُ عن الشهوات ، فإنَّ كلَّ لذيذٍ يشتهيه الإنسان إذا أكَلَه اقتضى ذلك بطراً فى نفسه ، وقسوةً فى قلبه ، وأُنْساً له بلذَّات الدنيا حتى يألَفَها ، ويكره الموت ولقاءَ الله تعالى ، وتصير الدنيا جَنَّة فى حقِّه ، ويكره الموت سِجْناً له . وإذا منع نفسَه عن شهواتها ، وضيَّق عليها وحرمها لذَّاتِها ، صارت الدنيا سجناً عليه ، ومَضِيقاً له ، فاشتهت نفسُه الإفلات منها ، فيكون الموت إطلاقها .

وروى عن مالك بن دينار أنه بقى أربعينَ سنة يشتهى لبناً فلم يأكله . وأهدى إليه يوماً رُطَب فقال لأصحابه : كُلُوا فما ذقتُه منذ أربعين سنة.

وقال مالك بن ضَيْغم : مررت بالبصرة فى السوق، فنظرت إلى البقل[3] فقالت لى نفسى : لو أطعمْتَنى الليلةَ من هذا ! فأقسمتُ أن لا أطعِمَها إياه أربعين ليلة .

ومكث مالك بن دينار بالبصرة خمسين سنة ما أَكَلَ رُطَبة لأهل البصرة ولا بُسْرةً قط[4] ، وقال : يا أهل البصرة عشت فيكم خمسين سنة ما أكلتُ لكم رُطَبة ولا بسرة ، فما زاد فيكم ما نقص منِّى ، ولا نقص منِّى ما زاد فيكم .

---

(١) أى لباب القمح .
(٢) زور الشىء : حسنه وقومه .
(٣) البقل من النبات : ماليس بشجر .
(٤) البسر : التمر قبل أن يرطب .

القول في شهوة الفرج

اعلم أن شهوة الوقاع سُلِّطت على الإنسان لفائدتينَ :

إحداهما : أن يدرك لذَّته فيقيسَ به لذاتِ الآخرة .

الفائدة الثانية : بقاءُ النسل ودوام الوجود . فهذه فائدتها .

ولكن فيها من الآفات ما يُهلك الدِّين والدنيا إن لم تُضبَط ولم تُقهر، ولم تردَّ إلى حدِّ الاعتدال . وقد قيل فى تأويل قوله تعالى : (رَبَّنَا ولا تُحَمِّلْنَا مَالاَ طاقَةَ لَنَا بِهِ) : معناه شِدَّة الغُلمة .

وهذه الشهوة أيضاً لها إفراطٌ ، وتفريط ، واعتدال . فالإفراط : ما يَقهر العقل حتى يصرف همةَ الرجال إلى الاستمتاع بالنساء والجوارى ، فيحرمُ عن سلوك طريق الآخرة . أو يَقهرُ الدِّين حتى يجرَّ إلى اقتحام الفواحش . وقد ينتهى إفراطها بطائفة إلى أمرين شنيعين :

أحدهما : أن يتناولوا ما يقوِّى شهواتهم على الاستكثار من الوِقاع ، كما قد يتناول بعض الناس أدويةً تقوِّى المعدة لتعظم شهوة الطعام . وما مثال ذلك إلا كمن ابتلى بسباع ضارية وحَيَّات عاديَة ، فتنام عنه فى بعض الأوقات فيحتال لإثارتها وتهييجها ، ثم يشتغل بإصلاحها وعلاجها. فإنَّ شهوة الطعام والوِقاع على التحقيق آلامٌ يريد الإنسان الخلاصَ منها ، فيدرك لذَّةً بسبب الخلاص.

والأمر الثانى : أنه قد تنتهى هذه الشهوة ببعض الضُّلاَّلِ إلى العشق ، وهو غاية الجهل بما وُضع له الوِقاع ، وهو مجاوزةٌ فى البهيمية لحدِّ البهائم.

فإذن إفراط الشهوة أن يُغلّب العقلُ إلى هذا الحد ، وهو مذمومٌ جداً.

وتفريطها : بالعُنّة أو بالضّعف عن إمتاع المنكوحة ، وهو أيضاً مذموم . وإنّما المحمود أن تكون معتدلةً ومطيعة للعقل والشّرع فى انقباضها وانبساطها . ومهما أفرطَتْ فكسرُها بالجُوع والنكاح . قال صلى الله عليه وسلم : « معاشِرَ الشباب، عليكم بالباءة ، فمن لم يستطع فعليه بالصَّوم فالصوم له وِجاءٌ[1] » .

(١) أى يقطع الشهوة . وأصل معنى الوجاء الخصاء .



الكتاب الرابع

كتاب آفات اللسان

بيان عظم خطر اللسان وفضيلة الصمت

اعلم أنَّ خطرَ اللسان عظيم ، ولا نجاةَ من خطره إلاَّ بالصَّمت ، فلذلك مدحَ الشرعُ الصمتَ وحثَّ عليه .

قال عليه السلام : « الصَّمتُ حُكْمٌ وقليلٌ فاعله » ، أى حِكمةوحزم.

وقال سَهل بن سعدٍ الساعديّ : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ يتكفَّلْ لى بما بين لَحييه ورجليه أتكفَّلْ له بالجنة » .

وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت » .

وقيل لعيسى عليه السلام : دُلَّنا على عملٍ ندخُل به الجنة . قال : لا تنطِقوا أبداً . قالوا : لا نستطيع ذلك . فقال : فلا تنطقوا إلاَّ بخير .

وقال سُليمان بن داود عليهما السلام : إنْ كان الكلام من فضَّة فالسكوتُ من ذهب .

الآثار : كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يضع حَصاة فى فيه يمنع بها نفسه عن الكلام . وكان يشير إلى لسانه ويقول : « هذا الذى أوردنى الموارد » . وقال عبد الله بن مسعود : « والله الذى لا إله إلا هو ، ما شىء أحوجُ إلى طول سجن من لسان» . وقال طاوسٌ :«لسانى سَبُعٌ إن أرسلتُه أكَلَنى».

فإن قلت : فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه ؟ فاعلمْ أنَّ سببه كثرةُ آفات اللسان من الخطإ والكذب . والغِيبة والنميمة ، والرياء والنفاق ، والفُحش والمِراء ، وتزكيةِ النفس ، والخوض فى الباطل والخصومة ، والفضول والتحريف ، والزيادة والنقصان ، وإيذاء الخلق ، وهَتك العورات ، فهذه آفاتٌ كثيرة ، وهى سَبَّاقة إلى اللسان لا تثقُل عليه ، ولها حلاوةٌ فى القلب ، وعليها بواعث من الطَّبْع ومن الشيطان . والخائض فيها قلَّما يقدر أن يُمْسِك اللسان فيطلقه بما يحبُّ ويكفُّه عما لا يحبُّ ؛ فإنَّ ذلك من غوامض العلم ، ففى الخوض خطر ، وفى الصَّمت سلامة . فلذلك عظمت فضيلته . هـذا مع ما فيه من جمع الهمِّ ودوام الوَقار ، والفراغ للفكر والذكر والعبادة ، والسلامة من تبعات القول فى الدنيا ، ومن حسابه فى الآخرة . فقد قال الله تعالى : (ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) .

آفات اللسان

ونحن الآن نعدُّ آفاتِ اللسان ، ونبتدئُ بأخفِّها ، ونترقَّى إلى الأغلظ قليلاً ، ونؤخِّر الكلام فى الغِيبة والنميمة والكذب ، فإنَّ النظرَ فيها أطول . وهى عشرون آفة ، فاعلم ذلك ترشد بعون الله تعالى .

الآفة الأُولى : الكلام فيما لا يعنيك

اعلم أنَّ أحسنَ أحوالك أن تحفظَ ألفاظَك من جميع الآفات التى ذكرناها : من الغِيبة والنميمة ، والكذب والمراء والجدال وغيرها ، وتتكلَّم فيما هو مباحٌ لا ضررَ عليك فيه ولا على مسلمٍ أصلاً ، إلاَّ أنَّك تتكلَّم بما أنت مستغنٍ عنه ولا حاجة بك إليه ؛ فإنَّك مُضِيعٌ به زمانك ، ومحاسَبٌ على عمل لسانك ، وتستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير .

بل رأسُ مالِ العبد أوقاتُه ، ومهما صرفها إلى مالا يعنيه ولم يدَّخرْ بها ثواباً فى الآخرة ، فقد ضيَّعَ رأس ماله . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مِن حُسنِ إسلام المرء تركُه مالا يَعْنيه » ، بل ورد ما هو أشدُّ من هذا ، قال أنس : استُشهِدَ غلامٌ منا يومَ أُحُد فوجدنا على بطنه حجراً مربوطاً من الجوع ، فمسحَتْ أمُّه عن وجهه التُّراب وقالت : هنيئاً لك الجنَّة يا بنيّ ! فقال صلى الله عليه وسلم : « وما يدريكِ لعلَّه كان يتكلَّم فيما لا يَعنيه ، ويمنع ما يضرُّه ؟ » .

وحدُّ الكلام فيما لا يعنيك : أن تتكلَّمَ بكلامٍ لو سكتَّ عنه لم تأْثم ، ولم تَستضِرَّ به فى حالٍ ولا مآل[1] . مثاله : أن تجلسَ مع قومٍ فتذكر لهم أسفارَك وما رأيت فيها من جبال وأنهار ، وما وقَع لك من الوقائِع ، وما استحسنتَه من الأَطعمة والثِّياب ، وما تعجَّبت منه من مشايخ البلاد ووقائِعهم . فهذه أُمورٌ لو سكتَّ عنها لم تأْثم ولم تستضرّ .

ومن جُملتها أن تسأَل غيرَك عما لا يَعنيك ، فأَنت مُضِيعٌ وقتك ، وقد أَلجأْتَ صاحبَك أيضاً بالجواب إلى التضييع . هذا إن كان الشيءُ مما لا يتطرَّق إلى السؤال عنه آفة ، وأَكثر الأَسئِلة فيها آفات . فإنَّك تسأَل غيرك عن عبادته مثلا فتقول له : هل أَنت صائم ؟ فإنْ قال نعم ، كان مُظهِراً لعبادته فيدخل عليه الرياءُ ، وإن لم يَدخُل سقطتْ عبادتهُ من ديوان السرِّ ، وعبادة السِّر تفضُل عبادةَ الجهر بدرجات . وإن قال : لا ، كان كاذباً . وإن سكتَ كان مستحقِراً لك وتأَذَّيت به ، وإن احتال لمدافعة الجواب افتقرَ إلى جُهد وتعب فيه . فقد عرَّضته بالسؤال إما للرِّياء ، أَو للكذب ، أَو للاستحقار ، أَو للتَّعب فى حيلة الدَّفع .

(١) المـآل : المستقبل .

الآفة الثانية : فضول الكلام

وهذا يتناول الخوضَ فيما لا يعنى ، والزيادةَ فيما لا يعنى على قَدْر الحاجة ، فإنَّ مَنْ يعنيه أمرٌ يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ، ويمكنه أن يجسِّمه ويقرِّره . ومهما تأدَّى مقصودُه بكلمة واحدة فذكر كلمتين فالثانية فضول – أى فضلٌ عن الحاجة – وهو أيضاً مذموم – لما سبق – وإن لم يكن فيه إثمٌ ولا ضرر .

وعن بعض الصَّحابة قال : إنَّ الرجل ليكلِّمنى بالكلام ، لَجَوابه أشهَى إلىَّ من الماء البارد إلى الظمآن ، فأَتركُ جوابه خيفةَ أن يكون فُضولا .

وقال مجاهد : إنَّ الكلامَ لَيُكتب، حتَّى إنَّ الرجل لَيُسَكِّت ابْنَه فيقول : أبتاع لك كذا وكذا . فيُكتَب كذاباً .

وقال عمرو بن دينار : تكلَّم رجلٌ عند النبى صلى الله عليه وسلم فأكثَرَ فقال له صلى الله عليه وسلم : « كم دونَ لسانِك من حجاب ؟ » فقال : شَفتاىَ وأسنانى . قال : « أفما كان لك فى ذلك ما يَرُدُّ كلامَك ؟ » .

وقال إبراهيم : يُهلِك الناس خَلَّتان : فُضول المال ، وفضول الكلام .

الآفة الثالثة : الخوض في الباطل

وهو الكلام فى المعاصى ، كحكاية أحوال النساء ومَجالس الخمر ، ومَقامات الفسّاق ، وتنعُّم الأغنياء ، وتجبُّر الملوك ومراسِمِهم المذمومة ، وأَحْوَالِهم المكروهة ، إنَّ كل ذلك مما لا يحلُّ الخوض فيه ، وهو حرام .

وأكثر الناس يتجالسون للتفرُّج بالحديث ، ولا يَعْدُو كلامهم التفكُّهَ بأعراض الناس ، أو الخوضَ فى الباطل . وأنواعُ الباطل

لا يمكن حصرُها ، لكثرتها وتفننها ؛ فلذلك لا مَخلص منها إلاَّ بالاقتصار على ما يعنى من مهمَّات الدين والدنيا .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة يُضْحِك بها جلساءه يهوى بها أبعدَ من الثُّريَّا » .

وقال سَلْمان : أكثر الناس ذنوباً يوم القيامة أكثرهم كلاماً فى معصية الله .

وقال ابن سيرين : كان رجلٌ من الأنصار يمرُّ بمجلسٍ لهم فيقول لهم : توضَّئُوا ؛ فإنَّ بعض ما تقولون شرٌّ من الحدَث .

الآفة الرابعة : المراءُ والجدال

وذلك منهيٌّ عنه . قال صلى الله عليه وسلم : « لا تُمارِ أخاك ، ولاتمازحْه ولا تَعِدْه موعداً فُتخلِفَه » .

وقال مالك بن أنس رحمة الله عليه : ليس هذا الجدال من الدين فى شيء . وقال أيضاً : المِراءُ يقسِّى القلوب ويُورِث الضغائن .

وحدُّ المراء هو كلُّ اعتراضٍ على كلام الغير بإظهار خللٍ فيه : إمَّا فى اللفظ ، وإمَّا فى المعنى ، وإمَّا فى قصد المتكلم . وتركُ المراء بترك الإنكار والاعتراض . فكلُّ كلامٍ سمعتَه فإن كان حقًّا فصدِّقْ به ، وإن كان باطلا أو كذباً ولم يكن متعلِّقاً بأُمور الدين فاسكتْ عنه .

والطَّعن فى كلام الغير تارةً يكون فى لفظهِ بإظهار خللٍ فيه من جهة النحو أو من جهة اللُّغة ، أو من جهة العربيَّة ، أو من جهة النَّظْم والترتيب بسوء تقديم أو تأْخير .

وأمَّا فى المعنى : فبأَنْ يقول : ليس كما تقول ؛ وقد أخطأْتَ فيه من وجهِ كذا وكذا .

وأمّا فى قصده فمثل أن يقول : هذا الكلامُ حقٌّ ، ولكن ليس قصدك منه الحقّ ، وإنما أنت فيه صاحبُ غرض .

وأمّا المجادلة فعبارةٌ عن قصد إفحام الغير وتعجيزه ، وتنقيصه بالقَدْح فى كلامه ، ونِسبتهِ إلى القصور والجهل فيه .

الآفة الخامسة : الخصومة

وهى أيضاً مذمومة ، وهى وراءَ الجدال والمراء .

فالمراءُ طعنٌ فى كلام الغير بإظهار خللٍ فيه ، من غير أن يرتبط به غرضٌ سوى تحقيرِ الغير ، وإظهار مزيَّة الكِياسة .

والجدال : عبارةٌ عن أمرٍ يتعلّق بإظهار المذاهب وتقريرها .

والخصومة : لَجَاجٌ فى الكلام ليُستوفَى به مالٌ أو حقٌّ مقصود ، وذلك تارةً يكون ابتداءً ، وتارة يكون اعتراضاً . والمراءُ لا يكون إلا باعتراضٍ على كلامٍ سبق . فقد قالت عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ أبغضَ الرجال إلى الله الألدُّ الخَصِم[1] » .

الآفة السادسة

التقعُّر فى الكلام ، بالتشدُّق وتكلُّف السجع والفصاحة ، والتصنُّع فيه بالتسبيبات والمقدّمات ، وما جرت به عادة المتفاصِحين المدَّعين للخطابة . وكلٌّ ذلك من التصنُّع المذموم ، ومن التكلُّف الممقوت ، الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنَا وأتقياءُ أُمتى بُرآءُ من التكلُّف» .

(١) الألد : الشديد الخصومة والمجادلة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ أبْغَضَكم إلىَّ وأبعَدَكم منّى مجلساً الثَّرثارون والمُتَفيْهِقُون[1] ، المتشدِّقون فى الكلام ».

وقال عمر رضى الله عنه : إنَّ شقاشقَ الكلام من شَقاشقِ الشيطان[2].

ولا يدخل فى هذه تحسينُ ألفاظ الخطابة والتذكير ، من غير إفراط وإغراب ؛ فإنَّ المقصود منها تحريكُ القلوب وتشويقها ، وقبضُها وبسطها. فلرشاقةِ اللفظ تأثيرٌ فيه ، فهو لائق به . فأمّا المحاورات التى تُجرَى لقضاء الحاجات فلا يليق بها السجع والتشدُّق .

الآفة السابعة : الفحش والسَّبُّ وبذاءة اللسان

وهو مذمومٌ ومنهيٌّ عنه ، ومصدره الخُبث واللؤم . قال صلى الله عليه وسلم « إيّاكم والفُحشَ ، فإن الله تعالى لا يحبُّ الفُحشَ ولا التفحُّش ».

وقال صلى الله عليه وسلم : « ليس المؤمن بالطَّعَّانِ ولا اللَّعَّان ، ولا الفاحش ولا البذىء » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « البَذَاءُ والبيان شُعبتان من شعب النفاق ». فيحتمل أن يراد بالبيان كشفُ ما لا يجوز كشفُه ، ويحتمل أيضاً المبالغةَ فى الإيضاح حتّى ينتهىَ إلى حدِّ التكلف . ويحتملَ أيضاً البيانُ فى أمور الدين وفى صفات الله تعالى ، فإنَّ إلقاء ذلك مجملاً إلى أسماع العوام أوْلى من المبالغة فى بيانه ؛ إذْ قد يثور من غاية البيانِ فيه شكوكٌ ووساوس.

وقال صلى الله عليه وسلم : « سِباب المؤمن فُسوقٌ ، وقِتالُه كُفر » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من أكبر الكبائر أن يَسُبَّ الرجلُ والديه» قالوا : يا رسول الله ، كيف يسبُّ الرجلُ والديه ؟ قال : « يسبُّ أبا الرجل فيسبُّ الآخر أباه » .

---

(١) تفيهق بكلامه : تنطع وتوسع ، كأنه ملأ به فمه .

(٢) أصل الشقشقة شىء كالرئة يخرجه البعير من فيه إذا هاج .

الآفة الثامنة : اللعن

إمّا لحيوانٍ ، أو جمادٍ ، أو إنسان . وكلٌّ ذلك مذموم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن ليس بلعّان ».

واللعن عبارة عن الطّرد والإبعاد من الله تعالى ، وذلك غيرُ جائزٍ إلاّ على من اتّصف بصفةٍ تُبعده من الله عز وجل ، وهو الكفر والظلم ، بأن يقول : لعنةُ اللهِ على الظالمين وعلى الكافرين .

والصفات المقتضية للّعن ثلاثةٌ : الكفر ، والبِدعة ، والفسْق .

فإن قيل : هل يجوز لعن يزيد لأنه قاتل الحسين أو آمرٌ به ؟

قلنا : هذا لم يثبتْ أصلا ، فلا يجوز أنْ يقال إنّه قتله أو أمر به ما لم يثبت ؛ فضلاً عن اللّعنة ، لأنّه لا تجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق . نعم يجوز أن يقال : قَتَل ابنُ ملجمٍ عليًّا ، وقتل أبو لؤلؤةَ عمرَ رضى الله عنهما ، فإن ذلك ثبتَ متواتراً . فلا يجوز أن يُرمَى مسلمٌ بفسق أو كفرٍ من غير تحقيق .

ويقرُب من اللعن الدعاءُ على الإنسان بالشرّ ، حتّى الدعاءُ على الظالم كقول الإنسان مثلا : لا صحّح الله جسمَه ، ولا سلّمه الله ! وما يجرى مجراه ؛ فإنّ ذلك مذموم .

الآفة التاسعة : الغناءُ والشعر

وقد ذكرنا فى كتاب السَّماع ما يحرُم من الغناء وما يحلُّ ، فلا نعيده.

وأمّا الشعر فكلامٌ حَسنُه حَسَن ، وقبيحُه قبيحٌ ، إلاّ أنّ التجرُّد له مذموم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأن يمتلئ جوفُ أحدكم قيحاً حتّى يَرِيَهُ[1] خير من أن يمتلئ شِعراً » .

(١) ورى القيح جوفه يريه وريا : أفسده .

وعلى الجملة فإنشاد الشعر ونظمه ليس بحرَام إذا لم يكن فيه كلامٌ مُستكره . قال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ من الشعر لَحِكمةً » .

وقد أمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت الأنصاريَّ بهجاء الكفَّار .

والتوسُّعُ فى المدح فإنه وإنْ كان كذباً فإنَّه لا يلتحق فى التحريم بالكذب ،كقول الشاعر[1] :

ولو لم يكن كفِّه غيرُ رُوحه لجادَ بهـا فليتَّقِ الله سائلهُ

فإن هذا عبارةٌ عن الوصف بنهاية السخاء ، فإن لم يكن صاحبه سخياً كان كاذباً ، وإذا كان سخياً فالمبالغة مِن صنعة الشعر ، فلا يقصد منه أن يَعتَقِدَ صورته .

الآفة العاشرة : المزاح

وأصله مذمومٌ منهيٌّ عنه ، إلا قدراً يسيراً يستثنى منه . قال صلى الله عليه وسلم : « لا تمارِ أخاك ولا تمازِحْه » .

فإن قلت : قد نُقل المزاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فكيف يُنهى عنه ؟

فأقول : إن قدَرتَ على ما قدَر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وهو أن تمزحَ ولا تقولَ إلاَّ حقاً ، ولا تؤذِيَ قلباً ، ولاتفْرِطَ فيه وتقتصر عليه أحياناً على النُّدور ، فلا حرجَ عليك فيه . ولكنْ من الغلط العظيم أنْ يتَّخذ الإنسان المِزاح حرفةً يُواظب عليه ، ويُفرِطُ فيه ، ثم يتمسَّك بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم . وهو كمن يدور نَهارَه مع الزُّنوج ينظر إليهم وإلى رَقْصهم ، ويتمسَّك بأنَّ رسول الله صلى الله عليه

---

(١) هو أبو تمام ، من قصيدة يمدح بها المعتصم .

وسلم أَذِن لعائشة في النظر إلى رقص الزُّنوج في يوم عيد . وهو خطأ ؛ إذْ من الصغائر ما يصير كبيرة بالإصرار ، ومن المباحات ما يصير صغيرةً بالإصرار . فلا ينبغي أن يَغفُل عن هذا .

وعن الحسن قال : أتتْ عجوزٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها صلى الله عليه وسلم : « لا يدخلُ الجنَّة عجوز » ، فبكت فقال : « إنَّكِ لستِ بعجوزٍ يومئذٍ ، قال الله تعالى : (إنَّا أنشأْناهنَّ إنشاءً * فجعلْناهُنَّ أبكاراً) » .

وقال زيد بن أسلم : إنَّ امرأة يقال لها أم أيمن ، جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : إنَّ زوجي يدعوك ، قال : « ومن هو ! أهو الذي بعينه بياض ؟ » ، قالت : واللهِ ما بعينه بياض ! فقال « بلى إنَّ بعينه بياضاً » . فقالت : لا والله . فقال صلى الله عليه وسلم : « ما مِن أحدٍ إلاَّ وبعينه بياض ! » . وأراد به البياض المحيطَ بالحدقة .

وجاءت امرأةٌ أُخرى فقالت : يا رسول الله ، احملني على بعير . فقال : « بل نَحملُك على ابنِ البعير » . فقالت : ما أصنعُ به ؟ إنَّه لا يحملُني . فقال صلى الله عليه وسلم : « ما من بعيرٍ إلا وهو ابنُ بعير » .

وقال أنس : كان لأبي طلحة ابنٌ يقال له أبو عمير ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأْتيهم ويقول : « يا أبا عُمير ، ما فَعَل النُّغير[1] ؟» لِنُغيرٍ كان يلعب به ، وهو فرخ العصفور .

فهذه مطايبَات يباح مثلُها على النُّدور ، لا على الدوام . والمواظبةُ عليها هزلٌ مذموم ، وسببٌ للضحك المميت للقلب .

(١) النغير : مصغر النغر ، كصرد ، وهو طائر يشبه العصفور .

الآفة الحادية عشرة : السخرية والاستهزاء

ومعنى السخرية :الاستهانةُ والتحقير ، والتنبيهُ على العيوب والنقائص على وجهٍ يُضحَكُ منه . وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيماء ، وإذا كان بحضرة المستهزَإ به لم يُسمَّ ذلك غِيبة وفيه معنى الغِيبة .

وهذا إنَّما يحرُم فى حقِّ من يتأذَّى به . فأمَّا من جعل نفسه مَسْخرةً وربَّما فَرح من أن يسخرَ به ، كانت السُّخرية فى حقِّه من جملة المزاح .

وإنَّما المحرَّم استصغارٌ يتأذَّى به المستهزأُ به ، لما فيه من التحقير والتهاون .وذلك تارةً بأَن يضحك على كلامه إذا تخبَّط فيه ولم ينتظم ، أو على أفعاله إذا كانت مشوَّشة ؛ كالضَّحِك على خَطِّه وعلى صنعته ، أو على صورته وخلقته إذا كان قصيراً أو ناقصاً لعيبٍ من العيوب . فالضَّحِك من جميع ذلك داخلٌ فى السُّخرِيَة المنهىِّ عنها .

الآفة الثانيةَ عشرةَ : إفشاءُ السرِّ

وهو منهىٌّ عنه لما فيه من الإيذاءِ والتَّهاون بحقِّ المعارف والأصدقاء . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا حَدَّث الرجلُ الحديثَ ثم التفتَ فهى أمانة » .

وقال الحسن : إنَّ من الخيانة أن تحدِّث بسرِّ أخيك .

وهو حرامٌ إذا كان فيه إضرار ، ولؤمٌ إن لم يكن فيه إضرار .

الآفة الثالثةَ عشرةَ : الوعد الكاذب

فإنَّ اللسان سبَّاقٌ إلى الوعد ، ثم النفس ربَّما لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خُلْفا . وذلك من أمارات النِّفاق . قال الله تعالى : (يـأَيُّها الذين آمنوا أَوْفُوا بالعُقودِ) .

ولما حضرتْ عبدَ الله بنَ عمر الوفاةُ قال : إنَّه كان خطب إليَّ ابنتي رجلٌ من قريش ، وقد كان مني إليه شِبهُ الوعد ، فوالله لا ألْقَى الله بثُلث النفاق ! أُشهدُكم أني قد زوَّجتُه ابنتي .

قال رسول الله صلى الله عله وسلم : « أربعٌ من كُنَّ فيه كان منافقاً ، ومن كانت فيه خَلَّة منهنَّ كان فيه خَلَّة من النِّفاق حتَّى يدَعَها : إذا حدَّث كذَب ، وإذا وعدَ أخلف ، وإذا عاهد غَدَر ، وإذا خاصم فجر » .

وهذا ينزل على من وَعَد وهو على عزم الخُلْف ، أو ترك الوفاء من غير عذر . فأمَّا من عزم على الوفاء فعنَّ له عذرٌ منعه من الوفاء لم يكن مُنافقاً ، وإن جرى عليه ما هو صورة النِّفاق ؛ ولكن ينبغي أن يحترز من صورة النفاق أيضاً كما يحترز من حقيقته .

الآفة الرابعة عشرةَ : الكَذِبُ في القول واليمين

وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب .

وقال عليه السلام « كبُرَت خيانةً أن تحدِّثَ أخاك حديثاً هو لك به مُصدِّق وأنت له به كاذب » .

قال ابن مسعود : قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم « لا يزال العبدُ يَكذِب ويتَحرَّى الكذب حَتَّى يُكتبَ عند الله كذاباً » .

وأما الآثار : فقد قال على رضى الله عنه : أعظم الخطايا عند الله اللسانُ الكَذوب ، وشرُّ الندامةِ ندامةُ يومِ القيامة » .

وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه : ما كذبت كِذبةً منذ شددْتُ عليَّ إزاري .

بيان مارخص فيه من الكذب

اعلم أنَّ الكذب ليس حراماً لعينهِ ، بل لما فيه من الضّرر على المخاطَب أو على غيره ؛ فإنَّ أقلَّ درجاته أن يعتقد المُخبَرُ الشيء على خِلاف ما هو عليه فيكون جاهلا . وقد يتعلَّق به ضرر غيره . وربَّ جهلٍ فيه منفعةٌ ومصلحة ، فالكذب محصِّل لذلك الجهل . فيكون مأْذوناً فيه ، وربَّما كان واجباً .

قال ميمون بن مِهران : الكذبُ فى بعض المواطن خيرٌ من الصدق . أرأيتَ لو أنَّ رجلا سَعى خلْفَ إنسان بالسيف ليقتلَه فدخل داراً فانتهى إليك ، فقال : أرأيت فلاناً ؟ ما كنت قائلا ؟ ألست تقول : لم أره ! وما تَصدُق به . وهذا الكذب واجب .

والذى يدلُّ على الاستثناء ما رُوى عن أم كلثوم قالت : ما سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخِّص فى شيء من الكذب إلا فى ثلاث : الرجل يقول القولَ يريد به الإصلاح ، والرجل يقولَ فى الحرب ، والرجل يحدِّث امرأته ، والمرأة تحدِّث زوجها .

وقالت أسماءُ بنت يزيد : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كلُّ الكذب يُكتب على ابن آدم ، إلاَّ رجلٌ كذَب بين مسلميْن ليصلح بينهما » .

وقد ظنَّ ظانُّون أنه يجوز وضعُ الأَحاديث فى فضائل الأَعمال ، وفى التشديد فى المعاصى ، وزعموا أنَّ القصد منه صحيح . وهو خطأٌ محض ؛ إذ قال صلى الله عليه وسلم : « مَن كذَب على متعمِّداً فليتبوَّأْ مقعدَه من النار[1] » .

وهذا لا يُرتكب إلا لضرورة ، ولا ضرورة إذْ فى الصدق مندوحةٌ عن الكذب . ففيما ورد من الآيات والأَخبار كفايةٌ عن غيرها .

---

(١) أى لينزل منزله من النار . يقال تبوأ فلان منزلا ، أى اتخذه .

بيان الحذر من الكذب بالمعاريض

قد نُقل عن السَّلف أن فى المعاريض مندوحةً عن الكذب . قال عمر رضى الله عنه : أمَا فى المعاريض ما يكفى الرجلَ عن الكذب ؟

ورُوى ذلك عن ابن عباس وغيره ..

وإنّما أرادوا بذلك إذا اضطُرّ الإنسان إلى الكذب ، فأَما إذا لم تكن حاجةٌ وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التّصريح جميعاً ، ولكن التعريض أهوَن .

وقال إبراهيم : إذا بلغَ الرجلَ عنك شىءٌ فكرهتَ أن تكذب فقل : إن الله تعالى ليعلمُ ما قُلتُ من ذلك من شىء . فيكون قوله «ما» حرفَ نفى عند المستمع ، وعنده للإبهام .

نعم ، المعاريض تباح لغرضٍ خفيف ، كتطييب قلب الغير بالمزاح ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخلُ الجنّة عجوز » . وقوله للأُخرى : « الذى فى عين زَوجِكِ بياض » ، وللأُخرى : « نَحمِلك على ولد البعير » وما أَشبهه .

وأما الكذب الصريح كما فعل نُعيمانُ الأَنصاريُّ مع عثمان فى قصة الضّرير ، إذ قال له : إنّه نعيمان[1] ، وكما يعتاده الناس من ملاعبة الحمق بتغريرهم بأَنّ امرأة قد رغبت فى تزويجك ، فإنْ كان فيه ضررٌ يؤدّى إلى إيذاء قلبٍ فهو حرام ، وإن لم يكن إلا لمطايبته فلا يوصَف صاحبها بالفسق ، ولكن ينقص ذلك من درجة إيمانه .

---

(١) الضرير هو مخرمة بن نوفل ، وكان نعيمان قد آذاه ، فحلف مخرمة ليضربنه ، فأتى المسجد يوماً وعثمان قائم يصلى فى ناحية منه فسأل عن نعيمان ليضربه ، فقال نعيمان لمخرمة : هل لك فى نعيمان ؟ قال : نعم . فأخذ بيده حتى أوقفه على عثمان فقال : دونك هذا نعيمان ، فأنحى على عثمان بالضرب يظنه نعيمان حتى صاح به القوم فكف عن ذلك . انظر الإصابة لابن حجر .

الآفة الخامسة عشرة : الغِيبة

وقد نصَّ الله سبحانه على ذمِّها فى كتابه ، وشبَّه صاحبَها بآكل لحم المَيْتة ، فقال تعالى : (وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ) . وقال عليه السلام : « كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ : دمُه ، ومالُه ، وعِرْضُه » .

والغِيبة تتناول العِرض ، وقد جمع الله بينه وبين المال والدم .

وكان الصحابة رضى الله عنهم يتلاقون بالبشر ، ولا يغتابون عند الغَيبة ، ويرون ذلك أفضلَ الأعمال ، ويرون خلافَه عادةَ المنافقين .

وعن مجاهد أنه قال فى : (وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ) : الهُمَزَةُ : الطعَّان فى الناس . واللُّمَزة : الذى يأكل لحوم الناس .

وقال مالك بن دينار : مرَّ عيسى عليه السلام ومعه الحواريُّون بجيفة كلب فقال الحواريون : ما أنتنَ ريح هذا الكلب ! فقال عليه الصلاة والسلام : ما أشدَّ بياضَ أسنانه ! كأنه صلى الله عليه وسلم نهاهم عن غِيبة الكلب ، ونبَّههم على أنه لا يذكر من شىء مِن خَلْقِ الله إلا أحسنُه .

بيان معنى الغيبة وحدودها

اعلم أنَّ حدَّ الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغَه ، سواءٌ ذكرتَه بنقصٍ فى بدنه ، أو فى نسبه ، أو فى خُلقه ، أو فى فِعله ، أو فى قوله ، أو فى دينه ، أو فى دنياه ، حتَّى فى ثوبه وداره ودابَّتِهِ .

أما البدن : فكذكرك العَمَش والحَول والقَرَع ، والقِصرَ والطول ، والسواد والصفرة ، وجميع ما يتصوَّر أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان.

وأما النسب فبأن تقول : أبوه نَبَطىٌّ أو هندىٌّ ، أو فاسق أو خسيس أو إسكاف أو زَبَّال ، أو شىء مما يكرهه كيفما كان .

وأما الخُلُق : فبأن تقول : هو سيِّئُ الخلق ، بخيلٌ متكبِّر ، مُراء شديدُ الغضب، جَبان عاجز ، ضعيفُ القلب ، متهوِّر ، وما يجرى مجراه .

و أما فى أفعاله المتعلِّقة بالدين : فكقولك : هو سارق أو كذّاب ، أو شاربُ خمر ، أو خائن أو ظالم ، أو متهاونٌ بالصلاة أو الزكاة ، لا يُحسن الركوع والسجود ، أو لا يحترز من النجاسات ، أوْ ليس بارًّا بوالديه ، أو لا يضع الزكاة موضعَها أو لا يُحسن قِسْمتَها ، أو لايحرس صومَه عن الرَّفَث والغِيبة والتعرُّضِ لأعراض الناس .

وأمَّا فِعله المتعلق بالدنيا : فكقولك : إنَّه قليل الأدب متهاونٌ بالناس أو لا يرى لأحدٍ على نفسه حقًّا ، أو يرى لنفسه الحقَّ على الناس ، أو إنه كثير الكلام كثير الأَكْل ، نؤُومٌ ينام فى غير وقت النَّوم ، ويجلس فى غير موضعه .

وأما فى ثوبه فكقولك : إنه واسع الكم ، طويل الذَّيل ، وسِخ الثياب .

بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان

اعلم أنَّ الذكر باللسان إنَّما حُرِّم لأن فيه تفهيمَ الغير نقصان أخيك وتعريفه بمايكرهه ، فالتعريض به كالتصريح ، والفعل فيه كالقول . والإشارةُ والإيماءُ ، والغمز والهمز ، والكتابة والحركة ، وكلُّ ما يفهم المقصود فهو داخلٌ فى الغِيبة ، وهو حرام .

ومن ذلك المحاكاة ، كأن يمشىَ متعارجاً أو كما يمشى ، فهو غيبة ، بل هو أشدُّ من الغيبة ، لأنه أعظم فى التصوير والتفهيم .

وكذلك الغِيبة بالكتابة ، فإنَّ القلم أحدُ اللسانين .

ومن ذلك الإصغاءُ إلى الغيبة على سبيل التعجُّب ، فإنَّه إنَّما يُظهر التعجُّب ليزيد نشاط المغتاب فى الغيبة فيندفع فيها ، وكأنَّه يستخرج

الغيبة منه بهذا الطريق فيقول: عجبٌ، ما علمتُ أنه كذلك! ما عرفته إلى الآن إلاّ بالخير! وكنت أحسَب فيه غير هذا، عافانا الله من بلائه. فإنّ كلّ ذلك تصديقٌ للمغتاب، والتصديق بالغيبة غِيبةٌ، بل السّاكت شريك المغتاب.

بيان تحريم الغيبة بالقلب

اعلم أنّ سوء الظنّ حرام مثل سوء القول ، فكما يحرم عليك أن تحدِّث غيرك بلسانك بمساوِى الغير ، فليس لك أن تحدِّث نفسك وتسيء الظن بأخيك . ولست أعنى به إلاّ عقد القلب وحكْمه على غيره بالسُّوء . فأمّا الخواطر وحديث النفس فهو معفوٌّ عنه ، بل الشكُّ أيضاً معفوٌّ عنه ، ولكن المنهىّ عنه أن يظنّ ، والظنُّ عبارة عما تركن إليه النفس ، ويميل إليه القلب . فقد قال الله تعالى : (يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إثْمٌ) .

وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلاّ علاّمُ الغيوب ، فليس لك أن تعتقد فى غيرك سوءاً إلاّ إذا انكشف لك بعيانٍ لا يقبل التأويل .

ومهما عرفتَ هفوة مسلمٍ بحجّة فانصحْه فى السرّ ، ولا يخدعنّك الشيطان فيدعوكَ إلى اغتيابه. وإذا وعظته فلا تعِظْه وأنت مسرور باطّلاعك على نقصه لينظر إليك بعين التعظيم ، وتنظر إليه بعين الاستحقار وتترفّع عليهْ ، بإبداء الوعظ . وليكن قصدَك تخليصه من الإثم وأنت حزين ، كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك نقصانٌ فى دينك .

بيان الأعذار المرخصة في الغيبة

اعلم أنّ المرخِّص فى ذكر مساوِى الغير هو غرضٌ صحيح فى الشرع ، لا يمكن التوُّصل إليه إلاّ به ، فيدفع ذلك إثم الغيبة . وهى ستة أُمور :

الأول : التظلُّم ، فإنّ من ذكر قاضياً بالظُّلم والخيانة وأخذ الرشوة كان مغتاباً عاصياً ، إنْ لم يكن مظلوماً . أما المظلوم من جهة القاضى

فله أنْ يتظلمَ إلى السلطان وينسبَه إلى الظلم ، إذ لا يمكنه استيفاءُ حقه إلا به . قال صلى الله عليه وسلم : « إن لصاحب الحق مقالاً » .

الثانى : الاستعانة على تغيير المُنكر وردِّ العاصى إلى منهج الصلاح ، كما روى أن عمر رضى الله عنه مرَّ على عثمان – وقيل على طلحة – رضى الله عنه ، فسلَّم عليه فلم يردَّ السلام ، فذهب إلى أبى بكر رضى الله عنه فذكر له ذلك ، فجاء أبو بكر إليه ليُصلح ذلك . ولم يكن ذلك غيبةً عندهم.

الثالث : الاستفتاءُ ، كما يقول للمفتى : ظلمنى أبى أو زوجتى أو أخى ، فكيف طريقى فى الخلاص ؟ والأسلم التعريض ، بأن يقول : ما قولك فى رجلٍ ظلمه أبوه ، أو أخوه ، أو زوجته ؟

الرابع : تحذير المسلم من الشرّ ، فإذا رأيت فقيهاً يتردَّد إلى مبتدعٍ أو فاسق ، وخِفت أن تتعدَّى إليه بدعتهُ وفسقه ، فلك أن تكشف له بدعته وفسقه . مهما كان الباعث لك الخوفَ عليه من سِراية البِدعة والفسق لا غيرَه .

وكذلك من اشترى مملوكاً وقد عَرفتَ المملوك بالسرقة أو بالفسق ، أو بعيب آخر ، فلك أن تذكر ذلك ، فإن فى سكوتك ضررَ المشترى ، وفى ذكرك ضررَ العبد ، والمشترى أولى بمراعاة جانبِه .

الخامس : أن يكون الإنسان معروفاً بلقبٍ يُعرب عن عيبهِ ، كالأعرج والأعمش ، فلا إثم على من يقول : روى أبو الزِّناد عن الأعرج ، وسَلمان عن الأعمش ، وما يجرى مجراه ، فقد فعل العلماءُ ذلك لضرورة التعريف.

السادس : أن يكون مجاهراً بالفسق ، كالمخنَّث وصاحب الماخور[1] والمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس ، وكان ممن يتظاهر به بحيث

---

(١) الماخور : بيت الريبة ، معرب من « مى خور » .

لا يَستنكف من أن يُذْكَر له ، ولا يُكره له أن يُذكر به . فإذا ذكرت فيه ما يتظاهر به فلا إثم عليك .

الآفة السادسة عشرة : النميمة

قال الله تعالى : (هَمّازٍ مَشَّاءٍ بنميم) ثم قال : (عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زنيم) .

قال عبدالله بن المبارك : الزَّنيم : ولد الزنى الذى لا يكتم الحديث ، وأشار به إلى أنَّ كلَّ من لم يكتُمْ الحديث ومَشَى بالنميمة دلَّ على أنه ولد زنى ، استنباطاً من قوله عز وجل : (عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ) ، والزنيم هو الدعيّ[1] .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا يدخُل الجنةَ نَمَّام » . وفى حديث آخر : « لا يدخل الجنةَ قتّات » . والقتّات ، هو النَّمَّام .

بيان حد النميمة وما يجب في ردها

اعلم أن اسم النميمة إنما يطلق فى الأكثر على مَنْ ينُمُّ قولَ الغيرِ إلى المَقُول فيه ، كما تقول : فلانٌ كان يتكلَّم فيك بكذا وكذا . وليست النميمة مختصّةً به ، بل حدُّها كشف ما يُكْرَه كشفُه ، سواءٌ كرِهه المنقُول عنه أو المنقولُ إليه ، أو كرهه ثالثٌ ، وسواءٌ كان الكشف بالقول أو بالكتابة ، أو بالرمز أو بالإيماء ، وسواءٌ كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواءٌ كان ذلك عيباً ونقصاً فى المنقول عنه أو لم يكن. بل حقيقة النميمة إفشاءُ السر وهتكُ السِّتر عما يكره كشفه ، بل كلُّ ما رآه الإنسان من أحوال الناس ممَّا يكره فينبغى أن يسكت عنه ، إلاَّ ما فى حكايته فائدةٌ لمسلم أو دفعٌ لمعصية ، كما إذا رأى مَن يتناول مالَ غيره فعليه أن يَشهد به ، مراعاةً لحقِّ المشهود له ، فأمَّا إذا رآه يخفى

---

(١) الدعى : المتهم فى نسبه .

مالاً لنفسه فذكَرَه فهو نميمةٌ وإفشاءٌ للسر ، فإنْ كان ما ينمّ به نقصاً وعيباً في المحكّي عنه كان قد جمع بين الغِيبة والنميمة .

وقال الحسن : من نمَّ إليك نَمَّ عليك . وهذا إشارة إلى أن النمام ينبغي أن يُبغض ولا يُوثَق بقوله ولا بصداقته .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يدخلُ الجنَّة نمَّام » . وفي حديث آخر « لا يدخل الجنة قَتَّات » . والقتات ، هو النمام .

وقال رجل لعمرو بنِ عُبيد : إنَّ الأُسوارىَّ ما يزال يذكرك في قصصه بِشَرّ ! فقال له عمرو : يا هذا ما رعيت حقَّ مجالسة الرجل حيث نقلتَ إلينا حديثه ، ولا أدَّيت حقِّي حين أعْلَمتَني عن أخي ما أكْرهُ ، ولكن أعلمْه أنَّ الموتَ يعمُّنا ، والقبرَ يضمُّنا ، والقيامةَ تجمعُنا ، واللهُ تعالى يحكم بيننا وهو خيرُ الحاكمين !

وعلى الجملة فشَرُّ النمام عظيمٌ ينبغي أن يُتَوقَّى.

قال حمَّاد بن سلمة : باع رجل عبداً وقال للمشترى : ما فيه عيب إلاَّ النميمة . قال : قد رضيت . فاشتراه ، فمكث الغلام أيَّاماً ثم قال لزوجة مولاه: إنَّ سيِّدى لا يحبك، وهو يريد أن يتسرَّى عليك[1] فخُذِي الموسى واحلِقي من شعر قفاه عند نومه شَعَراتٍ حتَّى أسحَرَه عليها فيحبَّك . ثم قال للزوج: إنَّ امرأتك اتَّخذت خليلا وتريد أنْ تقتلك، فتناومْ لها حتَّى تعرف ذلك ! فتناومَ لها، فجاءت المرأة بالموسى فظنَّ أنها تريد قتله ، فقام إليها فقتلها ، فجاء أهل المرأة فقتلوا الزَّوج ، ووقع القتالُ بين القبيلتين .

الآفة السابعة عشرةَ

كلامُ ذى اللسانين ، الذى يتردَّد بين المتعادين ويكلِّمُ كلَّ واحد منهما بكلام يوافقه. وقلما يخلو عنه مَن يشاهد متعاديين ، وذلك عينُ النِّفاق.

(١) يتسرى : يتخذ سرية ، وهى الجارية يبوئها سيدها بيتاً . يقال تسرى وتسرر .

قال عمّار بن ياسر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن كان له وجهان فى الدُّنيا كان له لسانان من نارٍ يومَ القيامة » .

وقال مالك بن دينار : قرأت فى التوراة : « بَطَلَت الأمانة ، والرجل مع صاحبه بشفتَين مختلفتين . يُهلِك الله تعالى يومَ القيامة كلَّ شفتين مختلفتين » .

فإن قلتَ : بماذا يصير الرجل ذا لسانين ، وما حدُّ ذلك ؟

فأقول : إذا دخل على متعاديين وجاملَ كلَّ واحدٍ منهما وكان صادقاً فيه لم يكن منافقاً ولا ذا لسانين ؛ فإنَّ الواحد قد يصادق متعاديَين ولكن صداقةً ضعيفة لا تنتهى إلى حدِّ الأُخوَّة ، إذ لو تحقَّقت الصداقة لاقتضت معاداة الأعداء .

نعم لو نقل كلام كلٍّ واحدٍ منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين ، وهو شرٌّ من النميمة ، إذْ يصير نَمَّاماً بأن ينقُل من أحد الجانبين فقط ، فإذا نقل من الجانبين فهو شرٌّ من النمَّام ، وإن لم ينقلْ كلاماً ولكن حسَّن لكلٍّ واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه فهذا ذولسانين .

الآفة الثامنة عشرةَ : المدح

والمدح يدخله ست آفات : أربع فى المادح ، واثنتان فى الممدوح :

فأما المادح ؛ فالأُولى : أنَّه قد يُفْرط فينتهى به إلى الكذب .

الثانية : أنه قد يدخلُه الرياءُ ، فإنَّه بالمدح مُظْهِرٌ للحبِّ ، وقدلايكون مضمِراً له معتقِداً لجميع ما يقوله ، فيصير به مرائياً منافقاً .

الثالثة : أنه قد يقول مالا يتحقَّقه ولا سبيل له إلى الاطِّلاع عليه . روى أنَّ رجلاً مدح رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال له عليه السلام : « ويحكَ قطعتَ عنق صاحبِك ! لو سمعَها ما أفلح » .

وهذه الآفة تتطرّق إلى المدح بالأوصاف المطلَقة التى تُعرف بالأدلّة ، كقوله : إنّه متّقٍ وورِعٌ ، وزاهدٌ وخيِّرٌ ، وما يجرى مجراه ، فأمّا إذا قال رأيتُه يصلّى بالليل ويتصدَّق ويحجّ ، فهذه أمور مستيقَنة .

الرابعة : أنه قد يُفرِحُ الممدوحَ وهو ظالم أو فاسق ، وذلك غير جائز.

وأما الممدوح فيضرُّه من وجهين :

أحدُهما : أنّه يُحدِثُ فيه كِبْراً وإعجاباً ، وهما مُهلِكان .

الثانى : هو أنّه إذا أثنَى عليه بالخير فرِح به وفَتَر ورضىَ عن نفسِه ، ومَن أعْجِب بنفسِه قلّ تشمُّرُهُ ، وإنّما يتشمَّر للعمل مَن يرى نفسه مقصِّراً . فأمّا إذا انطلقت الألسنُ بالثّناء عليه ظنّ أنّه قد أدركَ . ولهذا قال عليه السلام : « قطعْتَ عنقَ صاحبك ، لو سمعَها ما أفلح » .

وقال عمر رضى الله عنه « المدح هو الذّبح » . وذلك لأنّ المذبوح هو الذى يفتُر عن العمل ، والمدح يوجب الفتور . أو لأنّ المدحَ يُورثُ العُجْبَ والكِبْر . وهما مُهْلِكان كالذّبح ؛ لذلك شبَّهه به ، فإنْ سلم المدحُ من هذه الآفات فى حقّ المادح والممدوح لم يكن به بأْسٌ ، بل ربَّما كان مندوباً إليه . ولذلك أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصحابة .

وكانوا رضى الله عنهم أجلّ رُتْبةً من أن يُورِثهم ذلك كِبْراً وعُجْباً وفتوراً.

الآفة التاسعة عشرةَ

الغفلة عن دقائقِ الخطإ فى فَحْوى الكلام[1] لا سيَّما فيما يتعلَّق بالله وصفاته ، ويرتبط بأمور الدين ، فلا يقدر على تقويم اللّفظ فى أمور الدين إلاّ العلماءُ الفصحاءُ . فمن قصَّر فى علمٍ أو فصاحة لم يخلُ كلامهُ

---

(١) فحوى الكلام : معناه ومقصده .

عن الزلل . لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله . مثالُه ما قال حذيفة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يَقُلْ أحدُكم ما شاء الله وشئتُ ، ولكن ليقلْ ما شاء الله ثمَّ شئت » . وذلك لأنَّ فى العطف المطلق تشريكاً وتسوية ، وهو على خلاف الاحترام .

وخَطبَ رجلٌ عند رسول الله صلى الله عليه وسلمْ فقال : من يُطع الله ورسولَه فقد رشَد ، ومن يَعصِهما فقد غوى ! فقال : « قل : ومَنْ يعص الله ورسولَه فقد غوى » . فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : ومن يعصهما ؛ لأنه تسويةٌ وجمع .

وكره بعضُهم أن يقال : اللهم أعتِقْنا من النار ! وكان يقول: العتق يكون بعد الورود .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا تسمُّوا العِنبَ كَرْماً . إنَّما الكَرْم الرجل المسلم » .

الآفة العشرون

سؤال العوامّ عن صفات الله تعالى وعن كلامه ، وعن الحروف وأنَّها قديمة أو محدثة ؟ ومِن حقِّهم الاشتغالُ بالعمل بما فى القرآن. إلاَّ أنَّ ذلك ثقيلٌ على النفوس ، والفضول خفيفٌ على القلب. والعامِّيُّ يفرح بالخَوض فى العلم ؛ إذِ الشيطانُ يخيِّل إليه أنَّه من العلماء وأهلِ الفضل ، ولا يزال يحبِّب إليه ذلك حتَّى يتكلم فى العلم بما هو كُفرٌ ولا يدرى . وكلُّ كبيرةٍ يرتكبها العامِّيُّ فهى أسلم له من أن يتكلَّم فى العلم ، لا سيَّما فيما يتعلق بالله وصفاته . وإنَّما شأنُ العوامِّ الاشتغال بالعبادات ، والإيمانُ بما وَرَدَ به القرآن ، والتسليم لما جاء به الرسلُ من غير بَحْث .

وفى الحديث : « نهَى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القِيل والقال، وإضاعة المال ، وكثرة السُّؤَال » . وقال صلى الله عليه وسلم : « يُوشك الناسُ يتساءلون حتّى يقولوا : قد خلَق الله الْخلق فمن خَلَقَ الله ؟ فإذا قالوا ذلك فقولوا : قل هُو الله أَحد * الله الصَّمَد ، حتّى تختموا السورة . ثم ليتفُلْ أحدكم عن يسارِه ثلاثاً وليستعِذْ بالله من الشيطان الرجيم » .

فسؤال العوامِّ عن غوامض الدين من أعظم الآفات ، وهو من المثيرات للفِتَن . فيجب قمعُهم ومنعُهم من ذلك . وخوضُهم فى حروف القرآن يضاهِى حالَ من كتب الملكُ إليه كتاباً ورسم له فيه أموراً فلم يشتغلْ بشىء منها ، وضيَّعَ زمانَه فى أنَّ قرطاس الكتاب عتيق أم حديث ؟ فاستحقَّ بذلك العقوبة لا محالة .

الكتاب الخامس

كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

بيان ذم الغضب

قال الله تعالى : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية . ذمَّ الكفَّار بما تظاهروا به من الحميَّة الصادرة عن الغضَب بالباطلِ ، ومَدَحَ المؤمنين بما أنزل الله عليهم من السَّكينة .

وروَى أبو هريرة أنَّ رجلا قال : يا رسول الله، مُرْنى بعملٍ وأَقْلِل[1] ، قال : « لا تغضب » . ثم أعاد عليه فقال : « لا تغضب ! » .

وقال ابنُ مسعود : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما تعُدُّون الصُّرَعَةَ فيكم ؟ » قلنا : الذى لا تَصرعُه الرجال . قال : « ليس ذلك ، ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب » .

وقال الحسن : يا ابن آدمَ ، كلَّما غضِبت وَثَبْت ، ويُوشِكُ أن تَثِبَ وثبةً فتقعَ فى النار !

وقال بعضهم : إيَّاكَ والغضب ؛ فإنه يصيِّرك إلى ذِلَّة الاعتذار .

وكان عمر رضى الله عنه إذا خطب قال فى خطبته : أفلح من حُفظ من الطمع والهوى والغضَب .

---

(١) أى أوجز فى الكلام لأحفظه . وفى رواية عند الترمذى : « ولا تكثر على لعلى أعيه » . انظر فتح البارى ١٠ : ٤٣١

وقيل لعبد الله بن المبارك : أَجمِلْ لنا حُسنَ الخلقِ فى كلمة . فقال : اترك الغضب.

بيان حقيقة الغضب

اعلم أن الله تعالى لمَّا خلق الحيوان معرَّضاً للفساد والمَوَتان ، بأَسباب فى داخل بدنه وأَسبابٍ خارجة عنه ؛ أَنعمَ عليه بما يحميه عن الفساد ويدفعُ عنه الهلاكَ إلى أَجلٍ معلومٍ سمَّاه فى كتابه[1] .

أَما السَّبب الداخلى : فهو أَنَّه ركَّبه من الحرارة والرطوبة ، وجعل بين الحرارة والرطوبة عداوةً ومُضادَّة ، فلا تزال الحرارةُ تحلِّل الرطوبة وتجفِّفها وتبخِّرها ، حتَّى تصير أَجزاؤها بخاراً يتصاعد منها ، فلو لم يتَّصلْ بالرطوبة مددٌ من الغذاء يجبُر ما انحَلَّ وتبخَّرَ من أَجزائها ، لفسد الحيوان . فخلَقَ الله الغذاءَ الموافق لبدن الحيوان ، وخلق فى الحيوان شَهوةً تبعثُه على تناول الغذاء ؛ كالموكَّل به فى جَبر ما انكسر ، ومدِّ ما انثلم ؛ ليكون ذلك حافظاً له من الهلاك بهذا السبب .

وأَما الأَسبابُ الخارجة التى يتعرَّض لها الإِنسان : فكالسَّيف والسِّنان ، وسائِرِ المهلِكات التى يُقْصد بها . فافتَقَر إلى قوّة وحمية تثور من باطنه فتدفع المهلكاتِ عنه . فخلق الله طبيعةَ الغضب من النار ، وغرَزَها فى الإِنسان وعجنها بطينته ؛ فمهما صُدَّ عن غرضٍ من أَغراضه ، ومقصودٍ من مقاصده ، اشتعلت نار الغضب وثارت ثَوَراناً يَغلى به دمُ القلب ، وينتشر فى العروق ، ويرتفع إلى أَعالى البدَن كما يرتفع النار ، وكما يرتفع الماءُ الذى يغلى فى القِدْر ؛ فلذلك ينصبُّ إلى الوجه فيحمرُّ

---

(١) أى فى اللوح المحفوظ .

الوجه والعين . والبشرةُ لصفائها تحكي لونَ ما وراءها من حُمرة الدم ، كما تحكي الزجاجةُ لونَ ما فيها . وإنما ينبسط الدمُ إذا غضِب على مَن دونَه واستشعر القدرةَ عليه . فإنْ صدَر الغضبُ على مَن فوقَه وكان معه يأسٌ من الانتقام ، تولّدَ منه انقباضُ الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب وصار حُزناً ؛ ولذلك يصفرُّ اللون . وإن كان الغضب على نظيرٍ يشكُّ فيه تردَّدَ الدمُ بين انقباض وانبساط ، فيحمرُّ ويصفرُّ ويضطرب .

وبالجملة فقوَّةُ الغضب محلُّها القلب ، ومعناها غَلَيان دم القلبِ بطلب الانتقام . وإنما تتوجَّه هذه القوة عند ثَوَرانها إلى دفع المؤذيَات قبل وقوعها ، وإلى التشفِّي والانتقام بعد وقوعها . والانتقام قُوت هذه القوةِ وشهوتُها ، وفيه لذَّتُها . ولا تسكنُ إلا به .

بيان الأَسباب المهيجة للغضب

قد عرفتَ أنَّ علاجَ كُلِّ علةٍ حَسْمُ مادَّتها وإزالةُ أسبابها ، فلا بدَّ من معرفة أَسباب الغضب .

وقد قال يحيي لعيسى عليهما السلام : أيُّ شيءٍ أشدُّ ؟ قال : غضب الله . قال : فما يقرِّب من غضب الله ؟ قال : أن تغضب . قال : فما يبدِي الغضَبَ وما يُنبته ؟ قال عيسى : الكِبْرُ ، والفخرُ ، والتعزُّزُ . والحميَّة .

والأَسباب المهيِّجة للغضب هي : الزَّهوُ والعُجب ، والمزاحُ والهزْل ، والهزءُ والتعيير ، والمماراة والمضادَّة ، والغدر ، وشدَّة الحرص على فُضول المال والجاه . وهي بأَجمعها أخلاقٌ رديئة مذمومة شرعاً ، ولا خلاصَ من الغضب مع بقاءِ هذه الأَسباب. فلا بدَّ من إزالة هذه الأَسباب بأَضدادها.

فينبغي أن تميت الزَّهوَ بالتواضع ، وتميت العُجب بمعرفتك بنفسك .

وتُزيل الفخرَ بأنَّك من جنس عبدك ؛ إذ النَّاس يجمعهم في الانتساب أبٌ واحد ؛ وإنَّما اختلفوا في الفضل أشتاتا . فبنو آدم جنسٌ واحد ، وإنَّما الفخر بالفضائل . والفخر والعُجب والكِبْر أكبر الرذائل ، وهي أصلُها ورأسها ؛ فإذا لم تتخَلَّ عنها فلا فضلَ لك على غيرك .

وأما المزاح فتُزيله بالتَّشاغل بالمهمَّات الدينية التي تستوعب العُمر وتفضُل عنه . وأمَّا الهزل فتزيله بالجدِّ في طلب الفضائل والأخلاق الحسنة ، والعلومِ الدينيةِ التي تبلغك إلى سعادة الآخرة . وأمَّا الهزْءُ فتزيله بالتكرُّم عن إيذاء الناس ، وبصيانة النفس عن أن يُستهزأ بك . وأما التعيير فالحذَر عن القول القبيح ، وصيانة النفْس عن مُرِّ الجواب . وأما شدَّة الحرص على مزايا العيش فتُزال بالقناعة بقدر الضَّرورة ، طلباً لِعزِّ الاستغناء ، وترفُّعاً عن ذل الحاجة .

بيان علاج الغضب بعد هيجانه

ما ذكرناه هو حَسمٌ لموادِّ الغضب وقطعٌ لأسبابه حتَّى لا يَهيج ، فإذا جرى سببٌ هَيَّجَه فعنده يجب التثبُّت حتى لا يُضطرَّ صاحبه إلى العمل به على الوجه المذموم . وإنما يُعالَج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم والعمل .

أما العلم فهو ستة أُمور :

الأول : أن يتفكَّر في الأخبار التي سنُوردها في فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال ، فيَرغب في ثوابه ، فتمنعه شدَّةُ الحرص على ثواب الكَظْم عن التشفِّي والانتقام ، وينطفِئ عنه غيظه ؛

الثانى : أن يخوِّف نفسَه بعقاب الله وهو أن يقول : قدرةُ اللهِ عليَّ أعظم من قدرتى على هذا الإنسان. فلو أمضيت غضبى عليه لم آمَنْ أنْ يُمضىَ الله غضبَه عليَّ يومَ القيامة أحوجَ ما أكون إلى العفو .

الثالث : أن يحذِّر نفسَه عاقبةَ العداوة والانتقام ، وتَشَمُّر العدوِّ لمقابلته والسعى فى هَدم أغراضه ، والشماتة بمصائبه وهو لا يخلو عن المصائب ، فيخوِّف نفسَه بعواقب الغضب فى الدُّنيا ، إن كان لا يخافُ من الآخرة .

الرابع : أن يفكِّر فى قُبح صورتهِ عند الغضب ، بأن يتذكر صورةَ غيره فى حالة الغضب . ويتفكَّر فى قُبح الغضب فى نفسه ، ومشابهةِ صاحبه للكلب الضارِى والسَّبعِ العادى ، ومشابهةِ الحليم الهادئ التارك للغضب ، للأنبياءِ والأولياءِ ، والعلماءِ والحكماءِ .

الخامس : أن يتفكَّر فى السبب الذى يدعوه إلى الانتقام ويمنعُه من كَظْم الغيظ ، ولابدَّ أن يكونَ له سببٌ ، مثلُ قول الشيطان له : إنَّ هذا يُحملُ منك على العجز وصِغَر النفس ، والذِّلةِ والمهانة ، وتصيرُ حقيراً فى أعين الناس ! فيقول لنفسه : ما أعْجَبَكِ ! تأْنَفِينَ من الاحتمال الآنَ ولا تأْنفين من خِزْىِ يوم القيامة والافتضاح إذا أخذ هذا بيدِكِ وانتقم منك ؟ وتحذرين من أن تَصغُرى فى أعين الناس ولا تحذرين من أن تصغُرى عند الله والملائكة والنبيين ؟ .

السادس : أن يعلم أنَّ غضبه من تعجُّبه من جَرَيان الشىء على وَفق مراد الله ، لا على وفق مراده ، فكيف يقول مرادى أولى من مُراد الله ؟ ويوشك أن يكون غضبُ الله عليه أعظمَ من غضبه .

وأما العمل فأَنْ تقول بلسانك : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

فان لم يَزُلْ بذلك فاجلسْ إن كنت قائماً ، واضطجعْ إن كنت جالساً، واقرُب من الأَرض التى منها خُلِقْتَ لتعرف بذلك ذُلَّ نفسِك ، واطلب بالجلوس والاضطجاع السكونَ ، فإنَّ سببَ الغضبِ الحرارة ، وسبب الحرارة الحركة .

فإن لم يَزُلْ ذلك فليتوضَّأْ بالماءِ البارد أو يغتسل .

ورُوىَ أنَّ عمر غضِب يوماً فدعا بماءٍ فاستنشق وقال : إنَّ الغضب من الشيطان ، وهذا يُذهب الغضب .

بيان فضيلة الحلم

اعلم أنَّ الحِلم أَفضلُ من كظْم الغيظ ؛ لأَن كظم الغيظ عبارةٌ عن التحلُّم ، أى تكلف الحلم ، ولا يَحتاج إلى كظم الغيظ إلاَّ من هاج غيظُه ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة ، ولكن إذا تعوَّدَ ذلك مُدّةً صار ذلك اعتياداً فلا يَهيج الغيظ ، وإن هاج فلا يكون فى كَظْمه تعب . وهو الحِلم الطبيعى ، وهو دلالةُ كمالِ العقل واستيلائه ، وانكسار قوّة الغضب وخضوعها للعقل ، ولكن ابتداؤه التحلُّم وكظم الغيظ تكلُّفاً .

وقال أَبو هريرة : قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « ابتغوا الرفعة عند الله » . قالوا : وما هى يارسولَ الله ؟ قال : « تَصِلُ من قطعَك ، وتُعطى مَن حرَمك ، وتحلُم عَمّن جهِل عليك» .

وعن الحسن فى قوله تعالى : (وإذَا خَاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلَاماً) قال : حلماءُ إن جُهِل عليهم لم يَجهَلوا .

وقال عمر رضى الله عنه : تعلموا العلم ، وتعلموا للعلم السَّكينة والحِلْم.

وقال أَكثمُ بن صَيفىّ : دِعامةُ العقل الحِلم ، وجِماعُ الأَمر الصبر.

وقال معاوية لعمرِو بنِ الأَهتَم : أَىُّ الرجال أَشجع ؟ قال : من رَدَّ جهلَه بحِلمه .

وقال لُقمان : ثلاثة لا يُعرفون إلاَّ عند ثلاثة ؛ لا يعرف الحليم إلاَّ عند الغضب، ولا الشُّجاع إلاَّ عند الحرب، ولاالأخ إلاَّعندالحاجة إليه.

ودخل على بعض الحكماء صديقٌ له فقدَّم إليه طعاماً ، فخرجت امرأة الحكيم – وكانت سيِّئةَ الخلقُ – فرفعت المائدة وأقبلَت على شتم الحكيم ، فخرج الصَّديق مغضَباً ، فتبِعه الحكيم وقال له : تذكر يوم كنَّا فى منزلك نَطْعَم فسقطت دجاجةٌ على المائدة فأفسدَتْ ما عليها فلم يغضبْ أحدٌ منا ؟ قال : نعم . قال : فاحسِب أنَّ هذه مثلُ تلك الدجاجة ! فسُرِّىَ عن الرجل غضبُه وانصرف ، وقال : صدق الحكيم ، الحلم شفاءٌ من كل ألم .

وقال محمودٌ الورَّاق :

سأُلزِم نفسى الصفحَ عن كلِّ مُذْنِبٍ وإن كثُرتْ منه علىَّ الجرائمُ
وما الناسُ إلاَّ واحــدٌ من ثلاثة شريف ومشروف ومِثلى مُقــاوم
فأَما الذى فَوْق فأَعْرفُ قــدره وأَتبعُ فيــه الحقَّ والحقُّ لازم
وأَما الذى دونى فإنْ قال صنتُ عن إجابتهِ عِرضِى وإن لامَ لائمُ
وأَما الذى مِثْلى فإنْ زلَّ أَو هَفَا تفضَّلتُ ، إنَّ الفضل بالحِلم حاكم

القول في معنى الحقد ونتائجه

اعلم أَنَّ الغضبَ إذا لزم كظمُه لعجزٍ عن التشفِّى فى الحال ، رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حِقداً . ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استثقالَه والبِغضة له ، والنفار عنه ، وأن يدوم ذلك ويبقى . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « المؤمن ليس بحقود » . فالحقد ثمرة الغضب .

والحقد يثمر ثمانية أمور :

الأَول : الحسد : وهو أَن يحملك الحقد على أَن تتمنَّى زوالَ النعمة عنه ، فتغتمَّ بنعمةٍ إن أَصابها ، وتُسَرَّ بمصيبة إن نزلت به .

الثانى : أن تزيد على إضمار الحسد فى الباطن ، فتشمت بما أصابه من البلاء .

الثالث : أن تهجَره وتُصارمه[1] ، وتنقطع عنه وإن طلبك وأقبلَ عليك.

الرابع ، وهو دونه : أن تُعرِضَ عنه استصغاراً له .

الخامس : أن تتكلّم فيه بما لا يحِلُّ من كذب وغِيبة ، وإفشاءِ سرٍّ وهتك ستر ، وغيره .

السادس : أن تحاكِيَهُ استهزاءً به وسخريةً منه .

السابع : إيذاؤه بالضّرب وما يؤْلِم بدنَه .

الثامن : أن تمنعه حقَّه من قضاءِ دَيْن ، أو صلة رحم ، أو رَدِّ مظلمة . وكلُّ ذلك حرام .

فضيلة العفو والإحسان

اعلم أنَّ معنى العفو أن يستحقَّ حقًّا فيُسْقِطَه ، من قِصاصٍ أو غَرامة وهو غير الحِلْم وكظم الغيظ ؛ فلذلك أفردناه . قال الله تعالى : (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) . وقال الله تعالى : (وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثٌ والذى نفسى بيده لو كنتُ حلاّفاً لحلفتُ عليهنّ : ما نقص مالٌ من صدقةٍ فتصدَّقوا ، ولا عفا رجلٌ عن مظلمة يبتغى بها وجهَ الله إلاّ زاده الله بها عزًّا يوم القيامة ، ولا فتحَ رجلٌ على نفسه بابَ مسألةٍ إلاّ فتح الله عليه بابَ فقر » .

وقال إبراهيم التَّيمى : « إنَّ الرجل ليظلمنى فأَرْحَمُه » . وهذا إحسانٌ وراءَ العفو ، لأَنه يشتغل قلبهُ بتعرضه لمعصية الله تعالى بالظلم ، وأنّه يطالب يوم القيامة فلا يكون له جواب .

---

(١) المصارمة : المقاطعة . والصرم : القطع .

ودخل رجلٌ على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فجعل يشكو إليه رجلاً ظلمه ويقع فيه ، فقال له عمر : إنَّك إنْ تلقَ الله ومَظْلمتك كما هى ، خيرٌ لك من أن تلقاه وقد اقْتَصصْتَها .

وقال زياد : القُدرة تُذهِبُ الحفيظة . يعنى الحقد والغضب .

وكتب ابنُ المقفَّع إلى صديقٍ له يسأَلُه العفوَ عن بعض إخوانه : « فلانٌ هاربٌ من زَلَّته إلى عفوك ، لائذٌ منك بك » .

وأتى عبدُ الملك بن مروان بأُسارَى ابنِ الأَشعث ، فقال لرجاء بن حَيْوة : ما ترى ؟ قال : إن الله تعالى قد أعطاكَ ما تحبُّ من الظفر ، فأَعطِ الله ما يحبُّ من العفو ! فعفا عنهم .

وقيل : مكتوبٌ فى الإنجيل : مَن استغفرَ لمن ظَلَمه فقد هَزَم الشيطان.

فضيلة الرفق

اعلم أنَّ الرفقَ محمودٌ، ويضادُّه العُنف والحدَّة . والعنف نتيجة الغضب والفَظاظة ، والرِّفق واللِّين نتيجة حُسن الخلق والسلامة ، وقد يكون سبب الحدَّة الغضبَ ، وقد يكون سببها شدةَ الحرص واستيلاءه ، بحيث يُدهش عن التفكير ، ويَمنع من التثبت . فالرفق فى الأُمور ثمرةٌ لا يثمرها إلاَّ حسنُ الخُلقُ، ولا يَحسُن الخلق إلاَّ بضبط قوَّة الغضب وقوَّة الشهوة وحفظِهما على حدِّ الاعتدال . ولأَجل هذا أثنَى رسول الله صلى الله عليه وسلم عَلى الرِّفق وبالغ فيه ، فقال : « يا عائشة ، إنه من أُعطِىَ حظَّه من الرفق فقد أُعطِىَ حظَّه من خير الدنيا والآخرة . ومن حُرم حظَّه من الرفق فقد حُرم حظَّه من خير الدنيا والآخرة » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ يُحْرَمِ الرِّفقَ يُحرم الخير كلَّه » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « التأَنِّى من الله ، والعَجَلة من الشيطان » .

وبلغ عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه أنَّ جماعةً من رعيته اشتكَوا من عُمَّاله ، فأَمرهم أن يُوافوه . فلما أَتَوه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أَيُّها الناس ، أَيَّتها الرعية ، إن لنا عليكم حقًّا : النصحيةَ بالغيب ، والمعاونةَ على الخير . أَيُّها الرعاة ، إنَّ للرعية عليكم حقًّا . فاعلموا أنَّه لا شيء أحبُّ إلى الله ولا أعزُّ من حِلم إمامٍ ورفقه . وليس جهلٌ أبغضَ إلى الله ولا أغمُّ من جهلِ إمام وخُرقه . واعلموا أنه من يـأْخذْ بالعافية فيمن بين ظَهرَيه ، يُرزق العافية ممن هو دونه .

وقال وهب بن منبه : الرفق ثِنْى الحلم .

والحاجة إلى العنف قد تقع ، ولكن على النُّدور . وإنما الكامل من يميِّز مواقع الرفق عن مواقع العنف ، فيعطى كلَّ أمرٍ حقَّه . فإن كان قاصرَ البصيرةِ ، أو أَشكلَ عليه حكمُ واقعةٍ من الوقائع فليكن ميلُهُ إلى الرفق ، فان النُّجح معه فى الأَكثر .

القول في ذم الحسد

وفي حقيقته وأَسبابه ومعالجته وغاية الواجب في إزالته

بيان ذم الحسد

اعلم أن الحسد أَيضاً من نتائج الحقد ، والحقد من نتائج الغضب فهو فرعُ فَرْعِه ، والغضب أَصلُ أَصلِه .

ثم إنَّ للحسد من الفروع الذميمة ما لا يكاد يُحصى . وقد ورد فى ذمِّ الحسد خاصةً أَخبار كثيرة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحسد يأْكل الحسناتِ كما تـأْكلُ النارَ الحطب » . وقال صلى الله عليه وسلم فى النهى عن الحسد وأَسبابه وثمراته : « لا تَحاسَدوا ولا تَقاطَعوا ولا تَبَاغَضُوا ولا تَدَابَرُوا ، وكونوا عبادَ الله إخواناً » .

وقال صلى الله عليه وسلم : دَبَّ إليكم داءُ الأُمم قبلكم : الحسد والبغضاء. والبِغضة هي الحالقة ، لا أقول حالقة الشعرَ ، ولكن حالقة الدين . والذى نفسُ محمدٍ بيده ، لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولن تؤمنوا حتّى تَحابُّوا . ألا أُنبئكم بما يثبت ذلك لكم ؟ أفشُوا السلامَ بينكم » .

الآثار ؛ قال بعض السلف : أوّل خطيئةٍ كانت هي الحسد : حسدَ إبليس آدمَ عليه السلام على رتبته ، فأَبى أن يسجد له ، فحمله على المعصية .

وقال أبو الدرداء : ما أَكْثَرَ عبدٌ ذِكرَ الموت إلاّ قلّ فرحه وقلّ حسدُه !

وقال معاوية : كلُّ الناس أَقدِر على رضاه ، إلاّ حاسدَ نعمةٍ فإنّه لا يُرضيه إلاّ زوالُها . ولذلك قيل :

كل العداوات قد تُرْجَى إماتَتُها إلا عداوةَ مَن عاداك من حسدِ

وقال أعرابيٌّ : ما رأيتُ ظالماً أشبه بمظلومٍ من حاسد ، إنه يرى النعمةَ عليك نقمةً عليه .

بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه

اعلم أنّه لا حسدَ إلاّ على نعمة ، فإذا أنعم الله على أخيك بنعمةٍ فلك فيها حالتان :

إحداهما : أن تكره تلك النعمةَ وتحبَّ زوالها ؛ وهذه الحالة تسمّى حسداً . فالحسد حدُّه كَراهة النعمة وحُبُّ زوالها عن المُنعم عليه .

الحالة الثانية : أن لا تحبَّ زوالها ولا تكرهَ وجودها ودوامها ، ولكن تشتهى لنفسك مثلَها . وهذه تسمّى غِبطة ، وقد تُختص باسم المنافَسة .

فأَما الأوّل فهو حرام بكل حال ، إلاّ نعمةً أصابها فاجر أو كافر وهو يَستعين بها على تهييج الفتنة وإفساد ذات البين وإيذاء الخلق . فلا يضرُّك

كراهتُك لها ، ومحبَّتُكَ لزوالها ، فإنَّك لا تحبُّ زوالها من حيث هى نعمة بل من حيث هى آلةٌ للفساد .

وأما المنافسة : فليست بحرام ، بل هى إما واجبة ، وإما مندوبة ، وإما مباحة .

والمنافسة فى اللغة مشتقة من النَّفاسة . والذى يدلُّ على إباحة المنافسة قوله تعالى : (وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المُتَنَافِسُونَ). وقال تعالى : (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن ربِّكُمْ) . وإنَّما المسابقة عند خوف الفوت ؛ وهو كالعبدَين يتسابقان إلى خدمةِ مولاهما ؛ إذْ يجزعُ كلٌّ واحدٍ أن يسبقه صاحبُهُ فيحظَى عند مولاه بمنزلةٍ لا يحظى هو بها .

وأما مراتبه[1] فأربع :

الأُولى : أن يحبَّ زوالَ النعمة عنه وإنْ كان ذلك لا ينتقل إليه . وهذا غاية الخبث .

الثانية : أن يحبَّ زوال النعمة إليه لرغبته فى تلك النعمة . مثل رغبته فى دارٍ حسنة ، أو امرأة جميلة ، أو ولايةٍ نافذة ، أو سَعة نالها غيرُه وهو يحبُّ أن تكون له .

الثالثة : أن لا يشتهيَ عينَها لنفسه ، بل يشتهى مثلها . فإنْ عَجزَ عن مثلها أحبَّ زوالها ؛ كى لا يَظهر التفاوتُ بينهما .

الرابعة : أن يشتهيَ لنفسه مثلَهَا ، فإن لم تحصل فلا يحبُّ زوالها عنه.

وهذا الأخير هو المعفوُّ عنه إن كان فى الدنيا ، والمندوبُ إليه إن كان فى الدين . والثالثة فيها مذمومٌ وغير مذموم ، والثانية أخفُّ من الثالثة ، والأُولى مذموم محض .

---

(١) أى مراتب الحسد .

بيان أسباب الحسد والمنافسة

السبب الأول : العداوة والبغضاء ؛ وهذا أشدُّ أسبابِ الحسد ؛ فإنَّ من آذاه شخصٌ بسبب من الأسباب ، وخالفَه فى غرضٍ بوجه من الوجوه أبغضَه قلبه وغضِب عليه ورسَخ فى نفسه الحقد . والحقد يقتضى التشفِّىَ والانتقام ، فإنْ عَجَز المبغض عن أن يتشفَّى بنفسه أحبَّ أن يتشفَّى منه الزمان ، وربَّما يحيل ذلك على كرامة نفسِه عند الله تعالى ، فمهما أصابت عدوَّه بليةٌ فرح بها وظنَّها مكافأةً له من جهة الله على بغضه ، وأنها لأجله . وما أصابته نعمةٌ ساءه ذلك لأنه ضدُّ مراده .

السبب الثانى : التعزُّز . وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره ، فإذا أصاب بعضُ أمثاله ولايةً أو علماً أو مالاً ، خاف أن يتكبَّر عليه ، وهو لا يطيق تكبُّرَهُ ولا تسمح نفسُه باحتمال صَلَفِه وتفاخُرِه عليه .

السبب الثالث : الكِبْر . وهو أن يكون فى طبعه أن يتكبَّر عليه ويستصغره ، ويستخدمه ، ويتوقَّع منه الانقياد له والمتابعة فى أغراضه . فإذا نال نعمةً خاف أن لا يحتمل تكبُّرَه ويترفَّعَ عن متابعته ، أو ربَّما يتشوَّف إلى مساواته أو إلى أن يرتفع عليه فيعود متكبِّراً بعد أن كان مَتكَبَّرًا عليه . ومن التكبُّر والتعزُّز كان حسدُ أكثرِ الكفَّار لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذْ قالوا : كيف يتقدَّم علينا غلامٌ يتيم ، وكيف نُطاطئُ رءوسَنا ؟ فقالوا : (لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) .

السبب الرابع : التعجُّب ، كما أخبر الله تعالى عن الأُمم السالفة إذ قالوا : (مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا) ، وقالوا : (أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا) .

فتعجَّبوا من أن يفوز برتبة الرسالة والوحي والقرب من الله تعالى بشرٌ مثلهم فحسدوهم ، وأحبُّوا زوالَ النبوَّة عنهم ، جزعاً أن يفضل عليهم من هو مثلُهم في الخلقة .

السبب الخامس : الخوف من فَوت المقاصد ؛ وذلك يختصُّ بمتزاحمَين على مقصودٍ واحدٍ ، فإنَّ كلَّ واحدٍ يحسُد صاحبه في كلِّ نعمةٍ تكون عوناً له في الانفراد بمقصوده . ومن هذا الجنس تحاسُد الضَّرَّات في التزاحم على مقاصد الزوجيَّة ، وتحاسُد الإخوة في التَّزاحم على نَيل المنزلة في قلب الأَبوين للتوصُّل به إلى مقاصد الكرامة والمال .

السبب السادس : حبُّ الرياسة وطلب الجاه لنفسه ، من غير توصُّل به إلى مقصود ، وذلك كالرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فنٍّ من الفنون إذا غلبَ عليه حبُّ الثناء ، واستفزَّه الفرح بما يمدح به من أنَّه واحدُ الدهر وفريدُ العصر في فنِّه ، وأنه لا نظير له ، فإنَّه لو سمع بنظيرٍ له في العالَم لساءه ذلك ، وأحبَّ موته أو زوالَ النعمة عنه .

وليس السببَ في هذا عداوةٌ ولا تعزُّزٌ ولا تكبرٌ على المحسود ، ولا خوفٌ من فواتِ مقصود ، سوى محض الرياسة بدعوى الانفراد .

السبب السابع : خُبث النفس وشُحُّها بالخير لعباد الله تعالى ، فإنك تجد من لا يشتغل برياسة وتكبر ولا طلب مال ، إذا وُصِف عنده حسنُ حالِ عبد من عباد الله تعالى فيما أنعم الله به عليه يشقُّ ذلك عليه ، وإذا وُصِف له اضطرابُ أمور الناس وإدبارهم وفوات مقاصدهم وتنغُّص عيشهم ، فرح به ، فهو أبداً يحب الإدبار لغيره ، ويبخل بنعمة الله على عباده .

بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال والأقران والإخوة وبني العم والأقارب وتأكده ، وقلته في غيرهم وضعفه

إعلمْ أنَّ الحسدَ إنما يكثرُ بين قومٍ تكثرُ بينهم الأسباب التى ذكرناها إنما يَقوَى بين قومٍ تجتمع جملةٌ من هذه الأسباب فيهم وتتظاهر .

وهذه الأسباب إنَّما تكثُر بين أقوام تجمعهم روابطُ يجتمعون بسببها فى مجالس المخاطبات ، ويتواردون على الأغراض ، فإذا خالف واحدٌ منهم صاحبَه فى غرضٍ من الأغراض نَفَر طبعُه عنه وأبغضَه ، وثبت الحقدُ فى قلبه ، فعند ذلك يريد أن يستحقرَه ويتكبَّر عليه ، ويكافِئَه[1] على مخالفته لغَرضه ، ويكره تمكُّنَه من النعمة التى توصِّله إلى أغراضه وتترادف جملةٌ من هذه الأسباب ؛ إذْ لا رابطةَ بين شخصين فى بلدتين متنائيتين فلا يكون بينهما محاسدة ، وكذلك فى محلَّتين . نعم إذا تجاورا فى مسكنٍ أو سوق أو مدرسة أو مسجد ، تواردا على مقاصد تتناقض فيها أغراضُهما ، فيثور من التناقض التنافر والتباغض ، ومنه تثور بقية أسباب الحسد . ولذلك ترى العالِمَ يحسُد العالم دون العابد ، والعابد يحسد العابد دونَ العالم ، والتاجر يحسد التاجر ، بل الإسكاف يحسد الإسكافَ ولايحسدالبزَّاز[2] إلاَّ بسببٍ آخر سوى الاجتماع فى الحرفة ، ويحسد الرجل أخاه وابن عمه أكثرَ مما يحسد الأجانب . والمرأة تحسد ضَرَّتَها وسُرِّيَّةَ زوجِها أكثرَ مما تحسد أمَّ الزوج وابنته .

---

(١) المكافأة : المجازاة .

(٢) البزاز : بائع البز ، وهو الثياب .

ومنشأُ جميع ذلك حبُّ الدنيا، فإنَّ الدنيا هي التي تَضِيق على المتزاحمين . أما الآخرة فلا ضِيقَ فيها .

فلذلك لا يكون بين علماءِ الدين محاسَدة ؛ لأنَّ مقْصِدَهم معرفةُ الله تعالى ، وهو بحرٌ واسعٌ لا ضِيقَ فيه ؛ وغَرَضَهم المنزلةُ عند الله ، ولا ضيق أيضاً فيما عند الله تعالى .

نعم إذا قصد العلماءُ بالعلم المال والجاه تحاسدوا ، لأن المال أعيان وأجسام إذا وقعت في يد واحدٍ خلت عنها يدُ الآخر .

بيان الدواء الذي ينفي مرض الحسد عن القلب

اعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ، ولا تُداوَى أمراضُ القلوب إلاَّ بالعلم والعمل - والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف تحقيقاً أنَّ الحسد ضررٌ عليك في الدنيا والدين .

أما كونه ضرراً عليك في الدين فهو أنك بالحسد سَخِطتَ قضاء الله تعالى ، وكرِهتَ نعمته التي قسمها بين عباده ، وعَدْلَه الذى أقامه في مُلكه بخَفيِّ حكمته ، فاستنكرتَ ذلك واستبشعته . وهذه جنايةٌ على حَدقة التوحيد ، وقذًى في عين الإيمان ؛ وناهيك بهما جنايةً على الدين .

وأمَّا كونه ضرراً عليك في الدنيا فهو أنَّك تتألَّم في الدنيا أو تتعذَّب به ، ولا تزال في كمدٍ وغمٍّ ، إذْ أعداؤك لا يُخْليهم الله تعالى عن نعمٍ يُفيضها عليهم ، فلا تزال تتعذَّب بكلِّ نعمةٍ تراها ، وتتألَّم بكلِّ بليةٍ تنصرف عنهم ، فتبقى مغموماً محروماً متشعِّبَ القلب ضيِّقَ الصدر ، قد نزلَ بك ما يشتهيه الاعداءُ لك وتشتهيه لأعدائك ، فقد كنتَ تريد المحنة لعدوِّك فتنجَّزَتْ في الحال مِحنتُك وغمُّك نقداً .

فهذه هى الأدوية العلمية . فمهما تفكر الإنسانُ فيها بذهنٍ صافٍ وقلب حاضر ، انطفأت نارُ الحسد من قلبه ، وعَلِمَ أنه مُهلِكٌ نفسَه ومفرح عدوَّه ، ومُسخِطٌ ربَّه ، ومنغِّصٌ عيْشَه .

وأما العمل النافع فيه فهو أن يحكُمَ الحسدَ ، فكلُّ ما يتقاضاه الحسدُ من قول وفعل فينبغى أن يكلِّفَ نفسَه نقيضَه ، فإنْ حمله الحسدُ على القدح فى محسوده كلَّف لسانه المدحَ له ، والثناء عليه . وإنْ حمله على التكبُّر عليه ألزم نفسَه التواضعَ له والاعتذارَ إليه . وإنْ بعثه على كف الإنعام عليه ، ألزم نفسَه الزيادةَ فى الإنعام عليه . فمهما فعل ذلك عن تكلُّفٍ وعرفه المحسودُ طاب قلبه وأحبَّه . ومهما ظهر حبُّه عاد الحاسد فأحبه ، وتولَّد من ذلك الموافقة التى تقطع مادة الحسد .

فهذه هى أدْوِية الحسد ، وهى نافعةٌ جداً ، إلاَّ أنها مُرَّةٌ على القلوب جدًّا ، ولكنَّ النفع فى الدواء المُرّ .

الكتاب السادس

كتاب ذم الدنيا

بيان ذم الدنيا

الآياتُ الواردة فى ذمِّ الدنيا وأمثلتُها كثيرة . وأكثرُ القرآن مشتملٌ على ذمِّ الدُّنيا وصَرفِ الخلقِ عنها ، ودعوتِهم إلى الآخرة ، بل هومقصودُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولم يُبعثوا إلاَّ لذلك ، فلا حاجةَ إلى الاستشهاد بآيات القرآن لظهورها ، وإنما نورد بعضَ الأخبار الواردة فيها .

فقد رُوى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ على شاةٍ ميِّتة فقال : « أتُرَونَ هذه الشاةَ هيِّنةً على أهلها ؟ » قالوا : مِن هوانها ألقَوْها . قال : « والذى نفسى بيده ، لَلدُّنيا أهونُ على الله من هذه الشاةِ على أهلها ، ولو كانت الدنيا تَعدِل عند الله جَناحَ بعوضةٍ ما سقى كافراً منها شَربةَ ماءٍ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « « حُبُّ الدُّنيا رأسُ كلِّ خطيئة » .

وقال عيسى عليه السلام : لا تتَّخذوا الدنيا ربًّا فتتَّخِذَكم عبيداً . اكنزوا كَنْزَكم عندَ مَنْ لا يُضيعه ، فإنَّ صاحبَ كنز الدنيا يَخاف عليه الآفة ، وصاحبَ كنز الله لا يَخافُ عليه الآفة .

ويُروَى أن الله عز وجل لما أهبط آدم إلى الأرض قال له : ابنِ للخراب ، ولِدْ للفناء .

وقال عيسى عليه السلام : مَنِ الذى يَبنِى على مَوج البحرِ داراً ؟ تلكم الدُّنيا ، فلا تتَّخذوها قراراً .

وقال عيسى عليه السلام : يا معشرَ الحَواريِّين ، ارضَوْا بدنىء الدُّنيا مع سلامة الدين ، كما رضى أهل الدنيا بدنىء الدين مع سلامة الدنيا .

وفى معناه قيل :

أرى رجالاً بأدنى الدِّين قد قَنِعوا ... وما أراهم رَضُوا فى العيش بالدُّونِ
فاستغنِ بالدِّين عن دنيا الملوك كما ... استغنى الملوكُ بدُنياهم عن الدينِ

وقال الحسن : رحِم الله أقواماً كانت الدنيا عندهم وديعةً فأدَّوْها إلى من ائتمنهم عليها ، ثم راحوا خِفافاً .

وزار رابعةَ أصحابُها ، فذكروا الدنيا فأقبلوا على ذمِّها ، فقالت : اسكتوا عن ذكرها ، فلولا موقعُها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها . ألاَ مَنْ أحبَّ شيئاً أكثَر من ذكره .

وقيل لإبراهيم بن أدهم : كيف أنت ؟ فقال :

نُرقِّعُ دنيـانا بتمزيق ديننا ... فلا دينُنـا يبقَى ولا ما نرقِّعُ
فطوبَى لعبدٍ آثر اللهَ ربَّه ... وجاد بدنيـاه لِمَـا يتوقَّعُ

وقال بعضهم : الدُّنيا جِيفة ، فمن أراد منها شيئاً فليصبرْ على معاشرة الكلاب .

وفى ذلك قيل :

يا خاطبَ الدُّنيـا إلى نفسِها ... تنحَّ عن خِطْبتهـا تسـلم
إنَّ التى تخطبُ غـدَّارةٌ ... قريبـة العُرْسِ من المـأْتم

وقيل أيضـاً :

يا راقدَ الليـلِ مسروراً بأوَّله ... إنَّ الحوادث قد يَطرُقْن أسحارا[1]

(١) لأبى العتاهية فى ديوانه ١٢٠ . وانظر البيان والتبيين ٣ : ٢٠٢ .

أفنَى القرونَ التى كانت منعَّمةً كرُّ الجديدين إقبالا وإدبارا
كم قد أبادت صروفُ الدهرمن ملك قدكان فى الدَّهر نفَّاعاً وضرَّارا

وقال مالك بن دينار : بقدر ما تحزن للدُّنيا يخرج همُّ الآخرة من قلبك ، وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج همُّ الدنيا من قلبك . وهذا اقتباسٌ مما قاله عَلِىٌّ كرم الله وجهه حيث قال : الدنيا والآخرة ضَرَّتان ، فبقدر ما ترضى إحداهما تسخط الأُخرى .

وقال داودُ الطائىُّ رحمه الله : يا ابن آدم ، فرحتَ ببلوغ أملك ، وإنَّما بلغتَه بانقضاء أجلك . ثم سوَّفت بعملك ، كأَنَّ منفعته لغيرك.

بيان صفة الدنيا بالأمثلة

اعلم أنَّ الدنيا سريعةُ الفناء ، قريبة الانقضاء ، تَعِدُ بالبقاء ثم تُخلفُ فى الوفاء . تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرَّة ، وهى سائرة سيراً عنيفاً ، ومرتحلة ارتحالا سريعاً ، ولكنَّ الناظر إليها قد لا يحسُّ بحركتها فيطمئنُّ إليها ، وإنما يحسُّ عند انقضائها . ومثالُها الظلُّ ، فإنَّه متحرِّكٌ ساكن . متحرِّكٌ فى الحقيقة ساكنٌ فى الظاهر ، لا تُدرَك حركتهُ بالبصر الظاهر ، بل بالبصيرة الباطنة .

ولما ذُكِرت الدنيا عند الحسَن البصرى رحمه الله أنشد وقال :

أحــلامُ نوم أو كظلٍّ زائلٍ إن اللبيبَ بمثلهــا لا يُخْدَعُ

ويقال : إنَّ أعرابياً نزل بقومٍ فقدَّموا إليه طعاماً فأكل ، ثم قام إلى ظلِّ خيمةٍ لهم فنام هناك ، فاقتلعوا الخيمة فأصابته الشمس فانتبه ، فقام وهو يقول :

ألا إنَّما الدنيــا كظلٍّ ثنيةٍ ولا بدَّ يوماً أنَّ ظلَّكَ زائل[1]

---

(١) الثنية : العقبة ، أو الجبل .

وقد رُوى أن عيسى عليه السلام كُوشِفَ بالدنيا فرآها فى صورةِ عجوزٍ هَتْماء عليها من كلِّ زينة ، فقال لها : كم تزوَّجت ؟ قالت : لا أحصيهم . قال : فكلُّهم مات عنكِ أم كلُّهم طلَّقك ؟ قالت : بل كلَّهم قتلتُ . فقال عيسى عليه السلام : بؤساً لأزواجك الباقين ، كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين ! كيف تهلكينهم واحداً بعد واحد ولا يكونون منك على حذر ؟ !

وقال عيسى عليه السلام : مثَلُ طالبِ الدنيا مثَلُ شارب ماء البحر ، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتَّى يقتله .

وكان بشر بن كعب يقول : انطلقوا حتى أريَكم الدنيا ! فيذهبُ بهم إلى مَزْبلة فيقول : انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم ، وعسلهم وسمنهم .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما الدُّنيا فى الآخرة إلا كمثلِ ما يجعل أحدُكم إصبعه فى اليَمِّ ، فلينظر أحدكم بِمَ يرجع إليه » .

اعلم أنَّ مَثَلَ الناس فيما أُعطوا من الدُّنيا مثَلُ رجل هيأ داراً وزيَّنها[1] ، وهو يدعو إلى داره على الترتيب قوماً ، واحداً بعد واحد ، فدخل واحدٌ داره فقَدَّمَ إليه طبق ذهب عليه بَخورٌ وريحان ليشمَّه ويتركَه لمن يلحقُه ، لا ليتملَّكه ويأخذه ، فجَهِل رسمَه وظنَّ أنه قد وُهِب ذلك منه ، فتعلَّق به قلبه لمَّا ظن أنه له ، فلما استُرجع منه ضَجِر وتفجَّع ، ومَن كان عالماً برسمه انتفع به وشكره ، وردَّه بِطيب قلب وانشراح صدر . وكذلك من عَرف سنة الله فى الدنيا علم أنها دارُ ضيافة سُبِّلت على المجتازين لا على المقيمين . ليتزوَّدوا منها بما فيها ، كما ينتفع المسافرون بالعَوارِى[1] ، ولا يصرفون إليها كلَّ قلوبهم . حتَّى تعظمَ مصيبتهم عند فراقها .

---

(١) العوارى : بتشديد الياء وتخفيفها : جمع عارية بتشديد الياء وتخفيفها ، وهى مايستعيره الإنسان .

بيان حقيقة الدنيا في نفسها وأشغالها التي استغرقت همم الخلق حتى أنستهم أنفسهم وخالقهم ومُصدرِهم ومُوردهم

الأشغال الدنيويَّة هي الحرف والصناعات والأعمال ، التى تَرَى الخلق منكَبِّين عليها . وسبب كثرة الأشغال هو أنَّ الإنسان مضطرٌّ إلى ثلاث : القُوت، والمسكن ، والملبس. فالقوت : للغذاء والبقاء ، والملبس: لدفع الحرِّ والبرد ، والمسكن : لدفع الحر والبرد ، ولدفع أسباب الهلاك عن الأهل والمال. ولم يخلُق الله القوت والمسكن والملبس مُصلَحاً بحيث يُستغنَى عن صنعة الإنسان فيه .

نعم خَلق ذلك للبهائم ، فإنَّ النبات يغذِّى الحيوان من غير طبخ ، والحرُّ والبرد لا يؤثر فى بدنه فيستغنى عن البناء ويَقْنَع بالصحراء ، ولباسُها شعورها وجلودها فتستغنى عن اللباس .

والإنسان ليس كذلك . فحدثت الحاجة لذلك إلى خمس صناعات هى أصول الصناعات ، وأوائل الأشغال الدنيوية ، وهى الفلاحة ، والرعاية[1] ، والاقتناص ، والحياكة ، والبناء .

وفى الناس من يغفُل عن ذلك فى الصبا فلا يشتغل به ، أو يمنعه عنه مانع فيبقى عاجزاً عن الاكتساب لعجزه عن الْحِرَف ، فيحتاج إلى أن يأكل مما يسعى فيه غيره ، فيحدث منه حرفتان خسيستان : اللُّصوصية والكِداية[2] ؛ إذْ يجمعهما أنهما يأكلان من سَعْىِ غيرهما .

---

(١) يعنى رعاية الماشية والخيل ونحوها .

(٢) يراد بها الحصول على المال بطريقة السؤال والاستعطاف . والكلمة ليست بعربية . انظر شفاء الغليل للخفاجى .

ثم الناس يحترزون من اللُّصوص والمكدِّين، ويحفظون عنهم أموالهم، فافتقروا إلى صَرف عقولهم فى استنباط الحيل والتدابير.

أمَّا اللصوص: فمنهم من يطلب أعواناً ويكون فى يديه شوكة وقوّة، فيجتمعون ويتكاثرون ويقطعون الطَّريق، كالأعراب والأكراد. وأمَّا الضعفاءُ منهم فيفزَعون إلى الحِيَل، إمَّا بالنَّقْب أو التسلُّق عند انتهاز فرصة الغفلة، وإمَّا بأن يكون طَرَّاراً أو سَلاَّلا، إلى غير ذلك من أنواع التلصُّص الحادثة بحسب ما تنتجه الأفكار المصروفة إلى استنباطها.

وأما المكدِّى فإنه إذا طلبَ ما سعَى فيه غيرُه وقيل له اتعبْ واعملْ كما عمل غيرك، فمالك والبَطالةَ فلا تُعطى شيئاً؟ فافتقروا إلى حيلة فى استخراج الأموال وتمهيد العُذر لأنفسهم فى البطالة، فاحتالوا للتعلُّل بالعجز: إمَّا بالحقيقة، كجماعة يُعْمُون أولادَهم وأنفسَهم بالحيلة، ليُعذَروا بالعمى فيُعطَوْن؛ وإمَّا بالتَّعامى والتفالج والتجانن والتمارض[1].

وجماعةٌ يلتمسون أقوالاً وأفعالاً يتعجَّب الناس منها حتَّى تنبسط قلوبهم عند مشاهدتها، فيَسْخُوا برفع اليد عن قليلٍ من المال فى حال التعجُّب.

وذلك قد يكون بالتَّمسخُر والمحاكاة والشَّعبذة، والأفعال المضحِكة، وقد يكون بالأشعار الغريبة والكلام المنثور المسجَّع، مع حسن الصوت. والشعرُ الموزون أشدُّ تأْثيراً فى النفس، لا سيا إذا كان فيه تعصُّب يتعلَّق بالمذاهب، كأشعار مناقب الصحابة وفضائل أهل البيت، أو الذى يحرِّك داعيةَ العشق من أهل المَجَانة، كصنعة الطبَّالين فى الأسواق، وصنعةِ ما يشبه العِوَض وليس بعوض، كبيع التعويذات، والحشيش الذى يخيِّل بائعُه أنها أدوية، فيخدع بذلك الصِّبيان والجهَّال، وكأصحاب القُرْعة والفأْل من المنجِّمين. ويدخل فى هذا الجنس الوُعَّاظ والمكدُّون

(١) أى ادعاء العمى والفالج والجنون والمرض.

على رءوس المنابر ، إذا لم يكن وراءهم طائلٌ علميٌّ ، وكان غرضُهم استمالةَ قلوب العوام وأخذ أموالهم بأنواع الكدية ، وأنواعها تزيد على ألفِ نوعٍ وألفين . وكل ذلك استُنبِط بدقيق الفكرة لأجل المعيشة .

فهذه هى أشغال الخلق وأعمالُهم التى أكبُّوا عليها ، وجرَّهم إلى ذلك كلِّه الحاجةُ إلى القوت والكُسوة ، ولكنهم نَسُوا فى أثناء ذلك أنفسَهم ومقصودَهم ، ومنقلَبهم ومآبهم ، فتاهوا وضلُّوا ، وسَبَق إلى عقولهم الضعيفةِ بعدَ أنْ كدَّرتْها زحمةُ الاشتغالات بالدنيا ، خيالاتٌ فاسـدة ، فانقسمت مذاهبهم ، واختلفت آراؤهم على عدّة أوجه :

فطائفةٌ غلبهم الجهل والغفلة ، فلم تنفتح أعينُهم للنظر إلى عاقبة أمورهم فقالوا : المقصود أن نعيشَ أياماً فى الدُّنيا فنجتهد حتّى نكسب القوت ، ثم نأكل حتى نقوى على الكسب ، ثم نكسب حتّى نأكل .

وطائفة أُخرى زعموا أنهم تفطَّنوا الأمرَ ، وهو أنه ليس المقصود أن يشقَى الإنسان بالعمل ولا يتنعَّم فى الدنيا ؛ بل السَّعادة فى أن يقضى وطَره من شهوة الدنيا ، وهى شهوةُ البطن والفرج .

وطائفةٌ ظنُّوا أن السَّعادةَ فى كثرة المال والاستغناء بكثرة الكنوز ، فأسهروا ليلَهم وأتعبوا نهارَهم فى الجمع ، فهم يتعبون فى الأسفارِ ، طولَ الليل والنهار ، ويتردَّدون فى الأعمال الشاقَّة ويكتسبون ويجمعون ، ولا يأكلون إلا قدرَ الضرورة ، شُحًّا وبخلاً عليها أن تنقص .

وطائفة ظنُّوا أن السعادة فى حُسن الاسم ، وانطلاقِ الألسنة بالثناء والمدح بالتجمُّل والمروءة ؛ فهؤلاء يتعبون فى كسب المعاش ، ويضيِّقون على أنفسهم فى المطعم والمشرب ، ويصرفون جميعَ ما لهم إلى الملابس الحسنة

والدوابَّ النفيسة ، ويزخرفون أبوابَ الدور وما يقع عليها أبصار الناس ، حتّى يقال إنه غنيٌّ وإنّه ذو ثروة ، ويظنُّون أنَّ ذلك هو السعادة.

وطائفة أخرى ظنُّوا أنَّ السعادة فى الجاه والكرامة بين الناس ، وانقياد الخَلْق بالتواضُع والتوقير ؛ فصرفوا هِمَمَهم إلى استجرار الناس إلى الطاعة ، لطلب الولايات ِ وتقلُّد الأعمال السلطانية ، لينفذ أمرُهم بها على طائفةٍ من الناس .

ووراءَ هؤلاءِ طوائفُ يطول حصرُها ، تزيد على نَيِّف وسبعين فرقة ؛ كلُّهم قد ضلُّوا وأضلُّوا عن سواءِ السبيل . وإنما جرَّهم إلى جميع ذلك حاجةُ المطعم والملبس والمسكن ، ونسُوا ما تُراد له هذه الأُمور الثلاثة ، والقدرَ الذى يكفى منها .

فهذا شأن المنهمِكين فى أشغال الدنيا .

وتنبَّهَ لذلك طائفةٌ فأعرضوا عن الدنيا فحسَدهم الشيطان ولم يتركهم ، وأضلَّهم فى الإعراض أيضاً حتّى انقسموا إلى طوائف :

فظنت طائفةٌ أن الدنيا دار بلاءٍ ومحنة ، والآخرةَ دار سعادة لكلِّ من وصَل إليها ، سواءٌ تعبَّدَ فى الدنيا أو لم يتعبَّد ، فرأوا أنَّ الصوابَ فى أن يقتلوا أنفسَهم للخلاص من محنة الدنيا ، وإليه ذهبَ طوائف من العُبَّاد من أهل الهند ، فهم يتهجَّمون على النار ويقتلون أنفسَهم بالإحراق ويظنُّون أن ذلك خلاصٌ لهم من مِحَن الدنيا .

وظَنَّت طائفةٌ أخرى أنَّ القتل لا يخلِّص ، بل لابدَّ أوّلاً من إماتة الصفات البَشرية وقَطْعها عن النفس بالكليَّة ، وأنَّ السعادة فى قطع الشهوة والغضب ، ثم أقبلوا على المجاهدة وشدَّدوا على أنفسهم ، حتّى هلك بعضُهم بشدَّة الرياضة ، وبعضهم فسَد عقله وجُنَّ ، وبعضهم

مرض وانسدَّ عليه الطريق فى العبادة . وبعضهم عَجزَ عن قمع الصفات بالكلية ، فظن أن ما كَلَّفه الشرعُ محال ، وأن الشرع تلبيسٌ لا أصل له فوقع فى الإلحاد . وظهر لبعضهم أنَّ هذا التعب كله لله ، وأن الله تعالى مستغنٍ عن عبادة العباد ، لا ينقصهُ عصيانُ عاصٍ ، ولا تزيده عبادة متعبِّد ، فعادوا إلى الشهَوات ، وسلكوا مسلكَ الإباحة ، وطوَوْا بِساط الشرع والأَحكام ، وزعموا أنَّ ذلك من صفاء توحيدهم ، حيث اعتقدوا أنَّ الله مستغنٍ عن عبادة العباد .

وظنَّ طائفةٌ أن المقصود من العبادات المجاهدةُ حتّى يصل العبدُ بها إلى معرفة الله تعالى ، فإذا حصَلت المعرفة فقد وصَل ، وبعد الوصول يستغنى عن الوسيلة والحِيلة ، فتركوا السَّعيَ والعبادة ، وزعموا أنَّه ارتفع محلُّهم فى معرفة الله سبحانه عن أن يُمتَهنوا بالتكاليف ، وإنما التكليف على عوامّ الخلق .

ووراءَ هذا مذاهبُ باطلةٌ ، وضلالاتٌ هائلة يطول إحصاؤها إلى ما يبلغ نيفاً وسبعين فرقة ، وإنّما الناجى منها فرقة واحدة ؛ وهى السالكة ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وهو أن لا يترك الدُّنيا بالكلِّيّة ولا يقمع الشهوات بالكلية . أمَّا الدنيا فيأْخذ منها قدرَ الزاد ، وأمَّا الشَّهَوات فيقمَع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل .

الكتاب السابع

كتاب ذم البخل وذم حب المال

بيان ذم المال وكراهة حبه

قال الله تعالى : (يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلهِكُمْ أَمْوَالُكُم وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ)، وقال تعالى : (إنَّما أَمْوالُكُمْ وأولادكم فِتْنَةٌ وَاللهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) . فمن اختار مالَه وولده على ما عند الله فقد خَسِرَ وغُبِن خُسراناً عظيما .

قال رجل : يا رسولَ الله ، مالى لا أُحبُّ الموت ! فقال : « هل معَكَ من مال ؟ » قال : نَعمْ يا رسول الله ، قال : « قدِّمْ مالك ، فإنَّ قلب المؤمن مع ماله ! إنْ قدَّمَه أحبَّ أن يلحقه ، وإن خلَّفه أحبَّ أن يَتخلَّف معه » .

وقال الحواريُّون لعيسى عليه السلام : مالَك تَمشِى على الماء ولا نقدر على ذلك ؟ فقال لهم : ما منزلةُ الدينار والدرهم عندكم ؟ قالوا : حسنة . قال : لكنَّهما والمدرَ عندى سواءٌ .

رُوِىَ أنَّ رجلاً نال من أبى الدرداء وأراه سوءاً فقال : اللهمَّ مَنْ فعل بى سوءًا فأَصحَّ جسمَه ، وأَطِلْ عمره ، وأَكثِرْ ماله . فانظر كيف رأى كثرة المال غايةَ البلاء مع صحَّة الجسم وطُول العمر ؟ لأنه لابدَّ وأن يفضِىَ إلى الطُّغيان .

وقيل : إنَّ أوّلَ ما ضُرب الدينار والدرهم رفعهما إبليس ثم وضعهما على جبهته ثم قبّلهما وقال : مَنْ أحبَّكما فهو عبدى حقًّا .

بيان مدح المال والجمع بينه وبين الذم

اعلم أن الله قد سَمَّى المال خيراً فى مواضعَ من كتابه العزيز فقال جلَّ وعزَّ : (إنْ تَرَكَ خيراً) الآية ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نِعم المالُ الصَّالحُ للرجلِ الصالح » .

وكلُّ ما جاء فى ثواب الصَّدقة والحجِّ فهو ثناءٌ على المال ، إذْ لا يمكن الوصولُ إليهما إلاَّ به .

وقال صلى الله عليه وسلم : « كاد الفقر أن يكون كفراً » .

ومن عرف فائدة الشيء وغايتَه ومَقصِدَه ، واستعمله لتلك الغاية متلفتاً إليها غيرَ ناسٍ لها ، فقد أحسن وانتفع ، وكان ما حصَّل له الغرض محموداً فى حقِّه . فإذنْ المالُ آلةٌ ووسيلة إلى مقصود صحيح ، ويصلح أن يُتَّخَذ آلةً ووسيلةً إلى مقاصدَ فاسدة ، وهى المقاصد الصادَّة عن سعادة الآخرة ، ويسدُّ سبيل العلم والعمل ، فهو إذن محمودٌ مذموم .

ولما كانت الطباعُ مائلةً إلى اتباع الشهوات القاطعةِ لسبيل الله ، وكان المال مسهِّلا وآلةً إليها ؛ عظُم الخطرُ فيما يزيد على قدر الكفاية ، فاستعاذ الأنبياءُ من شرِّه ، حتى قال نبينا عليه الصلاة والسلام : « اللهم اجعل قُوتَ آل محمد كَفافا[1] » . فلم يطلب من الدنيا إلاَّ ما يتمحَّضُ خيره . وقال : « اللهم أَحْيِنى مِسكيناً ، وأَمِتْنى مِسكيناً ، واحْشُرْنى فى زُمرةِ المساكين[2] » .

---

(١) الكفاف ، بفتح الكاف ، هو ما يكف من الرزق عن سؤال الناس .
(٢) الزمرة : الجماعة .

بيان ذم الحرص والطمع
ومدح القناعة واليأْس مما في أَيْدى الناس

اعلم أَنَّ الفقر محمود - ولكن ينبغى أن يكون الفقير قانعاً منقطعَ الطمع عن الخَلْق ، غيرَ ملتفتٍ إلى ما فى أيديهم ، ولا حريصاً على اكتساب المال كيف كان . ولا يمكنه ذلك إلاَّ بأَن يقنع بقدر الضَّرورة من المطعم والملبس والمسكن ، ويقتصر على أقلِّه قدراً ، وأخسِّه نوعاً ، ويردَّ أَمَله إلى يومِه أو إلى شَهره ، ولا يشغل قلبه ممَّا بعد شهر . فإنْ تشوَّق إلى الكثير أو طوَّل أمله فاتَه عزُّ القناعة ، وتدنَّسَ لا محالةَ بالطَّمَع وذُلِّ الحرص ، وجرَّهُ الحرصُ والطمع إلى مَساوى الأَخلاق ، وارتكاب المنكرات الخارقة للمروءات ، وقد جُبل الآدمى على الحرص والطمع وقلَّة القناعة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كان لابن آدم واديانِ من ذهبٍ لابْتَغى لهما ثالثاً ، ولا يملأُ جوف ابنِ آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » .

قال عمر رضى الله عنه : إنَّ الطمع فقر ، وإنَّ اليأْس غِنًى ، وإنه من ييأَس عمَّا فى أيدى الناس استغنى عنهم .

وقيل لبعض الحكماء : ما الغِنَى ؟ قال : قِلَّة تمنِّيك ، ورضاك بما يَكفيك .

وكان محمد بن واسعٍ يبُلُّ الخبز اليابس بالماء ويأْكله ويقول : مَن قَنِع بهذا لم يحتجْ إلى أحد .

وقال الشَّعبي : حكى أَنَّ رجلا صاد قُنْبُرَةً فقالت : ما تريد أن تصنَعَ بي ؟ قال : أَذبحُكِ وآكلُك . قالت : والله ما أَشْفِى من قَرَمٍ [1] ، ولا أُشبعُ

---

(١) القرم : شهوة اللحم .

من جوع ، ولكنْ أعلِّمك ثلاث خصالٍ هي خيرٌ لك من أكلي : أمّا واحدة : فَأُعلِّمك وأنا في يدك ، وأما الثانية : فإذا صرتُ على الشجرة ، وأما الثالثة : فإذا صرتُ على الجبل . قال : هاتِ الأولى . قالت : لا تَلَهَّفَنَّ على ما فاتك . فخلاَّها فلما صارتْ على الشجرة قال : هاتِ الثانية . قالت : لا تصدِّقنَّ بما لا يكون أنَّه يكون . ثم طارت فصارت على الجبل فقالت : يا شَقِيُّ لو ذبحتني لأخرجت من حَوْصَلَتي دُرَّتين زِنة كلٍّ درة عشرون مثقالا . قال : فَعَضَّ على شفته وتلهَّفَ وقال : هاتِ الثالثة . قالت : أنت قد نسيتَ اثنتين فكيف أخبرك بالثالثة ؟ ألم أقلْ لك : لا تَلَهَّفَنَّ على ما فاتك ، ولا تصدقن بما لا يكون أنَّه يكون . أنا لحمي ودمي وريشي لا يكون عشرين مثقالاً فكيف يكون في حوصلتي دُرَّتان كلٌّ واحدة عشرون مثقالا ؟ ثم طارت فذهبت .

وهذا مثالٌ لفَرْط طمع الآدمي ، فإنَّه يُعْمِيه عن دَرْكِ الحق حتَّى يقدِّر ما لا يكون أنه يكون .

بيان علاج الحرص والطمع

والدواءِ الذي يكتسب به صفة القناعة

اعلم أنَّ هذا الدواء مركَّب من ثلاثة أركان : الصبر ، والعِلْم ، والعمل. ومجموع ذلك خمسة أمور :

الأَول : وهو العمل : الاقتصاد في المعيشة ، والرفق في الإنفاق .

الثاني : أنَّه إذا تيسَّر له في الحال ما يكفيه فلا ينبغي أن يكون شديدَ الاضطراب لأَجل المستقبل ، ويُعينه على ذلك قِصَر الأَمل ، والتحقُّق بأَنَّ الرزق الذي قُدِّر له لابدَّ وأنْ يأْتيَه وإن لم يشتدَّ حرصه .

الثالث : أن يَعرِف ما فى القناعة من عزٌّ الاستغناء ، وما فى الحرص والطمع من الذُّلِّ ، فإذا تحقَّق عنده ذلك انبعثت رغبتهُ إلى القناعة ، لأنَّه فى الحرص لا يخلو من تَعبَ ، وفى الطَّمع لا يخلو من ذُلّ .

الرابع : أن يُكثِر تأمُّلَه فى تنعمُّ اليهود والنصارى وأراذل الناس ، والحمقى ، من الاكراد والأعراب الأجلاف ، ومَن لا دينَ لهم ولا عقل . ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء ، وإلى سَمْتِ الخلفاء الرَّاشدين وسائر الصَّحابة والتابعين ، ويستمعَ أحاديثَهم ويُطالعَ أحوالهم ؛ ويخيِّرَ عقله بين أن يكون على مشابهةِ أراذل الناس ، أو على الاقتداء بمن هو أعزٌّ أصناف الخلق عند الله .

الخامس : أن يفهم ما فى جَمع المال من الخطر ، وما فيه من خوف السَّرقة والنَّهب والضَّياع ، وما فى خُلوِّ اليد من الأمن والفراغ .

فبهذه الأُمور يقدر على اكتساب خلق القناعة .

بيان فضيلة السخاء

اعلم أنَّ المال إن كان مفقوداً فينبغى أن يكون حالُ العبد القناعةَ وقلةَ الحرص ، وإن كان موجوداً فينبغى أن يكون حالهُ الإيثارَ والسخاء واصطناعَ المعروف ، والتباعدَ عن الشح والبخل ، فإنَّ السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام ، وهو أصلٌ من أُصول النجاة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الله جَوَادٌ يحبٌّ الجود، ويحبٌّ مكارم الأخلاق ويكره سَفسَافَها[1] » .

---

(١) السفساف : الردىء من كل شىء ، والأمر الحقير .

وقال أنس : إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يُسأَلْ على الإسلام شيئاً إلاَّ أعطاه . وأتاهُ رجلٌ فسأَله ، فأمر له بشاءٍ كثير بين جَبَلين مِن شاءِ الصدقة ، فرجع إلى قومه فقال : يا قومِ أسلموا ، فإنَّ محمداً يُعْطى عطاءَ من لا يخاف الفاقة[1] .

قال على كرم الله وجهه : إذا أقبلَتْ عليك الدُّنيا فأَنفِق منها فإنَّها لا تفنَى ، وإذا أدبرتْ عنك فأَنفِقْ منها فإنَّها لا تبقَى . وأنشد :

لا تَبْخَلنَّ بدُنْيا وهى مُقْبِلةٌ فليس يَنْقصها التبذيرُ والسرفُ
وإنْ تولَّتْ فأَحْرَى أن تجودَ بها فالحمدُ منها إذا ما أَدبرَتْ خَلَفُ

وقال حذيفة رضى الله عنه : رُبَّ فاجرٍ فى دينه ، أخرقَ فى معيشته ، يدخل الجنة بسماحته .

ورُوى أنَّ الأَحنفَ بن قيس رأى رجلاً فى يده درهم ، فقال : لمن هذا الدرهم ؟ فقال : لى . فقال : أمَا إنَّه ليس لك حتَّى يخرج من يدك.

وفى معناه قيل :

أنت للمال إذا أَمْسَكْتَهُ فإذا أنفقتَهُ فالمالُ لَكْ

حكايات الأَسخياء

عن محمد بن المنكدِر ، عن أمِّ دُرَّة – وكانت تخدُم عائشةَ رضى الله عنها – قالت : إنَّ معاوية بعثَ إليها بمالٍ فى غِرارتين ، ثمانية ومائة درهم ، فدعَتْ بطبق فجعلت تقسِّمه بين الناس ، فلما أَمسَتْ قالت : يا جارية هَلُمِّ فَطورى . فجاءتها بخبز وزيتٍ ، فقالت لها أُم درَّة : ما استطعتِ فيما قسمتِ اليوم أن تشترى لنا بدرهمٍ لحماً نُفطِر عليه ؟ فقالت : لو كنتِ ذكَّرتينى لفعلْتُ[2] .

---

(١) الفاقة : الفقر والحاجة .

(٢) تعنى أنها أنفقت جميع المال ولم يبق منه درهم .

وعن أبان بن عثمان قال : أراد رجلٌ أن يُضَارَّ عُبيد الله بن عباس ، فأتى وجوهَ قريش فقال : يقول لكم عبيد الله : تغدَّوْا عندى اليوم .فأتَوه حتَّى مَلئُوا عليه الدار ، فقال : ما هذا؟ فأُخْبِرَالخَبَرَ، فأمَرَ عُبيد الله بشراء فاكهة ، وأمر قوماً فطبَخُوا وخَبَزُوا ، وقُدمت الفاكهةُ إليهم فلم يفرُغوا منها حتَّى وضعت الموائد ، فأكلوا حتَّى صَدَروا ، فقال عبيد الله لوكلائه : أوَموجودٌ لنا هذا كلَّ يوم ؟ قالوا : نعم . قال : فليتغدَّ عندنا هؤلاء فى كلِّ يوم .

وحُكِىَ أنَّه لما أجدبَ الناسُ بمصر وعبدُ الحميد بن سعدٍ أميرُهم فقال : والله لأُعْلمنَّ الشيطانَ أنى عدوه ! فَعَالَ مَحَاوِيجَهُمْ[1] إلى أن رَخُصت الأسعار ، ثم عُزِلَ عنهم فرحل وللتجار عليه ألفُ ألفِ درهم ، فرهَنهم بها حُلِىَّ نسائه وقيمتُها خمسُمائة ألفِ ألف ، فلما تعذَّر عليه ارتجاعها كتب إليهم بِبيعها ، ودفْعِ الفاضل منها عن حقوقهم إلى مَن لم تنله صِلاته .

وخرَج عبدُ الله بن عامر بن كُرَيز من المسجد يريد منزلَه وهو وحدَه، فقام إليه غلامٌ من ثَقيفٍ فمشىَ إلى جانبه ، فقال له عبدُ الله : ألكَ حاجةٌ ياغلام ؟ قال : صلاحُك وفلاحك ، رأيتُك تمشى وحدَك فقلت : أقيكَ بنفسى ، وأعوذ بالله إن طار بجَنَابِكَ مكروه ! فأخذ عبدُ الله بيده ومشىَ معه إلى منزله ، ثم دعا بألفِ دينار فدفَعها إلى الغلام وقال : استنفقْ هذه فنِعْمَ ما أدَّبكَ أهلك .

بيان ذم البخل

قال الله تعالى : (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ) ، وقال تعالى: (وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بل هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ) وقال تعالى:

(١) المحاويج : المحتاجون . عالهم : كفاهم ومانهم .

(الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ).

وقال صلى الله عليه واسلم : « إيَّاكم والشُّحَّ فإنَّه أهلَكَ مَن كان قبلكم ، حَمَلهم على أن سَفَكوا دماءهم واستحَلُّوا محارِمَهم » .

وقال صلى الله عيه وسلم : « لا يدخُل الجنة بخيل ولا خبٌّ ، ولا خائن ولا سيِّئ المَلَكة[1] » .

وقال محمد بن المنكدر : كان يقال : إذا أراد الله بقوم شرًّا أمَّرَ عليهم شِرارَهم ، وجعل أرزاقَهم بأيدى بُخلائهم .

وقال الشَّعبى : لا أدرى أيُّهما أبعد غوراً فى نار جهنم : البُخْل أو الكذب ؟

وقال كعب : ما مِن صباحٍ إلاَّ وقد وُكِّلَ به مَلَكان يناديان : اللهم عَجِّلْ لمُمْسِكٍ[2] تلفاً ، وعَجِّل لمنفقٍ خَلَفاً .

وقال الأصمعى : سمعتُ أعرابيًّا وقد وصف رجلاً فقال : لقد صغُر فلانٌ فى عينى لِعِظَم الدنيا فى عينه ، وكأنَّما يرى السائلَ مَلكَ الموت إذا أتاه .

وقال أبو حنيفة رحمه الله : لا أرى أن أعدِّلَ بخيلا[3] ، لأنَّ البخل يحمله على الاستقصاء فيأخذ فوقَ حقِّه خِيفةً من أن يُغبنَ . فمن كان هكذا لا يكون مأمون الأمانة .

حكايات البخلاء

قيل : كان بالبصرة رجل مُوسرٌ بخيل ، فدعاه بعضُ جيرانه وقدَّم إليه طَباهِجةً[4] ببيضٍ ، فأكل منه فأكثر ، وجعل يشرب الماء فانتفخَ

(١) الخب : الخداع . والملكة : الملك . والمراد من لا يحسن معاملة مملوكه .
(٢) الممسك : البخيل .
(٣) عدله تعديلا : نسبه إلى العدل . والعدول : من يوثق بهم وبشهادتهم .
(٤) الطباهجة : اللحم المشرح ، معرب تباهه .

بطنُه ونزل به الكَرْب والموت ، فجعل يتلوَّى ، فلما جَهَده الأمْرُ وصَفَ حالَه للطبيب ، فقال : لا بأْسَ عليك ؛ تقيَّأْ ما أكلت . فقال : هاهِ ! أتقيَّأُ طَباهجةً ببيض ؟! الموت ولا ذلك .

وقيل : أقبلَ أعرابيٌّ يطلب رجلاً ، وبين يديه تِين ، فغطى التِّين بكسائه ؛ فجلس الأعرابيُّ فقال له الرجل : هل تحسِن من القرآن شيئاً ؟ قال : نعم ، فقرأ (... والزيتون وطُور سينين) ، فقال : وأين التين ؟ قال : هو تحت كسائك .

ودعا بعضُهم أخاً له ولم يُطعِمه شيئاً ؛ فحبسَه إلى العصر حتَّى اشتدَّ جُوعه ، وأخذه مثلُ الجنون ، فأخذ صاحبُ البيت العُود وقال له : بحياتى ، أىَّ صوتٍ تشتهى أن أُسمِعَك ؟ قال : صوتُ المِقْلى .

بيان الإيثار وفضله

اعلم أن السخاء والبخل كلٌّ منهما ينقسم إلى درجات . فأرفعُ درجات السَّخاء : الإيثار ، وهو أن يجودَ بالمال مع الحاجة إليه .

وقد أثنى الله على الصحابة رضى الله عنهم به فقال : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَة ﴾ .

وقالت عائشة رضى الله عنها : ما شَبِع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثةَ أيامٍ متوالية حتَّى فارق الدنيا ، ولو شئْنا لَشبِعنا ، ولكنَّا كُنَّا نُؤْثر على أنفسنا .

قال عمر رضى الله عنه : أهدِىَ إلى رجلٍ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسُ شاة فقال : إنَّ أخى كان أحوجَ منِّى إليه . فبعث به إليه ، فلم يزلْ كلٌّ واحد يبعث به إلى آخر حتى تداوَلَه سبعةُ أبيات ورجَع إلى الأوَّل .

وعن أبى الحسن الأنطاكى : أنّه اجتمع عنده نَيِّفٌ وثلاثون نفساً ـ وكانوا فى قرية بقرب الرَّىِّ ـ ولهم أرغفةٌ معدودة لم تُشبع جميعَهم، فكسَّروا الرُّغفان وأطفئُوا السِّراج وجلسوا للطعام ، فلما رُفع فإذا الطعام بحالِهِ ولم يأْكلْ أحدٌ منه شيئاً ، إيثاراً لصاحبه على نفسه .

وقال عبَّاس بن دِهقان : ما خرج أحدٌ من الدُّنيا كما دخلها إلاَّ بِشر بن الحارث ، فإنَّه أتاه رجلٌ فى مرضه فشكا إليه الحاجةَ ، فنزع قميصَه وأعطاه إياه ، واستعار ثوباً فمات فيه .

بيان علاج البخل

اعلم أنَّ البخل سببه حبُّ المال . ولحبِّ المال سببان :

أحدُهما : حُبُّ الشهوات التى لا وصُولَ إليها إلاَّ بالمال مع طول الأمل ، فإنَّ الإنسانَ لو عَلم أنه يموت بعد يوم ربَّما أنه كان لا يبخل بماله ؛ إذ القدْرُ الذى يحتاج إليه فى يوم أو فى شهر أو فى سنة قريب . وإن كانَ قصير الأمل ولكن كان له أولادٌ أقام الولدَ مقامَ طول الأمل .

السبب الثانى : أن يُحبَّ عيْنَ المال ؛ فمن الناس مَن معه ما يكفيه لبقية عمرِه إذا اقتصر على ما جرت به عادتُه بنفقته وتفضُل آلاف ، وهو شيخٌ بلا ولدٍ ، ومعه أموال كثيرة ، ولا تسمح نفسُه بإخراج الزكاة ولا بمداواة نفسِه عند المرض ، بل صار محبًّا للدنانير عاشقًا لها ، يلتذُّ بوجودها فى يده ، وبقدرته عليها ، فيَكنِزُها تحتَ الأَرض وهو يعلم أنه يموت فتَضيع ، أو يأْخذُها أعداؤه ؛ ومع هذا فلا تسمح نفسه بأَن يأْكلَ أو يتصدَّق منها بحبَّةٍ واحدة ، وهذا مرضٌ للقلب عظيمٌ عسير العلاج ، لا سيَّما فى كِبرَ السن .

وإنّما علاج كلِّ علةٍ بمضادّةِ سببها ؛ فتعالج حبَّ الشهوات بالقناعة باليسير وبالصبر ، وتعالج طولَ الأَمل بكثرة ذكر الموت ، والنّظرِ فى مَوت الأَقران ، وطول تعبِهم فى جمع المال وضياعه بعدهم . وتُعالج التفات القلبِ إلى الولد بأَنَّ خالقَه خَلق معه رزقه .

ومن الأَدوية النافعة : كثرةُ التأَمُّل فى أَحوال البخلاء ، ونُفرة الطبْع عنهم واستقباحُهم له . فإنّه ما من بخيلٍ إلاّ ويستقبح البُخلَ من غيره .

ويعالج أَيضاً قلبَه بأَن يتفكّر فى مقاصد المال ، وأنّه لماذا خُلق ؟ ولا يَحفظ من المال إلاّ بقدر حاجته إليه ، والباقى يدّخره لنفسه فى الآخرة ، بأَن يحصُل له ثوابُ بذله .

فهذه الأَدوية من جهة المعرفة والعلم . فإذا عَرَف بنور البصيرة أن البذل خير له من الإمساك فى الدُّنيا والآخرة ، هاجت رغبتُه فى البَذْل إن كان عاقلا . فإنْ تحرّكت الشهوةُ فينبغى أن يُجيب الخاطر الأَوّل ولا يتوقّف ، فإنّ الشيطانَ يَعِده الفقرَ ويخوّفه ويصدُّه عنه .

الكتاب الثامن

كتاب ذم الجاه والرياء

بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت

اعلم أصلحك الله أنَّ أصل الجاه هو انتشار الصِّيت والاشتهار ، وهو مذمومٌ ، بل المحمود الخمول ، إلاَّ مَن شَهرَه الله تعالى لنَشْرِ دينه من غير تكلُّفٍ طلب الشُّهرة منه .

وقال على كرم الله وجهه : تبذَّلْ ولا تشتهر ، ولا ترفع شخصَك لتذكر ، وتعلَّم واكتم ، واصْمُتْ تسلَم ، تسُرُّ الأبرار ، وتغيظ الفجَّار .

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : ما صدقَ اللهَ مَن أحبَّ الشهرة .

وقال مَعمر : عاتبت أيُّوبَ[1] على طول قميصه فقال : إن الشهرة كانت فى طُوله ، وهى اليوم فى تشميره .

وقال الثورى : كانوا يكرهون الشُّهرة من الثياب الجيِّدة والثياب الرديئة ، إذ الأبصار تمتدُّ إليهما جميعاً .

وقال بشر : ما أعرفُ رجلاً أحبَّ أن يُعرَف إلاَّ ذهبَ دينُه وافتضح.
وقال أيضاً : لا يجد حلاوةَ الآخرة رجلٌ يحبُّ أن يعرفه الناس .

رحمة الله عليه وعليهم أجمعين .

---

(١) أيوب السختيانى ، وهو أيوب بن أبى تميمة كيسان البصرى ، أحد الفقهاء الزهاد العباد . توفى سنة ١٣١ .

بيان ذم حب الجاه

قال الله تعالى : (تِلْكَ الدَّارُ الآخِرةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً) . جمعَ بين إرادة الفساد والعلوّ ، وبيَّنَ أنَّ الدار الآخرة للخالى عن الإرادتين جميعاً . وقال عزّ وجلّ : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ * أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) . وهذا أيضاً متناولٌ بعمومه لحبِّ الجاه ، فإنَّه أعظم لذةٍ من لذات الحياة الدنيا ، وأكثر زينةٍ من زينتها .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ماذئبان ضاريان أُرسِلا فى زَرِيبةِ غنمٍ بأسرعَ إفساداً من حبِّ الشرفِ والمال فى دين الرجل المسلم » .

اعلمْ أن الجاه والمالَ هما ركنا الدنيا . ومعنى المال : مِلك الأعيان المنتفَع بها . ومعنى الجاه : مِلك القلوب المطلوبِ تعظيمها وطاعتها . وكما أنَّ الغنيَّ هو الذى يملك الدراهم والدنانير ؛ أى يَقدِر عليهما ليتوصَّل بهما إلى الأغراض والمقاصد ، وقضاءِ الشهوات وسائر حظوظ النفس ، فكذلك ذو الجاه هو الذى يملك قلوبَ الناس ، أى يقدر على أن يتصرَّف فيها ليستعمل بواسطتها أربابَها فى أغراضه ومآربه .

وكما أنَّ محبَّ المالِ يطلُب مِلكَ الأرقَّاء والعبيد فطالبُ الجاه يطلب أن يسترقَّ الأحرار ويستعبدهم ، ويملك رقابهم بملكِ قلوبهم ، بل الرقُّ الذى يطلبه صاحب الجاه أعظم ، لأنَّ المالك يملك العبدَ قهراً ، والعبدُ مُتأَبٍّ بطبعه ، ولو خُلِّيَ ورأيَه انسلَّ عن الطاعة . وصاحب الجاه يطلب الطاعةَ طوعاً ، ويبغى أن تكون له الأحرارُ عبيداً بالطبْع والطَّوْع ، مع الفرح بالعبوديَّة والطاعة له ، فما يطلبه فوقَ ما يطلبه مالكُ الرق بكثير. فإذاً معنى الجاه : قيامُ المنزلة فى قلوب الناس ؛ أى اعتقاد القلوب لنعت

من نعوت الكمال فيه ، فبقدرِ ما يعتقدون من كماله تُذعِن له قلوبُهم ، وبقدر إذعان القلوب تكون قدرتهُ على القلوب ، وبقدر قدرته على القلوب يكون فرحُه وحبُّه للجاه .

بيان سبب كون الجاه محبوباً بالطبع حتى لا يخلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة

اعلم أنَّ السبب الذى يقتضى كونَ الذهب والفضة وسائر أنواع الأموال محبوباً ، هو بعينه يقتضى كون الجاه محبوباً ، بل يقتضى أن يكون أحبَّ من المال .

ولِملك الجاه ترجيح على المال من ثلاثة أوجه :

الأول : أنَّ التوصُّل بالجاه إلى المال أيسرُ من التوصُّل بالمال إلى الجاه فالعالم أو الزاهد الذى تقَرَّر له جاهٌ فى القلوب لو قصَد اكتساب المال تيسَّر له ، فإنَّ أموال أرباب القلوب مسخَّرة للقلوب ، ومبذولةٌ لمن اعتُقِد فيه الكمال . وأما الرجل الخسيس الذى لا يتَّصف بصفةِ كمالٍ إذا وجَد كنزاً ولم يكن له جاهٌ يحفظ ماله ، وأرادَ أن يتوصَّل بالمال إلى الجاه لم يتيسَّر له .

الثانى : هو أن المالَ معرَّضٌ للبلوى والتلَف ، بأن يُسرَقَ ويُغصب ، ويَطمع فيه المُلوك والظَّلَمة ، ويُحتاج فيه إلى الحَفَظة والحُرَّاس ، والخزائن ، ويتطرَّق إليه أخطارٌ كثيرة . وأما القلوب إذا مُلكت فلا تتعرض لهذه الآفات ، فهى على التحقيق خزائنُ عتيدة ، لا يقدر عليها السُّرَّاق ، ولا تتناولها أيدى النُّهاب والغُصَّاب

الثالث : أنَّ مِلك القلوبِ يَسرى وينمو ويتزايد ، من غير حاجة إلى تعب ومقاساة ، فإنَّ القلوب إذا أذعنت لشخص واعتقدت كمالَه بعلمٍ أو عمَل أو غيره ، أفصحت الألسنةُ لا محالةَ بما فيها .

بيان السبب في حب المدح والثناء
وارتياح النفس به وميل الطبع إليه
وبغضها للذم ونفرتها منه

اعلم أنَّ لحبِّ المدح والتِذاذِ القلب به أربعةَ أسباب :

السببُ الأوَّلُ ؛ وهو الأقوى : شعور النفس بالكمال ، فإنَّا بيَّنَّا أنَّ الكمال محبوب ؛ وكلُّ محبوب فإدراكه لذيذ . فمهما شعَرت النفسُ بكمالها ارتاحت واهتزَّت وتلذَّذت ، والمدحُ يُشعِر نفسَ الممدوح بكمالها ، فإنَّ الوصف الذى به مُدِح لا يخلو إمَّا أن يكون جليًّا ظاهراً ، أو يكون مشكوكاً فيه . فإن كان جليًّا ظاهراً محسوساً كانت اللذَّةُ به أقلَّ ، وإن كان ذلك الوصف مما يتطرَّق إليه الشكُّ فاللذة فيه أعظم ؛ كالثناء عليه بكمال العلم أو كمال الورع ، أو بالحسن المطلق ، فإن الإنسان ربَّما يكون شاكًّا فى كمال حسنه وفى كمال علمه وكمال ورعه ، ويكون مشتاقاً إلى زوال هذا الشكِّ بأن يصير مستيقناً لكونه عديمَ النظير فى هذه الأُمور ، إذ تطمئنُّ نفسه إليه . فإذا ذكَره غيره أورثَ ذلك طمأْنينةً وثقةً باستشعار ذلك الكمالِ فتعظم لذاته ، وإنَّما تعظم اللذة بهذه العلَّة مهما صدر الثناءُ من بصيرٍ بهذه الصفات خبير بها ، لا يجازف فى القول إلاَّ عن تحقيق ، وذلك كفرح التلميذ بثناء أُستاذِه عليه بالكِياسة والذَّكاءِ وغزارة الفضل ، فإنَّه فى غاية اللذَّة . وإن صَدر ممن يُجازف فى الكلام أو لا يكون بصيراً بذلك الوصفِ ضعُفت اللذة . وبهذه العلَّة يُبغض الذمَّ أيضاً ويكرهه ، لانه يشعره بنقصان نفسه ، والنقصان ضد الكمال المحبوب ، فهو ممقوتُ الشعورِ به مُؤلم ، ولذلك يعظم الألم إذا صدر الذمُّ من بصير موثوق به ، كما ذكرناه فى المدح .

السبب الثانى : أنَّ المدح يدلُّ على أن قلبَ المادح مملوكٌ للممدوح ، وأنه مُريدٌ له ومعتقدٌ فيه ومسخَّرٌ تحت مشيئتِهِ . ومِلْكُ القلوب محبوبٌ والشعور بحصوله لذيذ .

وبهذه العلة أيضاً يكره الذم ويتألم به القلب .

السبب الثالث : أنَّ ثناء المُثنِى ومدحَ المادح سببٌ لاصطياد قلب كلِّ من يسمعهُ ، لا سيما إذا كان ذلك ممن يُلتفت إلى قوله ويُعتدُّ بثنائه ، وهذا مختصٌ بثناءٍ يقع على الملإ ، فلا جرم كلَّما كان الجمع أكثر والمُثنِى أجدرَ بأَن يُلتفت إلى قوله ، كان المدح ألذَّ والذمُّ أشدَّ على النفس.

السبب الرابع : أنَّ المدحَ يدل على حِشمة الممدوح ، واضطرارِ المادح إلى إطلاق اللسان بالثناء على الممدوح ، إما عن طَوعٍ وإما عن قهر ، فإنَّ الحشمة أيضاً لذيذةٌ لما فيها من القهر والقدرة .

فهذه الأَسباب الأَربعةُ قد تُجمع فى مدحِ مادحٍ واحد فيعظُم بها الالتذاذ ، وقد تفترق فتنقص اللَّذة بها .

بيان اختلاف أَحوال الناس في المدح والذم

اعلم أنَّ للناس أربعةَ أحوالٍ بالإضافة إلى الذام والمادح :

الحالة الأُولى : أن يفرح بالمدح ويشكر المادح ، ويغضب من الذم ويحقد على الذام ، ويكافئهُ أَو يحب مكافأَته . وهذا حالُ أكثرِ الخلق ، وهو غاية درجات المعصية فى هذا الباب .

الحالة الثانية : أن يمتعض فى الباطن على الذامِّ ولكن يمسكُ لسانَه وجوارحه عن مكافأَته ، ويفرحَ باطنه ، ويرتاحَ للمادح ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور . وهذا من النُّقصان ، إلا أنه بالإضافة إلى ما قبله كمال .

الحالة الثالثة : وهى أولى درجات الكمال أن يستوىَ عندَه ذامُّه ومادحُه ؛ فلا تغمُّه المذمَّة ، ولا تسرُّه المِدْحة . وهذا قد يظنُّه بعض العِباد بنفسه ، ويكون مغروراً إن لم يمتحن نفسَه بعلاماته . وعلاماته : أن لا يجد فى نفسه استثقالاً للذامِّ عند تطويله الجلوسَ عنده أكثر مما يجده فى المادح . وأن لا يجدَ فى نفسه زيادةَ هِزَّة ونشاط فى قضاء حوائج المادح فوقَ ما يجده فى قضاء حاجة الذامِّ . وأن لا يكون انقطاع الذامِّ عن مجلسه أهونَ عليه من انقطاع المادح . وأن لا يكون موتُ المادحِ المُطْرِى له أشدَّ نكايةً فى قلبه من موت الذامِّ . وأن لا يكون غمُّه بمصيبة المادح وما يناله من أعدائه أكثرَ مما يكون بمصيبة الذامّ ، وأن لا تكون زَلَّة المادح أخفَّ على قلبه وفى عينه من زَلَّة الذامّ . فمهما خفَّ على قلبه كما خفَّ المادح ، واستويا من كل وجه ، فقد نال هذه الرتبة . وما أبعد ذلك وما أشدَّه على القلوب !

الحالة الرابعة : وهى الصدق فى العبادة : أن يكره المدحَ ويمقت المادح ، إذْ يعلم أنَّه فتنةٌ عليهِ قاصمةٌ للظهر مَضَرَّة له فى الدين ، ويحبَّ الذام إذْ يعلم أنه مُهْدٍ إليه عَيْبَه ،ومُرشِدٌ له إلى مهمِّه ، ومُهْدٍ إليه حسناته .

بيان ذم الرياء

اعلم أن الرياء حرام ، والمُرائى عند الله ممقوت ، وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار والآثار .

أما الآيات : فقوله تعالى :(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِين هُمْ يُراءُون) ، وقوله عز وجل: (وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولٰئِكَ هُوَ يَبُورُ) . قال مجاهد : هم أهل الرياء . وقال تعالى: (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً) . فمدح المخلصين بنفى كلِّ إرادةٍ سوى وجه الله ، والرياءُ ضده.

وأما الأخبار : فقد قال صلى الله عليه وسلم : « من رَاءَى راءَى الله به ومن سَمَّع سَمَّع الله به » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكم الشِّركُ الأصغر». قالوا : وما الشِّرك الأصغر يارسول الله؟ قال: « الرِّياءُ ، يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جازَى العبادَ بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تُرَاءُون فى الدنيا فانظروا ، هل تَجِدون عندهم الجزاءَ » .

وأما الآثار : فيروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى رجلاً يطأطىءُ رقبته ، فقال : يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ، ليس الخشوع فى الرِّقاب إنما الخشوع فى القلب .

ورأى أبو أُمامة الباهلىُّ رجلاً فى المسجد يبكى فى سجوده فقال : أنت أنتَ لو كان هذا فى بيتك ؟

وقال علىٌّ كرم الله وجهَه : للمرائى ثلاثُ علامات : يكسل إذا كان وحدَه ، وينشطُ إذا كان فى الناس ، ويزيدُ فى العمل إذا أُثنِىَ عليه وينقص إذا ذُمَّ .

وضربَ عمر رجلاً بالدِّرَّة ثم قال له : اقتصَّ منى . فقال : لا بل أدعُها لله ولك . فقال له عمر : ما صنعتَ شيئاً إمَّا أن تدعها لى فأعرفَ ذلك ، أو تدعَها لله وحدَه . فقال : وَدَعتُها لله وحدَه . فقال : فنعم إذن .

وقال الحسن : لقد صحبتُ أقواماً إنْ كان أحدهم لَتعرِض له الحكمةُ لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابَه ، وما يمنعُه منها إلاَّ مخافةُ الشهرة . وإن كان أحدهم ليمرُّ فيرى الأذى فى الطريق فما يمنعه أن ينحِّيَه إلاَّ مخافةُ الشهرة .

بيان حقيقة الرياء وما يراءى به

اعلم أنَّ الرياء مشتقٌّ من الرؤية ، والسُّمعة مشتقة من السماع .

وإنَّما الرياءُ أصلُه طلبُ المنزلة فى قلوب الناس بإيرائهم خصالَ الخير ، إلاَّ أنَّ الجاه والمنزلة تطلب فى القلب بأعمالٍ سوى العبادات ، وتطلب بالعبادات . واسم الرياء مخصوصٌ بحكم العادة بطلب المنزلة فى القلوب بالعبادات وإظهارها .

فالمرائى هو العابد ، والمُراءَى هو الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة فى قلوبهم ، والمراءَى به هو الخصال الّتى قصَد المُرائى إظهارها ، والرياءُ هو قَصده إظهارَ ذلك .

والمراءَى به كثير ، وتجمعه خمسة أقسام ، وهى مجامع ما يتزيَّن به العبد للناس . وهو البدن : والزىّ ، والقول ، والعمل ، والأَتباع ، والأَشياءُ الخارجة . وكذلك أهل الدنيا يراءُون بهذه الأَسباب الخمسة .

القسم الأَول : الرياءُ فى الدين بالبدن : وذلك بإظهار النُّحول والصَّفار[1] ، ليوهم بذلك شِدَّة الاجتهاد وعِظَمَ الحزن على أمر الدين ، وغلبة خوفِ الآخرة .

ويقرب من هذا خَفْض الصوت وإغارة العينين وذُبول الشفتين ، ليستدَلَّ بذلك على أنه مواظب على الصَّوم .

وعن هذا قال المسيح عليه السلام : إذا صام أحدكم فليدهُن رأْسَه ويرجِّلْ شعره ويكحُلْ عينيه .

فأَما أهل الدنيا فيراءُون بإظهار السِّمَن وصَفاءِ اللون ، واعتدال القامة وحُسن الوجه ، ونظافة البدن ، وقوَّة الأَعضاءِ وتناسبها .

---

(١) يريد الصفرة .

الثانى : الرياءُ بالهيئة والزى : أما الهيئة فبتشعيث شعر الرأس وحَلْق الشارب ، وإطراق الرأس فى المشى ، والهدوء فى الحركة ، وإبقاء أثر السجود على الوجه ، وغلظ الثياب ، ولبس الصُّوف ، وتشميرها إلى قريب من الساق ، وتقصير الأَكمام ، وترك تنظيف الثوب وتركه مخرَّقاً ، كل ذلك يُرائى به ليُظهر من نفسه أَنَّه متَّبع للسنة فيه ، ومقتدٍ فيه بعباد الله الصالحين . ومن ذلك لُبس المرقَّعة والصلاة على السجَّادة ، ولبس الثياب الزُّرق[1] تشبُّهاً بالصوفية .

ومنه التقنع بالإزار فوق العمامة ، وإسبال الرداء على العينين ليُرِىَ به أنه قد انتهى تقشُّفه إلى الحذَر من غُبار الطريق ، ولتنصرف إليه الأَعينُ بسبب تميزُّه بتلك العلامة . ومنه الدُّرَّاعة والطَّيلَسان[2] ، ويلبسه من هو خالٍ عن العلم ليوهم أنه من أهل العلم .

وأَما أَهلُ الدنيا فمراءاتهم بالثياب النَّفيسة ، والمراكبِ الرفيعة ، وأنواع التوسُّع والتجمُّل فى الملبس والمسكن ، وأثاث البيت ، وفُرَّه الخيول[3] وبالثياب المصبَّغة والطيالسة النفيسة . وذلك ظاهرٌ بين الناس ، فإنَّهم يلبسون فى بيوتهم الثيابَ الخشنة ، ويشتدُّ عليهم لو برزوا للناس على تلك الهيئة ما لم يُبالِغوا فى الزينة .

الثالث : الرياءُ بالقول . ورياءُ أهل الدين بالوعظ والتذكير ، والنطق بالحكمة وحفظ الأَخبار والآثار ، لأَجل الاستعمال فى المحاورة ، وإظهاراً لغزارة العلم ، ودَلالة على شدَّة العناية بأَحوال السلف الصالحين ، وتحريك

---

(١) هذا تسجيل لما كان عليه لون ثياب الصوفية .

(٢) الدراعة ، كرمانة : ثوب من الصوف . والطيلسان ، ثوب يغطى الكتف .

(٣) الفره : جمع فاره ، وهو الكريم من الخيل .

الشفتين بالذكر فى محضر الناس ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بمشهد الخلق ، وإظهار الغضب للمنكرات.

وأمّا أهل الدنيا فمُرَاءاتهم بالقول بحفظ الأشعار والأمثال ، والتفاصح فى العبارات ، وحفظ النّحو الغريب ، للإغراب على أهل الفضل ، وإظهار التودُّد إلى الناس لاستمالة القلوب .

الرابع : الرياءُ بالعمل : كمراءاة المصلِّى بطول القيام ومدِّ الظهر ، وطول السُّجود والركوع ، وإطراق الرأس ، وترك الالتفات ، وإظهار الهدوءِ والسكون ، وتسوية القدمين واليدين ، وكذلك بالصَّوم والغزو والحج ، وبالصَّدَقة وبإطعام الطعام ، وبالإخبات فى المشْى عند اللقاءِ ، وكإرخاءِ الجفون وتنكيس الرَّأس ، والوقار فى الكلام .

وأما أهل الدنيا فمراءاتهم بالتبختر والاختيال ، وتحريك اليدين ، وتقريب الخُطَى ، والأَخذ بأَطراف الذَّيل ، وإدارة العِطفين ؛ ليدلُّوا بذلك على الجاه والحشمة .

الخامس : المراءاة بالأصحاب والزائرين والمخالطين : كالذى يتكلَّف أن يستزير عالماً من العلماءِ ليقال إنَّ فلاناً قد زار فلاناً ، أو عابداً من العبَّاد ليقال إنَّ أهل الدين يتبركون بزيارته ويترَدَّدون إليه ، أو ملكاً من الملوك أو عاملا من عمال السلطان ليقال إنَّهم يتبركون به لعظم رُتبته فى الدين .

ومنهم من يقصد التوصل بذلك إلى جمع حُطامٍ وكسْب مالٍ ، ولو من الأَوقافِ وأموال اليتامى وغير ذلك من الحرام . وهؤلاءِ شرُّ طبقات المرائين .

بيان الرياء الخفي
الذي هو أخفى من دبيب النمل

اعلم أنَّ الرياءَ جليٌّ وخفيٌّ ، فالجليُّ هو الذى يبعث على العمل ويَحمل عليه ولو قَصَد الثواب ، وهو أجلاه . وأخفى منه قليلا هو ما لا يحمل على العمل بمجرده ، إلا أنَّه يخفِّف العمل الذى يريد به وجهَ الله ، كالذى يعتاد التهجُّد كلَّ ليلة ويثقُل عليه ، فإذا نزل عنده ضيفٌ تنشَّط له وخفَّ عليه ، وعلم أنَّه لولا رجاءَ الثواب لكان لا يصلِّى لمجرد رياء الضِّيفان . وأخفى من ذلك مالا يؤثِّر فى العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضاً ، ولكنه مع ذلك مستبطن فى القلب .

وأجلى علاماته أن يُسَرَّ باطلاع الناس على طاعته . فربَّ عبدٍ يُخلِص فى عمله ولا يعتقد الرياءَ بل يكرهه ويردُّه ويتمِّم العمل كذلك ، ولكن إذا اطَّلع عليه الناس سرَّه ذلك وارتاح له ، وروَّح ذلك عن قلبه شدَّة العبادة ، وهذا السرور يدلُّ على رياءٍ خفيٍّ منه يرشَح السرور .

فقد كان الرياءُ مستكنًّا فى القلب استكنانَ النار فى الحجر ، فأظهر عنه اطِّلاع الخلق أثرَ الفرح والسرور .

ومهما لم يكن وجودُ العبادة كعدمها فى كلِّ ما يتعلَّق بالخلق لم يكن قد قَنِع بعلم الله ، ولم يكن خالياً عن شَوبٍ خفيٍّ من الرياءِ أخفى من دبيب النمل . وكل ذلك يوشك أن يُحبِطَ الأَجر . ولا يسلم منه إلا الصِّدِّيقون .

بيان مايحبط العمل من الرياء الخفي والجلي ومالايحبط

فنقول فيه : إذا عقد العبدُ العبادةَ على الإخلاص ، ثم ورد عليه واردُ الرياء فلا يخلو : إمَّا أن يَرِدَ عليه بعد فراغه من العمل أو قبل

الفراغ ، فإنْ ورد بعد الفراغ سرورٌ مجرَّدٌ بالظهور من غير إظهار فهذا لا يُفْسِد العمل ، إذ العمل قد تمَّ على نعت الإخلاص سالماً عن الرياء ، فما يطرأ بعدَه فيرجو أن ينعطف عليه أثره .

نعم لو تمَّ العمل على الإخلاص من غير عَقْدِ رياءٍ ، ولكن ظهرت له بعده رغبةٌ فى الإظهار فتحدَّثَ به وأظهره . فهذا مَخُوف .

وفى الآثار والأخبار ما يدلُّ على أنه يُحبِط ؛ فقد روى عن ابن مسعود أنَّه سمع رجلا يقول : قرأت البارحةَ البقرة . فقال : ذلك حظُّه منها .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّه قال لرجل قال له : صُمْتُ الدهرَ يا رسول الله . فقال له : « ما صمتَ ولا أفطرت » . فقال بعضُهم : إنَّما قال ذلك لأنه أظهره ؛ وقيل : هو إشارةٌ إلى كراهة صوم الدهر .

وكيفما كان فيحتمل أنْ يكون ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ابن مسعود استدلالاً على أن قلبه عند العبادة لم يخلُ عن عَقْدِ الرياءِ وقصدِه له ، لمَّا أنْ ظهر منه التحدُّث به .

وأما إذا وردَ وارد الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلاً وكان قد عقد على الإخلاص ولكنْ ورد فى أثنائها وارد الرياء ، فلا يخلو إما أن يكون مجردَ سرور لا يؤثِّر فى العمل ، وإمَّا أن يكون رياءً باعثاً على العمل . فإن كان باعثاً على العمل وختم العبادة به حَبِط أجره . ومثاله : أن يكون فى تطوُّعٍ فتجدَّدت له نِظارة ، أو حضر ملكٌ من الملوك وهو يشتهى أن ينظر إليه ، أو يذكر شيئاً نسيَه من ماله وهو يريد أن يطلبه ، ولولا الناسُ لقطع الصلاة فاستتمَّها خوفاً من مذمة الناس ، فقد حبِط أجره وعليه الإعادة إن كان فى فريضة .

وأما إذا كان وارد الرياء بحيث لا يمنعه من قصد الإتمام لأجل الثواب كما لو حضر جماعةٌ فى أثناء الصلاة ففرح بحضورهم وعَقد الرياء وقصَد تحسين الصَّلاة لأجل نظرهم ، وكان لولا حضورهم لكان يتمُّها أيضاً ، فهذا رياءٌ قد أثَّر فى العمل ، وانتهض باعثاً على الحركات ، فإن غلب حتَّى انمحق معه الإحساسُ بقصد العبادة والثواب وصار قصدُ العبادة مغموراً ، فهذا أيضاً ينبغى أن يُفسِد العبادة .

القسم الثالث : الذى يقارن حالَ العقد ، بأن يبتدئ الصلاة على قصد الرياء ، فإن استمرَّ عليه وسَلَّمَ فلا خلافَ فى أنَّه يقضى ولا يعتدُّ بصلاته ، وإنْ ندِم عليه فى أثناء ذلك واستغفر ورَجَع قبل التمام ففيما يلزمه ثلاثةُ أوجه .

قالت فرقة : لم تنعقد صلاته مع قصد الرياء ، فليستأنفْ .

وقالت فرقة : تلزمه إعادة الأفعال كالركوع والسجود ، وتفسد أفعاله دون تحريمه الصلاة ؛ لأن التحريم عقد ، والرياءُ خاطرٌ فى قلبه لا يخرج التحريمَ عن كونه عقداً .

وقالت فرقة : لا يلزم إعادة شيء ، بل يستغفر الله بقلبه ويتم العبادة على الإخلاص .

بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه

قد عرَفْتَ مما سبق أنَّ الرياء مُحبِطٌ للأعمال ، وسببٌ للمقت عند الله تعالى ، وأنه من كبائر المهلكات ، وما هذا وصفُه فجديرٌ بالتشمير عن ساق الجِدِّ فى إزالته ، ولو بالمجاهدة وتحمُّل المشاق .

وفى علاجه مَقامان :

المقام الأول : فى قلع عروقه واستئصال أصوله : وأصله حبُّ المنزلة

والجاه ، وإذا فُصِّل رجع إلى ثلاثة أُصول : وهى لذّة المحمدة ، والفِرار من ألم الذم ، والطّمع فيما فى أيدى الناس .

وليس يخفَى أنّ الإنسان إنما يقْصِد الشئ ويرغبُ فيه لظنّه أنه خيرٌ له ونافع ولذيذ ، إمّا فى الحال وإما فى المآل . فإنْ علم أنه لذيذ فى الحال ولكنه ضارٌ فى المآل سَهُل عليه قطع الرغبة عنه ، ، كمن يعلم أنّ العسلَ لذيذ ولكنْ إذا بان له أن فيه سمًّا أعرضَ عنه ؛ فكذلك طريقُ قطعِ هذه الرغبة أن يعلم ما فيه من المضرّة .

وأما الطمع فيما فى أيديهم فبأَنْ يعلم أنّ الله تعالى هو المسخِّرُ للقلوب بالمنع والإعطاء ، وأن الخَلْقَ مضطرُّون فيه ولا رازقَ إلا الله ، ومَن طمع فى الخلق لَمْ يخلُ من الذل والخيبة ، وإنْ وصلَ إلى المراد لم يخلُ عن المِنّة والمَهانة ، فكيف يترك ما عندَ الله برجاءٍ كاذبٍ ، ووهمٍ فاسد قد يصيب وقد يُخطئْ . وإذا أصاب فلا تفى لذّته بألم مِنّتِهِ ومذلته ؟ وأما ذمّهم فلم يحذر منه ، ولا يزيدُه ذمّهم شيئاً ما لم يكتبْه عليه الله ، ولا يعجِّل أجلَه ولا يؤخِّر رزقَه ، ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة ، ولا يبغضه إلى الله إن كان محموداً عند الله .

المقام الثانى : فى دفع العارض منه فى أثناء العبادة ، وذلك لابدّ من تعلّمهِ أيضاً ، فإنّ مَنْ جاهد نفسَه وقلع مغارسَ الرياءِ من قلبه بالقناعةِ وقطْع الطّمَع ، وإسقاط نفسه من أعين المخلوقين ، واستحقار مدح المخلوقين وذمّهم ، فالشيطانُ لا يتركه فى أثناء العبادات ، بل يُعارضه بخطَرات الرياء ، ولا تنقطع عنه نزَغاته . وهَوى النفس وميلها لا ينمحى بالكلية ، فلابدّ وأن يتشمر لدفعِ ما يَعرِضُ من خاطر الرياء .

بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات

اعلم أنَّ فى الإسرار للأعمال فائدةَ الإخلاص والنَّجاة من الرياء ، وفى الإظهار فائدةَ الاقتداء وترغيب الناس فى الخير ، ولكن فيه آفة الرياء .

قال الحسن : قد علم المسلمون أنَّ السرَّ أحرزُ العملين ، ولكن فى الإظهار أيضاً فائدة ؛ ولذلك أثنى الله تعالى على السر والعلانية فقال : (إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) .

والإظهار قسمان : أحدُهما فى نفس العمل ، والآخر بالتحدُّث بما عمل.

القسم الأول : إظهار نَفْس العمل ، كالصَّدَقة فى الملإ لترغيب الناس فيها ، كما روى عن الأنصارى الذى جاء بالصُّرَّة فتتابعَ الناس بالعطيَّة لمَّا رأوه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « من سَنَّ سنة حسنة فعمِل بها كان له أجرُها وأجر من اتبعه » . وتجرى سائر الأعمال هذا المجرى من الصلاة والصيام ، والحجِّ والغزو وغيرها ، ولكن الاقتداء فى الصَّدقة على الطباع أغلب . نَعَمْ الغازى إذا هَمَّ بالخروج فاستعدَّ وشَدَّ الرحْل قبلَ القوم تحريضاً لهم على الحركة فذلك أفضلُ له ؛ لأنَّ الغزْوَ فى أصله من أعمال العلانيَة لا يُمكن إسراره .

وكذلك الرجُل قد يرفع صوتَه فى الصَّلاة بالليل لينبِّه جيرانه وأهلَه فيقتدى به . فكلُّ عملٍ لا يمكن إسراره كالحجِّ والجهاد والجمعة فالأفضل المبادرة إليه وإظهارُ الرغبة فيه للتحريض ، بشرط أن لا يكون فيه شوائبُ الرياء . وأمَّا ما يمكن إسرارُه كالصَّدقة والصَّلاة ، فإنْ كان إظهار الصَّدقة يُؤْذى المتصدَّق عليه ويرغِّب الناس فى الصَّدقة فالسِّرُّ أفضل ، لأنَّ الإيذاء حرام . فإن لم يكن فيه إيذاء فقد اختلف الناس فى الأفضل ، فقال قوم : السرُّ أفضل من العلانية وإن كان فى العلَانيَة

قُدوة . وقال قوم : السرُّ أفضل من علانيةٍ لا قدوة فيها ، أما العلانية للقدوة فأفضل من السرّ .

القسم الثانى : أن يتحدَّث بما فَعَله ، بعد الفراغ . وحكمه حكم إظهار العمل نفسه ، والخطر فى هذا أشدُّ ، لأن مؤونة النطق خفيفةٌ على اللسان ، وقد تجرى فى الحكاية زيادةٌ ومبالغة ، وللنفس لذَّةٌ فى إظهار الدَّعاوى عظيمة ، إلاَّ أنَّه لو تطرَّق إليه الرِّياءُ لم يؤثِّر فى إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها ، فهو من هذا الوجه أهون .

بيان الرخصة في كتمان الذنوب
وكراهة إطلاع الناس عليها وكراهة ذمهم له

اعلم أنَّ الأصلَ فى الإخلاص استواءُ السَّريرة والعلانية .

ولا يخلو الإنسان عن ذُنوبٍ بقلبه أو بجوارحه وهو يُخفيها ، ويكرهُ اطِّلاع النَّاس عليها ، لا سيَّما ما تَخْتَلِجُ به الخواطرُ فى الشَّهَوات والأمانى ، والله مطَّلعٌ على جميع ذلك ، فإرادة العبد لإخفائها عن العبيد ربَّما يظن أنه رياءٌ محظور ؛ وليس كذلك ، بل المحظور أنه يستر ذلك ليرى الناسَ أنَّه ورِعٌ خائف من الله تعالى ، مع أنَّه ليس كذلك . فهذا هو ستر المرائى .

وأما الصادق الذى لا يرائى فله سَتر المعاصى ويصحُّ قصدُه فيه ، ويصحُّ اغتمامُه باطِّلاع الناس عليه فى ثمانية أوجه :

الأول : أن يَفرح بسَتْرِ الله عليه ، وإذا افتضح اغتمَّ بهتْك الله سِترَه وخافَ أن يُهتك ستره فى القيامة ، إذْ ورد فى الخبر : « أنَّ من ستَرَ الله عليه فى الدنيا ذنباً سَتره الله عليه فى الآخرة » . وهذا غمٌّ ينشأُ من قوة الإيمان .

الثانى : أنه قد علم أن الله تعالى يكره ظهورَ المعاصى ويحبُّ سترها ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « من ارتكبَ شيئاً من هذه القاذورات فليستترْ بستْرِ الله » .

الثالث : أن يكره ذمَّ الناس له به ، حيثُ إنَّ ذلك يغمُّه ويشغَل قلبه وعقلَه عن طاعة الله تعالى ؛ فإنَّ الطَّبع يتأذَّى بالذَّم ، وينازع العقل ، ويَشغَل عن الطاعة .

الرابع : أن يكون ستره ورغبته فيه لكراهته لذمِّ الناس من حيث يتأذَّى طبعه ، فإن الذمَّ مؤلمٌ للقلب ، كما أنَّ الضربَ مؤلمٌ للبدن ، وخوفُ تألُّم القلب بالذمِّ ليس بحرام ، ولا الإنسانُ به عاصٍ ، وإنما يَعصِى إذا جزعت نفسُه من ذمِّ الناس ودعَتْه إلى ما لا يجوز ، حذراً من ذمِّهم .

الخامس : أن يكره الذمَّ من حيث إنَّ الذامَّ قد عصَى الله تعالى به . وهذا من الإيمان .

السادس : أن يستر ذلك كى لا يُقصَد بشَرٍّ إذا عُرِف ذنبه .

السابع : مجرَّد الحياء ، فإنَّه نوعُ أَلمٍ وراءَ أَلم الذمِّ والقصد بالشر ، وهو خُلقٌ كريم يحدُث فى أوَّل الصِّبا مهما أشرق عليه نُور العقل ، فيستحْيِى من القبائح إذا شُوهدت منه ، وهو وصفٌ محمودٌ ، إذْ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحياءُ خيرٌ كلُّه » .

الثامن : أن يخاف من ظهور ذنبه أن يستجرئ عليه غيره ويقتدىَ به ، وهذه العلة الواحدةُ فقط هى الجارية فى إظهار الطَّاعة ، وهو القُدوة ، ويختصّ ذلك بالأئمة أو بمن يُقتدَى به ، وبهذه العلَّة ينبغى أيضاً أن يخفىَ العاصى أيضاً معصيتَه من أهله وولده ، لأنَّهم يتعلَّمون منه .

بيان ترك الطاعات

خوفاً من الرياء ودخول الآفات

اعلم أنَّ من الناس من يترك العمل خوفاً من أن يكون مرائياً به ؛ وذلك غَلطٌ وموافقة للشيطان ، بل الحقُّ فيما يُترك من الأعمال وما لايترك لخوف الآفات ما نذكره ، وهو أن الطاعات تنقسم إلى : ما لا لذَّةَ فى عينه ، كالصلاة والصوم والحجّ والغزو ؛ فإنَّها مقاساة ومجاهدات ، وإنَّما تصير لذيذةً من حيثُ إنَّها توصِّل إلى حمدِ الناس ، وحمدُ الناس لذيذ ، وذلك عند اطلاع الناس عليه . وإلى : ما هو لذيذ ؛ وهو أكثر مالا يقتصر على البدن ، بل يتعلَّق بالخَلْقِ ، كالخِلافةِ والقضاء ، والولايات والحِسبة وإمامةِ الصلاة ، والتذكير والتدريس ، وإنفاق المال على الخَلْق ، وغير ذلك مما تعظُم الآفة فيه ، لتعلُّقه بالخلْق ، ولما فيه من اللذة .

القسم الأَول : الطاعات اللازمة للبدن ــ كالصَّوم ِ والصلاة والحج ، فخطرات الرياء فيها ثلاث :

إحداها : ما يدخل قبل العمل فيبعث على الابتداء لرؤْية الناس وليس معه باعثُ الدين ، فهذا مما ينبغى أن يُترك لأَنه معصيةٌ لا طاعةَ فيه ، فإنه تدرُّع[1] بصورة الطاعة إلى طلب المنزلة .

الثانية : أن ينبعث لأَجل الله ، ولكن يعترض الرياءُ مع عَقْدِ العبادة وأولها ، فلا ينبغى أن يَترك العملَ لأَنَّه وجد باعثاً دينياً ، فليشرعْ فى العمل ، وليجاهدْ نفسَه فى دفع الرياء .

الثالثة : أن يَعقِد على الإخلاص ثم يطرأُ الرِّياءُ ودواعيه ، فينبغى أن يجاهد فى الدفع ولا يترك العمل ، لكى يرجع إلى عَقْد الإخلاص ، ويردَّ نفسه إليه قهراً حتَّى يتم العمل .

(١) التدرع : التوسل .

القسم الثانى: ما يتعلق بالخَلْق وتعظُم فيه الآفات والأخطار، وأعظمها الخلافةُ ، ثم القضاءُ، ثم التذكير والتدريس والفتوى، ثم إنفاق المال.

أما الخلافة والإمارة : فهى من أفضل العبادات إذا كان ذلك مع العدل والإخلاص . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لَيَوْمٌ من إمامٍ عادلٍ خيرٌ من عبادة الرجل وَحدَه ستين عاماً » .

فالإمارة والخلافة من أعظم العبادات، ولم يزل المتَّقون يتركونها ويحترزون منها ويهرُبون من تقلُّدها، وذلك لما فيه من عظيم الخطر، إذ تتحرَّك بها الصفات الباطنة، ويغلب النفسَ حبُّ الجاه ولذَّةُ الاستيلاء ونفاذِ الأمر، وهو أعظم ملاذِّ الدنيا. فإذا صارت الولاية محبوبة كان الوالى ساعياً فى حظِّ نفسه، ويوشكُ أن يتَّبعَ هواه فيمتنع من كلِّ ما يَقدح فى جاهه وولايته وإن كان حقًّا .

وأما القضاءُ: فهو وإنْ كان دون الخلافة والإمارة فهو فى معناهما، فإنَّ كلَّ ذى ولاية أمير – أى له أمرٌ نافذ – والإمارة محبوبة بالطبع، والثواب فى القضاء عظيمٌ مع اتِّباع الحق، والعقاب فيه أيضاً عظيمٌ مع العُدول عن الحقِّ. وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم: « القضاة ثلاثة : قاضيان فى النار وقاضٍ فى الجنة » .

وأما الوعظ والفتوى والتدريس ورواية الحديث ، وجَمع الأسانيد العالية وكلُّ ما يتَّسع بسببه الجاهُ ويعظم به القدر : فآفته أيضاً عظيمةٌ مثل آفة الوِلايات . وقد كان الخائفون من السَّلَف يتدافعون الفَتْوَى ما وجدوا إليه سبيلا ، وكانوا يقولون : حدَّثنا ، باب من أبواب الدنيا ، ومن قال : حدَّثنا فقد قال : أَوْسِعُوا لى .

فهذا أيضاً مما يعظُم فيه الخوف والفتنة ، فحكمه حكم الولايات . فمن لا باعثَ له إلاَّ طلبُ الجاه والمنزلة ، والأكل بالدين ، والتفاخر والتكاثر ، فينبغى أن يتركه ويخالفَ الهوى فيه ، إلى أن ترتاض نفسُه ، وتقوى فى الدِّين هِمَّتُه ، ويأمن على نفسه الفتنة ، فعند ذلك يعود إليه .

الكتاب التاسع

كتاب ذم الكبر والعجب

بيان ذم الكِبْر

قد ذم الله الكِبْر فى مواضعَ من كتابه ، وذمَّ كلَّ جبارٍ متكبِّر فقال تعالى : (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) ، وقال عزَّ وجلَّ : (كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّار) ، وقال تعالى : (وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) ، وقال تعالى : ((إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ)، وقال تعالى : (لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فى أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كبيرًا) ، وقال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ) .

وذمُّ الكِبْرِ فى القرآن كثير ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنةَ من كان فى قلبه مثقالُ حَبَّةٍ من خَردلٍ من كِبْر ، ولا يدخل النار من كان فى قلبه مثقالُ حبَّةٍ من خردلٍ من إيمان » .

وقال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى : الكبرياءُ ردائى ، والعظَمة إزارى ، فمن نازعنى واحداً منهما ألقيتُه فى جهنم ولا أبالى » .

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : لا يَحقِرنَّ أحدٌ أحداً من المسلمين ، فإنَّ صغير المسلمين عند الله كبير .

وقال وهب : لمَّا خلق الله جنةَ عَدْنٍ نظرَ إليها فقال : أنتِ حرامٌ على كلِّ متكبر .

وقد قال محمد بن الحسين بن عليّ : ما دخَل قلبَ امرئٍ شيءٌ من التكبُّر قطُّ إلا نقَص من عقله بقدر ما دَخَل من ذلك ، قلَّ أو كثر .

وقال النُّعمان بن بَشير – على المنبر – إنَّ للشيطان مَصَالِيَ[1] وفُخُوخاً ، وإنَّ من مصالى الشيطان وفُخوخه البطرَ بأنعُمِ الله ، والفخرَ بإعطاءِ الله ، والكبرَ على عباد الله ، واتِّباعَ الهوى في غير ذات الله .

بيان فضيلة التواضع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما زاد اللهُ عبداً بعفوٍ إلاَّ عزًّا ، وما تواضع أحدٌ لله إلاَّ رفعه الله » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « طوبى لمن تواضَعَ في غير مَسكنة ، وأنفق مالاً جمَعَه في غير معصية ، ورحِم أهلَ الذُّلِّ والمسكَنة ، وخالط أهل الفقه والحكمة » .

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في نفرٍ من أصحابه في بيته يأكلون ، فقام سائلٌ على الباب وبه زَمانةٌ[2] يُتكرَّه منها ، فأذنَ له ، فلما دخل أجلسَه رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذه ثم قال له : « اطعَمْ » . فكأنَّ رجلاً من قريش اشمأزَّ منه وتكرَّه ، فما مات ذلك الرجلُ حتى كانت به زَمانة مثلها .

وقال المسيح عليه السلام : طُوبَى للمتواضعين في الدنيا ؛ هم أصحاب المنابر يوم القيامة .

---

(١) المصالى : جمع مصلاة بالكسر ، وهو شرك ينصب للصيد .

(٢) الزمانة ، كسحابة : العاهة من العاهات .

وقال عمر رضى الله عنه : إنَّ العبد إذا تواضَعَ لله رفع الله حَكَمَتَه[1] وقال : انتعش رفَعَكَ الله ، وإذا تكبر وعَدَا طَوْرَه[2] وَهَصه الله فى الأرض[3] وقال : اخسَأْ خسَأَك الله[4] ، فهو فى نفسه كبيرٌ وفى أعين الناس حقير ، حتّى إنَّه لأَحقَرُ عندهم من الخنزير .

وقالت عائشة رضى الله عنها : إنَّكم لتغفلون عن أفضل العبادات : التواضع .

وقال الفُضَيْل وقد سئل عن التواضع ما هو ؟ فقال : أن تخضَعَ للحقّ وتنقاد له ، ولو سمعتَه من صبيٍّ قَبِلتَه ، ولو سمعتَه من أجهل الناس قبلته .

ودخل ابن السَّمَّاك على هارون فقال : يا أمير المؤمنين إن تواضعك فى شرفك أشرفُ لك من شرفك . فقال : ما أحسنَ ما قلت ! فقال : يا أمير المؤمنين إنَّ امرأً آتاه الله جَمالا فى خِلقته ، وموضعاً فى حسبه ، وبسَط له فى ذاتِ يده ، فعفَّ فى جماله ، وواسى من ماله ، وتواضع فى حسبه ، كُتِب فى ديوان الله من خالص أولياء الله . فدعا هارونُ بدواةٍ وقرطاس وكتبه بيده .

وقال بعضهم : كما تكره أن يراك الأغنياء فى الثياب الدُّون ، فكذلك فاكرهْ أن يراكَ الفقراءُ فى الثياب المرتفعة .

وقال يحيى بن خالد البرمكى : الشريف إذا تنسَّكَ تواضع ، والسفيه إذا تنسَّك تعاظم .

---

(١) الحكمة ، بالتحريك : القدر والمنزلة .

(٢) عدا طوره : تجاوز حده .

(٣) الوهص : الرمى العنيف ، والجذب .

(٤) خسأ : بعد . وخسأه الله : طرده وأبعده من رحمته .

بيان حقيقة الكبر وآفته

اعلم أنَّ الكِبْر ينقسم إلى باطن وظاهر : فالباطن هو خُلقٌ فى النفس ، والظاهر هو أعمالٌ تصدر عن الجوارح . واسم الكبر بالخُلُق الباطن أحقُّ ، وأمَّا الأعمال فإنَّها ثمراتٌ لذلك الخلق :

وخُلق الكبر موجبٌ للأعمال ، ولذلك إذا ظهر على الجوارح يقال تكبَّر ، وإذا لم يظهرْ يقال : فى نفسه كبر .

ولا يتصوَّر أن يكون متكبِّراً إلا أنْ يكون مع غيره وهو يَرَى نفسَه فوق ذلك الغير فى صفات الكمال ، فعند ذلك يكون متكبِّراً ، ولا يكفى أن يستعظم نفسه ليكون متكبراً ، فإنه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره أعظمَ من نفسه أو مثلَ نفسه فلا يتكبَّر عليه .

ثم هذه العزَّةُ تقتضى أعمالاً فى الظاهر والباطن هى ثمرات ، ويسمَّى ذلك تكَبُّراً .

فهو إنْ حاجَّ أو ناظرَ أَنِفَ أن يُردَّ عليه ، وإن وُعِظَ استنكف من القبول ، وإن وَعَظ عَنُف فى النصح ، وإن رُدَّ عليه شئٌ من قوله غضِب ، وإن علَّم لم يرفق بالمتعلّمين ،واستذلّهم وانتهرهم ،وامتنَّ عليهم واستخدمهم ، وينظر إلى العامَّة كأنه ينظر إلى الحمير ، استجهالاً لهم واستحقاراً . والأعمال الصادرة عن خلق الكِبْر كثيرة ، وهى أكثر من تحصَى ؛ فلا حاجة إلى تَعْدادِها فإنَّها مشهورة .

فهذا هو الكبر ، وآفته عظيمة ، وغائلته هائلة ، وفيه يهلِك الخواصُّ من الخلق ، وقلَّما ينفك عنه العبَّاد والزُهَّاد والعلماء ، فضلاً عن عوامِّ الخلق . وكيف لا تعظم آفته وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجَّنة من كان فى قلبه مثقالُ ذرّة من كِبر» .

بيان ما به التكبر

اعْلم أنّه لا يتكبَّرُ إلاَّ متى استعظمَ نفسَه ، ولا يستعظمها إلاَّ وهو يعتقدُ لها صفةً من صفاتِ الكمالِ . وجِماع ذلك يرجِعُ إلى كمالٍ دينيٍّ أو دنيويٍّ ؛ فالدينيُّ هو العلمُ والعملُ ، والدنيويُّ هو النسبُ ، والجمال ، والقُوّة ، والمال ، وكثرة الأنصار . فهذه سبعة أسباب :

الأوَّل : العلم ؛ وما أسرعَ الكِبْرَ إلى العلماء ! ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « آفة العلم الخُيَلاء » .

الثانى : العمل والعبادة ؛ وليس يخلو عن رذيلة العزِّ والكبر واستمالة قلوبِ الناس الزُّهّادُ والعُبّادُ ، ويترشح الكِبْرِ مِنْهم فى الدِّينِ والدنيا .

أمَّا فى الدنيا فهـــو أنّهم يرون غيرهم بزيارتِهم أوْلَى منهم بزيارة غيرهم ، ويتوقّعون قِيامَ الناس بقضاء حوائِجهم وتوقيرهم والتوسُّعِ لهم فى المجالس ، وذكرهم بالورعِ والتقْوى ، وتقديمهم على ســائِر الناس فى الحظوظ . وكأنّهم يرَوْن عبادتَهم مِنّةً على الخلق .

وأما فى الدين فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسَهُ ناجياً . وهو الهالك تحقيقاً - مهما رأى ذلك - قال صلى الله عليه وسلم : « إذا سَمِعتم الرَّجلَ يقول : هَلكَ النَّاسُ ، فهو أهلكُهم » .

الثالث : التكبُّر بالحَسب والنَّسب ، فالذى له نسبٌ شريفٌ يستحقرُ من ليس له ذلك النسب وإنْ كان أرفَع منه عملاً وعلماً ، وقد يتكبَّر بعضهم فيرى أنَّ الناس له أموالٌ وعبيـــد ، ويأنف من مخالطتهم ومجالستهم . وثمرته على اللسان التفاخر به ، فيقول لغيره : يا نبطيٌّ يا هنديٌّ ويا أرمنيٌّ ، من أنت ومن أبوك ؟ فأنا فلانٌ بنُ فلانٍ ، وأين لمثلك أن يكلِّمَنى أو ينظرَ إلىَّ ؟ ومع مثلى تتكلَّمُ ؟ وما يجرى مجراه .

الرابع : التفاخر بالجمال ، وذلك أكثرُ ما يجرى بين النساء ، ويدعو ذلك إلى التنقُّص والثَّلْب[1] والغِيبة ، وذكر عيوب الناس . ومن ذلك ما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : دخلت امرأةٌ على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقلت بيدى هكذا ، أى إنَّها قصيرة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « قد اغتبتِها » .

الخامس : الكِبْرُ بالمال ؛ وذلك يجرى بين الملوك فى خزائنهم ، وبين التجار فى بضائِعهم ، وبين الدَّهَاقين فى أراضيهم ، وبين المتجمِّلين فى لباسهم وخيولهم ومراكبهم ، فيستحقر الغنىُّ الفقيرَ ويتكبَّرَ عليه ، ويقول له : أنت مُكَدٍّ[2] ومسكين . وأنا لو أردت لاشتريتُ مِثْلَك واستخدمت مَن هو فوقَك . ومنْ أنت ؟ وما معك وأثاثُ بيتى يساوى أكثر من جميع مالِك ؟ وأنا أُنفِقُ فى اليوم مالا تأْكله فى سنة ؟ وكلُّ ذلك لاستعظامه للغِنَى واستحقارِه للفقر .

السادس : الكِبْرُ بالقوَّة وشدة البطش ، والتكبُّرُ به على أهل الضعف.

السابع : التكبُّر بالأَتباعِ والأَنصارِ ، والتلامذةِ والغلمانِ ، وبالعشيرةِ والأَقاربِ والبنين ، ويجرى ذلك بين الملوك فى المكاثرة بالجنود ، وبيْن العلماء فى المكاثرة بالمستفيدين .

بيان البواعث على التكبُّرِ والأَسْبابِ المهيِّجة له

اعلم أن الكِبْرَ خُلقٌ باطنٌ ، وأمَّا ما يظهرُ من الأَخلاق والأَفعال فهى ثمرةٌ ونتيجة ، وينبغى أن تسمَّى تكبُّراً . ويُخَصُّ اسمُ الكِبْر بالمعنى الباطن

---

(١) الثلب : أن يعيب غيره .
(٢) سبق الكلام على التكدية فى ص ٩ .

الذى هو استِعْظامٌ النفس ورؤْيةُ قَدْرِها فوق قَدْرِ الغير . وهذا الباطن له موجبٌ واحدٌ وهو العُجْبُ الذى يتعلقُ بالمتكبِّرِ ؛ فإنَّه إذا أُعجِبَ بنفسِه وبِعلْمِهِ وبعمله ، أو بشىءٍ من أسبابه ، استعظم نفسَه وتكبَّر .

وأمَّا الكِبْرُ الظاهرُ فأسبابُه ثلاثةٌ : سببٌ فى المتكبِّر ، وسبب فى المتكبَّر عليه ، وسبب فيما يتعلَّقُ بغيرِهما .

أمَّا السببُ الذى فى المتكَبِّرِ فهو العُجْبُ ، والذى يتعلق بالمتكبَّر عليه هو الحقدُ والحسدُ ، والذى يتعلَّق بغيرهما هو الرياءُ . فتصيرُ الأسبابُ بهذا الاعتبار أربعة : العُجْبُ ، والحقدُ ، والحسَدُ ، والرياءُ .

أمَّا العُجْبُ فقد ذكرنا أنَّه يُورِثُ الكِبْرَ الباطنَ ، والكِبْر الباطن يُثمرُ التكبُّرَ الظاهرَ فى الأعمالِ والأقوالِ والأحوال .

وأمَّا الحقدُ فإنه يحْمِلُ على التكبُّرِ من غير عُجبٍ ، كالذى يتكبر على من يرى أنه مثلُه أوْ فوقَه ، ولكن قد غضب عليه بسببٍ سبَقَ منه ، فأورثه الغضبُ حقداً ، ورسَخ فى قلبه بغضُه ، فهو لذلك لا تطاوعُه نفسُه أنْ يتواضعَ له وإن كان عنده مستحقًّا للتواضع .

وأما الحسد فإنَّه أيضاً يوجب البُغْضَ للمحسود وإنْ لم يكُن من جهته إيذاءٌ وسببٌ يقتضى الغضب والحقد . ويدعو الحسد أيضاً إلى جَحد الحق حتَّى يمنع من قَبول النصيحة وتعلُّم العلم . فكم من جاهلٍ يشتاق إلى العِلمِ وقد بقِى فى رذيلة الجهل ، لاستنكافه أن يستفيد من واحدٍ من أهل بلده أو أقاربه حسداً وبغياً عليه ؟ فهو يُعرِضُ عنه ويتكبَّر عليه ، مع معرفته بأنه يستحقٌّ التواضع بفَضْل علمه ولكنَّ الحسد يبعثه أن يعاملَه بأخلاق المتكبِّرين .

وأمَّا الرياءُ فهو أيضاً يدعو إلى أخلاق المتكبِّرين ، حتَّى إنَّ الرجل

لَيُناظِرُ مَن يعلمُ أنّه أفضلُ منه ، وليس بينه وبينه معرفة ولا محاسدة ولا حقد ، ولكن يمتنع من قبول الحقِّ منه ولا يتواضع فى الاستفادة ، خِيفةً من أن يقول الناس إنَّه أفضل منه ، فيكون باعثه على التكبُّر عليه الرياءَ المجرد . ولو خلا معه بنفسه لكان لا يتكبَّر عليه . وأما الذى يتكبَّر بالعُجْبِ أو الحسد أو الحقد فإنه يتكبَّر أيضاً عند الخلوة به مهما لم يكنْ معهما ثالث .

بيان أخلاق المتواضعين
ومَجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبُّر

فمنها : التكبُّر بأن يحبَّ قيامَ الناس له أو بين يديه . وقد قال علىٌّ كرم الله وجهه : مَن أراد أن ينظر إلى رجلٍ من أهل النار فلينظر إلى رجل قاعد وبين يديه قومٌ قيام .

ومنها : أن لا يمشىَ إلاَّ ومعه غيرُه يمشى خلفَه . قال أبو الدرداء : لا يزال العبدُ يزداد من الله بعداً ما مُشِىَ خلفَه . وكان عبد الرحمن بن عوف لا يُعرف من عبيده ، إذ كان لا يتميَّز عنهم فى صورة ظاهرة .

ومنها : أن لا يزورَ غيرَه وإن كان يحصل من زيارته خيرٌ لغيره فى الدين ، وهو ضدُّ التواضع .

ومنها : أن يستَنْكِفَ من جلوسِ غيرِه بالقُرب منه إلاَّ أنْ يجلسَ بين يديه . والتواضعُ خلافه .

قال ابن وهب : جلستُ إلى عبد العزيز بنِ أبى رَوَّاد فمسَّ فخذى فخذَه فنحَّيتُ نفسى عنه ، فأخذ ثيابى فجرَّنى إلى نفسِه وقال لى : لِمَ تفعلون بى ما تفعلون بالجبابرة ، وإنى لا أعرفُ رجلاً منكم شرًّا منِّى ؟

ومنها : أن يتَوقَّى من مُجالسةِ المرضى والمعلولين ويتحاشى عنهم ، وهو الكِبْر .

وكان عبدُ الله رضى الله عنهما لا يحبِسُ عن طعامه مجذوماً ولا أبرص ولا مبتلًى إلاَّ أقعدهم على مائدته .

ومنها : أنْ لا يتعاطى بيده شُغلاً فى بيته . والتواضع خلافه . روى أن عمر بن عبد العزيز أتاهُ ليلةً ضيفٌ وكان يكتبُ ، فكاد السراج يَطْفأُ ، فقال الضيف : أقومُ إلى المصباح فأُصلحُه ؟ فقال : ليس من كرم الرجل أنْ يستخدم ضيفَه . قال : أفأُنبِّهُ الغلامَ ؟ فقال : هى أوَّلُ نومة نامها . فقام وأخذ البَطَّة[1] وملأَ المصباح زيتاً ، فقال الضيف : قمتَ أنتَ بنفسك يا أمير المؤمنين ؟ ! فقال : ذهبت وأنا عمرُ ورجعت وأنا عمرُ ، ما نقص منِّى شىءٌ .

ومنها : أن لا يأْخذ متاعَه ويحملَه إلى بيته ، وهو خلاف عادة المتواضعين . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك . وقال علىٌّ كرم الله وجهه : لا ينقُصُ الرجلَ الكاملَ من كماله ما حَمَل من شىء إلى عيالِه .

ومنها : اللباسُ ، إذْ يظهر به التكبُّر والتواضعُ . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « البذاذة من الإيمان » . فقال هارون : سألتُ مَعْناً عن البذاذة فقال : هو الدُّونُ من اللباس .

بيان الطريق في معالجةِ الكِبْر واكتسابِ التواضع له

اعلمْ أنَّ الكِبْر من المهلكات ، ولا يخلو أحدٌ من الخَلْقِ عن شىء

(١) البطة : إناء كالقارورة .

منه ، وإزالته فرضُ عين ، ولا يزولُ بمجرد التمنّي ، بل بالمعالجة واستعمالِ الأَدويةِ القامعة له .

وفى معالجته مقامان : أَحدُهما استئْصالُ أَصلِه من سِنْخه[1] ، وقلع شجرته من مَغرِسها فى القلب .

الثانى : دفع العارض منه بالأَسباب الخاصَّة التى بها يتكبَّر الإِنسانُ على غيره .

المقام الأَولُ فى استئْصال أَصله : وعلاجه علميٌّ وعمليٌّ ، ولا يتم الشفاءُ إلاَّ بمجموعِهما .

أَما العلميُّ : فهو أَن يعرف نفسَه ويعرفَ ربَّه تعالى . ويكفيه ذلك فى إزالة الكِبْر ؛ فإِنَّه مهما عرف نفسَه حقَّ المعرفة علم أَنَّه أَذلُّ من كلِّ ذليل ، وأَقلُّ من كلِّ قليلٍ ، وأَنَّه لا يليقُ به إلاَّ التواضعُ والذِّلَّة والمهانة ، وإذا عرفَ ربه علم أَنَّه لا تليقُ العظمةُ والكبرياءُ إلاَّ بالله .

وأَما العلاجُ العمليُّ فهو التواضعُ لله بالفعل ، ولسائِر الخلْقِ بالمواظبة على أَخلاق المتواضعين ، كما وصفناه وحكيناه من أَحوال الصالحين ، ومن أَحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتَّى إنَّه كان يأْكلُ على الأَرض ويقول : « إنَّما أنا عبد ، آكلُ كما يأْكلُ العبدُ » .

وقد كانت العرب قديماً يأْنفون من الانحناء ، فكان يسقط من يد الواحد سوطُه فلا ينحنى لأَخْذه ، وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأْسه لإِصلاحه ، حتى قال حكيم بن حزام : بايعتُ النبى صلى الله عليه وسلم على أَن لا أَخِرَّ إلا قائماً[2] . فبايعَه النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم فقه وكمل إيمانه بعد ذلك ، فلمَّا كان السجودُ عندَهم هو منتهى الذلةِ أُمِروا به

(١) السنخ : الأصل من كل شىء .

(٢) أى لا أسقط إلى السجود إلا من قيامى بعد الركوع .

لتنكسرَ بذلك خُيلاؤُهم ، ويزولَ كِبْرُهم ، ويستقرَّ التواضعُ فى قلوبهم ، وبه أُمر سائِرُ الخَلْق ، فإنَّ الركوعَ والسجود والمُثول قائماً هو العمل الذى يقتضيه التواضع .

المقام الثانى فيما يعرض من التكَبُّر بالأَسباب السبعة المذكورة[1] .

الأَول : النسب . فمن يعتريه الكِبْرُ من جهة النَّسب فلْيداوِ قلبَه بمعرفة أمرين : أَحدُهما أَنَّ هذا جهلٌ من حيث إنه تعزُّزٌ بكمال غيره ، ولذلك قيل :

لِئن فخرتَ بآباءٍ ذوى شرف لقد صدقتَ ولكنْ بئسَ ماولدوا

فالمتكبر بالنسب إنْ كان خسيساً فى صفات ذاته فمن أَين يجبرُ خِسَّتَه بكمال غيره ؟

الثانى : أنْ يعرفَ نَسَبَه الحقيقىَّ ، فيعرف أباه وجدَّه ، فإنَّ أباه القريب نُطفة قذرة ، وجدَّه البعيد ترابٌ ذليل . وقد عَرَّفه الله تعالى نسبه فقال : (الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِين) .

السبب الثالث : التكبُّر بالجمال . ودواؤُه أن ينظر إلى باطنه نظرَ العقلاء ، ولا ينظرُ إلى الظاهر نظر البهائم . ومهما نظر إلى باطنه رأى من القبائح ما يكدِّر عليه تعزُّزَه بالجمال ، فإنهُ وُكِّل به الأَقذارُ فى جميع أجزائِه : الرجيعُ فى أمعائِه ، والبَوْلُ فى مثانته ، والمُخاط فى أنفه ، والبُزاق فى فيه ، والوَسخُ فى أذنيه ، والدم فى عُروقه ، والصَّديدُ تحت بشرته ، والصُّنان تحت إبطه .

---

(١) انظر ما سبق فى ص ١٢٩ .

السبب الرابع : التكبُّر بالقوة والأَيْد[1] ، ويمنعه من ذلك أن يَعلم ما سُلِّط عليه من العِلل والأَمراض ، وأنَّه لو توجَّع عِرقٌ واحدٌ فى يده لصار أعجزَ من كلِّ عاجز ، وأذلَّ من كلِّ ذليل ، وأنَّه لو سلبه الذبابُ شيئاً لم يستنقذه منه ، وأنَّ بَقَّةً لو دخلت فى أنفه ، أو نملةً دخلت فى أذنه لقتلته ، وأنَّ شوكة لو دخلت فى رِجله لأَعجزته ، وأنَّ حُمَّى يومٍ تُحلِّل من قوَّته ما لا ينجبر فى مدَّة . فمن لا يُطيقُ شوكةً ولا يقاوم بقَّة ، ولا يقدرُ على أنْ يدفع عن نفسه ذبابةً ، فلا ينبغى أنْ يفتخرَ بقوَّته ! ثم إنْ قوِىَ الإنسانُ فلا يكون أقوى من حمار أو بقرة، أو فيل أو جمل . وأىُّ افتخار فى صفة يسبقك فيها البهائِم ؟ !

السبب الرابع ، والخامس: الغنى وكثرةُ المال ، وفى معناه كثرةُ الأَتباع والأَنصار ، والتكبُّر بولاية السَّلاطين والتمكُّن من جهتهم ، وكلُّ ذلك تكبُّر بمعنًى خارجٍ عن ذات الإنسان كالجمال والقوة والعلم . وهذا أَقبحُ أنواع الكِبْر ؛ فإن المتكبِّر بماله كأَنه متكبِّر بفرسه وداره ، ولو مات فرسه وانهدمت داره لعاد ذليلا . والمتكبِّر بتمكين السلطان وولايته لا بصفةٍ فى نفسه بَنَى أَمْره على قُلَّبٍ[2] هو أَشدُّ غلياناً من القِدْر ، فإنْ تغيَّر عليه كان أَذلَّ الخلق .

السبب السادس : الكِبْر بالعلم ، وهو أَعظمُ الآفات وأَغلبُ الأَدواء ، وأبعدها عن قَبول العلاج إلاَّ بشدَّة شديدة وجَهد جهيد ، وذلك لأَن قَدْرَ العلمِ عظيمٌ عند الله ، عظيمٌ عند الناس ، وهو أَعظمُ من قَدْر المال والجمال وغيرهما ، بل لا قدر لهما أصلا إلاَّ إذا كان معهما علم وعمل. ولذلك قال

---

(١) الأيد : الشدة والقوة .

(٢) القلب : كسكر : الشديد التقلب والتحول.

كعب الأحبار : إنّ للعلم طغياناً كطغيان المال . وكذلك قال عمر رضى الله عنه : العالِمُ إذا زَلَّ زَلَّ بزلّته عالَم .

ولن يقدِرَ العالمُ على دفع الكِبْر إلاّ بمعرفة أمرين : أحدُهما أن يعلم أنّ حجّة الله على أهل العلم آكَد ، وأنّهُ يُحتمل من الجاهل ما لا يحتمل عُشرُه من العالِم ، فإنّ مَن عصى اللهَ تعالى عن معرفةٍ وعلم فجنايتُه أفحش ، إذْ لم يقْضِ حقَّ نعمةِ الله عليه فى العلم .

الأمرُ الثانى : أنّ العالمَ يعرفُ أن الكِبْرَ لا يليق إلاّ بالله عزّ وجلّ وحدَه ، وأنّه إذا تكبّر صار ممقوتاً عند الله بغيضاً ، وقد أحبَّ الله منه أن يتواضعَ وقال له : إن لك عندِى قَدْراً ما لم تَرَ لنفسك قدراً ، فإن رأيتَ لنفسِك قدراً فلا قدْرَ لك عندى . فلابدَّ وأن يكلِّفَ نفسَه مايحبه مولاه منه .

السبب السابع : التكبُّر بالورع والعبادة ، وذلك أيضاً فتنةٌ عظيمة على العباد ، وسبيله أن يُلزم قلبَه التواضعَ لسائر العباد ، وهو أن يعلم أنّ من يتقدّم عليه بالعلم لا ينبغى أن يتكبّر عليه كيفما كان ، لِمَا عَرَفه من فضيلة العلم ، وقد قال تعالى : (هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذينَ لاَ يَعْلَمُون) . وقال صلى الله عليه وسلم : « فَضلُ العالمِ على العابدِ كفضْلِى على أدنى رجلٍ من أصحابى » . إلى غير ذلك مما ورد فى فضل العالم .

بيان ذم العجب وآفاته

اعلم أنّ العُجْبَ مذمومٌ فى كتاب الله تعالى وسنّةِ رسوله صلى الله عليه وسلم . قال الله تعالى : (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً) ، ذكر ذلك فى مَعرض الإنكار . وقال عزّ وجلّ : (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبوا) ، فردّ على الكُفّار فى إعجابهم بحصونهم وشوكتهم . وقال تعالى : (وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُون صُنْعاً) ، وهذا أيضاً يرجع إلى العُجْب بالعمل .

وقد يُعجَب الإنسان بعمل هو مخطئ فيه ، كما يعجب بعمل هو مصيبٌ فيه . وقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاثٌ مهلكاتٌ : شُحٌّ مُطاعٌ ، وهَوًى مُتَّبَعٌ ، وإعجابُ المَرءِ بنفسه » .

وقال لأبي ثعلبة – حيث ذكر آخر هذه الأُمَّة فقال : « إذا رأيتَ شُحًّا مُطاعاً ، وهوًى متَّبعاً ، وإعجابَ كلِّ ذى رأيٍ برأيه ، فعليكَ نفسَك » .

وقال ابنُ مسعودٍ : الهلاك فى اثنتين : القنوطُ والعُجب . وإنما جمع بينهما لأنَّ السعادة لا تُنال إلا بالسَّعى والطلب ، والجِدّ والتشمُّر ، والقانط لا يسعَى ولا يطلُب ، والمعجَب يعتقد أنَّه قد سَعِد وقد ظفر بمراده فلا يسعى . فالموجود لا يطلب ، والمحال لا يطلب ، والسعادة موجودةٌ فى اعتقاد المعجَب حاصلةٌ له ، ومستحيلةٌ فى اعتقاد القانِط ، فمن ههنا جمع بينهما .

وقال مطرِّف : لَأنْ أبيتَ وأُصْبحَ نادماً أَحبُّ إلَىَّ من أن أَبيتَ قائماً وأُصبح مُعجَبًا .

وقيل لعائشة رضى الله عنها : متى يكون الرجل مسيئاً ؟ قالت : إذا ظنَّ أنَّه محسنٌ .

بيان آفة العُجْب

اعلم أنَّ آفاتِ العُجب كثيرةٌ ، فإنَّ العُجبَ يدعو إلى الكِبْر ، لأنَّه أحدُ أسبابه – كما ذكرناه – فيتولَّد من العُجْب الكِبْر ، ومن الكِبْر الآفاتُ الكثيرةُ التى لا تَخفَى .

هذا مع العباد ، وأما مع الله تعالى فالعُجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها ؛ فبعضُ ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقَّدها ؛ لظَنِّه أنه مستغنٍ عن

تفقُّدِها فينساها ، وما يتذكَّره منها فيستصغرُه ولا يستعظمُه ، فلا يجتهدُ فى تدارُكه وتَلافيه ،بل يظنُّ أنه يُغفَرله .وأما العبادات والأَعمال فإنَّه يستعظِمها ويتبجَّح بها ، ويَمُنُّ على الله بفعلها ، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها ، ثم إذا أُعجب بها عَمِىَ عن آفاتها . ومن لم يتفقَّدْ آفاتِ الأَعمال كان أكثرُ سعيه ضائعاً ، فإنَّ الأَعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصةً نقيَّةً عن الشوائِب قلَّما تنفع ، وإنما يتَفقَّد من يغلِب عليه الإِشفاق والخوف دون العُجْب .

والمعجَبُ يغتَرُّ بنفْسِه وبرأْيه ، ويأْمَن مكر الله وعذابه ، ويظنُّ أنه عند الله بمكان ، وأنَّ له عند الله مِنَّةً وحقًّا بأَعماله التى هى نعمةٌ من نعمه ، وعطِّيةٌ من عطاياه ، ويخرجه العُجْبُ إلى أن يُثنِىَ على نفسه ويحمَدها ويزكِّيَها . وإنْ أُعجبَ برأْيه وعمله وعقله مَنَعَ ذلك من الاستفادة ، ومن الاستشارة والسؤَال ، فيستبدُّ بنفسه ورأْيه ، ويستنكِفُ من سؤَال من هو أَعلمُ منه . وربَّما يُعْجَبُ بالرأْى الخطإِ الذى خطَر له فيفرح بكونه من خواطره ، ولا يفرح بخواطر غيره فيصرُّ عليه ، ولا يسمعُ نصحَ ناصحٍ ، ولا وعظَ واعظٍ ، بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال ، ويصرُّ على خطئه ، فإن كان رأْيهُ فى أمر دنيوىٍّ فيُخْفِقُ فيه ، وإن كان فى أمر دينىٍّ لا سيَّما فيما يتعلق بأُصول العقائِد فيهلِكُ به . ولو اتَّهم نفسَه ولم يثقْ برأْيه ، واستضاء بنور القرآن واستعانَ بعلماء الدين وواظبَ على مدارسة العلم ، وتابَعَ سؤَال أهل البصيرة ، لكان ذلك يوصِّله إلى الحق. فهذا وأَمثالُه من آفات العُجْب ، فلذلك كان من المهلكات.

ومن أعظمِ آفاته أَن يفتَرَّ فى السَّعى ، لظنِّه أنه قد فاز ، وأنه قد استغنى . وهو الهلاكُ الصريح الذى لا شبهةَ فيه .

نسأَل الله تعالى العظيم حسنَ التوفيق لطاعته .

بيان حقيقة العُجبِ والإدلال وحدهما

اعلم أنَّ العُجبَ إنما يكونُ بوصفٍ هو كمالٌ لا محالة ، وللعالِمِ بكمال نفسِه فى علم وعمل ومال وغيره حالتان :

إحداهما : أن يكون خائفاً على زواله ومشفقاً على تكدُّرِه أو سلْبِه من أصله ، فهذا ليس بمُعجَبٍ .

والأُخرى : أن لا يكون خائفاً من زواله ، لكن يكون فرِحاً به من حيث إنَّه نعمة من الله تعالى عليه ، لا من حيث إضافتُه إلى نفسه . وهذا أيضاً ليس بمعجَب .

وله حالة ثالثة هى العُجب ، وهى أنْ يكون غيرَ خائفٍ عليه ، بل يكون فرحاً به مطمئناً إليه ، ويكون فرحُه به من حيث إنَّه كمالٌ ونعمة ، وخيرٌ ورفعة ، لا من حيث إنَّه عطية من الله تعالى ونعمة منه ، فيكون فرحُه به من حيث إنَّه صفتُه ومنسوبٌ إليه بأنَّه له ، لا من حيث إنَّه منسوب إلى الله تعالى بأنَّه منه . فمهما غلب على قلبه أنَّه نعمة من الله مهما شاء سَلَبها عنه ، زالَ العُجبُ بذلك عن نفسه . فإذن العجبُ هو استعظامُ النعمةِ ، والركونُ إليها مع نسيان إضافتها إلى المُنعم ، فإن انضافَ إلى ذلك أنْ غلب على نفسه أنَّ له عند الله حقًّا ، وأنه منه بمكان، حتَّى يتوقَّعَ بعمله كرامةً فى الدنيا ، واستبعد أنْ يجرىَ عليه مكروهٌ استبعاداً يزيد على استبعاده ما يجرى على الفُسَّاق ، سمِّىَ هذا إدلالاً بالعمل ، فكأنَّه يرى لنفسِه على الله دالَّة . وكذلك قد يُعطِى غيرَه شيئاً فيستعظمه ويمنُّ عليه ، فيكون معجباً ، فإن استخدمَه أو اقترح عليه الاقتراحاتِ ، أو استبعد تخلُّفه عن قضاءِ حقوقه كان مُدِلاً عليه .

وقال قتادة فى قوله تعالى : (ولا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ) : أى لا تُدِلَّ بعملك .

وفى الخبر : « إنَّ صلاةَ المدِلِّ لا تُرفَع فوق رأسه ، ولأن تضحكَ وأنت معترفٌ بذنبك خيرٌ من أن تبكىَ وأنت مدلٌّ بعملك » .

والإدلالُ وراءَ العُجب ، فلا مُدِلَّ إلاَّ وهو معجَب ، وربَّ معجَب لا يُدِلُّ ، إذْ العُجبُ يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة ، دون توقُّع جزاءٍ عليه ، والإدلال لا يتمُّ إلاَّ مع توقُّع جزاءٍ ، فإنْ توقَّع إجابة دعوته واستنكر ردَّها بباطنه وتعجَّب منه ، كان مُدِلاً بعمله ، لأنه لا يتعجَّبُ من ردِّ دعاءِ الفاسق ويتعجَّبُ من ردِّ دعاءِ نفسِه لذلك . فهذا هو العُجب والإدلال ، وهو من مقدِّمات الكِبْر وأسبابه . والله تعالى أعلم .

بيان أقسام مابه العجب وتفصيل علاجه

اعلم أنَّ العُجْبَ بالأسباب التى بها يُتكبَّر ، وقد يُعجَب بما لا يتكبَّر به ، كعُجبِه بالرأى الخطإِ الذى يزيَّن له بجهله . فما به العجبُ ثمانية أقسام :

الأول : أن يُعجَب ببدنه فى جماله وهيئته ، وصحَّته وقوته ، وتناسب أشكاله ، وحسن صورته وحسن صوته ، وبالجملة تفصيل خِلقته ، فيلْتَفتُ إلى جمال نفسه وينسى أنه نعمة من الله تعالى ، وهو بعُرضَة الزوال فى كلِّ حال . وعلاجه ما ذكرناه فى الكِبْر بالجمال ، وهو التفكر فى أقذارِ باطنِهِ ، وفى أوَّل أمره وفى آخره ، وفى الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة ، أنَّها كيف تمزَّقت فى التراب ، وأنتنت فى القبور حتَّى استقذرتْها الطباع .

الثانى : البطش والقوَّة ، كما حُكى عن قوم عادٍ حين قالوا فيما أخبر الله عنهم : (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّة) ، وكما اتَّكل عُوج [1] على قوَّته وأُعجب

(١) فى القاموس : عوج بن عوق بضمهما : رجل ولد فى منزل آدم فعاش إلى زمن موسى ، وذكر من عظم خلقه شناعة . وابن عوق هو الصواب ، كما ذكر صاحب تاج العروس .

بها ، فاقتلع جبلاً ليطبقه على عسكر موسى عليه السلام ، فنَقَب الله تعالى تلك القطعة من الجبل بنَقْر هدهدٍ ضعيف المنقارِ حتى صارت فى عُنقِه .
وقد يتّكِلُ المؤمنُ أيضاً على قوّته ، كما روى عن سليمان عليه السلام أنه قال : لأطوفنَّ الليلةَ على مائِه امرأة ! ولم يقل : إن شاء الله تعالى ، فحرِم ما أراد من الولدِ .

الثالث : العُجْب بالعقل والكياسة والتفطُّن لدقائِق الأُمور من مصالح الدين والدنيا . وثمرته الاستبدادُ بالرأى ، وتركُ المشورة ، واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه ، ويَخرج إلى قلّة الإصغاء إلى أهل العلم إعراضاً عنهم بالاستغناء بالرأى والعقل ، واستحقاراً لهم وإهانة . وعلاجه أنْ يشكر الله تعالى على ما رُزِق من العقل ، ويتفكّرُ أنه بأدنى مرضٍ يصيبُ دِماغه ، كيف يُوسْوِس ويجنُّ بحيثُ يُضحَك منه !

الرابع : العُجبُ بالنَّسب الشريف كعُجْبِ الهاشمية ، حتى يظنَّ بعضُهم أنَّه ينجو بشرفِ نَسَبِه ونجاة آبائه وأنَّه مغفورٌ له ، ويتخيَّلُ بعضُهم أنَّ جميع الخلق له مَوَالٍ وعبيد . وعلاجُه أنْ يعلم أنَّه مهما خالف آباءه فى أفعالهم وأخلاقهم وظنَّ أنه مُلحقٌ بهم فقد جهل ، وإن اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب ، بل الخوف والإزراءُ على النفس ، واستعظام الخلق ومذمة النفس . ولقد شَرفُوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة ، لا بالنسب . فليتشرَّفْ بما شرفُوا به ، وقد ساواهم فى النَّسبِ ، وشاركهم فى القبائِل مَنْ لم يؤْمِنْ بالله واليوم الآخر ، وكانوا عند الله شرًّا من الكلاب ، وأخسَّ من الخنازير . ولذلك قال تعالى : (يـأَيُّهَا النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكرٍ وأنْثَى) ، أى لا تفاوت فى أنسابكم لاجتماعكم فى أصل واحد . ثم ذكر فائدة النسب فقال : (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ

لِتَعارَفُوا) . ثمَّ بيَّن أنَّ الشرفَ بالتقوى لا بالنسب ، فقال (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) . ولمَّا قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : مَن أكرمُ الناس ؟ مَنْ أكيس الناس ؟ لم يقلْ : من ينتمى إلى نسبي ولكنْ قال : « أكرمُهم أكثرُهم للموتِ ذِكراً ، وأشدُّهم له استعداداً » . وإنَّما نزلت هذه الآية حين أَذَّنَ بلالٌ يوم الفتح على الكعبة . فقال الحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وخالد بن أُسِيد : هذا العبد الأسود يؤذِّن على الكعبة ؟ فقال تعالى : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) .

الخامس : العُجبُ بنسبِ السلاطين الظَّلَمة وأعوانهم ، دون نسب الدين والعلم . وهــذه غايةُ الجهل . وعلاجه أنْ يتفكَّرَ فى مخازيهم وما جَرَى لهم من الظُّلم على عباد الله ،والفسادِ فى دين الله ، وأنَّهم الممقوتون عند الله تعالى . ولو نظر إلى صُــوَرِهم فى النَّار وأنتانِهم وأقذارهم ، لاستنكف منهم ولتبرَّأَ من الانتســابِ إليهم ، ولأنكرَ على مَنْ نَسَبَهُ إليهم ، استقذاراً واستحقاراً لهم . ولو انكشف له ذلُّهم فى يومِ القيامة وقد تعلَّق الخُصَماءُ بهم ، والملائكةُ آخذون بنواصيهم ، يجرُّونهم على وجوههم إلى جهنم فى مظالم العباد ، لتبرَّأَ إلى الله منهم ، ولكان انتسابهُ إلى الكلب والخنزير أحبَّ إليه من الانتساب إليهم . فحقٌّ أولادِ الظَّلمة إنْ عصمهم الله مِنْ ظلمهم ، أن يشكروا الله تعالى على سلامة دينهم ، ويستغفِروا لآبائِهم إن كانوا مسلمين ! فأما العُجب بنسبهم فجهلٌ محض.

السادس : العُجْب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والغلمان ، والعَشيرة والأقارب ، والأنصار والأتباع ، كما قال الكفَّار : (نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً) وكما قال المؤمنون يوم حُنين : لاَ نُغلَبُ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ . وعلاجه ما ذكرناه فى الكِبْر ؛ وهو أن يتفكَّر فى ضَعفهِ وضعفهم وأنَّ كلَّهم عبيدٌ عَجَزة لا يملكون لأنفسهم ضَرًّا ولا نفعاً .

ثم كيف يُعجب بهم وإنّهم سيفترقون عنه إذا مات ، فيدفن فى قبره ذليلاً مَهيناً وحده ، لا يرافقهُ أهلٌ ولا ولد ، ولا قريب ولا حميم ولا عشير ، فيسْلمونه إلى البِلى والحيَّات ، والعقارب والديدان ، ولا يُغْنون عنه شيئاً ، وهو فى أحوج أوقاتِه إليهم . وكذلك يهربُون منه يوم القيامة : (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ) الآية . فأىُّ خيرٍ فيمن يفارقُك فى أشدِّ أحوالك ويهرُب منك ؟ وكيف تُعجَب به ولا ينفعك فى القبر والقيامة وعلى الصِّراط إلاَّ عملُك وفضلُ الله تعالى ؟ فكيف تتّكل على من لا ينفعك ، وتنسى نِعَمَ من يَملك نفعَك وضرَّك ، وموتك وحياتك .

السابع : العُجْب بالمال ، كما قال تعالى إخباراً عن صاحب الجنتين إذْ قال : (أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا) . ورأى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم رجلاً غنيًّا جلس بجنبه فقير ، فانقبض عنه وجمع ثيابه ، فقال عليه السلام : « أخشيت أن يَعدوَ إليك فقرُه » . وذلك للعُجب بالغنى . وعلاجه أن يتفكّر فى آفات المال وكثرة حقوقه ، وعظَم غوائِله ، وينظر إلى فضيلة الفقراء وسَبْقِهِمْ إلى الجنة فى القيامة ، وإلى أنَّ المال غادٍ ورائِح ولا أصلَ له ، وإلى أنَّ فى اليهود مَن يزيد عليه فى المال ، وإلى قوله عليه الصلاة والسلام : « بينا رجلٌ يتبختر فى حُلَّةٍ له قد أعجبته نفسُه إذْ أمر الله الأرضَ فأخذَتْه ، فهو يتجلجلُ فيها إلى يوم القيامة » . أشار به إلى عقوبة إعجابه بماله ونفسه . وقال أبو ذَرٍّ : كنتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخلَ المسجد فقال لى : « يا أبا ذَرٍّ ارفعْ رأْسك » ، فرفعتُ رأْسى فإذا رجلٌ عليه ثيابٌ جياد ثم قال : « ارفعْ رأْسك » . فرفعت

رأسي فإذا رجلٌ عليه ثيابٌ خَلَقة ، فقال لى : « يا أبا ذر ، هذا عند الله خيرٌ من قُرَابِ الأَرض[1] مثلَ هذا » .

الثامن : العُجب بالرأى الخطإ . قال الله تعالى : (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً) . وقال تعالى : (وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُم يُحسِنونَ صُنْعاً) .

وجميع أهلِ البِدَع والضلال إنّما أصرُّوا عليها لعجُبهم بآرائِهم . والعُجب بالبدعة هو استحسانُ ما يسوق إليه الهوى والشّهوة ، مع ظنٍّ كونِه حقاً . وعلاج هذا العجب أشدُّ من علاجِ غيره ، لأَنَّ صاحب الرأى الخطَإ جاهلٌ بخطئِه ، ولو عرفَه لتركه ، ولا يُعالَج الداءُ الذى لا يُعرف ، والجهل داءٌ لا يُعرف ، فتعسر مداواته جدًّا ؛ لأَنَّ العارف يقدِر على أَنْ يبيِّنَ للجاهل جهلَه ويُزيله عنه ، إلاَّ إذا كان مُعجَباً برأْيه وجهله ، فإنَّه لا يصغى إلى العارف ويتّهمه ، فقد سلَّط الله بليَّةً تهلكه وهو يظنُّها نعمة ، فكيف يمكن علاجه ، وكيف يطلب الهربَ مما هو سببُ سعادته فى اعتقاده ؟

وإنما علاجه على الجملة أَنْ يكون متَّهما لرأْيه أبداً ، لا يغترُّ به ، إلاَّ أَنْ يشهد له قاطعٌ من كتاب أَو سُنة أَو دليلٍ عقلى صحيح ، جامع لشروط الأَدلة .

ولن يعرفَ الإنسانُ أَدلة الشرع والعقل ، وشروطَها ومكامنَ الغلطِ فيها ، إلاَّ بقريحة تامة ، وعقلٍ ثاقب ، وجِدٍّ وتشمُّر فى الطلب ، وممارسةٍ للكتاب والسنَّة ، ومجالسةٍ لأَهل العلم طولَ العمر ، ومدارسة للعلوم .

---

(١) قراب الشيء ، بضم القاف وكسرها : قدره .

الكتاب العاشر

كتاب ذم الغرور

بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثلته

اعلم أنَّ قوله تعالى : (فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الحياةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الغَرُور) وقوله تعالى: (وَلكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وتَربَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ) الآية ، كافٍ فى ذم الغرور .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الكيِّس مَنْ دانَ نفسَه وعَمِلَ لما بعد الموت ، والأَحمقُ من أَتْبعَ نفْسَهُ هواها وتمنَّى على الله » .

وكلُّ ما ورد فى فضل العلم وذمّ الجهل فهو دليل على ذم الغرور ، لأَنَّ الغرور عبارةٌ عن بعض أنواع الجهل ، إذْ الجهلُ هو أن يعتقد الشيء ويراه على خلاف ما هو به ، والغرور هو جهلٌ ، إلاَّ أَنَّ كلَّ جهل ليس بغرور ، بل يستدعى الغرور مغروراً فيه مخصوصاً ، ومغروراً به وهو الذى يغرُّه . فمهما كان المجهول المعتقد شيئاً يوافق الهوى ، وكان السبب الموجب للجهل شُبهة ومَخِيلة فاسدة يظنُّ أنها دليلٌ ولا تكون دليلاً ، سمِّى الجهلُ به غروراً . فالغرور هو سكونُ النفس إلى ما يوافق الهَوى ويميل إليه الطبع عن شُبهة وخُدعة من الشيطان . فمن اعتقد أنَّه على خير إمَّا فى العاجل أو فى الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور ، وأكثر الناس يظنُّون بأَنفسهم الخيرَ وهم مخطئون فيه . فأَكثرُ الناس إذنْ مغرورون وإن اختلفت أَصنافُ غرورهم ، واختلفت درجاتُهم ، حتَّى كان غرورُ بعضهم أَظهَرَ وأَشدَّ من بعضٍ . وأظهرها وأَشدُّها غرور الكفار ، وغرور العُصاة والفُسَّاق . فنورد لهما أَمثلة لحقيقة الغرور .

المثالُ الأَولُ : غرور الكفّار، فمنهم من غرَّته الحياةُ الدنيا ، ومنهم من غَرَّه بالله الغَرور . أما الذين غرَّتهم الحياة الدنيا : فهم الذين قالوا : النَّقدُ خير من النَّسيئة[1]، والدنيا نقدٌ والآخرة نسيئة ، فهى إذن خيرٌ فلا بد من إيثارها . وقالوا : اليقين خيرٌ من الشك ، ولذَّات الدنيا يقين ولذات الآخرة شك ، فلا نترك اليقين بالشك . وهذه أَقْيِسَةٌ فاسدةٌ تشبهُ قياس إبليس حيث قال : (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) .

وعلاج هذا الغرور إمَّا بتصديق الإيمان ، وإمَّا بالبرهان .

ولنذكر للغرور بالله مثالين من غرور الكافرين والعاصين .

فأَمَّا غرور الكفار بالله : فمثاله قول بعضهم فى أنفسهم وبأَلْسنتهم : إنه لو كان لله من مَعادٍ فنحن أَحقُّ به من غيرنا ، ونحن أوفرُ حظًّا فيه وأَسعدُ حالاً ، كما أَخبر الله تعالى عنه من قول أَحدِ الرجُلين المتحاورين إذْ قال : (وَمَا أَظُنُّ الساعةَ قَائِمةً ولَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهاَ مُنْقَلباً) . وجملة أَمرِهما كما نُقِل فى التفسير : أَنَّ الكافرَ منهما بنى قصراً بأَلف دينار ، واشترى بستاناً بأَلف دينار ، وخدماً بأَلف دينار ، وتزوَّجَ امرأَةً على أَلفِ دينار ، وفى ذلك كلِّه يعظُه المؤْمن ويقول : اشتريت قصراً يفنَى ويخرب ، أَلاَّ اشتريتَ قصراً فى الجنة لا يفنى ! واشتريت بستاناً يخرَب ويفنى ، أَلاَّ اشتريتَ بستاناً فى الجنة لا يفنى ، وخدماً لا يفنَوْن ولا يموتون ، وزوجةً من الحُور العِين لا تموت ! وفى كلٍّ ذلك يردُّ عليه الكافر ويقول : ما هناك شىءٌ ، وما قيل من ذلك فهو أَكاذيب ! وإنْ كان فليكوننَّ لى فى الجنة خيرٌ من هذا !

المثال الثانى : غرور العصاة من المؤْمنين بقولهم : إن الله كريم ، وإنَّا

(١) النسيئة : المؤخر إلى وقت مؤجل .

نرجو عفوَه . واتّكالُهم على ذلك وإهمالُهم الأعمالَ ، وتحسين ذلك بتسميةِ تمنّيهم واغترارهم رجاءً ، وظنّهم أنّ الرجاءَ مَقامٌ محمود فى الدين وأنّ نعمة الله واسعة ، ورحمته شاملة ، وكرمَه عميم . وأين معاصى العباد فى بحار رحمته ، وإنّا موحِّدون ومؤمنون ، فنرجوه بوسيلة الإيمان. وربّما كان مستندُ رجائِهم التمسُّكَ بصَلاح الآباء وعلوّ رُتبتهم ، كاغترار العَلَويّة بنسَبهم ، ومخالفة سيرة آبائهم فى الخوف والتقوى والورع ، وظنّهم أنهم أكرمُ على الله من آبائهم ؛ إذ آباؤهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خائفين ، وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون . وذلك نهاية الاغترار بالله تعالى . فقياس الشيطان للعَلَويَّة : أنَّ مَن أحبَّ إنساناً أحبَّ أولاده ، وأن الله قد أحبَّ آباءكم فيحبُّكم فلا تحتاجون إلى الطاعة. وينسى المغرور أنَّ نوحاً عليه السلام أراد أنْ يستصحب ولدَه معه فى السفينة فلم يُرِدْ فكانَ من المغرَقين ، فقال : (رَبِّ إنَّ ابْنِى مِنْ أهْلِى) فقال تعالى: (يَا نُوحُ إنَّهُ لَيْس مِنْ أَهْلِكَ إنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالحٍ). وأن إبراهيم عليه السلام استغفرَ لأبيه فلم ينفعْه . وأنَّ نبينا صلى الله عليه وسلم وعلى كلِّ عبدٍ مصطفى استأذن ربَّه فى أن يزور قبرَ أمِّه ويستغفرَ لها ، فأَذِن له فى الزيارة ولم يُؤذَن له فى الاستغفار ، فجلس يبكى على قبر أمِّه لرِقّته لها بسبب القرابة ، حتّى أبكى مَن حولَه .

فهذا أيضاً اغترار بالله تعالى .

بيان أصناف المغترِّين وأقسام فرق كل صنف وهم أربعة أصناف

(الصِّنْفُ الأول) : أهل العلم . والمغترون منهم فرق :

ففرقة أحكموا العلومَ الشرعية والعقلية وتعمّقوا فيها واشتغلوا بها ،

وأهملوا تفقدُ الجوارح وحِفظَها عن المعاصى وإلزامَها الطاعات ، واغترّوا بعلمهم وظنّوا أنّهم عند الله بمكان ، وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغاً لا يعذّب الله مثلَهم ، بل يَقبل فى الخلق شفاعتَهم ، وأنّه لا يطالبهم بذنوبهم وخَطاياهم ، لكرامتهم على الله .

وفرقةٌ أخرى أحكموا العلم والعمل ،فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصىَ ، إلاّ أنّهم لم يتفقّدوا قلوبَهم ليمحُوا عنها الصِّفات المذمومةَ عند الله ، من الكِبْر والحسد والرياء ، وطلب الرياسة والعَلاء ، وإرادة السُّوء للأقران والنظراء ، وطلب الشُّهرة فى البلاد والعباد ، وربّما لم يعرفْ بعضُهم أن ذلك مذموم ، فهو مُكِبٌّ عليها ، غير متحرِّز عنها .

فهؤلاء زيّنوا ظواهرَهم وأهملوا بواطنَهم . ونسُوا قوله صلى الله عليه وسلم : «إنَّ الله لا ينظُر إلى صُوَرِكم ولا إلى أموالكم ، وإنّما ينظر إلى قلوبكم وأعمالِكم » . فتعهَّدُوا الأعمالَ وما تعهَّدوا القلوب – والقلبُ هو الأصل – إذْ لا ينجو إلاَّ مَن أتَى الله بقلبٍ سليم .

وفرقةٌ أخرى علموا أنَّ هذه الأخلاقَ الباطنة مذمومةٌ من جهة الشرع ، إلاَّ أنَّهم لعُجبهم بأنفسهم يظنُّون أنّهم منفكُّون عنها ، وأنهم أرفعُ عند الله من أن يبتليَهم بذلك ، وإنّما يُبتلَى به العوامُّ دون مَن بلغ مبلغَهم فى العلم ، فأمّا هم فأعظم عند الله من أن يبتليهم . ثمَّ إذا ظهر عليهم مَخايل الكِبر والرياسة وطلب العلوّ والشرف قالوا : ما هذا كِبْر ، وإنّما هو طلب عزِّ الدين ، وإظهارُ شرفِ العلم ونصرةُ دين الله ، وإرغامُ أنف المخالفين من المبتدعين ! وإنّى لو لبست الدُّون من الثياب وجلست فى الدُّون من المجالس لشَمِت بى أعداءُ الدِّين وفرحوا بذلك ، وكان ذلّى ذلاًّ على الإسلام . ونسىَ المغرورُ أنَّ عدوَّه الذى حذَّره منه مولاه هو الشيطان ، وأنّه يفرح بما يفعله ويسخر به ، وينسى أنَّ النبىَّ صلى

الله عليه وسلم بماذا نصر الدين وبماذا أرغم الكافرين ؟ ونسى ما رُوىَ عن الصحابة من التواضع والتبذُّل ، والقناعة بالفقر والمسكنة ، حتّى عوتب عمر رضى الله عنه فى بَذَاذة زيِّه عند قدومه إلى الشام فقال : إنا قومٌ أعزَّنا الله بالإسلام فلا نطلب العزَّ فى غيره .

وفرقةٌ أخرى أحكموا العلم ، وطهَّروا الجوارح وزيَّنوها بالطاعات ، واجتنبوا ظواهر المعاصى ، وتفقَّدوا أخلاقَ النفس وصفاتِ القلب ، من الرياء والحسد ، والحقد ، والكِبْر وطلب العلوّ ، وجاهدوا أنفسَهم فى التبرِّى منها ، وقلعوا من القلوب منابتَها الجليَّة القوية ، ولكنَّهم بعدُ مغرورون : إذْ بقيتْ فى زوايا القلب من خَفايا مكايد الشيطان وخبايا خداعِ النفس ما دَقَّ وغَمض مدركُه فلم يفطنوا لها وأهملوها ، وإنما مثالُه مَن يريد تنقيةَ الزرع من الحشيش ، فدار عليه وفَتَّش عن كلِّ حشيشٍ رآه فقلعه ، إلاَّ أنَّه لم يفتِّش على ما لم يُخرِجْ رأسَه بعدُ من تحت الأرض ، وظن أنَّ الكُلَّ قد ظهر وبرز ، وكان قد نبت من أُصول الحشيش شُعَبٌ لِطاف فانبسطت تحت التراب فأهملها وهو يظنُّ أنه قد اقتلعها ، فإذا هو بها فى غفلته وقد نبتت وقويتْ ، وأفسدَتْ أُصولَ الزرع من حيث لا يدرى . فكذلك العالمُ قد يفعل جميع ذلك ويُذهَل عن المراقبة للخفايا ، والتفقُّد للدفائن ، فتراه يسهَرُ ليلَه ونهاره فى جَمْع العلوم وترتيبها ، وتحسين ألفاظها وجمع التصانيف فيها ، وهو يرى أن باعثَه الحرصُ على إظهار دينِ الله ونشر شريعته . ولعلَّ باعثَه الخفىَّ هو طلب الذِّكْر وانتشار الصِّيت فى الأَطراف ، وكثرة الرحلة إليه من الآفاق ، وانطلاق الأَلسنةِ عليه بالثناء ، والمدح بالزهد والورع والعلم ، والتقديم له فى المهمَّات وإيثاره فى الأَغراض ، والاجتماع حوله للاستفادة ، والتلذُّذ بحسن الإصغاء عند حُسْن اللفظ والإيراد ، والتمتع

بتحريك الرءوس إلى كلامه والبكاء عليه والتعجُّب منه ، والفرح بكثرة الأَصحاب والأَتباع والمستفيدين .

وفرقةٌ أخرى اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة فى الأَهواء ، والرد على المخالفين وتتبُّع مناقضاتهم ، واستكثروا من معرفة المقالات المختلفة ، واشتغلوا بتعلُّم الطرق فى مناظرة أُولئك وإفحامهم ، وافترقوا فى ذلك فِرقاً كثيرة ، واعتقدوا أنه لا يكون لعبدٍ عملٌ إلاَّ بإيمان ، ولا يصح إيمانٌ إلاَّ بأَن يتعلَّم جدلَهم وما سمَّوه أدلَّةَ عقائدهم ، ظنُّوا أنه لا أحدَ أَعرفُ بالله وبصفاته منهم ، وأَنَّه لا إيمانَ لمن لم يعتقدْ مذهبَهم ولم يتعلَّمْ عِلمَهم ، ودَعتْ كلُّ فرقة منهم إلى نفسها .

ثم هم فرقتان : ضالَّة ومُحقَّة . فالضالَّة هى التى تدعو إلى غير السنة ، والمحقَّة هى التى تدعو إلى السنة .. والغرور شاملٌ لجميعهم : أما الضالة فلغفلتها عن ضلالها وظنِّها بنفسها النجاة ، وهم فرقٌ كثيرة يكفِّر بعضهم بعضاً ، وإنَّما أُتيَتْ من حيثُ إنَّها لم تتَّهم رأْيها ولم تُحكم أَوّلاً شروطَ الأَدلَّة ومنهاجها ، فرأَى أَحدُهم الشبهةَ دليلا والدليلَ شبهة . وأَما الفرقة المحِقَّة : فإنَّما اغترارها من حيث إنَّها ظنت بالجدل أنَّه أهمُّ الأُمور وأَفضل القربات فى دين الله ، وزعمَتْ أنه لا يتم لأَحدٍ دينه ما لم يفحَص ويبحث ، وأَنَّ مَن صدق اللهَ ورسوله من غير بحثٍ وتحريرِ دليلٍ فليس بمؤْمن ، أَو ليس بكامل الإِيمان ولا مقرَّبٍ عند الله .

فلِهذا الظنِّ الفاسِد قطعت أَعمارَها فى تعلُّم الجدل والبحث عن المقالات ، وهذَيانات المبتدِعة ومناقضاتهم ، وأَهملوا أَنفسَهم وقلوبَهم حتَّى عُمِّيت عليهم ذنوبُهم وخطاياهم الظاهرة والباطنة ، وأَحدُهم يظنُّ أَنَّ اشتغاله بالجدل أَوْلى وأَقربُ عِند الله وأَفضل .

وفرقة أُخرى اشتغلوا بالوعظ والتذكير ، وأَعلاهم رتبةً من يتكلَّم

فى أخلاق النفس وصفات القلب ، من الخوف والرجاء ، والصبر والشكر ، والتوكل والزُّهد ، واليقين والإخلاص والصدق ونظائِره. وهم مغرورون ، يظنُّون بأَنفسهم أنَّهم إذا تكلَّموا بهذه الصفات ودَعَوا الخَلْق إليها فقد صاروا موصوفين بهذه الصفات ، وهم منفكُّون عنها عند الله إلاَّ عن قدرٍ يسير لا ينفكُّ عنه عوام المسلمين . وغرور هؤلاءِ أشدُّ الغرور ، لأنَّهم يُعجَبون بأَنفسهم غايةَ الإِعجاب ، ويظنون أنَّهم ما تبحَّروا فى علم المحبة إلاَّ وهم محبُّون لله ، وما قَدَروا على تحقيق دقائق الإِخلاص إلاَّ وهم مخلصون ، وما وقَفوا على خفايا عيوب النفس إلاَّ وهم عنها منزَّهون ! ولولا أنَّه مقرَّب عند الله لَمَا عرَّفه معنى القرب والبعد ، وعلمَ السلوك إلى الله ، وكيفيةَ قطع المنازل فى طريق الله ! فالمسكين بهذه الظنون يرى أنه من الخائفين وهو آمنٌ من الله تعالى ، ويرى أنه من الراجين وهو من المغترِّين المضيِّعين ، ويرى أنه من الراضين بقضاءِ الله وهو من الساخطين ، ويرى أنه من المتوكلين على الله وهو من المتَّكلين على العزِّ والجاه والمال والأَسباب ، ويرى أنه من المخلصين وهو من المرائين.

وفرقة أُخرى منهم عدَلوا عن المنهاج الواجب فى الوعظ وهم وُعَّاظ أَهل هذا الزمان كافَّةً إلاَّ من عصمه الله ، على الندور فى بعض أَطراف البلاد إنْ كان، ولسنا نعرفه ، فاشتغلوا بالطامَّات والشَّطح وتلفيق كلماتٍ خارجة عن قانون الشرع والعقل ، طلباً للإِغراب . وطائفة شُغِفوا بطيَّارات النكت وتسجيع الأَلفاظ وتلفيقها ، فأَكثر همهم بالأَسجاع والاستشهاد بأَشعار الوصال والفراق؛ وغرضُهم أن تكثر فى مجالستهم الزَّعقات والتواجُد ، ولو على أَغراض فاسدة ، فهؤُلاءِ شياطينُ الإِنس ، ضَلُّوا وأَضلُّوا عن سَواءِ السبيل ؛ فإِنَّ الأَولين وإن لم يُصلحوا أَنفسهم

فقد أصلحوا غيرهم وصحَّحوا كلامَهم ووعْظَهم ، وأما هؤلاء فإنَّهم يصدُّون عن سبيل الله ويجرُّون الخلقَ إلى الغرور بالله بلفظ الرجاء ، فيزيدهم كلامُهم جراءةً على المعاصى ورغبةً فى الدنيا ، لا سيَّما إذا كان الواعظ متزيِّنًا بالثياب والخيل والمراكب ، فإنه تشهد هيئته من قَرْقِه إلى قَدَمِه بشـدَّة حرصه على الدنيا . فما يُفسده هذا المغرور أكثر مما يصلحه .

وفرقةٌ أخرى منهم قَنِعوا بحفظ كلام الزُّهاد وأحاديثهم فى ذمِّ الدنيا ، فهم يحفظون الكلماتِ على وجهها ، ويؤَدُّونها من غير إحاطةٍ بمعانيها ، فبعضهم يفعل ذلك على المنابر ، وبعضُهم فى المحاريب ، وبعضهم فى الأَسواق مع الجُلَساء ، وكلٌّ منهم يظنُّ أنه تميَّز بهذا القَدْر عن السُّوقة والجنديّة ، إذْ حفظ كلامَ الزهاد وأهلِ الدين دُونَهم ، فقد أفلحَ ونال الغرض ، وصار مغفوراً له ، وأَمِنَ عقاب الله ، من غير أن يحفظ ظاهرَه وباطنه عن الآثام ، ولكنه يظنُّ أن حفظه لكلام أهل الدين يكفيه . وغرورُ هؤلاء أظهرُ من غرور مَن قبلهم .

وفرقةٌ أُخرى استغرقوا أوقاتَهم فى علم الحديث ، أعنى فى سماعِه وجمع الروايات الكثيرة منه ، وطلب الأَسانيد الغريبة العالية . فهمَّةُ أحدِهم أن يدور فى البلاد ويرى الشيوخ ليقول : أنا أروِى عن فلان ، ولقد رأيت فلاناً ومعى من الإسناد ما ليس مع غيرى . وغرورُهم من وجوهٍ : منها أنَّهم كحملة الأَسفار فإنهم لا يصرفون العناية إلى فَهم معانى السُّنة ، فعلمهم قاصرٌ وليس معهم إلاَّ النقل ، ويظنُّون أنَّ ذلك يكفيهم . ومنها : أنَّهم إذا لم يفهموا معانيَها لايعملون بها ، وقد يفهمون بعضَها أيضاً ولا يعملون به . ومنها : أنَّهم يتركون العلم الذى هو فرضُ عينٍ ، وهو معرفة علاج القلب ، ويشتغلون بتكثير الأَسانيد وطلب العالى منها ،

ولا حاجة بهم إلى شيء من ذلك . ومنها ، وهو الذى أكبَّ عليه أهْلُ الزمان : أنّهم أيضاً لا يقيمون بشرط السماع ؛ فإنَّ السماع بمجرَّده وإنْ لم تكن له فائدةٌ ولكنّه مهمٌّ فى نفسه للوصول إلى إثبات الحديث ، إذ التفهُّم بعد الإثبات ، والعملُ بعدَ التفهم . فالأول السماعُ ، ثم التفهمُ ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر . وهؤلاء اقتصروا من الجملة على السماع ، ثم تركوا حقيقة السماع . فترى الصبيَّ يحضُرُ فى مجلس الشيوخ والحديثُ يُقرأ والشيخُ ينام والصبيُّ يلعب ، ثم يُكتب اسمُ الصبي فى السَّماع ، فإذا كبر تصدَّى ليُسمع منه ، والبالغ الذى يحضر ربَّما يَغفُل ولا يسمع ولا يُصغى ولا يَضبِط ، وربَّما يشتغل بحديث أو نسخ ، والشيخ الذى يقرأ عليه لو صحَّف وغيَّر ما يَقرأ عليه لم يشعرْ به ولم يعرفه ، وكل ذلك جهلٌ وغرور . إذ الأَصل فى الحديث أن يسمعَه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحفظَه كما سمعه ، ويرويَه كما حفظه ، فتكون الرواية عن الحفظ ، والحفظ عن السماع . فإن عَجزْتَ عن سماعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعته من الصحابة أو التابعين ، وصار سماعُك عن الراوى كسماع من سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أن تصغيَ لتسمع فتحفظ ، وترويَ كما حفظت ، وتحفظ كما سمعت . بحيث لا تغيِّر منه حرفًا ، ولو غيَّر غيرك منه حرفاً أو خطأً علمت خطأه .

وفرقةٌ أُخرى اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة ، واغترُّوا به ، وزعموا أنّهم قد غُفر لهم ، وأنهم من علماء الأُمّة ، إذْ قوام الدين بالكتاب والسنة ، وقوام الكتاب والسنة بعلم اللغة والنحو ، فأفنى هؤلاء أعمارهم فى دقائق النحو وفى صناعة الشعر ، وفى غريب اللغة . ومثالهم كمن يفنى جميعَ العمرَ فى تعلم الخطِّ وتصحيح الحروف

وتحسينها ، ويزعم أنَّ العلوم لا يُمكن حِفظها إلا بالكتابة ، فلابدَّ من تعلُّمها وتصحيحها . ولو عقلَ لعلم أنه يكفيه أن يتعلَّم أصل الخط بحيث يمكن أن يقرأ كيفما كان ، والباقى زيادة على الكفاية . وكذلك الأديب لو عَقَل لعرف أن لغة العرب كلغة الترك ، والمضيِّع عمره فى معرفة لغة العرب كالمضيِّع له فى معرفة لغةِ الترك والهند ، وإنما فارقتها لغة العرب لأجل ورود الشريعة بها ، فيكفى من اللغة عِلم الغريبَين فى الأحاديث والكتاب ، ومن النَّحو ما يتعلق بالحديث والكتاب ، فأمَّا التعمُّق فيه إلى درجاتٍ لا تتناهى فهو فضولٌ مستغنًى عنه .

وفرقةٌ أخرى عظُم غرورُهم فى فنِّ الفقه ، فظنُّوا أن حكم العبد بينه وبين الله يتبع حكمَه فى مجلس القضاء ، فوضعوا الحيَل فى دفع الحقوق ، وأساءوا تأويل الألفاظ المبهمة ، واغترُّوا بالظواهر وأخطئوا فيها.

(الصنف الثانى) : أرباب العبادة والعمل ، والمغرورون منهم فرقٌ كثيرة ، فمنهم مَن غُرُوره فى الصلاة ، ومنهم من غروره فى تلاوة القرآن ، ومنهم فى الحج ومنهم فى الغَزْو ، ومنهم فى الزهد . وكذلك كلُّ مشغولٍ بمنهجٍ من مناهج العمل فليس خالياً عن غرور ، إلاَّ الأكياس ، وقليلٌ ماهم.

فمنهم فرقة أهملوا الفرائِض واشتغلوا بالفضائل والنوافل ، وربَّما تعمَّقوا فى الفضائِل حتَّى خرجوا إلى العدوان والسَّرَف ، كالذى يَغْلِب عليه الوسوسة فى الوضوء فيبالغُ فيه ولا يرضى الماءَ المحكومَ بطهارته فى فتوى الشرع .

وفرقةٌ أخرى : غلب عليها الوسوسة فى نية الصلاة ، فلا يدعه الشَّيطان حتى يعقد نيةً صحيحة ، بل يشوِّشُ عليه حتَّى تفوته الجماعة ويُخرِجَ الصلاةَ عن الوقت ، وإن تم تكبيره فيكون فى قلبه بعدُ تردُّدٌ فى صحة نيته . وقد يُوسوَسُون فى التكبيرةِ حتى يغيِّرون صيغة التكبير لشدَّة الاحتياط فيه ، يفعلون ذلك فى أول الصلاة ثم يغفُلون فى جميع

الصلاة فلا يُحضرون قلوبَهم ، ويغترون بذلك ، ويظنُّون أنهم إذا أتعبوا أنفسهَم فى تصحيح النية فى أول الصلاة ، وتميزوا عن العامة بهذا الجهد والاحتياط ، فهم على خيرٍ عند ربهم .

وفرقة أُخرى : تغلب عليهم الوسوسة فى إخراج حروف الفاتحة وسائِر الأَذكار من مخارِجها ، فلا يزال يحتاط فى التشديدات ، والفرق بين الضاد والظاء ، وتصحيح مخارجِ الحروف فى جميع صَلاته ، لا يهمُّه غيره ، ولا يتفكَّر فيما سواهُ ، ذاهلاً عن معنى القرآن والاتِّعاظ به ، وصرف الفهم إلى أسراره . وهذا من أقبح أنواع الغرور ؛ فإنه لم يُكلَّف الْخَلقُ فى تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلاَّ بما جرت به عادتُهم فى الكلام.

وفرقة أُخرى: اغتروا بقراءة القرآن فيهذُّونه هَذًّا(1) ، وربَّما يختمونه فى اليوم والليلِ مَرَّة ، ولسانُ أَحدِهم يجرى به ، وقلبه يتردَّد فى أَودية الأَمانى . فهو مغرورٌ يظنُّ أن المقصودَ من إنزال القرآن الهمهمةُ به مع الغفلةِ عنه .

وفرقة أُخرى اغترُّوا بالصوم ، وربَّما صاموا الدهر أَو صاموا الأَيام الشريفة وهم فيها لا يحفظون أَلْسنتهم عن الغِيبة ، وخواطرَهم عن الرياء ، وبطونَهم عن الحرام عند الإِفطار ، وأَلسنتهم عن الهذَيان بأَنواع الفضول طول النهار.

وفرقة أُخرى : اغتروا بالحجِّ ، فيخرجون إلى الحجِّ من غير خروجٍ عن المظالم وقضاءِ الديون واسترضاءِ الوالدين ، وطلب الزاد الحلال ، وقد يفعلون ذلك بعد سُقوط حجَّة الإِسلام . ويضيعون فى الطريق الصلاةَ والفرائِض ، ويعجزون عن طهارة الثَّوْبِ والبدن . ولا يحذرون فى الطريق من الرفث والْخِصام .

وفرقة أُخرى : أَخذت فى طريق الْحِسبة والأَمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ينكر على الناس ويأْمرهم بالخير وينسى نفسه ، وإذا أَمرهم بالخير

---

(1) الهذ : سرعة القراءة .

عُنُف وطلب الرياسةَ والعزّة ، وإذا باشر منكراً ورُدَّ عليه غضب وقال : أنَا المحتسِب فكيف تنكرُ عليَّ ؟

وفرقة أُخرى : جاوروا بمكة أو المدينة واغترُّوا بمكة ، ولم يراقبوا قلوبَهم ولم يطهِّروا ظاهرهم وباطنهم ، فقلوبُهم معلَّقة ببلادهم ، ملتفتة إلى قول من يعرِّفه : إن فلاناً مجاورٌ بذلك . وتراه يتحدَّى ويقول : قد جاورتُ بمكة كذا وكذا سنة .

وفرقة أُخرى : زَهِدَتْ فى المال ، وقنعت من اللباس والطعام بالدون ، ومن المسكن بالمساجد ، وظنَّت أنها أدركت رُتبة الزُّهَّاد ، وهو مع ذلك راغبٌ فى الرياسة والجاه إمَّا بالعلم أو بالوعظ ، أو بمجرَّد الزُّهد. فقد ترك أهون الأَمرين ، وباءَ بأَعظمِ المهلكَين .

وفرقة أُخرى : حَرَصت على النوافل ولم يعظم اعتدادُها بالفرائِض ، ترى أحدَهم يفرح بصلاة الضحى وبصلاة الليل ، وأمثال هذه النوافل ، ولا يجد للفريضة لذةً ولا يشتدُّ حرصُه على المبادرة بها فى أول الوقت ، وينسى قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه : « ما تقرَّب المتقربون إلىَّ بمثل أداءِ ما افترضتُ عليهم » . وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور.

(الصنف الثالث) : المتصوِّفة . وما أغلب الغرورَ عليهم . والمغترُّون منهم فرق كثيرة .

ففرقة منهم وهم متصوِّفة أهلِ الزمان إلاَّ مَنْ عصمه الله ، اغتروا بالزىِّ والهيئَة والمنطق ، فساعدوا الصادقين من الصوفية فى زيِّهم وهيئَتهم ، وفى أَلفاظهم وفى آدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم ، وفى أَحوالهم الظاهرة فى السماع والرقص والطهارة والصلاة ، والجلوس على السجَّادات مع إطراق الرأْس وإدخاله فى الجيب كالمتفكِّر ، وفى تنفس الصُّعَداء ، وفى خفض الصوت فى الحديث ، إلى غير ذلك من الشمائِل والهيئات .

وهؤلاء غرورهم ظاهرٌ ، ومثالهم مثالُ امرأةٍ عجوز سمعت أنَّ الشجعان والأبطالَ من المقاتلين تُثبَتُ أسماؤُهم فى الديوان ، ويُقطع لكلٍّ واحد منهم قطرٌ من أقطار المملكة ، فتاقت نفسُها إلى أن يُقطع لها مملكةٌ فلبست درعاً ، ووضعت على رأسها مِغفراً ، وتعلّمت من رجز الأبطال أبياتاً ، وتعوّدت إيراد تلك الأبيات بنغماتهم حتى تيسّرت عليها ، وتعلّمت كيفية تبخترِهم فى الميدان ، وكيف تحريكهم الأيدى ، وتَلقّفت جميع شمائِلهم فى الزىِّ والمنطق ، والحركات والسكنات ، ثم توجّهت إلى المعسكر ليثبت اسمُها فى ديوان الشجعان ، فلمّا وصلت إلى المعسكر أُنفِذَتْ إلى ديوان العرض ، وأُمِرَتْ بأن تجرَّد عن المغفر والدرع ، ويُنظَر ما تحته ، وتُمتحن بالمبارزة مع الشجعان ليعرفَ قدر غَنائِها فى الشجاعة فلما جُرِّدت عن المغفرِ والدرع فإذا هى عجوز ضعيفة زمِنة لا تطيق حمل الدرع والمغفر ؟ فقيل لها : أَجئتِ للاستهزاء بالمَلِكِ وللاستخفاف بأهل حضرته والتلبيس عليهم ؟ خُذوها فألقوها قدّام الفيل لِيَسْحَقها ! فَأُلقيت إلى الفيل .

وفرقةٌ أُخرى : زادت على هؤلاء فى الغرور ، إذْ شقَّ عليها الاقتداء بهم فى بذاذة الثياب ، والرضا بالدُّون ، فأرادت أن تتظاهر بالتصوُّف ولم تجد بداً من التزين بزيِّهم ، فتركوا الحرير والإبريسم ، وطلبوا المرقّعات النفيسة ، والفُوَط الرقيقة ، والسجّادات المصبَّغة ، ولبسوا من الثيابِ ما هو أرفع قيمة من الحرير والإبريسم ، وظنَّ أَحدُهم مع ذلك أنه متصوِّف بمجرَّد لون الثوب وكونِه مرقَّعاً ، ونسىَ أنّهم إنّما لوّنوا الثيابَ لَئِلاَّ يطول عليهم غسلُها كلَّ ساعة لإزالة الوسخ ، وإنما لبسوا المرقَّعات إذْ كانت ثيابُهم مخرَّقة ، فكانوا يرقعونها ولا يلبَسون الجديد. فأمَّا تقطيع الفوط الرقيقة قطعةً قطعة وخياطة المرقَّعات منها فمن أين يشبه ما اعتادوه؟

وفرقة أخرى : ادَّعت عِلْم المعرفةِ ومشاهدةَ الحق ، ومجاوزةَ المقامات والأَحوال ، والملازمةَ فى عين الشهود والوصولَ إلى القرب ، ولا يعرف هذه الأُمورَ إلا بالأَسامى والأَلفاظ ، لأَنَّه تلقَّف من ألفاظ الطَّامات كلمات فهو يردِّدها ، ويظن أَنَّ ذلك أَعلى من علم الأَوَّلين والآخِرين ، فهو ينظر إلى الفقهاءِ والمفسِّرين والمحدِّثين وأَصناف العلماء بعين الإزراءِ ، فضلا عن العوامّ . حتى إنَّ الفلاح لَيترك فِلاحته ، والحائكَ يترك حياكته ويلازمُهم أَياماً معدودة ، ويتلقَّف منهم تلك الكلمات المزيَّفةَ ، فيردِّدها كأَنه يتكلَّم عن الوحى ، ويخبرُ عن سرِّ الأَسرار .

وفرقةٌ أُخرى : وقعت فى الإِباحة ، وطَوَوْا بساط الشرع ، ورفضوا الأَحكام ، وسوَّوْا بين الحلال والحرام . فبعضُهم يزعمُ أَنَّ الله مستغن عن عملى فلمَ أُتعبُ نفسى ؟ وبعضهم يقول : قد كُلِّف الناسُ تطهيرَ القلوب عن الشهوات وعن حبِّ الدنيا ، وذلك محالٌ ؛ فقد كُلِّفوا مالا يمكن ، وإنما يغترّ به مَن لم يجرِّب ، وأَما نحن فقد جرَّبنا وأَدركنا أَنَّ ذلك محال . ولا يعلم الأَحمق أَنَّ الناس لم يُكلَّفوا قلع الشهوة والغضب من أَصلهما ، بل إنما كُلِّفوا قلع مادَّتهما بحيث ينقاد كلٌّ واحدٍ منهما لحكم العقل والشرع .

وفرقة أخرى : جاوزت حدَّ هؤلاءِ واجتنبت الأَعمال ، وطلَّقت الحلال ، واشتغلت بتفقُّد القلب ، وصار أَحُدهم يدَّعى المقاماتِ من الزهد والتوكل ، والرضا والحبِّ ، من غير وقوف على حقيقةِ هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها . فمنهم من يدَّعى الوجد والحبَّ لله تعالى ، ويزعم أَنه والهٌ بالله ، ولعلَّه قد تخيَّل فى الله خيالاتٍ هى بدعةٌ أَو كفرٌ ، فيدَّعى حبَّ الله قبل معرفته . . ثم إِنَّه لا يخلو عن مقارفةِ ما يكرهُ اللهُ عزَّ وجل ، وعن إيثار هَوى نفسِه على أَمر الله .

وليس يدرى أَنَّ كلَّ ذلك يناقض الحبّ .

وفرقةٌ أُخرى : ضيَّقت على نفسها فى أمر القُوت ، حتَّى طلبت منه الحلالَ الخالص ، وأهملوا تفقُّد القلبِ والجوارح فى غير هذه الخصلة الواحدة . ومنهم من أهمل الحلالَ فى مَطعمِه وملبسه ومسكنه ، وأخذ يتعمَّق فى غير ذلك ، وليس يَدرى المسكينُ أن الله تعالى لم يرضَ من عبْدِه بطلبِ الحلال فقطْ ، ولا يرضى بسائِر الأَعمال دون طلب الحلال ، بل لا يُرضِيه إلاَّ تفقد جميع الطاعات والمعاصى . فمن ظنَّ أن بعضَ هذه الأُمور يكفيه ويُنجيه فهو مغرور .

وفرقة أُخرى : ادَّعوا حُسْنَ الخُلُقِ والتواضعَ والسماحة ، فتصدَّوْا لخدمة الصُّوفية ، فجمعوا قوماً وتكفَّلوا بخدمتهم ، واتخذوا ذلك شَبكةً للرياسة وجَمع المال ، وإنَّما غرضهم التكبر ، وهم يظهرون الْخِدمة والتواضع وغرضُهم الارتفاع .

وفرقة أُخرى : اشتغلوا بالمجاهدةِ وتهذيبِ الأَخلاق ، وتطهيرِ النفس من عيوبها ، وصاروا يتعمَّقون فيها ، فاتخذوا البحثَ عن عيوب النفس ومعرفة خُدَعها علماً وحرفة ، فهم فى جميع أَحوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفس ، واستنباط دقيقِ الكلام فى آفاتها ، فيقولون : هذا فى النفسِ عيبٌ ، والغفلة عن كونه عيباً عيبٌ ، والالتفات إلى كونه عيْباً عيبٌ ، ويُشغَفون فيه بكلماتٍ مسلسلة تَضيع الأَوقات فى تلفيقها .

وفرقةٌ أُخرى : جاوزوا هذه الرتبة وابتدءُوا سلوك الطريق ، وانفتح لهم أَبوابُ المعرفة ، فكلما تشمَّموا من مبادئ المعرفة رائحة تعجَّبوا منها وفرحوا بها ، وأَعجبتهم غرابتُها ، فتقيَّدت قلوبهم بالالتفات إليها والتفكر فيها ، وفى كيفية انفتاح بابِها عليهم وانسدادِه على غيرهم .

وفرقة أُخرى : جاوزوا هؤلاء ولم يلتفتوا إلى ما يفيض عليهم من الأَنوار فى الطريق ، ولا إلى ما تيسَّر لهم من العطايا الجزيلة ، ولم يعرِّجوا

على الفرح بها والالتفات إليها ، جادّين فى السير حتى قاربوا فوصَلوا إلى حدِّ القُربة إلى الله تعالى ، فظنوا أنهم قد وصلوا إلى الله ، فوقَفوا وغلطوا ، فإن لله تعالى سبعين حجاباً من نور ، لا يصل السالكُ إلى حجاب من تلك الحجب فى الطريق إلاَّ ويظنُّ أنه قد وصل .

(الصِّنفُ الرابع) : أرباب الأَموال ؛ والمغترون منهم فرق :

ففرقة منهم : يَحرِصون على بناء المساجد والمدارس والرِّباطات والقناطر وما يظهر للناس كافة ، ويكتبون أَساميهم بالآجُرِّ عليها ليتخلَّد ذِكرُهم ويبقى بعد الموت أثرُهم ، وهم يظنُّون أنَّهم قد استحقُّوا المغفرة بذلك . وقد اغتروا فيه من وجهين :

أحدُهما : أنَهم يبنونها من أموالٍ اكتسبوها من الظلم والنَّهب والرُّشا والجهاتِ المحظورة ، فهم قد تعرَّضوا لسخط الله فى كسْبها ، وتعرَّضوا لسخطه فى إنفاقها .

والوجه الثانى : أنَّهم يظنُّون بأَنفسهم الإخلاص وقصد الخير فى الإنفاق على الأَبنية ، ولو كلِّف واحد منهم أن يُنْفِق ديناراً ولا يكتب اسمه على الموضع الذى أنفق عليه لشق عليه ذلك ولم تسمح به نفسه .

وفرقة أخرى : ربَّما اكتسبت المال من الحلال وأنفقت على المساجد ، وهى أيضاً مغرورة من وجهين :

أحدُهما : الرياءُ وطلبُ الثناء ؛ فإنَّه ربَّما يكون فى جواره أو بلده فقراءُ ، وصرفُ المال إليهم أهمُّ وأفضل وأَوْلى من الصَّرف إلى بناء المساجد وزينتها .

والثانى : أنه يصرفُ إلى زخرفة المسجد وتزيينه بالنقوش التى هى منهىٌّ عنها ، وشاغلةٌ قلوبَ المصلِّين ومختطفةٌ أَبصارَهم ، والمقصود من الصلاةِ الخشوع وحضور القلب ، وذلك يُفسدُ قُلوبَ المصلِّين ويُحبط

ثوابَهم بذلك ، ووبالُ ذلك كلِّه يرجع إليه ، وهو مع ذلك يغترٌّ به ويرى أنه من الخيراتِ ، ويعدٌّ ذلك وسيلة إلى الله تعالى .

وفرقة أخرى : يُنْفقون الأَموال فى الصدقات على الفقراء والمساكين، ويطلبون به المحافلَ الجامعة . ومن الفقراء من عادته الشكرُ والإفشاءُ للمعروف ويكرهون التصدُّق فى السر ، ويرون إخفاء الفقير لما يأْخذ منهم جنايةً عليهم وكفراناً . وربَّما يَحرصون على إنفاق المال فى الحجِّ فيحجُّون مرة بعد أُخرى وربَّما تركوا جيرانهم جياعاً .

وفرقة أُخرى : من أرباب الأَموال اشتغلوا بها يحفظون الأَموال ، ويُمسكونها بحكم البخل ، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التى لا يحتاج فيها إلى نفقة ، كصيام النهار ، وقيام الليل ، وختم القرآن . وهم مغرورون لأَن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم .

وفرقة أُخرى : غلبهم البخلُ فلا تسمحُ نفوسُهم إلا بأَداء الزكاة فقط ، ثم إنَّهم يخرجون من المال الخبيثَ الردىءَ الذى يرغَبون عنه ، ويطلبون من الفقراءِ مَن يخْدمُهم ويتردَّد فى حاجاتهم ، ومن يحتاجون إليه فى المستقبل للاستسخار فى خدمةٍ ، أو من لهم فيه على الجملة غرض، أو يُسلمون ذلك إلى من يعيِّنه واحدٌ من الأَكابر ممن يستظهر بحشَمه ، لينال بذلك عنده منزلة فيقوم بحاجاته . وكلٌّ ذلك مفسداتٌ للنية ، ومحبِطات للعمل ؛ وصاحبه مغرور .

وفرقة أُخرى : من عوامِّ الْخَلقِ وأَرباب الأَموال والفقراء ، اغترُّوا بحضور مجالس الذكر ، واعتقدوا أَن ذلك يُغنيهم ويكفيهم ، واتخذوا ذلك عادة . ويظنُّون أَنَّ لهم على مجرَّد سماع الوعظ دون الاتِّعاظ أَجراً ، وهم مغرورون لأَنَّ فضلَ مجلس الذكر لكونه مرغِّباً فى الخير ؛ فإن لم يهيِّج الرغبة فلا خيرَ فيه .


رُبع المُنجيات

الكتاب الأول

كتاب التوبة

الركن الأول : في نفس التوبة

بيان حقيقة التوبة وحدها

اعلم أن التوبة عبارةٌ عن معنًى ينتظمُ ويلتئمُ من ثلاثة أمور مرتَّبة : علم ، وحال ، وفعل .

فالعلمُ الأول ، والحالُ الثانى ، والفعلُ الثالث . والأولُ موجبٌ للثانى ، والثانى موجب للثالث إيجاباً اقتضاه اطِّراد سُنَّة الله فى الملك والملكوت .

أما العلم ؛ فهو معرفةُ عِظَم ضرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين كلِّ محبوب ، فإذا عَرَف ذلك معرفةً محقَّقة بيقين غالبٍ على قلبه ، ثار من هذه المعرفة تألُّمٌ للقلب بسبب فوات المحبوب ؛ فإنَّ القلبَ مهما شَعَر بفوات محبوبه تألَّم ، فإنْ كان فواته بفعله تأسَّف على الفعل المفوِّت ، فيسمَّى تألُّمه بسبب فعله المفوِّت لمحبوبه ندماً ، فإذا غلب هذا الألمُ على القلب واستولى انبعثَ من هذا الألم فى القلب حالةٌ أخرى تسمَّى إرادةً وقصداً إلى فعل له تعلُّق بالحال والماضى وبالاستقبال . أما تعلُّقه بالحالِ فبالترك للذنب الذى كان ملابِساً . وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوِّت للمحبوب إلى آخر العمر . وأما بالماضى فبتلافى ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلا للجبر .

فالعلم هو الأول ، وهو مَطْلع هذه الخيرات . وأعنى بهذا العلم الإيمانَ

واليقينَ ؛ فإن الإيمان عبارةٌ عن التصديق ، فإنَّ الذنوب سُموم مهلِكة ، واليقين عبارة عن تأكُّد هذا التصديق ، وانتفاء الشك عنه ، واستيلائهِ على القلب ، فيثمر نور هذا الإيمان مهما أشرق على القلب نارَ الندم ، فيتألَّم بها القلب حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار محجُوباً عن محبوبه ، كمن يشرقُ عليه نُور الشمس وقد كان فى ظلمة ، فيسطع النور عليه بانقشاع سحابٍ أو انحسار حِجاب ، فيرى محبوبه وقد أشرف على الهلاك ، فتشتعل نيران الحب فى قلبه ، وتنبعث تلك النيران بإرادته للانتهاض للتدارك . فالعلم ، والندم ، والقصد المتعلق بالترك فى الحال والاستقبال والتلافى للماضى ، ثلاثة معان مرتَّبة فى الحصول ، فيطلق اسم التوبة على مجموعها .

وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى النَّدم وحدَه ، ويُجعل العلم كالسابق والمقدِّمة ، والترك كالثمرة والتابع المتأَخِّر . وبهذا الاعتبار قال عليه الصلاة والسلام : « النَّدَمُ تَوْبَة » ؛ إذ لا يخلو الندم عن علم أوجَبه وأثمره ، وعن عزمٍ يتبعه ويتلوه ؛ فيكون الندم محفوفاً بطرفيه ، أعنى ثمرته ومثمِره ؛ وبهذا الاعتبار قِيل فى حدِّ التوبة إنه ذَوَبان الحشا لما سبق من الخطإ ؛ فإنَّ هذا يعرض لمجرد الألم ؛ ولذلك قيل : هو نارٌ فى القلب تلتهب ، وصَدْع فى الكبد لا ينشعب[1] . وباعتبار معنى الترك قيل فى حدِّ التوبة : إنه خلع لباس الجفاء ، ونشر بِساط الوفاء .

قال سَهل بن عبد الله التُّستَرى : التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة ، ولا يتمُّ ذلك إلاَّ بالخلوة والصَّمت وأكل الحلال . وكأنَّه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة .

---

(١) الصدع : الشق . والانشعاب : الالتئام .

والأقاويل فى حدود التوبة لا تنحصر ؛ وإذا فهمتَ هذه المعانىَ الثلاثة وتلازمَها وترتيبَها ، عَرَفْتَ أن جميع ما قيل فى حدودها قاصرٌ عن الإحاطة بجميع معانيها . وطلب العلم بحقائق الأُمور أهم من طلب الأَلفاظ المجرَّدة .

بيان وجوب التوبة وفضلها

اعلم أَنَّ وجوبَ التوبة ظاهرٌ بالأَخبار والآيات ، وهو واضحٌ بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته ، وشرح الله بنور الإيمان صدرَه .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَلّهُ أَفرحُ بتوبة العبدِ المؤْمن من رَجُل نزلَ فى أَرض دَوِّيَّة[1] مهلكة ، معه راحلتُه عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأْسَه فنام نومةً ، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها ، حتَّى إذا اشتدَّ عليه الحرُّ والعطش أَو ما شاءَ الله ، قال : أَرجِعُ إلى مكانى الذى كنتُ فيه فأَنام حتَّى أَموت ، فوضع رَأْسَه على ساعده ليموت ، فاستيقظ فإذا راحلتُه عنده عليها زادُه وشرابه ؛ فالله تعالى أَشدُّ فرحاً بتوبة العبد المؤمن مِنْ هذا براحلتِه » .

والأَخبار والآثار فى ذلك لا تحصى ، والإجماعُ منعقد من الأُمَّة على وجوبها ، إذْ معناه العلمُ بأَنَّ الذنوب والمعاصىَ مهلكاتٌ ومبعداتٌ من الله تعالى . وهذا داخلٌ فى وجوب الإيمان .

بيان أَن التوبة إذا استجمعت شرائِطها فهي مقبولة لامحالة

اعلم أَنَّك إذا فهمتَ معنى القبول لم تشكَّ فى أَن كل توبةٍ صحيحة فهى مقبولة . فالناظرون بنور البصائِر ، المستمِدُّون من أَنوار القرآن ، علموا أَنَّ كل قلبٍ سليمٍ مقبول عند الله ومتنعِّم فى الآخرة فى جوار الله

(١) الدوية : المفازة ، والفلاة الواسعة .

تعالى ، ومستعدٌ لأَن ينظرَ بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى ، وعَلموا أَن القلبَ خُلقَ سليماً فى الأَصل ، وكلٌّ مولودٍ يولَد على الفطرة ، وإنَّما تفوته السلامةُ بكدورةٍ تَرْهَقُ وجهَه من غُبْرَة الذنوب وظلمتها .

وكلُّ قلبٍ زكىٍّ طاهرٍ فهو مقبول ، كما أَنَّ كلَّ ثوب نظيف فهو مقبول . فإنما عليك التزكية والتطهير ، وأَما القبول فمبذولٌ قد سبق به القضاءُ الأَزلىُّ الذى لا مردَّ له ، وهو المسمَّى فَلَاحاً فى قوله : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) .

فمن يتوهَّم أَن التوبة تصحُّ ولا تقبل ، كمن يتوهم أَنَّ الشمس تطلع والظلام لا يزول ، والثوبَ يغسل بالصابون والوسخَ لا يزول ، إلاَّ أَن يغوصَ الوسخُ لطول تراكمه فى تجاويف الثوب وخَلله ، فلا يقوى الصابون على قلعه . فمثال ذلك أَن تتراكم الذنوبُ حتى تصيرَ طَبَعاً ورَيْناً[1] على القلب . فمثل هذا القلب لايرجع ولا يتوب . نعم قد يقول باللسان : تُبت ، فيكون ذلك كقول القصَّار بلسانه : قد غسلت الثوب ، وذلك لا ينظِّف الثوب أَصلاً ، ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضادُّ الوصف المتمكن به . فهذا حال امتناع أَصل التوبة .

وقد قال تعالى (وَهوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئاتِ) ، وقال تعالى : (غَافِرِ الذَّنْبِ وقابِلِ التَّوْب) ، إلى غير ذلك من الآيات . وقال صلى الله عليه وسلم « للهُ أَفرَحُ بتوبة أَحدكم ... » الحديث . والفرح وراءَ القبول ، فهُو دليلٌ على القبول وزيادة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لو عَمِلتم الخطايا حتَّى تبلغ السماءَ ثم نَدِمتم لتابَ الله عليكم » .

---

(١) الطبع ، بالتحريك : الدنس والوسخ . ومثله الرين .

وأما الآثار : فقد قال سعيد بن المسيّب : أُنزِلَ قولُه تعالى (إنَّه كانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً) فى الرجل يُذنب ثم يتوب ، ثم يُذنِب ثم يتوب .

وقال الفُضيل : قال الله تعالى : بَشِّرِ المُذْنِبِينَ بِأَنَّهُمْ إنْ تَابُوا قُبِلَتْ مِنهُمْ ، وَحَذِّرِ الصِّدِّيقين أنِّى إنْ وضعتُ عليهم عَدْلى عذَّبتُهم .

وقال عمر رضى الله عنه : اجلسوا إلى التَّوابين فإنَّهم أرقُّ أفئدة .

فإن قلتَ : أفتقول ما قالته المعتزلة من أن قبول التوبة واجبٌ على الله ؟

فأقول : لا أعنى بما ذكرته من وجوب قَبول التوبة على الله إلا ما يريد القائل بقوله : إنَّ الثوبَ إذا غُسل بالصابون وجَبَ زوال الوسخ ، وإن العطشانَ إذا شرب الماء وجب زوالُ العطش ، وأنه إذا منع الماء مدةً وجب العطش ، وأنه إذا دام العطش وجب الموت ، وليس فى شىء من ذلك ما يريده المعتزلةُ بالإيجاب على الله تعالى .

الركن الثاني

فيما عنه التوبة ، وهي الذنوب صغائرها وكبائرها

اعلم أنَّ التوبة تَركُ الذنب ، ولا يمكن ترك الشىء إلاَّ بعد معرفته ، وإذا كانت التوبة واجبةً كان ما لا يتوصل إليها إلاَّ به واجباً . فمعرفة الذنوب إذن واجبة .

والذَّنبُ عبارة عن كلِّ ما هو مخالفٌ لأمر الله تعالى فى ترك أو فعل . وتفصيلُ ذلك يستدعى شرحَ التكليفات من أولها إلى آخرها ، وليس ذلك من غرضنا ، ولكنَّا نشير إلى مَجامعها وروابط أقسامها . والله الموفق للصواب برحمته .

بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد

تنحصر مَثارات الذنوب فى أربع صفات : صفاتٌ رُبوبية ، وصفات شيطانية ، وصفات بَهيمية ، وصفات سَبُعية . وذلك لأنَّ طينة الإنسان عُجنت من أخلاط مختلفة ، فاقتضى كلٌّ واحدٍ من الأخلاط فى المعجون منه أثراً من الآثار ، كما يقتضى السكَّر والخَلّ والزعفران فى السَّكنجَبِين آثاراً مختلفة .

فأما ما يقتضى النزوعَ إلى الصفات الربوبية فمثل الكِبْر والفخر والْجَبَرية وحبٌّ المدح والثناء ، والعزٌ والغنى ، وحبٌ دوام البقاء ، وطلب الاستعلاء على الكافَّة حتى كأنه يريد أن يقول : أنا ربُّكم الأعلى .

الثانية : هى الصفة الشيطانية التى منها يتشعَّب الحسَد والبغى ، والحِيلة والخداع ، والأَمرُ بالفساد والمنكر . وفيه يدخل الغِشٌّ والنفاق والدعوة إلى البدع والضلال .

الثالثة : الصفة البهيمية ، ومنها يتشعب الشَّرَه والكلَب[1] والحرص على قضاء شَهوة البطن والفرجِ ، ومنه يتشعَّب الزِّنَى واللِّواط والسرقة ، وأكل مال الأيتام ، وجمع الْحُطام لأجل الشهوات .

الرابعة : الصفة السَّبُعيّة ، ومنها يتشعب الغضب والحقد ، والتَّهجُّم على الناس بالضرب ، والشتم ، والقتل ، واستهلاك الأموال.

قسمة ثانية : اعلم أنَّ الذنوبَ تنقسم إلى ما بين العبد وبين الله تعالى ، وإلى ما يتعلّق بحقوق العبـــاد ؛ فما يتعلق بالعبد خاصـــة كترك الصلاةِ والصوم والواجبات الخاصة به ، وما يتعلق بحقوق العباد كتركه

---

(١) الكلب ، بالتحريك : الحرص .

الزكاة ، وقتلهِ النفس ، وغصبه الأموالَ ، وشتمِهِ الأعراضَ ، وكلٍّ متناوِل من حق الغير .

قسمة ثالثة : اعلمْ أنَّ الذنوبَ تنقسم إلى صغائِر وكبائِر ، وقد كثر اختلافُ الناس فيها ، فقال قائلون : لا صغيرة ولا كبيرة ، بل كلُّ مخالَفة لله فهي كبيرة . وهذا ضعيف ؛ إذ قال تعالى : (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً) ، وقال تعالى : (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ[1]) .

والكبائر على ثلاث مراتب :

(الأُولى) ما يمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله ، وهو الكُفر ، فلا كبيرةَ فوق الكفر ؛ إذ الحجابُ بين الله وبين العبد هو الجهل ، والوسيلة المقرِّبة له إليه هو العلم والمعرفة ، وقُربه بقدر معرفته ، وبُعده بقدر جهله .

(المرتبة الثانية) : النُّفوس ، إذْ ببقائِها وحفظها تَدوم الحياة وتحصل المعرفة بالله ، فقتل النفس لا محالةَ من الكبائِر وإن كان دون الكفر ، لأنَّ ذلك يصدم عين المقصود ، وهذا يصدم وسيلة المقصود .

ويتلو هذه الكبيرةَ قطعُ الأَطراف وكلُّ ما يفضى إلى الهلاك حتَّى الضرب ، وبعضها أكبر من بعض ، ويقع فى هذه الرتبة تحريم الزِّنَى واللِّواط ؛ لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور فى قضاءِ الشهوات انقطع النسل . ودفعُ الموجود قريبٌ من قطع الوجود . وأما الزِّنَى فإنه لا يفوِّت أَصلَ الوجود ولكن يشوِّش الأَنساب ، ويُبطل التوارث والتناصر وجملةً من الأُمور التى لا ينتظم العيش إلاَّ بها .

(المرتبة الثالثة) : الأَموال ، فإنَّها معايش الخلق ، فلا يجوز تسلُّط

---

(١) اللمم : صغار الذنوب .

الناس على تناولها كيف شاءوا حتى بالاستيلاء والسرقة وغيرهما ، بل ينبغي أن تُحفَظ لتبقى ببقائها النفوس ، إلاَّ أنَّ الأموال إذا أخذت أمكنَ استردادها ، وإن أُكلت أمكن تغريمها ، فليس يعظم الأمر فيها . نعمْ إذا جرَى تناولها بطريق يعسرُ التدارك له فينبغي أن يكون ذلك من الكبائر ، وذلك بأربع طرق :

أحدُها الخِفْية ، وهي السرقة ، فإنه إذا لم يُطَّلع عليه غالباً كيف يتدارك.

الثاني : أكل مال اليتيم ، وهذا أيضاً من الخفية ، وأعني به في حق الوليّ والقيِّم فإنه مؤتَمن فيه ، وليس له خصمٌ سوى اليتيم ، وهو صغير لا يعرفه ، فتعظيم الأمر فيه واجب .

الثالث : تفويتُها بشهادة الزور .

الرابع : أخذ الوديعة وغيرهما باليمين الغَموس[1] فإنَّ هذه طريقٌ لا يمكن فيها التدارك ، ولا يجوز أن تختلف الشرائعُ في تحريمها أصلاً ، وبعضها أشدُّ من بعض ، وكلُّها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس . وهذه الأربعة جديرةٌ بأن تكون مرادة بالكبائر ، وإن لم يوجب الشرعُ الحدَّ في بعضها.

بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب

اعلم أنَّ الصغيرة تكبرُ بأسباب : منها الإصرار والمواظبة ، ولذلك قيل : لا صغيرةَ مع إصرار ، ولا كبيرة مع استغفار ؛ فكبيرةٌ واحدة تنصرم[2] ولا يتبعها مثلها ، لو تُصوِّر ذلك كان العفو عنها أرجَى من صغيرةٍ يواظبُ العبد عليها. ومثال ذلك قَطَراتٌ من الماء تقع على الحجَر على تَوَالٍ فتؤثِّر فيه ، وذلك القدْر من الماء لو صُبَّ عليه دفعةً واحدة لم يؤثِّر . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيرُ الأعمال أدْوَمُهَا وإن قَلَّ » .

(١) الغموس : الكاذبة ، التي تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار .

(٢) تنصرم : تنقطع .

إلاَّ أنَّ الكبيرة قلَّما يتصورُ الهجومُ عليها بغتة من غير سوابقَ ولواحقَ من جملة الصغائر ، فقلَّما يزنى الزانى بغتة من غير مراوَدَة ومقدِّمات ، وقلما يقتل بغتةً من غير مشاحنةٍ سابقة ومُعاداة . فكلُّ كبيرةٍ تكتنفها صغائرِ سابقة ولاحقة ، ولو تُصُوِّرَتْ كبيرةٌ وحدَها بغتة ولم يتفق إليها عَود ، ربَّما كان العفو فيها أرجَى من صغيرةٍ واظب الإنسان عليها عُمرَه .

ومنها : أن يستصغر الذنب ؛ فإنَّ الذنب كلما استعظمه العبدُ من نفسه صَغُر عند الله تعالى ؛ لأنَّ استعظامَه يصدُر عن نفور القلب وكراهيته له ، وذلك النفور يمنع من شدَّة تأثُّره به ، واستصغارَه يصدرُ عن الإلْفِ به ، وذلك يوجب شدَّة الأثر فى القلب .

وقد جاءَ فى الخبر : « المؤْمن يَرى ذَنْبه كالجبل فوقَه يخاف أن يقع عليه ، والمنافق يرى ذَنْبَه كَذُباب مَرَّ على أنفِهِ فأطارَه » .

ومنها : السرور بالصغيرة والفرح والتبجُّح بها[1] واعتداد التمكن من ذلك نعمةً ، والغفلةُ عن كونه سببَ الشقاوة . فكلَّما غلبَتْ حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثَرها فى تسويد قلبه ، حتَّى إنَّ من المذنبين من يتمدَّح بذنبه ويتبجَّح به لشدَّة فرحه بمقارفته إياه[2] ، كما يقول : أما رأيتَنى كيف مزَّقت عِرْضه ؛ ويقول المناظر فى مناظرته : أما رأيتَنى كيف فضحتُه وكيف ذكرت مساويَه حتَّى أخجلته ، وكيف استخففت به وكيف لبَّسْت عليه ؟ ويقول المعامل فى التجارة : أمَا رأيت كيف روَّجتُ عليه الزائفَ وكيف خدعتُه ، وكيف غبنتُه فى ماله ، وكيف استَحْمقْتُه ؟ فهذا وأمثاله تكبُر به الصغائر .

(١) التبجح : الفخر .

(٢) مقارفة الذنوب : مباشرتها وارتكابها .

ومنها : أنْ يتهاون بسَتْر الله عليه وحلمه عنه ، وإمهاله إياه ، ولا يدرى أنّه يُمْهَلُ مَقتاً ليزداد بالإمهال إثماً .

ومنها : أن يأتىَ الذنبَ ويظهرَه بأن يذكره بعد إتيانه ، أو يأتيه فى مشهدِ غيره ؛ فإنَّ ذلك جنايةٌ منه على ستر الله الذى سَدَله عليه[1]، وتحريكٌ لرغبة الشرِّ فيمن أسمعه ذنبَه أو أشهدَه فعله . فهما جنايتان انضمَّتا إلى جنايته فغلُظت به ، فإن انضافَ إلى ذلك الترغيبُ للغير فيه ، والحمل عليه ، وتهيئَة الأسباب له ، صارت جنايةً رابعة ، وتفاحَشَ الأمر . وفى الخبر : « كلُّ الناس مُعافًى إلاَّ المجاهرين[2] ، يبيت أحدُهم على ذَنْبٍ قد ستره الله عليه ، فيصبح فيكشف سِتر الله ويتحدَّث بذنبه » .

ومنها : أنْ يكون المذنب عالماً يُقتدَى به ، فإذا فعلَه بحيث يرى ذلك منه كَبُر ذنبه ، كلبس العالِم الإبْرَيْسم ، وركوبه مَرَاكب الذهب ، وأخذه مالَ الشُّبهة من أموال السلاطين .

وقال ابن عباس : ويلٌ للعالم من الأتباع ، يَزِلُّ زَلَّة فيرجع عنها ، ويحملها الناسُ فيذهبون بها فى الآفاق .

الركن الثالث

في تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر

قد ذكرنا أن التوبةَ عبارةٌ عن ندم يورث عزماً وقصداً .

ولتمامها علامةٌ ، ولدوامها شروط .

---

(١) سدل السّتر عليه : أرخاه وأرسله .

(٢) المجاهرون : المعلنون المعصية .

فعلامةُ صحة الندم : رقّةُ القلب ، وغزارة الدمع . وفى الخبر : «جالِسوا التوّابينَ فإنّهم أرقُّ أفئِدة » . ومن علامته أن تتمكن مرارةُ تلك الذنوب فى قلبه بدلاً عن حلاوتها ، فيستبْدِل بالميل كراهيةً ، وبالرغبة نُفرة.

فإنْ قلتَ : فالذنوب هى أعمالٌ مشتهاة بالطبع فكيف يجد مرارتَها ؟

فأقول : مَن تناول عسلاً كان فيه سمٌّ ولم يُدركه بالذوق واستلذّه ، ثم مرض وطال مرضُه وألمه ، وتناثرَ شَعرُه ، وفُلِجت أعضاؤه[1] ، فإذا قدِّم إليه عسل فيه مثل ذلك السم ، وهو فى غاية الجوع والشهوة للحلاوة ، فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا ؟ فإن قلت : لا ، فهو جحدٌ للمشاهدة والضرورة ، بل ربّما تنفر عن العسل الذى ليس فيه سمٌّ أيضاً ، لشبهه به ، فوجدان التائِب مرارةَ الذنب كذلك يكون ؛ وذلك لعلمه بأن كلَّ ذنبٍ فَذوقه ذَوق العسل ، وعمله عمل السمّ .

وشرط صحتها فيما يتعلق بالماضى أن يردَّ فكرَه إلى أول يومٍ بلَغَ فيه بالسنِّ أو الاحتلام ، ويفتِّش عما مضى من عمره سنةً سنة ، وشهراً شهراً ، ويوماً يوماً ، ونفَسًا نَفَسًا ، وينظر إلى الطاعات ما الذى قَصَّر فيه منها ؟ وإلى المعاصى ما الذى قَارفه منها ؟

فإنْ كان قد ترك صلاةً أو صلاّها فى ثوبٍ نجس ، أو صلاّها بنية غير صحيحة ، لجهله بشرط النية ، فيقضيها عن آخرِها . فإنْ شكَّ فى عددِ ما فاتَه منها حَسَب من مدة بلوغه ، وترَك القدر الذى يستيقن أنّه أدّاه ، ويقضى الباقى ، وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ويصل إليه على سبيل التحرِّى والاجتهاد .

وأما الصوم فإنْ كان قد تركَه فى سفر ولم يقضِه ، أو أفطر عمداً

---

(١) فلجت : أصابها الفالج .

أو نَسِيَ النية بالليل ولم يقض ، فيتعرّف مجموع ذلك بالتحرّى والاجتهاد ويشتغل بقضائه .

وأما الزكاة فيحسب جميعَ ماله وعددَ السنين من أولِ ملْكه ، فيؤدّى ما عَلِم بغالب الظن أنّه فى ذمته .

وأما الحجُّ فإنْ كان قد استطاع فى بعض السنينَ ولم يتّفق له الخروج والآن قد أفلسَ فعليه الخروج . فإن لم يقدر مع الإفلاس فعليه أن يكتسب من الحلال قَدْرَ الزاد ، فإن لم يكن له كسبٌ ولا مالٌ فعليه أن يسأل الناس ليُصرَف إليه من الزكاة أو الصدقات ما يحجُّ به .

وأما المعاصى فيجب أن يفتّش من أول بلوغه عن سَمعه وبصره ، ولسانه وبطنه ، ويده ورجله وفرْجه ، وسائِر جوارحه ، ثم ينظر فى جميع أيامه وساعاته ويفصِّل عند نفسه دِيوانَ معاصيه[1] حتى يطّلع على جميعها ، صغائِرها وكبائرها ، ثم ينظر فيها ، فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيثُ لا يتعلّق بمظلمة العباد فالتوبةُ عنها بالندم والتحسّرِ عليها ، وبأن يحسُب مقدارها من حيث الكِبَر ، ومن حيث المدّة ، ويطلب لكلِّ معصيةٍ منها حسنةً تناسبها ، فيأْتى من الحسنات بمقدار تلك السيئات ، أخذاً من قوله صلى الله عليه وسلم : «اتّقِ اللهَ حيث كنتَ ، وأتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها » .

وأمّا مظالمُ العباد ففيها أيضاً معصيةٌ وجِناية على حقِّ الله تعالى ؛ فإنّ الله تعالى نَهىَ عن ظلم العباد أيضاً . فما يتعلّق منه بحقِّ الله تعالى تداركَه بالندم والتحسُّر وتركِ مثلِه فى المستقبل ، والإتيانِ بالحسنات التى هى

(١) الديوان : مجتمع الصحف ، والكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية .

أضدادها ، فيقابل إيذاءه الناسَ بالإحسان إليهم ، ويكفِّر[1] غَصْب أموالهم بالتصدُّق بملكه الحلال ، ويكفِّر تناولَ أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين ، وإظهار ما يعرف من خِصال الخير من أقرانه وأمثاله .

وأما الجنايةُ على القلوب بمشافهة الناس بما يسوءُهم أو يعيبهم فى الغَيبة ، فيَطلب كلَّ من تعرَّض له بلسانه ، أو آذى قلبَه بفعلٍ من أفعاله ، وليستحلَّ واحداً واحداً منهم . ومن مات أو غابَ فقد فات أمرُه ، ولا يُتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤْخذ منه عوضاً فى القيامة .

وأما العزمُ المرتبط بالاستقبال ، فهو أنْ يعقد مع الله عَقْداً مؤكَّداً ، ويعاهدَه بعهد وثيقٍ أن لا يعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها . كالذى يعلم فى مرضِه أن الفاكهةَ تضرُّه مثلاً ، فيعزم عزماً جزماً أنَّه لا يتناول الفاكهة مالم يَزُل مرضُه ، فإنَّ هذا العزمَ يتأكد فى الحال ، وإن كان يتصوَّر أن تغلبه الشهوة فى ثانى الحال ، ولكن لا يكون تائباً ما لم يتأكَّدْ عزمه فى الحال . ولا يُتَصوَّرُ أنْ يتمّ ذلك للتائب فى أول أمره إلاَّ بالعزلة والصَّمت ، وقلة الأكل والنوم ، وإحرازِ قُوتٍ حلال .

بيان أقسام العبادِ في دوام التوبة

اعلم أن التائِبين فى التوبة على أربع طبقات .

الطبقة الأُولى : أنْ يتوبَ العاصى ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره ، فيتدارك ما فَرَط من أمره[2] ولا يحدِّث نفسه بالعودِ إلى ذنوبه ،

---

(١) تكفير الذنوب : محوها وسترها ، وذلك بفعل أعمال أخرى صالحة ، وتلك الأعمال تسمى كفارة لأنها تمحو وتستر تلك الذنوب .

(٢) فرط : سبق . والفارط : السابق .

إلاّ الزّلاّت التى لا ينفك البشرُ عنها فى العادات ، مهما لم يكنْ فى رتبةِ النبوّة ، فهذا هو الاستقامة على التوبة .

الطبقة الثانية : تائب سلك طريق الاستقامة فى أمّهات الطاعات وترك كبائر الفواحش كلّها ، إلاّ أنه ليس ينفكّ عن ذنوبٍ تعتريه لا عن عمد وتجريد قصد ، ولكن يُبتلَى بها فى مجارى أحواله من غير أن يُقدِّم عزماً على الإقدام عليها ، ولكنّه كلما أقدمَ عليها لامَ نفسَه وندم وتأسف ، وجدَّد عزمه على أن يتشمّر للاحتراز من أسبابها التى تعرِّضه لها . وهذه النفس جديرةٌ بأن تكون هى النفس اللوّامة .

الطبقة الثالثة : أن يتوبَ ويستمرَّ على الاستقامة مدَّة ، ثم تغلبَه الشهواتُ فى بعض الذنوب فيقدِم عليها عن صدق وقصد شهوة ، لعجزه عن قهر الشهوة ، إلاّ أنّه مع ذلك مواظبٌ على الطاعات ، وتاركٌ جملةً من الذنوب مع القدرة والشهوة ، وإنّما قهرَتْه هذه الشهوةُ الواحدة أوالشهوتان وهو يودُّ لو أقدره الله تعالى على قَمْعها ، وكفاه شرَّها . هذا أمنيَّته فى حال قضاء الشهوة عند الفراغ أن يتندَّم ويقول : ليتنى لم أفعلْه ، وسأتوب عنه وأُجاهد نفسى فى قهرها، لكنه تسوِّل له نفسه ، ويسوِّف توبتَه مرَّةً بعد أُخرى ويوماً بعد يوم . فهذه النفس هى التى تسمَّى : النفس المسوِّلة .

الطبقة الرابعة : أنْ يتوبَ ويجرىَ مدَّةً على الاستقامة ، ثم يعود إلى مقارفة الذّنب أو الذنوب ، من غير أن يحدِّث نفسَه بالتوبة ، ومن غير أن يتأسّف على فعله ، بل ينهمك انهماكَ الغافل فى اتباع شهوَاته . فهذا من جملة المصِرِّين ، وهذه النفس هى النفس الأمّارة بالسوء ، الفرّارة من الخير .

الركن الرابع

في دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار

اعلم أن الناس قسمان : شابٌ لا صبوةَ له ، نشأ على الخير واجتناب الشر ، وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تَعجَّبَ ربُّك من شابٌ ليست له صَبوة » ، وهذا عزيز ونادر .

والقسم الثانى : هو الذى لا يخلو عن مُقارفة الذنوب . ثم هم ينقسمون إلى مصرِّين وإلى تائبين .

وغرضُنا أن نبيِّن العلاجَ فى حلِّ عقدة الإصرار ، ونذكر الدواء فيه.

فاعلمْ أنَّ شفاء التوبة لا يحصُل إلا بالدواء ، ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء ؛ إذْ لا معنًى للدواء إلا مناقضة أسبابِ الداء ، فكلُّ داءٍ حصل من سببٍ فدواؤه حَلُّ ذلك السبب ورفعُه وإبطاله . ولا يبطل الشيءُ إلا بضدِّه . ولا سببَ للإصرار إلاَّ الغفلة والشهوة ، ولا يضاد الغفلةَ إلا العلم ، ولا يُضاد الشهوةَ إلا الصبر على قطع الأسباب المحرِّكة للشهوة . والغَفْلة رأس الخطايا . قال الله تعالى : (وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ). فلا دواءَ إذَنْ للتوبة إلاَّ معجونٌ يُعجَن من حلاوة العلم ومرارة الصبر . وكما يَجمع السَّكنجبين بين حلاوة السكر وحموضة الخل ، ويقصد بكلٍّ منهما غرضٌ آخر فى العلاج بمجموعهما ، فيقمع الأسباب المُهَيِّجَةَ للصفراء . فهكذا ينبغى أن تفَهَم علاجَ القلب مما به من مرض الإصرار .

فإن قُلتَ : فاذكر الطريقَ الذى ينبغى أن يسلكه الواعظ فى طريق الوعظ مع الْخلق ؟

فاعلمْ أنَّ ذلك يَطُول ولا يمكن استقصاؤُه . نعمْ نشير إلى الأنواع النافعة فى حلِّ عقدة الإصرار ، وحمل الناس على ترك الذنوب . وهى أربعة أنواع :

الأول : أنْ يذكرَ مافى القرآن من الآيات المخوِّفة للمذنبين والعاصين وكذلك ماورد من الأخبار والآثار .

والأخبار والآثارُ فى ذمِّ المعاصى ومدح التائِبين لا تُحصى ، فينبغى أن يستكثر الواعظ منها إن كان وارثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنَّه ما خلَّف ديناراً ولا درهماً ، إنَّما خلَّف العلم والحكمة ، وورثه كلُّ عالمٍ بقدر ما أصابه .

النوع الثانى : حكايات الأنبياءِ والسلف الصالحين ، وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم ، فذلك شديد الوقْع ، ظاهر النفع فى قلوب الخلْق ، مثل أحوال آدم صلى الله عليه وسلم فى عِصيانه وما لقيه من الإخراج من الجنة .

وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر ، ولم يَرِد بها القرآن والأخبار وُرودَ الأسمار ، بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار ؛ لتعلم أنَّ الأنبياء عليهم السلام لم يُتجاوَزْ عنهم فى الذنوب الصغار ، فكيف يُتجاوزُ عن غيرهم فى الذنوب الكبار ؟ نعم كانت سعادتهم فى أن عُوجِلوا بالعقوبة ولم يؤَخَّروا إلى الآخرة ، والأشقياءُ يُمهَلون ليزدادوا إثماً ، ولأَنَّ عذاب الآخرة أشدُّ وأكبر . فهذا أيضاً مما ينبغى أن يكثر جِنسُه على أسماع المصِرِّين ؛ فإنَّه نافعٌ فى تحريك دواعى التوبة .

النوع الثالث : أن يقرِّر عندهم أن تعجيل العقوبة فى الدنيا متوقَّع على الذُّنوب ، وأنَّ كلَّ ما يصيب العبد من المصائِب فهو بسبب جناياته ،

فَرُبَّ عبدٍ يتساهل فى أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله فى الدنيا أكثر لفرط جهله ، فينبغى أن يخوَّف به ، فإنَّ الذنوبَ كلَّها يتعجَّل فى الدنيا شُؤْمها فى غالب الأمر ، كما حكى فى قصة داود وسليمان عليهما السلام ، حتى إنَّه يضيَّق على العبد رزقُه بسبب ذنوبِه ، وقد تسقُط منزلتُه من القلوب ويستولى عليه أعداؤه . قال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ العبد ليُحْرَمُ الرِّزق بالذنب يُصيبه » .

النوع الرابع : ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب ، كالخمر والزنى والسرقة والقتل ، والغيبة والكِبْر والحسد . وكلٌّ ذلك مما لا يمكن حصره . وذكره مع غير أهله وضعُ الدواء فى غير موضعه ، بل ينبغى أن يكون العالم كالطبيب الحاذق ، فيستدلُّ أوَّلاً بالنبض والسَّحنة[1] ووجود الحركات ، على العلل الباطنة ، ويشتغل بعلاجها ، فيستدلُّ بقرائِن الأحوال على خفايا الصفات .

---

(١) السحنة ، بالفتح وبفتحتين : الهيئة واللون .

الكتاب الثاني

كتاب الصبر والشكر

بيان فضيلة الصبر

قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصافٍ ، وذكر الصبر فى القرآن فى نيِّف وسبعين موضعاً ، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر ، وجعلها ثمرةً له ، فقال عزَّ من قائل : (وَجَعَلْنَا مِنهُمْ أَئِمَّةً يَهدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا) ، وقال تعالى : (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِى إِسْرائِيلَ بِمَا صَبَرُوا) . وقال تعالى : (ولَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلون) . وقال تعالى : (أُولئكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا) ، وقال تعالى : (إنما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) . فما من قُرْبَةٍ إلاَّ وأجرها بتقديرٍ وحساب ، إلاَّ الصبر .

وأما الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم : « الصَّبر نِصفُ الإيمان » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « فى الصَّبر على ما تكره خيرٌ كثير » . وقال المسيح عليه السلام : إنَّكم لا تدركون ما تحبُّون إلاَّ بصَبركم على ما تكرهون .

وأما الآثار ، فقد وُجد فى رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى :

عليك بالصبر . واعلم أنَّ الصبر صبران ، أحُدهما أفضل من الآخر : الصبر فى المصيبات حسنٌ ، وأفضل منه الصبر عمَّا حرم الله تعالى . واعلم

أنَّ الصبر مِلاكُ الإيمان ، وذلك بأنَّ التقوى أفضل البر والتقوى بالصبر .

وقال على كرم الله وجهه : بُنِىَ الإيمان على أربعِ دعائِمَ : اليقين ، والصبر ، والجهاد ، والعدل .

بيان حقيقة الصبر ومعناه

الصبر خاصِّية الإنس ، ولا يُتصوَّر ذلك فى البهائِم والملائِكة . أما فى البهائِم فلنقصانها ، وأما فى الملائكة فلكمالها .

وبيانه : أنَّ البهائِم سُلِّطت عليها الشهوات وصارت مُسَخَّرة لها ، فلا باعثَ لها على الحركة والسكون إلاَّ الشَّهوة ، وليس فيها قُوَّةٌ تصادِم الشَّهوةَ وتردُّها عن مقتضاها حتَّى يسمى ثبات تلك القوَّة فى مقابلة مقتضى الشهوة صبراً .

وأمَّا الملائكة عليهم السلام فإنَّهم جُرِّدوا للشوق إلى حضرة الربوبية ، والابتهاج بدرجة القُرب منها ، ولم تسلَّط عليهم شهوةٌ صارفة صادَّة عنها حتى يُحتاج إلى مصادمة مايصرفها عن حضرة الجلال بجُندٍ آخرَ يغلب الصوارف.

وأما الإنسانُ فإنَّه خُلق فى ابتداءِ الصبا ناقصاً مثلَ البهيمة ، لم يخلق فيه إلاَّ شهوة الغذاءِ الذى هو محتاج إليه ، ثم تظهر فيه شهوةُ اللعب والزينة ، ثم شهوةُ النكاح ، على الترتيب ، وليس له قوَّة الصبر ألبتة ؛ إذ الصبرُ عبارة عن ثبات جندٍ فى مقابلة جند آخرَ قام القتال بينهما لتضادِّ مقتضياتهما ومطالبهما ، وليس فى الصبا إلاَّ جندُ الهوى كما فى البهائِم . ولكنَّ الله تعالى بفضله وسَعة جوده أكرمَ بنى آدمَ ورفع درجتَهم عن درجة البهائِم ، فوكَّل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملَكين : أحدُهما يَهديه ، والآخر يقوِّيه ، فتميَّزَ بمعونة الملكين عن البهائِم .

فلْنسمِّ هذه الصفةَ التي بها فارق الإنسانُ البهائِم في قمع الشهوات وقهرها : باعثَ الدين ، ولنسمِّ مطالبةَ الشهوات بمقتضياتها : باعثَ الهوى وليفهمْ أن القتال قائمٌ بين باعث الدين وباعث الهوى ، والحرب بينهما سِجال ، ومعركة هذا القتال قلب العبد . وَمَدَدُ باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى ، ومدَدُ باعث الشهوةِ من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى . فالصبر عبارةٌ عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة .

بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف

اعلم أنَّ باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال :

أحدُها : أن يقهر داعيَ الهوى فلا تبقى له قوّة المنازعة ، ويتوصَّلَ إليه بدوام الصبر . وعند هذا يقال : « مَن صَبَرَ ظفر » . والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلون ، فلا جَرمَ هم الصدِّيقون المقرَّبون ، (الَّذِينَ قَالُوا ربُّنا الله ثمَّ اسْتَقَامُوا) .

الحالة الثانية : أن تَغلب دواعي الهوى وتُسقِط بالكُلِّيَّةِ منازعة باعثِ الدين فيُسْلِم نفسَه إلى جُند الشياطين ، ولا يجاهد ليأسِه من المجاهدة ، وهؤلاء هم الغافلون وهم الأكثرون ، وهم الذين استرقَّتهم شهواتهم وغلبت عليهم شِقوتُهم ، فحكَّموا أعداءَ الله في قلوبهم التي هي سرٌّ من أسرار الله تعالى ، وأمرٌ من أمور الله . وإليهم الإشارة بقوله تعالى : (وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ).

الحالة الثالثة : أن يكون الحرب سجالاً بين الجندين ، فتارة له اليدُ عليها ، وتارة لها عليه . وهذا من المجاهدين يعدُّ مثله لا من الظافرين . وأهل هذه الحالة هم الذين (خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) .

وينقسم الصبر أيضاً باعتبار اليسر والعسر إلى : ما يشقُّ على النفس فلا يمكن الدوامُ عليه إلا بجهدٍ جهيد وتعب شديد ، ويسمى ذلك تصبُّراً وإلى ما يكون من غير شدةٍ تعبٍ بل يحصُل بأدنى تحاملٍ على النفس ، ويخصُّ ذلك باسم الصبر . وإذا دامت التقوى وقوىَ التصديق بما فى العاقبة من الحسنى تيسَّر الصبر ، ولذلك قال تعالى : (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى واتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لليُسرَى) .

واعلم أن الصبر أيضاً ينقسم باعتبار حكمه إلى فرضٍ ، ونفل ، ومكروه ، ومحرم .

فالصبر عن المحظورات فرضٌ ، وعلى المكاره نفل ، والصبر على الأذى المحظور محظور ، كمن تقطع يده أو يد ولده وهو يصبر عليه ساكتاً . وكمن يُقصَدُ حريمُه بشهوة محظورة فتهيج غَيرته فيصبر عن إظهار الغيرة ، ويسكت على ما يجرى على أهله . فهذا الصبر محرَّم . والصبر المكروه هو الصَّبر على أذى يناله بجهةٍ مكروهة فى الشرع .

الشطر الثاني من الكتاب في الشكر

وله ثلاثة أركان :

الأول : فى فضيلة الشكر وحقيقته وأقسامه وأحكامه .

الثانى : فى حقيقة النعمة وأقسامها الخاصة والعامة .

الثالث : فى بيان الأفضل من الشكر والصبر .

الركن الأول : في نفس الشكر

بيان فضيلة الشكر

اعلم أن الله تعالى قَرَن الشُّكر بالذكر فى كتابه ، مع أنَه قال : (وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ) فقال تعالى : (فَاذْكُرُونى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لى

وَلَا تَكْفُرُونَ)، وقال تعالى: (مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُم وَآمَنْتُمْ) ، وقال تعالى : (وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ) .

وأما الأخبار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » .

ولما نزل فى الكنوز ما نزل ؛ قال عمر رضى الله عنه : أىَّ المال نتخذ ؟ فقال عليه السلام : « ليتخذ أحدُكم لساناً ذاكراً ، وقلباً شاكراً » . فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلاً عن المال .

وقال ابن مسعود : الشكر نصف الإيمان .

بيان حد الشكر وحقيقته

اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين ، وهو أيضاً ينتظم من علم وحال وعمل .

فالعلم هو الأصل فيورث الحال ، والحال يورث العمل .

فأما العلم فهو معرفة النعمة من النعم ، والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه ؛ والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه . ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان ، ولابد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعِهِ الإحاطةُ بحقيقة الشكر .

فالأصل الأول : العلم ، وهو علم بثلاثة أمور : بعين النعمة ؛ ووجه كونها نعمةً فى حقه ، وبذات المنعم ووجود صفاته التى بها يتمُّ الإنعام ويصدر الإنعامُ منه عليه .

الأَصلُ الثانى : الحال المستَمَدة من أصل المعرفة ، وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع ، وهو أيضاً فى نفسه شكرٌ على تجرّده ، كما

أنَّ المعرفة شكر ، ولكنْ إنما يكون شكراً إذا كان حاوياً شرطَه ، وشرطه أن يكون فرحك بالْمُنعِمِ لا بالنعمة ولا بالإنعام .

الأَصل الثالث : العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المُنعِم . وهذا العمل يتعلَّق بالقلب وباللسان وبالجوارح . أما بالقلب : فقصد الخير وإضماره لكافَّة الخلق . وأَما باللسان : فإظهار الشُّكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه . وأَما بالجوارح : فاستعمالُ نِعَم الله تعالى فى طاعته ، والتوقِّى من الاستعانة بها على معصيته ، حتَّى إن شكر العينين : أن تستر كلَّ عيب تراهُ لمسلم . وشكر الأُذنين : أن تستر كل عيبٍ تسمعه فيه ، فيدخل هذا فى جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأَعضاءِ . والشكر باللسان : لإظهار الرضا عن الله تعالى ؛ وهو مأْمورٌ به .

فَأَمَّا قولُ من قال إن الشكر هو الاعترافُ بنعمة المُنعِم على وجهِ الخضوعِ فهو نظرٌ إلى فعل اللسان مع بعض أَحوال القلب . وقولُ من قال إن الشكر هو الثناءُ على المُحسِن بذكر إحسانه نظرٌ إلى مجرَّدِ عمل اللسان . وقول القائل : إن الشكر هو الاعتكاف على بساط الشُّهود بإدامة حفظ الحرمة ، جامعٌ لأَكْثَرِ معانى الشكر ، لا يشذُّ منه إلاَّ عمل اللسان .

وقول حَمْدونَ القصَّارِ : « شُكر النعمة : أَن ترى نفسك فى الشكر طفيلياً » : إشارةٌ إلى أَن معنى المعرفة من معانى الشكر فقط .

وقول الجُنيد : الشكر أَن لا ترى نفسَك أَهلاً للنعمة : إشارةٌ إلى حال من أَحوال القلب على الخصوص .

وهؤُلاءِأَقوالُهم تُعرِبُعن أَحوالهم ، فلذلك تختلفأَجوبتُهم ولا تتَّفق .

الركن الثاني من أركان الشكر

ما عليه الشكر

وهو النعمة ، فلْنذكر فيه حقيقةَ النعمة ، وأقسامَها ، ودرجاتِها ، وأصنافَها ، ومَجامعها فيما يخصّ ويعم ؛ فإنَّ إحصاء نِعَم الله على عبادِهِ خارجٌ عن مقدور البشر ، كما قال تعالى : (وإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا) . فنقدِّم أموراً كليَّة تجرى مَجرى القوانين فى معرفة النِّعَم ، ثم نشتغل بذكر الآحاد . والله الموفِّق للصواب .

بيان حقيقة النعمة وأقسامها

اعلم أنَّ كل خيرٍ ولذةٍ وسعادةٍ ، بل كل مطلوب ومُؤْثَر فإنَّه يسمَّى نعمة ، ولكن النعمة بالحقيقة هى السعادة الأُخروية ، وتسميةُ ما سواها نعمةً وسعادة إما غلطٌ وإما مجاز ، كتسمية السعادة الدنيوية التى لا تُعين على الآخرة نعمة ؛ فإن ذلك غلطٌ محض .

والأَسباب المعِينَة واللَّذَّات المسمَّاةُ نعمةً نشرحها بتقسيمات :

القسمة الأُولى : أنَّ الأُمور كلَّها بالإضافة إلينا تنقسم إلى ما هو نافع فى الدنيا والآخرة جميعاً : كالعلم وحُسن الخلق ؛ وإلى ما هو ضارٌّ فيهما جميعاً : كالجهل وسوءِ الخلق ؛ وإلى ما ينفع فى الحال ويضرُّ فى المآل : كالتلذذ باتباع الشهوات ؛ وإلى ما يضر فى الحال ويؤْلم ولكن ينفع فى المآل : كقمع الشهوات ومخالفة النفس . فالنافع فى الحال والمآل هو النعمة تحقيقاً كالعلم وحسن الخلق ، والضار فيهما هو البلاءُ تحقيقاً وهو ضدُّهما ، والنافع فى الحال المضرُّ فى المآل بلاءٌ محض عند ذوى البصائرِ ، وتظنّه الجهَّال نعمة . ومثاله الجائعُ إذا وجد عسلاً فيه سم ،

فإنه يعدّه نعمةً إن كان جاهلا ، وإذا عَلِمَهُ عَلِم أنَّ ذلك بلاءٌ سِيقَ إليه .
والضارُّ فى الحال النافعُ فى المآل نعمةٌ عند ذوى الألباب ، بلاءٌ عند الجهال .
ومثاله الدواءُ البشع فى الحالِ مَذاقُهُ ، إلاَّ أنه شافٍ من الأمراض والأسقام ،
وجالبٌ للصحة والسلامة . فالصبى الجاهلُ إذا كُلِّفَ شُرْبَه ظنَّه بلاءً ،
والعاقل يعدُّه نعمةً ويتقلَّد المنة ممن يهديه إليه ويقرّبه منه ويهيئُ له أسبابه
فلذلك تمنع الأمُّ ولدها من الحِجامة ، والأب يدعوه إليها ؛ فإن الأبَ
لكمال عقله يلمحُ العاقبة ، والأُمُّ لفرط حبِّها وقصورها تلحظ الحال ،
والصبيُّ لجهله يتقلَّد مِنَّةً من أُمه دون أبيه ويأْنس إليها وإلى شفقتها ،
ويقدِّرُ الأَبَ عدوًّا له . ولو عَقَل لعلم أنَّ الأُم عدوٌّ باطنٌ فى صورةِ صديق ،
لأنَّ منعَها إياه من الحجامة يسوقُه إلى أمراضٍ وآلام أشدّ من الحجامة .
ولكنَّ الصديق الجاهل شر من العدو العاقل .

قسمة ثانية : اعلم أنَّ الأسباب الدنيوية مختلطة قد امتزج خيرُها بشرِّها ، فقلَّما يصفو خيرها ، كالمال والأهل ، والولد والأقارب ، والجاه وسائِر الأسباب ، ولكن تنقسم إلى ما نَفعُه أكثرُ من ضره ، كقَدر الكفاية من المال والجاه وسائِر الأسباب ، وإلى ما ضرُّه أكثر من نفعه فى حق أكثر الأشخاص كالمال الكثير والجاه الواسع ، وإلى ما يكافئُ ضررُه نفعه . وهذه أمورٌ تختلف بالأشخاص ؛ فربَّ إنسان صالح ينتفع بالمال الصالح ، وإن كثر فينفقه فى سبيل الله ويصرفه إلى الخيرات ، فهو مع هذا التوفيق نعمةٌ فى حقِّه .

قسمة ثالثة : اعلم أنَّ الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ما هو مُؤْثَر لذاته لا لغيره ، وإلى مُؤْثَر لغيره ، وإلى مؤثر لذاته ولغيره .

فالأوّلُ : مايؤْثر لِذَاته لالغيره : كلذَّة النظر إلى وجه الله تعالى وسعادة

لقائه ، وبالجملة سعادةُ الأُخرى التى لا انقضاء لها ، فإنّها لا تُطلب ليتوصَّل بها إلى غاية أُخرى مقصودة وراءها ، بل تطلب لِذَاتها .

الثانى : ما يُقصد لغيره ولا غرضَ أصلاً فى ذاته : كالدراهم والدنانير ، فإنَّ الحاجة لو كانت لا تنقضى بها لكانت هى والحصباءُ بمثابة واحدة ، ولكن لمَّا كانت وسيلةً إلى اللذات سريعةَ الإيصال إليها صارت عند الجهال محبوبة فى نفسها حتَّى يجمعوها ويَكْنِزوها ويتصارفوا عليها بالربا ويظنون أنها مقصودة .

قسمة رابعة : اعلم أنَّ الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى نافع ، ولذيذ ، وجميل . فاللذيذ هو الذى تُدرَكُ راحتُه فى الحال . والنافع هو الذى يفيد فى المآل . والجميل هو الذى يُستحسَن فى سائِر الأَحوال .

قسمة خامسة : اعلم أنَّ النعمة يعبَّر بها عن كلٍّ لذيذ ، واللذات بالإضافة إلى الإنسان من حيث اختصاصه بها أو مشاركته لغيره ثلاثةُ أنواع : عقلية ، وبدنية مشتركة مع بعض الحيوانات ، وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات .

أما العقلية فكلذَّة العِلْمِ والحكمة ، إذْ ليس يستلذُّها السمع والبصر والشم والذَّوق ، ولا البطنُ ولا الفَرْج ، وإنما يستلذُّها القلب لاختصاصه بصفةٍ يعبر عنها بالعقل ، وهذه أقلُّ اللذات وجوداً ، وهى أشرفُها .

الثانية : لذَّة يشارك الإنسان فيها بعض الحيوانات ، كلذة الرياسة والغلبة والاستيلاء ، وذلك موجودٌ فى الأَسد والنمر وبعض الحيوانات .

الثالثة : ما يشارك فيها سائرَ الحيوانات كلذة البطن والفرج ، وهذه أكثرُها وجوداً وهى أخسُّها ، ولذلك اشترك فيها كل ما دبَّ ودرج ، حتَّى الديدان والحشرات .

قسمة سادسة حاوية لمجامع النعم : اعلم أنَّ النعم تنقسم إلى ما هى غايةٌ

مطلوبةٌ لذاتها وإلى ما هى مطلوبةٌ لأجل الغاية ؛ أما الغاية فإنها سعادة الآخرة ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور : بقاءٌ لا فناءَ له ، وسرورٌ لا غَمَّ فيه ، وعِلم لا جَهْلَ معه ، وغِنًى لا فقر بعده ، وهى النعمة الحقيقية ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا عيشَ إلاَّ عيشُ الآخرة » . وقال ذلك مرَّة فى الشدّة تسليةً للنفس ، وذلك فى وقت حفر الخندق فى شدة الضرّ . وقال ذلك مَرَّةً فى السرور منعاً للنفس من الرُّكون إلى سرور الدنيا ، وذلك عند إحداق الناس به فى حجَّة الوداع .

وقال رجل : اللهم إنى أسألك تمامَ النعمة . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « وهل تَعلم ما تمامُ النعمة ؟ » . قال : لا . قال : « تمام النِّعمة دخول الجنة » .

وأما الوسائِل فتنقسم إلى الأَقرب الأَخصِّ ، كفضائِل النفس . وإلى ما يليه فى القرب ، كفضائِل البدن وهو الثانى . وإلى ما يليه فى القرب ويجوز إلى غير البدن ، كالأَسباب المُطِيفة بالبدن من المال والأَهل والعشيرة . وإلى ما يجمع بين هذه الأَسباب الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والهداية . فهى إذن أربعة أنواع :

النوع الأَول وهو الأَخصُّ : الفضائل النفسية ، ويرجع حاصلها مع انشعاب أطرافها إلى الإيمان وحُسن الخلق . وينقسم الإيمان إلى علم المكاشفة وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله ، وإلى علوم المعاملة . وحسن الخلق ينقسم إلى قسمين : ترك مقتضى الشهوات والغضب ، واسمه العفَّة. ومراعاة العدل فى الكفّ عن مقتضى الشهوات والإقدام حتى لا يمتنع أصلا ، ولا يقدم كيف شاء ، بل يكونُ إقدامُه وإحجامه بالميزان العدل الذى أنزله الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، إذْ قال

تعالى : (أن لاَّ تطْغَوْا فِى المِيزَانِ * وأقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الميزان) . فمن خَصَى نفْسَه ليزيل شهوة النكاح ، أو تركَ النكاح مع القدرة والأمن من الآفات ، أو ترك الأكلَ حتى ضعف عن العبادة والذكرِ والفكر ، فقد أخسَرَ الميزان . ومن انْهمَكَ فى شهوة البطن والفرْج فقد طغَى فى الميزان ، وإنما العدل أن يخلوَ وزنه وتقديره عن الطُّغيان والخسران ، فتعتدل به كِفّتا الميزان .

فإذَن الفضائِل الخاصة بالنفس المقرِّبة إلى الله تعالى أربعة : علم مكاشفة ، وعلم معاملة ، وعفة ، وعدالة . ولا يتم هذا فى غالب الأمرِ إلاَّ بالنوع الثانى وهو الفضائل البدنية وهى أربعة : الصحة ، والقوة ، والجمال ، وطول العمر . ولا تتهيَّأُ هذه الأُمور الأَربعة إلاَّ بالنوع الثالث ، وهى النعم الخارجة المطيفة بالبدن وهى أربعة : المال ، والأهل ، والجاه ، وكرم العشيرة . ولا ينتفع بشىء من هذه الأسباب الخارجة والبدنية إلا بالنوع الرابع ، وهى الأسباب التى تجمع بينهَا وبين ما يناسب الفضائل النفسية الداخلة وهى أربعة : هداية الله ، ورشده ، وتسديده ، وتأْييده . فمجموع هذه النعم ستة عشر إذا قسمناها إلى أربعةوقسمنا كل واحدة من الأربعة إلى الأربعة .

وهذه الجملة يحتاج البعض منها إلى البعض ، إمَّا حاجة ضروريَّة أو نافعة .

أما الحاجة الضروريَّةُ فكحاجة سعادةِ الآخرة إلى الإيمان وحُسْنِ الخُلُق ، إذْ لا سبيل إلى الوصول إلى سعادة الآخرة ألبتَّةَ إلا بهما . فليس للإنسان إلاَّ ما سعَى ، وليس لأحد فى الآخرة إلا ما تزوَّد من الدنيا ، فكذلك حاجةُ الفضائِل النفسية التى تكسب هذه العلومَ ، وتهذيبالأخلاق إلى صحة البدن ضرورى .

وأما الحاجة النافعة على الجملة فكحاجة هذه النعم النفسيَّة والبدنيَّة إلى النعم الخارجة ، مثل المال والعز والأَهل ، فإنَّ ذلك لو عُدِم ربَّما تطرَّق الخلل إلى بعض النعم الداخلة .

بيان وجه الأُنموذج في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء

اعلم أنَّا جمعنا النعم فى ستة عشر ضرباً ، وجعلنا صحة البدن نعمةً من النعم الواقعة فى الرتبة المتأَخرة . فهذه النعمةُ الواحدة لو أَردنا أَن نستقصىَ الأَسبابَ التى بها تمَّت هذه النعمةُ لم نَقدرْ عليها ، ولكن الأَكلَ أَحدُ أَسباب الصحة . فلْنذكر نُبذةً من جملة الأَسباب التى بها تمّ نعمةُ الأَكل . فلا يخفى أن الأَكل فعل ، وكل فعل من هذا النوع فهو حركة ، وكل حركة لابدّ لها من جسم متحرّك هو آلتها ، ولا بدَّ لها من قدرة على الحركة ، ولابدَّ لها من إرادة للحركة ، ولا بدَّ من علمٍ بالموادّ وإدراكٍ له . ولابدَّ للأَكلِ من مأْكول ، ولا بدَّ للمأْكول من أَصلٍ منه يحصل ، ولابدَّ له من صانع يصلحه . فلْنذكر أَسباب الإدراك ، ثم أَسباب الإرادات ، ثم أَسباب القدرة ، ثم أَسباب المأْكول على سبيل التلويح لا على سبيل الاستقصاء .

الطرف الأَول : في نعم الله تعالي في خلق أَسباب الإدراك

اعلم أَنَّ الله تعالى خلق النباتَ وهو أَكملُ وجوداً من الحجر والمدر ، والحديد والنحاس ، وسائر الجواهر التى لا تَنمِى ولا تَغذَّى ؛ فإنَّ النبات خلق فيه قُوَّةً بها يجتذب الغذاءَ إلى نفسه من جهة أَصله وعروقه التى فى الأَرض ، وهى له آلات ، فبها يجتذب الغذاء ، وهى العروق الدقيقة التى تراها فى كلِّ ورقة ثم تغلظ أُصولُها ، ثم تتشعَّب ، ولا تزال تستدقّ وتتشعب إلى عروق شَعْرية تنبسط فى أَجزاءِ الورقة حتَّى تغيب

عن البصر . إلاَّ أنَّ النباتَ مع هذا الكمال ناقص ، فإنه إذا أعوزه غذاءٌ يساق إليه ويماسُّ أصله جفَّ ويبس ، ولم يمكنْه طلبُ الغذاء من موضع آخر ، فإن الطلب إنما يكون بمعرفة المطلوب وبالانتقال إليه . والنباتُ عاجز عن ذلك .

فمن نعمة الله تعالى عليك أن خلق لك آلاتِ الإحساس ، وآلةَ الحركة فى طلب الغذاء . فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى فى خلق الحواسّ الخمس التى هى آلة الإدراك .

فأَوَّلُها حاسة اللمس . وإنما خُلقت لك حتَّى إذا مسَّتك نار محرقةٌ أو سيف جارح تحسُّ به فتهرب منه . وهذا أوّل حسٍّ يُخلَقُ للحيوان ، ولا يتصور حيوان إلاَّ ويكون له هذا الحسّ ، لأنَّه إذا لم يحسَّ أصلاً فليس بحيوان . وأنقصُ درجاتِ الحس أن يحسَّ بما يلاصقه ويماسّه ، فإن الإحساس مما يبعد منه إحساس أتمّ لا محالة . وهذا الحس موجودٌ لكل حيوان ، حتَّى الدودة التى فى الطين ، فإنها إذا غُرز فيها إبرةٌ انقبضت للهرب ، لا كالنبات فإنَّ النبات يقطع فلا ينقبض ، إذ لا يحسُّ بالقطع . إلاَّ أنَّك لو لم يُخلَق لك إلا هذا الحسُّ لكنت ناقصاً كالدودة لا تقدر على طلب الغذاء من حيث يبعدُ عنك ، بل ما يمسّ بدنك ، فتحس به فتجذبه إلى نفسك فقط .

فافتقرتَ إلى حسٍّ تدرك به ما بَعُدَ عنك ، فخلق لك الشمّ ، إلا أنك تدرك به الرائحة ولا تدرى أنها جاءت من أىِّ ناحية ، فتحتاج إلى أن تطوف كثيراً من الجوانب فربَّما تعثر على الغذاء الذى شَمِمت ريحه ، وربما لم تعثر ، فتكون فى غاية النقصان لو لم يخلق لك إلا هذا .

فخلق لك البصر لتدرك به ما بَعُدَ عنك ، وتدرك جهته ، فتقصد

تلك الجهة بعينها ، إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصاً ، إذ لا تدرك بهذا ما وراء الجدران والحجب ، فتبصر غذاءً ليس بينك وبينه حجاب ، وتبصر عَدُوّا لا حجاب بينك وبينه ؛ وأما ما بينك وبينه حجاب فلا تبصره ، وقد لا ينكشف الحجاب إلا بعد قرب العدوّ فتعجِز عن الهرب .

فخلق لك السمعَ حتّى تدرك به الأصوات من وراء الجدران ، والحجبَ عند جريان الحركات ، لأنك لا تدرك بالبصر إلا شيئاً حاضراً وأما الغائِب فلا يمكنك معرفته إلا بكلام ينتظم من حروف وأصوات تُدرَك بحس السمع ، فاشتدّت إليه حاجتك .

فخلق لك ذلك[1] ، وميَّزَكَ بفهم الكلام عن سائِر الحيوانات . وكلٌّ ذلك ما كان يغنيك لو لم يكن لك حسُّ الذوق ، إذ يصلُ الغذاءُ إليك فلا تدرك أنه موافق لك أو مخالف، فتأكله فتهلك ، كالشجرة يصبُّ فى أصلها كلُّ مائعٍ ولا ذوق لها فتجذبه ، وربما يكون ذلك سببَ جفافها.

ثم كل ذلك لا يكفيك لو لم يُخلق فى مقدمة دماغك إدراكٌ آخر يسمى حسًّا مشتركاً ، تتأدّى إليه هذه المحسوسات الخمس وتجتمع فيه ولولاه لطال الأمرُ عليك ؛ فإنك إذا أكلت شيئاً أصفرَ مثلا فوجدته مُرّاً مخالفاً لك فتركته ، فإذا رأيته مرة أخرى فلا تعرف أنه مرٌّ مضر ما لم تذقه ثانياً لولا الحسُّ المشترك ؛ إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة ، فكيف تمتنع والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة ، فلا بدّ من حاكم تجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعاً ، حتى إذ أردت الصفرة حكَم أنه مُرٌّ فيمتنع عن تناوله ثانياً . وهذا كله تشاركك فيه الحيوانات؛ إذْ للشاة هذه الحواسُّ كلها ؛ فلو لم يكن لك إلاَّ هذا لكنت ناقصاً ؛

(١) يعنى الكلام .

فإنَّ البهيمة يحتال عليها فتؤْخذ فلا تَدرِى كيف تدفع الحيلة عن نفسها ، وكيف تتخلَّص إذا قُيدت ؛ وقد تُلقِى نفسهَا فى بئر ولا تدرى أنَّ ذلك يُهلِكُها ؛ ولذلك قد تأْكل البهيمة ما تستلُّذه فى الحال ويضرها فى ثانى الحال ، فتمرض وتموت ؛ إذ ليس لها إلاَّ الإحساس بالحاضر ؛ فأَما إدراك العواقب فلا .

فميزك الله تعالى وأكرمك بصفة أُخرى هى أشرفُ من الكلِّ وهو العقل ، فَبهِ تُدْرِكُ مضرَّة الأَطعمة ومنفعتَها فى الحال والمآل ، وبه تدرك كيفية طبخ الأَطعمة وتأْليفها ، وإعداد أسبابها ، فتنتفع بعقلك فى الأَكل الذى هو سببُ صحتك . وهو أَحسنُ فوائدِ العقل .

الطرف الثاني : في أَصنافِ النعم في خلق الإرادات

اعلم أَنه لو خُلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من بُعْد ولم يُخلَق لك ميلٌ فى الطبع وشوقٌ إليه وشهوة له تستحثُّك على الحركة ، لكان البصر معطَّلا . فكم من مريضٍ يرى الطعام ، وهو أَنفع الأَشياء له ، وقد سقطت شهوته فلا يتناوله ، فيبقى البصر والإدراك معطَّلا فى حقه . فاضطرِرتَ إلى أن يكون لك ميلٌ إلى ما يوافقك يسمَّى شهوة ، ونُفْرةٌ عمّا يخالفك تسمى كراهة ، لتطلُب بالشهوة وتَهرب بالكراهة . فخلق الله تعالى فيك شهوةَ الطعام وسلَّطها عليك ووكَّلها بك كالمتقاضى الذى الذى يضطرّك إلى التناول ، حتّى تتناول وتغتذى فتبقى بالغذاء . وهذا مما يشاركك فيه الحيوانات دون النبات . ثم هذه الشهوة لو لم تسكنْ إذا أَخذت مقدار الحاجة أَسرفْتَ وأَهلكت نفسَك . فخلق الله لك الكراهة عند الشبع لتترك الأَكلَ بها ، لا كالزرع ؛ فإنه لا يزال يجتذبُ الماء إذا انصبَّ فى أَسفله حتى يفسد ، فيحتاج إلى آدمىّ يقدر غذاءه بقدر الحاجة ، فيسقيه مرّة ويقطع عنه الماء أُخرى .

الطرف الثالث

في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة

اعلم أن الحسَّ لا يُفيد إلاَّ الإدراك ، والإرادة لا معنَى لها إلاَّ الميلُ إلى الطلب والهرب ، وهذا لا كفاية فيه ما لم تكن فيك آلة الطلب والهرب . فكم من مريض مشتاقٍ إلى شيء بعيد عنه مدرَك له ، ولكنه لا يمكنه أن يمشى إليه لفقد رِجله ، أو لا يمكنه أن يتناوله لفقد يده لفالج[1] وخَدَر فيهما . فلابدّ من آلاتٍ للحركة ، وقدرةٍ فى تلك الآلات على الحركة ، لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلباً ، وبمقتضى الكراهية هرباً . فلذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء التى تنظر إلى ظاهرها ، ولا تعرف أسرارها ؛ فمنها ما هو للطلب والهرب ، كالرِّجل للإنسان ، والجناحِ للطير ، والقوائِم للدواب ؛ ومنها ما هو للدفع ، كالأسلحة للإنسان ، والقرون للحيوان .

فلنذكر الأعضاء التى بها يتم الأكلُ فقط ليُقاس عليها غيرها فنقول :

رؤيتك الطعام من بُعْد وحركتُك إليه لا تكفى ما لم تتمكن من أنْ تأْخذَه ، فافتقرتَ إلى آلة باطشة ، فأنعم الله تعالى عليك بخَلْقِ اليدين ، وهما طويلتان ممتدَّتان إلى الأشياء ، ومشتملتان على مفاصلَ كثيرةٍ لتتحرك فى الجهات ، فتمتدُّ وتنثنى إليك ، فلا تكون كخشَبة منصوبة . ثم جعل رأس اليد عريضاً بخَلْق الكف . ثم قَسَّم رأس الكفِّ بخمسة أقسامٍ هى الأصابع ، وجعلها فى صفين بحيث يكون الإبهام فى جانبٍ ويدور على الأربعة الباقية ، ولو كانت مجتمعة أو متراكمة لم يحصل بها تمامُ غرضك ، فوضعها وضعاً إنْ بسطتها كانت لك مِجرفة ، وإن ضممتها

(١) الفالج : تعطل وعجز فى شق الإنسان .

كانت لك مِغرفة ، وإن جمعتها كانت لك آلة للضرب ، وإن نشرتَها ثم قبضتَها كانت لك آلةً فى القبض . ثم خلق لها أظفاراً وأسند إليها رءوسَ الأصابع حتى لا تتفتت ، وحتى تلتقطَ بها الأشياءَ الدقيقة التى لا تحويها الأصابع ، فتأخذها برءُوس أظفارك .

ثم هب أنك أخذتَ الطعامَ باليدين فمن أين يكفيك هذا ما لم يصل إلى المعدة وهى فى الباطن ، فلابدَّ وأن يكون من الظاهر دِهليزٌ إليها حتى يدخل الطعام منه ، فجعل الفم منفذاً إلى المعدة ، مع ما فيه من الحكم الكثيرة سِوى كونه منفذاً للطعام إلى المعدة .

ثم إن وضعت الطعام فى الفم وهو قطعة واحدة فلا يتيسر ابتلاعُه ، فتحتاج إلى طاحونة تطحن بها الطعام ، فخلق لك اللَّحيين من عظمتين ، وركَّب فيهما الأسنانَ وطبَّق الأضراسَ العليا على السفلى لتطحن بهما الطعام طحناً . ثم الطعام تارة يحتاج إلى الكسر ، وتارة إلى القطع ثم يحتاج إلى طَحن بعد ذلك ، فقسَّم الأسنان إلى عريضة طواحين كالأضراس وإلى حادَّة قواطع كالرَّباعَيات ، وإلى ما يصلُح للكسر كالأنياب ، ثم جعل مفصل اللحيين متخلخلاً بحيث يتقدَّم الفك الأسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الأعلى دورانَ الرحى ، ولولا ذلك لما تيسر إلاَّ ضربُ أحدهما على الآخر ، مثل تصفيق اليدين مثلا . وبذلك لا يتمُّ الطحن . فجعل اللَّحى الأسفلَ متحرِّكا حركة دورية ، واللحى الأعلى ثابتاً لا يتحرك . فانظر إلى عجيب صنع الله تعالى .

ثم هبْ أنك قطعتَ الطعام وطحنتَه وهو يابسٌ فلا تقدر على الابتلاع إلاَّ بأن ينزلق إلى الحلق بنوع رطوبة . فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عيناً يفيض اللعابُ منها ، وينصبُّ بقدر الحاجة حتَّى يتعجَّن به الطعام . فانظر كيف سخَّرها لهذا الأمر ، فإنَّك ترى الطعام من بُعد فيثور

الحنكان للخدمة ، وينصبُّ اللعابُ حتى تتحلّب أشداقُك والطعامُ بعْدُ بعيدٌ عنك .

ثم هذا الطعام المطحون المنعجن مَنْ يوصله إلى المعدة وهو فى الفم ، ولا تقدر على أن تدفعه باليد، ولا يَدَ فى المعدة حتّى تمتد فتجذبَ الطعام . فانظر كيف هيأ الله تعالى المرىء والحنجرة ، وجعل على رأسها طبقات تتفتّح لأخذ الطعام ثم تنطبق وتضغط ، حتى يتقلب الطعام بضغطه فيهوى إلى المعدة فى دهليز المرىء .

فإذا ورد الطعامُ على المعدة وهو خبزٌ وفاكهة مقطّعة فلا يصلح لأن يصير لحماً وعظماً ودما على هذه الهيئَة ، بل لابدَّ وأن يطبخ طبخاً تاماً حتى تتشابه أجزاؤه ، فخلق الله تعالى المعدةَ على هيئة قِدْرٍ ، فيقع فيها الطعامُ فتحتوى عليه وتُغلَق عليه الأَبواب ، فلا يزالُ لابثاً فيها حتّى يتمَّ الهضم والنُّضج بالحرارة التى تحيط بالمعدة من الأَعضاءِ الباطنة ، إذ من جانبها الأَيمن الكبد ، ومن الأَيسر الطِّحال ، ومن قُدّامٍ الترائبُ ، ومن خلفٍ لحم الصلب ، فتتعدّى الحرارة إليها من تسخين هذه الأَعضاءِ من الجوانب ، حتى ينطبخ الطعام ويصير مائعاً متشابهاً ، يصلح للنفوذ فى تجاويف العروق ، وعند ذلك يشبه ماءَ الشعير فى تشابه أجزائِه ورقّته ، وهو بعد لا يصلح للتغذية .

فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجارىَ من العروق ، وجعل لها فوّهات كثيرة حتى ينصبَّ الطعام فيها فينتهى إلى الكبد ؛ والكبد معجونٌ من طينة الدَّمِ حتى كأنه دم ، وفيه عروقٌ كثيرة شَعرية منتشرةٌ فى أجزاءِ الكبد ، فينصبُّ الطعام الرقيق النافذ فيها ، وينتشر فى أجزائها حتّى تستولى عليه قوةُ الكبد فتصبغه بلون الدم ؛ فيستقر فيها ريثما يحصلُ

له نضجٌ آخر ، ويحصل له هيئةَ الدم الصافى لغذاء الأعضاء ؛ إلاَّ أنَّ حرارة الكبد هى التى تنضج هذا الدم ، فيتولد من هذا الدم فضلتان ، كما يتولد فى جميع ما يطبخ : إحداهما شبيهة بالدُّردى[1] والعكَر ، وهو الخِلْط السَّوداوى ؛ والأُخرى شبيهة بالرغوة وهى الصَّفراءُ . ولو لم تفصل عنها الفضلتان فسَد مِزاج الأعضاء ، فخلق الله تعالى المرارة والطِّحال ، وجعل لكلٍّ واحدٍ منهما عُنقاً ممدوداً إلى الكبد داخلاً فى تجويفه ، فتجذب المرارة الفضلةَ الصفراوية ، ويجذب الطحال العكَر السوداوىّ ، فيبقى الدمُ صافياً ليس فيه إلا زيادةُ رقَّةٍ ورطوبة ، لما فيه من المائية ، ولولاها لما انتشر فى تلك العروق الشعرية ، ولا خرج منها متصاعداً إلى الأَعضاء .

فخلق الله سبحانه الكليتين وأخرج من كلٍّ واحدةٍ منهما عنقاً طويلاً إلى الكبد . ومن عجائب حكمة الله تعالى أن عنقهما ليس داخلاً فى تجويف الكبد ، بل متصل بالعروق الطالعة من حَدَبة الكبد حتى يجذب ما يليها بعد الطُّلوع من العروق الدقيقة التى فى الكبد ؛ إذْ لو اجتذب قبل ذلك لغلظ ولم يخرج من العروق ، فإذا انفصلت منه المائية فقد صار الدمُ صافياً من الفضلات الثلاث ، نقياً من كل ما يُفسِد الغذاءَ .

ثم إن الله تعالى أَطلَعَ من الكبد عُروقاً ، ثم قسَّمها بعد الطلوع أقساماً ، وشعَّب كل قسم بشُعَب ، وانتشر ذلك فى البدن كلّه من الفَرْق[2] إلى القَدَم ظاهراً وباطناً ، فيجرى الدمُ الصافى فيها ويصل إلى سائِر الأَعضاء ، حتَّى تصير العروقُ المنقسمة شعريّةً كعروق الأَوراق والأَشجار ، بحيث لا تُدرك بالأَبصار ؛ فيصل منها الغذاءُ بالرَّشْح إلى سائِر الأَعضاء .

---

(١) الدردى : هو من الزيت وغيره ما يبقى فى أسفله .

(٢) الفرق : موضع المفرق من الرأس .

ولو حلَّت بالمرارة آفة فلم تجذب الفضلة الصَّفراوية فسد الدمُ وحصل منه الأمراض الصفراوية كاليَرَقان . وإنْ حلَّت بالطِّحال آفةٌ فلم يجذب الخِلط السوداوىَّ حدثت الأَمراض السوداوية كالبَهَق والجُذام والماليخوليا وغيرها . وإنْ لم تندفع المائية نحو الكُلَى حدث منه الاستسقاءُ وغيره .

ثم انظر إلى حكمة الفاطر الحكيم كيف رتَّب المنافع على هذه الفضلات الثلاث الخسيسة :

أما المرارة فإنها تجذبُ بأَحد عنقيها وتقذف بالعنق الآخر إلى الأَمعاء ليحصل له فى ثُفل الطعام رطوبةٌ مُزْلقة ، ويحدث فى الأَمعاء لذغٌ يحركها للدفع ، فتنضغط حتى يندفع الثفل وينزلق ، وتكون صُفرته لذلك.

وأما الطِّحال فإنه يُحيل تلك الفضلة إحالةً يحصلُ بها فيه حموضة وقبض . ثم يرسل منها كلَّ يوم شيئاً إلى فم المعدة فيحرك الشهوة بحموضته وينبِّهها ويثيرها ، ويخرج الباقى مع الثفل .

وأما الكُلية فإنها تغتذى بما فى تلك المائية من دَم وترسل الباقىَ إلى المثانة .

ثم انظُرْ كيف ربَطَ الله تعالى قِوامَ هذه الأَعضاء وقِوامَ منافعها وإدراكاتها وقُواها ، ببخار لطيفٍ يتصاعد من الأَخلاط الأَربعة ، ومستقرُّه القلب ، ويسرى فى جميع البدن بواسطة العروق الضوارب ، فلا ينتهى إلى جزءٍ من أَجزاء البدن إلاَّ ويحدثُ عند وصوله فى تلك الأَجزاء ما يحتاجُ إليه من قوة حِسٍّ وإدراك ، وقوّة حركة وغيرها ، كالسِّراج الذى يدار فى أَطراف البيت فلا يصل إلى جزءٍ إلاَّ ويحصُل بسبب وصوله ضوءٌ على أَجزاء البيت من خَلق الله تعالى واختراعه ،

ولكنّه جعل السِّراج سبباً له بحكمته . وهذا البخار اللطيف هو الذى تسميه الأَطباءُ الرُّوح ، ومحلُّه القلب . ومثاله جِرم نار السراج ، والقلب له كالمِسرجة ، والدمُ الأَسود الذى فى باطن القلب له كالفتيلة ، والغذاءُ له كالزيت ، والحياةُ الظاهرة فى سائِر أَعضاءِ البدن بسببه كالضوءِ للسراج فى جملة البيت.

وكما أَن السراجَ إِذَا انقطع زيتُه انطفأَ فسراجُ الروحِ أَيْضاً ينطفئُ مهما انقطع غَذاؤُه .

وكما أَنَّ الفتيلةَ قد تحترقُ فتصير رَماداً بحيث لا تقبل الزيت فينطفئُ السراج مع كثرة الزَّيت ، فكذلك الدم الذى تشبَّث به البخار فى القلب قد يحترقُ بفرط حرارة القلب ، فينطفئُ مع وجود الغذاءِ ؛ فإِنه لا يقبل الغذاءَ الذى يبقى به الروح كما لا يقبل الرمادُ الزيت قبولاً تتشبَّث النار به .

وكما أَنَّ السراجَ تارة ينطفِئُ بسبب من داخل كما ذكرناه ، وتارة بسبب من خارج كريح عاصف ، فكذلك الروح تارة تنطفِئُ بسبب من داخلٍ وتارة بسبب من خارج ، وهو القتل .

وكما أَن انطفاءَ السِّراج بفَناءِ الزيت أَو بفساد الفتيلة ، أَو بريح عاصف ، أَو بإِطفاءِ إِنسان ، لا يكون إِلاَّ بأَسباب مقدرة فى علم الله مرتَّبة ، ويكون كلُّ ذلك بقدر ؛ فكذلك انطفاءُ الروح .

وكما أَنَّ انطفاءَ السراج هو منتهى وقت وجوده فيكون ذلك أَجلَه الذى أُجِّل فى أُمِّ الكتاب ، فكذلك انطفاءُ الروح .

وكما أَنَّ السِّراجَ إِذا انطفأَ أَظلم البيت كلُّه ، فالروح إِذا انطفأَ أَظلم البدن كله ، وفارقته أَنوارُه التى كان يستفيدُها من الروح ، وهى أَنوار الإِحساسات والقُدَر والإِرادات ، وسائِر ما يجمعُه معنى لفظ الحياة .

الطرف الرابع

في نعم الله تعالى في الأُصول التي يحصل منها الأَطعمة وتصير صالحة لأَن يصلحها الآدمي بعد ذلك بصنعته

اعلم أنَّ الأَطعمة كثيرة ، ولله فى خلقها عجائبُ كثيرة لا تُحصى ، وأسبابٌ متوالية لا تتناهى ، وذِكْرُ ذلك فى كلِّ طعامٍ مما يطول ؛ فإنَّ الأَطعمة إما أدوية ، وإما فواكه ، وإما أغذية .

فلنأْخذ الأَغذية فإنَّها الأَصل ، ولنأْخذ من جملتها حبةً من البُرّ ، ولندع سائِر الأَغذية فنقول :

إذا وجدتَ حبة أو حبات ، فلو أكلتَها فنيتْ وبقيتَ جائعاً ، فما أحوجَك إلى أن تنموَ الحبةُ فى نفسها وتزيد وتتضاعف حتى تفى بتمام حاجتك ! فخلق الله تعالى فى حبة الحنطة من القُوَى ما تَغتذِى به كما خلَق فيك ، فإن النبات إنما يفارقُك فى الحس والحركة ، . ولا يخالفك فى الاغتذاء ؛ لأَنه يغتذى بالماء وينجذب إلى باطنه بواسطة العروق كما تغتذى أنت وتجتذب . ولسنا نُطنب فى ذكر آلات النبات فى اجتذاب الغذاء إلى نفسه ، ولكن نشير إلى غذائه فنقول : كما أَنَّ الخشب والتراب لا يُغذِّيك بل تحتاج إلى طعام مخصوص ، فكذلك الحبة لا تغتذى بكل شىء بل تحتاج إلى شىء مخصوص ، بدليل أنك لو تركتَها فى البيت لم تزدْ لأَنه ليس يحيط بها إلا هواءٌ ، ومجرَّدُ الهواء لا يصلُح لغذائِها . ولو تركتها فى الماء لم تزد ، ولو تركتها فى أرضٍ لا ماء فيها لم تزد ، بل لابدَّ من أرضٍ فيها ماءٌ يمتزج ماؤُها بالأَرض فيصير طِيناً ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : (فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طعَامِه * أَنَّا صَبَبْنَا الماء صَبًّا * ثُم شَقَقْنا الأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا

وقَضْبًا * وَزَيْتُوناً ونَخْلاً ...) الآية . ثم لا يكفى الماءُ والتراب ، إذ لو تُركت فى أرض نديَّةٍ صُلبة متراكمة لم تنبتْ لفقد الهواء ، فيحتاج إلى تركها فى أرض رخوة متخلخلة يتغلغل الهواءُ إليها ، ثم الهواءُ لا يتحرك إليها بنفسه فيحتاج إلى ريح تحرك الهواءَ وتضربهُ بقهر وعنف على الأَرض حتى ينفذ فيها .

ثمَّ كلٌّ ذلك لا يُغنيك لو كان فى برد مفرطٍ وشتاءٍ شاتٍ ، فتحتاج إلى حرارة الربيع والصيف ؛ فقد بان احتياجُ غذائه إلى هذه الأَربعة . فانظر إلى ماذا يحتاج كل واحد ، إذ يحتاج الماءَ لينساق إلى أرض الزراعة من البحار والعيون والأَنهار والسواقى . فانظر كيف خلق الله البحار وفجر العيون وأجرى منها الأَنهار . ثم الأَرضُ ربما تكون مرتفعة والمياه لا ترتفع إليها ، فانظر كيف خلق الله تعالى الغيومَ ، وكيف سلَّط الرياح عليها لتسوقها بإذنه إلى أقطار الأَرض وهى سُحب ثقالٌ حواملٌ بالماءِ . ثم انظر كيف يرسله مدراراً على الأَراضى فى وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة. وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه تتفجَّر منها العيون تدريجاً ، فلو خرجت دفعة لغرقت البلاد وهَلَك الزرع والمَواشى . ونِعَمُ الله فى الجبال والسحاب والبحار والأَمطار لا يمكنُ إحصاؤُها. وأمَّا الحرارة فإنها لا تحصل بين الماءِ والأَرض وكلاهما باردان، فانظر كيف سخَّر الشمسَ وكيف خلقها مع بُعْدها عن الأَرض مُسَخِّنَة للأَرض فى وقتٍ دون وقت ، ليحصل البردُ عند الحاجة إلى البرد، والحرُّ عند الحاجة إلى الحر ! فهذه إحدى حِكَم الشمس ؛ والحِكَم فيها أكثرُ من أن تحصى .

ثم النبات إذا ارتفع عن الأَرض كان فى الفواكه انعقادٌ وصلابة ، فتفتقر إلى رطوبة تنضجها ، فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب ، كما جعل من خاصية الشمس التسخين ، فهو ينضج الفواكه

ويصبغها بتقدير الفاطر الحكيم ! ولذلك لو كانت الأشجار فى ظلٍّ يمنع شروقَ الشمس والقمرِ وسائِر الكواكب عليها لكانت فاسدة ناقصة ، حتى إنَّ الشجرةَ الصغيرةَ تفسد إذا ظللتْها شجرةٌ كبيرة .

الطرف الخامس

في نعم الله تعالى في الأسباب الموصلة للأطعمة إليك

اعلم أنَّ هذه الأطعمةَ كلَّها لا توجد فى مكان بل لها شروط مخصوصة لأجلها توجَدُ فى بعض الأماكن دون بعضٍ . والناس منتشرون على وجه الأرض ، وقد تبعد عنهم الأطعمة ويحول بينهم وبينها البحارُ والبرارى ، فانظر كيف سخَّر الله تعالى التجَّارَ ، وسلَّط عليهم حِرْصَ حُبِّ المال وشهوة الربح مع أنهم لا يُغنيهم فى غالب الأمر شئ ، بل يَجمعون ، فإمَّا أن تغْرق بها السفن أو تَنهبها قُطَّاع الطريق ، أو يموتوا فى بعض البلاد فيأْخذها السلاطين ، وأحسنُ أحوالهم أن يأْخذَها ورثتُهم وهم أشدُّ أعدائِهم لو عرفوا . فانظر كيف سلط الله الجهلَ والغفلة عليهم حتى يقاسوا الشدائِدَ فى طلب الربْح ، ويركبوا الأخطار ويغرِّروا بالأرواح فى رُكوب البحر ،فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائِج من أقصَى الشرقِ والغرب إليك ! .

وانظر كيف علَّمهم الله تعالى صناعةَ السفن وكيفية الركوب فيها ! وانظر كيف خلقَ الحيوانات وسخَّرها للركوب والحمل فى البرارى . وانظر إلى الإبل كيف خُلِقت ، وإلى الفَرَس كيف أُمِدَّت بسرعة الحركة ، وإلى الحمار كيف جُعِل صبوراً على التعب ، وإلى الجمال وكيف تَقطع البرارىَ وتطوى المراحل تحت الأعباء الثقيلة على الجوع والعطش . وانظر كيف سيَّرهم الله تعالى بواسطة السفن والحيوانات فى البرِّ والبحر ، ليحملوا إليك الأطعمة وسائِر الحوائج ! وتأمل ما يحتاج

إليه الحيوانات من أسبابها، وأدواتها، وعلفها، وما تحتاج إليه السفن، فقد خلق الله تعالى جميع ذلك إلى حدٍّ الحاجة وفوق الحاجة. وإحصاءُ ذلك غير ممكن، ويتمادى ذلك إلى أمور خارجةٍ عن الحصر، نرى تركها طلباً للإيجاز.

الطرف السادس

في إصلاح الأطعمة

اعلم أنَّ الذى يَنْبُتُ فى الأرض من النبات، وما يُخْلَق من الحيوانات لا يمكن أن يُقضَم ويُؤْكل وهو كذلك، بل لا بدَّ فى كلٍّ واحدٍ من إصلاح وطبخ، وتركيب، وتنظيف بإلقاء البعض وإبقاء البعض، إلى أمور أُخَر لا تحصى. واستقصاءُ ذلك فى كل طعام يطول، فلْنُعيِّن رغيفاً واحداً، ولننظر إلى ما يحتاجُ إليه الرغيف الواحد حتى يستدير ويَصلُح للأكل من بعد إلقاء البذر فى الأرض.

فأَوَّلُ ما يحتاج إليه: الحَرَّاثُ ليزرع ويُصلح الأرض، ثم الثور الذى يثير الأرض، والفدَّانُ وجميع أسبابه، ثم بعد ذلك التعهد بسَقْى الماء مدة، ثم تنقية الأرض من الحشيش، ثم الحَصاد ثم الفرك والتنقية، ثم الطَّحن، ثم العجن، ثم الْخَبْز.

فتَأَمَّلْ عددَ هذه الأفعال التى ذكرناها وما لم نذكره، وعددَ الأشخاص القائمين بها، وعدد الآلات التى يحتاج إليها من الحديد والخشب والحجر وغيره! وانظر إلى أعمال الصُّنَّاع فى إصلاح آلات الحراثة والطحن والخبز من نَجَّار، وحدَّاد وغيرهما! وانظر إلى حاجة الحَدَّاد إلى الحديد والرصاص والنحاس! وانظر كيف خلق الله تعالى الجبال والأحجار والمعادن! وكيف جعل الأرض قطعاً متجاوراتٍ مختلفةً!

فإنْ فتشتَ علمتَ أن رغيفاً واحداً لا يستدير بحيث يصلُح لأكلِك يا مسكينُ مالم يعملْ عليه أكثرُ من ألفِ صانعٍ!

الطرف السابع

في إصلاح المصلحين

اعلم أنّ هؤلاء الصناعَ المصلحينَ للأطعمةِ وغيرها لو تفرّقت آراؤُهم وتنافرت طباعُهم تنافُر طباعِ الوحش لتبددوا وتباعدوا ، ولم ينتفع بعضُهم ببعض ، بل كانوا كالوحوش لا يحويهم مكانٌ واحدٌ ولا يجمعهم غرض واحد . فانظر كيف ألّف الله تعالى بين قلوبهم ، وسلّط الأُنس والمحبة عليهم : (لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ) . فلأجْلِ الإلفِ وتعارف الأرواح اجتمعوا وائتلفوا وبنَوا المدن والبلاد ، ورتّبُوا المساكن والدُّور متقابلةً متجاورة ، ورتّبوا الأسواقَ والخانات[1] ، وسائرِ أصناف البقاع ، مما يطول إحصاؤُه .

ثم هذه المحبة تزول بأغراضٍ يتزاحمون عليها ويتنافسون فيها ، ففى جِبِلّة الإنسان الغَيظ والحسد والمنافسة ، وذلك مما يؤدى إلى التقاتل والتنافر.

فانظر كيف سلط اللهُ تعالى السلاطين وأمدّهم بالقوة والعُدّة والأسباب ، وألقى رُعبَهم فى قلوب الرعايا حتى أذعنوا لهم طوعاً وكرهاً ، وكيف هدى السلاطينَ إلى طريق إصلاح البلاد حتى رتّبوا أجزاء البلد كأنها أجزاءُ شخصٍ واحد ، تتعاون على غرض واحد ، ينتفع البعض منها بالبعض فرتّبُوا الرؤساء والقضاة والسجن وزعماء الأسواق ، واضطروا الخلقَ إلى قانون العدل ، وألزموهم التساعد والتعاون ،حتى صار الحدّاد ينتفع بالقصاب والخباز وسائِر أهل البلد ، وكلهم ينتفعون بالحدّاد ، وصار الحجّام ينتفع بالحرّاث ، والحراث بالحجام ، وينتفع كل واحد بكل واحد بسبب ترتيبهم واجتماعهم وانضباطهم تحت ترتيب السلطان وجمعه ، كما يتعاون جميع أعضاء البدن وينتفع بعضها ببعض .

---

(١) الخان : حانوت التاجر ، فارسى معرب .

وانظر كيف بعث الأنبياءَ عليهم السلام حتى أصلَحُوا السلاطين المصلحين للرعايا ، وعرَّفوهم قوانين الشرع فى حفظ العدل بين الخلق ، وقوانينَ السياسة فى ضبطهم ، وكشفوا من أحكام الإمامة والسلطنة وأحكام الفقه ما اهتدَوْا به إلى إصلاح الدنيا فضلاً عما أرشدوهم إليه من إصلاح الدين !

وانظر كيف أصلح الله تعالى الأنبياء بالملائكة ، وكيف أصلَح الملائِكة بعضَهم ببعض إلى أن ينتهى إلى الملك المقرَّب الذى لا واسطة بينه وبين الله تعالى .

فالخبازُ يَخبز العجين ، والطحان يُصلح الحب بالطحن ، والحرّاث يصلحه بالحصاد ، والحدَّادُ يصلح آلات الحراثة ، والنجار يصلح آلات الحدَّاد ، وكذا جميع أَرباب الصناعات المصلحين لآلات الأَطعمة . والسلطان يصلح الصنَّاع ، والأَنبياءُ يصلحون العلماءَ الذين هم ورثتهم ، والعلماءُ يصلحون السلاطين ، والملائِكة يصلحون الأَنبياءَ إلى أن ينتهى إلى حضرة الربوبية التى هى ينبوعُ كلِّ نظام ، ومَطْلعُ كلِّ حُسنٍ وجمال ، ومنشأُ كل ترتيب وتأْليف.

الطرف الثامن

في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائِكة عليهم السلام

واعلم أَنَّ كلَّ جزءٍ من أَجزاءِ بدنك بل من أَجزاءِ النبات لا يغتذى إلاَّ بأَنْ يوَكَّلَ به سبعة من الملائِكة هو أَقلُّه ، إلى عشرة إلى مائة إلى ما وراءَ ذلك . وبيانه أَنَّ معنى الغذاءِ أن يقوم جزءٌ من الغذاءِ مقامَ جزءٍ قد تلف ، وذلك الغذاءُ يصير دماً فى آخر الأَمْر ؛ ثم يصير لحماً وعظماً ، وإذا صار لحماً وعظماً تمَّ اغتذاؤُك ، والدم واللحم أَجسامٌ ليس لها قدرة ومعرفة واختيار ، فهى لا تتحرَّكُ بأَنفسها ، ولا تتغير بأَنفسها ، ومجرّد

الطبع لا يكفى فى تردّدها فى أطوارِها، كما أن البُرَّ بنفسه لا يصير طحيناً ثم خُبزاً مستديراً مخبوزاً إلاّ بصُنّاع ، فكذلك الدم بنفسه لا يصيرُ لحماً وعظماً وعروقاً وعَصَباً إلاّ بصنّاع ، والصنّاع فى الباطن هم الملائِكة كما أنّ الصُنّاعَ فى الظاهر هم أهلُ البلد. وقد أسبغ الله تعالى عليك نِعمَهُ ظاهرة وباطنة . فلا ينبغى أن تغفل عن نعمه الباطنة ، فأقول :

لابدَّ من مَلَكٍ يجذب الغذاءَ إلى جوار اللحم والعظم ، فإنَّ الغذاءَ لا يتحرَّك بنفسه . ولابدَّ من مَلك آخر يُمسِكُ الغذاءَ فى جواره ، ولابدَّ من ثالث يخلع عليه صورة الدم ، ولابدَّ من رابعٍ يكسوه صورة اللحم والعروق أو العظم ، ولابدَّ من خامس يدفع الفضْل الفاضل عن حاجة الغذاءِ ، ولابدَّ من سادسٍ يلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم ، وما اكتسب صفة اللّحم باللحم حتى لا يكون منفصلاً ، ولابدَّ من سابع يرعى المقادير فى الإلصاقِ فيلْحقُ بالمستدير مالاُ يبطل استدارته ، وبالعريض مالا يزيل عرضه ، وبالمجوَّف مالا يبطل تجويفه ، ويحفظ على كلٍّ واحدٍ قدر حاجته .

الركن الثالث

فيا يشترط فيه الصبر والشكر ويربط أحدَهما بالآخر

بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيءٍ واحدٍ

لعلك تقول : ما ذكرتَه فى النعم إشارةٌ إلى أنَّ لله تعالى فى كلِّ موجود نعمةً ، وهذا يشير إلى أن البلاءَ لا وجود له أصلاً ، فما معنى الصبر إذن ؟ وإن كان البلاءُ موجوداً فما معنى الشكر على البلاءِ ؟

وقد ادَّعى مُدَّعون أنا نشكر على البلاءِ فضلاً عن الشكر على النعمة ، فكيف يُتصوَّر الشكر على البلاءِ ، وكيف يُشكر على ما يُصبَر عليه والصبر

على البلاء يَستدعى ألمًا ، والشكر يستدعى فرحاً ، وهما يتضادان ؟ وما معنى ما ذكرتموه من أنَّ لله تعالى فى كلٍّ ما أوجده نعمةً على عباده ؟

فاعلم أن البلاء موجودٌ كما أن النِّعمة موجودة ، والقول بإثبات النعمة يوجب القول بإثبات البلاء لأنَّهما متضادّان ، ففقدُ البلاء نعمة ، وفقدُ النعمة بلاءٌ . ولكنْ قدسبق أنَّ النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كلِّ وجه : أمَّا فى الآخرة فكسعادة العبد بالنزول فى جوار الله تعالى ، وأما فى الدنيا فكالإيمان وحُسن الخُلق وما يعين عليهما . وإلى نعمة مقيَّدة من وجه دون وجه : كالمال الذى يُصْلح الدِّين من وجه ويُفْسده من وجه . فكذلك البلاءُ ينقسم إلى مطلق ومقيد : أما المطلق فى الآخرة فالبعد من الله تعالى إما مُدَّةً وإما أبدا . وأما فى الدنيا فالكفر والمعصية وسوءُ الخلق وهى التى تُفضى إلى البلاء المطلق . وأما المقيَّد فكالفقر والمرض ، والخوف وسائِر أنواع البلاء التى لا تكون بلاءً فى الدين بل فى الدنيا ، فالشكر المطلق للنِّعمة المطلقة . وأما البلاءُ المطلق فى الدنيا فقد لا يؤْمر بالصَّبر عليه ؛ لأنَّ الكفر بلاءٌ ولا معنى للصبر عليه ، وكذا المعصية ، بل حقُّ الكافر أن يترك كفرَه ، وكذا حقُّ العاصى . نعم الكافر قد لا يعرف أنَّه كافر ، فيكون كمن به علَّةٌ وهو لا يتألَّم بسبب غَشيةٍ أو غيرها ، فلا صبر عليه . والعاصى يعرف أنَّه عاص ، فعليه ترك المعصية ، بل كلُّ بلاءٍ يَقدر الإنسان على دفعه فلا يؤْمَر بالصبر عليه . فلو تَرك الإنسان الماءَ مع طول العطش حتى عَظُم تألُّمه فلا يُؤْمَر بالصبر عليه ، بل يُؤْمَر بإزالة الألَم ، وإنما الصَّبر على ألمٍ ليس إلى العبد إزالته . فإذنْ يرجع الصَّبر فى الدنيا إلى ما ليس ببلاءٍ مطلق ، بل يجوز أن يكون نعمةً من وجه ، فلذلك يتصوَّر أن يجتمع عليه وظيفتا الصبر والشكر ؛ فإنَّ الغِنى مثلا يجوز أن يكون سبباً لهلاك الإنسان حتى يُقصد بسبب ماله فيُقْتل وتُقْتل أولاده ، والصِّحة أيضاً كذلك . فما من نعمةٍ من هذه

النعم الدنيويَّة إلاَّ ويجوز أن تصير بلاءً ، ولكنْ بالإضافة إليه . فكذلك ما من بلاءٍ إلاَّ ويجوز أن يصير نعمة ولكنْ بالإضافة إلى حاله . فربَّ عبد تكون الخِيَرة له فى الفقر والمرض ، ولو صحَّ بدنهُ وكثر ماله لبَطِر وبَغَى . قال الله تعالى : (وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لعبادِهِ لَبَغَوْا فى الْأَرْضِ) ، وقال تعالى :(كَلاَّ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى). وقال صلى الله عليه وسلم : «إنَّ الله ليَحمِى عبدَه المؤْمنَ من الدنيا وهو يحبُّه كما يَحمِى أحدُكم مَرِيضَه[1]».

بيان فضل النعمة على البلاء

قال علىٌّ كرم الله وجهه : اللهم إنى أسأَلك الصبر . فقال صلى الله عليه وسلم : « لقد سأَلتَ الله البلاءَ فاسأَله العافية » .

وروى الصِّديق رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سَلُوا الله العافية ، فما أُعْطِىَ أحدٌ أفضلَ من العافية إلاَّ اليقين». وأشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجهل والشك . فعافية القلب أعلى من عافية البدن .

وقال مُطرِّف بن عبد الله : لأَنْ أُعافَى فأَشكُرَ ، أحبُّ إلىّ من أن أُبْتلَى فأَصبر.

فإن قلت : فقد قال بعضُهم : أَودُّ أن أكون جِسراً على النار يَعْبُرُ علىَّ الخلقُ كلُّهم فينجُون ، وأكونَ أنا فى النار. وقال سُمنونُ رحمه الله تعالى :

وليسَ لى فى سِواكَ حظٌّ   فكيفما شِئتَ فاختَبِرْنى

فهذا من هؤلاءِ سؤالٌ للبلاءِ !

فاعلم أنه حكى عن سُمنون[2] المحبِّ رحمه الله أنه بُلِى بعد هذا البيت بعلَّة الحصر[3] ، فكان بعد ذلك يدور على أبواب المكاتب ويقول للصبيان : ادْعُوا لعمِّكم الكذَّاب .

(١) المربض ، كمجلس : مأوى الغنم تربض فيه .

(٢) ضبطه ابن الملقن فى طبقات الأولياء ١٦٥ بضم السين .

(٣) الحصر ، بالضم وبضمتين : احتباس البطن . الحصر من الغائط ، والأسر من البول .

الكتاب الثاني

كتاب الخوف والرجاء

بيان حقيقة الرجاء

اعلم أنَّ الرجاءَ من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين ، وإنما يسمَّى الوصف مَقاماً إذا ثبت وأقام ، وإنَّما يسمى حالاً إذا كان عارضاً سريع الزوال .

وكما أنَّ الصُّفرةَ تنقسم إلى ثابتة كصُفرة الذهب ، وإلى سريعة الزوال كصُفرة الوجَل ، وإلى ما هو بينهما كصُفرة المريض ؛ فكذلك صفاتُ القلب تنقسم هذه الأقسام ؛ فالذى هو غير ثابت يسمَّى حالاً ، لأنَّه يحُول على القرب ، وهذا جارٍ فى كلِّ وصف من أوصاف القلب . وغرضُنا الآن حقيقة الرجاءِ ، فالرجاءُ أيضاً يتمّ من حال وعلم وعمل ؛ فالعلم سبب يُثْمر الحال ، والحال يقتضى العمل ، وكان الرجاءُ اسماً من جملة الثلاثة ، وبيانه : أنَّ كل ما يلاقيك من مكروه ومحبوب فينقسم إلى موجودٍ فى الحال ، وإلى موجود فيما مضَى ، وإلى منتظَر فى الاستقبال . فإذا خطر ببالك موجودٌ فيما مضى سمِّى ذِكراً وتذكُّرًا ، وإن كان ما خطر بقلبك موجوداً فى الحال سمِّى وَجْداً وذَوقاً وإدراكاً ، وإنَّما سمِّى وجداً لأنَّها حالة تَجِدها من نفسك ، وإن كان قد خطر ببالك وجودُ شيءٍ فى الاستقبال وغلب ذلك على قلبك سمِّى انتظاراً وتوقُّعاً ؛ فإنْ كان المنتظر مكروهاً وحصل منه ألم فى القلب سمِّىَ خوفاً وإشفاقاً ، وإن كان محبوباً وحصل من انتظاره وتعلُّق القلب به وإخطارِ

وجوده بالبال لذةٌ فى القلب وارتياحٌ سمّى ذلك الارتياح رجاءً . فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوبٌ عنده ، ولكن ذلك المحبوب المتوقَّع لابدّ وأن يكون له سبب . فإن كان انتظاره لأجل حصولِ أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق ، وإن كان ذلك انتظاراً مع انخرام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحمق عليه أصدقُ من اسم الرجاء . وإن لم تكن الأسباب معلومةَ الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمنى أصدقُ على انتظاره ؛ لأنه انتظار من غير سبب . وعلى كلِّ حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلاَّ ما يُتردَّد فيه ، أما ما يقطع به فلا ؛ إذ لا يقال : أرجو طلوع الشمس وقتَ الطلوع وأخافُ غروبها وقت الغروب ؛ لأَنَّ ذلك مقطوع به . نعم يقال : أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه .

فإذا عرفت حقيقة الرجاء ومظنّته فقد علمتَ أنها حالةٌ أثمرها العلم بجريانِ أكثر الأسباب ، وهذه الحالة تثمر الجهدَ للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان ؛ فإنَّ مَنْ حَسُنَ بذره وطابت أرضه وغزر ماؤُه ، صدق رجاؤُه ، فلا يزال يحمله صِدقُ الرجاء على تفقد الأرض وتعهُّدها ، وتنحية كلِّ حشيش ينبُت فيها ، فلا يفترُ عن تعهدها أصلا إلى وقت الحَصاد ،وهذا لأنَّ الرجاءَيضادُّه اليأْس،واليأْسُيمنع من التعُّهد .فمن عرف أن الأرض سبخة ، وأن الماءَ مُعْوز وأن البذر لا ينبت ، فيترك لا محالة تفقُّدَ الأرض والتعب فى تعهدها . والرجاءُ محمود لأَنَّه باعث ، واليأْس مذموم وهو ضدّه ، لأَنَّه صارف عن العمل . والخوف ليس بضدّ للرجاء ، بل هو رفيقٌ له ، بل هو باعثٌ آخر بطريق الرهبة ، كما أنَّ الرجاءَ باعثٌ بطريق الرغبة . فإذن حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأَعمال ، والمواظبة على الطاعات ، كيفما تقلّبت الأَحوال . ومِن آثارهِ التلذُّذ بدوام الإقبال على الله تعالى ، والتنعم بمناجاته ، والتلطُّف فى التملق له .

بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه

اعلم أَنَّ العملَ على الرجاء أعلى منه على الخوف ؛ لأَنَّ أَقربَ العباد إلى الله تعالى أَحبُّهم له ، والحبُّ يغلب الرجاءَ . واعتبر ذلك بمَلِكين يُخدَم أحدهما خوفاً من عقابه ، والآخر رجاءً لثوابه ؛ ولذلك ورد فى الرجاء وحسن الظَّنِّ رغائبُ ، لا سيما فى وقت الموت . قال تعالى : (لاتَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ) ، فحرّم أصل اليأْس .

وفى أخبار يعقوب عليه السلام أَنَّ الله تعالى أَوحى إليه : أَتَدرى لم فرَّقتُ بينك وبين يوسف ؟ لأَنَّك قلت : أَخاف أَنْ يأْكلَه الذئب وأَنتم عنه غافلون . لِمَ خِفتَ الذئب ولم ترْجُنى ؟ ولِم نظرتَ إلى غَفلة إخوته ولَم تنظرْ إلى حِفظى له ؟

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يموتَنَّ أَحدُكم إلاَّ وهو يُحْسِن الظنَّ بالله تعالى » . وقال صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل : أنا عند ظنّ عبدى بى ، فليظنّ بى ماشاء » .

ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو فى النَّزْع فقال : « كيف تجدك ؟ » فقال : أَجدنى أَخاف ذنوبى وأَرجو رحمة ربى. فقال صلى الله عليه وسلم: «ما اجتمعا فى قلب عبدٍ فى هذا الموطن إلاَّ أَعطاه الله ما رَجَا ، وأَمَّنهُ مما يَخَاف » .

وقال على رضى الله عنه لرجل أخرجه الخوف إلى القُنوط ، لكثرة ذنوبه : يا هذا ، يأْسُك من رحمة الله أعظم من ذنوبك .

بيان دواءِ الرجاء

والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاءِ ويغلب

اعلم أَنَّ هذا الدواءَ يحتاج إليه أَحدُ رجلين : إمَّا رجل غلب عليه اليأْس فترك العبادةَ ، وإمَّا رجل غلب عليه الخوفُ فأَسرفَ فى المواظبة

على العبادة حتى أضرَّ بنفسه وأهله . وهذان رجلان مائِلان عن الاعتدال إلى طرفى الإفراط والتفريط ، فيحتاجان إلى علاج يردّهما إلى الاعتدال .

فأَمّا العاصى المغرور المتمنِّى على الله مع الإعراض عن العبادة واقتحام المعاصى ، فأَدويةُ الرجاءِ تنقلب سموماً مهلكة فى حقّه ، وتنزل منزلةَ العسل الذى هو شفاءٌ لمن غلب عليه البرد ، وهو سمٌّ مهْلك لمن غلبَ عليه الحرارة . بل المغرور لا يستعمل فى حقّه إلاَّ أَدوية الخوف والأَسباب المهيِّجة له . فلهذا يجب أن يكون واعظُ الخلق متلطِّفاً ناظراً إلى مواقع العلل ، معالجاً لكلِّ علة بما يضادّها لا بما يزيد فيها ؛ فإنَّ المطلوب هو العدلُ والقصد فى الصفات والأَخلاق كلِّها . وخيرُ الأُمور أَوسطها ؛ فإذا جاوز الوسط إلى أحد الطرفين عولج بما يردّه إلى الوسط ، لا بما يزيد فى ميله عن الوسط .

ونحن نذكر أسبابَ الرجاءِ لتستعمل فى حقوق الآيس ، أو فيمن غلب عليه الخوف ، اقتداءً بكتاب الله تعالى وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإنهما مشتملان على الخوف والرَّجاءِ جميعاً ، لأَنهما جامعان لأَسباب الشِّفاءِ فى حق أَصناف المرضى ، ليستعمله العلماءُ الذين هم ورثةُ الأَنبياءِ بحسب الحاجة ، استعمالَ الطبيب الحاذق ، لا استعمال الأَخرقِ الذى يظنّ أَنَّ كل شىءٍ من الأَدوية صالحٌ لكلِّ مريضٍ كيفما كان .

وحال الرجاءِ يطلب بشيئين ، أَحدُهما : الاعتبار ، والآخر : استقراءُ الآيات والأَخبار والآثار .

أَمَّا الاعتبار ، فهو أن يتأَمَّل جميع ما ذكرناه فى أَصناف النعم من كتاب الشكر ، حتَّى إذا علم لطائِف نعم الله تعالى لعباده فى الدنيا ، وعجائِب حكمه التى راعاها فى فطرة الإنسان حتَّى أَعدّ له فى الدنيا كلَّ ما هو ضرورىٌّ له فى دوام الوجود ، كآلات الغذاءِ ، وما هو محتاج إليه

كالأصابع والأظفار ، وما هو زينةٌ له كاستقواس الحاجبين واختلاف ألوان العينين وحمرة الشفتين ، وغير ذلك مما كان لا ينثلم بفقده غرضٌ مقصود ؛ وإنما كان يفوت به مزية جمال . فالعناية الإلهية إذا لم تقصِّر عن عباده فى أمثال هذه الدقائق ، حتَّى لم يرض لعباده أن تفوتهم المزايد والمزايا فى الزينة والحاجة ، كيف يرضى بسياقهم إلى الهلاك المؤبّد . بل إذا نظر الإنسانُ نظراً شافياً ، علم أَنَّ أكثر الخلق قد هُيِّئ له أسبابُ السعادة فى الدنيا ، حتَّى إنَّه يكره الانتقال من الدنيا بالموت ، وإن أُخبر بأنه لا يعذَّب بعد الموت أبداً مثلاً ، أولا يحشر أصلاً . فليست كراهتهم للعدم إلاَّ لأَنَّ أسباب النعم أَغلبُ لا محالة . وإنَّما الذى يتمنَّى الموتَ نادر ، ثم لا يتمنَّاه إلا فى حالٍ نادرة ، وواقعةٍ هاجمة غريبة . فإذا كان حال أكثر الخلق فى الدنيا الغالبُ عليه الخيرُ والسلامة ، فسنَّة الله لا تجد لها تبديلاً ، فالغالب أَنَّ أمر الآخرة هكذا يكون ؛ لأَن مدبِّر الدنيا والآخِرة واحد ، وهو غفور رحيم لطيف بعباده متعطِّف عليهم . فهذا إذا تُؤُمِّل حق التأمل قَوىَ به أسباب الرجاء .

ومن الاعتبار أيضاً: النظرُ فى حكمة الشريعة وسنَّتِها فى مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بها ، حتَّى كان بعض العارفين يرى آية المداينة فى البقرة[1] من أقوى أسبابِ الرجاء ، فقيل له : وما فيها من الرجاء ؟ فقال : الدُّنيا كلُّها قليل ، ورزق الإنسانِ منها قليل ، والدَّيْن قليلٌ عن رزقه . فانظر كيف أنزل الله تعالى فيه أطولَ آية ليهدى عبدَه إلى طريق الاحتياط فى حفظ دَيْنِهِ فكيف لا يحفظ دِينَه الذى لا عوضَ له منه ؟

الفن الثانى : استقراءُ الآيات والأخبار . فما ورد فى الرجاء خارجٌ عن الحصر . أما الآيات فقد قال تعالى : (قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذينَ أَسْرَفُوا

(١) التى أولها : « يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى » الآية ٢٨٢ ،

عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رحْمَةِ اللهِ إِنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرحيم) وفى قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ولا يُبالى إنّه هو الغفور الرحيم[1] » . وقال تعالى : (وَالملائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فى الأَرْض) .

وكان أبو جعفر محمد بن على يقول : أنتم أهلَ العراق تقولون أرجَى آية فى كتاب الله عز وجلّ قوله : (قُلْ يَا عِبَادِىَ الذينَ أَسْرَفُوا عَلَىَ أنفُسِهِم لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمةِ اللهِ) الآية ، ونحن أهلَ البيت نقول : أرجى آية فى كتاب الله تعالى قوله تعالى : (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى).

وأما الأخبار فقد رَوى أبو موسى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أمّتى أمّةٌ مرحومة لا عذابَ عليها فى الآخرة ، عجّل الله عقابَها فى الدُّنيا : الزلازل والفتن».

وفى الخبر: «لو لقينى عبدى بِقُرابِ الأَرضِ ذُنوباً لقيتُه بِقُراب الأَرض مغفرة»[2] .

وأما الآثار : فقد قال علىٌّ كرم الله وجهَه : من أذنب ذنباً فستَره الله عليه فى الدنيا فالله أكرمُ من أن يكشف سِتره فى الآخرة ؛ ومن أذنب ذنباً فعُوقب عليه فى الدنيا فالله تعالى أعدلُ من أن يثنِّىَ عقوبته على عبده فى الآخرة .

وكان الحسن يقول : لو لم يُذنبِ المؤمنُ لكان يطير فى ملكوت السموات ، ولكن الله تعالى قَمَعه بالذنوب .

وقال بكرُ بن سليم الصوَّاف : دخلنا على مالك بن أنس فى العشية التى قُبض فيها فقلنا : يا أبا عبد الله ، كيف تَجدك ؟ قال : لا أدرى ما أقول لكم إلاّ أنّكم ستعاينون مِن عفوِ الله ما لم يكن لكم فى حساب ! ثم ما برِحْنا حتى أغمضناه .

(١) حديث هذه القراءة أخرجه الترمذى من حديث أسماء بنت يزيد ، وقال : حسن غريب.
(٢) قراب الشىء بكسر القاف وضمها : ما قارب قدره .

وقال إبراهيمُ الأُطروش : كنّا قعوداً ببغداد مع معروفٍ الكَرخى على دِجلة ، إذ مرَّ أحداثٌ فى زورقٍ يضربون بالدُّف ، ويشربون ويلعبون ، فقالوا لمعروف : أما تراهم يعَصُون الله مجاهرين ، ادعُ الله عليهم ! فرفع يديه وقال : إلهى كما فرَّحتهم فى الدنيا ففرِّحهم فى الآخرة ! فقال القوم : إنما سألناك أن تدعوَ عليهم ! فقال : إذا فرَّحهم فى الآخرة تابَ عليهم .

الشطر الثاني من الكتاب

في الخوف

بيان حقيقة الخوف

اعلم أن الخوفَ عبارةٌ عن تألُّم القلب واحتراقه بسبب توقُّع مكروه فى الاستقبال .

وحال الخوف ينتظم أيضاً من علم ، وحال ، وعمل .

أما العلم فهو العلم بالسبب المفْضِى إلى المكروه ، وذلك كمن جنَى على ملكٍ ثم وقع فى يده ، فيخاف القتل مَثلا ، ويجوِّز العفو والإفلات ، ولكن يكون تألُم قلبه بالخوف بحسب قوّة علمه بالأَسباب المُفْضية إلى قتله ، وهو تفاحُش جنايته .

وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية قارفها[1] الخائف ، بل عن صفة المخوف ، كالذى وقع فى مخالب سَبع ، فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع ، وهى سطوته وحرصُه على الافتراس غالباً ، وإن كان افتراسه بالاختيار . وقد يكون من صفة جِبِلِّيَّةٍ[2] للمخوف منه ، كخوفِ من وقعَ فى مَجرى سيلٍ أو جوارِ حريق ؛ فإنّ الماءَ يُخاف لأنّه

(١) مقارفة الذنب : إتيانه واكتسابه .

(٢) نسبة إلى الجبلة ، وهى الطبيعة .

بطبعه مجبولٌ على السَّيَلان والإغراق ، وكذا النار على الإحراق . فالعلم بأسباب المكروه هو السببُ الباعث المثير لإحراق القلب وتألُّمه ، وذلك الإحراق هو الخوف . فكذلك الخوف من الله تعالى تارةً يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته ، وأنه لو أهلك العالَمِينَ لم يبال ولم يمنعه مانع ؛ وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصى ؛ وتارةً يكون بهما جميعاً .

ثم إذا كملت المعرفةُ أورثت جلالَ الخوف واحتراقَ القلب ، ثم يَفيض أثر الحُرقة من القلب على البدن ، وعلى الجوارح ، وعلى الصفات.

وأقلُّ درجات الخوف مما يظهر أثره فى الأعمال : أنْ يَمنَع عن المحظورات . ويسمَّى الكفُّ الحاصل عن المحظورات وَرَعا، فإن زادت قوّته كفَّ عما يتطرَّق إليه إمكان التحريم . فيكفُّ أيضاً عما لا يتيقَّن تحريمه ، ويسمى ذلك تَقْوى .

بيان فضيلةِ الخوفِ والترغيب فيه

اعلم أنَّ فضل الخوف تارةً يُعرف بالتأَمُّل والاعتبار ، وتارة بالآيات والأخبـــار .

أما الاعتبار فسبيلُه أنَّ فضيلة الشىء بقدر غَنائِه فى الإفضاء إلى سعادة لقاءِ الله تعالى فى الآخرة ، إذْ لا مقصود سوى السعادة ، ولا سعادة للعبد إلاَّ فى لقاءِ مولاه والقُرب منه ؛ فكل ما أَعان عليه فله فضيلة ، وفضيلته بقدر غايته . وقد ظهر أنَّه لا وصولَ إلى سعادَةِ لقاءِ الله فى الآخرة إلاَّ بتحصيل محبته والأُنس به فى الدنيا ، ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة ، ولا تحصل المعرفة إلاَّ بدوام الفكر ، ولا يحصل الأُنسِ إلاَّ بالمحبة ودوام الذكر ، ولا تتيسَّر المواظبة على الذكر والفكر إلاَّ بانقطاع حبِّ

الدنيا من القلب ، ولا ينقطع ذلك إلاَّ بترك لذَّات الدنيا وشَهَواتها ، ولا يمكن ترك المشتَهيات إلاَّ بقَمع الشهوات ، ولا تنقمع الشهوة بشيء كما تنقمع بنار الخوف . فالخوف هو النار المحرقة للشَّهَوات ؛ فإنَّ فضيلته بقدر ما يُحرق من الشهوات ، وبقدر ما يكفُّ عن المعاصى ويحثُّ على الطاعات ، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق . وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصُل العفة والورع ، والتقوى والمجاهدة ، وهى الأعمال الفاضلة المحمودة التى تقرِّب إلى الله زلفى.

وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار ، فما ورد فى فضيلة الخوف خارجٌ عن الحصر ، وناهيك دلالةً على فضيلته جمعُ الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة ، والعلم والرضوان ، وهى مَجَامع مقاماتِ أهل الجنان . قال الله تعالى : (وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ) ، وقال تعالى : (إنما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) وصفهم بالعلم لخشيتهم . وقال عز وجل : (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذلكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّه) .

وكلُّ ما دلَّ على فضيلة العلم دلَّ على فضيلة الخوف ؛ لأَنَّ الخوف ثمرة العلم ، ولذلك جاء فى خبر موسى عليه أفضل الصلاة والسلام : « وأمَّا الخائفون فإنَّ لهم الرفيقَ الأَعلى لا يُشارَكون فيه » . فانظر كيف أفردهم بمرافَقة الرفيق الأَعلى ، وذلك لأَنَّهم العلماءُ ، والعلماءُ لهم رتبة مرافقة الأَنبياء ؛ لأَنهم ورثةُ الأَنبياء ؛ ومرافقة الرفيق الأَعلى للأَنبياء ومن يلحق بهم . ولذلك لما خُيِّرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرض موته بين البقاء فى الدنيا وبين القُدوم على الله تعالى كان يقول : « أسأَلك الرفيق الأَعلى » .

وقال أَبو بكر الصديق رضى الله عنه : من استطاع أَن يَبكىَ فليبكِ ، ومَنْ لم يستطع فليتباكَ .

وكان محمدُ بن المنكدر رحمه الله إذا بكى مسحَ وجْهَه ولحيَته بدموعه ويقول : بلغنى أنَّ النار لا تأْكل مَوضعاً مسَّتْه الدموع .

وقال كعب الأَخبار رضى الله عنه : والذى نفسى بيده ؛ لأَن أَبْكِيَ من خَشْيَة الله حتَّى تسيلَ دموعى على وَجْنَتى أَحبُّ إلىَّ من أن أَتصدَّق بِجَبَلٍ من ذهب .

بيان أَحوال الصحابة والتابعين
والسلف والصالحين في شدة الخوف

روى أَن أَبا بكر الصديق رضى الله عنه قال لطائر : ليتَنى مثلُك يا طائِرُ ولم أُخْلَق بَشراً .

وقال أَبو ذرّ رضى الله عنه : ودِدتُ لو أَنِّى شجرةٌ تُعضَد[1] .

وقال على كرّم الله وجهه وقد سَلَّم من صلاة الفجر ، وقد علاه كآبةٌ وهو يقلِّب يده : لقد رأَيت أَصحابَ محمد صلى الله عليه وسلم فلمْ أَرَ اليوم شيئاً يشبههم ، لقد كانوا يُصبحون شُعثاً صُفراً غُبراً ، بين أَعينهم أَمثال رُكَب المِعزَى ، وقد باتوا لله سُجَّداً وقياماً ، يتلُون كتاب الله ، يراوحون بين جباههم وأَقدامهم ، فإذا أَصبحوا ذكروا الله فمادُوا ، كما يميد الشَّجَر فى يوم الريح ، وهَمَلت أَعينُهم بالدموع حتَّى تبُلَّ ثيابَهُم. واللهِ فكأَنِّى بالقوم باتوا غافلين .

ثم قام ، فما رُئِى بعد ذلك ضاحكاً حتى ضربه ابن مُلجِم .

وقال موسى بن مسعود : كنَّا إذا جلسنا إلى الثَّورىّ كأَنَّ النار قد أَحاطت بنا ، لِمَا نَرى من خَوفه وجزعه .

---

(١) عضد الشجر يعضده عضداً : قطعه بالمعضد .

وقال ذرّ بن عُمر لأبيه عُمر بن ذرّ : ما بال المتكلمين يتكلّمون فلا يبكى أحد ! فإذا تكلمتَ أنتَ سمعتُ البكاء من كلٍّ جانب ! فقال : «يا بنيَّ ، ليست النائحة الثَّكلى كالنائحة المستأْجَرة» .

فهذه مخاوف الأنبياء والأولياء والعلماء والصالحين ، ونحن أجدرُ بالخوف منهم . لكن ليس الخوف بكثرة الذنوب ، بل بصفاء القلوب وكمال المعرفة ؛ وإلا فليس أمننا لقلّة ذنوبنا وكثرة طاعاتنا ، بل قادَتْنا شهوتُنا ، وغلبت علينا شقوتنا ، وصدّتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتُنا وقسوتنا ، فلا قُرب الرحيل ينبّهنا ، ولا كثرة الذنوب تحرّكنا ، ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخوّفنا ، ولا خَطر الخاتمة يزعجنا .

فنسأل الله تعالى أن يتدارك بفضله وجُوده أحوالَنا فيصلحنا ، إن كان تحريك اللسان بمجرّد السؤال دون الاستعداد ينفعنا .

الكتاب الرابع

كتاب الفقر والزهد

بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه

اعلم أنَّ الفقرَ عبارةٌ عن فقدِ ما هو مُحتاج إليه . أما فَقْد ما لا حاجة إليه فلا يسمَّى فقراً . وإن كان المحتاج إليه موجوداً مقدوراً عليه لم يكن المحتاج فقيراً . وإذا فهمت هذا لم تشكّ فى أَنَّ كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير ، لأَنه محتاجٌ إلى دوام الوجود فى ثانى الحال ، ودوامِ وُجودٍ مستفاد من فضل الله تعالى وجوده . فإن كان فى الوجود موجود ليس وجوده مستفاداً له من غيره فهو الغنىُّ المطلق . ولا يُتصوَّر أن يكون مثل هذا الموجود إلاَّ واحداً . فليس فى الوجود إلاَّ غنىٌّ واحد ، وكل مَن عداه فإنّهم محتاجون إليه ليُمدّوا وجودهم بالدوام . وإلى هذا الحصر الإشارة بقوله تعالى : (وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ) . هذا معنى الفقر مطلقاً . ولكنا لسنا نقصد بيان الفقر المطلق ، بل الفقر من المال على الخصوص ، وإلا ففقر العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته لا ينحصر ؛ لأنّ حاجاته لا حصر لها .

ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال ، وهو الذى نريد الآن بيانه فقط ، فنقول :

كل فاقدٍ للمال فإنّا نسميه فقيراً بالإضافة إلى المال الذى فقده إذا كان ذلك المفقود محتاجاً إليه فى حقّه . ثم يُتصوّر أن يكون له خمسة أحوال عند الفقر ، ونحن نميِّزها ونخصص كلَّ حال باسم ، لنتوصَّل بالتمييز إلى ذكر أحكامها :

الحالة الأُولى ، وهى العُلْيا : أَنْ يكون بحيث لو أتاه المالُ لكرهه وتـأذَّى به وهرب مِن أَخذِهِ مُبغضاً له ، ومحترزاً من شرِّه وشُغله ؛ وهو الزُّهد ، واسم صاحبه الزاهد .

الثانية :أَنْ يكونبحيث لايرغبفيه رغبةَمَنيفرحلحصوله ،ولا يكرهه كراهةً يتـأَذَّى بها ويزهد فيه لو أتاه . وصاحب هذه الحالة يسمَّىراضياً .

الثالثة : أَنْ يكون وجودُ المال أَحبَّ إليه من عدمه لرغبةٍ له فيه ، ولكن لم يبلغْ من رغبته أن ينهض لطلبه ، بل إن أَتاه صفواً عفواً أخذه وفرح به ، وإن افتقر إلى تعبٍ فى طلبه لم يشتغل به . وصاحب هذه الحالة نسميه قانعاً ؛ إذ أَقنع نفسه بالموجود حتَّى تَرَكَ الطلب ، مع ما فيه من الرغبة الضعيفة .

الرابعة : أن يكون تركه الطلب لعجزه ، وإلا فهو راغب فيه رغبةً لو وجد سبيلاً إلى طلبهِ ولو بالتعب لطلبه ؛ أَو هو مشغول بالطلب . وصاحب هذه الحالة نسمِّيه بالحريص .

الخامسة : أَن يكون ما فقده من المال مضطراً إليه ، كالجائع الفاقد للخبز ، والعارى الفاقد للثوب . ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرًّا كيفما كانت رغبته فى الطلب ، إمَّا ضعيفة وإمَّا قوية ، وقلَّما تنفك هذه الحالة عن الرغبة .

فهذه خمسة أَحوال ، أَعلاها الزهد . والاضطرارُ إن انضمَّ إليه الزهد وتُصوِّر ذلك فهو أَقصى درجات الزهد كما سيأْتى بيانه . ووراءَ هذه الأَحوال الخمسة حالة هى أَعلى من الزهد ، وهى أَن يستوى عنده وجودُ المال وفقده ؛ فإنْ وجده لم يفرح به ولم يتـأذَّ ، وإن فقده فكذلك ، بل حاله كما كان حال عائشة رضى الله تعالى عنها ، إذْ أتاها مائة أَلف درهم من العطاءِ فأَخذَتْها وفرَّقتها من يومها ، فقالت خادمتها : ما استطعتِ

فيما فرّقتِ اليوم أن تشترى لنا بدرهم لحماً نفطر عليه ؟ فقالت : لو ذكّرتينى لفعلْت.

فَمنْ هذا حالُه لو كانت الدنيا بحذافيرها فى يده وخزائنه لم تضرّه ، إذْ هو يرى الأموال فى خزانة الله تعالى لا فى يدِ نفسه ، فلا يفرق بين أنْ تكون فى يده أو فى يد غيره . وينبغى أن يسمّى صاحب هذه الحالة المستغِنى ، لأنه غنىٌّ عن فقد المال ووجوده جميعاً .

بيان فضيلة الفقر مطلقاً

أما من الآيات فيدل عليه قوله تعالى : (لِلْفُقَرَاءِ المهَاجِرينَ الذينَ أُخْرِجُوا مِنْ ديارهِمْ وأَمْوَالِهِمْ) الآية . وقال تعالى : (للفقراءِ الذين أُحْصِرُوا فى سبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فى الْأَرْض) . ساق الكلام فى معرض المدح ، ثم قدَّم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والإحصار ، وفيه دِلالةٌ ظاهرة على مدح الفقر .

وأما الأَخبار فى مدح الفقرِ فأَكثرُ من أن تحصى . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحبُّ الفقير المتعفِّف أبا العيال » .

ورُوى أن المسيح صلى الله عليه وسلم مرَّ فى سياحته برجل نائمٍ ملتفٌ فى عباءة ، فأَيقظه وقال : يا نائمُ قمْ فاذكر الله تعالى . فقال : ما تريد منِّى ؟ إنِّى قد تركتُ الدنيا لأَهلها ! فقال له : فنَمْ إذن يا حبيبى .

ومرَّ موسى صلى الله عليه وسلم برجل نائمٍ على التراب وتحتَ رأْسه لَبِنةٌ ، ووجهُه ولحيته فى التراب ، وهو متّزر بعَباءة ، فقال : يارب عبدُك هذا فى الدنيا ضائع ! فأَوحى الله تعالى إليه : يا موسى ، أَمَا علمتَ أَنِّى إذا نظرت إلى عبدِى بوجهى كلِّه زَوَيتُ عنه الدُّنيا كلَّها .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَصبح منكم مُعَافىً فى جسمه ، آمناً فى سِرْبه ، عنده قوتُ يومه ، فكأَنَّما حِيزَت له الدُّنيا بحذافيرها » .

وقال صلى الله عليه وسلم: « ألَا أُخبركم بمُلوك أهل الجنة ؟ »، قالوا : بلى يا رسول الله. قال : « كلُّ ضعيفٍ مستضعَفٍ أغبر أشعث، ذى طِمْرين[1] لا يُؤْبَهُ له ، لو أقسمَ على الله لأبرَّه » .

وأما الآثار : فقد قال أبو الدرداء رضى الله عنه : ذو الدرهمين أشدُّ حَبْساً — أو قال أشدُّ حساباً — من ذى الدرهم .

وقال ابنُ عباس : ملعونٌ مَن أكرمَ بالغَنى وأهانَ بالفقر .

وقال لقمان عليه السلام لابنه : لا تحقرنَّ أحداً لخُلقان ثيابه ؛ فإنَّ ربَّك وربَّه واحد .

بيان آداب الفقير في فقره

اعلم أنَّ للفقير آداباً فى باطنه وظاهره ، ومخالطته وأفعاله ، ينبغى أن يراعيَها .

فأما أدبُ باطنه فأن لا يكون فيه كراهيةٌ لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر ، أعنى أنه لا يكون كارهاً فعل الله تعالى مِن حيث إنَّه فِعْله ، وإنْ كان كارهاً للفقر . كالمحجوم يكون كارهاً للحجامة لتألُّمه بها ، ولا يكون كارهاً فِعلَ الحجَّام ولا كارهاً للحجَّام ، بل ربَّما يتقلد منه منَّة . فهذا أقل درجاته ، وهو واجب ، ونقيضه حرام ومُحْبِطٌ ثوابَ الفقر ، وهو معنى قوله عليه السلام : « يا معشر الفقراء أعْطُوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم ، وإلاَّ فلا » .

وأرفعُ مِن هذا أنْ لا يكون كارهاً للفقر ، بل يكون راضياً به . وأرْفَعُ منه أن يكون طالباً له ، وفَرِحاً به ، لعلمه بغوائِل الغنى .

وأما أدب ظاهره : فأن يظهر التعفُّف والتجمل ، ولا يظهر الشكوى

---

(١) الطمر ، بكسر الطاء : الثوب الخلق .

والفقر ، بل يستر فقرَه ويستر أنه يستره ؛ فني الحديث : « إنَّ الله تعالى يحبُّ الفقير المتعفِّف أبا العيال » . وقال تعالى : (يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ) .

وأما فى أعماله فأدبه : أن لا يتواضع لغنيٍّ لأجل غناه ، بل يتكبَّر عليه . قال على كرّم الله وجهه : « ما أَحسَنَ تواضعَ الغنيِّ للفقير رغبةً فى ثواب الله تعالى » . وأحسنُ منه تِيهُ الفقير على الغنيّ ثقةً بالله عزّ وجلّ؛ فهذه رتبة . وأقلُّ منها أن لا يخالطَ الأغنياء ولا يرغب فى مجالستهم ، لأن ذلك من مبادئ الطمع . قال الثورى رحمه الله : إذا خالط الفقيرُ الأغنياء فاعلمْ أنه مُراءٍ ، وإذا خالط السلطانَ فاعلم أنَّه لصٌّ .

وأما أدبُه فى أفعاله : فأن لا يفتُر بسبب الفقر عن عبادة ، ولا يمنَعَ بَذْلَ قليل ما يَفْضُلُ عنه ، فإنَّ ذلك جُهْدُ المقِلِّ ، وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظَهر غِنًى. روى زَيدُ بن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دِرْهَمٌ من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف درهم » قيل : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : « أخرجَ رجلٌ من عُرْض ماله مائة ألف درهم فتصدَّق بها ، وأخرج رجلٌ درهماً من درهمين لا يملك غيرهما طَيِّبةً به نفسُه ، فصار صاحبُ الدرهم أفضلَ من صاحب المائة ألف» .

بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر فيه

اعلم أنه قد وردت مَناهٍ كثيرة فى السؤال وتشديداتٌ ، وورد فيه أيضاً ما يدلُّ على الرخصة ؛ إذ قال صلى الله عليه وسلم : « للسائلِ حقٌّ ولو جاء على فَرَس » ،وفى الحديث : « ردُّوا السائِل ولو بظِلْفٍ مُحرَق » .

ولو كان السؤالُ حراماً مطلقاً لَمَا جاز إعانة المتعدِّى على عدوانه ، والإعطاءُ إعانة . فالكاشف للغِطاء فيه أنَّ السؤال حرام فى الأصل ، وإنَّما يباحُ بضرورة أو حاجة مهمَّةٍ قريبة من الضرورة ؛ فإنْ كان عنها بُدٌّ فهو حرام . وإنما قلنا إنَّ الأصل فيه التحريم لأنه لا ينفكُّ عن ثلاثة أمور محرمة :

الأول : إظهار الشكوى من الله تعالى ؛ إذ السؤال إظهارٌ للفقر ، وذكرٌ لقصور نعمة الله تعالى عنه ، وهو عين الشكوى . وكما أنَّ العبد المملوك لو سأل لكان سؤاله تشنيعا على سيِّده ، فكذلك سؤال العباد تشنيع على الله تعالى . وهذا ينبغى أن يَحْرُم ولا يحلُّ إلاَّ لضرورة ، كما تحلُّ الميتة .

الثانى : أن فيه إذلال السائل نفسَه لغير الله تعالى ، وليس للمؤمن أن يُذِلَّ نفسه لغير الله ، بل عليه أن يُذِلَّ نَفسَه لمولاه ، فإنَّ فيه عزَّةً ؛ فأمَّا سائر الخلق فإنَّهم عبادٌ أمثالُه ، فلا ينبغى أنْ يذِلَّ لهم إلاَّ لضرورة . وفى السؤال ذلٌّ للسائل بالإضافة إلى المسئُول .

الثالث : أنه لا ينفك عن إيذاء المسئُول غالباً ؛ لأنَّه ربَّما لا تسمح نفسه بالبذل عن طِيب قلبٍ منه ، فإن بَذَل حياءً من السائِل أو رياءً فهو حرام على الآخذ ، وإن مَنع ربَّما استحيا وتـأذَّى فى نفسه بالمنع ؛ إذ يرى نفسه فى صُورة البخلاء ، ففى البذل نقصانُ ماله ، وفى المنع نقصانُ جاهه ، وكلاهما مؤذيان ، والسائِل هو السبب فى الإيذاء ، والإيذاء حرامٌ إلاَّ بضرورة .

بيان أحوال السائلين

كان بشر رحمه الله يقول : الفقراءُ ثلاثة : فقير لا يَسأَل وإن أُعطىَ لا يأْخذ ، فهذا مع الرُّوحانيين فى علِّيِّين . وفقير لا يسأَل وإن أُعطى أخَذَ ، فهذا مع المقرَّبين فى جنات الفردوس . وفقير يسأَل عند الحاجة ، فهذا مع الصادقين من أصحاب اليمين .

فإذن قد اتفق كلُّهم على ذمِّ السؤَال ، وعلى أنَّه مع الفاقة يحطُّ المرتبة والدرجة .

قال شقيقٌ البلخى لإبراهيمَ بن أدهم حينَ قدِم عليه من خُراسان : كيف تركتَ الفقراء من أصحابك ؟ قال : تركتُهم إن أُعطوا شكَروا ، وإن مُنِعوا صَبَروا . وظنَّ أنَّه لمَّا وصفهم بترك السؤال قد أثنى عليهم غاية الثناء ، فقال شقيق : هكذا تركتُ كلابَ بلخ عندنا . فقال له إبراهيم : فكيف الفقراءُ عندك يا أبا إسحاق ؟ فقال : : الفقراءُ عندنا إن مُنعوا شكروا ، وإن أُعطوا آثروا. فقبَّل رأسه وقال : صدقت يا أستاذ.

فإذنْ درجاتُ أرباب الأَحوال فى الرضا والصبر والشكر والسؤَال كثيرةٌ ، فلا بدَّ لسالك طريق الآخرة من معرفتها ومعرفة انقسامها ، واختلافِ درجاتها ، فإنَّه إذا لم يعلمْ لم يقدرْ على الرقِّ من حضيضها إلى قِلاعها ، ومن أسفل سافلين إلى أعلى عِلِّيين ، وقد خُلِق الإنسانُ فى أحسن تقويم ، ثم رُدَّ إلى أسفل سافلين ، ثم أُمِر أن يترقَّى إلى أعلى عليين. ومن لا يميِّز بين السُّفل والعلوِ لا يقدر على الرقِّ قطعاً .

بيان حقيقة الزهد

اعلم أنَّ الزهدَ فى الدنيا مقامٌ شريف من مقاماتِ السالكين ، وينتظم هذا المقامُ من علم وحال وعمل كسائر المقامات ، لأَنَّ أبواب الإيمان كلَّها كما قال السلف ترجع إلى عَقد ، وقول ، وعمل . وكأَنَّ القول لظهوره أُقيم مقام الحال ، إذْ به يظهر الحال الباطن ، وإلا فليس القول مراداً لعينه ، وإن لم يكن صادراً عن حال سُمِّى إسلاما ولم يسمَّ إيماناً ، والعلم هو السبب فى حالٍ يجرى مَجرى المثمِر ، والعمل يجرى من الحال مَجرى الثمرة .

فلنذكر الحال مع كِلا طرفيه من العلم والعمل :

أما الحال فنعنى بها ما يسمَّى زُهداً ، وهو عبارةٌ عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه ؛ فكل من عَدَل عن شيء إلى غيره بمعاوَضة وبيع وغيره ، فإنه عدل عنه لا لرغبته عنه ، وإنَّما عدل إلى غيره لرغبته فى غيره . فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمَّى زهداً ،وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمَّى رغبة وحُبًّا . فإذن يستدعى حال الزهد مرغوباًعنه ومرغوبًا فيه هو خير من المرغوب عنه . وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضاً مرغوباً فيه بوجه من الوجوه؛ فَمَن رَغِبَ عما ليس مطلوباً فى نفسه لا يسمَّى زاهداً ، إذْ تاركُ الحَجَر والتُّراب وما أشبهه لا يسمَّى زاهداً ، وإنما يسمَّى زاهداً مَنْ ترك الدراهم والدنانير ؛ لأنَّ التراب والحجر ليسا فى مَظِنة الرغبة . وشرط المرغوب فيه أنْ يكون عنده خيراً من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة ، فالبائع لا يُقْدِم على البيع إلاَّ والمشترى عنده خيرٌ من المبيع ، فيكون حاله بالإضافة إلى المبيع زُهْداً فيه ، وبالإضافة إلى العِوَض عنه رغبة فيه وحبًّا ، ولذلك قال الله تعالى : (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) معناه باعوه . فقد يُطلَقُ الشراءُ بمعنى البيع . ووصف إخوةَ يوسف بالزهد فيه ، إذْ طمعوا أن يَخْلُوَ لهم وجْهُ أبيهم ؛ وكان ذلك عندهم أحبَّ إليهم من يوسف ، فباعوه طمعاً فى العِوض .

فإذنْ كلٌّ من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهدٌ فى الدنيا ، وكلٌّ من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضاً زاهد ولكنْ فى الآخرة . ولكن العادة جاريةٌ بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد فى الدُّنيا ، كما خصَّص اسمُ الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصة ، وإن كان هو للميل فى وضع اللِّسان .

وأعلم أنّه ليس من الزهد تركُ المال وبذلُه على سبيل السَّخاء والفتوَّة ، وعلى سبيل استمالةِ القلوب وعلى سبيل الطمع ، فذلك كله من مَحاسن العادات ، ولكن لا مدخلَ لشيء منه فى العبادات ؛ وإنما الزهد أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة . فأمَّا كلُّ نوع من التَّرك فإنه يتصوَّرُ ممن لا يُؤمن بالآخرة ؛ فذلك قد يكون مروءةً وفتوَّةً وسخاءً وحُسنَ خلق ؛ ولكن لا يكون زهدًا ؛ إذْ حُسنُ الذِّكر وميلُ القلوب من حظُوظ العاجلة ، وهى ألذُّ وأهنأُ من المال .

وكما أنَّ تركَ المال على سبيل السَّلم طمعاً فى العِوَض ليس من الزُّهد ، فكذلك تركه طَمعاً فى الذكر والثناء والاشتهار بالفتوة والسخاء ، واستثقالا له ، لما فى حفظ المال من المشقَّة والعناء . والحاجةُ إلى التذلل للسلاطين والأغنياء ليس من الزُّهد أصلاً ، بل هو استعجالُ حظٍّ آخر للنفس . بل الزاهد من أتته الدنيا راغمةً صفْواً عفواً ، وهو قادرٌ على التنعم بها من غير نقصانِ جاهٍ وقُبحِ اسم ، ولا فواتِ حظٍّ للنفس ، فتَرَكَها خوفاً من أن يأْنسَ بها ، فيكون آنساً بغير الله ، ومُحِبًّا لما سوى الله ، ويكون مُشرِكاً فى حب الله تعالى غيرَه . أو تَرَكَها طمعاً فى ثواب الله فى الاخرة ، فترك التمتُّع بأشربة الدنيا طمعاً فى أشربة الجنة ، وتَرَك التمتع بالسرارى والنِّسوان طمعاً فى الحُور العين ، وتركَ التفرُّج فى البساتين طمعاً فى بساتين الجنة وأشجارها ، وتركَ التزين والتجمُّل بزينة الدنيا طمعاً فى زينة الجنة ، وتَرَكَ المطاعم اللذيذة طمعاً فى فواكه الجنة . وخوفاً من أنْ يقال له : (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيا) . فآثَرَ فى جميع ذلك ما وُعد به فى الجنة على ما تيسَّر له فى الدنيا عفواً صَفْواً ، لعلمه بأنَّ ما فى الآخرة خيرٌ وأبقى .

بيان فضيلة الزهد

قال الله تعالى : (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ)... إلى قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ) ، فنسب الزُّهد إلى العلماء ، ووصف أهلَه بالعلم ، وهو غاية الثناء .

وقال تعالى : (أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا) ، وجاء فى التفسير : على الزُّهد فى الدنيا . وقال عزَّ وجلَّ : (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) . قيل : معناه أيُّهم أزهدُ فيها . فوصف الزهدَ بأنَّه من أحسنِ الأعمال . وقال تعالى : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ) . وقال تعالى : (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) . وقال تعالى: (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ) ، فوصَف الكفَّار بذلك ، فمفهومُه أنَّ المؤمنَ هو الذى يتَّصف بنقيضه ، وهو أن يستحبَّ الآخرة على الدنيا .

وأما الأخبار : فما ورد منها فى ذمِّ الدنيا كثير ، ونحن الآن نقتصر على فضيلة بُغض الدنيا فإنه من المُنْجيات ، وهو المعنيُّ بالزهد . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أصبح وهَمُّه الدُّنيا شتَّت الله عليه أمره ، وفرَّق عليه ضَيعته[1] ، وجعل فقرَه بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلاَّ ما كُتِب له . ومن أصبَحَ وهَمُّهُ الآخرةُ جمع الله له همَّه ، وحفظ عليه ضيعته ، وجعل غِناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة » .

---

(١) الضيعة : الحرفة ، والصناعة والمعاش ، والكسب .

وفى حديث عمرَ رضى الله عنه أنّه قالَ : لما نزل قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللهِ ﴾ قال صلى الله عليه وسلم : «تَبًّا للدُّنيا ، تبًّا للدِّينار والدرهم » . فقلنا : يا رسول الله ، نهانا الله عن كنز الذهب والفضة ، فأَىَّ شىء ندخر ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « ليتّخذ أحدُكم لساناً ذاكراً ، وقلباً شاكراً ، وزوجة صالحةً تعينه على أمر آخرته » .

وقال المسيح صلى الله عليه وسلم : الدُّنيا قَنطرةٌ فاعبُروها ولا تَعمرُوها.

وقيل له : يا نبيَّ الله لو أَمرتَنا أن نبنِىَ بيتاً نعبدُ الله فيه ؟ قال : اذهبوا فابنوا بيتاً على الماء . فقالوا : كيف يستقيم بُنيانٌ على الماء ؟ قال وكيف تستقيم عبادةٌ مع حبّ الدنيا ؟

وقال بلال بن سعد : كفى به ذنباً أنَّ الله تعالى يزهّدنا فى الدنيا ونحن نرغبُ فيها .

وقال رجل لسفيان : أشتهى أن أرى عالماً زاهداً . فقال : ويحك ، تلك ضالّةٌ لا توجَد .

ورُوِى أنَّ بعضَ الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بجوائِزَ فقبلوها ، وأرسل إلى الفُضَيل بعشرة آلاف فلم يقبلْها ، فقال له بنوه : قد قَبِل الفقهاءُ وأنت تَرُدُّ على حالتك هذه ؟ فبكى الفُضَيْل وقال : أتدرون ما مَثَلى ومَثَلُكم ؟ كمثل قوم كانت لهم بقرةٌ يحرثون عليها ، فلما هَرِمت ذبحوها لأجل أن ينتفعوا بجلدها . كذلك أنتم أردتم ذبحى على كِبر سنِّى ، موتوا يا أهلى جوعاً خيرٌ لكم من أن تذبحوا فُضَيلا !

بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

اعلم أنَّ ما الناسُ منهمكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهمّ ؛فالفضول كالخيل المسوَّمة مثَلاً ، إذْ غالب الناس إنما يقتنيها للترفُّه بركوبها وهو قادرٌ على المشى . والمهمُّ كالأكل والشرب . ولسنا نقدر على تفصيل أصناف الفضول فإن ذلك لا ينحصر ، وإنما ينحصر المهمُّ الضرورى .

والمهمّ أيضاً يتطرق إليه فضول فى مقداره ، وجنسه ، وأوقاته . فلا بدّ من بيان وجه الزهد فيه .

والمهمات ستةُ أمور : المطعم ، والملْبس ،والمسكن ،وأثاثه ،والمنكح ، والمال.

الأول : (المطعم) ولا بدّ للإنسان من قُوتٍ حلالٍ يُقيم صُلْبه ، ولكن له طول وعرض . فلابد من قبض طوله وعرضه حتّى يتمّ به الزهد . فأما طوله فبالإضافة إلى جملة العمر ، فإنَّ من يملك طعام يومه فلا يقنع به . وأما عَرضه ففى مقدار الطعام وجنسه ووقتِ تناوله ؛ أما طوله فلا يقصر إلاَّ بقصر الأمل ، وأقلُّ درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دَفع الجوع عند شِدّة الجوع وخوف المرض . ومَنْ هذا حاله فإذا استقل بما تناوله لم يدَّخر من غَدائه لعَشائه .

وهذه هى الدرجة العليا .

الدرجة الثانية : أن يدّخر لشهر أو أربعين يوماً .

الدرجة الثالثة : أن يدّخر لسنةٍ فقط ، وهذه رتبة ضُعفاء الزُّهّاد . ومن ادَّخر لأكثر من ذلك فتسميته زاهداً محال ؛ لأنَّ من أمَّل بقاء أكثر من سنةٍ فهو طويل الأمل جدًّا ، فلا يتم منه الزهد إلاَّ إذا لم يكن له كسب ولم يرضَ لنفسه الأخذَ من أيدى الناس ، كداود الطائىّ ، فإنّه ورث عشرين ديناراً فأمسكها وأنفقها فى عشرين سنة . فهذا لا يضادّ أصلَ الزهد إلاَّ عند من جعل التوكل شرطَ الزهد .

وأما عرضُه فبالإضافة إلى المقدار ؛ وأقل درجاته فى اليوم والليلة نصف رطل ، وأوسطه رطل ، وأعلاهُ مُدٌّ واحد[1] ، وهو ما قدّره الله تعالى فى إطعام المسكين فى الكفّارة وما وراء ذلك فهو من اتّساع البطن والاشتغال به . ومَن لم يقدرْ على الاقتصار على مُدٍّ لم يكن له من الزهد فى البطن نصيبٌ . وأمّا بالإضافة إلى الجنس فأقلّه كلُّ ما يقوت ، ولو الخبزُ من النُّخالة ، وأوسطه خُبز الشّعيرِ والذرة ، وأعلاه خبز البر غير منخول ؛ فإذا مُيِّز من النُّخالة وصار حُوَّارَى[2] فقد دخل فى التنعُّم وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلا عن أوائله . وأما الأُدَم : فأقله الملحُ أو البقل والخل ، وأوسطُه الزّيت أو يسيرٌ من الأدهان أىّ دُهنٍ كان ، وأعلاه اللّحم أىّ لحم كان ، وذلك فى الأُسبوع مرّةً ، أو مرّتين فى الأُسبوع ، فإن صار دائماً أو أكثر من مرّتين فى الأُسبوع خرجَ عن آخر أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهداً فى البطن أصلاً . وأمّا بالإضافة إلى الوقت فأقلُّه فى اليوم والليلة مرة ، وهو أن يكون صائماً ، وأوسطُه أنْ يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل ، ويأكل ليلةً ولا يشرب . وأعلاه أن ينتهى إلى أن يَطوِىَ[3] ثلاثةَ أيام أو أُسبوعاً وما زاد عليه .

المهم الثانى : (الملبس) ، وأقلُّ درجته : ما يدفع الحرّ والبرد ويستُر العورة ، وهو كساءٌ يتغطّى به . وأوْسطه : قميصٌ وقلنسوة ونَعلان . وأعلاه : أنْ يكون معه مِنديل وسراويل . وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو مجاوز حدّ الزهد . وشرط الزاهد : أن لا يكون له ثوبٌ يلبسه إذا غَسَل ثوبه ، بل يلزمه القُعود فى البيت ، فإذا صار صاحب قميص وسراويلين

---

(١) المد : مكيال ، وهو رطل وثلث عند أهل الحجاز والشافعى ، ورطلان عند أهل العراق وأبى حنيفة .

(٢) الحوارى : الدقيق الأبيض ، وهو لباب البر وأجوده وأخلصه .

(٣) أى يجوع . والطوى : الجوع .

ومنديلين فقد خرج من جميع أبواب الزهد من حيثُ المقدار . أما الجنس فأقله المُسوح الخشِنة وأوسطه الصُّوف الخشن ، وأعلاه القطن الغليظ. وأما من حيث الوقت ، فأقصاه ما يستر سنةً ، وأقلُّه ما يبقى يوماً ، حتى رقَّع بعضُهم ثوبَه بورق الشَّجر وإن كان يتسارع الجفاف إليه . وأوْسطه ما يتماسك عليه شهراً وما يقاربه . فطلبُ ما يبقى أكثر من سنةٍ خروجٌ إلى طول الأَمل ؛ وهو مضادٌ للزهد .

المهم الثالث : (المسكن) ، وللزهد فيه أيضاً ثلاثُ درجات : أعلاها: أن لا يطلب موضعاً خاصًّا لنفسه ، فيقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصُّفَّة . وأوسطُها : أن يطلب موضعاً خاصاً لنفسه ، مثل كوخٍ مبنيٌّ من سعف ، أَو خُصٍّ أَو ما يشبهه . وأدناها : أنْ يطلب حجرة مبنية إمَّا بشراءٍ أو إجارة . فإن كان قدرُ سَعَة المسكن على قدر حاجته من غير زيادةٍ ولم يكن فيه زِينة لم يخرجْه هذا القدر عن آخر درجات الزهد . فإن طلب التشييدَ والتجصيص والسَّعة وارتفاعَ السقف أكثرَ من ستة أذرع فقد جاوز بالكلِّيَّة حدَّ الزهد فى المسكن .

المهم الرابع : (أثاث البيت) وللزهد فيه أيضاً درجات أعلاها حال عيسى المسيح صلوات الله عليه وسلامه وعلى كلِّ عبدٍ مصطفًى ؛ إذ كان لا يصحبُه إلا مُشْط وكوز ، فرأى إنساناً يمشُط لحيته بأصابعه ، فرَمَىَ بالمُشْط ، ورأى آخرَ يشرب من النَّهر بكفيه فرمى بالكوز . وهذا حكم كل أثاثٍ ؛ فإنَّه إنما يراد لمقصود ؛ فإذا استُغْنِيَ عنه فهو وبالٌ فى الدنيا والآخرة . ومالا يُستغنَى عنه فيُقتصَر فيه على أقلّ الدرجات ، وهو الخزَف فى كلِّ ما يكفى فيه الخزف ، ولا يبالى بأن يكون مكسورَ الطَّرف إذا كان المقصود يحصُل به . وأوسطُها أنْ يكونَ له أثَاثٌ بقدر الحاجة صحيحٌ فى نفسه ، ولكن يَستعمِل الآلة الواحدة فى مقاصد ، كالذى

معه قَصعة يأكل فيها ويشرب فيها ويحفظ المتاع فيها . وكان السَّلفَ يستَحبُّون استعمال آلة واحدة فى أشياءَ للتخفيف . وأعلاها : أن يكون له بعددِ كل حاجة آلةٌ من الجنس النازل الخسيس ؛ فإن زاد فى العدد أو فى نفاسة الجِنس خرج عن جميع أبواب الزهد وركَن إلى طلب الفضول.

وروى أَنَّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخلَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائمٌ على سرير مَرمُول[1] بشريط ، فجلس ، فرأى أثر الشريط فى جَنْبه عليه السلام ، فدمَعَت عينا عمر ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « ما الذى أبكاك يا ابن الخطاب ؟ » قال : ذكرت كسرى وقَيصر وما هما فيه من المُلْك ، وذكرتُك وأنت حبيبُ الله وصفيُّه ورسولُه ، نائِمٌ على سرير مرمول بالشريط ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « أمَا ترضى يا عمرُ أن تكون لهما الدنيا ولنا الآخرة ؟ » . قال : بلى يا رسول الله . قال : « فذلك كذلك » .

المهم الخامس : (المنكح) . وقد قال قائلون : لا معنى للزهد فى أصل النكاح ولا فى كثرته ، وإليه ذهب سهل بن عبد الله وقال : قد حبِّب إلى سيِّد الزاهدين النساءُ فكيف نزهد فيهنَّ ؟ ووافقه على هذا القول ابنُ عيينة وقال : كان أزهدَ الصحابةِ علىٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكان له أربع نسوة وبضعَ عشرةَ سرية . والصحيح ما قاله أبو سليمان الدارانى رحمه الله إذ قال : كلٌّ ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشئُوم ، والمرأة قد تكون شاغلاً عن الله .

المهم السادس ، ما يكون وسيلة إلى هذه الخمسة ، وهو (المال والجاه) أما الجاه فمعناه مِلك القلوب بطلب محلّ فيها ليتوصَّل به إلى الاستعانة

---

(١) مرمول : منسوج .

فى الأغراض والأعمال . وكلُّ من لا يقدر على القيام بنفسه فى جميع حاجته وافتقر إلى من يخدُمه افتقر إلى جاهٍ لا محالة فى قلب خادمه ، لأنَّه إن لم يكن له عنده محلّ وقَدْر لم يقُم بخدمته ، وقيام القدر والمحل فى القلوب هو الجاه ، وهذا له أوّلٌ قريب ، ولكن يتمادى به إلى هاوية لا عُمق لها[1] ، ومن حام حول الحِمَى يوشك أن يقع فيه . وإنما يحتاج إلى المحلّ فى القلوب إمَّا لجلب نفع أو لدفع ضُرّ ، أو لخلاصٍ من ظلم . فأما النفع فيُغنى عنه المال ؛ فإنَّ من يخدم بأُجرةٍ يخدم وإن لم يكن عنده للمستأْجِر قدر ، وإنّما يحتاج إلى الجاه فى قلب من يخدم بغير أجرة . وأما دفع الضُّرّ فيُحتاج لأَجله إلى الجاه فى بلدٍ لا يكمُل فيه العدل ، أو يكون بين جيرانٍ يظلمونه ولا يقدر على دفع شرّهم إلاَّ بمحلٍّ له فى قلوبهم أو محلٍّ له عند السلطان . وقدر الحاجة فيه لا ينضبط ، لا سيما إذا انضم إليه الخوف وسوءُ الظنّ بالعواقب . والخائِض فى طلب الجاه سالكٌ طريق الهلاك ، بل حق الزاهد أن لا يسعى لطلب المحل فى القلوب أصلاً ؛ فإن اشتغاله بالدين والعبادة يمهّد له من المحل فى القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفار . فكيف بين المسلمين .

وكان أحدُهم يَعرِض له المال الحلال فلا يأْخذه ويقول : أخاف أن يُفسد علىَّ قلبى . فمن كان له قلبٌ فهو لا محالة يخاف من فساده .

ولذلك قال رجلٌ لعيسى عليه السلام : احملنى معك فى سياحتك ، فقال : أخرِجْ مالك والحَقْنِى . فقال : لا أستطيع . فقال عيسى عليه السلام : بعجَبٍ يدخلُ الغنىُّ الجنة .

---

(١) يعنى شديدة العمق .

بيان علامات الزهد

وينبغي أنْ يعوّل في باطنه على ثلاث علامات :

العلامة الأُولى : أن لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود ، كما قال تعالى : ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾.بل ينبغي أنْ يكون بالضِّد منذلك . وهو أن يحزن بوجود المال ويفرح بفقده .

العلامة الثانية : أن يستوى عنده ذامُّه ومادحه ، فالأَوَّل علامة الزهد في المال ، والثاني علامة الزهد في الجاه .

العلامة الثالثة : أن يكون أُنْسُه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوةَ الطاعة ؛ إذ لا يخلو القلبُ عن حلاوة المحبة : إمّا محبة الدنيا وإمّا محبة الله ، وهما في القلب كالماء والهواء في القَدَح ، فالماءُ إذا دخل خرج الهواءُ، ولا يجتمعان . وكل من أَنِس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره . ولذلك قيل لبعضهم : إلى ماذا أفضى بهم الزهد ؟ فقال : إلى الأُنس بالله ؛ فأَما الأُنس بالدنيا وبالله فلا يجتمعان .

وقال يحيى بنُ معاذُ : علامة الزهد : السخاءُ بالموجود .

وقال أبو سليمان : الصُّوف عَلَمٌ من أعلام الزهد ، فلا ينبغي أن يلبس صوفاً بثلاثة دراهم وفي قلبه رغبةُ خمسة دراهم .

وقال أحمد بن حنبل وسفيان رحمهما الله : علامة الزهد قِصَر الأَمل .

وقال سَرِىٌّ[1] : لا يَطِيبُ عيشُ الزاهد إذا اشتغل عن نفسه ، ولايطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه .

وقال النَّصراباذى : الزاهد غريبٌ في الدنيا ، والعارف غريبٌ في الآخرة .

---

(١) هو سرى بن المغلس السقطى خال أبي القاسم الجنيد . صفة الصفوة ٢ : ٢٠٩ — ٢١٨ .

الكتاب الخامس

كتاب التوحيد والتوكل

بيان فضيلة التوكل

أما من الآيات ، فقد قال تعالى : (وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ). وقال عزَّ وجلَّ : (وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) . وقال تعالى: (مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) . وقال سبحانه وتعالى : (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المتوكِّلين) .

وأَعْظِمْ بمقام موسومٍ بمحبة الله تعالى صاحبُه ، ومضمونٍ كفاية الله تعالى مُلاَبِسَه ؛ فَمَنِ اللهُ تعالى حَسْبُه وكافيه ، ومُحبُّه ومراعيه ، فقد فاز الفوز العظيم ؛ فإنَّ المحبوب لا يُعذَّب ولا يُبْعَد ولا يُحْجب .

وقال عز وجل : (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) أى عزيز لا يَذِلّ من استجار به ، ولا يَضيع من لاذ بجنابه ، والتجأ إلى ذِمامه وحماه ، وحكيمٌ لا يقصِّرُ عن تدبير من توكل على تدبيره .

وأما الأخبار ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابنُ مسعود : « أُرِيتُ الأُمَمَ فى الموسم فرأيتُ أُمَّتى قدملئوا السَّهلَ والجبل ، ، فأعجبَتنى كثرتُهم وهيئتُهم ، فقيل لى : أرضيت ؟ قلت : نعم . قيل : ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب » . قيل : من هم يا رسول الله . قال : « الذين لا يكتَوُون ولا يتطيَّرون ولا يستَرْقون ، وعلى ربِّهم يتوكلون » . فقام عُكاشة وقال : يا رسولَ الله ، ادعُ الله أن يجعلنى

منهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللَّهمَّ اجعلْه منهم » . فقام آخر فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلَنى منهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « سَبقَك بها عُكاشة » .

وقال صلى الله عليه وسلم « لو أنَّكم تتوكلون على الله حقَّ توكُّله لرزقكم كما يرزق الطير ، تَغْدُو خِماصاً وتَرُوح بِطانا[1] » .

وأما الآثار ، فقد قال سعيد بن جبير : لدغتْنى عقرب فأقسمَتْ علىَّ أُمّى لَتَسْتَرْقِيَنَّ ، فناولتُ الراقىَ يَدِى التى لم تُلدَغْ .

وقال يحيى بن معاذ : فى وجود العبد الرزقَ من غير طلبٍ دلالةٌ على أنَّ الرزق مأمور بطلب العبد .

وقال بعضهم : متى رضيتُ بالله وكيلاً وجدتُ إلى كل خيرٍ سبيلاً .

بيان حال التوكل

قد ذكرنا أنَّ مقام التوكل ينتظِم من : علم ، وحال ، وعمل . وذكرنا العـلم .

فأما الحال فالتوكُّل بالتحقيق عبارةٌ عنه ، وإنما العلم أصلُه ، والعمل ثمرته .

والتوكُّلُ مشتقٌ من الوَكالة ، يقال : وكَل أمره إلى فلان ، أى فوَّضه إليه واعتمد عليه فيه . ويسمَّى الموكول إليه وكيلا ؛ ويسمى المفوِّض إليه متَّكِلاً عليه ومتوكِّلا عليه ، مهما اطمأنَّتْ إليه نفسُه ووثق به ، ولم يتَّهمه فيه بتقصير ، ولم يعتقد فيه عجزاً وقصوراً . فالتوكل عبارةٌ عن اعتماد القلب على الوكيل وحدَه .

---

(١) خماصاً ، من الخمص وهو الجوع . وبطاناً من البطنة ، وهى الامتلاء .

وإذا انكشف لك معنى التوكل ، وعلمتَ الحالة التى سُمِّيت توكلا فاعلم أن تلك الحالة لها فى القوَّة والضعف ثلاثُ درجات :

الدرجة الأُولى : أن يكون حالهُ فى حقِّ الله تعالى والثِّقةِ بكفالته وعنايته كحاله فى الثقة بالوكيل .

الثانية : وهى أقوى : أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمّه ، فإنّه لا يعرفُ غيرها ولَا يَفزع إلى أحدٍ سواها ، ولا يعتمد إلاَّ إياها. فإذا رآها تعلَّق فى كلِّ حال بذيلها ولم يخلِّها ، وإنْ نابهُ أمر فى غيبتها كان أوّل سابق إلى لسانه : يا أمّاه !

الثالثةُ : وهى أعلاها : أن يكون بين يدى الله تعالى فى حركاته وسكناته مثل الميت بين يدى الغاسل ، لا يفارقه إلاَّ فى أنه يرى نفسه ميِّتاً تحرِّكه القدرة الأزليَّة كما تحرِّك يد الغاسل الميت . ويفارق الصبيَّ؛ فإنَّ الصبيَّ يفزع إلى أُمه ويصيح ويتعلق بذيلها ، ويعدو خلفها . بل هو مثل صبيٍّ علم أنّه وإنْ لم يزعق بأُمِّه فالأُمُّ تطلبه ، وأنه وإن لم يتعلَّق بذيل أُمِّه فالأُمُّ تحمله ، وإنْ لم يسألها اللبنَ فالأُمُّ تفاتحه وتَسقيه . وهذا المقام فى التوكُّل يُثمر ترك الدعاءِ والسُّؤالِ منه ، ثِقةً بكرمه وعنايته ، وأنه يُعْطِى ابتداءً أفضلَ مما يُسأَل . فكم من نعمة ابتدأها قبل السُّؤَالِ والدعاءِ، وبغير الاستحقاق . والمقام الثانى لا يقتضى ترك الدعاءِ والسؤَالِ منه ، وإنّما يقتضى السؤَال من غيره فقط .

بيان أحوال المتوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال

اعلم أنَّ مثال الخلق مع الله تعالى مثل طائِفة مِن السُّؤّال وقفوا فى مَيدانٍ على باب قصر الملك ، وهم محتاجُون إلى الطَّعام ، فأَخرج إليهم غلماناً كثيرة ومعهم أرغفة من الخُبز ، وأمرهم أن يُعْطُوا بعضَهم رغيفين

رغيفين ، وبعضهم رغيفاً رغيفاً ، ويجتهدوا فى أن لا يَغفُلوا عن واحدٍ منهم ، وأمر مُنادياً حتَّى نادى فيهم : أن اسكنوا ولا تتعلَّقوا بِغلمانى إذا خرجوا إليكم ، بل ينبغى أن يطمئِنَّ كلٌّ واحدٍ منكم فى موضعه ؛ فإنَّ الغلمان مسخَّرون ، وهم مأمورون بأن يوصلوا إليكم طعامكم . فمن تعلَّق بالغلمان وآذاهم وأخذ رغيفين فإذا فُتح باب الميدان وخرج أتبعته بغلامٍ يكون موكَّلا به إلى أن أتقدَّم لعقوبته فى ميعادٍ معلوم عندى ولكن أخفيه ، ومن لم يُؤْذِ الغلمان وقنَع برغيفٍ واحدٍ أتاه من يد الغلام وهو ساكنٌ فإنى أختصُّه بخِلعة سنية فى الميعاد المذكور لعقوبة الآخَر . ومَن ثبت فى مكانه ولكنَّه أخذ رغيفين فلا عقوبةَ عليه ولا خِلعة له . ومن أخطأه غلمانى فما أوصلوا إليه شيئاً فبات الليلة جائعاً غير متسخِّط للغلمان ولا قائلا : ليته أوصل إلىَّ رغيفاً ، فإنِّى غداً أستوزره وأفوِّض ملكى إليه .

فانقسم السؤَّال إلى أربعةِ أقسام : قِسمٌ غلبتْ عليهم بُطونهم فلم يلتفتوا إلى العقوبة الموعودة ؛ وقالوا : مِن اليوم إلى غدٍ فرَج ! ونحن الآنَ جائِعون . فبادَرُوا إلى الغلمان فآذوْهم وأخذوا الرغيفين ، فسبقت العقوبة إليهم فى المِيعاد المذكور فندموا ، ولم ينفعهم الندم .

وقسمٌ تركوا التعلّق بالغلمان خوفَ العقوبة ، ولكن أخذوا رغيفين لغلبة الجوع . فسلموا من العقوبة وما فازوا بالخلعة .

وقسمٌ قالوا : إنَّا نجلس بمرأى من الغلمان حتَّى لايخطئُونا ، ولكن نأخذ إذا أعطونا رغيفاً واحداً ونقنع به ، فلعلنا نفوز بالخلعة . ففازوا بالخلعة .

وقسمٌ رابع اختفَوا فى زوايا الميدان وانحرفوا عن مرأى أعين الغلمان

وقالوا : إن اتَّبعونا وأعطوْنا قنِعنا برغيف واحدٍ ، وإنْ أخطئُونا قاسينا شدَّة الجوع الليلة ، فلعلَّنا نقوى على ترك التسخط فننال رتبة الوزارة ودرجة القرب عند المَلِك . فما نفعهم ذلك ، إذ اتَّبعهم الغِلمانُ فى كل زاوية وأعطوا كلَّ واحد رغيفاً واحداً .

وجرى مِثلُ ذلك أيَّاماً حتى اتَّفق على الندور أنْ اختفى ثلاثة فى زاوية ولم تقع عليهم أبصار الغلمان وشغلهم شغل صارفٌ عن طول التفتيش ، فباتوا فى جُوع شديد . فقال اثنان منهم : ليتنا تعرَّضنا للغلمان وأخذنا طعامنا فلسنا نطيق الصبر ، وسكت الثالث إلى الصَّباح فنال درجة القُرب والوزارة . فهذا مثال الخَلق ، والميدان هو الحياة فى الدنيا ، وباب الميدان الموت ، والميعاد المجهول يوم القيامة ، والوعد بالوزارة هو الوعد بالشَّهادة للمتوكِّل إذا مات جائعاً راضياً من غير تأْخِير ذلك إلى ميعاد القيامة ؛ لأَنَّ الشهداءَ أحياءٌ عند ربهم يُرْزَقون . والمتعلِّق بالغلمان هو المعتدِى فى الأَسباب ، والغلمان المسخَّرون هم الأَسباب . والجالس فى ظاهر الميدان بمرأى الغلمان هم المقيمون فى الأَمصار فى الرِّباطات والمساجدِ على هيئَة السكون ، والمختفون فى الزوايا هم السائِحون فى البوادى على هيئَة التوكُّل والأَسبابُ تتبعهم ، والرزق لا يأْتيهم إلاَّ على سبيل الندور ، فإن مات واحدٌ منهم جائِعاً راضياً فله الشهادة والقرب من الله تعالى .

وقد انقسم الخلق إلى هذه الأَقسام الأَربعة .

بيان آداب المتوكلين إذا سُرق متاعهم

رُوى أن ابن عمر سُرقت ناقتُه ، فطلبها حتَّى أعيا ، ثم قال : فى سبيل الله تعالى ! فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين فجاءَهُ رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إنَّ ناقتك فى مكانِ كذا . فلبس نعله وقام ، ثم قال :

أستغفر الله ! وجلس ، فقيل له : ألَا تذهب فتأْخذَها ! فقال : إنِّى كنت قلتُ : فى سبيل الله .

فهكذا كانت أخلاقُ السلف . وكذلك من أخذ رغيفاً ليعطيه فقيراً فغاب عنه ، كان يكرَه ردَّه إلى البيت بعد إخراجه ، فيعطيه فقيراً آخر . وكذلك يفعل فى الدراهم والدنانير وسائِر الصدقات .

وقيل لبعضهم فى شىء قد كان سُرِق له : ألا تدعو على ظالمك ! قال : ما أُحبُّ أن أكون عوناً للشّيطان عليه . قيل : أرأيتَ لو رُدَّ عليك ؟ قال : لا آخذه ولا أنظر إليه ، لأنِّى كنت قد أحللته له .

وأكثَرَ بعضُهم شتْمَ الحَجَّاج عند بعض السَّلف فى ظُلمه ، فقال : لا تُغْرِقْ فى شتمه ؛ فإن الله تعالى ينتصف للحَجَّاج ممن انتهك عرضَه ، كما ينتصف منه لمن أخذ ماله ودمَه .

وسُرِق من علىٍّ بن الفُضيل دنانير وهو يطوف بالبيت ، فرآه أبوه وهو يبكى ويَحزَن ، فقال : أَعَلَى الدنانير تبكى ؟ فقال : لا والله ، ولكن على المسكين ، أنْ يُسأَلَ يوم القيامة ولا تكون له حُجَّة .

الكتاب السادس

كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا

بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى

اعلم أنَّ الأُمة مجمعة على أنَّ الحبَّ لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم فرضٌ ، وكيف يُفرَض ما لا وجود له ، وكيف يفسَّر الحب بالطاعة والطاعةُ تبع الحبِّ وثمرته ؟ ! فلابُدَّ وأَنْ يتقدَّم الحبُّ، ثمَّ بعدَ ذلك يطيع من أحبَّ . ويدلُّ على إثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل : (يُحِبُّهُمْ ويُحِبُّونه) ، وقوله تعالى: (والذين آمنوا أشدُّ حُبًّا لله) . وهو دليلٌ على إثبات الحبِّ وإثبات التَّفاوُت فيه .

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : مَن ذاق من خالص محبَّة الله تعالى شَغَله ذلك عن طلب الدُّنيا وأَوحشَه عن جميع البشَر .

وقال الحسن : مَن عرف ربَّه أحبَّه ، ومن عرف الدنيا زهِد فيها ؛ والمؤمن لا يلهو حتَّى يغفُل ، فإن تفكَّر حَزِن .

وقال أبو سليمان الدَّارانيّ : إنَّ مِنْ خلْق الله خلقاً ما يشغلهم الجِنان وما فيها من النعيم عنه ، فكيف يشتغلون عنه بالدنيا ؟ !

وقال يحيى بن معاذ : مِثقال خردلةٍ من الحُبِّ أحبُّ إليَّ من عبادة سبعين سنة بلا حبّ .

بيان الأسباب المقوِّية لحب الله تعالى

اعلم أنَّ أسعد الخلق حالاً فى الاخرة أقواهم حباً لله تعالى ، فإنَّ الآخرة

معناها القُدوم على الله تعالى ودَرْك سعادةِ لقائه ، وما أعظمَ نعيمَ المحبِّ إذا قدِم على محبوبه بعد طُول شوقه ، وتمكَّنَ من دوام مشاهدته أبدَ الاباد من غير منغِّص ومكدِّر ، ومن غير رقيبٍ ومزاحم ، ومن غير خوف انقطاع ! إلاَّ أنَّ هذا النعيم على قدر قوة الحبِّ ، فكلَّما ازدادت المحبةُ ازدادت اللذَّة ، وإنما يكتسب العبدُ حبَّ الله تعالى فى الدنيا . وأصل الحبِّ لاينفك عنه مؤمن ، لأنَّه لا ينفكُّ عن أصل المعرفة . وأمَّا قوَّة الحبِّ واستيلاؤه حتَّى ينتهيَ إلى الاستهتار الذى يسمَّى عِشقاً ، فذلك ينفكُّ عنه الأكثرون ، وإنَّما يحصُل ذلك بسببين :

أحدُهما : قطع علائِق الدُّنيا وإخراج حبِّ غير الله من القلب ؛ فإنَّ القلب مثل الإناءِ الذى لا يتَّسع للخَلِّ مثلًا مالم يُخرَج منه الماءُ : (ماجَعَلَ اللهُ لرجل مِن قلبينِ فى جَوفِه) . وكمال الحب فى أن يحبَّ الله عزَّ وجلَّ بكلِّ قلبه . وما دام يلتفت إلى غيره فزاويةٌ من قلبه مشغولة بغيره . فبقدر ما يُشْغَل بغير الله ينقص منه حبُّ الله ، وبقدر ما يبقى من الماءِ فى الإناءِ ينقُص من الخلِّ المصبوب فيه . وإلى هذا التفريد والتجريد الإشارةُ بقوله تعالى : (قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُم فى خَوْضِهِم) ، وبقوله تعالى : (إن الذين قالوا ربُّنا اللهُ ثمَّ استقاموا) .

السبب الثانى لقوَّة المحبة : قوَّة معرفة الله تعالى ، واتِّساعها واستيلاؤُها على القلب ، وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها . يجرى مجرى وضع البَذْر فى الأَرض بعد تنقيتها من الحشيش ، وهو الشطر الثانى ، ثم يتولَّد من هذا البذر شَجرةُ المحبة والمعرفة ، وهى الكلمة الطيبة التى ضَرب الله بها مثلاً حيث قال : (ضَرَبَ الله مثلاً كلمةً طيِّبةً كَشَجَرةٍ طَيِّبةٍ أَصلُها ثابتٌ وفرعُها فى السَّماءِ) . وإليها الإشارة بقوله تعالى : (إليه يَصْعَدُ الكلِمُ الطيبُ) ، أى المعرفة .

ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شَواغل الدنيا من القلب إلاَّ بالفكر الصافى ، والذكر الدائِم ، والجِدِّ البالغ فى الطلب ، والنظر المستمرِّ فى الله تعالى ، وفى صفاته ، وفى ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته.

بيان محبة الله للعبد ومعناها

اعلم أنَّ شواهد القرآن متظاهرة على أنَّ الله تعالى يُحبُّ عبدَه ، فلا بدَّ من معرفة معنى ذلك . ولْنقدِّم الشواهِدَ على محبته ، فقد قال الله تعالى : (يحبُّهم ويُحبُّونه) ، وقال تعالى : (إنَّ الله يحبُّ الذين يقاتلون فى سَبيلِهِ صفًّا) ، وقال تعالى : (إن الله يُحبُّ التَّوَّابينويحبُّ المتطَهِّرين). ولذلك ردَّ سبحانه على مَن ادَّعى أنه حبيبُ الله ، فقال : (قل فلِمَ يُعذِّبُكمْ بذنوبِكمْ) .

وقد رَوى أَنسٌ عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنْ أَحبَّ الله تعالى عبداً لم يضرَّه ذنب ، والتائبُ من الذنب كمن لا ذنب له » ، ثم تلا : (إنَّ الله يحبُّ التَّوَّابين) ، ومعناه إذا أَحبَّهُ تابَ عليه قبل الموت ، فلم تضرَّه الذنوبُ الماضية وإن كثرت ، كمالايضر الكفرُ الماضِى بعد الإسلام .

وقد اشترط الله تعالى للمحبة غُفرانَ الذنب فقال : (قُلْ إنْ كنتُمْ تُحبُّونَ اللهَ فاتَّبعونى يُحبِبْكم الله ويغفرْ لكم ذنوبَكُمْ) .

وقال عليه السلام : « قال الله تعالى : لا يزال العبد يتقرَّب إلىَّ بالنوافل حتى أُحبَّه ، فإذا أَحببتُه كنت سمعَه الذى يَسمع به ، وبصرَه الذى يُبصِرُ به » .

وقد ذكرنا أنَّ محبَّة العبد لله تعالى حقيقةٌ وليست بمجاز ؛ إذ المحبة فى وضع اللسان عبارةٌ عن مَيل النفس إلى الشىء الموافق ، والعشق

عبارة عن الميل الغالب المُفْرط . وقد بَيّنّا أنّ الإحسانَ موافق للنفس ، والجمال موافقٌ أيضاً ، وأنّ الجمال والإحسان تارةً يدرك بالبصر ، وتارة يدرك بالبصيرة ، والحبُّ يتبع كلَّ واحدٍ منهما ، فلا يختصُّ بالبصر .

فأما حبُّ الله للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلاً ، بل الأسامى كلُّها إذا أُطلقت على الله تعالى وعلى غير الله لم تنطلق عليهما بمعنًى واحدٍ أصلاً ، حتّى إنَّ اسم « الوجود » الذى هو أعمُّ الأسماء اشتراكاً لا يشمل الخالقَ والخلقَ على وجهٍ واحد ، بل كلُّ ماسوى الله تعالى فوجوده مستفادٌ من وجود الله تعالى ، فالوجود التابع لا يكون مساوياً للوجود المتبوع .

القول في علامات محبة العبد لله تعالي

اعلم أنَّ المحبة يدَّعيها كلُّ أحد ، وما أسهلَ الدَّعوى وما أعزَّ المعنى . فلا ينبغى أن يغترَّ الإنسان بتلبيس الشيطان وخُدَع النفس مهما ادَّعت محبةَ الله تعالى ، مالم يمتحنْها بالعلامات ، ولم يطالبْها بالبراهين والأدِلَّة . والمحبَّة شجرةٌ طيِّبة أصلها ثابت وفرعُها فى السماء ، وثمارها تظهر فى القلب واللسان والجوارح . وتدلُّ تلك الآثار الفائضة منها على القلب والجوارح على المحبَّة دلالةَ الدُّخَان على النار ، ودَلالة الثمار على الأشجار .

وهى كثيرة ، فمنها حبُّ لقاء الحبيبِ بطريق الكشف والمشاهدة فى دار السلام ، فلا يُتصوَّر أن يحبَّ القلبُ محبوباً إلاَّ ويحبُّ مشاهدته ولقاءه ، وإذا علم أنه لا وصولَ إلاَّ بالارتحال من الدنيا ومفارقتها بالموت فينبغى أن يكون محبًّا للموت غير فارٍّ منه ؛ فإنَّ المحبَّ لا يثقُل عليه السفر عن وطنه إلى مستقرِّ محبوبه ليتنَّعم بمشاهدته . والموت مفتاح اللِّقاء ، وباب الدخول إلى المشاهدة. قال صلى الله عليه وسلم : « مَن أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه ».

ومنها : أنْ يكون مُؤْثراً ما أحبَّه الله تعالى على ما يحبُّه فى ظاهره

وباطنه ، فيلزم مشاقَّ العمل ويجتنب اتباع الهوى ، ويُعرض عن دَعَة الكسل ، ولا يزال مواظباً على طاعة الله ومتقرباً إليه بالنوافل ، وطالباً عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحبُّ مزيدالقرب في قَلبمحبوبه . وقد وصف الله المحبِّين بالإيثارفقال: (يحبُّون مَنْ هاجَرَ إليهم ولا يَجِدُونَ في صُدورهم حاجةً مّما أُوتوا ويُؤْثِرُونَ على أنفُسِهِمْ ولو كان بِهِم خَصَاصَةٌ) .

ولذلك قال ابنُ المبارك فيه :

تَعصِي الإِلٰهَ وأنت تُظْهِرُ حبَّه	هــذا لعمْرِى فى الفَعال بديعُ
لو كان حبُّك صادقاً لأَطعتَه	إن المحبَّ لمن يحبُّ مطيعُ

ومنها أَنْ يكون مُستهتَراً[1] بذكر الله تعالى ، لا يفتُر عنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه ، فمن أحبَّ شيئاً أكثَرَ بالضرورة من ذكره ما يتعلّق به . فعلامةُ حبِّ الله حبُّ ذكره ، وحبُّ القرآنِ الذى هو كلامُه ، وحبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحبُّ كلٍّ من يُنسب إليه .

ومنها : أن يكون أُنسه بالخلوة ، ومناجاته لله تعالى ، وتلاوةِ كتابه ، فيواظب على التهجُّدِ ، ويغتنم هَدْءَ الليل وصفاءَ الوقت بانقطاع العوائِق. وأقــلُّ درجات الحبِّ التلَذُّذُ بالخــلوة بالحبيب والتنعُّم بمناجاته . فمن كان النوم والاشتغال بالحديث أَلذَّ عنده وأَطيبَ من مناجاة الله كيف تصحُّ محبته ؟

ومنها : أَنْ لا يتأَسَّف على ما يفوته مما سوى الله عز وجل ؛ ويَعظُمَ تأَسُّفه على فَوت كلِّ ساعة خلتْ عن ذكر الله تعالى وطاعته ، فيكثر رجوعُه عند الغفلات بالاستعطاف والاستعتاب والتوبة . قال بعض العارفين إنَّ لله عباداً أَحبُّوه واطمأَنوا إليه ، فذهب عنهم التأَسُّف على الفائت ،

---

(١) المستهتَر بالشىء : المولع به .

فلم يتشاغلوا بحظٍّ أنفسهم إذ كان مُلك مليكهم تاماً ، وما شاء كان ، فما كان لهم فهو واصلٌ إليهم ، وما فاتهم فبحسن تدبيره لهم .

ومنها : أن يتنعَّمَ بالطاعة ولا يستثقلَها ، ويُسقِطَ عنه تعبَها ، كما قال بعضهم : كابدتُ اللَّيل عشرين سنة ، ثم تنعَّمت به عشرين سنة .

وقال الجُنيد : علامة المحبِّ دوامُ النشاط والدءُوب ، بشهوةٍ تُفتِّر بدنَه ولا تُفتِّر قلبه .

ومنها : أنْ يكون مشفقاً على جميع عباد الله ، رحيماً بهم ، شديداً على جميع أعداءِ الله وعلى كلِّ من يقارف شيئاً مما يكرهُه ، كما قال الله تعالى : (أَشِدَّاءُ على الكُفَّار رُحَماءُ بينهم) . ولا تأْخذُه لومةُ لائِم ، ولا يصرفه عن الغضب لله صارفٌ .

ومنها : أنْ يكون فى حبِّه خائفاً متضائِلاً ، تحت الهيبة والتعظيم . وقد يُظنُّ أنَّ الخوف يضادّ الحبَّ ، وليس كذلك ، بل إدراك العظمة يوجب الهيبة ، كما أنَّ إدراك الجمال يوجب الحبَّ . ولخصوص المحبِّين مخاوفُ فى مقام المحبة ليست لغيرهم ، وبعضُ مخاوفهم أشدُّ من بعض .

فأوَّلها : خوف الإعراض ، وأشدُّ منه خوف الحجاب ، وأشدُّ منه خوف الإبعاد . وهذا المعنى فى سورة هود هو الذى شيَّب سيِّد المحبين[1] إذ سمع قوله تعالى : (أَلَا بُعْداً لِثَمُود) ، (أَلَا بُعْداً لِمَدْيَنَ كما بَعِدتْ ثَمُود) .

ومنها كتمانُ الحبِّ واجتنابُ الدعوى ، والتوقِّى من إظهار الوجد والمحبة ، تعظيماً للمحبوب وإجلالاً له ، وهيبةً منه وغَيرةً على سِرِّه ؛ فإن الحبَّ سِرٌّ من أسرار الحبيب ، ولأنَّه قد يدخل فى الدعوى ما يتجاوزُ

(١) إشارة إلى حديث قوله صلى الله عليه وسلم : « شيبتنى هود » .

حدَّ المعنى ويزيد عليه ، فيكون ذلك من الافتراء ، وتعظُم العقوبةُ عليه في العُقْبى ، وتتعجَّل عليه البلوى في الدنيا . نعم قد يكون للمحبِّ سَكرةٌ في حُبِّهِ حتَّى يدهش فيه ، وتضطرب أحواله ، فيظهر عليه حبُّه . فإن وقَعَ ذلك عن غير تمحُّل أو اكتسابٍ فهو معذور ، لأنه مقهور . وربَّما تشتعل من الحب نيرانه فلا يُطاق سلطانه ، وقد يفيض القلب به فلا يندفع فَيَضانه . فالقادر على الكتمان يقول :

وقالوا : قريبٌ ، قلت : ما أنا صانعٌ
بقُرب شُعاع الشمس لو كان في حِجرى

فمـــالىَ منــــه غير ذكــــرٍ بخـــاطرٍ
يهيِّج نارَ الحبِّ والشَّوقِ في صدرى

والعاجز عنه يقول :

يُخفى فيُبْدِى الدمعُ أسرارَه ويُظْهِرُ الوجْدَ عليه النَّفَسْ

القول في معنى الرضا بقضاء الله تعالى
وحقيقته وما ورد في فضيلته

اعلم أنَّ الرضا ثمرةٌ من ثمار المحبة ، وهو من أعَلى مقامات المقرَّبين ، وحقيقته غامضةٌ على الأكثرين ، وما يدخل عليه من التشابه والإيهام غير منكشفٍ إلَّا لمن علَّمه الله تعالى التأويل ، وفَهَّمَهُ وفقَّهه في الدين . فقد أنكر منكرون تصوُّرَ الرضا بما يخالف الهوى ثم قالوا : إنْ أمكن الرضا بكلِّ شيءٍ لأنَّه فِعلُ الله فينبغى أن يرضَى بالكفر والمعاصى . وانخدع بذلك قومٌ فرأوا الرضا بالفُجور والفسوق ، وتركَ الاعتراض والإنكارِ ، من باب التسليم لقضاءِ الله تعالى . ولو انكشفت هذه الأسرارُ لمن اقتصر على سماع ظواهر الشرع لَمَا دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس حيث قال : « اللهم فقِّهه في الدين ، وعلِّمْه التأويل » .

بيان جملة حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم

قيل لبعض العارفين : إنك مُحبٌّ . فقال : لستُ محبًّا ، إنما أنا محبوب ، والمُحِبّ متعوب .

وقيل لأبي يزيدَ البِسطاميّ مرّةً : حدثْنا عن مشاهدتك من الله تعالى ، فصاح ثم قال : ويلكم لا يصلُح لكم أنْ تَعلَموا ذلك ! قيل : فحدِّثْنا بأشدِّ مجاهدتِك لنفسك فى الله تعالى . فقال : وهذا أيضاً لايجوزُ أنْ أُطلِعَكم عليه . قيل : فحدِّثنا عن رياضة نفسك فى بدايتك . فقال : نعم ، دعوتُ نفسى إلى الله فجمحَتْ علىَّ ، فعزمتُ عليها أن لا أشرب الماءَ سنةً ولا أذوقَ النوم سنة . فوفتْ لى بذلك .

وقد قال بعضُ العارفين : كُوشفتُ بأربعين حَوراءَ رأيتهنَّ يتساعَيْن فى الهواءِ ، عليهنَّ ثيابٌ من ذهب وفضّةٍ وجوهر ، يتخشخش ويتثنَّى معهنَّ ، فنظرت إليهن نظرةً فعُوقِبت أربعين يوماً . ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراءَ فوقَهنّ فى الحسن والجمالِ ، وقيل لى : انظرْ إليهنّ . قال : فسجدت وغَمَّضت عينى فى سجودى لئَلاَّ أنظر إليهنَّ وقلت : أعوذ بك مما سِوَاكَ ! لا حاجة لى بهذا ! فلم أزل أتضرَّع حتّى صرفهنَّ الله عنى.

وفى الأخبار أنَّ الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائِه : إنما أتَّخذُ لِخُلَّتى مَن لا يفتُر عن ذكرى ، ولا يكون له همٌّ غيرى ، ولا يُؤْثِرُ علىَّ شيئاً من خلْقى ، وإنْ حُرِق بالنار لم يجد لحرق النار وجَعاً ، وإنْ قُطِع بالمناشير لم يجد لمسِّ الحديدِ ألماً .

فمن لم يبلغ إلى أن يغلبه الحب إلى هذا الحدِّ فمن أين يعرف ما وراءَ الحبِّ من الكرامات والمكاشفات .

الكتاب السابع

كتاب النية والإخلاص والصدق

الباب الأول

بيان حقيقة النية

اعلم أنَّ النية والإرادة والقصد عباراتٌ متواردة على معنًى واحدٍ ، وهو حالةٌ وصِفةٌ للقلب يكتنفها أمران : علم ، وعمل . العلم يَقْدُمه ، لأنَّه أصله وشرطه . والعمل يتبعه ، لأنَّه ثمرته وفرُعه . وذلك لأنَّ كلَّ عملٍ — أعنى كلَّ حركة وسكونٍ اختيارىٍّ — فإنه لا يتم إلاَّ بثلاثة أُمور : علم ، وإرادة ، وقدرة . لأنَّه لا يريد الإنسان ما لا يعلمُه ، فلا بدَّ وأنْ يعلم ؛ ولا يعمل مالم يُرد ، فلا بدَّ من إرادة . ومعنى الإرادة انبعاثُ القلب إلى ما يراه موافقاً للغرض ، إما فى الحال أو فى المآل ؛ فقد خُلق الإنسان بحيث يوافقه بعضُ الأُمور ويلائِم غرضه ، ويخالفه بعض الأُمور ، فيحتاج إلى جَلب الملائِم الموافق إلى نفسه ، ودفع الضَّارِّ المنافِى عن نفسه ، فافتقر بالضَّرورة إلى معرفةٍ وإدراك للشىء المضر والنافع ، حتى يجلب هذا ويَهربُ من هذا ؛ فإنَّ من لا يبصر الغذاء ولا يعرفُه لا يمكنه أن يتناول ، ومَن لا يبصر النار لا يمكنه الهربُ منها ، فخلق الله الهداية والمعرفة وجعل لها أسباباً ، وهى الحواسُّ الظاهرة والباطنة .

فالنيَّة عبارةٌ عن الصفة المتوسطة ، وهى الإرادة وإنبعاث النفس بحكم الرغبة ، والميلُ إلى ما هو موافقٌ للغرض ، إمَّا فى الحال وإما فى المال . فالمحرك الأوَّل هو الغرض المطلوب وهو الباعث ، والغرض الباعث هو المقصِد المنْوِىُّ ، والانبعاث هو القصد والنية ، وانتهاضُ القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأَعضاء هو العمل .

الباب الثانى

في الإخلاص

بيان حقيقة الإخلاص

اعلم أنَّ كلَّ شيء يُتَصوَّرُ أن يشوبه غيره ، فإذا صفا عن شَوبه وخلص عنه سمِّى خالصاً ، ويسمَّى الفعل المصفَّى المُخْلَص : إخلاصاً . قال الله تعالى : (مِنْ بين فَرْثٍ ودمٍ لبناً خالصاً سائِغاً للشاربين) . . فإنَّما خلوص اللبن أن لا يكونَ فيه شَوبٌ من الدمِ والفَرْثِ ، ومن كلِّ ما يمكن أن يمتزجَ به . والإخلاصُ يضادّه الإشراكُ ؛ فمن ليس مخلصاً فهو مشركٌ ، إلاَّ أنَّ الشرك درجاتٌ . فالإخلاص فى التوحيد يضادّه التشريك فى الإلهيَّة . والشركُ منه خفىٌّ ومنه جلىٌّ ، وكذا الإخلاص. والإخلاص وضدّه يتواردان على القلب ، فمحلُّه القلب ، وإنَّما يكون ذلك فى القُصود والنِّيَّات .

فمن تصدَّق وغرضُه محضُ الرياءِ فهو مُخلص ، ومن كان غرضُه محضَ التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص . ولكن العادة جاريةٌ بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب ، كما أنَّ الإلحاد عبارةٌ عن الميل ، ولكن خصَّصته العادة بالميل عن الحقِّ .

وإنَّما نتكلَّم الآنَ فيمن انبعث لقصد التقرُّب ولكن امتزج بهذا الباعث باعثٌ آخر ، إمَّا من الرياءِ ، أو من حُظوظ النفس . ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحِمْية الحاصلة بالصَّوم مع قصد التقرُّب ؛ أو يَعتقَ عبداً ليتخلَّص من مُؤْنته وسوءِ خلقه ؛ أو يحجَّ ليصحَّ مزاجُه

بحركة السفر ، أو يتخلَّص من شرٍّ يعرِض له فى بلده ؛ أو ليهرب عَن عدوٍّ له فى منزله ، أو يتبرم بأهله وولده ، أو بِشُغلٍ هو فيه فأَراد أن يستريح منه أياماً ؛ أو ليغزوَ وليمارسَ الحرب ويتعلم أسبابه[1] ويقدرَ به على تهيئَة العساكر وجرِّها ؛ أو يصلى بالليل وله غرضٌ فى دفع النعاس عن نفسه به ، ليراقب أهله أو رحلَه ؛ أو يتعلَّم العلمَ لِيسهُل عليه طلبُ ما يكفيه من المال ، أو ليكون عزيزاً بين العشيرة ، أو ليكون عَقاره أو ماله محروساً بعزِّ العلم عن الأَطماع ؛ أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلَّص عن كَرْب الصَّمت ويتفرَّج بلذَّة الحديث ؛ أو تكفَّل بخدمة العلماء والصوفية لتكون حرمتُه وافرةً عندهم وعند الناس ، أو لينالَ به رِفْقاً فى الدنيا ؛ أو كَتَب مُصحفاً ليجوِّد بالمواظبة على الكتابة خطَّه ؛ أو حجَّ ماشياً ليخفِّف عن نفسه الكِراءَ ؛ أو توضَّأَ ليتنظَّفَ أو يتبرَّد ، أو اغتسل لتطيب رائِحته ؛ أو روى الحديث ليعرف بِعلوِّ الإِسناد ؛ أو اعتكف فى المسجد ليخفَّ كِراءُ المسكن ؛ أو صام ليخفِّف عن نفسه التردُّد فى طبْخ الطعام أو ليتفرغ لأَشغاله فلا يشغله الأَكلُ عنها ؛ أو تصدَّق على السائِل ليقطع إبرامه فى السؤَال عن نفسه ؛ أو يعود مريضاً ليعاد إذا مرض ؛ أو يشيع جنازة لتُشيَّع جنائِز أهله ؛ أو يفعل شيئاً من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به ، ويُنظر إليه بعين الصلاح والوقار.

فمهما كان باعثه هو التقربَ إلى الله تعالى ، ولكن انضاف إليه خَطْرة من هذه الخَطْرات ، حتَّى صار العملُ أخفَّ عليه بسببِ هذه الأُمور ، فقد خرج عمله عن حدِّ الإِخلاص وخرج عن أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى ، وتطرَّق إليه الشرك .

---

(١) الحرب مؤنثة ، وقد تذكر .

وبالجملة : كلُّ حظٍّ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفسُ ويميل إليه القلب ـ قلَّ أم كثر ـ إذا تطرق إلى العمل تكدَّر به صفوه، وزال به إخلاصُه.

بيان أقاويل الشيوخ في الإخلاص

قال السُّوسى : « الإخلاصُ فقدُ رؤية الإخلاص » ، فإنَّ من شاهد فى إخلاصه الإخلاصَ فقد احتاج إخلاصُه إلى إخلاص .

وما ذكره إشارةٌ إلى تصفية العمل عن العُجب بالفعل ؛ فإن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه عُجب ، وهو من جملة الآفات .

والخالص : ما صفا عن جميع الآفات ، فهذا تعرَّض لآفة واحدة .

وقال سهل رحمه الله تعالى : « الإخلاصُ أنْ يكونَ سكونُ العبد وحركاته لله تعالى خاصة » . وهذه كلمة جامعة محيطة بالغرض . وفى معناه قول إبراهيم ابن أدهم : « الإخلاصُ صِدقُ النية مع الله تعالى » .

وقيل لسهل : أىُّ شىء أشدُّ على النفس ؟ فقال : الإخلاص ، إذْ ليس لها فيه نصيب .

وقال أبو عثمان : « الإخلاصُ نسيان رؤْية الخلق بدوام النظر إلى الخالق فقط » . وهذه إشارة إلى آفة الرياء فقط ؛ ولذلك قال بعضهم : الإخلاص فى العمل أن لا يتطلَّع عليه شيطانٌ فيفسده ، ولا مَلَك فيكتُبَه ؛ فإنَّه إشارة إلى مجرّد الإخفاء .

وقد قيل : الإخلاصُ ما استتر عن الخلائِق ، وصَفَا عن العلائِق . وهذا أجمعُ للمقاصد .

وقال المحاسبى : « الإخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الربِّ » . وهذا إشارةٌ إلى مجرد نفى الرياء .

وقال الجنيد : « الإخلاص تصفية العمل من الكدورات » .

وقال الفضيل : « تَرك العمل من أجل الناس رياءٌ . والعمل من أجل الناس شركٌ ، والإخلاص أن يعافيَك الله منهما » .

وقيل : الإخلاصُ دوامُ المراقبة ونسيان الحظوظ كلِّها . وهذا هو البيان الكامل .

والأقاويل فى هذا كثيرة ، ولا فائدةَ فى تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة .

الباب الثالث

في الصدق وفضيلته وحقيقته

فضيلة الصدق

قال الله تعالى : (رجالٌ صَدَقوا ما عَاهَدُوا اللهَ عليه) . وقال النبي صلى اللهَ عليه وسلم : « إنَّ الصدق يَهْدِي إلى البرّ ، والبرَّ يهدى إلى الجنة ، وإنّ الرجلَ ليَصْدُقُ حتَّى يُكتَبَ عند الله صِدِّيقاً . وإنَّ الكذبَ يهدِى إلى الفُجُور ، والفجورَ يهدى إلى النار ، وإنَّ الرجلَ ليَكذِبُ حتَّى يُكتَبَ عند الله كذَّاباً » .

ويكفى فى فضيلة الصدق أنَّ الصّديق مشتق منه ، والله تعالى وصف الأنبياء به فى مَعرِض المدح والثناء فقال : (واذكر فى الكتاب إبراهيمَ إنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نبيًّا) . وقال : (واذكُرْ فى الكِتَابِ إسماعيل إنه كانَ صادِقَ الوَعْد وكانَ رسولاً نَبِيًّا) . وقال تعالى : (واذكُر فى الكتاب إدريس إنه كان صِدِّيقاً نبيًّا) .

وقال ابن عباس : أربعٌ مَن كنَّ فيه فقدْ رَبِحَ : الصدق ، والحياء ، وحسن الخلق ، والشكر .

وقال بشر بن الحارث : من عامل الله بالصِّدق استوحَش من الناس .

وقال أبو سليمان : اجعل الصدقَ مطيَّتَك ، والحقَّ سيفَكَ ، والله تعالى غايةَ طلبِك .

وقال رجل لحكيم : ما رأيتُ صادقاً ! فقال له : لو كُنْتَ صادقاً لعرفتَ الصادقين .

وقيل لذى النون : هل للعبد إلى صلاحِ أموره سبيل ؟ فقال :

قد بقينا من الذُّنوب حَيارَى نطلبُ الصِّدقَ ما إليه سبيلُ

فدعاوَى الهـوى تخفُّ علينا وخلافُ الهـوى علينا ثقيلُ

بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه

اعلم أنَّ لفظ الصدق يُستعمل فى ستة معان : صدق فى القول ، وصدق فى النية والإرادة ، وصدقٌ فى العزم ، وصدقٌ فى الوفاء بالعزم ، وصدق فى العمل ، وصدقٌ فى تحقيق مَقَامات الدِّين كلِّها . فمن اتَّصف بالصدق فى جميع ذلك فهو صِدِّيقٌ ؛ لأنه مبالغة فى الصدق .

الصدق الأَولُ : صدق اللسان ، وذلك لا يكون إلا فى الإخبار أو فيما يتضمن الإخبار وينبِّه عليه . والخبر إما أن يتعلَّق بالماضى أو بالمستقبل وفيه يدخل الوفاءُ والخُلف فيه . وحقٌّ على كلِّ عبدٍ أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلَّم إلاَّ بالصدق . وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها . فمن حَفِظ لسانه عن الإخبار عن الأَشياء على خلاف ما هى عليه فهو صادق .

الصدق الثانى : فى النية والإرادة . ويرجع ذلك إلى الإخلاص ، وهو أن لا يكون له باعث فى الحَرَكات والسكنات إلاَّ الله تعالى ، فإن مازجَه شوبٌ من حظوظ النفس بَطَل صدق النية ، وصاحبه يجوز أن يسمَّى كاذباً .

الصدق الثالث : صدق العزم ؛ إنَّ الإنسان قد يقدِّم العزم على العمل فيقول فى نفسه : إنْ رزَقَنى الله مالاً تصدَّقت بجميعه ــ أو بشَطره ، أو إنِ لقيت عدوًّا فى سبيل الله تعالى قاتلتُ ولم أُبالِ وإن قُتلت ، وإن أعطانى الله تعالى ولايةً عدلت فيها ولم أعصِ الله تعالى بظُلم وميل إلى

خَلق . فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهى عزيمةُ جازمة صادقة ؛ وقد يكون فى عزمه نوعُ ميل وتردد وضعفُ ، يضادُّ الصدق فى العزيمة ، فكان الصدقُ ههنا عبارةً عن التمام والقوَّة ؛ كما يقال : لفلان شهوة صادقةٌ .

الصدق الرابع : فى الوفاء بالعزم ، فإنَّ النفسَ قد تسخو بالعَزْم فى الحال ، إذ لا مشقَّة فى الوعد والعزم ، والمئونة فيه خفيفة ، فإذا حقَّت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات ، انحلَّت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتَّفق الوفاء بالعزم ، وهذا يضادُّ الصدق فيه . ولذلك قال الله تعالى : (رجالٌ صَدَقُوا ما عاهدوا الله عليه) . عن أنس : أن عمه أَنَسُ ابن النضر لم يشهد بدراً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشقَّ ذلك على قلبه وقال : أوّل مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبتُ عنه ، أمَا والله لئِن أرانى الله مَشهدًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليَرَينَّ اللهُ ما أصنع ! قال : فشهد أُحداً فى العام القابل فاستقبله سَعد ابن معاذ فقال : يا أبا عمرو إلى أين ؟ فقال : واهاً لريح الجنة ! إنى أَجِدُ ريحهَا دون أُحُد ! فقاتل حتَّى قتل ، فوُجد فى جسده بضعٌ وثمانون ما بين رَميةٍ وضربة وطعنة ، فقالت أُخته بنت النضر : ما عرفتُ أخِى إلاَّ بثيابه . فنزلت هذه الآية : (رجالٌ صَدَقوا ما عاهَدُوا الله عليه) .

الصدق الخامس : فى الأَعمال ؛ وهو أن يجتهد حتَّى لا تدلَّ أعماله الظاهرة على أمرٍ فى باطنه لا يتَّصف هو به ، لا بأَن يترك الأَعمال ، ولكن بأَن يستجرَّ الباطنَ إلى تصديق الظاهر ، وهذا مخالفٌ ما ذكرناه من ترك الرياء ؛ لأَنَّ المرائىَ هو الذى يقصد ذلك . ورُبَّ واقفٍ على هيئة الخشوع فى صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ، ولكن قلبه غافلٌ عن الصَّلاةِ ، فمن ينظر إليه يراه قائماً بين يدى الله تعالى ، وهو بالباطن قائم فى السُّوق بين يدَىْ شهوة من شهواته .

وكذلك قد يمشى الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنُه موصوفا بذلك الوقار ، فهذا غيرُ صادقٍ فى عمله وإن لم يكن ملتفتاً إلى الخلق ولا مرائياً إياهم .

الصدق السادس : وهو أعلى الدرجات وأعزُّها : الصدق فى مقامات الدين ، كالصِّدق فى الخوف والرجاء ، والتعظيم والزهد، والرضا والتوكل والحب ، وسائِر هذه الأُمور ؛ فإنَّ هذه الأُمور لها مَبادٍ ينطلق الاسم بظهورها ، ثم لها غايات وحقائِق ، والصادق المحقِّق مَنْ نال حقيقتها . وإذا غلب الشيءُ وتمت حقيقته سمِّى صاحبه صادقاً فيه ، كما يقال : فلان صَدقَ القتال . ويقال : هذا هو الخوف الصادقُ، وهذه هى الشَّهوة الصادقة .

ثم درجاتُ الصدق لا نهايةَ لها ، وقد يكون للعبد صدقٌ فى بعض الأُمور دونَ بعض ، فإن كان صادقاً فى جميع الأُمور فهو الصِّدِّيق حقًّا .

قال سعد بن مُعاذ : ثلاثة أنا فيهنَّ قوىٌّ وفيما سواهنَّ ضعيف ؛ ما صلَّيتُ صلاةً منذ أسلمتُ فحدَّثتُ نفسى حتَّى أفرغ منها ، ولا شيَّعتُ جِنازةً فحدَّثت نفسى بغير ماهى قائِلةٌ وما هو مقول لها حتَّى يُفرغ من دفنها ، وما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قولاً إلاَّ علمتُ أنَّه حق . فقال ابن المسَّيب :ما ظننتُ أن هذه الخصال تجتمع إلاَّ فى النبى عليه السلام .

الكتاب الثامن

كتاب المراقبة والمحاسبة

أما بعد : فقد قال الله تعالى : (ونَضَعُ الموازين القِسْطَ ليوم القيامة فلا تُظْلَمُ نفسٌ شيئاً وإن كانَ مثقالَ حَبّةٍ من خَردل أتَيْنَا بها وكَفى بنا حَاسِبين) . وقال تعالى : (ووُضِعَ الكتَابُ فَتَرَى المجرمين مُشْفِقِينَ مما فيه ويَقُولون يا وَيلتنا مالهذا الكِتاب لايُغادِرُ صغيرةً ولا كَبيرةً إلاّ أحْصَاها ووجَدوا ماعَملوا حاضراً ولا يَظْلِمُ ربُّك أحداً) . وقال تعالى : (يوم يَبْعثُهُمُ الله جميعاً فينبِّئُهم بما عملوا أَحصاهُ الله ونَسُوهُ واللهُ على كلِّ شيءٍ شَهيدٌ). وقال تعالى :(يومَئذٍ يَصْدُرُ الناس أشتاتاًليُرَوْا أعمالَهم * فَمَنْ يعمل مثقالَ ذَرَّةٍ خيراً يَرَهُ * ومن يَعْمَلْ مِثقالَ ذرَّةٍ شرًّا يَره) . وقال تعالى :(ثم تُوَفَّى كلُّ نفسٍ ما كَسَبَتْ وهم لا يُظْلَمون) . وقال تعالى: (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نفسٍ ما عَمِلت مِن خيرٍ مُحْضراً وما عَمِلتْ من سُوءٍ تَوَدُّ لو أنَّ بينها وبينه أمداً بعيداً ويُحَذِّرُكُمُ الله نفسه) .وقال تعالى : (واعْلَموا أنَّ الله يَعْلَمُ مافى أنفسِكُمْ فاحذَرُوه) .

فعرَف أرباب البصائر من جملة العباد أنَّ الله تعالى لهم بالمرصاد ، وأنَّهم سيناقَشُون فى الحساب ، ويُطالَبون بمثاقيل الذرِّ من الخطرات واللحظات ، وتحقَّقوا أنه لا يُنْجيهم من هذه الأَخطار إلاَّ لزومُ المحاسبة ، وصِدْقُ المراقبة ومطالبةُ النفس فى الأَنفاس والحركات ، ومحاسبتها فى الخطرات واللحظات . فمن حاسب نفسَه قبل أن يُحاسَب خَفَّ فى القيامة حسابه ، وحَضَر عند السؤال جوابُه ، وحَسُنَ منقلبُه ومابُه . ومَن

لم يحاسبْ نفسَه دامتْ حَسَراتُه ، وطالت فى عِراصِ القيامة وقَفاتُه . وقادته إلى الخزى والمقت سيئاته .

فلما انكشف لهم ذلك علموا أنَّه لا ينجيهم منه إلاَّ طاعةُ الله ، وقد أمرهم بالصبر والمرابطة ، فقال عزَّ مَن قائِل : (يأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وصَابِرُوا وَرَابِطُوا).فرابَطُوا أنفسهم أَوَّلاً بالمشارطة ، ثم بالمراقبة ، ثم بالمحاسبة ، ثم بالمعاقبة ، ثم بالمجاهدة ، ثم بالمعاتبة . فكانت لهم فى المرابطة ستُّ مقامات ، ولا بدَّ من شرحها وبيان حقيقتها وفضيلتها ، وتفصيلِ الأعمال فيها، وأَصْلُ ذلك المحاسبة ، ولكن كلُّ حساب فبعد مشارطةٍ ومراقبة ، ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة . فلْنذكرْ شرح هذه المقامات ، وبالله التوفيق .

المقام الأول من المرابطة

المشارطة

اعلم أنَّ مطالب المتعاملين فى التجارات المشتركين فى البضائع عند المحاسبة سلامةُ الرِّبْح . وكما أنَّ التاجر يستعين بشريكه فيُسلم إليه المال حتَّى يتَّجر ثم يحاسبه ، فكذلك العقلُ هو التاجر فى طريق الآخرة، وإنَّما مطلبُه وربحه تزكيةُ النفس ، لأَنَّ بذلك فلاحَها . قال الله تعالى : (قد أَفلحَ مَنْ زكَّاها ۞ وقد خابَ مَنْ دَسَّاها) . وإنَّما فلاحُها بالأَعمال الصالحة . والعقل يستعين بالنفس فى هذه التجارة ، إذْ يستعملها ويستسخرها فيما يزكِّيها . كما يستعين التاجر بشريكه وغلامِه الذى يَتَّجر فى ماله .

وكما أنَّ الشريك يصير خَصماً منازِعاً يجاذبه فى الرِّبْح فيحتاج إلى أن يشارطه أَوَّلاً ، ويراقبه ثانياً ، ويحاسبه ثالثاً ، ويعاقبه أو يعاتبُه

رابعاً ؛ فكذلك العقل يحتاجُ إلى مشارطة النفس أوّلا ، فيوظّف عليها الوظائف ، ويَشْرُطُ عليها الشروط ، ويُرشِدها إلى طُرق العلاج ، ويَجزم عليها الأمرَ بسلوك تلك الطرق ، ثم لا يغفُل عن مراقبتها لحظة ؛ فإنّه لو أهملها لم يَرَ منها إلاّ الخيانة وتضييعَ رأس المال ، كالعبد الخائن إذا خَلا له الجوّ وانفرد بالمال.

ثم بعد الفراغ ينبغى أن يحاسبهَا ويطالبهَا بالوفاء بما شَرط عليها ؛ فإنّ هذه تجارةٌ رِبْحُهَا الفردوسُ الأعلى ، وبُلوغُ سِدرةِ المنتَهى مع الأنبياء والشّهداء . فتدقيق الحساب فى هذا مع النّفْس أهمّ كثيراً من تدقيقه فى أرباح الدنيا ، مع أنّها محتقرة بالإضافة إلى نَعِيم العُقْبى . ثم كيفما كانت فمصيرها إلى التصرُّمِ والانقضاء ، ولا خيرَ فى خيرٍ لا يدوم ؛ بل شرٌّ لا يدومُ ، خيرٌ من خيرٍ لا يدوم ، لأَنَّ الشر الذى لا يدوم إذا انقطع بقِى الفرحُ بانقطاعه دائماً وقد انقضى الشر ، والخير الذى لا يدوم يبقى الأَسف على انقطاعه دائماً وقد انقضى الخير . ولذلك قيل:

أَشَدُّ الغمّ عندى فى سرور تَيَقَّنَ عنه صاحبُه انتقالا

فحتمٌ على كلِّ ذى حزمٍ آمنَ باللهِ واليوم الآخِر أن لا يغفُلَ عن محاسبة نفسه والتضييق عليها فى حركاتِها وسكناتِها، وخَطراتِها وخُطُواتِها، فإن كلَّ نَفَسٍ من أنفاس العمْرِ جوهرةٌ نفيسة لا عوضَ لها ، يمكن أن يُشتَرى بها كَنْزٌ من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبدَ الآباد . فانقباض هذه الأَنفاس ضائِعةً أو مصروفةً إلى ما يجلبه الهلاكَ خسرانٌ عظيم هائِل ، لا تسمح به نفس عاقل .

فإذا أصبح العبدُ وفرغ من فريضة الصُّبح ينبغى أن يفرِّغَ قلبَه ساعةً لمشارطة النفس ، كما أنَّ التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرِّغ المجلس لمشارطته . فيقول للنفس : مالى بضاعة إلاّ العمر ، ومهما

فقد فنى رأس المـال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الرِّبح ، وهـذا اليومُ الجديد قد أمهلنى الله فيه ، وأنسأَ فى أجلى[٢] ، وأنعم علىَّ به . ولو توفَّانى لكنت أتمنَّى أنْ يَرجعنى إلى الدنيا يوماً واحداً حتَّى أعمل فيه صالحاً ، فاحسُبى أنك قد توفِّيتِ ثم رُدِدْتِ ، فإياكِ ثم إياكِ أن تضيعى هذا اليوم ، ، فإن كل نَفسٍ من الأَنفاس جوهرةٌ لا قيمة لها . واعلمى يانفسُ أنَّ اليوم والليلة أربعٌ وعشرون ساعة .

المرابطة الثانية

المراقبـة

إذا أوصى الإنسان نفسَه وشرط عليها ماذكرناه فلا يبقى إلاَّ المراقبة لها عند الخَوض فى الأَعمال ، وملاحظتُها بالعين الكالئة ؛ ؛ فإنَّها إن تُركت طغت وفسدت . ولنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها .

أما الفضيلة فقد سأَل جبريلُ عليه السلام عن الإحسان فقال : « أن تَعْبُدَ اللهَ كأَنكَ تراه » . وقال عليه السلام : « اعبد الله كأَنَّك تراه فإنْ لم تكن تراه فإنه يراك » . وقد قال تعالى : (أَفمن هُوَ قائمٌ عَلَى كلِّ نفسٍ بما كَسَبَتْ) . وقال تعالى : (أَلم يَعْلَمْ بأَنَّ الله يَرَى) . وقال تعالى: (إنَّ الله كانَ عليكمَ رَقيباً » .

وسُئل المحاسبىُّ عن المراقبة فقال : أَوَّلُها علم القلب بقرب الربِّ تعالى .

وقال المرتعش: المراقبة مراعاة السرِّ بملاحظة الغيب مع كلِّ لحظةٍ ولفظة.

وقد قيل :

إذا ما خلوتَ الدهر يوما فلا تقلْ   خلوتُ ولـكن قل علىَّ رقيبٌ

---

(١) الإنساء : التأخير .

ولا تحسَبَنَّ اللهَ يغفل ساعةً ولا أنَّ ما تخفيه عنه يغيبُ
ألم تر أنَّ اليوم أسْرَعُ ذاهب وأنَّ غداً للناظرين قريبُ

وقال حُميدٌ الطويل لسليمان بن على : عِظْنى . فقال : لئن كنتَ إذا عَصَيتَ الله خالياً ظننت أنه يراك فلقَدْ أجترأْتَ على أمر عظيم ، ولئن كنت تظنُّ أنه لا يراك فلقد كفرت .

بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها

اعلم أنَّ حقيقة المراقبة هى ملاحظةُ الرقيب وانصراف الهمِّ إليه ، فمن احترز من أمرٍ من الأُمور بسبب غيرِه يقال : إنَّه يراقِبُ فلاناً ويُراعى جانبه . ويعنى بهذه المراقبة حالةً للقلب يثمرها نوعٌ من المعرفة ، وتثمر تلك الحالة أعمالا فى الجوارح وفى القلب .

والموقنون بهذه المعرفة هم المقرَّبون ، وهم ينقسمون إلى الصِّدِّيقين وإلى أصحاب اليمين ، فمراقبتهم على درجتين .

الدرجة الأُولى : مراقبة المقرَّبين من الصِّدِّيقين ؛ وهى مراقبة التعظيم والإجلال ، وهو أن يصير القلبُ مُستغرقاً بملاحظة ذلك الجلال ، ومنكسراً تحت الهيبة ، فلا يبقى فيهِ متَّسَعٌ للالتفاتِ إلى الغير أصلاً .

الدرجة الثانية : مراقبة الورِعين من أصحاب اليمين ؛ وهم قومٌ غلب يقينُ اطِّلاعِ الله على ظاهرهم وباطنهم وعلى قُلوبِهم ، ولكن لم تُدهشْهم ملاحظة الجلال ، بل بقيت قلوبُهم على حدِّ الاعتدال متَّسعةً للتلفت إلى الأَحوال والأَعمال ، إلاَّ أنَّهَا مع ممارسة الأَعمال لا تخلو عن المراقبة . نعم غَلبَ عليهم الحياءُ من الله فلا يُقدمون ولايُحجمون إلاَّ بعد التثبُّت فيه ، ويمتنعون عن كلِّ ما يفتضحون به فى القيامة ، فإنَّهم يرون الله فى الدنيا مطَّلِعاً عليهم ، فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة .

المرابطة الثانية

محاسبة النفس بعد العمل

ولنذكرْ فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها :

أما الفضيلة : فقد قال الله تعالى : (يـأيُّها الذين آمنوا اتَّقوا الله وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ماقَدَّمتْ لغدٍ). وهذه إشارةٌ إلى المحاسبة على مامضى من الأعمال ؛ ولذلك قال عمر رضى الله تعالى عنه : حاسِبوا أنفسَكم قبل أن تُحاسَبوا ، وزنُوها قبل أن تُوزنُوا .

وقال الله تعالى : (إن الذين اتَّقَوْا إذا مَسَّهُمْ طائفٌ من الشيطان تَذكَّروا فإذا هُم مُبصِرون) .

وقال الحسن : المؤْمن قَوَّام على نفسه يُحاسبها لله ، وإنَّما خفَّ الحسابُ على قوم حاسبوا أنفسَهم فى الدنيا ، وإنما شقَّ الحسابُ يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمرَ من غير محاسبة . ثم فسَّر المحاسبة فقال : إنَّ المؤْمن يَفجؤُهُ الشيءُ يُعجبه فيقول : واللهِ إنَّك لتعجبنى وإنك من حاجتى ، ولكن هيهاتَ ، حِيلَ بينى وبينك ! وهذا حسابٌ قبل العمل. ثم قال : وَيفْرُطُ[1] منه الشيءُ فيرجع إلى نفسه فيقول : ماذا أردتُ بهذا ؟ واللهِ لا أُعذَر بهذا ، واللهِ لا أعود لهذا أبداً إنْ شاء اللهُ !

بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل

اعلم أنَّ العبدَ كما يكون له وقتٌ فى أوَّل النهار يشارط فيه نفسَه على سبيل التوصية بالحق ، فينبغى أن يكون له فى آخر النهار ساعةٌ

---

(١) فرط الشيء : سبق .

يطالب فيها النفسَ ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها – كما يفعل التُّجّار فى الدنيا مع الشركاء فى آخر كلِّ سنة أو شهر أو يوم ، حرصاً منهم على الدنيا ، وخوفاً من أن يفوتهم منها ما لَوْفاتهم لكانت الخِيَرة لهم فى فواته ! ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلاَّ أياماً قلائِل ، فكيف لايحاسِبُ العاقلُ نفسه فيما يتعلَّق به خَطَر الشَّقاوة والسعادة أبد الآباد؟

ما هذه المساهلة إلاَّ عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق . نعوذُ بالله من ذلك .

ثم ينبغى أن يحاسبَ النفس على جميع العمر يوماً يوماً ، وساعة ساعةً ، فى جميع الأَعضاء الظاهرة والباطنة – كما نُقل عن توبة بن الصمة ، وكان بالرَّقَّة[1] ، وكان محاسِباً لنفسه ؛ فحسَبَ يوماً فإذا هو ابنُ ستِّين سنة ، فحسب أيامَها فإذا هى أحد وعشرون ألفَ يوم وخمْسُمائة يوم ، فصرخ وقال : يا ويْلتى أَلْقى المَلَكَ بأَحدٍ وعشرين ألف ذنب ! فكيف وفى كل يوم عشرةُ آلاف ذنب ؟ ثم خرَّ مغشياً عليه فإذا هو ميت فسمعوا قائِلاً يقول : ياللكِ ركضةً إلى الفردوس الأَعلى !

فهكذا ينبغى أن يحاسِب نفسه على الأَنفاس ، وعلى معصيته بالقلب والجوارح فى كلِّ ساعة .

ولو رمىَ العبدُ بكلِّ معصية حجَراً فى داره لامتلأَت داره فى مدة يَسيرةٍ قريبة من عمره ، ولكنَّه يتساهل فى حفظ المعاصى ، والملَكانِ يحفظان عليه ذلك : (أَحْصَاهُ اللهُ ونَسُوه) .

---

(١) الرقة : إحدى مدن العراق .

المرابطة الرابعة

في معاقبة النفس على تقصيرها

مهما حاسَب نَفسَه فلم تسلمْ عن مُقارفة معصية ، وارتكاب تقصيرٍ فى حقِّ الله تعالى ، فلا ينبغى أن يهملَها ؛ فإنَّه إنْ أهملها سَهُل عليه مقارفةُ المعاصى[1] ، وأنِست بها نفسُه وعَسُرَ عليه فطامها ، وكان ذلك سببَ هلاكها. بل ينبغى أن يعاقبها ، فإذا أكل لقمةَ شبهةٍ بِشهوة نفسٍ ينبغى أن يعاقب البطنَ بالجوع ؛ وإذا نظَر إلى غير مَحرمٍ ينبغى أن يعاقب العينَ بمنع النظر ، وكذلك يعاقب كلَّ طَرْف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته .

هكذا كانت عادة سالكى طريق الآخرة .

ويُحكى عن تميم الدارىِّ أنَّه نام ليلةً لم يقمْ فيها يتهجد ؛ فقام سنةً لم يَنَمْ فيها عقوبةً للذى صنع .

وعن طَلحة رضى الله تعالى عنه قال : انطلق رجلٌ ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ فى الرَّمْضاء فكان يقول لنفسه : ذُوق ! ونارُ جهنم أشدُّ حرًّا ! أجيفةً بالليل بطَّالةً بالنهار ؟ !

وكان الأحنفُ بن قيس لايفارقه المصباح بالليل ، فكان يضع إصبعَه عليه ويقول لنفسه : ما حملكِ على أن صنعتِ يومَ كذا كذا ؟

وأنكر وُهيب بن الورد شيئاً على نفسه ، فنتف شَعَرات على صدره حتى عظم ألمه ، ثم جعل يقول لنفسهِ ، ويحكِ ! إنما أُريدُ بِكِ الخير .

ورأى محمد بن بشرٍ داودَ الطائىَّ ، وهو يأْكل عندَ إفطاره خبزاً

---

(١) مقارفة المعاصى : مقاربتها وارتكابها .

بغير مِلح فقال له ، لو أكلتَه بملح ! فقال ، إن نفسى لتدعونى إلى الملْح منذ سنةٍ ، ولا ذاق داوُد ملحاً مادام فى الدُّنيا .

فهكذا كانت عقوبةُ أُولى الحزم لأَنفسهم .

والعجَبُ أَنَّك تعاقب عبدك وأَمتك وأَهلك وولدَكَ على ما يصدر منهم من سُوء خُلُقٍ وتقصيرٍ فى أَمر ، وتخافُ أَنَّك لو تجاوزت عنهم لخرج أَمرهم عن الاختيار وبَغَوا عليك، ثم تُهمِل نفسَك وهى أَعظم عدوٍّ لك وأَشدُّ طغياناً عليك، وضررك من طغيانها أَعظمُ من ضررك من طغيان أَهلك .

المرابطة الخامسة

المجاهـدة

وهو أَنَّه إذا حاسبَ نفسَه فرآها قد قارفت معصيةً فينبغى أن يعاقبها بالعقوبات التِّى مضَتْ ، وإن رآها تتوانى بحُكم الكسل فى شىءٍ من الفضائل أو وِرْدٍ من الأَوراد ، فينبغى أَن يؤدِّبَها بتثقيل الأَوراد عليها ، ويلزمها فنوناً من الوظائف جبراً لما فات منه ، وتداركاً لما فرط . فهكذا كان يعمل عُمَّال الله تعالى .

فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسَه حين فاتته صلاة العصر فى جماعةٍ بأَن تصدَّق بأَرضٍ كانت له ، قيمتها مائتا أَلف درهم .

وكان ابن عمر إذا فاتته صلاةٌ فى جماعة أَحيا تلك الليلة . وأَخَّر ليلةً صلاةَ المغرب حتّى طلع كوكبان فأَعتق رقبتين .

وفات ابنَ أَبى ربيعة[1] ركعتا الفجر فأَعتق رقبة .

وكان بعضهم يجعل على نفسه صـــومَ سنة ، أو الحجَّ ماشياً ، أَوالتصدُّقَ بجميع ماله . كل ذلك مرابطةٌ للنَّفس ومؤاخذةٌ لها بما فيه نجاتُها .

---

(١) هو الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة ، والى البصرة ، وأحد كبار التابعين تهذيب التهذيب والإصابة ٢٠٣٩

ويُحكى أن قوماً دخلوا على عمرَ بنِ عبد العزيز يعودُونه فى مرضه ، وإذا فيهم شابٌ ناحلُ الجسم ، فقال عمر له : يافتى ، ما الذى بلغَ بك ما أرى ؟ فقال : يأميرَ المؤمنين ، أسْقامٌ وأمراض . فقال : سألتك بالله إلاَّ صَدَقْتنى ! فقال : يا أمير المؤمنين ، ذُقت حلاوةَ الدنيا فوجدتُها مُرَّةً ، وصغُر عندى زهرتُها وحلاوتها . واستوى عندى ذهبها وحَجَرها ، وكأنّى أنظر إلى عرش ربِّى والناس يُسَاقُونَ إلى الجنة والنار ، فأظمَأْت لذلك نهارى . وأسْهَرتُ ليلى ، وقليلٌ حقير كلٌّ ما أنا فيه ، فى جَنْب ثواب الله وعقابه .

وقال أبو الدرداء : لولا ثلاثٌ ما أحببت العيش يوماً واحداً : الظّمأُ لله بالهواجر . والسُّجود لله فى جوف الليل ، ومجالسة أقوام ينتقون أطايبَ الكلام كما يُنتقَى أطايب الثمر .

وكان الأسود بن يزيد يجتهد فى العبادة ويصوم فى الحر حتّى يخضرَّ جسده ويصفرّ ، فكان علقمة بن قيس يقول له : لِمَ تعذِّبُ نفسك؟ فيقول : كرامتَها أُريد .

وقيل : إنّ قوماً أرادوا سفراً فحادوا عن الطريق ، فانتَهوا إلى راهب منفرد عن الناس ، فنادَوْه فأشرفَ عليهم من صَومعته ، فقالوا : ياراهبُ إنّا قد أخطأْنا الطريق فكيف الطريق ؟ فأَومأَ برأسه إلى السماء ، فعلم القومُ ما أراد ، فقالوا : ياراهبُ إنا سائِلوك فهل أنت مُجيبُنا ؟ فقال : سَلُوا ولا تكثروا ؛ فإنّ النهار لن يرجع والعُمر لايعود . والطالبَ حثيث . فعجب القومُ من كلامه فقالوا : ياراهبُ عَلامَ الخلقُ غداً عند مَليكهم ؟ فقال : علىَ نيّاتهم . فقالوا : أوصِنا . فقال : تزودوا على قَدْر سفركم ، فإنّ خير الزاد ما بلّغ البغية . ثم أرشدهم إلى الطريق وأدخل رأسه فى صومعته .

وقيل لداود الطائى : لو سرحت لحيتَك . فقال : إنى إذنْ لفارغٌ .

وكان كُرز بن وَبَرة يختم القرآن فى كلِّ يوم ثلاثَ مرات ، ويجاهد نفسَه فى العبادات غايةَ المجاهدة ، فقيل له : قد أجهدتَ نفسك ! فقال كم عمرُ الدنيا ؟ فقيل : سبعة آلاف سنة . فقال : كم مقدار يوم القيامة ؟ فقيل : خمسون ألف سنة . فقال : كيف يعجز أحدكم أن يعمل سُبعَ يوم حتّى يأمن ذلك اليوم ؟

فإن حدَّثتك نفسُك بأنَّ هؤلاء رجالٌ أقوياءُ لا يُطاق الاقتداءُ بهم ، فطالعْ أحوالَ النساء المجتهدات وقل لها : يانفسُ لا تستنكفى أنْ تكونى أقلَّ من امرأة ، فأخسِسْ برجل يقصُر عن امرأة فى أمر دينها ودُنْياها .

ولنذكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات :

فقد روى عن حَبيبة العدوية أنَّها كانت إذا صلَّت العتمةَ قامت على سطحٍ لها ، وشدَّت عليها دِرعها وخمارها ثم قالت : إلهى قد غارت النجومُ ونامت العيون ، وغلَّقت الملوكُ أبوابها ، وخلا كلُّ حبيب بحبيبه ، وهذا مَقامى بين يديك ! ثم تقْبلُ على صلاتها ، فإذا طلع الفجر قالت : إلهى هذا الليلُ قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفَر ، فليت شعرى أقَبِلتَ منِّى ليلتى فأهنأَ ، أم رددتَها علىَّ فأُعزَّى ؟وعزَّتِك لَهَذا دأبى ودأبُك ما أبقيتنى ، وعزَّتِك لو انتهرتنى عن بابِك مابرحتُ ؛ لِمَا وقع فى نفسى من جودك وكرمك .

ويروى عن عَجردةَ أنَّها كانت تُحيِي الليل ، وكانت مكفوفة البصر ، فإذا كان السَّحَر نادت بصوتٍ لها محزون : إليك قطعَ العابدون دُجَى الليالى بستَبِقون إلى رحمتك وفَضْل مغفرتك ، فبكَ يا إلهى أسألُك لا بغيرك ، أن تجعلنى فى أوَّل زُمرة السابقين ، وأن ترفعَنى لديك فى عِلِّيِّين ، فى درجة المقرَّبين ، وأن تُلْحِقَنى بعبادك الصالحين ، فأنت أرحم الرحماء ، وأعظم العظماء ، وأكرمُ الكُرماء يا كريم ! ثم تخرُّ ساجدة فيسمع لها وَجْبة ، ثم لا تزال تدعو وتبكى إلى الفجر .

وقال يحيى بن بِسطام : كنتُ أشهد مجلس شَعْوانة ، فكنتُ أرى ما تصنع من النِّياحة والبكاء ، فقلت لصاحبٍ لى : لو أتيناها إذا خَلَتْ فأمرناها بالرفق بنفسها ؟ فقال : أنتَ وذاك . قال: فأتيناها فقلت لها : لو رفقتِ بنفسك وأقصرتِ عن هذا البكاء شيئاً فكان لكِ أقوى على ما تريدين ؟ قال : فبكت ثم قالت : واللهِ لودِدتُ أنِّى أبكى حتى تَنفَدَ دموعى ، ثم أبكى دماً حتَّى لا تبقى قطرة من دم فى جارحة من جوارحى ! وأنَّى لى بالبكاء وأنَّى لى بالبكاء ! فلم تزل تردِّدُ : « وأنَّى لى بالبكاء » حتَّى غُشِىَ عليها .

فعليك إن كنتَ من المراقبين لنفسك أن تطالعَ أحوالَ الرجال والنساء من المجتهدين ، لينبعثَ نشاطُكَ ، ويزيدَ حِرصُكَ . وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك ، فإنك إن تُطِعْ أكثر مَن فى الأرض يُضِلُّوك عن سبيل الله .

وحكايات المجتهدين غير محصورة ، وفيما ذكرناه كفايةٌ للمعتبِر . وإنْ أرَدْتَ مزيداً فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب « حلية الأولياء » ، فهو مشتملٌ على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومَن بعدَهم . وبالوقوف عليه يستبين لك بُعدُكَ وبُعْدُ أهل عصرك من أهل الدين .

المرابطة السادسة

في توبيخ النفس ومعاتبتها

اعلم أنَّ أعدَى عدوِّك نفسُكَ التى بين جنبيك ، وقد خُلقَتْ أمَّارةً بالسوء ، ميَّالةً إلى الشر ، فرَّارة من الخير ، وأُمرتَ بتزكيتها وتقويمها ، وقَوْدِها بسلاسل القهر إلى عبادة ربِّها وخالقها ، ومَنْعِها عن شهواتها ، وفطامها عن لذَّاتها ، فإن أهملتَها جَمَحتْ وشَرَدَتْ ولم تظفرْ بها بعد ذلك وإن لازمتَها بالتوبيخ والمعاتبة ، والعذل والملامة ، كانت نفسك هى

النفسَ اللوَّامةَ التى أقسم الله بها ، ورجوتَ أن تصير النفسُ المطمئنةُ المدعوَّة إلى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضيَّة .

فلا تَغْفُلَنّ ساعةً عن تذكيرها ومعاتبتها ، ولا تشتغلنَّ بوعظ غيرك مالم تشتغل أوَّلاً بوعظ نفسك .

أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : يا ابن مريم عِظْ نفسك ، فإن اتَّعَظَتْ فعِظ الناسَ وإلاَّ فاستحي منى .

وقال تعالى : (وذَكِّرْ فإنَّ الذكرى تَنْفَعُ المؤْمنين) .

وسبيلك أن تُقبل عليها فتقرّر عندها جهلَها وغباوتَها ، وأنَّها أبدًا تتعزَّز بفطنتها وهدايتها ، ويشتدُّ أَنَفها واستنكافها إذا نُسبت إلى الحمق ، فتقول لها : يا نفسُ ما أعظم جهلكِ ، تدَّعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشدُّ الناس غباوة وحُمقاً ! أما تعرفين ما بين يديك من الجنَّة والنار ، وأنك صائرة إلى إحداهما على القُرب ؟ فمالَكِ تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبةٌ لهذا الخطب الجسيم ، وعساك اليوم تُخْتَطَفين أو غداً ، فأراك ترينَ الموت بعيداً ويراه اللهَ قريباً ؟ أماتعلمين أنَّ كل ما هو آتٍ قريب ، وأنَّ البعيد ماليس بآت ؟ أما تعلمين أنَّ الموت يأْتى بغتةً من غير تقديم رسول ، ومن غير مواعدة ومواطأة ، وأنه لا يأْتى فى شيءٍ دون شيءٍ ، ولا فى شتاءٍ دون صيف ، ولا فى صيف دون شتاءٍ ، ولا فى نهار دون ليل ، ولا فى ليل دون نهار ، ولا يأْتى فى الصِّبا دون الشباب ، ولا فى الشَّباب دون الصِّبا ، بل كلُّ نَفَسٍ من الأنفاسِ يمكن أن يكونَ فيه الموت فجأَة . فإن لم يكن الموت فجأَة فيكونُ المرض فجأَة ثم يُفضى إلى الموت . فمالك لا تستعدِّين للموت وهو أقربُ إليكِ من كل قريب ؟ أما تتدبَّرين قوله تعالى : (اقْتَرَبَ للنَّاسِ حِسَابُهم

وهم فى غَفْلَةٍ مُعرِضُون * مايأْتِيهِمْ من ذِكرٍ من ربِّهم مُحْدَثٍ إلا استَمَعوه وهُم يَلعَبون * لاهيةً قلوبُهمْ) .

ويحك يا نفس ، لا ينبغى أن تغرَّك الحياةُ الدنيا ولا يغرَّنَّكِ بالله الغَرور . فانُظرى لنفسك فما أَمْرُك بمهمٍّ لغيرك ، ولا تُضيعى أوقاتَكِ فالأَنفاس معدودة ؛ فإذا مضى منك نفَسٌ فقد ذهب بَعضُك ، فاغتنمى الصِّحةَ قبل السقم ، والفراغَ قبل الشُّغل ، والغِنى قبل الفقر ، والشَّبابَ قبل الهَرم ، والحياةَ قبل الموت، واستعدِّى للآخرة على قدر بقائِك فيها .

ويحك يا نفس ، أتعلمين أنَّ كلَّ من يلتفت إلى ملاذِّ الدنيا ويأْنس بها مع أنَّ الموت من ورائِه فإنَّما يستكثر من الحسرة عند المفارقة ، وإنَّما يتَزوَّد من السُّمِّ وهو لا يدرى ؟ أوما تنظرين إلى الذين مَضوا كيفَ بَنوا وعلَّوْا ، ثم ذهبوا وخلَّوْا ، وكيف أورثَ الله أرضَهم وديارهم أعداءَهم . أما ترينهم كيف يجمعون ما لا يأْكلون ، ويبنون ما لايسكنون ويؤمِّلون ما لا يدركون : يبنى كلٌّ واحد قصراً مرفوعاً إلى جهة السماء ، ومقرُّه قبرٌ محفور تحت الأَرض . فهل فى الدنيا حمقٌ وانتكاس أعظم من هذا ؟ يَعْمُر الواحد دنياه وهو مرتحلٌ عنها يقيناً ، ويُخرِب آخرته وهو صائِرٌ إليها قَطعاً

ويحكِ يا نفسُ ، أما تستحيين ، تزيِّنين ظاهرك للخَلْق وتبارزين الله فى السِّر بالعظائِم . أفتستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق ؟ ويحك أهو أهونُ النَّاظرين عليك ، أتأْمرين بالخير وأنت متلطِّخة بالرذائِل ، تَدعَيْنَ إلى الله وأنت عنه فارَّةٌ ، وتُذَكِّرين بالله وأنت له ناسية ؟

والعَجب كلُّ العجب منكِ يا نفسُ ، أنك مع هذا تدَّعين البصيرة والفطنة ، ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالِكِ ولاتحزنين بنقصان عمرك ! وما نَفْعُ مالٍ يزيدُ وعمرٍ ينقص ؟ ويحك يانفس ؟ تُعرضين عن الآخرة وهى مقبلةٌ عليكِ ، وتُقبِلين على الدنيا وهى مُعرِضة عنك ! فكم من مُسْتَقْبِل يوماً لا يستكمله ، وكم من مُؤَمِّل لغدٍ لا يبلغه .

واعلمى يا نفس أنه ليس للدينِ عوض ، ولا للإيمان بدل ، ولا للجسد خَلَف . ومن كانت مطيَّته اللَّيل والنَّهار فإنه يُسَارُ به وإن لم يَسِرْ .

فاتَّعِظى يا نفسُ بهذه الموعظة ، واقبلى هذه النصيحة ؛ فإنَّ مَن أعرض عن الموعظة فقد رضىَ بالنار .

الكتاب التاسع

كتاب التفكر

فضيلة التفكر

قد أمر الله تعالى بالتفكُّر والتدبر فى كتابه العزيز فى مواضعَ لاتحصى ، وأثنى على المتفكرين فقال تعالى: (الذين يَذكرون اللهَ قِياماً وقُعُوداً وعَلَى جُنوبِهِمْ ويتفكَّرُونَ فى خَلْقِ السَّموات والأَرضِ رَبَّنَا ماخَلَقْتَ هذا باطِلاً).

وعن عطاءٍ قال : انطلقتُ يوماً أنا وعُبيد بن عُمير إلى عائشة رضى الله عنها ، فكلَّمَتْنَا وبيننا وبينها حِجاب ، فقالت : يا عُبَيد ، ما يمنعُك من زيارتنا ؟ قال : قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا » . قال ابن عمير : فأَخبرِينا بأَعجبِ شيءٍ رأَيتِهِ مِن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فبكتْ وقالت : كلُّ أمره كان عجباً ، أتانى فى ليلتى حتَّى مس جلُده جِلدى ثم قال : « ذَرِينى أَتعبَّدْ لربِّى عزَّ وجل » . فقام إلى القِربة فتوضَّأَ منها ثم قام يصلى ، فبكى حتَّى بلَّ لحيته ، ثم سجَدَ حتى بلَّ الأَرضِ ، ثم اضطجعَ على جنبه حتَّى أَتى بلالٌ يؤْذِنه بصلاة الصبح ، فقال : يا رسولَ الله ما يُبكيك وقد غفَرَ الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأَخَّر ؟ فقال : ويحكَ يابلال ، وما يمنعنى أن أبكي وقد أَنزلَ الله تعالى علىَّ فى هذه الليلة : (إنَّ فى خَلْقِ السَّمواتِ والأَرضِ واختلاف اللَّيلِ والنهار لآياتٍ لأُولِى الأَلباب) . ثم قال : « ويلٌ لمن قَرَأَها ولم يتفكَّر فيها » .

وعن الحسن قال : تفكُّر ساعةٍ خيرٌ من قيامِ ليلة .

وعن الفُضيل قال : الفكر مرآة تريك حَسناتِك وسيِّئاتك .

وكان لقمانُ يُطيل الجلوسَ وحدَه ، فكان يمرُّ به مولاه فيقول : يا لقمان ، إنَّك تديم الجلوسَ وحدك ، فلو جلستَ مع الناس كان آنسَ لَك. فيقول لقمان : إنَّ طُول الوحدةِ أَفهَمُ للفِكر ، وطولَ الفكر دليلٌ على طريق الجنَّة .

وقال إسحاق بن خلف : كان داوُدُ الطائيُّ رحمه الله تعالى على سطح فى ليلةٍ قَمْراءَ ، فتفكَّر فى ملكوت السماوات والأَرض وهو ينظر إلى السماء ويبكى ، حتَّى وقع فى دارِ جارٍ له ، قال : فوثب صاحبُ الدار من فِراشه عُرياناً وبيده سيفٌ وظنَّ أَنه لِصٌّ ؛ فلما نظر إلى داودَ رَجع ووضَع السيفَ وقال : من ذا الذى طرحَك من السَّطح ؟ قال : ما شعَرتُ بذلك .

بيان حقيقة الفكر وثمرته

اعلم أَنَّ معنى الفكر هو إحضار معرفتين فى القلب ليُستثمَرَ منهُما معرفة ثالثة .

ومثاله : أَنَّ مَنْ مالَ إلى العاجلة وآثَر الحياةَ الدُّنيا ، وأراد أَن يعرف أَنَّ الآخرة أَوْلى بالإِيثار من العاجلة فله طريقان :

أَحدُهما : أَن يسمع من غيره أَنَّ الآخرة أَوْلى بالإِيثار من الدنيا ؛ فيقلِّدَه ويصدِّقه ، من غير بصيرةٍ بحقيقة الأَمر ، فيميلَ بعمله إلى إيثار الآخرة اعتماداً على مجرّد قوله . وهذا يسمَّى تقليداً ولا يسمَّى معرفةً .

والطريق الثانى : أَنْ يَعرِف أَنَّ الأَبْقَى أَوْلى بالإِيثار ، ثم يعرفَ أَنَّ الآخرةَ أَبقى ، فيحصلَ له من هاتين المعرفتين معرفةٌ ثالثة ، وهو أَنَّ الآخرة أَوْلى بالإِيثار .

ولا يمكن تحقُّق المعرفة بأَنَّ الآخرةَ أَوْلى بالإيثار إلاَّ بالمعرفتين السابقتين.

فإحضار المعرفتين السابقتين فى القلب للتوصُّل به إلى المعرفة الثالثة يسمَّى : تفكُّراً واعتباراً ، وتذكُّراً ونظراً ، وتأَمُّلاً وتدبُّراً .

أَمَّا التدبُّر والتأَمل والتفكر : فعباراتٌ مترادفة على معنًى واحد ، ليس تحتها معانٍ مختلفة . وأَمَّا اسم التذكر والاعتبار والنظر : فهى مختلفة المعانى ، وإن كان أَصل المسمَّى واحدًا ؛ كما أَنَّ اسم : الصارم ، والمهنَّد ، والسَّيف ، يتوارد على شيءٍ واحد ، ولكن باعتباراتٍ مختلفة . فالصَّارم يدلُّ على السيف من حيث هو قاطع ، والمهنَّد يدل عليه من حيث نسبتُه إلى موضعه ، والسَّيف يدلُّ دَلالَةً مطلقة من غير إشعار بهذه الزوائد.

وأما ثمرة الفكر : فهى العلوم والأَحوال والأَعمال ، ولكن ثمرته الخاصَّة : العلم ، لا غير . نعمْ إذا حصل العلمُ فى القلب تغيَّرَ حالُ القلب وإذا تغيَّرَ حال القلبِ تغيَّرَتْ أَعمال الجوارح . فالعمل تابعُ الحال ، والحال تابعُ العلم ، والعلم تابعُ الفكر . فالفكر إذن هو المبدأُ والمفتاحُ للخيراتِ كلِّها ، وهذا هو الذى يكشف عن فضيلة التفكُّر ، وأَنهُ خيرٌ من الذكر والتذكُّر لك ؛ لأَنَّ الفكر ذِكرٌ وزيادة .

بيان كيفية التفكر في خلق الله تعالى

اعلم أَنَّ كلَّ مافى الوجود مما سوى الله تعالى فهو فِعلُ اللهِ وخلْقُه ، وكلُّ ذرّةٍ من الذَّرَّاتِ من جوهرٍ وعَرَض ، وصفةٍ وموصوف ؛ ففيها عجائبُ وغرائِب تَظهر بها حكمةُ الله وقدرتُه ، وجلالُه وعَظَمته . وإحصاءُ ذلك غير ممكن ؛ لأَنَّه لو كان البحر مِدَادًا لذلك لَنَفِدَ البحرُ قبل أَنْ ينفَدَ عُشرُ عَشِيرِه . ولكنَّا نشير إلى جملٍ منه ليكون ذلك كالمثال لما عَداه.

فنقول : الموجودات المخلوقة منقسمة إلى :

مالا يُعرف أصلُها ، فلا يمكننا التفكُّر فيها . وكم من الموجودات التى لا نَعلمُها كما قال الله تعالى : (ويَخْلُقُ مالا تَعلمون) ، (سُبْحَان الذى خَلَقَ الأَزواجَ كُلَّها مما تُنْبِتُ الأَرضُ ومِنْ أنفُسِهِم ومِمَّا لا يعلمون) وقال : (ونُنْشِئُكُم فيما لا تَعْلَمون) .

وإلى ما يعرف أصلُها وجملتها ، ولا يُعرف تفصيلها ، فيمكننا أن نتفكَّر فى تفصيلها . وهى منقسمةٌ إلى ما أدركناه بحسِّ البصر ،وإلى مالا نُدركه بالبصر .

أما الذى لا نُدركه بالبصر ، فكالملائكة والجنِّ والشياطين ، والعَرش والكُرسيِّ ، وغير ذلك . ومجالُ الفكر فى هذه الأَشياء مما يَضيق ويَغمُض. فلنعدِلْ إلى الأَقرب إلى الأَفهام ، وهى المدرَكات بحس البصر ، وذلك هو السَّمواتُ السَّبع والأَرضُ وما بينهما . فالسَّموات مشاهَدةٌ بكواكبها وشَمْسها وقمرها ، وحركتها ودَوَرانها ، فى طلوعها وغروبها . والأَرضُ مشاهَدَةٌ بما فيها من جبالها ومعادنها ، وأنهارها وبحارها ، وحَيواناتها ونباتها . وما بين السماء والأَرض ، وهو الجوُّ ، مُدرَكٌ بغيومها وأمطارها وثلوجها، ورعدِها وبرقها ، وصواعقها ، وشُهبها وعواصف رياحها .

فهذه هى الأَجناس المشاهَدة من السَّموات والأَرض وما بينهما ، وكلُّ جنس منها ينقسم إلى أنواع ، وكل نوعٍ ينقسم إلى أقسام ، ويتشعَّب كلُّ قسم إلى أصناف ، ولا نهاية لانشعابِ ذلك وانقسامِه فى اختلاف صفاته وهيئاته ومعانيه الظاهرة والباطنة . وجميع ذلك مجال الفكر. فلا تتحركُ ذرَّةٌ فى السموات والأَرض من جَمادٍ ولا نبات ولا حيوان ، ولا فَلَكٍ ولا كوكب ، إلاَّ والله تعالى هو محرِّكُها . وفى حركتها حكمةٌ أو حكمتان ، أو عَشرٌ ، أو ألفُ حكمة ، كلُّ ذلك شاهدٌ

لله تعالى بالوَحدانية ، ودالٌّ على جلاله وكبريائِه ، وهي الآيات الدالة عليه .

وقد ورد القرآن بالحث على التفكُّر فى هذه الآيات ، كما قال الله تعالى : (إنَّ فى خَلْقِ السَّموات والأَرْضِ واختلافِ اللَّيل والنهارِ لآياتٍ لأُولى الأَلباب) ، وكما قال تعالى : (ومن آياته) ، من أَول القرآن إلى آخره .

فمن آياته : الإنسان المخلوقُ من النُّطفة . وأَقرب شيء إليك نفسُك ، وفيك من العجائب الدَّالَّةِ على عظمة الله تعالى ما تنقضى الأَعمارُ فى الوقوف على عُشر عَشيره وأَنت غافلٌ عنه . فيا مَن هو غافلٌ عن نفسه ، وجاهلٌ بها ، كيف تطمع فى معرفةِ غيرك وقد أَمرك الله تعالى بالتدبُّر فى نفسك فى كتابه العزيز ، فقال : (وفى أَنْفُسِكُم أَفَلَا تُبصرُون) .

ومن آياته : أَصنافُ الحيوانات ، وانقسامُها إلى ما يطير وإلى ما يمشِى ، وانقسامُ ما يمشى إلى ما يمشى على رجلين ، وإلى ما يمشِى على أَربع ، وعلى عَشْر وعلى مائةٍ ، كما يُشاهَد فى بعض الحشرات . ثم انقسامها فى المنافع والصور والأَشكال والأَخلاق والطباع . فانظرْ إلى طيور الجو ، وإلى وحوش البرّ ، والبهائِم الأَهلية ، ترَ فيها من العجائِبِ مالا تشكُّ معه فى عَظَمة خالِقها ، وقُدرةِ مقدِّرها ، وحكمة مصوِّرها . وكيف يمكن أَن يُستقصَى ذلك ؟ بل لو أَردنا أَن نذكر عجائبَ البقَّة أَو النملة ، أَو النحلة أَو العنكبوت ـ وهى من صغار الحيوانات ـ فى بنائِها بيتَها ، وفى جمعها غذاءها ، وفى إلفها لزوجها ، وفى ادّخارها لنفسها ، وفى حِذقها فى هندسة بيتها ، وفى هدايتها إلى حاجاتها ، لم نقدر على ذلك . فترى العنكبوتَ يبنى بيته على طرف نهر فيطلبُ أَولا موضعين متقاربين بينهما فُرجة بمقدار ذراع فما دونَه حتَّى يمكنه أَن يصل بالخيط بين طرفيه ، ثم

يبتدئُ ويُلقى اللعاب الذى هو خيطه على جانبٍ ليلتصق به ، ثم يغدُو إلى الجانب الآخر فيُحكم من الطرف الآخَر الخيطَ ، ثم كذلك يتردَّد ثانياً وثالثاً ، ويجعل بُعْدَ ما بينهما متناسباً تناسباً هندسياً ، حتّى إذا أحكم معاقد القُمُط[1] ، ورتَّب الخيوط كالسَّدَى اشتغل باللُّحمة ، فيضَع اللُّحمة على السَّدى ويُضيف بعضَه إلى بعض ، ويُحكم العَقْد على موضع التقاء اللُّحمة بالسَّدَى ، ويراعى فى جميع ذلك تناسبَ الهندسة ، ويجعل ذلك شبكةً يقع فيها البقُّ والذباب ، ويقعُد فى زاويةٍ مترصِّداً لوقوع الصَّيد فى الشبكة فإذا وقع الصيدُ بادر إلى أخذه ، وأكَله . فإنْ عَجَز عن الصَّيد كذلك طلبَ لنفسه زاويةً من حائط ووصل بين طرفى الزاوية بخيط ، ثم علَّق نفَسه فيها بخيط آخر وبقى منكَّساً فى الهواء ينتظر ذُبابةً تَطير ، فإذا طارت رمَى بنفسه إليه فأَخذه ، ولفَّ خيطه على رجليه وأحكمه ثم أكله .

وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائِب مالا يحصى .

ومن آياته : البحارُ العميقةُ المكتنِفَةُ لأَقطار الأَرضِ ، التى هى قِطعٌ من البحر الأَعظم المحيطِ بجميع الأَرض ، حتَّى إنَّ جميعَ المكشوف فى البوادى والجبال والأَرض بالإضافة إلى الماء كجزيرةٍ صغيرة فى بحر عظيم ، وبقيَّةُ الأَرضِ مستورةٌ بالماء .

وقد شاهدْتَ عجائبَ الأَرض وما فيها ، فتأَمَّل الآنَ عجائِب البحر ؛ فإنَّ عجائب ما فيه من الحيوان والجواهِر ، أَضعافُ عجائِب ما تشاهده على وجه الأَرض ، كما أَنَّ سَعته أَضعافُ سَعةِ الأَرض .

---

(١) القمط : جمع قاط ، وهو الشريط الذى يشد به .

ولِعِظَم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما ترى ظهورَها فى البحر فتظنُّ أنها جزيرة ، فينزل الرُّكَّاب عليها ، فربَّما تُحِسُّ بالنِّيران إذا اشتعلت فتتحرَّك ويُعْلَمُ أنها حيوان .

وما من صِنفٍ من أَصناف حيوان البر من فَرَسٍ ، أو طيرٍ ، أو بقرٍ ، أَو إنسان ، إلاَّ وفى البحر أمثالُه وأضعافه ، وفيه أَجناسٌ لا يُعْهَدُ لها نظير فى البر . وقد ذُكِرَتْ أوصافُها فى مجلَّدات ، وجَمَعها أقوام عُنُوا بركوب البحر وجَمْع عجائبه .

ثم انظر كيف خلق الله اللؤْلُؤَ ودوَّره فى صَدفِهِ تحت الماء ، وانظر كيف أَنبتَ المَرجان من صُمِّ الصخور تحتَ الماء ، وإنَّما هو نباتٌ على هيئة شجر ينبت من الحجر . ثم تأَمَّلْ ما عداه من العنْبر وأَصنافِ النفائِس التى يَقذِفها البحر وتُستخرج منه ! ثم انظر إلى عجائبِ السُّفُن كيف أَمسكها الله تعالى على وجه الماءِ وسيَّر فيها التجَّار وطُلاَّب الأَموال وغيرهم ، وسخَّر لهم الفُلك لتحملَ أَثقالهم ، ثم أَرسل الرياحَ لتسوقَ السفن ، ثم عرَّف الملاحين موارد الرياح ومَهابَّها ومواقيتها .

ولا يُستقصى على الجملة عجائبُ صُنع الله فى البحر فى مجلدات .

وأَعجب من ذلك كلِّه ما هو أَظهرُ من كلِّ ظاهر ! وهو كيفية قَطرةِ الماء : وهو جسمٌ رقيق لطيف سَيَّال مُشِفٌّ ، متَّصل الأَجزاء كأَنَّه شىءٌ واحد ، لطيف التركيب ، سريعُ القَبول للتقطيع ، كأَنه مُنفصل ، مسخَّر للتصرُّف قابلٌ للانفصال والاتصال ، به حياةُ كلِّ ما على وجه الأَرض من حيوان ونبات . فلو احتاج العبدُ إلى شَربةِ ماءٍ ومُنع منها لبذلَ جميعَ خزائِن الأَرض ومِلْكِ الدُّنيا فى تحصيلها لو مَلَكَ ذلك ، ثم لوشربَها ومُنع من إخراجها لبذلَ جميع خزائِن الأَرض ومِلْك الدنيا فى إخراجها ! فالعجبُ من الآدمىِّ كيف يستعظم الدِّينار والدرهم ونفائِس الجواهر ،

ويَغْفُل عن نعمة الله فى شَربة ماءٍ إذا احتاج إلى شُربها ، أو الاستفراغ عنها .

ومن آياته : الهواءُ اللطيف المحبوس بين مقعّر السماء ومحدَّب الأَرض : يُدْرَك بحس اللمس عند هُبوب الرياح جسمهُ ، ولا يُرى بالعين شخصُه ، وجملتُه مثلُ البحر الواحد . والطيور محلِّقةٌ فى جوِّ السماء ، ومستبقة سَبّاحةٌ فيه بأَجنحتها ، كما تسبَح حيوانات البحر فى الماءِ ، وتضطرب جوانبه وأَمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أَمواج البحر . فإذا حرّك الله الهواءَ وجعله ريحاً هابَّةً فإنْ شاءَ جعله نُشُراً بين يدى رحمته ، كما قال سبحانه : (وأَرسَلْنا الرياحَ لواقح) ، فيصل بحركته رُوحُ الهواءِ إلى الحيوانات والنباتات فتستعدُّ للنماءِ . وإن شاءَ جعله عذاباً على العُصاةِ من خليقته ، كما قال تعالى : (إنّا أَرسَلْنا عليهم رِيحاً صَرْصَرًا فى يوم نَحْسٍ مُستمرّ * تَنْزِعُ الناسَ كأَنَّهُم أَعجاز نخل مُنْقَعِر) .

ومن آياته : مَلَكوت السَّمَوات والأَرض وما فيها من الكواكب ؛ وهو الأَمرُ كلُّه ، ومَن أَدرك الكلَّ وفاته عجائِبُ السموات فقد فاته الكلُّ تحقيقاً . فالأَرض والبحار والهواءُ وكلُّ جسم سوى السَّموات بالإضافة إلى السَّموات قطرةٌ فى بحر وأَصغر .

ثم انظر كيف عظَّم الله أَمر السموات والنجوم فى كتابهِ ، فما من سورةٍ إلا وتشتمل على تفخيمها فى مواضع . وكم من قَسَم فى القرآن بها كقوله تعالى : (والسَّماءِ ذاتِ البُروج) ،(والسَّماءِ والطَّارق) ،(والسَّماءِ ذاتِ الحُبُكِ) ، (والسَّماءِ وما بَناها) ، وكقوله تعالى : (والشَّمسِ وضُحَاهَا * والقَمرِ إذا تَلاهَا)، وكقوله تعالى : (فلا أُقسم بالخُنَّس *

الجَوَارِ الكُنَّس) ، وقوله تعالى : (والنَّجْمِ إذا هَوَى) ، (فلا أُقْسِمُ بمواقع النُّجومِ * وإنَّه لَقَسَمٌ لو تَعلَمونَ عظيم) .

فانظر إلى الملكوت ، لترى عجائِب العزِّ والجَبروت . ولا تظنَّنَّ أنَّ معنى النظر إلى الملكوت أن تمدَّ البصر إليه فترى زُرْقة السماء وضوء الكواكب وتفرُّقها ؛ فإنَّ البهائِم تشاركك فى هذا النظر . فإن كان هذا هو المراد فَلِمَ مدح الله تعالى إبراهيمَ بقوله : (وكذلك نُرِى إبراهيمَ مَلَكوتَ السمواتِ والأرض). لا ، بل كل ما يُدْرَك بحاسة البصر فالقرآن يُعبِّر عنه بالمُلك والشَّهادةِ ، وما غاب عن الأبصار فيعبِّر عنه بالغَيْب والمَلَكوت ، والله تعالى عالمُ الغيب والشهادة ، وجَبَّار الملك والملكوت ، ولا يحيط أحدٌ بشىءٍ من علمه إلاَّ بما شاء ، وهو (عالم الغيبِ فلا يُظْهر على غَيبهِ أحداً * إلاَّ مَنْ ارتضى من رسول) .

فارفع الآن رأسَك إلى السماء ، وانظر فيها وفى كواكبها وفى دورانها ، وطلوعها وغروبها ، وشَمْسها وقمرها ، واختلافِ مشارقها ومغاربها ، ودُءُوبِها فى الحركة على الدوام – من غير فُتُورٍ فى حركتها ، ومن غير تغيُّرٍ فى سيرها ، بل تجرى جميعاً فى منازلَ مرتَّبةٍ بحساب مقدَّر ، لا يزيد ولا ينقص ، إلى أن يطويَها الله تعالى طىَّ السجلِّ للكتاب . وتدبَّرْ عدد كواكبها وكثرتَها واختلافَ ألوانها ، فبعضها يميلُ إلى الحُمرة وبعضُهَا إلى البياض ، وبعضُها إلى اللون الرَّصاصىِّ . ثم انظر كيفية أشكالها : فبعضُها على صورة العقرب ، وبعضها على صورة الحمل ، والثور ، والأَسد ، والإنسان ؛ وما من صورةٍ فى الأرض إلاَّ ولها مثالٌ فى السماء . ثم انظر إلى مسير الشمس فى فَلَكها فى مدَّة سنة ، ثم هى تطلُع فى كلِّ يوم وتغرُب بسيرٍ آخر ، سخَّرها له خالقها . ولولا طلوعُها وغروُبها لما اختلف اللَّيلُ والنهار ، ولم تُعرف المواقيت ، ولأَطْبَقَ الظَّلامُ

على الدوام ، أو الضياءُ على الدوام ، فكان لا يتميَّز وقتُ المعاش عن وقت الاستراحة . فانظرْ كيف جعل الله تعالى الليلَ لباساً ، والنَّوم سُبَاتاً والنَّهار معاشاً . وانظر إلى إيلاجه الليلَ فى النهار ، والنهارَ فى الليل ، وإدخالِه الزِّيادةَ والنقصانَ عليهما على ترتيب مخصوص . وانظر إلى إمالته مسير الشمس عن وسط السماء حتَّى اختلفَ بسببه الصيفُ والشتاءُ ، والربيع والخريف . فإذا انخفضت الشمس من وسط السماء فى مسيرها بَرَدَ الهواءُ وظهر الشِّتاءُ ، وإذا استوت فى وسط السماء اشتدَّ القيظ ، وإذا كانت فيا بينهما اعتدل الزمان .

وعجائِب السموات لا مطمعَ فى إحصاء عُشر عَشِيرِ جزءٍ من أجزائِها ، وإنما هذا تنبيه على طريق الفكر .

وكلَّما استكثرتَ من معرفة عجيب صُنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتمَّ . وهذا كما أنَّكَ تعظِّم عالما بسبب معرفتك بعلمه ، فلا تزال تطَّلع على غريبةٍ غريبةٍ من تصنيفه أو شِعرِه ، فتزداد به معرفة ، وتزداد بحسنه له توقيراً وتعظيماً واحتراماً ، حتَّى إنَّ كلَّ كلمةٍ من كلماته وكلَّ بيتٍ عجيب من أبيات شعره يزيده مَحلاً من قلبك ، يستدعى التعظيمَ له فى نفسك .

فهكذا تأمَّلْ فى خلق الله تعالى وتصنيفِه وتأْليفه . وكلُّ مافى الوجود من خَلق الله وتصنيفه ، والنَّظرُ والفِكرُ فيه لايتناهى أبداً ، وإنَّما لكلِّ عبدٍ منهما بقدر ما رُزِق .

الكتاب العاشر

كتاب ذكر الموت وما بعده

الباب الأول

في ذكر الموت والترغيب في الإكثار من ذكره

اعلم أنَّ المنهمكَ فى الدنيا المكبَّ على غرورها ، المحبَّ لشهواتها ، يغفُل قلبُه لا محالة عن ذكر الموت فلا يَذكُره . وإذا ذُكِّر به كرِهَه وَنَفَرَ منه . أُولئِك هم الذين قال الله فيهم : (قل إنَّ الموت الذى تَفِرُّون منهُ فإنَّه مُلاقِيكُم ثم تُرَدُّون إلى عالِمِ الغَيب والشَّهادةِ فينبِّئكم بما كنتم تَعْمَلُون) .

ثم الناس : إمَّا منهمكٌ ، وإما تائِب مبتدىءٌ ، أو عارفٌ مُنْتهٍ .

أما المنهمك : فلا يذكر الموت ، وإنْ ذكَره فيذكرُه للتأَسُّف على دنياه ويشتغل بمذمَّته ، وهذا يزيده ذكرُ الموت من الله بُعداً .

وأما التائِب : فإنَّه يُكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوفُ والخشيةُ فَيفِى بتمام التوبة ، وربّما يكره الموت خيفةً من أن يختطفه قبل تمام التوبة وقبلَ إصلاح الزاد ، وهو معذورٌ فى كراهة الموت . ولايدخل هذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم : « مَنَ كَرِهَ لقاءَ الله كَرِهَ الله لقاءَه »؛ فإنَّ هذا ليس يكره الموت ولقاءَ الله ، وإنَّما يخاف فوتَ لقاءِ الله لقُصوره

وتقصيره ، وهو كالذى يتأخَّر عن لقاءِ الحبيب مشتغلاً بالاستعداد للقائِه على وجهٍ يرضاه ، فلا يعدُّ كارهاً للقائِه . وعلامة هذا أنْ يكون دائم الاستعداد له لا شُغل له سواه ؛ وإلاَّ التحَقَ بالمنهمِكِ فى الدنيا .

وأما العارف : فإنَّه يذكر الموت دائماً لأَنه موعدُ لقائِه لحبيبه ، والمحبُّ لا ينسى قطُّ موعِدَ لقاءِ الحبيب . وهذا فى غالب الأَمر يستبطئُ مَجيءَ الموت ، ويحبُّ مجيئَه ليتخلَّص من دار العاصين ، وينتقل إلى جوارِ ربِّ العالمين .

بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت

اعلم أنَّ الموتَ هائِل وخطره عظيم ، وغفلةُ الناس عنه لقلَّة فكرهم فيه وذكرهم له . ومن يذكره ليس يذكره بقلبٍ فارغ ، بل بقلبٍ مشغول بشَهوة الدنيا ، فلا ينجع ذكرُ الموت فى قلبه . فالطريق فيه أنْ يُفرغَ العبد قلبهُ عن كلِّ شىءٍ إلاَّ عن ذكر الموت الذى هو بين يديه ، كالذى يريد أنْ يسافر إلى مفازة مُخْطِرة ، أَو يركب البحر ، فإنَّه لا يتفكر إلاَّ فيه ، فإذا باشر ذكرُ الموت قلبهُ فيوشك أن يؤثِّر فيه وعند ذلك يقلُّ فرحهُ وسروره بالدنيا وينكسر قلبه . وأَنجعُ طريق فيه أَنْ يُكثر ذكر أَشكالِه ، وأَقرانِهِ الذين مَضَوْا قبله ، فيتذكَّر موتهم ومَصارعَهم تحت التراب ، ويتذكَّر صُوَرهم فى مناصبهم وأَحوالهم ، ويتأَمَّل كيف محا التراب الآن حُسن صورهِم ، وكيف تبدَّدت أَجزاؤهُم فى قبورهم ، وكيف أَرملوا نساءَهم وأَيتموا أَولادهم وضَيَّعوا أَموالهم ؛ وخلتْ منهم مساجدُهم ومجالسهم ، وانقطعت آثارهم . فمهما تذكَّرَ رجلٌ رجلاً وفَصَّلَ فى قلبه حالَه ، وكيفيةَ موته ، وتوهَّم صورته ، وتذكَّر نشاطه وتردُّده ، وتأْميلَه للعيش والبقاء ، ونسيانه للموت وانخداعه

بمواتاة الأسباب ، وركونه إلى القوة والشباب ، وميلة إلى الضحك واللهو ، وغفلته عمَّا بين يدَيه من الموت الذَّريع ، والهلاك السريع ، وأنَّه كيف كان يتردّد والآن قد تهدَّمت رجلاه ومفاصله ، وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدُّودُ لسانه ، وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه ، وكيف كان يدبِّر لنفسه مالا يحتاج إليه - إلى عشرِ سنين - فى وقتٍ لم يكن بينه وبين الموت إلاَّ شهر ، وهو غافلٌ عما يُراد به ، حتَّى جاءه الموت فى وقتٍ لم يحتسبْه ، فانكشفَ له صورة الملَك ، وقرع سَمعه النداءُ إمَّا بالجنَّة أو بالنار ، فعند ذلك ينظر فى نفسه أنَّهُ مثلهم ، وغفلته كغفلتهم ، وستكون عاقبتُه كعاقبتهم .

الباب الثانى

في طول الأمل وفضيلة قصر الأمل
وسبب طوله وكيفية معالجته

فضيلة قصر الأمل

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر : « إذا أصبحتَ فلا تحدّث نفسك بالمَسَاء ، وإذا أمْسيتَ فلا تحدِّثْ نفسك بالصَّباح ، وخُذْ من حياتِك لموتك ، ومن صحَّتك لسَقَمك ، فإنَّك ياعبد الله لاتدرى ما اسمُك غداً » .

وروى علىٌّ كرّم الله وجهه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ أشدَّ ما أخاف عليكم خَصْلتان : اتّباع الهوى ، وطولُ الأمل . فأما اتّباع الهوى فإنّه يصدُّ عن الحقّ ، وأمّا طولُ الأمل فإنه الحبُّ للدنيا» .

وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يهرَم ابنُ آدمَ ويبقى معه اثنتان : الحرص ، والأمل » .

وقال مطرِّف بنُ عبد الله : لوعلمتُ متى أجلى لخشِيت على ذَهاب عقلى ؟ ولكن الله تعالى منَّ على عباده بالغَفْلة عن الموت ، ولولا الغفلة ما تَهَنَّئُوا بعيش ، ولا قامت بينهم الأسواق .

وقال الحسن : كان آدم عليه السلام ، قبل أن يخطئَ ، أملهُ خلفَ ظهره ، وأجلهُ بين عينيه ، فلما أصابَ الخطيئة حُوّل فجُعِل أمله بين عينيه ، وأجله خلف ظهره .

وقال عبد الله بن سُمَيط : سمعت أبى يقول : أيها المغترُّ بطول صِحّته أمَا رأيتَ ميتاً قطُّ من غير سَقَم . أيُّها المغتر بطول المهلة ، أمَا رأيتَ مأْخوذاً قطُّ من غير عُدّة . إنّك لو فكرتَ فى طول عمرك لنسيتَ ما قد تقدّم من لذاتك . أبالصحة تغترُّون أم بطول العافية تمرحون ، أم الموتَ تأْمنون ، أم على مَلَك الموتِ تجترئُون . إنَّ ملَكَ الموتِ إذا جاء لايمنعه منك ثروةُ مالِك ، ولا كثرة احتشادك . أمَا علمت أنَّ ساعة الموت ذاتُ كربٍ وغَصَص ، وندامة على التفريط .

وقال عبدُ الله بن ثعلبة : تضحك ولعلَّ أكفانك قد خرجت من عند القَصَّار[1] .

بيان السبب في طول الأَمل وعلاجه

اعلم أنَّ طول الأَمل له سببان ، أحدُهما : الجهل ، والآخر : حبُّ الدنيا .

أما حبُّ الدنيا : فهو أنه إذا أنس بها وبشهواتها ولذّاتها وعلائقها ثَقُلَ على قلبه مفارقتُها ، فامتنع قلبه من الفكر فى الموت الذى هو سبب مفارقتها . وكلُّ من كره شيئاً دفَعَه عن نفسه . والإنسان مشغوفٌ بالأَمانى الباطلة ، فيمنِّى نفسَه أبداً بما يوافق مُراده ، وإنما يوافق مرادَه البقاءُ فى الدنيا ، فلا يزال يتوهَّمه ويقدّره فى نفسه ويقدِّر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مالٍ وأهل ودار ، وأصدقاء ودوابَّ ، وسائر أسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر ، موقوفاً عليه ، فيلهو عن ذكر الموت فلا يُقدِّر قربه . فإنْ خطرَ له فى بعض الأَحوال أمرُ الموت

(١) القصار : الذى يحور الثياب ، أى يبيضها .

والحاجةِ إلى الاستعداد له سوَّفَ ووعَد نفسه وقال : الأيام بين يديك إلى أن تكبَرَ ثم تتوب . وإذا كَبِر فيقول : إلى أن تصير شيخاً . فإذا صار شيخاً قال : إلى أن تفرغ من بناءِ هذه الدار ، وعمارةِ هذه الضَّيعة ، أو ترجع من هذه السَّفرة ، أو تفرغَ من تدبير هذا الولد وجَهازه وتدبير مسكنٍ له ، أو تفرغَ من قهر هذا العدو الذي يشمتُ بك . فلا يسوِّف ويؤخر ، ولا يخوض فى شغل إلاَّ ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرةُ أشغال أخر ، وهكذا على التدريج يؤَخِّر يوماً بعد يوم ؛ ويُفضِى به شُغل إلى شغل بل إلى أشغال ، إلى أن تختطفه المنية فى وقتٍ لا يحتسبه ، فتطول عند ذلك حَسرته .

وأما الجهل : فهو أنَّ الإنسانَ قد يعوِّل على شبابه فيستبعد قربَ الموت مع الشباب ، وليس يتفكر المسكين أنَّ مشايخ بلده لو عُدُّوا لكانوا أقلَّ من عشر رجال البلد ، وإنما قلُّوا لأنَّ الموت فى الشباب أكثر ، فإلى أن يموت شيخٌ يموت ألفُ صبيٍّ وشابٍّ . وقد يستبعد الموت لصحته ، ويستبعد الموت فجأة ، ولا يدرى أنَّ ذلك غير بعيد ، وإن كان ذلك بعيداً فالمرض فجأةً غير بعيد ، وكلُّ مرض فإنَّما يقع فجأة ، وإذا مرض لم يكن الموتُ بعيدًا . ولو تفكَّرَ هذا الغافلُ وعلم أنَّ الموتَ ليس له وقتٌ مخصوص من شَباب وشَيب وكُهولة ، ومِنْ صيف وشتاء وخريف وربيع ومن ليلٍ ونهار ، لَعظُمَ استشعارُه واشتغلَ بالاستعداد له ، ولكنَّ الجهل بهذه الأُمور وحبَّ الدنيا دَعَوَاه إلى طول الأَمل ، وإلى الغفلةِ عن تقدير الموت القريب .

وإذا عرفتَ أنَّ سببه الجهل وحبُّ الدنيا فعلاجه دفعُ سببه .

أما الجهل فيُدفع بالفكر الصافى من القلب الحاضر ، وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة .

وأمّا حبُّ الدنيا فالعلاج فى إخراجه من القلب شديد ، وهو الداء العُضالُ الذى أعيا الأوّلين والآخرين علاجُه ؛ ولا علاجَ له إلاَّ الإيمان باليوم الآخِر ، وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب . ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حبُّ الدنيا ، فإنَّ حُبَّ الخطير هو الذى يمحو عن القلب حبَّ الحقير . فإذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة ، استنكف أن يلتفت إلى الدنيا كلِّها وإن أُعطِىَ ملكَ الأرض من المشرق إلى المغرب . وكيف وليس عنده من الدُّنيا إلا قدرٌ يسير مكدَّر منغَّص ، فكيف يفرحُ بها أو يترسَّخ فى القلب حبُّها مع الإيمان بالآخرة ؟

فنسأل الله تعالى أن يُرِيَنَا الدُّنيا كما أراها الصالحين من عباده .

ولا علاجَ فى تقدير الموت فى القلب مثلُ النظر إلى من مات من الأقران والأشكال ، وأنَّهم كيف جاءهم الموت فى وقتٍ لم يحتسبوا . أمّا مَن كان مستعدًّا فقد فاز فوزاً عظيماً ، وأمّا من كان مغروراً بطول الأمل فقد خَسِر خسراناً مبيناً .

الباب الثالث

في سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عنده

اعلم أنه لو لم يكن بين يدَىِ العبد المسكين كَربٌ ولا هول ولا عذابٌ سوى سَكَرات الموت بمجرَّدها ، لكان جديراً بأَن يتنغَّص عيشُه ، ويتكدَّر عليه سروره ، ويفارقَه سهوه وغفلته ، وحقيقاً بأَن يَطُولَ فيه فِكره ، ويعظمَ له استعداده ، لا سيما وهو فى كل نَفَس بصدده ، كما قال بعض الحكماء : « كَرْبٌ بيدِ سواك ، لا تدرى متى يغشاك » .

وقال لقمان لابنه : يا بُنَيَّ ، أمرٌ لا تدرى متى يلقاك ، استعدَّ له قبل أنْ يفجَاك .

والعجبُ أنَّ الإنسانَ لو كان فى أعظم اللَّذات وأطيب مجالس اللهو ، فانتظرَ أن يدخل عليه جندىٌ فيضربه خمسَ خشبات لتكدَّرت عليه لذَّته ، وفسَدَ عليه عيشه ، وهو فى كلِّ نَفَسٍ بصدد أنْ يدخلَ عليه ملَكُ الموتِ بسكرات النَّزْع وهو عنهُ غافل . فما لهذا سببٌ إلاَّ الجهلُ والغرور .

واعلم أنَّ شدَّةَ الألم فى سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلاَّ مَنْ ذاقها ، ومَنْ لم يَذُقْهَا فإنَّمَا يعرفها إمَّا بالقياس إلى الآلام التى أدركها ، وإمَّا بالاستدلال بأَحوال الناس فى النَّزْع على شدّة ما هُمْ فيه .

بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت

اعلم أنَّ المحبوب عند الموت من صورةِ المحتضَر هو الهدوءُ والسكون ، ومن لسانه أن يكونَ ناطقاً بالشَّهادة ، ومن قلبه أنْ يكون حسَنَ الظنِّ بالله تعالى.

أما الصورة فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ارقبوا الميِّت عند ثلاث : إذا رشَحَ جبينه ، ودمعَتْ عيناه ، ويبست شفتاه ، فهى من رحمة الله قد نزلت به . وإذا غطَّ غطيطَ المخنوق ، واحمرَّ لونه ، واربدَّت شفتاه ، فهو من عذاب الله قد نزل به » .

وأما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة فهى علامة الخير . قال أبو سعيد الخُدرىّ : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقِّنُوا موتاكم : لا إله إلاَّالله »

وينبغى للملقِّن أنْ لا يُلحَّ فى التلقين ، ولكن يتلطَّف ، فربَّما لاينطق لسانُ المريض فيشقّ عليه ذلك ، ويؤدِّى إلى استثقاله التلقين ، وكراهيته للكلمة ، ويخشى أن يكون ذلك سببَ سوءِ الخاتمة .

وأما حسن الظنِّ فهو مستحبٌّ فى هذا الوقت .

وقد وردت الأَخبار بفَضل حُسن الظنِّ بالله .

دخل واثلة بن الأَسقع على مريض فقال : أخبرنى كيف ظنُّك بالله ؟ قال : أغرقَتْنى ذنوبٌ لى ، وأشرفْتُ على هلكة ، ولكنى أرجو رحمة ربِّى ! فكبَّر واثلة وكبَّرَ أهل البيت بتكبيره وقال : الله أكبر ، سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يقول الله تعالى أنا عند ظَنِّ عبدى بى ، فليظنَّ بى ما شاء » .

وكانوا يستحبون أن يُذكر للعبد محاسنُ عملِه عند موته ، لكى يحسن ظنُّه بربه .

الباب الرابع

في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده

وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

اعلم أنَّ فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوةً حسنة ، حيًّا وميتاً ، وفعلاً وقولاً ، وجميعُ أحواله عبرةٌ للناظرين وتبصرةٌ للمستبصرين ؛ إذْ لم يكن أحدٌ أكرمَ على الله منه ، إذْ كان خليلَ الله وحبيبَه ونجيَّه ، وكان صَفيَّه ورسوله ونبيه . فانظرْ هل أمهله ساعةً عند انقضاء مدّته ، وهل أخَّره لحظةً بعد حضور مَنيَّته ؟ لا بل أرسل إليه الملائكةَ الكرام الموكَّلين بقبض أرواح الأنَام ، فجدُّوا بروحه الزكية الكريمة لينقُلوها ، وعالجوها ليرحِّلوها عن جسده الطاهر إلى رحمةٍ ورضوان ، وخيراتٍ حسانٍ ، بل إلى مَقْعَدِ صدقٍ فى جوار الرحمن ، فاشتدَّ مع ذلك النَّزعِ كربُه وظهر أنينُه ، وترادفَ قلقُه وارتفع حَنينه ، وتغيَّرَ لونُه وعرِق جبينه ، واضطربت فى الانقباض والانبساط شِمالُه ويمينه ، حتَّى بكى لمصرعه مَن حضَره ، وانتحب لشدّة حالِه من شاهَدَ منظره . فهل رأيت مَنصب النبوَّة دافعاً عنه مقدوراً ؟ وهل راقب الملَك فيه أهلاً وعشيرًا ؟ وهل سامحه إذْ كان للحق نصيراً ، وللخلق بشيراً ونذيراً ؟ هيهاتَ ! بل امتثلَ ما كان به مأموراً ، واتبع ما وجدَه فى اللوح مسطوراً .

فهذا كان حالُه وهو عند الله ذو المقام المحمود ، والحوضِ المورود ، وهو أوَّلُ من تنشقُّ عنه الأَرض ، وهو صاحب الشَّفاعة يوم العَرْض .

فالعجَب أنَّا لا نعتبر به ولسنا على ثقةٍ فيما نلقاه ، بل نحن أُسَراءُ الشَّهوات، وقُرناءُ المعاصى والسيِّئات ! .

فما بالنا لا نَتَّعظ بمصرعِ محمدسيِّدِ المرسلين وإمامِ المتَّقين ، وحبيب ربٍّ العالمين ، لعلَّنا نظنٌّ أنَّنا مخلَّدون ، أو نتوهم أنَّا مع سوءِ أفعالنا عند الله مكرمون ، هيهات ! هيهات ! بل نتيقَّن أنَّا جميعاً على النار واردون، ثم لا ينجو منها إلا المتَّقون ، فنحنُ للورود مستيقنون ، وللصُّدور عنها متوهِّمون ، لا بل ظلمنا أنفسَنا إنْ كنَّا كذلك لغالب الظن منتظرين ، فما نحن والله من المتقين .

وفى رواية : أنَّ أبا بكر رضى الله عنه لمَّا بلغه الخبرُ دخل بيتَ رسول صلى الله عليه وسلم - وهو يصلِّى على النبى صلى الله عليه وسلم ، وعيناه تَهملان ، وغُصَصَه ترتفع كقَصع الجِرَّة[1] ، وهو فى ذلك جَلْد الفعل والمقال - فأكبَّ عليه فكشفَ عن وجهه وقبَّل جبينه وخدَّيه ، ومسح وجهه ، وجعل يبكى ويقول : بأَبى أنت وأُمّى ونفسى وأهلى ! طِبْتَ حيًّا وميِّتاً . انقطَعَ لموتك مالم ينقطع لموتِ أحدٍ من الأنبياء والنبوة ، فعظُمْتَ عن الصفة ، وجَلَلْتَ عن البكاء ، وخُصصت حتَّى صرت مَسلاة، وعُمِمت حتَّى صرنا فيك سواءً ، ولولا أنَّ موتك كان اختياراً منك لجُدْنا لحزنك بالنُّفوس ، ولولا أنَّك نَهَيْتَ عن البكاء لأَنفدْنا عليك ماءَ العيون ، فأَمَّا مالا نستطيع نفيه عنا فكمَدٌ وادِّكار محالفان لايبرحان. اللهم فأَبلغْه عنَّا . اذكُرْنا يامحمد صلى الله عليك عند ربِّك ، ولنكُنْ من بالك ، فلَوْلَا ما خَلَّفت من السَّكينة لم يقم أحدٌ لما خَلَّفت من الوحشة ، اللهم أبلغ نبيك عنَّا ، واحفظه فينا .

---

(١) الجرة : مايجتره البعير ونحوه من كرشه . وقصع الجرة : ردها إلى الجوف أو مضغها.

وفاة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه

لما احتُضِر أبو بكر رضى الله تعالى عنه جاءت عائشة رضى الله عنها فتمثلت بهذا البيت :

لَعَمْرُكَ ما يُغْنِى الثراءُ عن الفتى　　إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاق بها الصدر[1]

فكشَف عن وجهه وقال : ليس كذا ولكن قُولِي : (وجاءت سَكْرَةُ الموتِ بالحقِّ ذلك ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيد) . انظروا ثوبىَّ هذين فاغسلوهما وكفِّنونى فيهما فإن الحىَّ إلى الجديد أحوجُ من الميت .

وقالت عائشة رضى الله عنها عند موته :

وأبيض يستسقى الغَمَامُ بوجهه　　رَبيعُ اليتامى عِصْمَةٌ للأَرامل[2]

فقال أبو بكر : ذاكَ رسول صلى الله عليه وسلم .

ودخلوا عليه فقالوا : ألا تدعو لك طبيباً ينظر إليك ؟ قال : قد نظر إلىَّ طبيبى وقال : إنِّى فعَّالٌ لما أُريد .

ودخل عليه سَلْمانُ الفارسىُّ رضى الله تعالى عنه يعوده فقال : يا أبا بكر أوصِنا . فقال : إن الله فاتحٌ عليكم الدنيا فلا تأْخذَنَّ منها إلا بلاغَك ، واعلم أن من صلى صلاة الصبح فهو فى ذِمَّة الله ، فلا تخفِرنَّ الله فى ذمته فيكبَّك فى النار على وجهك .

وفاة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه

قال عمرو بن ميمون : كنتُ قائِماً غداةَ أُصيب عُمَر ، مابينى وبينه إلاَّ عبدُ الله بن عباس ، وكان إذا مرَّ بين الصَّفين قام بينهما ، فإذا

---

(١) البيت لحاتم طيء فى ديوانه ١١٨ .
(٢) البيت لأبى طالب .

رأى خللاً قال : استوُوا ، حتَّى إذا لم ير فيهم خَللاً تقدم فكبَّر . قال : وربَّما قرأ سورة يوسف أو النحل – أو نحو ذلك – فى الركعة الأُولى حتَّى يجتمع الناس ، فما هو إلاَّ أنْ كبَّرَ فسمعتُه يقول : قتَلنى – أو أكلنى – الكلبُ ، حين طعنه أبو لؤلؤة . وطار العِلجُ بسكِّين ذاتِ طَرَفين ، لايمرُّ على أحدٍ يميناً أو شمالاً إلاَّ طعنهُ ، حتَّى طعن ثلاثةَ عشرَ رجلاً ، فمات منهم تسعة ، وفى رواية سبعة . فلما رأى ذلك رجلٌ من المسلمين طرحَ عليه بُرنُساً ، فلما ظنَّ العِلج أنه مأْخوذٌ نَحَرَ نفسَه . وتناول عمرُ رضى الله تعالى عنه عبدَ الرحمن بن عوف فقدَّمه ، فأمَّا من كان يلى عمر فقد رأى ما رأيت ، وأمَّا نَواحى المسجد فما يدرون ما الأَمر ؟ غير أنَّهم فقدوا صوتَ عمر وهم يقولون : سُبحان الله سبحانَ الله ! فصلَّى بهم عبدُ الرحمن صلاةً خفيفة ، فلما انصرفوا قال : يا ابن العباس ، انظرْ مَنْ قتلنى ! قال : فغاب ساعةً ثم جاء فقال : غلامُ المغيرة بن شعبة . فقال عمرُ رضى الله عنه : قاتله الله لقد كنتُ أمرتُ به معروفاً . ثم قال : الحمد لله الذى لم يجعلْ منيَّتى بيد رجلٍ مسلم ، قد كنتَ أنتَ وأبوك تُحبَّان أن يكثُر العلوجُ بالمدينة ! وكان العباس أكثرهم رقيقاً . فقال ابن عباس : إن شئْتَ فعلت ، أى إن شئت قتلناهم . قال : بعدما تكلَّموا بلسانِكم ، وصَلَّوا إلى قبلتكم ، وحَجُّوا حَجَّكم !

فاحتُمِل إلى بيته فانطلقنا معه قال : وكأنَّ الناس لم تُصبْهم مصيبةٌ قبل يومئذٍ ! قال : فقائلٌ يقول : أخاف عليه ، وقائل يقول : لابأْس . فأُتِىَ بنبيذ فشرب منه فخرج من جَوفه ، ثم أُتى بلبن فشرب منه فخرجَ من جوفه ، فعرفوا أنَّه ميت .

قال : فدخلنا عليه وجاء الناس يُثْنون عليه ، وجاء رجلٌ شابٌّ فقال : أَبشر يا أمير المؤمنين بِبُشْرَى من الله عزَّ وجلَّ ؛ قد كان لك صحبةٌ من

رسول الله صلى الله عليه وسلم وقَدَمٌ[1] فى الإسلام ما قد علمت ، ثم وُلِّيتَ فعدَلتَ ، ثُمَّ شهادة . فقال : وددتُ أَنَّ ذلك كان كَفَافاً لا علىَّ ولا لِى . فلمَّا أدبر الرجلُ إذا إزارُه يَمسُّ الأَرض ، فقال : ردُّوا علىَّ الغلام ، فقال : يا ابن أخى ارفَعْ ثوْبَك فإنَّهُ أنقى لثوبك وأَتْقى لربك . ثم قال : ياعبدَ الله انظرْ ما علىَّ من الدَّيْنِ ؟ فحسَبوه فوَجَدوهُ ستة وثمانين ألفاً أو نحوه ، فقال : إنْ وفى به مال آل عمر فأَدِّه من أموالهم ؛ وإلاَّ فسلْ فى بنى عدِىِّ بن كعب ، فإنْ لم تفِ أموالُهم فسَلْ فى قريش ولاتعْدُهم إلى غيرهم ، وأَدِّ عنى هذا المال وانطلقْ إلى أُمّ المؤمنين عائشة فقل : عمرُ يقرأُ عليك السلام ، ولا تقل أميرُ المؤمنين ، فإنِّى لست اليوم للمؤمنين أميراً . وقلْ : يستأْذِنُ عمر بن الخطاب أن يُدْفنَ مع صاحبَيه . فذهب عبدُ الله فسلَّم واستأْذن ثم دخلَ عليها ، فوجدها قاعدةً تبكى ، فقال : يقرأُ عليكِ عُمرُ بنُ الخطاب السَّلامَ ويستأْذِنُ أنْ يُدفَن مع صاحبيه . فقالت : كنت أُريده لنفسى ، ولأُوثرنَّه اليَومَ على نفسى ! فلما أقبل قيل : هذا عبد الله بن عمر قد جاءَ . فقال : ارفَعونى ، فأَسنده رجلٌ إليه فقال : مالديك ؟ قال : الذى تحبُّ يا أمير المؤمنين ، قد أَذِنَتْ . قال : الحمد لله ما كان شىءٌ أهمَّ إلىَّ من ذلك ! فإذا أنا قُبِضْتُ فاحملونى ، ثم سَلِّمْ وقل : يستأْذن عمر ! فإن أَذِنَتْ لى فأَدخلونى ، وإن ردَّتْنى رُدُّونى إلى مَقابر المسلمين .

وجاءَت أُمُّ المؤمنين حفصةُ والنِّساءُ يستُرنها ، فلما رأَيناها قُمنا فولَجتْ عليه فبكت عنده ساعة ، واستأْذن الرجالُ فولجتْ داخلاً ، فسمعنا بكاءَها من داخل .

---

(١) أى تقدم وسابقة .

قال : فلما قُبِض خرجْنا به فانطلقنا نَمشِى ، فسلَّم عبد الله بن عمر وقال : يستأْذن عمر بن الخطاب . فقالت : أَدْخِلُوه . فأَدْخَلُوه فى موضعٍ هنا لك مع صاحبيه .

وفاة عثمان رضي الله عنه

الحديثُ فى قتلهِ مشهور . وقد قال عبد الله بن سَلَام : أتيت أخى عثمانَ لأُسلِّم عليه وهو محصورٌ ، فدخلتُ عليه فقال : مرحباً يا أخى ! رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة فى هذه الخَوْخة[1] – وهى خَوخة فى البيت – فقال : « يا عثمان حَصَروك ؟ » قلت : نعم ، قال « عَطَّشوك ؟ » قلت : نعم . فأَدلى إلىَّ دلواً فيه ماءٌ فشربتُ حتَّى رَوِيتُ ، حتَّى إنِّى لأَجِدُ بَرْدَه بين ثَدْيَىَّ وبين كتفى . وقال لى : « إن شئتَ نُصِرت عليهم ، وإنْ شئْت أفطرت عندنا » . فاخترت أن أُفطِرَ عنده ! فقُتِل ذلك اليوم رضى الله عنه .

وقال عبد الله بن سَلَام لمن حضر تَشَحُّطَ عثمان فى الموت حين جُرِح : ماذا قال عثمان وهو يتشحَّط ؟ قالوا : سمعناه يقول ، اللهم اجمعْ أُمَّة محمد صلى الله عليه وسلم – ثلاثاً – قال : والذى نفسى بيده لودعا اللهَ أن لا يجتمعوا أبداً ما اجتمعُوا إلى يوم القيامة .

وروى عن شيخ من ضَبَّةَ : أنَّ عثمان حين ضُرِب والدِّماءُ تسيل على لحيته ، جعل يقول : (لا إله إلاَّ أنت سُبحانك إنِّى كنتُ من الظالمين) ، اللهم إنِّى أَسْتَعْدِيك عليهم ، وأستَعينُك على جميع أُمورى ، وأسأَلك الصَّبرَ على ما ابتليتنى .

---

(١) الخوخة : كوة فى البيت تؤدى إليه الضوء .

وفاة عليٍّ كرم الله وجهه

قال الأَصبغُ الحنظلي : لما كانت الليلةُ التي أُصيب فيها عليٌّ كرمَ الله وجْهَه أتاه ابن التَّيَّاح حينَ طلَع الفجر يؤْذنه بالصلاة ، وهو مضطجعٌ متثاقل ، فعاد الثانيةَ وهو كذلك ، ثم عاد الثالثةَ فقام عليٌّ يمشي وهو يقول :

أُشْدُدْ حَيَازِيمَكَ للموْتِ ... فــإنَّ المـــوتَ لاقِيــكا
ولا تَجْزَعْ مــن الموت ... إذا حَــلَّ بِوَادِيــكا

فلما بلغ البابَ الصغير شَدَّ عليه ابن مُلْجِمٍ فضربه . فخرجت أمُّ كلثوم ابنة عليٍّ رضي الله عنه فجعلت تقول : مالي ولِصلاة الغدَاة ! أُقْتِل زوجي أمير المؤمنين صلاةَ الغداة ، وقتل أبي صلاةَ الغداة !

وعن شيخ من قريش أنَّ عليًّا كرم الله وجهَه لمَّا ضربه ابن ملجم قال : فُزْتُ وربِّ الكعبة !

وعن محمدبن علي : أنه لما ضُرِب أوصى بنيه ، ثم لم ينطقْ إلاَّ بلا إله إلاَّ الله ، حتَّى قُبِض .

الباب الخامس

في كلام المحتضَرِين من الخلفاءِ والأُمراءِ الصالحين

لما حضرت معاويةَ بن أَبى سفيان الوفاةُ قال : أَقعِدونى ، فأُقعِدَ فجعل يسبِّح الله تعالى ويذكره ثم بكى وقال : تَذْكُرُ ربَّكَ يا معاوية بعد الهرم والانحطاط ! أَلاَّ كان هذا وغصنُ الشباب نضِرٌ ريَّان ! وبكى حتَّى علا بكاؤُه وقال : يارَبُّ ارحمِ الشَّيخَ العاصىَ ، ذا القلب القاسى . اللهم أَقِلِ العَثْرة واغفر الزَّلَّة ، وعُدْ بحلمك على مَنْ لم يرجُ غيرك ولم يثقْ بأَحد سواك .

ولما حضرت عبدَ الملك بن مروان الوفاةُ نظر إلى غسَّال بجانب دمشق يَلوى ثوباً بيده ثم يَضرب به المِغْسلة ، فقال عبد الملك : ليتنى كنت غسَّالا آكل مِن كسب يدى يوماً بيومٍ ولم أَلِ من أمرِ الدُّنيا شيئاً . فبلغ ذلك أَبا حازم فقال . الحمد لله الذى جعلَهم إذا حضرهم الموتُ يتمنَّوْن ما نحن فيه ، وإذا حَضَرَنا الموتُ لم نتمنَّ ما هم فيه .

وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان – امرأة عمر بن عبد العزيز – كنت أَسمع عمرَ فى مرضه الذى مات فيه يقول : اللهم أَخْفِ عليهم موتى ولو ساعةً من نهار . فلما كان اليومُ الذى قُبض فيه خرجتُ من عنده فجلست فى بيتٍ آخر ، بينى وبينه باب وهو فى قُبَّةٍ له ، فسمعته يقول : (تلك الدارُ الآخرة نَجْعَلُها للَّذِينَ لا يُرِيدون عُلوًّا فى الأَرضِ ولا فَسَاداً والعاقِبةُ للمتَّقينَ) . ثم هدأَ فجعلتُ لا أَسمعَ حركة ولا كلاما ، فقلت لِوَصِيفٍ له : انظُرْ أَنائِم هو ؟ فلما دخل صاحَ ، فوثبتُ فإذا هو ميِّت .

وحُكى عن هارونَ الرشيدِ أنَّهُ انتقى أكفانه بيدة عند الموت ، وكان ينظر إليها ويقول : (ما أَغْنَى عَنِّى مالِيَهْ * هَلَكَ عنى سُلْطَانِيَهْ) .

وفرش المأمونُ رَماداً واضطجعَ عليه ، وكان يقول : يامَن لايزول ملكُه ارحمْ من قدْ زال مُلْكُه .

وقال عمرو بن العاص عند الوفاة — وقد نظر إلى صناديقَ لبنيه : مَن يأْخذُها بما فيها ، ليتَه كان بعراً .

ولما حضرت بلالاً الوفاة قالت امرأته : واحُزْناه ! فقال : بل واطَرَباه ! غداً نلقى الأَحِبَّهْ ، محمداً وحِزْبَهْ .

وقيل : فتح عبد الله بن المبارك عينَه عند الوفاة وضحك ، وقال : (لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَل العاملون) .

ولما حضرت عامرَ بنَ عبد القيس الوفاةُ بكى فقيل له : ما يُبكيك؟ قال : ما أبكى جزعاً من الموت ، ولا حِرصاً على الدنيا . ولكن أبكى على ما يفوتنى من ظمإ الهواجر ، وعلى قيام اللَّيلِ فى الشتاء !

ودخل الحسنُ رضى الله عنه على رجلٍ يجودُ بنفسه فقال : إنَّ أمراً هذا أَوَّله لَجَدِيرٌ أن يُتَّقَى آخره ، وإنَّ أمراً هذا آخره لجدير أن يُزْهَدَ فى أَوَّله .

وقال الْجُنيد : دخلت على سَرِىٍّ السَّقَطى أعودُه فى مرض موته فقلت : كيف تجدك ؟ فأنشأ يقول :

كيف أشكو إلى طبيبىَ مابى والـذى بى أصابنى من طبيبى

فأَخذتُ المِرْوحة لأُروِّحَه فقال : كيف يجد رِيحَ المِروحة مَنْجَوفُه يحترق ؟ ثم أنشأ يقول :

القلبُ محترقٌ والدمع مُسْتَبِقٌ ... والكَرْب مجتمعٌ والصبر مفترقُ

كيف القَرَارُ على مَن لاقَرَارَ له ... مما جناه الهوى والشَّوْقُ والقلقُ

يارِبِّ إنْ يَكُ شيءٌ فيه لى فرجٌ ... فامنُنْ علىَّ به مادام بى رَمَقُ

فهذه أقاويلُهم ، وإنَّما اختلفَتْ بِحَسب اختلاف أحوالهم . فغلبَ على بعضهم الخوفُ ، وعلى بعضهم الرجاءُ ، وعلى بعضهم الشَّوقُ والحبُّ ، فتكلَّم كلٌّ واحدٍ منهم على مقتضَى حالِه . والكلُّ صحيحٌ بالإضافة إلى أحوالهم .

الباب السادس

في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر

اعلم أنّ الجنائز عبرةٌ للبصير ، وفيها تنبيه وتذكير لأهل الغفلة ، فإنها لاتزيدهم مشاهدتُها إلاّ قساوة ، لأنَّهُم يظنون أنَّهُم أبداً إلى جنازةِ غيرهم ينظرون ، ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يُحملون ، أو يحسبون ذلك ولكنَّهم على القرب لا يقدرون ، ولا يتفكّرون أنَّ المحمولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون ، فبطل حِسبانُهم ، وانقرض على القرب زمانهم ، فلا ينظر عبدٌ إلى جنازةٍ إلاّ ويقدِّر نفسَه محمولاً عليها ، فإنّه محمول عليها على القرب وكأن قد ، ولعله فى غدٍ أو بعد غد .

ويروى عن أبى هريرة : أنه كان إذا رأى جِنَازة قال : امضُوا فإنّا على الأثر .

وكان مكحولٌ الدمشقى إذا رأى جِنازة قال : اغدوا فإنّا رائِحون . موعظةٌ بليغة وغَفلة سريعة ، يذهب الأوّل والآخِر لا عقل له .

وقال أُسيد بن حُضَير : ما شهدت جِنازة فحدثتنى نفسى بشىء سوى ما هو مفعولٌ به ، وما هو صائِر إليه .

ولما مات أخو مالك بن دينار خرج مالكٌ فى جنازته يبكى ويقول : واللهِ لا تَقَرُّ عينى حتّى أعلم إلى ماذا صرتَ إليه ، ولا أعلم مادمتُ حيا .

وقال الأعمشُ : كنّا نشهد الجنائز فلا ندرى من نُعزِّى ؟ لحزن الجميع .

وقال ثابت البُنانيُّ : كنا نشهد الجنائِز فلا نرى إلّا متقنِّعاً باكياً .

فهكذا كان خوفُهم من الموت . والآن ! لا ننظر إلى جماعة يحضُرون جنازة إلاَّ وأكثرهم يضحكون ويلهَوْن ، ولا يتكلَّمون إلاَّ فى ميراثه وما خلَّفه لورثته ، ولا يتفكر أقرانُه وأقاربه إلاَّ فى الحيلة التى بها يتناول بعضَ ما خلَّفه ، ولا يتفكر واحدٌ منهم - إلاَّ ما شاءَ الله - فى جنازة نفسه وفى حاله إذا حُمل عليها . ولا سببَ لهذه الغَفْلة إلاَّ قسوةُ القلوب ، بكثرة المعاصى والذنوب ، حتَّى نسينا اللهَ تعالى واليومَ الآخر ، والأهوالَ التى بين أيدينا ، فصرنا نلهو ونغفُل ، ونشتغل بما لا يَعْنينا . فنسأَل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة ؛ فإنَّ أحسَنَ أحوال الحاضرين على الجنائِز بكاؤُهم على الميت ، ولو عَقَلوا لبكَوا على أنفسهم لا على الميت .

نظر إبراهيم الزيات إلى أناس يترحَّمون على الميت فقال : لو تَرحَّمون على أنفسكم لكان خيراً لكم ، إنَّه نجا من أهوال ثلاثة : وجهِ مَلَكِ الموت وقد رأى ، ومَرارةِ الموت وقد ذاق ، وخوف الخاتمة وقد أَمِن .

وقال أبو عمرو بن العلاء : جلستُ إلى جريرٍ وهو يملى على كاتبه شعراً فأُطلِعت جنازةٌ فأمسك وقال : شيَّبتنى والله هذه الجنائِز . وأنشأ يقول :

تروِّعُنا الجنـــائزُ مُقْبِلاتٍ ... ونَلهو حين تذهب مُدْبِرَاتِ
كرَوْعَةِ ثَلَّةٍ لِمُغَارِ ذئـــب ... فلما غابَ عادت راتعـــات [1]

فمن آداب حضور الجنائِز : التفكير والتنبه والاستعداد ، والمشىُ أمامها على هيئة التواضع .

---

(١) الثلة ، بالفتح : جماعة الغنم . والمغار : مصدر ميمى بمعنى الإغارة .

ومن آدابه : حسنُ الظنِّ بالميت وإن كان فاسقاً ، وإساءة الظن بالنفس وإنْ كان ظاهرُها الصلاح ، فإنَّ الخاتمة مُخطِرةٌ لا تُدرَى حقيقتُها .

ولذلك روى عن عُمَر بن ذرٍّ أنه ماتَ واحدٌ من جيرانه ، وكان مسرفاً على نفسه ، فتجافى كثيرٌ من الناس عَن جنازته ، فحضرها هو وصلَّى عليها ، فلما دُلِّيَ فى قبره وقفَ على قبره وقال : يرحمك الله يا أبا فلان ، فلقد صحبت عُمرَك بالتوحيد ، وعفَّرت وجهَك بالسجود ، وإنْ قالوا مذنبٌ وذو خطايا ، فمنْ منا غيرُ مذنبٍ وغيرُ ذى خطايا ؟

وقيل لعلىٍّ كرَّمَ الله وجهَه : ما شأْنُك جاورتَ المقبرة ؟ قال : إنى أجِدُهم خيرَ جيران ، أجدُهم جيرانَ صِدقٍ يكفُّون الألسنة ، ويذكرون الآخرة .

وكان عثمانُ بن عفَّانَ رضى الله عنه إذا وقفَ على قَبر بكى حتى يبلَّ لحيته ، فسئِل عن ذلك وقيل له : تذكر الجنةَ والنار فلا تبكى ، وتبكى إذا وقفتَ على قبر ؟ ! فقال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنَّ القبر أوّلُ منازلِ الآخرة ، فإنْ نجا منه صاحبه فما بعده أيسرُ منه ، وإنْ لم يَنْجُ منه فما بعدَه أشدُّ » .

وقيل : إنَّ عمرو بن العاص نظر إلى المقبرة فنزَل وصلَّى ركعتين ، فقيل له : هذا شئٌ لم تكن تصنعه ! فقال : ذكرتُ أهلَ القبور وما حِيل بينهم وبينه ، فأحببت أن أتقرَّب إلى الله بهما .

وقال مالكُ بن دينار : مررت بالمقبرة فأنشأْتُ أقول :

أتيتُ القبورَ فناديتها ... فأين المعظَّم والمحتقرْ
وأين المُدِلُّ بسلطانه ... وأين المزكّى إذا ما افتخَرْ

قال . فنُوديتُ من بينها ، أسمعُ صوتاً ولا أرى شخصاً ، وهو يقول :

تفانَــوا جميــعاً فما مُخْبِرٌ ... وماتــوا جميعاً ومات الخبرْ
تَروح وتغــدو بنات الثَّرَى ... فتمحو محاسنَ تلك الصُّوَر
فيا سائِلِى عن أُناس مَضَوْا ... أما لَكَ فيما ترى معتــبر

قال : فرجعتُ وأنا باكٍ .

بيان زيارة القبور والدعاءِ للميت وما يتعلَّق به

زيارة القبور مستحبة على الجملة ، للتذكر والاعتبار ، وزيارةُ قبور الصالحين مستحبة لأَجل التبرك مع الاعتبار . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نَهى عن زيارة القبور ثم أَذِن فى ذلك بَعْدُ .

روى عن على رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كنت نهيتُكم عن زيارة القبور فزوروها فإنَّها تذكِّركم الآخرةَ ، غير أنْ لا تقولوا هُجْرا[1] » .

وقال ابن أَبى مُليكة : أقبلتْ عائِشة رضى الله عنها يوماً من المقابر فقلت : يا أُمّ المؤمنين من أين أقبلتِ ؟ قالت : من قبر أخى عبد الرحمن ، فقلت : أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نَهَى عنها ؟ قالت : نعم ، ثم أمرَ بها .

وعن نافع ، أن ابن عمر كان لا يمرُّ بقبر أحد إلاَّ وقفَ عليه وسلَّم عليه .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « من زار قَبْرى فقد وجبت له شفاعتى » .

---

(١) الهجر ، بالضم : الإفحاش فى الكلام .

والمستحب فى زيارة القبور أن يقفَ مستدبِرَ القِبلة مستقبلاً بوجهه الميت ، وأن يسلِّم ولا يمسح القبر ولا يمسَّه ولا يقبِّله ، فإنَّ ذلك من عادة النصارى .

قال نافع : كان ابنُ عمرَ رأيته مائةَ مرة أو أكثر يجيءُ إلى القبر فيقول : السلام على النبي ،السلام على أبي بكر ، السلام على أبي .وينصرف .

وكان محمدُ بن واسع يزور يومَ الجمعة فقيل له : لو أخَّرت إلى يوم الاثنين ؟ قال : بلغنى أن الموتى يَعلمون بزُوَّارهم يومَ الجمعة ، ويوماً قبله ، ويوماً بعده .

ولا بأس بقراءة القرآن على القبور .

وقال محمد بن أحمد المرْوَزِىّ : سمعتُ أحمد بن حَنبل يقول : إذا دخلتم المقابر فاقرءُوا بفاتحة الكتاب والمعوِّذتين وقل هو الله أحد ، واجعلوا ثوابَ ذلك لأهل المقابر فإنَّه يَصِلُ إليهم .

فالمقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبارُ بها ، وللمزور الانتفاع بدعائه . فلا ينبغى أن يغفُل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت ، ولا عن الاعتبار به . وإنما يحصل له الاعتبارُ بأن يصوِّرَ فى قلبه الميتَ كيف تفرَّقت أجزاؤه ، وكيف يُبعثُ من قبره ، وأنَّه على القُرب سيَلحق به .

الباب السّابع

في حقيقة الموت ، وما يلقاه الميت في القبر
إلى نفخة الصـــور

بيان حقيقة الموت

اعلم أن للناس فى حقيقة الموت ظنوناً كاذبةً قد أخطئوا فيها .

فظنَّ بعضُهم : أنَّ الموت هو العدم ، وأنَّه لا حشرَ ولا نشر ، ولاعاقبةَ للخير والشر ، وأنَّ موت الإنسان كموت الحيوانات وجفاف النبات . وهذا رأىُ الملحدين وكلُّ مَن لا يؤْمن بالله واليوم الآخر .

وظنَّ قوم : أنه ينعدم بالموت ولا يتألم بعقاب ولا يتنعَّم بثواب ، مادام فى القبر ، إلى أن يُعاد فى وقت الحشر .

وقال آخرون : إنَّ الروح باقية لاتنعدم بالموت ، وإنما المُثاب والمعاقَب هى الأَرواح دون الأَجساد ، وإن الأَجساد لا تبعث ولا تحشر أصلاً .

وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق . بل الذى تشهد له طرقُ الاعتبار ، وتنطق به الآيات والأَخبار ، أنَّ الموت معناه تغيُّرُ حال فقط ، وأنَّ الروح باقية بعد مفارقة الجسد إمَّا معذَّبةً وإمَّا منعَّمة . ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرُّفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها ،

فإنَّ الأعضاء آلاتٌ للروح تستعملها ، حتَّى إنَّها لتبطِش باليدِ وتسمعُ بالأُذن ، وتبصرُ بالعين ، وتعلمُ حقيقة الأَشياء بالقلب . والقلب ههنا عبارة عن الرُّوح ، والرُّوحُ تعلم الأَشياء بنفسها من غير آلة ، ولذلك قد يتألَّم بنفسه بأَنواع الحزن والغم والكمد ، ويتنعَّم بأَنواع الفرح والسرور . وكل ذلك لا يتعلق بالأَعضاء . فكلٌّ ماهو وصفٌ للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسدِ ، وما هو لها بواسطة الأَعضاء فيتعطل بموتِ الجسد إلى أن تُعاد الروحُ إلى الجسد ، ولا يبعد أن تُعاد الروح إلى الجسد فى القبر ، ولا يبعد أنْ تؤَخَّر إلى يوم البعث . والله أَعلم بما حَكم به على كلِّ عبدٍ من عباده .

وإنما تَعَطُّلُ الجسدِ بالموت يضاهى تعطُّل أَعضاء الزَّمِنِ[1] بفساد مِزاج يقعُ فيه ، وبشدَّةٍ تقع فى الأَعصاب تمنع نفوذَ الروح فيها ، فتكون الروح العالمة العاقلةُ المدركة باقيةً مستعمِلة لبعض الأَعضاء وقد استعصى عليها بعضُها ، والموت عبارة عن استعصاء الأَعضاء كلها .

وكلُّ الأَعضاء آلاتٌ والروح هى المستعمِلة لها ، وأَعنى بالروح : المعنى الذى يُدرِك من الإِنسان العلومَ وآلامَ الغموم ولذَّاتِ الأَفراح . ومهْمَا بَطَل تصرفها فى الأَعضاءِ لم تَبطلْ منها العلوم والإِدراكات ، ولا بطل منها الأَفراح والغموم ، ولا بطل منها قَبولها للآلام واللذات .

والإِنسان بالحقيقة هو المعنى المدرِكُ للعلوم وللآلام واللذات ، وذلك لا يموت — أَى لا ينعدم — ومعنى الموت انقطاع تصرُّفه عن البدن وخروج البدن عن أَن يكون آلةً له ، كما أَنَّ معنى الزمانة خروجُ اليد عن أَن تكون آلة مستعمَلة . فالموت زمانةٌ مطلقةٌ فى الأَعضاء كلها ، وحقيقةُ الإِنسان نفسهُ وروحُه ، وهى باقية .

---

(١) الزمن : ذو العاهة .

واعلم أنَّ المؤْمن ينكشف له عَقِيبَ الموت من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسِّجن والمَضيق ، ويكون مثاله كالمحبوس فى بيتٍ مظلم فُتِح له بابٌ إلى بستان واسع الأكناف ، لا يبلغ طرفُه أقصاه، فيه أنواع الأشجار والأزهار والثمار والطيور ، فلا يشتهى العودَ إلى السجن المظلم .

وقد ضَرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً فقال لرجُل مات « أصبح مرتحِلاً عن الدنيا وتركها لأهلها ، فإنْ كان قدرَضِيَ فلا يسرُّه : أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسرُّ أحدَكم أن يرجع إلى بطِن أمه » . فعرَّفك بهذا أن نسبة سعة الآخرة إلى الدنيا كنسبة سعة الدنيا إلى ظلمة الرَّحِم .

وعن عمرو بن دينار قال : ما من ميِّت يموت إلاَّ وهو يعلم ما يكون فى أهله بعدَه ، وإنَّهم ليغَسِّلونه ويكفِّنونه وإنه لينظرُ إليهم .

وسئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن أرواح المؤْمنين إذا ماتوا أين هى ؟ قال : فى حواصل طَيرٍ بيضٍ فى ظلِّ العرش ، وأرواحُ الكافرين فى الأرض السابعة .

وقال مجاهد : إنَّ الرجلَ ليبشَّرُ بصلاح ولده فى قبره .

الباب الثامن

فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام

اعلم أنَّ أنوار البصائِر - المستفادةَ من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومن مناهج الاعتبار - تعرِّفنا أحوالَ الموتى على الجملة وانقسامَهم إلى سعداءَ وأشقياءَ. ولكنْ حال زيد وعمرو بعينه فلا ينكشف أصلا ، فإنَّا إنْ عوَّلنا على إيمان زيد وعمرو فلا ندرى على ماذا مات ، وكيف خُتم له ؟ وإنْ عَوّلنا على صلاحه الظاهر فالتقوى محلُّه القلب ، وهو غامض يخفَى على صاحبِ التقوى فَكَيف على غيره ؟ فلا حُكم لظاهر الصلاح دون التقوى الباطن. قال الله تعالى : (إنَّما يتقبَّلُ اللهُ من المتَّقِين). ولمَّا كانت الغِشاوة منقشعةً عن أعين الأَنبياء عليهم السلام فلا جَرَم نظروا إلى الملكوت وشاهدوا عجائِبه ، والموتى فى عالم الملكوت فشاهدوهم وأخبروا .

ومثل هذه المشاهدة لا مطمَع فيها لغير الأَنبياء والأَولياء الذين تقربُ درجتُهم منهم .

إنَّما الممكن من أمثالنا مشاهدةٌ أُخرى ضعيفة ، إلاَّ أنها أيضاً مشاهدة نبويَّة ، وأُعنى بها المشاهدة فى المنام ، وهى من أنوار النبوَّة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الرُّؤْيَا الصالحةُ جزءٌ من ستةٍ وأَربعين جزءًا من النبوّة » . وهو أيضاً انكشافٌ لا يحصُل إلاَّ بانقشاع الغِشاوة عن القلب ، فلذلك لا يُوثَق إلاَّ برؤْيا الرَّجل الصالح الصادق . ومن كَثُر كذبُه

لم تصــدُق رؤْياه ، ومن كثر فساده ومعاصيه أظلمَ قلبُــه فكان ما يراه أضغاثَ أحلام .

والرؤْيا ومعرفةُ الغيب فى النوم من عجائِب صُنع الله تعالى ، وبدائِع فِطرةِ الآدمى ، وهو من أوضح الأَدلَّة على عالم الملكوت ، والخلق غافلون عنه كغفلتهم عن سائِر عجائِب القلب وعجائِب العالم. والقول فى حقيقة الرؤْيا من دقائِق عُلوم المكاشفة فلا يمكن ذكرُه علاوةً على علم المعاملة .

ولكن القَدْر الذى يمكن ذكره ههنا مثالٌ يفهمك المقصود : وهوأنْ تعلم أنَّ القلب مثاله مثالُ مرآةٍ تتراءى فيها الصُّوَر وحقائق الأُمور ، وأنَّ كُلَّ ما قدَّره الله تعالى من ابتداءِ خلق العالم إلى آخره مسطورٌ ومثبتٌ فى خَلْقٍ خلقه الله تعالى يعبَّر عنه تارة باللَّوح ، وتارة بالكتاب المبين ، وتارة بإمامٍ مبين ؛ كما ورد فى القرآن ، فجميع ما جرى فى العالم وما سيجرى مكتوبٌ فيه ، ومنقوشٌ عليه نقشاً لايُشاهَد بهذه العين .

ومعنى النَّوم أنْ تركد الحواسُّ عليه فلا تُورده على القلب ، فإذا تخلَّص منه ومن الخيال وكان صافياً فى جوهره ارتفع الحجابُ بينه وبين اللَّوحِ المحفوظ ، فوَقَعَ فى قلبه شىءٌ مما فى اللَّوح ، كما تقع الصورةُ من مرآة فى مرآة أُخرى إذا ارتفع الحجابُ بينهما ، إلّا أنَّ النوم مانعٌ سائِرَ الحواسِّ عن العمل ولَيْس مانعاً للخيال عن عمله وعن تحرُّكه ، فما يقع فى القلب يبتدره الخيالُ فيحاكيه بمثالٍ يقاربه ، وتكون المتخيَّلات أثبتَ فى الحفظ من غيرها ، فيبقى الخيالُ فى الحِفظ ، فإذا انتبه لم يتذكَّرْ إلّا الخيال ، فيحتاج المعبِّر أنْ ينظر إلى هذا الخيال حكايةَ أى معنًى من المعانى ؟ فيَرجعُ إلى المعانى بالمناسبة التى بين المتخيَّل والمعانى .

الشطر الثاني

من كتاب ذكر الموت : في أحوال الميت

من وقت نَفْخَةِ الصُّور إلى آخر الاستقرار فى الجنة أو فى النار وتفصيل ما بين يديه من الأهوال والأخطار

صفة نفخة الصُّور

تفكَّرْ أوَّلاً فيما يقرعُ سمعَ سكَّان القبور من شدَّة نفخ الصُّور ، فإنّها صيحةٌ واحدةٌ تنفرج بها القُبور عن رءُوس الموتى ، فيثُورون دفعة واحدة . فتوهَّمْ نفسَك وقد وثبْتَ متغيِّراً وجهُك ، مغبَرًّا بدنُك من فَرْقِك إلى قدمك من تراب قبرك ، مبهوتاً من شدة الصَّعقة ، شاخصَ العين نحو النِّدَاءِ ، وقد ثار الخلقُ ثَوْرَةً واحدةً من القبور التى طال فيها بلاؤُهم ؛ وقد أزعجَهم الفزعُ والرُّعب مضافاً إلى ماكان عندهم من الهموم والغموم وشدةِ الانتظار لعاقبة الأمْرِ ، كما قال تعالى : (ونُفِخ فى الصُّور فصَعِقَ مَنْ فى السَّمواتِ ومن فى الأرض إلاَّ من شاءَ الله ، ثُمَّ نُفِخَ فيه أُخرى فإذاهم قيامٌ ينظرون) . وقال تعالى : (فإذا نُقِرفى الناقور فذلك يومئذٍ يومٌ عسير * على الكافِرين غيرُ يسير) . وقال تعالى : (ويقولون مَتَى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين * ما يَنظُرون إلاَّ صيحةً واحدةً تأْخذُهم وهم يَخِصِّمُونَ * فلا يَستطِيعُون تَوصيَةً ولا إلى أهلِهِمْ يَرْجِعُون * ونُفِخ فى الصُّور فإذا هم من الأَجْداثِ إلى ربِّهم يَنْسِلُون * قالوا ياوَيْلَنا مَنْ بَعَثَنَا من مَرْقَدِنا هذا ما وعَدَ الرَّحمنُ وصَدَقَ المرسَلُون) .

فلو لم يكن بين يَدَيِ الموتى إلاَّ هولُ تلك النَّفخة لكان ذلك جديراً بأَن يُتَّقَى ، فإنّها نفخةٌ وصيحة يَصْعَق بها من فى السموات والأَرض إلاَّ من شاءَ الله ، وهو بعض الملائكة .

ثم يأمر مَلكَ الموت أن يقبض روحَ جبريل ، ثم روحَ ميكائيل ، ثم روح إسرافيل ، ثم يأمر مَلكَ الموت فيموت . ثم يلبث الخلقُ بعد النَّفخة الأُولى فى البرزخ أربعين سنة ، ثم يُحيي الله إسرافيل فيأمُره أن ينفخ الثانية ؛ فذلك قوله تعالى : (ثم نُفِخَ فيه أخرى فإذا هم قيامٌ ينظرون) على أَرْجُلهم يَنظُرون إلى البعث .

صفة أرض المحشر وأهله

ثم انظر كيف يُساقون بعد البعث والنشور حُفاةً عراة غُرلاً إلى أرض المحشر : أرضٌ بيضاء ، قاعٌ صفصف ، لا ترى فيها عِوَجًا ولا أَمْتاً ، ولا ترى عليها رَبوَةً يختفى الإنسان وراءها ؛ ولا وهدةً ينخفض عن الأعين فيها ، بل هو صعيدٌ واحد بسيطٌ لاتفاوتَ فيه ، يُساقُون إليه زُمَرا .

فسبحان مَن جَمع الخلائقَ على اختلاف أصنافهم من أقطار الأَرض ، إذْ ساقَهم بالرَّاجفة تتبعها الرادفة . والراجفة هى النفخة الأُولى ، والرادفة هى النفخة الثانية . وحقيقٌ لتلك القلوب أن تكون يومئذٍ واجفة ولتلك الأَبصار أنْ تكون خاشعةً . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يُحشَر النَّاسُ يومَ القيامة على أرضٍ بيضاء عفراء كقُرص النَّقِيِّ[1] ليس فيها مَعلمٌ لأَحد » .

ولا تظُنَّنَّ أن تلك الأَرض مثلُ أرضِ الدنيا ، بل لا تساويها إلاَّ فى الاسم . قال تعالى : (يوم تُبَدَّلُ الأَرضُ غيرَ الأَرضِ والسموات) . قال ابنُ عباس : يُزَادُ فيها ويُنقَص ، وتذهب أشجارها ، وجبالُها ، وأوديتها وما فيها ، وتمدُّ مدَّ الأَديم العُكاظى[2] . أرضٌ بيضاءُ مثل الفضَّة ، لم

(١) النقى ، هو الحوارى ، وهو المتخذ من لباب البر .
(٢) هو الجلد المنسوب إلى عكاظ .

يُسفك عليها دم ، ولم يُعمَل عليها خطيئة . والسَّموات تذهب شمسُها وقمرها ونجومها .

فإيَّاك أن تنكرَ شيئاً من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياسَ مافى الدنيا ، فإنَّك لو لم تكن قد شاهدتَ عجائب الدنيا ثم عُرِضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشدَّ إنكاراً لها ! فأَحضرْ فى قلبك صورتَك وأَنت واقفٌ عارياً مكشوفاً ذليلاً مدحوراً ، متحيِّراً مبهوتاً ، منتظراً لما يجرى عليك من القضاءِ بالسعادة أو بالشَّقاوةِ . وأَعظمْ بهذه الحالِ فإنَّها عظيمة !

صفة يوم القيامة ودواهيه

فاستعدَّ يا مسكينُ لهذا اليوم العظيم شأنُه ، المديدِ زمانُه ، القاهِرِ سُلطانُه ، القريبِ أَوانُه ، يوم ترى السماءَ فيه قد انفطرت ، والكواكب من هوله قد انتثرت ، والنجومَ الزَّواهرَ قد انكدرَتْ ، والشمسَ قد كُوِّرت ، والجبال قد سُيِّرت ، والعشار قد عُطِّلتْ ، والوحوشَ قد حُشرت ، والبحارَ قد سُجِّرت ، والنفوس إلى الأَبدان قد زوِّجت ، والجحيمَ قد سُعِّرت ، والجنَّةَ قد أُزلفت ، والجبالَ قد نسفت ، والأَرضَ قد مُدّت ، يوم ترى الأَرض قد زلزلت فيه زِلزالَها ، وأَخرجت الأَرضُ أثقالها ، يومئِذٍ يصدُر الناس أَشتاتاً ليُرَوْا أَعمالَهم . يوم تُحمَل الأَرضُ والجبال فَدُكَّتا دكة واحدة ، فيومئِذ وقَعت الواقعة ، وانشقَّت السماءُ فهى يومئِذٍ واهية ، والمَلَكُ على أَرجائِها ويَحمِل عرشَ ربِّك فوقهم يومئِذٍ ثمانية ، يَومئِذٍ تُعرَضُون لا تخفى منكم خافية . يومَ تُسيَّرُ الجبال وترى الأَرض بارزةً ، يومُ تُرجُّ الأَرض فيه رجًّا ، وتُبَسُّ الجبال بسًّا ، فكانت هباءً منبثًّا . يومَ يكون الناس كالفَرَاش المبثوث ، وتكون الجبال كالعِهن المنفوش. يوم تُذهل فيه كلُّ مُرضعةٍ عمَّا أَرضعت وتضع كلُّ ذات حَمْلٍ حملها ، وترى الناس سُكَارى وما هم بسكارى ولكنَّ عذاب الله شديد ،

يومَ تبدَّلُ الأَرض غيرَ الأَرضِ والسَّموات وَبَرَزوا لله الواحد القَّهار . يومَ تنسف فيه الجبال نسفاً ، فتترك قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عِوَجاً ولا أَمتاً . يومَ ترَى الجبال تحسبها جامدةً وهى تمرُّ مرَّ السحاب . يوم تنشقُّ فيه السَّماءُ فتكون وردةً كالدهان ، فيومئذٍ لا يُسأَل عن ذنبه إنسٌ ولا جانٌ . يوم يُمنَع فيه العاصى من الكلام ، ولا يُسأَل فيه عن الإِجرام، بل يؤْخذ بالنَّواصى والأَقدام . يوم تَجِدُ كلُّ نفسٍ ما عملت من خير مُحْضَراً وما عملت من سوءٍ تودُّ لو أَنَّ بينها وبينه أَمداً بعيداً . يوم تعلَم فيه كلُّ نفسٍ ما أُحْضِرَتْ ، وتشهد ما قدَّمت وأَخَّرت .

صفة الصراط

ثم تفكَّرْ بعد هذه الأَهوال فى قول الله تعالى : (يَوم نحْشُر المتَّقين إلى الرَّحمن وَفداً * ونسوقُ المجرمِينَ إلى جَهَنَّمَ وِرْدًا) . وفى قوله تعالى : (فاهدُوهم إلى صِراطِ الجحيم * وقِفُوهُمْ إنهم مسئُولون) .

فالناسُ بعد هذه الأَهوال يُساقون إلى الصِّراط ، وهو جسرٌ ممدود على مَتْن النار أَحدُّ من السيف وأَدقُّ من الشَّعر ، فَمَنْ استقام فى هذا العالم على الصِّراطِ المستقيم خفَّ على صراط الآخرة ونجا ، ومن عَدل عن الاستقامة فى الدنيا وأَثقلَ ظهرَه بالأَوزار وعَصَى ؛ تعثَّر فى أَوَّل قَدمٍ من الصراط وتردَّى .

فتفكَّرْ الآن فيما يحُلُّ من الفزع بفؤَادِك إذا رأَيْت الصراط ودقَّته ، ثم وقع بصرُك على سَواد جهنَّم من تحته ، ثم قرعَ سمعَك شهيقُ النار وتغيُّظها ، وقد كُلِّفتَ أَن تمشىَ على الصراط مع ضعف حالك ، واضطراب قلبك ، وتزلزُل قدمك ، وثقل ظهرك بالأَوزار المانعة لك عن المَشْى على بَسَاط الأَرض[1] فضلاً عن حِدَّة الصراط ، فكيف بك إذَا وضعتَ عليه

(١) البساط ، بالفتح : الأرض المستوية المبسطة .

إحدى رجليك فأحسست بحدَّته ، واضطُرِرْتَ إلى أن ترفع القدمَ الثانية والخلائقُ بين يديك يزلُّون ويتعثَّرون ،وتتناولهم زبانيةُ النَّارِ بالخطاطيف والكلاليبِ ، وأنت تنظر إليهم كيف يتنكَّسون فتتسفَّل إلى جهة النار رءُوسهم ، وتعلو أرجلهم . فياللّه من منظرٍ ما أفظعه ، ومرتقًى ما أصعبه ، ومَجازٍ ما أضيقه !

فانظرْ إلى حالك وأنت تزحَف عليه وتصعد إليه ، وأنت مُثْقلُ الظهر بأوزارك تلتفت يميناً وشمالاً إلى الخلق وهم يتهافتون فى النَّار ، والرسول عليه السلام يقول : « يارب سَلِّمْ سَلِّمْ » . والزَّعَقات بالوَيْل والثُّبور قد ارتفعت إليك من قعر جهنم لكثرة من زلَّ عن الصِّراط من الخلائِق ، فكيف بك لو زلَّت قدَمك ولم ينفعْك ندمُك ، فناديتَ بالويْل والثُّبور وقلت : هذا ما كنتُ أخافه فياليتنى قدَّمتُ لحياتى ! ياليتَنى اتخذتُ مع الرسول سبيلا ! ياويلتَا ليتنى لم أتَّخذْ فلاناً خليلاً ! ياليتنى كنتُ تراباً ! ياليتنى كُنْتُ نِسياً مَنسيًّا ! يا ليتَ أُمِّى لم تلدْنى !

وعند ذلك تختطفك النِّيران — والعياذُ بالله — وينادى المنادى : (اخْسَئُوا فيها ولا تُكَلِّمُون) ، فلا يبقى سبيلٌ إلاَّ الصياح والأَنين ، والتنفس والاستغاثة. فكيف ترى الآن عقلَك وهذه الأَخطارُ بين يديك؟ فإن كنت غير مؤْمن بذلك فما أطول مُقامك مع الكفَّار فى دركات جهنم ! وإن كنت به مؤْمناً وعنه غافلاً وبالاستعداد له متهاوناً ، فما أعظم خُسرانك وطغيانك . وماذا ينفعك إيمانك إذا لم يبعثك على السّعى فى طلب رضا الله تعالى بطاعته وترك معاصيه ! فلو لم يكن بين يديك إلاَّ هولُ الصراط وارتياع قلبك من خطر الجواز عليه — وإنْ سلِمتَ — فناهيك به هَولاً ، وفزعاً ورعباً !

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يُضْرَبُ الصِّراط بين ظَهرانَىْ

جهنم ، فأكون أوّلَ من يُجيز بأُمّته من الرسل ، ولا يتكلَّمُ يومئذ إلاَّ الرسل ، ودعوى الرسل يومئذٍ : اللهمَّ سَلِّمْ اللهم سلِّمْ . وفى جَهَنَّمَ كلاليبُ مثل شَوْكِ السَّعدان ، هل رأيتم شوك السعدان ؟ » قالوا : نعم يارسول الله . قال : « فإنها مثل شوك السعدان ، غير أنَّهُ لا يعلم قَدرَ عِظَمِهَا إلاَّ الله تعالى ، تختطف النّاسَ بأعمالهم ، فمنهم من يُوبَقُ بعمله ، ومنهم مَنْ يُخَرْدَلُ ثم ينجو[1] » .

القول في صفة جهنم وأهوالها وأنكالها

يأيُّها الغافُل عن نفسه ، المغرورُ بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفةِ على الانقضاءِ والزوال ؛ دع التفكُّرَ فيما أنت مرتحلٌ عنه ، واصرف الفكر إلى مَورِدك ، فإنَّك أُخبرتَ بأَن النار مَوردٌ للجميع ، إذ قيل : (وإنْ مِنْكُمْ إلاَّ واردُهَا كانَ على رَبِّكَ حَتماً مَقْضِيًّا * ثم نُنَجِّي الذين اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظالمين فيها جِثِيًّا) . فأنت من الورود على يقين ، ومن النجاة فى شَكٍّ ، فاستشعر فى قلبك هولَ ذلك المَوْرِد ، فعساك تستعدُّ للنجاة منه .

وتأمَّل فى حال الخلائِق وقد قاسَوا من دواهى القيامة ماقَاسَوْا ، فبينما هم فى كَربها وأهوالها وقوفاً ينتظرون حقيقة أنبائِها ، وتشفيع شفعائِها ، إذْ أحاطت بالمجرمين ظلماتٌ ذات شُعَب ، وأظلَّت عليهم نارٌ ذات لهب ، وسَمِعوا لها زفيراً وجَرجرة ، تُفصح عن شدَّة الغيظ والغضب ، فعند ذلك أيقن المُجْرِمُون بالعطَب ، وجثَتِ الأُممُ على الرُّكَب ، حتى أشفق البُرآءُ من سوءِ المنقلب . وخرج المنادى من الزَّبانية قائلا : أين فلان بن فلان ، المسوِّفُ نفسَه فى الدنيا بطول الأَمل ، المضيِّع عمرَه فىسوءِ العمل ؟ فيبادرونه بمقامع حديدٍ ، ويستقبلونه بعظائِم التهديد ، ويسوقونه إلى

(١) المخردل : المصروع المرمى .

العذاب الشديد ، وينكّسونه في قعر الجحيم ويقولون له : (ذُق إنّك أنتَ العزيزُ الكَريم) . فأُسكنِوا داراً ضيقة الأَرجاءِ ، مظلمةَ المسالك ، مبهمة المهالك ، يخلُد فيها الأَسير ، ويُوقَد فيها السَّعير ، شرابُهم فيها الحميم ، ومستَقرُّهم الجحيم ، الزَّبانية تقمعهم ، والهاوية تجمعهم ، أمانيهم فيها الهلاك ، وما لهم منها فِكاك ، قد شُدَّت أقدامُهم إلى النواصى ، واسودّت وجوههم من ظلمة المعاصى ، يُنَادُون من أكنافها ، ويصيحون في نواحيها وأطرافها : يا مالك قد حقَّ علينا الوعيد ، يا مالك قد أثقلَنَا الحديد ، يا مالك قد نَضِجَتْ منا الجلود ، يا مالك أخرِجْنَا منها فإنّنَا لا نعود . فتقول الزبانية : هيهات لاتَ حين أمان ! ولا خروجَ لكم من دار الهوان ، فاخسئُوا فيها ولا تكلّمون ، ولو أُخرجتم منها لكنتم إلى ما نُهيتم عنه تعودون .

فعند ذلكَ يقنطون ، وعلى ما فَرّطوا في جنب الله يتأسَّفون ، ولا يُنجيهم الندم ولا يغنيهم الأَسف ، بل يُكَبُّون على وجوههم مغلولِين ، النار من فوقهم والنار من تحتهم ، والنار عن أيمانهم والنار عن شمائِلهم ، فهم غرقَى في النار ، طعامُهم نارٌ ، وشرابُهم نار ، ولباسُهم نار ، ومِهادُهم نار ، فهم بين مقطَّعات النِّيران ، وسَرابيل القَطِران ، وضَرب المقامع ، وثِقَل السلاسل ، فهم يتجلجلون في مضايقها ويتحطَّمُون في دركاتها ، ويضطربون بين غواشيها ، تَغلِي بهم النار كغَلى القدور ، ويهتفون بالويل والعويل . ومهما دَعَوا بالثُّبور صُبَّ من فوق رُءُوسهم الحميم ، يُصهَر به ما في بطونهم والجلود ، ولهم مقامعُ من حديد ، تهشّم بها جباههم فيتفجر الصَّديدُ من أفواههم ، وتَتَقطَّع من العطش أكبادهم ، وتسيل على الخدود أحداقُهم ، ويسقط من الوجنات لحومها ، ويتمعَّط من الأَطراف شعورها بل جلودها ، وكلما نضجت جلودهم بُدِّلوا جلودًا غيرها . قد عرِّيت من

اللحم عظامُهم ، فبقيت الأرواح مَنُوطة بالعروقِ وعلائِق العصب ، وهى تنشُّ فى لفح تلك النيران ، وهم مع ذلك يتمنَّون الموت فلا يموتون !

فكيف بك لو نظرتَ إليهم وقد سُوِّدت وجوههم أشدَّ سواداً من الحميم ، وأُعميت أبصارهم ، وأُبكمت ألسنتهم ، وقُصمتْ ظهورهم ، وكسرت عظامهم ، وجُدعت آذانهم ، ومُزِّقت جلودهم ، وغُلَّت أيديهم إلى أعناقهم ، وجُمع بين نواصيهم وأقدامهم . وهم يمشون على النار بوجوههم ، ويطئون حَسَكَ الحديد[1] بأحداقهم ، فلهيب النار سارٍ فى بواطن أجزائِهم ، وحَيَّات الهاويَةِ وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائِهم .

ثم انظر بعد هذا فى نَتْن الصديد الذى يسيل من أبدانهم حتَّى يغرقون فيه ، وهو الغَسَّاق .

ثم انظر إلى طَعَامهم وهو الزَّقُّوم ، كما قال الله تعالى : (ثم إنكم أيُّها الضَّالُّون المكذِّبون * لآكلونَ من شَجرٍ مِنْ زَقُّومٍ * فمالئُون منها البُطون * فشاربون عليه من الحميم * فشاربونَ شُرْبَ الهِيم[2]) .

ثم تفكَّر الآنَ فى بِكاءِ أهل النار وشهيقهم ، ودعائِهم بالويل والثبور ، فإن ذلك يسلَّط عليهم فى أوَّل إلقائِهم فى النار . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يُؤتَى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألفَ زِمَامٍ ، مع كلِّ زمام سبعون ألف مَلَك » .

فانظر يا مسكينُ فى هذه الأهوال ، واعلم أنَّ الله تعالى خلق النارَ بأهوالها ، وخلقَ لها أهلاً لا يزيدون ولا ينقصون ، وأن هذا أمرٌ قد قُضِيَ وفُرغ منه . قال الله تعالى : (وأنذِرْهمْ يومَ الحسرة إذْ قُضِيَ الأَمرُ وهم فى غفلةٍ وهم لا يؤْمنون) .

---

(١) الحسك من الحديد : ما عمل على مثال الحسك ، وهو الشوك .

(٢) الهيم : الإبل العطاش .

القول في صفة الجنة وأصناف نعيمها

اعلم أنَّ تلك الدارَ التى عرفت همومها وغمومها، تقابلها دارٌ أُخرى، فتأمَّلْ نعيمَها وسرورها، فإنَّ من بَعُدَ من إحداهما استقرَّ لا محالة فى الأُخرى. فاستثِر الخوف من قلبك بِطُولِ الفكر فى أهوال الجحيم، واستثر الرجاء بطول الفكر فى النَّعيم المقيم الموعودِ لأَهل الجنان، وَسُقْ نفسَك بسوط الخوف، وقُدهَا بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم، فبذلك تنال المُلْك العظيم، وتسلمُ من العذاب الأَليم.

فتفكَّرْ فى أهل الجنة وفى وجوههم نضرةُ النعيم، يُسقَوْن من رحيق مختوم، جالسين على منابِر الياقوت الأَحمر، فى خيامٍ من اللؤْلؤِ الرطب الأَبيض، فيها بُسُطٌ من العبقرىِّ الأَخضر، متكئين على أرائكَ منصوبة على أطراف أنهارٍ مطَّردة بالخمر والعسل، محفوفةٍ بالغِلمان والوِلدان، مزيَّنة بالحُور العِين من الخَيرات الحِسان، كأَنَّهنَّ الياقوت والمَرْجان، لم يَطمِثْهنَّ إنْسٌ قبلهمْ ولا جانٌ، يمشين فى درجات الجِنان، إذا اختالت إحداهن فى مشيها حَمَلَ أعطافَها سبعون ألفاً من الوِلْدان، عليها من طرائِف الحرير الأَبيض ما تتحيَّر فيه الأَبصار، مكلَّلاتٌ بالتيجان المرصَّعة باللؤْلؤِ والمرجان، شَكِلات غَنِجات عَطِرات، آمنات من الهرم والبؤْس، مقصوراتٌ فى الخيام، فى قصورٍ من الياقوت بنيت وسطَ روضات الجنان، قاصراتُ الطرف عِين. ثم يطاف عليهم وعليهنّ بأَكواب وأباريق، وكأْس من معينٍ بيضاءَ لَذَّةٍ للشاربين، ويطوف عليهم خُدَّامٌ ووِلْدان كأَمثال اللؤْلؤ المكنون، جزاءً بما كانوا يعملون، فى مقام أمين، فى جنات وعيون، فى جَنَّات ونهرٍ، فى مَقعدِ صِدق عند مَليك مقتدِر، ينظرون فيها إلى وجه المَلِكِ الكريم وقد أشرقت فى وجوههم نَضْرةُ النعيم، لا يرهَقُهم قَتَرٌ ولا ذلَّة، بل عبادٌ مكرمون، وبأَنواع التُّحف

من ربهم يُتعاهَدون ، فهُمْ فيما اشتهت أنفسهم خالدون . لا يَخافون فيها ولا يحزنون ، وهم من رَيب المنون آمنون ، فهم فيها يتنعَّمون ويأكلون من أطعمتها ، ويشربون من أنهارها لبناً وخمراً وعسلاً ، فى أنهارٍ أراضيها من فضَّة ، وحَصباؤُها مَرْجان ، وعلى أرضٍ ترابُها مِسكٌ أذفر ، ونباتها زعفران . ويُمطَرون من سحاب فيها من ماءِ النِّسرين على كُثبان الكافور ، ويؤْتَوْنَ بأكواب وأىِّ أكواب ، بأكواب من فضَّة مرصَّعة بالدر والياقوت والمرجان ، كوب فيه من الرحِّيق المختوم ممزوج به السَّلسبيل العذب ، كوب يشرقُ نورُه من صفاء جوهره ، يبدو الشراب من ورائِه برقَّته وحُمرته ، لم يصنعه آدمىٌّ فيقصِّر فى تسوية صنعته وتحسين صناعته ، فى كفِّ خادمٍ يحكى ضياءُ وجهِه الشمسَ فى إشراقها ، ولكن منْ أين للشمس حلاوةٌ مثل حلاوة صورته ، وحسن أصداغه ، وملاحة أحداقه .

ومهما أردتَ أن تعرف صفة الجنة فاقرأ القرآن ، فليس وراء بيان الله تعالى بيان ، واقرأ من قوله تعالى : (ولِمَنْ خافَ مقامَ رَبِّه جنَّتان) إلى آخر سورة الرحمن ، واقرأ سورة الواقعة وغيرها من السُّور .

صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها

تأمَّلْ فى صورة الجنَّة وتفكر فى غِبطة سكانها ، وفى حسرةِ من حُرِمَها لقناعته بالدُّنيا عوضاً عنها ؛ فقد قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ حائط الجنَّة لبِنةٌ من فِضَّة ولبنةٌ من ذهب ، ترابُها زعفران ، وطينها مسك » .

صفة طعام أهل الجنة

بيان طعام أهل الجنة مذكور فى القرآن ، من الفواكه والطيور السِّمان ، والمنِّ والسَّلوى ، والعسل واللبن ، وأصناف كثيرة لا تحصى .

قال الله تعالى : (كلما رُزِقُوا منها من ثَمرةٍ رزقاً قالوا هذا الذى رُزِقنا من قبل ، وأُتُوا به متشابهاً) .

وذكر الله تعالى شرابَ أهل الجنة فى مواضع كثيرة .

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : (ومِزَاجُهُ من تَسْنِيم) ، قال : يمزج لأصحاب اليمين ، ويشربه المقربون صِرْفاً .

وقال أبو الدرداء رضى الله عنه فى قوله تعالى : (خِتَامُهُ مِسْكٌ) ، قال : هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم ، لو أنَّ رجلا من أهل الدنيا أدخل يدَه فيه ثم أخرجها لم يبقَ ذو روح إلاَّ وجدَ ريح طيبها .

قال الله تعالى : (للذين أحسنوا الحُسنَى وزيادةٌ) . وهذه الزيادة هى النظر إلى وجه الله تعالى ، وهى اللذَّة الكبرى التى يُنسى فيها نعيمُ أهل الجنة ، وقد شهد لها الكتاب والسنة على خلاف ما يعتقده أهل البدعة .

الرؤيا والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى

قال جرير بن عبد الله البَجَلى : كنَّا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمرَ ليلة البدر فقال : « إنكم تَرون ربَّكم كما تَرون هذا القمرَ لا تُضامُون فى رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تُغلَبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ، ثم قرأ : (وسَبِّح بحمدِ ربِّكَ قبلَ طلوع الشمس وقبل غروبها) . وهو مُخرَجٌ فى الصحيحين .

وروى مسلم فى الصحيح عن صُهيب قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : (للذين أحسنُوا الحسنى وزيادة) ، قال : « إذا دخل أهلُ الجنة الجنةَ وأهلُ النارِ النارَ نادى منادٍ : يا أهلَ الجَنة ، إنَّ لكم عند الله موعداً يريد أن يُنْجِزَكموهُ . قالوا : ماهذا الموعد ؟ ألم يُثْقِلْ موازيننا ، ويبيِّض وجوهنا ، ويدخلْنا الجنة ويُجِرنا من النار » ؟

قال : « فيُرْفع الحِجاب وينظرون إلى وجه الله عز وجل ، فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إليه » .

وقد روى حديث الرؤْيا جماعةٌ من الصحابة . وهذه هى غاية الحسنى ونهاية النُّعمى .

نختم الكتاب بباب في سعة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤُل بذلك

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يحبُّ الفأْل . وليس لنا من الأَعمال ما نرجو به المغفرة . فنقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم فى التفاؤُل ، ونرجو أن يختم عاقبتنا بالخير فى الدنياوالآخرة، كما ختمْنا الكتاب بذكر رحمة الله تعالى . فقد قال تعالى : (إن الله لا يَغْفِرُ أن يُشْرَك به ويَغفِرُ ما دون ذلك لمن يشاءُ) ، وقال تعالى : (قُلْ ياعبادىَ الذين أَسْرَفُوا على أنفُسِهِمْ لا تقنَطُوا مِن رحمة الله إنَّ الله يغفِر الذُّنوبَ جميعاً إنَّه هو الغفورُ الرحيم) .

ونحن نستغفر الله تعالى من كلِّ ما زلَّت بِهِ القدم ، أَو طغَى به القلم، فى كتابنا هذا وفى سائر كتبنا ، ونستغفره من أقوالنا التى لا توافقها أعمالنا ، ونستغفره مما ادَّعيناه وأظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه ، ونستغفره من كلِّ علم وعمل قَصَدنا به وجهَهُ الكريمَ ثم خالطه غيره ، ونستغفره من كل وعدٍ وَعدناه من أنفسنا ثم قَصَّرنا فى الوفاء به ، ونستغفره من كل نعمةٍ أنعَمَ بها علينا فاستعملناها فى معصيته، ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصانِ ناقص ،وتقصير مُقَصِّر ، كنَّا متَّصفين به . ونستغفرُه من كل خَطرةٍ دَعتنا إلى تصنُّع وتكلُّف ، تَزَيُّناً للناس فى كتابٍ سطَّرناه ، أَو كلام نظمناه ، أو علم أفدناه أو استفدناه .

ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله، لنا ولمن طالع كتابنا هذا أو كَتَبهُ أو سَمِعه ، أن نُكرَمَ بالمغفرة والرحمة ، والتجاوز عن جميع السيئات ظاهراً وباطناً ، فإنَّ الكرم عميمٌ ، والرحمة واسعة ، والجودَ على أصناف الخلائق فائض .

ويروى أنَّ الله عزَّ وجلَّ قال لموسى عليه السلام : « ياموسى استغاث بك قارونُ فلم تُغِثْهُ ، وعزّتى وجلالى لو استغاث بى لأَغثتُه وعفوتُ عنه » .

وقال الصُّنابحى : دخلتُ على عُبادةَ بن الصامت وهو فى مرض الموت فبكيتُ فقال : مهلاً ، لِمَ تبكى ؟ فوالله ما مِن حديث سمعته مِن رسول الله صلى الله عليه وسلم لكم فيه خَيرٌ إلا حدَّثتكُمُوه ، إلاَّ حديثاً واحداً وسوف أُحدِّثكموه اليومَ وقد أُحيط بنفسى ، سمعت رسول الله عليه وسلم يقول : « مَن شَهد أنْ لا إله إلاَّ الله وأنَّ محمداً رسول الله حَرَّمَ الله عليه النار » .

وروى أنه وقف صَبىٌّ فى بعض المغازى يُنادَى عليه فيمن يَزِيد ، فى يوم صائِف شديد الحرِّ ، فبَصُرَتْ بِه امرأةٌ فى خباء القوم ، فأَقبلت تشتدّ وأقبل أصحابها خلفَها ، حتّى أخذت الصبيَّ وألصقته إلى صدرها ثم ألقت ظَهْرَها على البطحاء وجعلته على بَطْنها تقيه الحرَّ ، وقالت : ابنى ابنى ! فبكى الناس وتركوا ما هم فيه ، فأَقبل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حتّى وقف عليهم فأَخبروه الخبر ، فَسُرَّ ثم بشَّرهم فقال : « أعجبتم من رحمة هذه لابنها ؟ » قالوا : نَعم . قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله تباركَ وتعالى أَرحَمُ بكم جميعاً من هذِهِ بابنها » . فتفرَّقَ المسلمون على أفضل السُّرور وأعظم البشارة .

فهذِهِ الأَحاديثُ وما أوردنا فى كتاب الرجاء ، يبشرنا بِسَعَة رحمة الله تعالى . فنرجو من الله تعالى أن لا يعاملنا بما نستحقُّه ، ويتفضَّل علينا بما هو بمنِّه ، وسَعة جودِهِ ورحمته ؟

« تم تهذيب إحياء علوم الدين . والحمد لله على ما أنعم »

فهـــرس
الجزء الثانى

(ربع المهلكات)

٥ ــ كتاب ذم الغضب والحسد والحقد

٦ ــ كتاب ذم الدنيا :

٤ – كتاب الفقر والزهد :

٥ – كتاب التوحيد والتوكل :

٦ – كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا :

٧ – كتاب النية والإخلاص والصدق :

٨ – كتاب المراقبة والمحاسبة :

الفهَـارسُ الفنـّية

١ – فهرس الأعلام (*)

(*) يشمل أعلام الأشخاص والطوائف والقبائل والأشياء . وما وضع بين قوسين فهو تكملة موضحة للعلم بعد التحقيق .

ض

ط

ع

غ

ف

ق

ك

٢ ـ فهرس البلدان والمواضع ونحوها

٣ ـ فهرس الأشعار

٤ ـ فهرس الألفاظ المفسرة(*)

(*) قصد بهذا الفهرس الاستعانة فى الاهتداء إلى مواضع النصوص ، كما قصد به تسجيل بعض كلمات الحضارة والعلم فى عصر التنزيل .

٥ ــ فهرس الأبحاث

ض

ط

ظ

ع

غ

